

مُذَكَّرَات
بَابِلُونِيْرُودَا

أَعْرَفُ بَأَنْبِيَا تَدْعِيْشْتُ

تَرْجَمَةٌ وَشَرْحٌ
الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ صَبِيْحِ

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكازلتون - ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ - رقبياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

مذكرات بابلو نيرودا

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٧٨

ملاحظات حول هذه المذكرات

١ - ان عنوان هذه المذكرات بالاسبانية هو : بابلو نيرودا ، اعترف بانني قد
عشت ، مذكرات» . (Pablo Neruda, CONFIESO QUE HE
VIVIDO, Memorias

٢ - لقد تم طبع هذا الكتاب في برشلونة بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) من
عام ١٩٧٤ ، اي بعد مضي ستة اشهر على وفاة الشاعر ، كما جاء في
الصفحة الاخيرة من الكتاب بالنص .

٣ - ان عدد صفحات الكتاب في نصه الاصيل هو (٥١٥) صفحة من الحجم
المتوسط وبحرف متوسط وبورق عادي .

٤ - لقد شرعنا في ترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر ايار (مايو) من عام
صدور الكتاب ، وقد اقتنينا اول نسخة بيعت في مدريد .

٥ - لقد قمنا بتعريبها على مرحلتين ؛ الاولى : ترجمة حرفية اسنفرقت
ثلاثة اشهر ، والثانية : تعريب مع المحافظة على النص الاصيل وذلك

بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة فجملة ومراجعة النص
الاصلي في الوقت نفسه ، وقد استفرقت هذه المرحلة اربعة اشهر .

- ٦ - وضعنا بعد ذلك الترويح الضرورية ، وهذه الشروح هي :
 - ١ - عرفنا بأسماء الاعلام الواردة في الكتاب ، وذلك بالعودة الى كتب النراجم والموسوعات وغير ذلك .
 - ب - عرفنا ببعض أسماء الاماكن .
 - ج - اشرنا الى الكلمات التي أصلها عربي ، وهي كثيرة في اللغة الاسبانية .
 - د - حافظنا على التعبيرات والامثال الاسبانية كي نزيد لفتنا العربية غنى على غناها ، ولكننا اشرنا الى ذلك ، وفي اكثر الاحيان وضعنا ما يقابل او يماثل كل واحد منها في اللغة العربية .
 - هـ - شرحنا الكلمات التي لم نجد لها تعريبا ، مثل أسماء بعض الاشجار والازهار والاطيار والحيوانات وغير ذلك .
 - و - فسّرنا ما غمض أحيانا او ما كان تضمينا الخ .

٧ - لم نترجم ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات بلغات اخرى غير الاسبانية ، الا فيما ندر .

٨ - لم ننسح الكلمات العربية الصعبة التي اضطررنا أحيانا الى استعمالها الا فيما ندر ، وذلك لاعتقادنا أن هذا من عمل القارئ ولفائدته
- مع الاعتذار - .

٩ - حاولنا أن نحافظ على ما جاء في الكتاب من علامات ونقط وغير ذلك من علامات التعجب والاستفهام والفواصل والأقواس الخ ، كلما امكن ذلك . (ان جمل (نيرودا) فصره ، أحيانا ، وهو يضع كثيرا من النقط) .

١٠ - وضعنا أسماء الاعلام بين قوسين ، وبجانب كل اسم يذكر لأول مرة ، رسمه بالحروف اللاتينية ، تجنبنا للخطأ في النطق . فان تكرر الاسم لم نرسمه باللاتينية ، الا ما فاتنا . (وهذا بدل القارئ على أن الاسم كان قد ذكر من قبل وعرف به) .

١١- وضعنا أسماء الأماكن بين فواصل ، ووضعنا كل اسم مكان يذكر لأول مرة ، داخل فوسين بالحروف اللاتينية ، إلا ما اشتهر منها أو فاتنا في الحالين .

١٢- لقد حاولنا أن ننقل إلى القارئ العربي أسلوب (نيرودا) في هذا الكتاب ، فهو مختلف منباين ينراوح بين الأسلوب النقي العالي وبين الأسلوب المباشر العادي ، (يستعمل ضمير «أنا» ، متلا ، كثيرا جدا) .

١٣- فد يأخذ علينا القارئ أننا أسرفنا في أسلوبنا العربي ، أحيانا ، أو أجهعنا (متلا ، ذكرنا ضمير «أنا» بعد الاسم لا قبله ، فلم نقل ، على سبيل المثال : أنا والملك ، بل قلنا : الملك وأنا) فنرجو منه الصفح .

١٤- لم نسا أن نكتب مقدمة نبين فيها رأينا في هذه المذكرات وندحض بعض أفكار (نيرودا) الخاطئة ، (متلا ، رأيه في حرب العصابات ، نحامله على (ماوتسي تونغ) و(فيديل كاسترو) ، وغير ذلك من الآراء السياسية والأدبية التي نستدعي الرد والدحض) ، تجنبنا للاطالة ، فالكتاب كبير ضخم .

١٥- لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات إلى أن أنهيناها ، الحديث النبوي الشريف :
«أن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن ينقته» .
وبيت المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام
فنرجو من القارئ أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ،
بس أبي تمام :
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا .

د. محمود صبح

مدريد في ١٦-٢-١٩٧٥

الفصل الأول

الشاب القروي

الغابة التشيلية

..... تحت حمم البراكين ، ازاء القمم الثلجية العاصفة ، بين البحيرات الكبيرة ، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة الشدية تفوص الأقدام في اوراق التجر الميتة ، لقد خشخش غصن هتس ، ها هسي اشجار «الراولي» (١) الضخمة نشمخ بقاماتها المتفضنة ، ثمة عصفور يعبر من الدغل البارد ، يرفرف ، يتوقف بين غصون التجر الظليلة ، ثم من مخبئه يصقتر مثل مزمار صغير يسري عبر أنفى حتى مسارب روجي

١ - راولي (Rauli) : الكلمة من اصل «اراوكاني» (Araucano) وهي لغة قبيلة هندية كانت تسكن في احدى مناطق تشيلي ، اما «الراولي» فهو شجر عظيم ، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين مترا ، له ورق شاحب اللون ، متفضر ، تؤخذ الاخشاب من هذا الشجر للنساء وصنع الابواب والتوافد .

شذى الفار البري ، شذى شجيرة «البولدو» (٢) الداكن ... سرو المخافر يعرض خطوي ... انه لعالم شاقولي : أمة من العصافير ، حشد من الاوراق ... أتعثر بحجر ، أخدمش الوقبة المكتسوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمفني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان ... عقرب مدهب ينفت نحوي سمه المنبثق ، بينما يختمني فوسه القزحسى المتسع مثل برق خاطف ... حين امرّ أجناز غابة من شجر السرخس أكثر علواً من قامني : تدع ان يساقط عليّ ، فوق وجهي المرئب ، سون دمة نهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي نطل مراوحها ترتعد لمدة طويلة ... تمه جذع متأكلة : يا له من كنز ! ... نبات الفطر الاسود والاررق قد منحها آذانا ، نباتات طفيلية حمراء فد افعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى أعارها لحاها وينفجر ، سريعاً ، أفهوان يطلع من أحشائها المتأكلة ، كما انبثاق العجر ، كما لو أن الروح هربت من جذعها المينة ... وهناك بعيداً ، كل شجرة انتحت مكاناً قصياً مبعدة عن نظيرها ... نيمس فوق بساط الدغل الكتوم ، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء او مكتنزة او ورفاء او ملساء لها نمط مختلف وشكل آخر كما لو أن مقصداً ذا حركة مبدلة قد فصها ففصلها بعضها ليس كبعض ... نمه غدِير ، الماء التسفّاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأعبل واليشب ... بطير فراشة نقيه كتنقاوة الليمون ، تنراقص بين الماء والنور ... بحييني عن قرب الرياحين وهي ننحني لي برؤوسها الصغيره الصفراء ... وهناك في الاعالي ، مثل فطرات قفصت من الترايين ، تتماوج رهور «الكوبيهوية» (٢) الحمراء ... الاحمر منها هو زهر الدم ، والابيض منها هو زهر الثلج ... قد تنق السكون نعلب سريع فاهتزت الاوراق ، بيد أن السكون هو ناموس هذه الاوراق ... قلماً يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ ... رجع وخاز لعصفور مختبئ الإلما ...

٢ - بولدو (Boldo) : الكلمة من اصل «اراوكاني» ، وهو شجر صخ ، اوراقه دائمة الخضرة وازهاره بيضاء ، تؤكل ثماره ، تطبخ اوراقه العطرة لتعك بعد ذلك في سبيل شفاء امراض المعدة والكبد .

٢ - كوبيهويه (Copihue) : الكلمة من اصل «اراوكاني» ، وهو زهر جميل يشبه الليلك ، يستعمل للزينة .

فلما يوشوش عالم النبات الا قليلا قلبلا الى ان بهب زوبعة فتجسمل
موسبقى الدنيا كلها تتجاوب .

من لا يعرف الغابة النتييلية ، فهو لم يطا هذا الكوكب الارضي .

من تلك الاراضي ، من ذلك الطن ، من ذلك السكون ، خرجت أنا
لأسر ، لأغني عبر الكون .

طفولة وشعر

سوف اشرع في الكلام عن ايام طفولتي واعوامها قائلًا ، ان المطر كان لي
السخصية الوحيدة التي لا أنساها . مطر الفطب الجنوبي الغزير السذي
بهطل مثل شلال من قطب «بولو» (Polo) بنحدر من سماء «كابو دي
هورنوس» (٤) حتى سماء الثغر . في هذا الثغر ، او «فار وست» (٥)
بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للارض ، للشعر والمطر .

مع اني قد تجولت كثيرا فانه يبدو لي انه فد ضاع فن الامطار هذا
الذي كان يمارس وكانه موهبة متسلطة هائلة بارعة ، في ارضي ، ارض
«اراوكانيا» (Araucania) . كانت السماء تمطر خلال شهور بكاملها ،
أعوام بأسرها . كان المطر بندلي خيطانا كانها ابر طويلة من البلور يتكسر
على أسطح المنازل ، او انه يستحيل امواج شفاة تلمم النوافذ ، وكانت
كل دار كأنها سفينة لا نبلغ الميناء الا بشق الانفس والجهد الجهد في ذلك
المحيط الشتائي .

فلبس لمطر جنوب امريكا البارد هذا هبئات الرياح الهائجة التي تسف
المطر الساخن لافحا كأنه السياط نم يمضى واذ بالسماء زرقاء صافية .

٤ - كابو دي هورنوس : مناها ، رأس الافران ، وهو على ساحل تشيلي .

٥ - فار وويست: هي منطقة العرب الاقصى من الولايات المتحدة الامريكية .

مطر الجنوب على العكس من ذلك له صبر وناة فهو لا يفتأ يتساقط من السماء الرمادية اللون بلا حد ولا قيد .

تجاه داري ، الشارع أمسى بحرا هائلا من الوحول . ارى عبر النافذة ومن خلال المطر عربة قد اوحلت في وسط الشارع . وهناك فلاح ملتف بعباءة سوداء يسوط الشيران التي لم نعد تقوى على المضي بين المطر والوحل .

لقد كنا نوجه الى المدرسة عبر الدروب ، ننقل الخطى من حجر الى حجر ، معرضين للبرد والمطر . الرياح تتخاطف المظلات . الماطرات (البرشكوتات) كانت غالية جدا . ولم تكن تستهويني القفزات ، وكانت الاحذية نبتل بالماء . سوف اذكر دائما الجرابات المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيرا من الاحذية وهي تنفث بخارا يتفطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة . ثم تأتي الفياضانات ، الني كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش اكثر الناس فقرا ، الى النهر . كذلك كانت الارض تنهز راجفة . احيانا اخرى ، كانت تطل من سلسله الجبال قنزعة نور رهيب : البركان « يايما » (Llaima) كان يستيفظ .

ان «تيموكو» (Temuco) هي مدينة رائدة ، من هذه المدن التي لا ماض لها ولا براث ، غير ان لها دكاكين حدادة . بما أن الهنود لا يعرفون القراءة ، فان دكاكين الحدادة تتباهى بتعاراتها/ البارزه في التسوارع : منتسار ضخم ، قدر كبيره ، قفل فخم ، معرفه هائله . هناك بعيدا محصلات الاسكافية ، عليها جزمه عظيمة .

اذا كانت «تيموكو» هي السبّاقه الرائدة في الحياة التسيلية باراضي جنوب تسيلي ، فان هذا يعني تاريخا داميا طويلا .

اثناء زحف الفاتحين الاسبان ، بعد ثلاثمائة سنة من الكناح والنضال ، اضطرت قبائل (اراوكانو) الى التفهقر نحو تلك المناطق الباردة . لكن الشماليين واصلوا ما سمّي بـ «تهدئة أراوكانيا» ، اي ، مواصلة حرب بالدم والنار لانتزاع الاراضي من أبناء وطننا . ولقد استخدمت كل اصناف

الاسلحة بسخاء ضد الهنود : اطلاق نيران البنادق عليهم ، احراق اكواخهم ،
ومن بعد ، بطريقة اكثر ابوية ، استعمل القانون والخمر ، فالمحامي أصبح
اختصاصيا كذلك في اجلائهم عن اراضيهم ، والقاضي ادانهم حين
اعترضوا ، والكاهن هددهم بالنار الخالدة الدائمة . اخيرا ، ماء الحياة
(العرق) انجز تصفية جنس عريق عظيم ، من مآثره الشجاعة والجمال ، وهو
ما تركه محفورا في مقاطع شعرية من حديد ويشب ، السيد (الونسو دي
ارتيا) (٦) في ديوانه «أراوكانا» .

والداي هما من بلدة «بارال» (٧) ، حيث ولدت أنا . هناك ، فسي
وسط نتيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ . من غير أن اذكر ، دون أن
اعرف ان كنت نظرت اليها مرة بعيني ، ماتت أمي السيدة (روسا
باسالتو) . أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٠٤ .
بعد شهر ، في آب (أغسطس) ، هلكت أمي بمرض السل ، أمي لم تعد
توجد .

الحياة كانت قاسية بالنسبة لصفار المزارعين في وسط البلاد . لقد
كان لجدتي السيد (خوسه انخل ريبس (José Angel Reyes)
قليل من الأرض وكثير من البنين . لقد كانت أسماء أعمامي تدور لي وكأنها
اسماء أمراء من ممالك نائية قصية . فقد كانوا يسرر
(أموس) ، (اوسياس) ، (خويل) ، (ابادياس Abadias) .
والسدي كان اسمه بسيطا (خوسه ديل كارمن) .
أبي ملكيات أبيه وهو شاب صغير ليعمل في سدود ميناء «الكاهوانز» .
ثم أصبح عاملا في السكك الحديدية ب «تيموكو» .

كان سائق فطار صابورة . قلائل هم الذين يعرفون ما هو قطار
صابورة . في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضببان

-
- ٦ - الونسو دي ارتيا : شاعر اسباني (١٥٣٣ - ١٥٩٤) .
٧ - بارال (Parral) : معناها ، العرائش او الدوالي .
٨ - يقال ان اسرة (نيرودا) كانت يهودية ثم تنصرت .

الحديدية ان لم يكن قد وضعت لها حصوات وحجيرات بين الروافد .
ولذلك فانه يجب ان تستخرج الصابورة من المقالع في قفف ثم يقلب الحجر
الصغير الى العربات المستوية السطوح في الفطار . قبل اربعين سنة كان
سائقو قطار من هذا النوع يجب ان يكونوا فطاحل أشداء . أما أجور
التركة فقد كانت بائسة جدا ، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل
في القطارات الصابورية ان يبرروا شهادة بلا سوابق (لا حكم عليه) . والذي
كان يسوق القطار : ليس الا . لكنه كان قد تعود على الامر والطاعة فهو
أحيانا نامر وأحيانا بطيع . ولطالما اخذني معه . كان الرجال هناك يقتلمون
الاحجار في منطقة «بوروا» التي هي القلب البري للغير والتي كانت مسرحا
للمعارك الرهيبة بين الاسبان والارواكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني نوعا من النشوة وتبعث فيّ شيئا من
السالة . لئس ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل .
وكم كان صعبا العتور عليها خبيثة بين الفجاج والتشقوق ، غامقة اللسون
براقة الحيا والبثرة ، لونها كان شبيها بلون ماسورة البندقية . ولئس ما
كنت أعجب بكمال الحشرات ودفة ابداعها . كنت التقط «أمات الحنش» .
بهذا الاسم الغريب كان ينسار الى كبرى الحشرات من صنف مغممسات
الاجنحة . سوداء الحيلة ، سقيمة البدن ، لئاعة المظهر ، متينة الاضلاع ،
قوية الهمة . عملاقة الحشرات في تشيلي . لقد كانت رؤيتها بغنة تقشعر
لها الابدان ، رابضة في أحضان جدوع شجر «الماكي» (٩) والتفاح البري
و«الكوبهوية» ، لكنني كنت أدري انها جد قوية ومتينة ، فلو دسست عليها
ناقدامي لن تنهشم . وهي في صلابتها الدفاعية العظيمة ما كانت لنتحاج
لسلاح السم .

ان اسكسافاني هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشقيقة .
وسرعان ما اخذوا بولون اهتماما بهذه المكتشفات . فما ان يسهي والذي او
يلتهى حتى ينطلقوا الى الغابة البكر ، وكانوا يمشرون لى على كنوز غريبة

٩ - ماكي (Maqui) : الكلمة من اصل « اراوكاني » ، وهو شجر يبلغ علوه
ثلاثة امتار ، له سمر حلو الطعم .

عجيبة ، طبعا ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب .
من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه (مونخه) ، كان والدي يقول عنه
انه ضارب سكاكين خطير . وكان له في وجهه الاسمر خطسان كبيران ،
احدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خددتها في خده حد سكين والخط
الآخر كان مرسم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف ، مفعمة باللطافة والمكر
معا . (مونخه) هذا كان يجلب لي زهور شجر «الكوبيهوية» البيضاء، عنكب
كتيفة الشعر ، افراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو
اكثر خلبا للابصار ، أحضر لي جعل شجر «الكوبيهويه» والقمر . لست
أدري ان كنتم قد رأبتموه ذات مرة ، فأنا لم اره الا في تلك المرة . كان
برقا يرتدي قوس قزح . لقد كانت الوان ذيله وقشرته تخب الابصار
بالاحمر والبنفسجي والاخضر والاصفر . ثم فر من بين يدي حين لم يكن
معي (مونخه) لكي يعود فيلتقطه لي . ما استطعت قط أن أبرأ من تلك
المشاهدة الخلاّبة ولا نسيت ابدا ذلك الصديق . لقد قص عليّ ابي حكاية
مونه ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجا في بادىء الامر ، فتوقف
القطار ، لكن ، كما كان يروي لي ابي ، ما عثروا الا على جنة هامة وكيس
من العظام .

انه لمن الصعوبة بمكان اعطاء فكرة دقيقة عن دار مثل دارنا . فقد كانت
دارا تقليدية كأغلب دور الثغر قبل ستين سنة .

اولا ، المساكن العائلية كانت تنحاذى ، بعضها كان يصل ببعض .
هناك في عمق كل فناء كان يسكن آل (رييس) ، آل
(اورتيغا) ، آل (كانديا) ، آل (ماسون) . وكانت هذه
العائلات تتبادل الادوات او الكنب او الحلويات في مناسبات اعياد الميلاد .
او المراهم للدك ، او المظلات او الطاولات والكراسي .

هذه الدور الرائدة كانت تغطي حاجات شعب بكامله وتلبي فعالياته .

كان زعيم آل (ماسون) هو السيد (كارلوس Carlos) ، وكان ذا

شعر ابيض كثيف مسترسل يتسبه (اميرسون) (١٠)، وقد قدم من امريكا الشمالية. وقد كان ابناؤه اصيلىن فى انتسابهم الى طائفة «كرويوس» (١١) Crillos . وكان له كتابه المقدس ولهنواميس يسير عليها ويطبقتها. لم يكن امبراليا ، بل كان مؤبسا اصليا . فى هذه الاسرة لم يكن احد يملك شيئا من المال ومع ذلك فقد كانت تنمو لها مطابع وفنادق ومحلات بيع اللحوم . بضعة من ابنائه كانوا مديري صحف وآخرون كانوا عمالا فى المطبعة نفسها . كل شيء كان يمضى مع مضى الزمن وكل الناس كانوا يظنون فقراء كما كانوا عليه من قبل . الالمان فقط كانوا يواصلون حديثهم الفاض عن حده ، عن ممتلكاتهم وثوراتهم ، وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من سكان الثغر .

فدورنا كان لها شيء من حفل او بعض من مرآب ، تعلن عن نفسها ؛ بما ان يدخل المرء حتى يرى براميل وأدوات ومطايا وحاجات صعبة الوصف .

كانت الغرف تمكث دائما من غير اتمام وانتهاء ، والسلاالم او الادراج غير مكتملة البناء، ودائما كانوا يتحدثون عن ضرورة مواصلة التعمير والبناء، تم شرع الآباء يفكرون فى ضرورة ادخال ابنائهم الى الجامعات .

فى دار السيد (كارلوس ماسون) كانت تجري الاحتفالات الكبرى فى مناسبات الاعياد .

فى كل وليمة كان يدعو اليها ، كان ثمة اوزة مع كرفس ، خرفسان مشوية على السفود وحليب مخثر مثلج فى نهاية الاكل . منذ كثير من السنوات لم اذوق طعم الحليب المخثر الثلج . رب العائلة ذو الشعر الكثيف المسترسل الابيض كان يحلس فى رأس المائدة غير المتناهية ، وإزاه

١٠ - اميرسون : شاعر وكاتب من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٣ - ١٨٨٢) .

١١ - كرويوس : هو من كان امريكا من اصل اوروبى ، و (S) هو حرف الجمع فى اللغة الاسبانية .

زوجته السيدة (ميكائيل كانديا) . خلفه كان يوجد علم تشيلي كبير وقد
ألصق عليه بدبوس راية أمريكا الشمالية ولكن بحجم صغير جدا ، هذا كان
ايضا يمثل نسبة حصة الدم ، فنجمة علم تشيلي الوحيدة كانت تسود
وتطفي .

في دار آل (ماسون) هذه كان ثمة قاعة اخرى كذلك ، لم يكن يسمح
لنا نحن الصغار بالدخول اليها ، ما عرفت ابدا لون ائانها حين كنت ألج
اليها لأن هذا الاثاث كان مغطى بأغطية بيضاء تمنع عنها الترسخ والتلف الى
أن هبت النار يوما فابتلعت الاثاث وأغطيته . كان في هذه القاعة مجمع
(البوم) صور للأسرة . وكانت هذه الصور اكثر رقة وروعة من صور
التكبيرات الفظيعة التي اجتاحت الثغر فيما بعد .

في هذه القاعة كان معلقا رسم أمي داخل اطار ، كانت سيدة ترتدي
ثوبا أسود ، نحيلة متأملة . لقد قالوا لي انها كانت تكتب الأشعار ، غير اني
ما شاهدت هذه الأشعار ابدا ، لم أر الا ذلك الرسم البديع .

تزوج والسدي للمرة الثانية بالسيدة (ترينداد كانديا
ماربيرده) ، ففدت بهذا خالتي زوجة أبي . يبدو لي شيئا
مستحيلا قبيحا ان يطلق هذا الاسم على الملاك الذي كفل طفولتي
وحدب عليها . لقد كانت امرأة نشيطة عذبة ، كان لها روح الدعابة الريفية
وكان لها طيبة حيوية متجددة فياضة .

فما ان كان يدلف والدي الى الدار حتى تستحيل الى طيف عذب وظل
خفيف ليس الا ، كجميع نساء ذلك الزمن وذاك المكان .

في بهو دارنا رأيت رقصات «مانوركا» (١٢) و «كوادريا» (١٣) تبعث

١٢ - مانوركا : الكلمة من اصل بولوني ، وهي رقصة بطيئة الحركات ، تعبر عن الود
والمحبة .

١٣ - كوادريا : هي رقصة جماعية ، تعبر عن التآلف والاتسجام .

الفرح والطرب .

كان في دارنا كذلك صندوق يحتوي على اغراض واشياء ساحرة فائنة . وفي أسفله كان يلتمع قفص رائع . ذات يوم ، بينما كانت «أمي» تعيد تنظيم تلك السفينة المقدسة ، وقعت على رأسي في جوف الصندوق لابلغ ذاك القفص . لكن مع نمو عمري وجسمي كنت أفتحه سرا لانظر ما فيه ، كانت فيه مراوح نسائية ثمينة جدا لم تمس قط .

احتفظ بذكرى اخرى عن ذاك الصندوق . اول رواية غرامية اثرت بي وهي عبارة عن بطاقات بريدية مرسله من شخص ما ، بتوقيع ، لم أعد أذكر ، اهو (الريكه) أم (البرتو) ، وكانت جميعها مرسله الى (ماريا ثيلمان)، وكانت هذه البطاقات رائعة حقا ، فهي صور لممثلات شهيرات في ذلك الوقت مطلية ببرنيق وكانت ما تزال في رونقها غير متلفة ولا ممحوه وأحيانا كانت ملتصقة عليها خصلات شعر . كذلك كان في هذه البطاقات صور قلاع ومدن ومناظر طبيعية غير مألوفة . خلال عدة سنوات كنت اتمتع برؤية الصور فقط ، غير اني ما أن كبرت قلبا حتى اخذت أتلذذ بقراءة تلك الرسائل الغرامية المسطره بخط جميل متقن . وكنت دائما اتخيل ذلك العاشق انه رجل بقبعة سوداء وعكاز ، وبالماس في ربطة عنقه ، بيد ان تلك السطور خطتها يد عاشق ولله ، ومداد عاطفة جيشاشة اخاذة . لقد أرسلها مسافر من جميع انحاء العالم . كانت مدبجة بعبارات ساحرة باهرة أملتها جراءة عشق واندفاع هوى . شعرت اني قد بدأت أعشق أنا كذلك (ماريا) ثيلمان) . لقد كنت أتصورها ممثلة أنوفا متوجة بالدر والجوهر . لكن كيف وصلت هذه الرسائل الى صندوق أمي ؟ ما استطعت أن أعرف ذلك قط .

ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل الى «تيموكو» . في هذا العام الذي أذكره دائما دخلت الى المدرسة . كانت عبارة عن دارة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة وسرادب تحت الارض معنمة . وهناك من علو المدرسة كان يلمح ، في الربيع ، نهر «كاوتين» المنعطف اللذيذ وهو يصافح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية .

كنا نهرب من الدروس لكي نغطس أرجلنا في الماء الفرات الذي ينزرق فوق الاحجار الصقيلة البيضاء .

لكن المدرسة كانت حقلا لمجالات عديدة بالنسبة لاعوامي الستة . فكل شيء كان له احتمال المجهول . مخبر الفيزياء الذي ما تركوني ادخله ابدا ، كان مليئا بادوات باهرة ، بانابيب معوجّة ، بأوان كثيرة . المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة ابوابها . ما كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم . بيد أن القبو أكثر الاماكن سحرا وروعة . ففيه كان يخيم السكون وتسدود العتمة ، وهناك كنا على ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الاسرى بالاعمدة العتيقة . ما زلت حتى الان أشتتم رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة «تيموكو» .

كنت آخذ بالنموّ جسما وعقلا ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت نجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة (بوفالو بيل Buffalo Bill (١٤) وفي رحلات (سالغاري Salgari (١٥) . اما أوائل الحب النقية جدا فقد كانت تفيض في رسائل موجهة الى (بلانكا وبلسون) . وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة التمهير ، وبناء على طلب احد الفتيان النائمين في حبها كنت اكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية اليها . لم اعد اذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما انها باكورة اعمالى الادبية ، اذ انه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما اذا كنت أنا هو من كان بصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجروّ على انكار اعمالى الادبية ، وبتلكؤ أجبتها ان اجل . اذالك ناولتني سفرجلة لم أشأ ان أقضمها فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين ، وهكذا ، وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة انر سفرجلة .

١٤ - بوفالو بيل : هو ممثل من الولايات المتحدة كان «بطالا» من أبطال العرب الامريكى
في الافلام ، يسلى الاطفال ويثير حماسهم (١٨٤٦ - ١٩١٧) .
١٥ - سالغارى : كاتب ايطالى (١٨٦٣ - ١٩١١) .

ما كان صبيان المدرسة يعرفون اني شاعر ، وان عرفوا ما كانوا
يقدرّون لي هذه الموهبة . لقد كان للشعر هذا الطابع الرائع طابع «فار
ويست» الخالي من الاوهام والهواجس . القاب زملائي كانت على النحو
التالي : (شناكس) ، (شيلير) ، (هاوسيرس) ، (سميت) ، (تايتوس) ،
(سرايس). وكانت القاب عائلتنا متشابهة فهي: (ارائناس) ، (راميرث)،
(ريبس) . لم يكن هناك القاب «بسكوية» . كان ثمة القاب «سيفارديّة» :
(البلاس) ، (فرانكي) . كانت هناك القاب ايرلاندية : (ميسك فينتيس) ،
بولونية : (يانيشويكيس) . كانت تشعّ نورا غامقا الاقاب الاراوكابية ،
وهي تفوح برائحة الخشب والماء : (ميلييلوس) ، (كاتريوس) .

كنا نتراشق ، احيانا ، في البهو المغلق ببلوطات (١٦) . لا احد ، ما لم
يكن قد تلقى ضرباته ، يعرف كم هو موجع البلوط حين يصيب جسم المرء
او راسه . قبل الوصول الى المدرسة ، كنا نملاً جيوبنا بالاسلحة والدخائر،
اما انا فقد كانت لي قدرة ضئيلة ، اقدف من غير حول ولا قوة ، اصوّب
بقليل من البراعة والدهاء . بينما كنت اتلهى بتأمل البلوطة الرائعة الشكل
كانت تتوالى عليّ اخواتها فيصيبني منها اسوا قسط ولكن اكثره واوجعه .
كم هي جميلة البلوطة ، خضراء رشيقة ، بقلنسونها الخشنة الرمادية ،
اناء ما كنت احاول ، بغبابة و فلة دراية ، ان اصنع منها غليوناً من هذه
الفليونات التي كان يصنعها رفاقي ، كانوا يتخاطفونها مني ، بعد ان ينصبّ
فوق رأسي طوفان من زخات البلوط ووخزاته .

خطر لي ، حين كنت في السنة الثانية من المدرسة الابتدائية ، ان
أضع على رأسي قبة غير نافذة للماء ، ذات لون احمر فاقع ، وكانت هذه
القبة لوالدي ، بما ان دنارها القشتالي (١٧) وسهامها ذات الشارات
الخضراء والحمراء كانت تسحرني وتدهشني ، فقد كنت أضعها ، كلما

١٦ - بلوطات : هكذا في الاصل Bellotas عن العربية

١٧ - القشتالي : نسبة الى «قشتالة» Castilla وهي المنطقة الوسطى في اسبانيا .

استطعت ذلك ، وأمضي بها الى المدرسة مختالا مزهواً . ذات مرة كانت السماء تمطر بلا هواده ولا رحمة ، اذن ، فليس هناك افضل من هذه الفبعة ذات المسمع الاخضر التي كانت تبدو وكأنها ببغاء ، وما ان ولجت البهو الذي كان يتراكم فيه حوالي ثلاثمائة من اللصوص وقطاع الطرق، حتى طارت فبعثتني كما يطير ببغاء . وكلما كنت أتبعها وأوشك ان اصطادها، كانت تعود فتطير من جديد بين الشباح والعواء والمواء مما كان يخز نفسي سمعي ويصمّ أذني ، في حياتي كلها ما سمعت قط مثل هذه الجلبة ومثل هذا الضجيج ، أما الفبعة ففقدت طارت الى الأبد .

لست أرى جيداً في هذه المذكرات تتابع الزمن وتسلسل الحوادث بدقة ونظام . تتشابه في مخيلتي وتتراكم أحداث كثيرة كانت ذات أهمية بالنسبة لي ويبدو لي أن هذه الحادثة المترجعة في شكل غريب بالتاريخ الطبيعي هي أولى مغامراتي الهزلية . ربما كان الحب والطبيعة منذ مطلع حياتي هما فلزات شعري .

مقابل دارنا كانت فتاتان تفيمان هناك ، على الدوام وباستمرار كانتا ترميان بنظرات تبعث في نفسي الحياء والخجل . بقدر ما كنت أنا وجلا خجلاً ، صامتا ساكناً ، كانتا هما يافعتين قبل الموسم والأوان ، ماكرتين شيطانتين . في إحدى المرات ، بينما كنت واقفاً على باب دارنا وأنا أحاول ألا أنظر إليهما ، لمحت بين أيديهما شيئاً خلبني فخلبني ، فدنوت منهما بحيلة واحتياط فأرتاني عش عصفور بري ، منسوجاً من الطحلب والرئيسيات . يكنّ في داخله ببيضات صغيرة رائعة ذات لون فيروزي . حين هممت لأخذه ، قالت لي واحدة منهما انه بادئ ذي بدء لا بد من أن بجسّائي ويتحسّساني تحت سروالي فارتعدت هلعاً واقفلت مسرعاً ، تطاردني الفتاتان البكران اللتان كانتا تلوّحان بالكنز المشير ، اثناء عملية المطاردة دلفت في زقاق باتجاه محل خاو كان مخبئاً يمتلكه والدي ، وهناك أدركتني المعتديتان وطفقتا تنزعان عني سروالي وملبسي ، وما أن همّتا بي حتى سمعت في المشى خطوات أبي ، اذّك تهشّم العش وانفقصت ببيضاته البديعات الرائعات في ذلك المخبز المهجور ، بينما كنا نحن المعتدي عليه والمعتديتان ، نكتم أنفاسنا تحت المنضدة .

أذكر كذلك انه ، ذات مرة بينما كنت أفتش عن حاجات عالمي الصغيرة

وحبوانانه الضئيلة في فناء دارنا ، عثرت على فجوة في السياج الخشبي ، نظرت من خلال الفجوة فرأيت حوسا شبيها بحوش دارنا ، أرضا بسورا ودرسة خلاء ، راجعت بنسمة خطوات لانه نولد لدي احساس غامض مبهم بانني على وشك ان ادوس شيئا ما ، وبغثة ظهرت يد صغيرة ، انها يد طفل في سنني ، لما اقتربت من جدد لم اعثر على يد الطفل بل على حمل صغير ابيض اللون ضئيل الحجم .

كان حملا ذا صوف قليل باهت اللون ، قد فرت منه العجلات التي كان يدحرج عليها ، ما رأيت طيلة حياتي حملا في رشاقة ذلك الحمل جماله ، ذهبت الى بيتنا لأعود له بهدية وضعتها في المكان ذاته ! كوزا من الصنوبر ، نصف مفلوق ، ذا شدى ، بلسميا ، وكنت انا اعبده واتعشقه .

ابدا من بعد ، ما عدت فرأيت يد الطفل ، ما شاهدت قط حملا مثل ذلك الحمل . لقد فقدت الحمل في حريق اختطفه مني ، وما زلت حتى الآن على كبر عمري ، حين أمرت بحمل للعب الاطفال ، انظر خلسة الى الواجبات الزجاجية ، علني اعثر عليه ، لكنني عبثا ابحت ، فلقد عجزت المصانع ان تاتي بحمل كمثل ذلك الحمل .

الفن والمطر

مثلما كان يحل البرد والمطر ووحل الدروب ، اي شتاء جنوب امريكا المستهتر المدمر ، كان كذلك يكتسح هذه المناطق الصيف الاصفر اللافح . كانت تحيط بنا الجبال البكر ، غير اني كنت في شوق عارم لرؤية البحر والتعرف عليه . لحسن حظي استطاع ابي ذو النية الطيبة ان يحصل على دار اعاره اياها احد عرّابيه العديدين في السكة الحديدية . في الساعة الرابعة ليلا (ما استطعت حتى الآن ان اعرف لماذا يقال الساعة الرابعة صباحا) ، وفي جو يسوده الضباب الكثيف ، ايقظ والسدي ، السائق ، جميع من في الدار بصقّارته ، صفّارة سائق . منذ هذه اللحظة ما عاد ثمة سلام وهدوء ، ولا حتى ضوء ، وعلى لهب الشموع الذي كان يترنح ويدبل كلما تسلتت من جميع الجهات هبّات الرياح ، كانت تلوب امي ،

اخني (لاورا) ، اخي (رودولفو) ، الطاهية ، يتراوحون من مكان الى آخر ، ويطوون الفرش الكبيرة فتغدو مثل كرات ضخمة ، ويلفونها بأقمشة مسن القنب الهندي ، وكان لا بد من شحن الاسرة في الفطار ، حين انطلقنا الى المحطة القريبة كانت الفرش لما تزل ساخنة دافئة . اما انا ، الممرض والمحوم بطبيعتي ، فكنت أشعر بالغثيان والقشعريرة وقد ففرت من عز نومي ، بينما كانت التحركات في الدار تتابع من غير هوادة وبلا انتهاء . ما بقي شيء لم يحمل في سبيل هذا الشهر ، شهر عطلة الفقراء ، حتى الجففات المصنوعة من الصفصاف والتي كانت توضع فوق المجامر المتوقدة حتى تسخن ثم تجفف بها الترشاف والملابس التي كانت تغدو بليلة دائما بسبب رطوبة الطقس ، قد رفعت فحسرت في العربة التي كانت تنتظر الطرود والحزم .

كان الفطار يجتاز جزءاً من تلك الناحية الباردة ، من «تيموكو» حتى «كاراهوه» . كان يعبر مساحات واسعة غير أهلة لا بالبشر ولا بالزرع . كان ينسرب عبر الغابات البكر ، كان يرنج كأنه هزة أرضية وهو يخترق الانفاق والقناطر . كانت المحطات تبدو منعزلة في وسط الحقول بين الاشجار الشدية وأشجار التفاح المزهرة . كان الهنود «الاراوكانوس» بأزيائهم الطقوسية وبهيينهم العريقة ينتظرون في المحطات لكي يبيعوا للمسافرين خرافا ، دجاجا ، بيضا ، منسوجات . وكان والذي بعد الكثير من المفاصلة والمحاكة بشنري شيئا منهم . وكم كان جميلا أن يرى وهو يتسيل دجاجة حتى مهوى لحيه الصغيرة الشقراء ، في وجه امرأة «اراوكانية» جلقة عنيدة لا تخفض ثمن بضاعتها ولا بنصف فلس .

كان لكل محطة اسم جد بديع ، هذه الاسماء جميعها تقريبا كانت تراثا ينحدر من منازل «الاراوكانوس» القديمة . وهذه المنطقة كانت مجسلا للمعارك الطاحنة بين الغزاة الاسبان وأوائل التشيليين ، أولئك الذين كانوا أبناء هذه الارض عن أصالة وصدق محتد .

«لابرانثا» كانت اولى هذه المحطات ، ثم تتوالى محطة «بوروا» فمحطة «رانكيلكو» . أسماء ذات شدى كشدى النباتات البرية، كانت تأسرنى بنبرات مقاطعها ، فهذه الاسماء «الاراوكانية» كانت تنبئ دائما عن شيء لذيذ :

شهد خبيء ، بحيرة او نهر ازاء غابة ، جبل بلقب عصفور . كنا نجتاز «امبريال» الضيعة (١٨) الصغيرة فذكرت انه هنا اعدم الحاكم الاسبانسي الشاعر السيد (الونسو دي ارثيا) . فلقد كانت هنا عاصمة الغزاة الفاتحين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فاخترع «الارواكايون» تكتيك الارض المحروقة ، فلم يدعوا حجرا على حجر في هذه المدينة التي وصفها (ارثيا) بالجمال والجلال .

لقد آن الوصول الى المدينة النهرية، فالقطار كان يطلق اكثر صفاراته فرحا وكان يغطي الحقول والمحطة بدياجير من خصلات الدخان الفحمسي المنسدلة ، فشرعت الاجراس تدق وبدانا نتنسم عطر المجرى المديد لنهر «امبريال» السماوي الهاديء عند اقترابه من مصبه في المحيط . انزال الطرود والحزم العديدة ، ترتيب الاسرة الصغيرة ، اركابها والاحزمة في عربة تجرها الثيران حتى نتوجه نحو المركب الذي سيهبط عبر نهر «امبريال» ، كل ذلك كان عملية يقودها والدي ويوجهها بعينيه الزرقاوين وبصغيره الفطاري . انحشرنا نحن والحزم في البويخرة التي كانت ستقلنا الى البحر . لم يكن ثمة غرف في البويخرة ، ولذا فاني قعدت قسرب قيدومها . كانت العجلات تحرك بريش مراوحها التيار النهرى ، وكانت آلات السفينة الصغيرة تلهث وتسهل ، وكان اناس الجنوب المطرقون يمشون بلا حراك منتشرين على ظهر المركب .

كان ثمة اكورديون يرسل نغمات اساه الرومانطيكية ، يبعث شكواه الى الحبيب . ليس من شيء يجتاح قلبا ذا خمسة عشر عاما كمثلى ابغار عبر نهر عريض مجهول بين ضفاف جبلية باتجاه البحر الطلسم .

ان «باخو امبريال» (١٩) Bajo Imperial كان عبارة عن صف من المنازل ذات ستوف ملونة تقوم على جبهة النهر . من الدار التي نزلناها بله

١٨ - الضيعة : هكذا فى الاصل Aldea عن العربية

١٩ - باخو : معناها ، تحت ، فالبدة اسمها اذن : امبريال التختانية .

من الارصفة المتشققة حيث رسا المركب ، اخذت انصت ، من على بعد ، الى الرعد البحري، الى هيجان قصي . لقد كان التموج يتسرب الى اعماق وجودي .

كانت هذه الدار التي نزلناها ملكا للسيد (اورايسو باتشيكيو) ، كان مزارعا جبارا فذاً ، كان خلال هذا الشهر الذي احتلنا فيه داره ، يمضي عبر التلال والدروب الوعرة الصعبة بعمرته وآلته الدارسة ، وكان بألة أخرى يحصد القمح للهنود الحمر ولبعض الفلاحين النائين عن سكان الساحل . كان رجلا ضخما ، على حين غرة وبدون سابق انذار او اخبار كان يفتح الدار ويفجأ اسرتي السكك حديدية ويتكلم بصوت جهوري وبجسم مغطى بالفبار وتبن الحبوب ، ثم بالجلبة ذاتها وبالسرعة نفسها يعود الى أعماله في الجبال ، وكان بالنسبة لسي نموذج آخر لهذه الحيوانات الصعبة القاسية في منطقتي الجنوبية .

كان كل شيء يبدو لي غريبا غامضا ، الدار نفسها ، الشوارع المتشققة ، الكائنات المجهولة التي تحيط بي ، النغم العميق للبحر المديد السعيد . كانت للدار ، كما بدا لي ، حديقة فسيحة غير منظمة ولا معتنى بها . وفي وسطها ، فسحة كانت قد اُتلفتها الامطار ، وكانت هذه الفسحة مصنوعة من أخشاب بيضاء تغطيها بعض النباتات . وما من احد غير شخصيتي التي لا أهمية لها ، كان ياوي الى هذه الوحدة الظليلة حيث تنمو اشجار اللبلاب وزهور العسل وشعري . على فكرة ، كان في تلك الحديقة الفريبة شيء آخر يخلب الالباب ويشير المشاعر : زورق كبير ، غدا يتيما بعد أن غرقت أمه السفينة ، كان هناك في الحديقة يرقد بلا أمواج هائلة ، ساكنا بين شقائق النعمان .

ما هو غريب ايضا في تلك الحديقة البرية هو انه ، سواء اكان ذلك عن تصميم او عن غير تصميم ، ما كان يوجد من النبات الا شقائق النعمان، أما النباتات الاخرى فقد انسحبت من ذلك المكان الظليل . وكانت شقائق النعمان على أنماط وألوان مختلفة ، منها ما هو كبير ابيض كالحمامة ، منها ما هو قرمزي كقطرات الدماء ، منها ما هو بنفسجي وأسود كالارملسة

المنسية . ما كنت شاهدت من قبل مثل هذه الكثرة من زهور شقائق
النعمان ، وأبدا من بعد، ما عدت فرايت مثلها كثرة وتنوعا . مع اني كنت
انظر اليها بكثير من الاحترام والاجلال ، وبشيء من الخوف الخرافي الذي
لا تبثه الاّها من بين اصناف الزهور كلها ، فاني من حين الى حين كنت
اقطف واحدة منها فتترك ساقها المهشمة في يدي حليبا خشن اللبس ،
ورشة من الشدى الدفين ، ثم اداعبها وأدغغها ثم احتفظ بها في كتاب
بأوراق حريرية فاخرة . لقد كانت هذه الشقائق بالنسبة لي فراشات
كبيرة لا تحسن القفز ولا تعرف الطيران .

حين مضيت الى المحيط لأول مرة وبقية وحيدا أمامه ، شعرت
بالهلع والذهول . ومن هناك ، بين ربوتين كبيرتين ربوة «ال هويلكه» وربوة
«ال ماوله» ، كان يصطخب غضب البحر ، ليس غضب الامواج الهائلة
الهاوية التي تملو عدة امتار فوق رؤوسنا فحسب ، بل كذلك كان دوي قلب
جم ، وجيب كون وخفقان يم .

هناك على شاطئ البحر ، مائتي كانت تفرش غطيتها وتعدّ أوانيها،
وكان الاكل يبلغ فمي رملي الطعم واللون ، ولكن هذا ما كان يهمني كثيرا بل
ان الذي كان يبعث في نفسي الهلع والخوف هو اقتراب اللحظة النسي
يامرنا فيها والدنا بالاستحمام البحري الذي كان خبزنا كفاف يومنا ، ومع
انا كنا : انا وأختي (الورا) ، بعيدين عن الامواج العملاقة ، فان الماء كان
يجلدنا بضربات سياطه الباردة اللاذمة . وكنا نظن مرتعدين ان اصعب احدى
الموجات سوف يجرجرنا نحو جبال البحر السامقة الرهيبة ، وعندما نتها
للموت وقد اخذنا نتقارب يدا بيد ، بأسنان مصطكة بردا وخوفا وبأضلاع
دكنا مزروقة ، ترن الصفارة القطارية ويأتي امر والدنا لينقلنا من
العداب .

سوف اروي الان غرائب وعجائب اخرى عن تلك المنطقة ، وسأكنفي
بقصتين الاولى عن الخيول والاخرى عن دار النساء الثلاث ، الساحرات
الرائعات .

في ربح البلدة كانت نشمخ بيوت كثيرة ، كانت عبارة عن اماكن

للدباغة ، فيما اظن . يملكها بعض «البشكنس» (٢٠) الفرنسيين ، كان هؤلاء «البشكنس» دائما ، يقومون في جنوب تشيلي بصناعة الجلود ودباغتها . الحقيقة هي انني ما كنت اعرف على وجه الدقة عما كان عليه امرهم وشأنهم ، بل ان ما كان يهمني معرفته هو ان ارى الخيول وهي تخرج من بوابات كبيرة في ساعة معينة عند الغروب لتكتسح القرية وتجتازها . كانت الخيول مؤلفة من احصنة ومهور وأفراس ذات أجسام ضخمة قوية، اعرافها الكبيرة كانت تتدلى وكأنها ضفائر شعر او خصلات صبية على سهوات الخيل العالية ، أرجلها ضخمة متينة مغطاة كذلك بفصون من الشعر تملج لدى القمص كأنها مجموعة من القنابر والقنزعات والخصلات ، حمراء ، بيضاء ، وردية اللون . لو ان البراكين تخب وتقمص لبدت مثل هذه الخيول الجسيمة الهائلة . كانت تمضي عبر التوارع المفبرة المنقضة كأنها الزلزال الرجراج الهزاز ، غطاريس صناديد تختال وتنوس، كانت كالنمايل والاصنام المتحركة ، لا عد لها ولا حصر ، ابدا ما عدت فرأيت مثلها فسي حياتي ، اللهم الا تلك التي شاهدتها في الصين محفورة منحوتة في الحجر الصلد نصبا وشواهد على اجداث سلالة (مينغ Ming) ، لكن مهما كان الحجر قيّما ومقدسا فانه لا يمكن له ان يمثل او يتمثل تلك الحيوانات الرائعة الفياضة بالحركة والحيوية ، تلك الخيول بدت أمام مخيلتي الطفولية وكأنها تنبثق من ظلمات الاحلام لنلج في عالم آخر ، عالم العمالقة .

والواقع ان ذلك العالم كان مكتظا بالخيول ، فعبير الشوارع ، كان الفرسان التشيليون والالمان والهنود الحمر من قبائل «ماپوتشيس» (٢١) بعباءاتهم المفزولة المنسوجة من الصوف الاسود القتتالي ، يمتطون سهوات خيولهم او ينزلون عنها . وتبقى الخيول الضامرة او المكتنزة ، النحيلة او الشخينة ، هناك حيث يتركها فرسانها ، تملك الكلا

٢٠ - البشكنس : هو الاسم الذي اطلقه العرب على «البسك» Vascos

وهم شعب يسكن في شمال اسبانيا وجنوب غرب فرنسا ، لا يُعرف من اين جاء هذا الشعب ولا مصدر لفته ، فهي ليست من اصل لايني ، لم يعتنق «البسك» الديانة المسيحية الا في وقت متأخر فقد بدأوا بامتثالها في القرن الثالث عشر .

٢١ - ماپوتشيس : هو اسم آخر للقبائل «الاواكانية» .

وعشب الدروب ، تقذف الدخان والانفاس من خياشيمها . لقد الفت سواعد فرسانها وتعدت على حياة الدشرة الموحشة المنفردة . . ثم ، اذا جاء المساء ، تؤوب مثقلة بأكياس العلف والعنود والادوات ، تمضي نحو الاربابض البعيدة المتشابكة ، تصعد الدروب الوعرة او تقمص الى الابد في الرمال ازاء البحر . من حين الى حين كان يخرج من احدى وكالات الشغل لو من احدى المحانات المعتمدة احد الفرسان «الأراوكانيين» ، يحاول ، بصعوبة، ان يمنطي حصانه الثابت الراسخ ، ثم بولي وجهه شطر داره بين الجبال، يترنح من جانب الى آخر وقد بلغت منه الخندريس غايتها . حين اراه يشرع السير ثم يواصل الطريق ، كان يخيل اليّ ان المسخ (٢٢) الثمل سيهوي على الارض كلما مال به جسده ناحية او اخرى بشكل خطير ، غير اني كنت اخيب في ظني وتحسبي ، فقد كان يعود فيستقيم ، ثم يعيل الى الجانب الاخر مرة اخرى ثم يعود فيستقيم وهكذا دواليك ، وفي كل مرة يستعيد انفاسه ويلتصق بالسرج ، ثم يروح على ظهر حصانه يقطع فرسخا اثر فرسخ الى ان ينصهر والطبيعة الغابية البرية كأنه حيوان ساهم متردد ، لا يصيبه سهم ولا اذية .

لقد عدنا ، دائما بالاحتفالات والتحركات المائلية عينها ، لنقضي عطلة الصيف مرات كثيرة ، الى هذه المنطقة المثيرة الساحرة . وكنت انا آخذ في النمو ، أقرأ ، اكتب ، مع مضي الزمن ، بين فصول الشتاء المرة فسي «تيموكو» وبين فصول الصيف العجيبة في الساحل .

الفت ركوب الخيل ، وحياتي كانت تصير اكثر علوًا وأوسع مدى حين اتهدى عبر الدروب الطينية المزلاجة ، عبر الطرقات المنعطفة على حين غرة تخف للترحيب بي النباتات المتشابكة ، السكون او نغم العصافير البرية ، حفيف شجرة مزهرة ملتحفة بثوب قرمزي كأنها اسقف جليل لهذه الجبال او مندوفة بثلوج معركة ازهار مجهولة . او تبرز من حين الى حين كذلك زهرة الـ «كوييهويه» ، هكذا فجأة ، متوحشة ، برية ، وحشية ،

٢٢ - المسخ : El Centauro كلمة من اصل الهريقي ، وهي في الاساطير اليونانية مسخ نصفه انسان والنصف الآخر حصان ، قد يكون التناسل .

مزمنة الالم والوحدة ، متدلوية كأنها قطرة دم نضرة . . لقد تعودت على ركوب الخيل ، وتمرست باللجم والمهايمز القاسية التي كانت تظن تحت عقبيّ وكعبيّ . لقد بدأ اتصال ما بين سواحل لا نهاية لها وجبال كثيفة منسابة وبين روحي ، اي بين هذه الارض ، اكثر الاراضي وحشة فسي العالم ، وبين شعري . هذا جرى قبل سنوات كثيرة ، بيد ان هذا الاتصال وهذا الوحي وهذا الحلف المقدس مع الفضاء ، ما فتئت جميعها تقيم في وجودي ، تستمر في حياتي .

اولى قصائدي

الآن ساروي لكم حكاية عن العصافير . كانوا في بحيرة «بودي» (Budi) يطاردون البجع بنراسة ، كانوا يقنربون منها بزوارقهم في صمت وسكون، ثم في سرعة ، في سرعة يجففون البجع ، مثل القواديس ، شروعا بالطيران صعب ، اذ لا بد لها من أن تجري منزلجة على سطح الماء لترفع فيما بعد بصعوبة فائقة أجنحتها الكبيرة . كانوا يدركونها فيقضون عليها بصربات هراوات ثم بحملونها .

إحضروا لي بجة نصف ميتة . كانت واحدة من هذه الطيور التي ما عدت فرايت مثلها في الدنيا ، بجة ذات عنق أسود . سفينة من ثلج ، بعنق رقيق اهيف ، كأنما أدخل في جراب ضيق من حرير أسود . المنقار برنقالي اللون والعينان حمراوان .

ان هذا حدث قرب البحر في «بورتو سايدرا» ، بلدة «امبريال ديل سور» (٢٢)

لقد اعطونهاها شبه ميتة . غسلت جراحها وحشرت لها في حلقها فتات خبز وفتايل سمك . كانت تتقيا كل شيء . ثم اخذت تستعيد قواها وتبرأ

٢٢ - امبريال ديل سور : معناها امبريال الجنوب .

من أوجاعها ، وبدأت تعي باني صديق لها . وبدأت انا أمسي ان الحنين
يضيها والشوق الى الماء ينضيها . فاحتضنت العصفور الثقيل بين ذراعيّ
ومضيت عبر الشوارع لأخذها الى النهر . كانت تعوم قليلا ، قريبة مني ،
كنت أريد لها ان تصطاد شيئا فأدلتها على الحجيرات في القعر وعلى الرمال
حيث تنزلق أسماك الجنوب المفضضة . لكنها كانت تنظر البعد فتخشاه
بعينين جد حزينتين .

هكذا كل يوم ، أكثر من عشرين يوما ، كنت آخذها الى النهر وأحملها
الى بيتنا . كانت البجعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة
في التفكير جدا ، سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالزبابات التي اردت بها
تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها الى حضني من جديد بنيتة
ان أحملها الى دارنا ، وما ان أوشكت ان ترتاح في صدري حتى شعرت ان
شريطا قد انحلت ، ان شيئا كأنه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطه
فالتفتّ وإذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت ان البجع حين
تموت لا تفني .

ان الصيف لحار لافح في «كاوتين» . يحرق السماء والقمر . ان
الارض تود لو تستفيق من سباتها . والدور لم تتخذ عدتها للصيف ، كما
لم تتخذ مؤونتها للشتاء . كنت امشي عبر الحقول اسير وامشي . اضيع
في تلة «نييلول» (Nielol) . هاندا وحدي ، جيبي مليء بالخنافس .
في صفت صغير أحمل عنكبوتا كثيف الشعر حديث الصيد . السماء لا
ترى . الغابة دائمة الرطوبة ، أتزحلق ، فجاء يصرخ عصفور ، انه الصراخ
التسبحي لـ «ال تشوكاو» (٢٤) (El chucao) . تنمو من أخمص
قدمي قشعريرة نديرة رهيبة . زهور «ال كوييهويس» هي قطرات دم تكاد
لا تبين . لست غير مخلوق ضئيل تحت السراخس العملاقة الهائلة . قاب
فوسين أو أدنى من نفي تطير حمامة مطوقة ، حفيف أجنتها جاف خفيف .
عصافير أكثر نجليقا تضحك مني ونستهزيء بي ضحكة جشاء بحيجة .

٢٤ - التشوكاو : كلمة من اسل «مابوتشي» ، وهو عصفور في حجم الروزبر ، ذو
ريش اغمر اللون ، يقطن الغابات الكثيفة جدا .

اتلمس الدرب فأجده وقد لا أجده . ها هو الليل يرخي سدوله .

لما يات والذي بعد . سبأني في الثالثة او الرابعة صباحا . اصعد الى غرفتي . اقرا لـ (سالفاري) . المطر ينسكب كأنه شلال . المطر والليل في لحظة يخفيان الكون . هانذا هنا وحيدا اكتب الاشعار في دفتر الحساب . انهض في صباح اليوم التالي مبكرا . الخوخ لما يزل اخضر . اقفز فوق الروابي . احمل معي علية صغيرة فيها ملح . اصعد الى شجرة . امركز في موضع مريح . اقضم في حذر خوخة فانال منها فلقة نسم أغمسها في الملح فأكلها . هكذا الى ان التهمت مائة خوخة . من بعد عرفت اني افرتت وافضب .

بما ان دارنا قد احترقت ، فان هذه الدار الجديدة تبدو لي غريبة عجيبة . اصعد على سور الحائط وأنظر الى الجيران ، ما من احد . ارفع بعض العصي عن السور الخشبي ، لا شيء الا اعناب بالسة صغيرة . هناك في آخر فناء الدار المرحاض . للاشجار القريبة منه يساريع . اشجار اللوز تعرض فاكهتها المبطنة في قطيفة بيضاء . اعرف ذب اصيد قمع اللدباب بمنديل دون ان اسبب لها اذى . احفظ بها سجينتة لفترة من الزمن وادنيها من اذنى . يا له من طنين رائع بديع .

يا للوحدة ، وحدة طفل شاعر صغير ، يرتدي السواد ، في الثغر الفسيح المديد الرهيب . كانت الحياة وكانت الكتب تجعلني ارى شيئا فشيئا غرائب كثيرة جمعة .

لا استطيع ان انسى ما قرانه تلك الليلة : فاكهة الخبز انقلدت «ساندكان» واصحابه في بلد بعيد يسمى «مالاسيا» .

لا يعجبني (بوفالو بيل) لانه يقتل الهنود . لكن يا له من عداء على الخيل ماهر سريع ! يا للمروج ويا للخيمات المخروطية الشكل ذات البشرات الحمراء !

لقد سئلت مرات عديدة متى كتبت اولى قصائدي ، متى ولد فسي الشعر .

ساحاول ان اتذكر ذلك . في مهتبل طفولتي وفي بداية تعلمي الكتابة، شعرت ذات مرة بعالج عارم يغمرنى فسطّرت بضع كلمات شبه مسجوعة، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الاليمة . اعدت نسخها في خط انيق بعد ان شدبتها ، كنت حينذاك اسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ، شعور مسنطن غير مسبور ، نوع من الكآبة والاسى . كانت قصيدة موجهة الى أمي ، اي ، الى المرأة التي كنت ادعوها امي ، الى خالتي زوجة ابي الملائكية التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولني كلها وحذب عليها ورعاها . ما كنت بقادر على تقييم قصيدتي ، اخذتها الى والدي ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من احاديثهما هذه التي كانا يهمسان بها همسا بصوت خفيض جدا ، احاديث تفصل اكثر من نهر بين عالمين : عالم الصغار وعالم الكبار ، وكان ذاك الحديث على ما يبدو خاصا بعالم الكبار . مدت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت ارتعد من هول زيارة الوحي الاولي، تناولها والدي وهو ساه غافل ، فقرأها وهو ساه غافل ، أعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

- من اين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع امي في صوت خفيض عن شؤونهما المهمة العاجلة والاجلة .

هكذا ولدت اولى قصائدي وهكذا تلقيت اولى عينات النقد الادبي الفافل الساهي .

بيد اني كبت امضي قدما في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدي او ترتيب مثل بحار يمخر في الخضم وحده . ما كان ليرتوي او يقنع نهمي للقراءة في آناء الليل واطراف النهار . عثرت ، على الشاطيء بميناء «بورتو سايبديرا» على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر اصيل ، هو السيد (اوغوستو وينتر) . فاكبرني واكبر في نهمي الادبي . «افقراتها جميعها ؟» كان يقول لي ، وهو يناولني كتابا جديدا لـ (بارغاس بيلا) اول (ايبسن Ibsen) (٢٥) ، اول (روكامبول Rocambole) . كنت

٢٥ - ايبسن : هو الروائي والمؤلف المسرحي النرويجي الشهير (١٨٢٨ - ١٩٠٦) .

التهم كل شيء دون تمييز كما النعامة .

في ذلك الوقت وصلت الى «تيموكو» سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطيء قصير . انها المدبرة الجديدة لمدرسة الاناث، قدمت من مدينتنا الجنوبية، من تلوج «ماغايانيس» .
تدعى (غابرييلا ميسنرال Gabriela Mistral) (٢٦) .

كنت أنظر اليها وهي تجتاز شوارع قريني بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت أخشاها . غير انه ، حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة . كانت تتألق أسنانها البيضاء في وجهها الملوّح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دنّ «أراوكاني» جميل ، حين بتسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان .
ما كنت لأكون خليلا لها لانني كنت بعد صبيا هيّابا مغرقا في التفكير والأمل . رأيتها من بعد مرات قليلة ، وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتبا نهدتها اليّ ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها هي أفضل وأجمل ما في الادب العالمي . أستطيع القول ان (غابرييلا) قد أربكتني في هذه الرؤية الجديدة الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس، وأن (تولستوي) و(ديسنويفسكي) و(نتسيخوف) كانوا الاثريين عندي وما زالوا يرافقوني .

دار الأرامل الثلاث

دُعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالافراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيد جدا عن القرية . استهوتني مغامرة ان أمضي وحيدا استجلي الدروب وأتبينها بين سلسله الجبال تلك . وان تهت فلا ريب في اني سأجد من يغيثني ويعينني . ابتعدنا : أنا ومطيتي ، عن «باخو أمبريال» وأخرقنا حاجز النهر . كان المحيط الهادي هناك يفك

٢٦ - غابرييلا ميسنرال : شاعرة من تشيلي مشهورة جدا حازت على جائزة نوبل للاداب
(١٨٨١ - ١٩٥٧) .

عقاله فيلطم في تواتر وكرّ وفر الصخور وأحراج ربوة «ماوله» . آخر تلة على الشاطئ ، شاهقة سامقة جدا . ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» . تلاطم الامواج كان يقلد قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة . كان علينا أن ننتهز تلك الفرصة ، حين تفتت إحدى الموجات وتقهقر لتستعيد انفاسها ، لنعبر بضيق شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة .

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر ، بدت تتجلى صفيحة البحيرة الزرقاء الساكنة . كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطئ حتى مصب بحيرة «تولتين» (Toltén) . ان هذه الشواطئ التشيلية هي صخرية نائثة ولكنها سرعان ما تستحيل أشرطة رفيعة مديدة تسمح للعابر ان يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال وإزاءه زيد البحر .

انها سواحل تبدو ابدية غير منتهية ، كأنها تشكل على امتداد تشيلي خانما لكوكب ، خاتما محققا تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة ، مدرجا يبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي الى ما هو أبعد من القطب الجنوبي .

على جوانب الطرقات كانت تحيني اشجار البندق ذات الاغصان الورقة الخضراء الغامقة البراقة بجميع اصنافها ، ما كان منها مرصعا بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، اشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزينت بزنجفر فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة . سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جدا الى درجة اننا ، انا وحصاني ، كنا نسير تحت اغصانها دون ان نستطيع لمسها . وان دنت احيانا فجست رأسي ، فانها ترش علينا من نداها . على جانبي الايمن ، تمتد بحيرة «بودي» : صفيحة مثابرة زرقاء تتجاوز والغابات النائية .

ما رايت احدا الا في آخر الشوط ، صيادين غريبين . في ذلك المدى حيث يلتصق المحيط والبحيرة يتعانقان او يتشاحنان ، كان ثمة بعض اسماك بحرية ، تجرفها الامواه الشديدة العنيفة . اكثرها جشعا وطعما هي الاسماك المساء العريضة المفضضة التي كانت تتشاحن في هذه المنخفضات البحرية متخبطة تائهة . كان الصيادون ؛ واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ،

خمسة ، وهم في وضع شاقولي وفي حالة تمنع وانتظار ، يترصدون حالة السوق ومعرض الاسماك التائهة ، ثم على حين غرة ، يقدفون خطافا طويلا الى الماء ، من بعد يشيلون نحو الاعلى وقد غنموا تلك الالباب الكروية الشكل ، الفضية اللون التي ترتعد وتلمع في شعاع الشمس قبل أن تلفظ انفاسها في اسفاط السماء . لقد دنا الغروب . كنت قد خلّفت ورائي ضفاف البحيرة وكنت قد مارست البحث عن السببيل عبر منحدرات الجبال المعقدة الوعرة . كان الظلام يمضي شبرا فشبرا . فجأة اخترق الفضاء انين عصفور وحشي مجهول كأنه همس أجش . صقر او عقاب بدا من علوه الشفقي وكأنه يوقف اجنحته السوداء عن الطيران ليشير الى حضوره ووجودي ، يواكبني من عل في طيران ثقيل بطيء . تعوي او تنبح او تخرق ثعالب سريعة عجولة ذات ذبول حمراء ، او وحوش ضارية مجهولة من هذه الغابات السرية .

ادركت اني قد تهت . الليل والغابة ، اللذان كانا لي البهجة والسرور، هما يتهدداني ويتوعداني ، يملآني رعبا وهلعا . طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإيائي في وحدة الطريق المدلهمة . حين تقاربنا توقفت فرأيتة فلاحا من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له الا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحدا من هؤلاء الرعاة الذين يطلعون من السكون .

قصصت عليه ما جرى لي .

اجابني بانني لن ابلغ البيدر تلك الليلة . هو كان يعرف المكان كله موضعا موضعا وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين اين يدرسون القمح . قلت له اني لا اريد ان أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه ان يرشدني السى موضع آوي فيه الى ان يبزغ الفجر ، فأشار لي في ايجاز بأن امضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين . «سوف ترى من بعيد بيتا خشبيا كبيرا ذا طابقين» ، قال لي .

— اهو فندق ؟ سألته .

— كلا ، ايها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة . انهن ثلاث

فرنسيات يعملن في تجارة الاختساب ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة . انهن
طيبات المعشر مع الناس جميعا . ولسوف ياوينك ويرحبن بك .

شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة . هو ابتعد يخب به
حصانه المقووض وانا سلكت الدرب الضيق كأني نفس في جوى واسى .
هلال بكر ابيض معقوف كفلامه ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر
السماء .

لمحت عند التاسعة ليلا انوارا ، لا مندوحة في انها منبعثة من منزل .
اجهدت حصاني قبل ان تحرمني الأقفال والمفاتيح من دخول ذلك المعبد ذي
الاماجيب . . اجتزت حواجز الحمى ، متجنباً جدوعاً مقطوعة وجبالاً من
نسارة ، وصلت الى الباب بله الى رواق ابيض لتلك الدار الضائعة في تلك
الانحاء المنفردة المتوحدة . ناديت من وراء الحجرات . . . قرعت الباب ،
بادنا في رفق تم في قوة ثم في عنف . حين يست وقدمت دفائق
رهيبية ، وظننت ان ما في الربع من احد ، اطلت سيدة ذات شعر ابيض ،
نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بين
بين ، كي تستقصي الطارق القادم في غير وقت .

من انت وماذا تريد ؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .

لقد تهت في الغابة . انا طالب في مدرسة . دعاني لحضور درس
الحنطة على البيدر آل (ايرنانديث) لقد انهكني المسير .
لقد قيل لي انك واختيك فعالات للخير ، لست ابغي الا ان انام في اي ركن
وان اواصل حين يطلع الفجر طريقي نحو حصاد آل (ايرنانديث) .

تفضلت - اجابتنى - لانت في بيتك .

قادتني الى بهو معتم وهي بنفسها اشعلت قنديلين او ثلاثة من زيت
القطران . لاحظت ان القناديل جميلة Art - nouveau (٢٧) ، ممن

٢٧ - Art nouveau : التعبير فرنسي ، معناه : فن حديث .

البرونز المدهَّب . البهو يفوح برائحة الرطوبة . ستائر كبيرة تُسدل على
النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها . ممّ ؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومغلق كالحلم . السيدة
الساهمة الحاملة ذات الشعر الابيض كانت تتحرك دون ان اتبين لها قدما
او ان اسمع لها خطوا ، يداها تلمسان شيئا او آخر ، مجمع صور ،
مروحة ، هنا او هناك داخل السكون .

تخيلت اني قد هويت الى قعر بحيرة وفي اعماقها احيا ، مرهقا
منهوكا . فحاة دخلت سيدتان طبق الاصل من التي استقبلتني . كان
الوقت متأخرا وكان تمة برد شديد . جلستا من حولي ، احداهما فسي
ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق والاخرى تنظر اليّ بعينين كئيبتين ، كعيني
التي فتحت لي الباب .

ابتعد الحديث كثيرا عن تلك الحفول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة
بالآف الحشرات ، المخنقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية .
سالني عن دروسي . فاجاتهن حين لفظت على غير توقع منهن اسم
(بودلي) (٢٨) واستغربن حين قلت لهن باني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن .
تغيرت عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما لو ان ثلاثة براقع تزعت
عن وجوههن ذوات الملامح العتيقة .

— (بودلي) — هتفن . لعل هذه هي المرة الاولى التي فيها يتلفظ باسمه
في هذه الاماكن المنعزلة منذ ان وجد الكون . لدينا هنا كتابه *Fleurs*
du mal (٢٩) . ليس من احد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة
في هذه الاماكن على مسافة دائرة قطرها ٥٠٠ كيلومتر . لا احد يعرف

٢٨ — (شارل بودلي) : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ - ١٨٦٧) .
٢٩ — *Fleurs du mal* : بالفرنسية ، ازهار الشر .

الفرنسية في هذه الجبال .

اثنان من الاخوات الثلاث ولدتا في «افينيون» (Avinon) ، الصغرى
تسيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعاً . جدودهن ، آباؤهن ،
اقرباؤهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد . هن الثلاث كنّ قد تعودن على
المطر ، على الريح ، على نشارة الأخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من
الفلاحين البدائيين والخدم الاجلاف المتأخرين . قررون البقاء هنا في هذه
الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المسننة الوعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء الى السيدة الكبرى . حينذاك خرجنا
بإشارة منها عبر دهاليز باردة جدا الى غرفة الطعام . اندهشت وذهلت .
في وسط القاعة ، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين ، مضاءة
بشمعدانين من فضة مليئين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان
معا على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاحني حياء عارم ، كما لو ان الملكة (فيكتوريا) كانت قد دعنتني الى
وليمة في قصرها . فقد جئتهن أشعث الشعر ، مغبّر الثياب ، مرهق
الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة أمير ، وأنا على حالتي ابعد
الناس عن ان اكون اميرا ، بالاحرى كنت ابدو وكأنني راعي بغال برائحة
كريهة ، ترك عند الباب قطع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جدا اكلت كمثل هذه المرة ، مضيفاتي كنّ معلمات في
الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطبيب .

على الرغم من ان التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فاني
كنت أسمعهم يتحدثون عن اشياء غريبة . كان فخر الاخوات الاعظم الاكبر
هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة ارث مقدس ،
ممارسة ثقافة لن يعدن اليها ابدا وقد عزلهن من وطنهن الزمن العتسي
والبهار الهائلة . أرانتي ، كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلا غريبا .

– نحن عجائز معتوهات – قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابرا قصدوا هذه الإدار النائية ، بعضهم بفرض التجارة وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة . ما لم ير من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد مسن زوارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الاكل التي اعدتها في كل مناسبة .

– نسجل وجبة الاكل حتى لا نقدم منها ولا طبقا واحدا فيما اذا عاد فرارنا من كان قد تذوق هذه الاطباق من قبل .

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق . عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابسني . عندما أسرج لي الحصان احد الخدم كان النهار يأخذ بالظلوع والوضوح .

ما تجرات على توديع السيدات الكريمات السخيات اللباسات ثياب الحداد . في أعماقي شيء كان يقول لي ان ذلك كله كان حلما غريبا لذيذا ، وأنه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحدث اربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة مراهقتي . فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن (أزهار الشر) في وسط تلك الغابة البكر ؟ ماذا حصل لزجاجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة ؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الاشجار ؟

لا بد انه طراً ما هو أبسط شيء ! الموت والفاء . ربما ان الغابة التهمت تلك الحيوانات وبلت القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية . لكنهن ما زلن يحيين في ذاكرتي كما لو كنّ في عمق بحيرة الاحلام الشفاف . مجدا وطيبا لهاته النساء الثلاث الحزاني اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصنّ لياقة عريقة . كنّ يدافعن عما اتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، اي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيدة ، هناك بعيدا ، في أقصى حدود جبال هي اكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

الحب ازاء التمتع

وصلت الى مراتب آل (ايرانانديث) قبل الظهيرة ، منتعشا جدلا ، موكبي المنفرد عبر الدروب الخالية ، استجمامي من الإرهاق والوسن ، كل ذلك كان يتألق في شبابي الصموت ويبدو على محيائي النضر .

في ذلك العهد كان درس الحنطة والنوبان والشعير تقوم به دابة تلف وتدور . ليس من شيء في العالم أروع وأبدع من رؤية دوران الافراس وهي تخب حول اكداس الحبوب المكومة ، تحت صراخ الفرسان المزعج لها كي لا تحرن او تراوح او تماطل . الشمس تشرق رائحة باهرة ، النسيم كأنه الماسة برية غابية تجعل الجبال تلتمع تحت أشعة الهجير . ان الدرس لهو مهرجان ذهبي . التبني الاصفر يتكوم في جبال مذهبة ، كل شيء كان نشاطا وفعالية وبهجة ، اكياس تجري فتملا ، نساء تطهو ، احصنة تملك الشكيمة ، كلاب تنبح ، اطفال لا بد من انقاذهم في كل لحظة يبدون وهم يلعبون كأنهم اوراق التبني او أرجل الخيول .

ان آل (ايرانانديث) هم قبيلة فريدة في نوعها . كان رجالها شعث الشعر ما تطيبوا ولا حفوا ذقونهم يوما ، يمضون ، دائما ، بلا سترة مكتفين باكمام قمصانهم ، مسدساتهم في أحزمتهم ، مدمسين بالزيت ، او معفرين بغبار الحبوب ، او موحلين بالطين ، او مبتلين حتى العظام بالامطار . كانوا جميعا ، آباء ، ابناء ، احفادا ، اعماما ، أخوالا ، ابناء عمومة ، ابناء خؤولة ، انسابا ، اصهارا ، يبدون في مظهر من البداوة والجلافة ينم عنهم ويدل عليهم . يمكنون ساعات بكاملها منهمكين في اصلاح محرك ، او مجففين سلاتهم على أسطح منازلهم ، او متسلقين آلة حاصده او دارسة . أبدا ما كانوا يتحدثون او يثرثرون . ما كان كلامهم الا مزاحا في كل امر اللهم الا حين يتشاحنون ويتخاصمون ، فهم في المراك والنزال اعاصير بحرية ، يقوضون كل من او ما يقف في وجوههم . اما في الشواء ، وبخاصة شوي رؤوس الغنم ، في التبيد الاحمر ، في القيشارة النواحة فقد كانوا جهابذة أوائل . كانوا رجالا من الثغر ، اي القوم الذين اعجب بهم ويطيبون لي . كنت أحس ان الطالب الشاحب بضالتي وصغري ازاء أولئك البرابرة النشيطين الفعالين ، وهم ، لست

أدري السبب ، كانوا يعاملونني بلطافة لم تكن لاحد غيري ،

بعد الشواء والقيثارة والتعب المعمي من شمس ومن قمع ، كان لا بد من ترتيب الامور لقضاء الليل ، المتزوجون مع زوجاتهم ، والنساء الوحيدات ، جميعا رقدوا في الخيمة المنصوبة على عمد حديثة القطع . اما نحن الفتيان فقد خصص لنا البيدر لنام عليه . ان البيدر بجبله التيني يمكن لقرية بأسرها ان تبرصع في طراوته الصفراء .

كان ذلك الموضع بالنسبة لي مزعجا مقلقا ، لم اكن اعرف كيف انصرف ، كيف اتمدد ، وضعت في حذر حداثي تحت طيقة من التبن لتكون لي مخدة او وسادة ، نزعت ثيابي ، التحفت بعباءتي وغطست في جبل التبن . كنت بعيدا عن الآخرين جميعا ، لكنهم سرعان ما اخذوا بالتخير في عزف جماعي .

مكثت هكذا فترة طويلة ، مستلقيا على ظهري ، عينايا محدقتان في السماء ، وجهي وذراعاي مغطاة بالتبن . كان الليل جليا باردا لاسعا ، ما كان القمر قد طلع في السماء لكن النجوم تبدو حديثة الابتلال بالمطر ، وفوق نوم الآخرين الاعمى كانت تنللا في حوض السماء لي ، ليس غير .

ثم غفوت قليلا فصحوت لان شيئا ما كان بدنو مني ، جسم شيء كان يتحرك من تحت التبن ويقترب شيئا فشيئا من جسدي ، شعرت بالخوف ، هذا الشيء كان يقترب اكثر فأكثر ولكن في ثورة ، شعرت ان اقداء التبن كانت تتكسر من حولي تتهشم كلما تماسست والجسد الزاحف ، كان جسدي جميعه في حالة طوارئ ، اترقب مرتعدا ، كدت انهض ، كدت أصرخ ، لكنني بقيت جمادا بلا حراك ، اسمع أنفاسا قرب رأسي .

على حين غرة تحسستني يد ، يد كبيرة ، خشنة اللمس كيد عاملة ، بيد انها يد انثى ، لمست جبيني ، جفني ، وجهي ، كل وجهي ، بعدوبة ، ثم ان ثغرا نهما التصق بجمي فأحسست على طول جسدي حتى أخمص قدمي بجسد امرأة كانت تشدني وأشدها شدا .

لذة عارمة كانت تهزم دياجير خوفي شيئا فشيئا ، أجلت يدي في

خصلات شعر منسدل ، فوق جبين أملس ناعم ، على عينين بجفنين مطبقين ناعمين لزجين كشتائق النعمان ، يداي راحتا تبحيان عن كنوز ، لقتت نهدين راسخين عظيمين ، جسست أردافا عريضة ، لمست ساقين التفتتا بساقي ، أفرقت أصابعي في عانة غضة بضة مثل طحالب الجبال . ولا بكلمة واحدة نبس ذلك الثغر المجهول .

كم هي صعبة ممارسة المضاجعة دون اثاره ضجيج ولا حتى حفيف في جبل من تبن مجوف بسبعة او ثمانية من الفتيان الغارقين في النوم الذين ان اوقظوا غضبوا واثاروا التبن والفضيحة . غير ان الفتى لقادر على انجاز كل شيء مهما كلفه من جهد وحذر . وما ان مضى هزيع من الليل او بعضه حتى همدت تلك المجهولة نائمة قربي ، وانا محموم مسن تلك الحالة ، بدأت بإثارة الفرع في نفسي . عما قريب سينبثق الفجر ، كنت افكر ، أوائل العاملين في البيدر سيجدون هذه المرأة عارية ، مستلقية قربي . لكنني انا كذلك أخذت للنوم ، وحينما صحوت مددت يدي فرما فما لمست غير فجوة باردة وما وجدت الا غيابها وارتحالها . ها هو عصفور يزقزق ثم ضجت القابة وامتلأ الجبل أغاريد وانا شيد . رن زممار آلة واذ بهم جميعا رجالا ونساء ينطلقون نحو البيدر يكدون ويعملون . بدأ يوم للدرس جديد .

عند الظهرية بينما كنا متحلقين حول طاولات كبسيرة ، وبينما كنت انظر وأنا اكل ، نظرات خاطفة ، باحثا عن زائرتي في الظلام ، بين النساء، أهده هي ؟ لا . فهذه عجوز شمطاء ، املك ؟ كلا فهذه نحيفة ضامرة . انا ابحت عن امرأة مكتنزة رداح بنهدين طيبين وبدوائب مسترسلة طويلة، واذ بامرأة تتقدم ومعها شريحة من اللحم المشوي ناولتها لزوجها من آل (ايرناندث) أهده ؟ ، أجل ، قد تكون هي . حين رمقتها من طرف المائدة وهي في الطرف الآخر ، لاحظت ان تلك السيدة الجميلة ذات الدوائب المسترسلة لاحظتني بنظرة سريعة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة جدا . غير ان هذه الابتسامة كانت تكبر في عيني ، تعمق في قلبي ، تفتتح فسي جسدي .

الفصل الثاني

... ضائعاً في المدينة

غرف للايجار

بعد عدة سنوات قضيتها في المدرسة حيث كنت دائماً أتمش في شهر كانون اول بامتحان الرياضيات ، اصبحت مهياً ، خارجياً ، لمواجهة الجامعة في «سانتياغو» بتشيلي (١) . اقول ، «خارجياً» ، لانه «داخلياً» كان رأسي مليئاً بالكتب والاحلام والقصائد التي كانت تتر كالنحل .

مجهزاً بصندوق من صفيح ، بالبدلة التي لا غنى عنها ، بدلة الشاعر

١ - سانتياغو Santiago : هي عاصمة تشيلي ، وتذكر معها ، عادة ، كلمة «تشيلي» تمييزاً لها عن مدينة أخرى بهذا الاسم تقع في شمال غرب اسبانيا وهي (Santiago de compostela) وكان العرب يدعونها ، «شانت (قديس) يعقوب» .

السوداء ، نحيلاً جداً ومبرباً كسفار ، سعدت في الدرجة الثالثة للقطار الليلي الذي كانت رحلته تستغرق يوماً بليلاً ونهاره في الوصول إلى « سانتياغو » .

ما زلت أذكر لهذا القطار حتى الساعة سحره الغريب، فلطالما سافرت فيه وهو يجتاز مسافات مختلفة ومناطق عديدة وأجواء متباينة . كانت تجري في عربات الدرجة الثالثة حباة بكاملها ، فلاحون بعباءات تنقطر ماء وبسلاسل مكتظة بالدجاج ونساء من فبائل «مابوتسه» (Mapuche) عابسات متجهومات . الكثيرون كانوا يسافرون مجاناً دون ان يدفعوا شيئاً . على ما يبدو المفنس كان يمسح الارواح والاجساد . بعضهم يختفي ، بعضهم يخنق تحت عباءة يجلس فوقها حالا اثنان ويتظاهران بأنهما يلعبان الورق فيمر المفتش دون ان تلفت نظره هذه الطاولة التي نصبت فجأة .

كان يمر القطار من حقول البلوط والصنوبر والبيوت ذات الخشب البليل ، الى حور أواسط تشيلي ، الى الابنية العمولة من الطوب المغير . مرات كثيرة قمت بهذه الرحلات ذهاباً وأياباً بين العاصمة والناحية لكنني دائماً كنت اشعر بالاختناق حين اخرج من الغابات الكبيرة ، من جوف أمي، من الخشب . بيوت الطوب واللبن ، المدن ذات الماضي العريق ، جميعها كانت تبدو لي مليئة بالهلل والسكون والعناكب والدخان . ما زلت حتى الان شاعر الزوابع والاعاصير ، شاعر الغابة الباردة التي فقدتها منذ ذلك الحين .

لقد نصحت قبل المجيء من قريتي باستئجار غرفة في بيت يقع في شارع «ماروري» (Maruri) رقم البيت هو ٥١٣ . لا أنسى هذا الرقم ابداً . قد أنسى التواريخ كلها والسنين جميعها ، لكن هذا الرقم ٥١٣ سوف يبقى حياً في دماغي ما حييت ، إذ أنني حُسرته فيه منذ كثير من السنين خوفاً من ان لا أبلغ هذا البيت وأن أتيه في العاصمة المجهولة الكبيرة . في الشارع المذكور أعلاه وفي البيت المذكور في دماغي وعلى شرفة غرفتي كنت أجلس أرقب حشرجة المساء ، أجلي النظر في السماء المزدانة بالرايات بألوانها البديعة من أخضر وأزرق وأحمر قان ، الملح كآبة اسطحة منازل ضواحي المدينة المهتدة بحريق السماء .

حياة الطلبة في غرف الإيجار هذه خلال تلك السنين العجاف كانت جوعا على جوع . كتبت شعرا اكثر مما كنت كتبت من قبل لكنني كنت آكل أقل بكثير . لقد هلك الكثير من الشعراء الذين عرفتهم في تلك الايام بسبب صوم الجوع الصارم . من بين هؤلاء اذكر شاعرا كان في عمري لكنه اكثر طولا وأسوأ رفلة مني . شعره الفنائي القتيب مغمم بالهيولي والشفافية . كان حيث ينشد تنتشي الاجواء وتطرب الاسماع . يدعى (روميو مورغا) .

ذهينا : هو وأنا ، ذات مرة لئنشد أشعارنا في مدينة «سان برناردو» القريبة من العاصمة . قبل أن نصعد المنصة لانشاد شعرنا كانوا قد احتفلوا باختيار ملكة الزهور ، فهناك كانت الملكة بثيابها البيضاء وشعرها الاشقر، كان وجهاء المدينة قد القوا خطبا رنانة ، والفرق الموسيقية قد عزفت الحانا نشازا ، عندما صعدت وبدأت بانشاد اشعاري في صوت متأوه ، لم يكن في العالم كله صوت اكثر منه تأوها ، تبدل كل شيء ، الجمهور يعطس ، ينكت ، يتلهى بشعري الكئيب الحزين . حين رأيت هذه الاستجابة المخزية من قبل هؤلاء البرابرة الهمج أسرع في القراءة وأوجزت فنزلت تاركا المنصة لزميلي (روميو مورغا) . ان ما حدث عند ذلك لجدير بالتخليد والذكر . فما ان صعد (دون كيخوته) (٢) هذا الفارع الطول بثيابه الغامقة الرنة المضحكة وأخذ ينشد بصوت اكثر من صوتي اتينا وتأوها ، حتى بدأ الجمهور وقد فقد قدرته على ضبط النفس وكظم الغيظ ، بالصراع والهناف : «يا شعراء الجوع ، لا تفسدوا لنا الاحتفال» .

من تلك الغرفة بتسارع «ماروري» انسحبت مثلما ينسل رخوي من صدفة . ودعت ذيل السلحفاة ذاك لكي أتعرف على البحر ، اي ، على العالم . البحر المجهول هو : شوارع «سانتياغو» التي ما كنت شاهدها من قبل حين كنت أمضي غاديا او راثحا ، ذهابا او ايابا بين الجامعة العتيقة

٢ - دون كيخوته (Don Qijote) : هو بطل رواية (سيرفانتس) الخالدة المعروفة بهذا الاسم ، والنطق هو كما رسمناه ، وليس (دون كيشوت) الذي اخذنا نطقه عن النطق الانجليزي او الفرنسي ، حيث لا تنطق الخاء كما هو في الاسبانية والعربية معا .

والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع «ماروري» رقم ٥١٣ .

كنت أدري ان مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة . اكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كنّ ينقلنني بحبة بطاطا او برأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء . لكننا ، لم يكن من ذلك بد ؛ الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المفريات كانت تدعوني لالبيها او هكذا خيّل اليّ .

ان اول تحفة مستقلة ملكتها كانت غرفة استأجرتها في شارع « ارغوييس » (٣) قريبة من المعهد التربوي . في احدى نوافذ هذا الشارع الرمادي كانت تطل لافتة مكتوب عليها : «للإيجار» . صاحب الدار كان يشغل الغرف المظلة على الشارع . كان أشعث الشعر شائبه ، له مظهر نبيل ، ذا عينين كانتا تبدوان لي غريبتين . كان ثرثارا متحدثا . يكسب عيشه بمقصه ومشطه فقد كان حلاقا للسيدات ، لكنه لم يكن يولي أهمية لهذا الفن ، اذ ان اهتماماته قد انحصرت واقتصرت ، حسب ما شرح لي ، على العالم اللامرئي ، على عالم ما هناك ، عالم ما وراء الطبيعة .

أخرجت كتبي وملابسي الزهيدة القليلة جدا من الحقيبة والصندوق اللذين جاءا معي من «تيموكو» واضطجعت على الفراش لاقرا ، لانام ، معتزا باستقلالي مزهوا بكسلي .

لم يكن للدار فناء بل دهليز تطل عليه غرف مغلقة لا حصر لها ولا عد . حين سبرت افوار الدار المتوحدة الخالية في صباح اليوم التالي ، لاحظت ان على الجدران وفي المرحاض لوحات معلقة مكتوب عليها كلها العبارة التالية : «اقنمي . لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» . في كل موضع عُلقت لافتة كأنها اشارات تحذير وخطر ، في غرف النوم ، في

٣ - ارغوييس : سوف يسكن (نيرودا) في شارع او بالاحرى حي بهادا الاسم نفسه حين يسافر الي مدريد .

غرفة الاكل ، في الدهاليز ، في القاعات ، كلها تقول : «اقتنعي ، لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» .

كان الفصل شتاء ، من هذه الفصول الشتوية القارصة الصقيعية ، في «سانتياغو» تشيلي . لقد ورث بلدي عن الاستعمار الاسباني ازدياء الطبيعة الصارمة وعدم الارتياح اليها (بعد خمسين سنة على حدوث ما اروييه الان ، قال لي (ايليا ايهريمبورغ) انه ما احس ببرد اشد مما احس به في تشيلي ، في اي مكان من العالم البتة ، وهو كان يعيش في موسكو المثلجة دائما) . كان ذلك الشتاء لفزارته قد طلى الزجاج بمادة مانعة للتأكسد . اشجار الشوارع ترتعد بردا . خيول العربات القديمة تغذف غيوما دخانية من خياشيمها ومخاطمها . لقد كانت تلك الفترة أسوأ فترة يحيها المرء في تلك الدار ، بين ايماءات الجن وتحذيرات ما وراء الطبيعة .

شرح لي صاحب الدار حلاق السيدات الالمني وطبيب العيون اللوذعي في جدية بينما كان يفرز عينيه في أعماق عيني ، كأنه مجنون بعينين لا تهدآن ولا تستقران ، فقال :

— لقد ماتت زوجتي (لا تشاريتو) (٤) منذ اربعة شهور . ان حالسة الموت حالة صعبة بالنسبة للاموات . هم يرتادون دائما الاماكن نفسها حيث كانوا يحيون . نحن لا نراهم ، لكنهم هم لا يعرفون باننا لا نراهم . لا بد من اشعارهم باننا لا نراهم حتى لا يظنوا باننا غير مباليين بهم وكيلا يتعذبوا من اننا لا نراهم . لذلك وضعت هذه اللافتات وكتبت عليها هذه العبارة حتى تدرك (لا تشاريتو) حالتها الانية المؤقتة في أنها متوفاة .

لكن الرجل ذا الشعر الرمادي قد يكون حسبني حيا بإفراط وزيادة فقد بدأ يراقب دخولي وخروجي ، يقيد عدد من يزورني من الاناث ،

٤ — لا تشاريتو : هو تصغير تحبب لمن تسمى Charo ، وأداة التعريف ، المؤنثة هنا : (La) ، لا تدخل على اسم العلم الا للتحجب او التحقير .

يتجسس على رسائلي وكتبي . كنت ألج الى حجرتي في غير الوقت المعتاد
أحيانا فأجد طبيب العيون يتفحص اثائي الضئيل ، يجس حوائجي الفقيرة .

كان لا بد لي من أن ابحث في عز الشتاء ، متخبطا في الشوارع
العداية ، عن مأوى جديد حيث أحفظ استقلالتي المهده . عثرت عليه في
مكان قريب من ذلك ، على بعد بضعة أمتار من هناك ، في مفصلة من هذه
المفاصل الكبيرة . بدأ للعيان وللعين ان صاحبة هذه المفصلة ليست لها
علاقة بما وراء الطبيعة . بعد اجتياز فناءات باردة وباحات كأنها البحيرات
وينابيع ماء راكد لا دافق حيث الطحالب المائية تغطي سجاجيد متينة خضراء
وعلى الجانبين تمتد حدائق مهملة مهجورة ، وصلت الى غرفة ذات سماء
وجدران ملساء جرداء ، ذات نوافذ متسلقة مثقوبة فوق ساكف الابواب
العالية الفسيحة . وهذا ما جعل المسافة بين الارضية والسقف تكبر في
عينيّ وتعظم في تقديري . في هذه الدار وفي هذه الغرفة مكنت .

لقد كنا نحن الشعراء الطلبة نحيا حياة غريبة عجيبة . انا دافعت عن
عاداتي الريفية ، كنت أشتغل في غرفتي ، اكتب عدة قصائد في اليوم ،
اتناول طاسات من الشاي لا تنتهي . كنت أطيّب الشاي وأعدّه انا بنفسي .
لكن ، خارج غرفتي وبعيدا عن شارعي ، انطلق كما اهوى فقد كان لفوضى
تلك الفترة واضطرابها جاذبيتها الخاصة . زملائي ما كانوا ليرتادوا المقاهي
بل الخمرات والحانات . كانت الاحاديث والاشعار تروح وتجيء حتى مطلع
الفجر ، ودراستي تروح وتجيء لاعنة شامة .

كانت شركة السكك الحديدية تهب والذي برده ذات نسيج سميك
رمادي اللون ، تقيه البرد والصقيع ، لكن والذي ما استعملها ابدا فوهبها
للشعر . بدأ ثلاثة من زملائي الشعراء او اربعة منهم يشتملون ببرود شبيهة
ببردي التي كنت أعيرها كذلك لآخرين . هذا الطراز من الثياب كان يشير
حفيظة الناس : الطيب منهم والسيء . كانت تلك الفترة هي فترة رقصة
«التانغو» التي قدمت الى تشيلي ليس بانغامها و«مقصها» العازف ، بالآت
«الاكورديون» ووقع الحانه ، فحسب ، بل كذلك بجوقة من الصعاليك
الاوغاد الذين اكتسحوا الحياة الليلية والزوايا التي كنا فيها نجتمع .

ان هذه الطغمة من الاوباش ، برقصهم وعربدتهم ، كانوا يشنون المعارك ضد برودنا ووجودنا ، فكنا نحن الشعراء نكيل لهم الصاع صاعين ونقاومهم ببسالة وصلابة .

في تلكم الايام اقتنيت صداقة غير متوقعة ، صداقة ارملة ما نسيتها قط ، ذات عينين زرقاوين واسعتين تعبران في حنان ورقة عن ذكرى زوجها الحديث الوفاة . كان زوجها روائيا شابا ، شهيرا برشاقته البديعة . كانا قد كونا معا تنائيا جديرا بالذكر والذكرى ، هي بشعرها القمحسي وجسدها المتقن الصنع وعينيها المحيطيتين وهو بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة . الروائي هلك من بعد بمرض السل ، من هذا النوع الذي يعتونه بالسل المستعجل . من بعد فكرت في ان رقيقة حياته الشقراء لا بد انها ساهمت بنصيبها من السل المستعجل في القضاء عليه فهي «فينوس» السل والشبق ؛ فالسل المستعجل ، قبل اكتشاف البنسلين ، وهذه الشقراء الملتهبة ، نقلنا من هذا العالم ذاك الزوج المتين كالصنم في اشهر معدودة .

لم تكن تلك الارملة الجميلة قد نزعنا عنها بعد ، لي ، نياها الغامقة المنسوجة من حرير اسود وبنفسجي ، التي كانت تجعلها تبدو وكأنها ثمرة يانعة رطبة محفوفة بلحاء من سواد . هذا اللحاء انزلق ذات مساء في غرفتي ، هناك في عمق المغسلة ، فلمست وقطفت تلك الفاكهة الخالدة من ذوات الثلج المحرق والرونق المتوهج . حين اوشكت الغيبوبة الطبيعية على الاستنفاد ، لمحت تحت عيني عينيها وهما تطبقان نغيبسان وهي تصرخ متنهدة او جاهشة : « آه ، آه ، آه ، آه » (روبرتو ، روبرتو) . (بدا لي ذلك كأنه مشهد من الاعمال الطفوسية . العذراء في المعبد الروماني تنادي الإله المخنفي قبل ان تستغرق في طقس جديد) .

على الرغم من شبابي التدفق الظميء فان هذه الانثى بدت لي مفرطة في سغبها وغليلها . كانت تهيجاتها وتهيجاتها تزداد استعجالا في كل مرة وقلبها المتقد الحار يقودني شيئا فشيئا الى هلاك عاجل : وما كانت الغلظة لتتوافق مع الفاقة وعدم التغذية . وفاقتي كان في كل يوم تغدو اكثر مأساوية .

الخجل

ان الحقيقة هي انني عشت خلال كثر من سنواني الاولى ، قد تكون سنوات العقد الاول والثاني من حياتي ، كائني أصمّ ابكم .

كنت ارتدي رداء اسود منذ صباي ، اقلد بذلك شعراء القرن الماضي الاصليين ، فقد كان لي انطباع غامض بأنني لست قبيح المظهر . لكنني بدل من ان اقترب من الفتيات كنت افضل ان أمرّ بهن جانبا وابتعد عنهن مظهرا لامبالاة بهن . الحق يقال اني كنت في داخلي اهتم بهن وابالي غير اني كنت أخشى ان دنوت منهن وكلمتهن ان أتلعثم او احمر خجلا امامهن . لقد كن بالنسبة لي طلسمًا وسرا عميقا لا يسبر أعماقه . وددت لو اني اموت احتراقا في هذه المجرمة السحرية ، اختناقا في هذه البئر ذات القاع اللغز بيد اني ما كنت لأجرؤ ان أقذف بنفسي الى النار او الى اللجة . ربما كان سبب ذلك هو اني ما عثرت على من يدفعني فأنقذ . كنت احاذي ضفاف السحر دون ان التفت ولو بنظرة او ابتسامة .

الشيء نفسه كان يقع لي مع الكبار ايضا ، مع اناس فقراء ، مع مستخدمين في السكك الحديدية او في البريد ، مع «سيداتهم حرمهم» ، فهكذا كانوا يدعونهم اذ ان البورجوازية الصغيرة كانت تشعر بالفضيحة والعار ان لفظت كلمة «امراتي ، امراتك ، امراته» . كنت انصت للاحاديث في مجالس والدي ، لكن ، اذا ما صادفت في اليوم التالي ، احدا من الذين كانوا قد بعثوا في بيتنا الليلة البارحة ، ما كنت أجرؤ على تحيته او رد السلام عليه ، بل انني كنت أغير سبيلي كي أتفادي اللحظة الحرجة .

ان الخجل لهو طبع غريب ، انه لمرتبة ، انه لمدى يطل على الوحدة والشعور بالانفراد والعزلة . وهو كذلك معاناة لا تنفصم عن المعيشة فكانما للمرء بشرتان اثنتان : الباطنية منهما تشمئز وتشنج تجاه الحياة . ان هذه الميزة وهذه الاذية بين بني الانسان ، لهما جزء من السبيكة التي تدعم ، في ظرف مديد ، تأييد الوجود وتخليد الانسان .

لقد استغرق تشاقلي في المسير ، اغراقي في التفكير المستديم فترة

أكثر مما يجب . عندما قدمت الى العاصمة تباطات في كسب الصديقات والاصدقاء . كلما اولاني احدهم اهمية أقل اوليته صداقتي بسهولة أقل . ما كان عندي الذآك فضولية في التعرف على النوع البشري . لا أستطيع أن أتعرف على أناس هذا العالم كلهم ، كنت أقول في نفسي . وهكذا نشأت في بعض الاوساط فضولية شاحبة حول هذا الشاعر الجديد ذي ١٦ سنة من العمر او أكثر قليلا ، فتى منطو بمنزل يترى في مجيئه وذهابه وهو صامت ساهم لا يلقي السلام ولا يرد التحية ، لا يسودع ولا يستودع . بالاضافة الى انني كنت ارتدي بردة طويلة من الطراز الاسباني تجعلني أشبه شيء بفزاعة عصافير . ما كان إحد يظن أن ردائي الفضفاض هذا كان نتاجا مباشرا لفقرتي وعوزي .

من بين الذين استقصوا عني واهتموا بي اثنان كانا من أبرز طليعة تلك الفترة في التائق وحب البروز : (بيلو يانيث) وزوجته (ميننا) . كانا يمثلان الانموذج الكامل في البطالة الرائعة التي وددت أن أحيهاها ، غير انها بعيدة المنال بالنسبة لي ، أبعد من حلم جميل . لأول مرة في حياتي تلك دخلت الى دار ذات تدفئة وثريات بديعة هادئة ومقاعد لطيفة مريحة وجدران طائفة بكتب اكعابها مختلفة الالوان والاشكال كأنها ربيع دائم . آل (يانيث) كانوا يدعونني مرات كثيرة لزيارتهم فقد كانوا كرمساء رصينين لا يعيرون اهتماما لبداءة بردتي الغريبة ، بردة الرهينة والتأمل والانتكباب . أغدو من بيتهم راضيا فيلاحظون ذلك فيدعونني من جديد فألبي راضيا .

في تلك الدار رايت لأول مرة لوحات تكعيبية ومن بينها لوحة (خوان غريس Juan Cris) (٥) . أخبروني أن (خوان غريس) كان صديقا لعائلتهم في باريس . لكن أكثر شيء لفت انتباهي هو البيجاما التي كان يرتديها صديقي (بيلو) . كنت أستغل كل فرصة سانحة لانظر الى هذه البيجاما الجميلة شزرا بطرف عيني وفي اعجاب شديد . لقد كان الوقت شتاء وتلك كانت بيجاما من قماش سميك كأنها قطيفة طاولة «البلياردو»، لكنها في زرقعة لجة البحر . آنذاك ما كنت أعرف صنفا آخر لبيجاما اللهم

الا تلك الخطوط التي تبدو كأنها زيّ سجين في حبس معتم . ان بيجاما (بيلو يانيث) هذه فاقت البيجامات جميعها وخرجت عن الاطر كلها . نسيجها المتين السميك وزرقتها المشعة كانا يثيران حسد شاعر فقير يعيش في ضواحي سانتياغو . لكنني، في الحقيقة ، ما رأيت عيناها خلال خمسين سنة بيجاما مثل تلك .

لم أعد ارى آل (يانيث) لسنين طويلة . هي هجرت زوجها وفارقت كذلك الدراري والاروقة الفاخرة ومضت مع بهلوان سيرك روسي مر يوما بسانتياغو . فيما بعد صارت تبيع التذاكر في العالم من أستراليا حتى الجزر البريطانية ، مساهمة في استعراضات البهلوان الذي بهتها وخبب قلبها . ثم تسمت بـ (روسا كروث) او شيئا من هذا القبيل ، وعاشت في مجمع متاع مختلط الجنسيتين بجنوب فرنسا .

اما (بيلو يانيث) زوجها ، فقد غير اسمه واستبدل به اسم (خوان ايمار) ، وتحسّل مع مرور الزمن الى كاتب قدير ولكن باسمه المستعار هذا . كنت له صديقا طيلة حياته . صامتا وأنيقا وفقيرا عاش ومات هكذا . ان مؤلفاته الكثيرة ما زالت حتى الان دون نشر ، بيد ان ابداعه لا بد ان يظهر ذات يوم .

سأنهي الحديث عن (بيلو يانيث) او (خوان ايمار) (ولسوف أعود من بعد لوضوع خجلي) ذاكرا انه خلال عهدي الجامعي ، أصر صديقي (بيلو) هذا على تقديمي الى والده . «سيؤمّن لك السفر الى اوروبا بكل تأكيد» قال لي . في تلكم الاوقات شعراء امريكا اللاتينية ورساموها جميعهم كانت عيونهم مسمّرة في باريس . والد (بيلو) كان شخصية مهمة جدا ، عضوا في مجلس الشيوخ . كان يعيش في دار من هذه الدور الضخمة القبيحة، في شارع قريب من ساحة «ارماس» ومن القصر الجمهوري ، الذي كان بفضل هو من غير ما شك ، أن يعيش فيه لو سنحت له الظروف .

صديقي (بيلو) وزوجته - لما تكن قد هجرته - بقيا في الرواق بعد ان نزعنا عني بردتي لكي ابدو شخصا عاديا . فتّح باب قاعة الشيخ لي ثم أغلق خلف ظهري . قاعة واسعة جدا ، ربما من قبل كانت قاعة للاستقبالات الحافلة ، غير انها كانت خاوية خالية . ميزت من بعيد ، في الطرف

الآخر من القاعة ، تحت مصباح مركّز على سارية ، مقعدا عظيما والشيخ عليه . صفحات الجريدة التي كان يقرأها كانت تخفي عني طلعه كإنما الجريدة حجاب يحجبه .

حين خطوات اول خطوة فوق الارضية الخشبية المصفولة والمشمعة بشكل اجرامي ، تزلقت كأني منزلج ماهر . سرعة هرولي كانت تتزايد في عجلة هائلة ، دعست على المكبح كي أتوقف وأذبي انخض وأهتسز وارترض عدة مرات كانت آخرها عند أفدام التسيخ الذي خزنسي بعينين باردتين مواصلا قراءة الجريدة .

نوصلت الى ان أجلس نفسي على مقعد بجانبه . الرجل العظيم تفحصني بنظرة عالم حنرات نعب قد احضر له نموذج من الحشرات عرفه بالذاكرة ، عنكبوت مسالم . سألني في نكاسل عن مشاريعي . أنا ، بعد الررضة والندحرج ، كنت اكثر خجلا وأفل فصاحة مما أنا عليه عادة .

لا أدري ماذا قلت له . بعد عشرين دقيقة ناولني بعضا من يده كعلامة للانصراف . كأني سمعته يقول بصوت ناعم خفيف بأنه سيتصل بي ويخبرني بشيء . ثم عاد ليواصل قراءة جريدته وأنا شرعت بالاياب ، عبر تلك الارضية الخشبية الخطيرة ، مسرفا في اتخاذ الاحتياطات اللازمة التي كان عليّ أن اتخذها من قبل حين انطلقت لاجتازها . طبعا ما وصلني من الشيخ والد صديقي اية بشرى ولا خبر ، ابدا . انتفاضة عسكرية ، على فكرة ، غبية ورجعية ، أطاحت به من على مقعده هو وصحيفته التي لا تنتهي . اعترف بأني سررت لذلك وفرحت .

اتحاد الطلبة

في «تيموكو» كنت مراسلا لمجلة «كلاريداد» Claridad (١) الناطقة

٦ - كلاريداد : معناها ، الوضوح .

باسم اتحاد الطلبة ، وكنت أبيع منها من عشرين الى ثلاثين نسخة بين زملائي في المدرسة . ان الاخبار التي وصلت الينا ونحن في «تيموكو» عام ١٩٢٠ ، قد طبعت ابناء جيلي بندوب دموية . . . منظمة «الشبيبة الذهبية» ، لدى طبقة الاقلية الحاكمة ، كان قد هاجم أفرادها مقر اتحاد الطلبة فحطموه تحطيمًا . العدالة التي منذ الاستعمار حتى الوقت الحالي كانت في خدمة الاغنياء ، لم تسجن المعتدين الاثمين بل الابرياء المعتدى عليهم . (دومينغو غومث روخاس) الشاب الذي كان أمل الشعر التشيلي اذاك ، جن مسن وطاة العذاب وقضى نجبه في معتقله . كان صدى هذه الجريمة ، ضمن الاوضاع المحلية لبلد صغير ، شديدا وعميقا ، كما لو كان اغتيال (فيدريكو غارثيا لوركا) بفرناطة .

حين وصلت الى «سانتياغو» في آذار من عام ١٩٢١ ، لكي التحق بالجامعة ، لم يكن عدد من سكان العاصمة يبلغ خمسمائة الف نسمة . كانت تفوح برائحة الغاز والبن . آلاف الدور كانت مسكونة باناس غرباء وبالبق . تقوم بالمواصلات بين الشوارع والاحياء حافلات «ترام» صغيرة غير منظمة ، تضطرب في مسيرها وتنز بحدائد كانت لها واجراس صغيرة . السفر بين نهج « اينديبيندنثيسا » وبين الطرف الاخر من العاصمة ، حيث كان معهدى الجامعي قرب المحطة المركزية ، كان لا ينتهي لطول المسافة وتباطؤ الحافلة .

كان يدخل ويخرج من مقر اتحاد الطلبة زعماء التمرد الطلابي المشهورون حينذاك ، وهم عقائديا كانوا مرتبطين بالحركة الفوضوية القديرة الكاسحة في تلك الفترة . كان اكثر هؤلاء القادة والزعماء تاريخيا في النضال ، الرباعي العنيف : (الفريدو ديماريا) ، (دانييل سشيويتزير) ، (سانتياغو اباركا) ، (خوان غاندولفو) ، وكان (خوان غاندولفو) ، من غير ما شك ، اعظمهم وأروعهم ، كان يهاب لوعيه السياسي العميق الجريء ولشجاعته المجربة في كل معترك . كان يعاملني كما لو كنت طفلا صغيرا وفي الحقيقة كنت لما أزل طفلا . ذات مرة وصلت متأخرا عن الموعد الى عيادته من اجل استشارة طبية ، نظر اليّ مقطب الجبين وقال : «لماذا لم تات في الساعة المحددة ؟ ، هناك مرضى آخرون ينتظرون» . «ما كنت

أعرف كم كانت الساعة» ، أجبته . «خذ من أجل ان تعرف الوقت نسي
المرّة القادمة» ، قال لي وأخرج ساعة من جيب صدرته فأعطانيها هدية ،
شكرته عليها .

(خوان غاندولفو) كان صغير القامة ، مكور الوجه مدوره ، أصلع قبل
الاولان . غير ان هيئته كانت دائما تفرض نفسها . تحداه للمبارزة ذات مرة
احد العسكريين الذين فاموا بالانقلاب في ذلك الحين ، وكان هذا متهورا
بأنه عريبد وقح ، فقبل (غاندولفو) التحدي ، ثم تعلم فن المبارزة فسي
خمسّة عشر يوما ، وفي يوم النزال جندل خصمه وعفره . وفي هذه الايام
ذاتها حفر على الخشب غلاف اول ديوان لي «شفقيات» *Crepusculario*
ومشاهده المرسومة فيه . فانت حفريات مدهشة قام بها رجل لا احد يقارنه
في الخلق الفني والانداع .

ان اكثر الشخصيات أهمية ، في الحياة الادبية الثورية ، كان هو
(روبرتو مائا فويننيس) ، مدير مجلة «خوينتود» (٧) ، التي كانت ايضا
تابعة لاتحاد الطلبة ، كانت احسن انتقاء وأكثر اتقانا من مجلة «كلاريداد» .
وعلى صفحاتها كان يبرز (غونثاليت بيرا) و(مانويل روخاس) (٨) ، وهما من
جيل أقدم من جيلي . (مانويل روخاس) جاءنا من الارجننتين ، وله من العمر
سنون كثيرة ، فادهتنا بقامته الهيابة وبكلماته الني يسقطها من فمه بشيء
من الازدراء او من الزهو والاعجاب . كان يعمل صافئا للحروف في المجلة .
اما (غونثاليت بيرا) فقد كنت اعرفه منذ ان جاءني الى «تيموكو» هاربا اثر
هجوم الشرطة على مقر اتحاد الطلبة ، جاء مباشرة من محطة القطار التي
تبعد بضعة أمتار عن بيتنا ليراني . كان مظهره جديرا بأن أذكره دائما وقد
كان لي اذالك ١٦ سنة ، في بداية مسيرتي الشعرية . ابدا ما رأيت من قبل
وجها أكثر شحوبا من شحوب وجهه الضئيل جدا كأنه قدّ من عساج
وجمع من عظام ، كان يتشخ برداء اسود قد انفرط خيطه في الاكمام
والاطراف . دون ان يفقده اناقته . كلامه رن لي منذ اللحظة الاولى حاد

٧ - خوينتود : معناها ، الشباب .

٨ - مانويل روخاس : روائي ولد عام ١٨٩٦ .

النبر هارلا ، اثارني حضوره في تلك الليلة المطرة التي قادتة الى بيتنا ، دون ان ادري من قبل عن وجوده شيئا : كان وصوله كوصول ذاك العدمي التائر الى بيت (ساستا يفوليف) ، بطل (اندرييف Andreiev) (٩) تلك التخصية التي كان شابا امريكا اللاتينية المنمرد يتخذها نموذجا وامثولة .

البرتو روخاس خيمينيث

في محلة «كلاريداد» التي انتميت اليها عضوا سياسيا واديبا ، كل شيء تقريبا كان يدار ويوجه من قبل (البرتو روخاس خيمينيث) ، الذي غدا فيما بعد من اكثر زملائي الذين في سني ومن جيلي حبا في نفسي وتعظيما . كان ينجل بقبعة فرطبية ويضع شارات طويلة كأنه شريف من الشرفاء . انيقا رشيفا بخطر ويتخايل ويتمخطر كأنه عصفور مذهب مزدان على رغم بؤسه وعوزه . كانت تمثل فيه صفات الفتوة الجديدة كلها : سلوك متعفف أبي . ادراك كامل للنزاعات العديدة وإلام بها ، معرفة جذلي (وشهية طيبة) بكل الاشياء الحيوية . كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وأرخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستعمله حتى الثمالة وفسي تفاصيله ودقائمه ، غادبا او رائحا . كان يتنقل في الوسط الادبي بنسيم منعتس وطلعة تنم عن فاسق ولفئات نذل عن حاذق ومبادهات تنبى عن نابغ وإتسارات تخبر عن ساحر . ربطات عنقه كانت دائما عينات غنسى ومساطر ثروة . في اطار الفقر العام . كان يبدل دورا ومدنا وبلدانا دائما ابدا لا يقر له قرار ولا يستقر على حال وهو بهذا التنقل وبسروره الفرح الجدل وببوهيميته الفطرية كان يسر لبضعة أيام او اسابيع السكان المباغتين المفاجئين حيث يحل او يمر ب «رانكاغوا» ، ب «كوريكو» ، ب «بالديبيا» . ب «كونثيشيون» ، ب «بالبارائيسو» . كان يرحل كما قدم ؛ حيث ينزل، يدع أشعارا ، رسوما ، ربطات عنق ، عاشقات ، صداقات . بما انه كان من جبلة امير حكايات شرقية ومن محند كريم خيالي لا بصدق ، فقد كان

٩ - اندرييف : روائي ومسرحي روسي (١٨٧١ - ١٩١٩) .

يهدي كل شيء ويجود بكل ما عنده : قبعته ، قميصه ، سترته ، صرافيته،
وحتى بحذائه . حين لا يبقى معه شيء مادي يمنحه ويهديه فانه كان يرسم
شيئا على الورق ، او يكتب جملة او بيت شعر او آية املوحة لطيفة وبرايماءة
كريمة منه يعطيكه فترضى كما لو انه ترك في يدك جوهرة لا تقدر ، ثم
ينطلق .

كان ينظم أشعاره على الطراز الاخير ، متابعيا في ذلك تعاليم
(ابوليني) (١٠) والعصبة التطرفية (١١) في اسبانيا . لقد أسس مدرسة
شعرية جديدة باسم «أغو» Agu هذه الكلمة ، كما كان يقول ، هي
صرخة الانسان الاولى ، اول بيت شعر ينطق به الوليد .

ان (روخاس خيمينيث) فرض علينا أنماطا في اللبس ، في طريقة
التدخين ، في الخط والكتابة . مستهزئا بي ولكن في لباقة لا حد لها ،
ساعدني على ان أنزع مني نفمتي الكثيبة . لم يعدني ابدا بتشككه الظاهري
وارتيابه في كل شيء ولا بسكره العاصفي ، فقد خرجت من ذلك سليما .
بيد اني ما زلت أذكر حتى الان بحنين شديد شكله الذي كان يضيء كل
شيء ، يجعل الجمال يطير من كل الانحاء كما لو كان يبعث الحركة فسي
فراشة مختبئة .

لقد تعلم من السيد (ميغيل دي اونا مونسو) (١٢) صنع
عصافير من ورق . كان يشيد عصفورا ذا عنق طويل وأجنحة مديدة

١٠ - ابولينيير : شاعر فرنسي (١٨٨٠ - ١٩١٨) .

١١ - العصبة التطرفية : هي عصبة شعرية انتشرت مبادئها في اسبانيا عام ١٩١٨
ثم عمت امريكا اللاتينية كلها ، كانت تدعو الى صرورة الاسراع في اجراء تغييرات جذرية
في الشعر وفي الحياة .

١٢ - ميغيل دي اونامونو : هو المفكر والشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٦٤ -
١٩٣٦) ، لقد ترجمنا له وعنه في كتابنا «دون كيخوته في القرن العشرين» منشورات المعهد
الاسباني العربي للثقافة في مدريد عام ١٩٦٨ ، وفي كتابنا الاخر « مختارات من الشعر
الاسباني المعاصر » منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٣ .

فينفخ فيه ليظير . كان يدعو هذا النفث ، اعطاء العاصفير «الدافع الحيوي» .
كان يكتشف شعراء من فرنسا ، توارير خمر في الاقبية ، كان يوجه
رسائل غرامية الى بطلات (فرانثيس جيمس) (١٣) .

ان ابياته الجميلة كانت نخرج وتلف في جيوبه ، وهي حتى الآن لم
تنشر .

ان شخصيته المفرطة في غرابتها كانت كثيرا ما تلتع الانظار السي
درجة انه في احد الايام ، بينما كان جالسا في مقهى ، اقترب منه رجل
مجهول وقال له : ايها السيد ، لقد كنت استمع اليك فأعجبتنسي
فاستلظفتك ، اسمح لي ان اقول لك شيئا ؟ ، «وما هو هذا الشيء» ؟
اجابه (روخاس خيمينيث) في جفاء ، «ان تسمح لي ان افغز فوقك» قال
الرجل المجهول ، «لكن ، كيف ؟» قال الشاعر «هل انت جد قدير ونسيط
الى درجة انك تقدر على ان تغفز من فوقي ، وانا جالس في هذه الطاولة؟»
«كلا ، ايها السيد» استدرك الرجل المجهول في صوت خفيض ، «انا اريد
ان افغز من فوقك في وقت آجل ، حين سنريح حضرتك في التابوت ،
ان هذا هو الشكل الذي اكرم فيه الشخصيات الهامة التي اتعرف عليهم
في حياتي الا وهو القفز من فوقهم ، ان يسمحوا لي بذلك ، حين يكونون
جثنا في التوابيت ، انا رجل وحيد متوحد وهوايتي الوحيدة هي هذه» .
ثم اخرج مفكرة من جيبيه وقال له : «هنا في هذه المفكرة لدي قائمة
باسماء الشخصيات الذين قفزت من فوق جثتهم» . قبيل (روخاس
خيمينيث) وقد جن فرحا ، هذا الاقتراح الغريب . بضعة سنوات من بعد ،
في فصل من فصول الشتاء الاكثر امطارا وبردا مما اذكر انه مر علينا في
تسيلي ، مات (روخاس خيمينيث) كان قد ترك سترته كعادته في احدى
حانات مركز مدينة «سانتباغو» . وليس على جسده غير قميص خفيف عبر
المدينة في ذلك الشتاء القارص القاسي متوجها الى منزل اخن (روسيتا)
بدار المعلمات الخامسة . لم يمض يومان حتى اختطفت من هذا العالم ،
ذات الرثة ، واحدا من اكثر الاشخاص الذين عرفتهم سحرا وروعة ، ذهب

١٣ - لرائيس جيمس : شاعر وروائي فرنسي (١٨٦٨ - ١٩٢٨) .

الشاعر بعصافيره الورقية طائرا عبر السماء وتحت المطر .

لكن ، في الليلة التي كان يسهر اصداقؤه حول نعشه ، جاءهم زائر غريب . كان المطر يتساقط مدرارا على أسطح المنازل ، والرياح والرعود والبروق كانت تضيء وتهز اشجار اللوز في باحة دار المعلمات ، حين فتحت الباب فدخل رجل متشح بالسواد وعليه علامات الحزن والحداد ومبتلا بالامطار ، لا احد منهم كان يعرفه ، امام استغراب هؤلاء الذين كانوا يسهرون حول النعش ، تراجع المجهول قليلا ثم قفز من فوق التابوت ، دون ان ينبس ببنت شفة فادر المكان فجأة مثلما جاء ، ثم اختفى تحت اجنحة الليل وزخات المطر . وهكذا ختمت حياة (البرتسو روخاس) المفاجئة ، بمفاجأة طقس لفرز لا احد حتى الآن استطاع له تفسيرا وتبيانا .

كنت على وشك الوصول الى اسبانيا ، حين نعي اليّ . مرات قليلة في حياتي شعرت بألم شديد وحزن ممضٍ كالذي شعرت به وأنا في برشلونة ، على فقد هذا الصديق ، حالا شرعت بكتابة مراثي (البرتسو دوخاس خيمينيث) «يجيء وهو يطير» (Alberto Rojas Gimenez Viene Volando) . نم نشرتها من بعد في مجلة «اوكتيدنته» (١٤) .

لكن ، كان عليّ أن أؤدي طقسا من الطقوس لتوديعه . لقد مات بعيدا عني ، في تشيلي ، في ايام ذات أمطار مخيفة أغرقت المقبرة بأسرها . لا بد أن اجري للاحتفال بذكراه شيئا ، فانا لم أمكث عند رفاته نادبا ولم أمش في جنازته نائحا ، ذهبت الى صديقي الرسام (اسائياس كابيثون) ، فرافقني في التوجه الى الكنيسة الكبيرة الرائعة ، كنيسة «سانتا ماريا ديل المار» (١٥) . اشترينا شموعا كبيرة ، طويلة جدا تقريبا بقدر طول هيكل

١٤ - اوكتيدنته : معناها ، الغرب وهي مجلة اسمها في مدريد الفيلسوف الاسباني (اورتيزا اي غاسيت) ، وقد ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور «دون كيخوته في القرن العشرين» ، وما زالت هذه المجلة تصدر حتى الآن .

١٥ - سانتا ماريا ديل مار : معناها ، القديسة مريم البعير ، وكذلك فان اسم مريم معناه قديسة اليم .

انسان ، ودخلنا بها الى ظلال ذلك المعبد الغريب . بما ان «سانتا ماريا ديل المار» كانت كاتدرائية البحارة فقد بناها حجرا على حجر منذ عدة قرون صيادون وبحارة . من بعد زيتنت بالآف التدور ، بقوارب من جميع الاشكال والحجوم تمخر عبر الخلود ، كانت تفرس بها جدران الكنيسة الجميلة وسفقتها البديع . تصورت ان هذا المكان هو مشهد ومسرح جديران بالشاعر العقيد ، فلو كان حيا وعرف هذه الكنيسة لاتخذها مراحسا له ومسرحا ولكن مكانه المفضل . اشعلنا التسموع في صحن الكنيسة العظيمة تحت قبابها العديدة ، ونحن جالسان في الكنيسة الخاوية ، وزجاجة نبيد اخضر ارائي واخرى ازاء صديقي الرسام ، فكترنا في ان هذا الاحتفال الصامت ، على الرغم من اعتقادنا بمذهب اللاادرية ، يقربنا من صديقنا في عالمه السحري بشكل من الاشكال السحرية الغامضة . التسموع المشتعلة في وسط هذه الكنيسة الكبيرة الخاوية كانت تبدو وكأنها شيء حي يلتمع حياة ويريقا كما لو ان عيني ذلك الشاعر المجنون الذي اخمد قلبه الى الابد كانتا تنظران الينا من بين الظل والنور في تلك التدور .

مجانين في الشتاء

على ذكر (روخاس خيمينيث) اقول ان الجنون ، نوعا من الجنون ، يمضي أحيانا كثيرة في احضان الشعر . فكما ان ذوي الحكمة والعقل يكلفهم جهدا كبيرا ان يصبحوا شعراء كذلك فان الشعراء يكلفهم طاقته عظيمة من العناء ان يغدوا عقلانيين ، بيد ان العقل دائما يربح الجولة ويكسب الشوط ، فالعقل اساس العدل الذي يجب ان يسود في العالم ويسوده . (ميفيل دي اوانامونو) ، الذي كان يحب تشيلي كثيرا ، قال ذات مره : «ما هذا القول ، بالحجة او بالقوة ؟ بالحجة ودائما بالحجة» .

من بين الشعراء المجانين الذين عرفتهم في فترة اخرى سأخصص بالحديث الان (البرتو بالديبيا Alberto Valdivia) ، كان واحدا من اكثر الخلق نحافة ، شاحب الوجه اصفر اللون . كما لو انه خلق من عظم بلا لحم ولا شحم ولا دم ، ذا لبدة كثيفة جدا ، رمادية اللون ، وزوج من النظارات تحجب عينيه المبلتين بقصر النظر ولكنهما ترسلان نظرات بعيدة .

كنا نسميه «الجثة بالديببا» .

كان يدخل ويخرج في سكون من الحانات والندوات والمقاهي وحفلات عزف الموسيقى ، دون ان يشير ضجيجا ولا غبارا وتحت ابطه حزمة من الصحف، غريبة عجيبة . «ابتها الجثة العزيزة» كنا نقول له نحن اصدقاءه، ونحن نحضن جسده الالاجسدي فنحس كأننا نعانق مجرى هوائيا .

لقد نظم أشعارا قيّمة رائعة مفعمة بشعور رقيق وعدويسة آسرة ، اليكم بعض هذه الابيات :

«كل شيء سوف يمضي ، السماء ، الشعاع ، الحياة :
انتصار الشريقي والردى الحتمي يطفى
ليس يبقى غير عينيك ازائي في مصري
با ابنة النور ويا أخت حياتي في الغروب» .

شاعرا حقيقيا كان ذلك الذي كنا ندعوه في محبة وود «بالديببا الجثة» . مرات كثيرة قلنا له : «ابتها الجثة ، ابق للاكل معنا» . لم يكن ينزعج ابدا من هذه التسمية . احيانا في شفتيه الرفيعتين الرقيقتين كانت تطل ابتسامة . جملة كانت موجزة مقتضبة لكن مشحونة بالتلميح والفحوى . لقد اصبح طقسا من الطقوس المقدسة اخذه كل سنة الى المقبرة . في الليلة السابقة لفتح تشرين الثاني كنا نقدم له عشاء فاخرا جدا بقدر ما كانت تسمح به جيوبنا الضامرة ، جيوب طلاب وأدباء شبان . «جثتنا» هذا كان يشغل مكان الصدارة ويجلس على حجر الشرف ، في الساعة الثانية عشر تماما من منتصف الليل طبعاً كانت المائدة ترفع فنذهب في مسيرة طروب نحو المقبرة . في سكون الليل كانت تلقى بعض الخطب احتفالا وتكريما وتأيينا للشاعر «المرحوم» . من بعد ، كل واحد منا يودعه في حزن وخشوع ووقار ثم ننطلق راجعين تاركينه وحده عند بوابسة الجبّانة . «الجثة بالديببا» كان يقبل هذا التقليد الذي لم يكن فيه قساوة او احتقار ، برحابة صدر ، اذ انه كان يشارك في هذه المسرحية الهزلية حتى آخر لحظة يؤدي دوره على أحسن وجه . قبل ان نتركه كنا نعطيه عادة «بيسوس» Pesos ؛ قروشاً حتى يستطيع ان يأكل ما طاب له من «سندويش» ، في حفرته بالمقبرة .

لم يكن يفاجأ احد منا حين يدخل هو بعد يومين او ثلاثة من جديد في صمت وسكون الى حلقات التنكيت والتبكيث ، او المقاهي . طمأنينته مضمونة حتى فاتح تشرين الثاني من العام التالي .

في «بونوس ايريس» تعرفت على كاتب ارجنتيني غريب الاطوار جدا، يدعى (عمر بيغنوله Omar Vignole) . لا ادري ان كان ما يزال حيا حتى الآن . كان رجلا ضخما الجثة عظيم الهيئة ، يحمل في يده عكازا ثخيننا غليظا . ذات مرة ، في احد مطاعم مركز المدينة حيث دعاني الى العشاء ، بينما كنا قرب المائدة اثار لي بيده المبسوطة وقال بصوت جهوري سمع في قاعة المطعم الفاصلة بالزبائن : «تفضل اجلس ، يا سيد (عمر بيغنوله)» ، فجلست وعلائم الانزعاج بادية على وجهي وسألته حالا : لماذا نناديني باسم (عمر بيغنوله) علما انك انت هو وأنا (بابلو نيرودا) ؟ ، «اجل ، - اجابني - لكنما في هذا المطعم ثمة اناس لا يعرفونني الا باسمي فحسب ، وبما ان هناك عددا ليس بالقليل يرغب ان يعرفني شخصا فينهال على ضربا ، فاني افضل ان تكون من نصيبك هذه الضربات بدلا مني .

ان (بيغنوله) هذا كان مهندسا زراعيا في محافظة ارجنتينية ومنها احضر معه الى العاصمة بقرة كان بها يعقد صداقات متينة حميمة . كان يتنزه وينزه بقرته عبر شوارع «بونوس ايريس» قاطبة ، وهو يجرب بقرته بحبل ورسن . في ذلك الحين نشر عدة كتب يعنونها دائما بعناوين تلميحية: ما يدور في خلد البقرة ، انا وبقرتي (١٦) الخ .

حين انعقد في بونوس ايريس لاول مرة مؤتمر «نادي القلم» العالمي Pen Club (١٧) ، كان الكتاب المؤتمرون برئاسة (فيكتوريسا اوكامبو) (١٨) يرتجعون فزعا بعد ان بلغهم ان (بيغنوله) وبقرته سوف يأتيان

١٦ - انا وبقرتي : وهو تقليد لكتاب الشاعر الاسباني (خوان رامون خيمينيث Juan Ramon Jiménez) (١٨٨١ - ١٩٥٨) المعروف باسم انا وحماتي وقلد هذا الكتاب كذلك ادبنا (توفيق الحكيم) ، وقد ترجمنا لهذا الشاعر ومنه في كتابنا اللدكسور مختارات من الشعر الاسباني المعاصر .

١٧ - نادي القلم : هو جمعية ادبية لها طابع امبريالي وصهيوني ، هناك قصة حدثت (نيرودا) مع هذا النادي سيرويها فيما بعد .

١٨ - فيكتوريا اوكامبو : هي كاتبة ارجنتينية معاصرة .

للمشاركة في جلسات المؤتمر ومداولاته . أبلغوا السلطات المسؤولة عن
الخطر الذي سوف يداهمهم ويهددهم فجاء رجال الامن وطوقوا الشوارع
المؤدية الى فندق « بلانا » كسي يمنعوا ان يصل الى المقر الفخم
حيث كان ينعقد المؤتمر ، موكب صديقي الفريب الشاذ وبقرته المحترمة .
عشا كان ما حاولوه واتخذوه من اجراءات واحتياطات ، اذ انه بينما كانوا
يتدارسون العلاقات بين عالم الاغريق الكلاسيكي ومجرى التاريخ الحديث ،
اقتحم قاعة المحاضرة ببقرته التي لا تفارقه ابدا ، ونالته الاثافي ان هذه
البقرة حين اتخذت لها موقعا في القاعة اخذت تخور كما لو انها كانت
بريد المشاركة في الجدل والبحث . كان قد احضرها الى مركز المدينة
حيث الفندق داخل عربة شحن مغلقة كبيرة ، فهزئت بحراسة الشرطة
وبالمؤتمرين .

عن هذا (بيغنولة) نفسه سأروي الآن حكاية أخرى ، حكي انه ذات
مرة ، تحدى (بيغنولة) بطلا في المصارعة اليابانية الحرة ، بعد موافقة البطل
المحترف وتحديد المكان والزمان ، وحين حانت ساعة التواجه و ليلة التقابل
وهيئت حلبة النزال وامتلات الساحة وغص المكان ، برز (بيغنولة) وبقرته
في الموعد المحدد ، فقيدها بركن من اركان الحلبة المربعة ، ثم نزع عنه
طيلسانه الانيق ودثاره ذا البريق وصعد الحلبة لمنازلة البطل الشهير باسم
«مارد كالكوئا» .

لكنه لسوء حظه وا فول نجمه ما افادته بقوته في النزال ولا نفعته
زينته في السجال ولا اعانه شعره في القتال ، فقد خرب عليه «مارد كالكوئا»
وما هي الا لحظات حتى جعله منطرحا مرميا كانه كتلة هامة بلا حول ولا
طول ، ثم وضع المارد رجله على حلقه اذلالا له وإرغاما ، فيا للثور الاديب
المعفر ويا للحنجرة الشاعرة المهروسة المدعوسة بين استهزاء الجمهور
الشرس واستخفاف المتفرجين الذين كانوا يطالبسون باستمرار الصراع
ومواصلة القتال ولكنه كان في حال من الاحوال .

بعد بضعة شهور نشر كتابا جديدا بعنوان «احاديث مع البقرة» ، ابدا
لن انسى الاهداء الذي لم يسبق اليه ، والذي استهل به كتابه ، هذا
نصه ، ان لم تخنني الذاكرة: «أهدي هذا الكتاب الفيلسفي الى الاربعين الف

ابن فحبة اللدين كانوا يصفرون لي ويستهزئون بي ويطالبون بموتي في حلبة الصراع ليلة ٢٤ من شباط» .

في باريس ، قبل الحرب العالمية الاخيرة ، تعرفت على الرسام (البارو غويفارا) وكانوا دائما ينادونه في اوروبا باسم (تشيلي غيفارا) . ذات يوم اتصل بي هاتفيا وقال لي : «انه موضوع مستعجل وفي غاية الاهمية» .

كنت قد قدمت من اسبانيا وكان صراعنا في تلك الفترة ضد (نيكسون) ذلك الزمان المدعو (هتلر) . كانوا في مدريد قد اغاروا على منزلي بفارات جوية ورايت هناك رجالا ونساء واطفالا وقد مزقت اجسادهم قنابل المغيرين وتناثرت جثثهم في كل مكان . الحرب العالمية كانت على وشك الانفجار ففقدنا العزم نحن فئة من الكتاب ، على محاربة الفاشية بسلاحنا الخاص الا وهو كتبنا التي كانت تعرف الناس بالخطر الداهم وتحضهم على الاستعجال في درء شروره .

ابن بلدي هذا كان على هامش هذا الصراع ؛ كان رجلا هادئا صموتا ، رساما يشتغل كثيرا ، مكبا على اعماله واشغاله . لكن الجو اذاك كان من بارود . عندما تمنع القوى الكبرى وصول الاسلحة الى الجمهوريين الاسبان ليدافعوا عن انفسهم ، ومن بعد ، في «مونيخ» يقررون فتح الابواب امام الجيش الهتلري ، فان هذا يعني ان الحرب لا بد واقعة .

أسرعت في التوجه لمقابلة من يسمى بـ «تشيلي غيفارا» ، فغد كان شيئا مهما وعاجلا ما كان يريد ان يبلغني به .

— بم يتعلق الامر ؟ — قلت له .

— ليس هنا وقت لاضاعته — اجابني — . ليس لك ان تعادي الفاشية ، وليس على المرء ان يكون ضد اي شيء . يجب الذهاب مباشرة الى لب الموضوع ، وهذا اللب قد عثرت عليه انا . اريد اخبارك به كي تترك المشاركة في المؤتمرات المعادية للنازية فتصرف بكليتك الى العمل الادبي ، ليس نمة من وقت تضيعه .

– حسنا ، قل لي بم يتعلق الامر ، فالحقيقة يا (البارو) ان وقت الفراغ عندي لقليل جدا .

– الحقيقة يا (بابلو) هي ان افكاري شرحتها في عمل مسرحي من ثلاثة فصول ؛ أحضرته معي كي أقرأه عليك .

وبوجهه ذي الحاجبين الوارفين وملامح مصارع قديم ، كان ينظسر اليّ في ثبات وامعان وهو يخرج من جيبه مخطوطا ذا حجم كبير جدا .

من فزعي احتججت له بقلة الوقت وأقنعته ان يشرح لي شفها أفكاره التي يعتقد في انها ستنقل العالم والانسانية .

– انه بيضة (كولبوس) (١٩) – قال لي – ، سأشرح لك ذلك . كم حبة بطاطا تخرج من حبة بطاطا تفرس ؟.

– حسنا ، يمكن ان تخرج اربع او خمس – قلت له على سبيل المجاملة .

– اكثر بكثير – اجاب – . احيانا اربعون ، احيانا اكثر من مائة . تصور لو ان كل شخص يفرس حبة بطاطا في الحديقة ، في الترفة ، في اي مكان . كم نسمة عدد سكان تشيلي ؟ نمائة ملايين ، فإذن ، نمائة ملايين حبة بطاطا مفروسة ، اضرب ، يا (بابلو) ، بأربعة ، بمائة ، اذن الحرب انتهت الى الابد بانتهاء الجوع . كم نسمة في الصين ؟ خمسمائة مليون نسمة ، اليس كذلك ؟ ان غرس كل صيني حبة بطاطا واحدة ، فانه ستخرج من كل حبة بطاطا مفروسة اربعون حبة بطاطا فالنتيجة هي حاصل ضرب خمسمائة مليون نسمة بأربعين حبة بطاطا ، وبهذا تنقذ الانسانية نفسها .

١٩ – بيضة كولبوس : هو تعبير اسباني يشبهه في معناه ما نقوله بالعربية ، العصا السحرية .

حين دخل النازيون باريس لم يهتموا بهذه الفكرة المنقذة : بيضة (كولبوس) او بالاحرى حبة بطاطا (كولبوس) . اعتقلوا (البارو غيفارا) في ليلة باردة ذات ضباب بيته في باريس . اخذوه الى معتقل ، وهناك احتفظوا به وعلى ذراعه وصمة الى ان انتهت الحرب . خرج من جهنم وقد غدا هيكلًا عظيمًا . لكنه ما استطاع ان يستعيد عافيته وقواه ، فعاد في نهاية الامر الى تشيلي كما لو انه احب ان يودع ارضه ويطلع عليها القبلة الاخيرة ، قبله رجل مروّص ، تم عاد الى فرنسا حيث انتهى من موته في الحياة .

ايها الرسام العظيم ، يا صديقي العزيز ، ايا «تشيلي غيفارا» اريد ان اقول لك شيئًا : انا ادري انك ميت ، وانه لم تجدك نفعا كونك لاسياسيا وانه لم تكن لك من سياسة غير سياسة البطاطا . ادري ان النازيين قد قتلوك . بيد اني ، في شهر حزيران من العام الماضي ، دخلت الى «صالة المعرض الوطنية» ما كنت انوي ان اشاهد غير لوحات (تورنير) فقط ، لكنني قبل ان اصل الى القاعة الكبرى لمحت لوحة رائعة مؤثرة : لوحة بدت لي جد بديمة مثل لوحات (تورنير) اثنان ابداعا، لوحة مدهنته باهرة . كانت صورة لسيدة مشهورة ، تدمى (اديث سيتويل Edith Sitwell (٢٠) . رأيت توقيعك عليها فكبرتك وعظمتك ، كانت اللوحة الوحيدة لرسام من امريكا اللاتينية بلغ من العبقرية والمهارة درجة بوّاته مكانا بين تلك النماذج الفريدة في ذلك المتحف العظيم بلندن .

ليس المكان ما يهمني ولا القيمة ما يثيرني ولا حتى تلك اللوحة ما يبعث في نفسي الاعجاب بل ان ما يحز في نفسي هو اننا ما تعارفنا كثيرا، ما تفاهمنا كثيرا ، ما توافقنا كثيرا ، ان ما يهمني ويؤلني هو اننا قد تقابلنا وما تفاهمنا وما كان الدنب عليّ او عليك يا صاح ، بل على حبة البطاطا .

انا كنت رجلا بسيطا جدا : هذا شرف لي وعار عليّ . لقد رافقت فرقة تمثيلية متجولة كان يجب بها الاصدقاء لي في هذه الحياة فحسدت

٢٠ - اديث سيتويل : شاعرة انجليزية (١٨٨٧ - ١٩٦٤) .

فيهم يراعهم اللامع الرائع وسلوكهم الشيطاني ، مصافيرهم الورقية وحتى هذه البقرات التي قد يكون لها علاقة ما في شكل غامض سحري مع الادب . على كل حال يبدو لي اني ما ولدت كي اتهم وأدين بل كي احب واعشق . اما هؤلاء الهمازون اللمازون المفسدون المثبطون الذين يهاجموني، الذين يتجمعون ويتألبون يريدون اطفاء نور عيني ، فقء بصيرتي بعدما تغدوا من شعري وغرفوا من بحري . هؤلاء جميعا لا يستحقون مني الا الصمت والسكوت فانا قط ما خشيت ان انعدي بسمومهم او ان اغدو من طينتهم وليس لي من اعداء الا اعداء الشعب .

لقد قال (ابولينير) : «الرحمة لنا نحن الذين نستنبط حدود اللاواقع» . اروي من الذاكرة ، وانا افكر في هذه الحكايات التي رويتها ، حكايا اناس ، ليس لكونهم غريبى الاطوار يستحقون محبة اقل وليس لانهم شاذون ، هم اقل قيمة .

صفقات كبيرة

نحن الشعراء نفكر دائما بأن لدينا افكارا عظيمة لكي نثري ونغنى . وانا عابرة في التخطيط لصفقات تجارية مع ان الآخرين لا يدركون عبقرتنا . اذكر اني ، مدفوعا بفكرة من هذه التنكيلة المزدهرة في حديقة الافكار ، بعث الى ناشر في تشيلي عام ١٩٢٤ حقوق نشر كتابي «شققيات» وملكيته لا لطبعة واحدة بل الى الابد ، ظاننا بانني سوف اثري بهذه الصفقة فوقعت العقد امام كاتب العدل ودفع لي هذا المخلوق مبلغا قدره خمسمائة «بيسو» عدنا ونقدا ، وهي تساوي في تلكم الايام اقل من خمسة دولارات . (روخاس خيمينيث) و(البارو هينوخوسا) و(هوميرو ارثه) ، كانوا ينتظرونني عند باب كتابة العدل لكي نحتفل بهذا النجاح التجاري . ، فعلا رحنا فأكلنا في احسن مطعم كان يوجد في ذلك الحين وهو «لا باهيئا» (٢١) ، وشربنا نبيدا فاخرا ودخنا تبغا ممتازا وختمنا ذلك بتناول بعض المشروبات ، وكنا

٢١ - لا باهيئا La Bahia : معناها ، الرصيف ، رصيف الميناء .

قبل هذا قد لئنا احديتنا ففدت تضيء كأنها مرايا ، وما استفاد من تلك الصفقة الا صاحب المطعم وأربعة مساحي أحذية وناشر ، اما الشاعر فلم تدن الرفاهية منه ولا صافحه الرخاء واليسر .

ان من كان يقول ان له عيني باز في الاعمال التجارية هو (البارو هينوخوسا) . كان بدهشنا بخطه العظيمة جدا التي لو انها توضع موضع التنفيذ لجعلت السماء تمطر دنائير فوق رؤوسنا . وكنا نحن ، بوهميين محرومين تعسين ، لا نشك في ان اتقانه اللغة الانجليزية ، لغافاته ذات التبغ الاشقر ، سنواته الجامعية في نيويورك سوف تضمن نجاح الفلسفة العملية لدماغه التجاري العظيم .

ذات يوم دعاني الى التباحث في سرية مطلقة وقال لي انه يريد ان يجعلني عضوا مشاركا في محاولة رائعة بفية اكتساح ثروة سريعة واكتساب غنى دائي القطوف ، انا ساكون شريكه في ربح الخمسين بالمائة على ان اساهم ببضعة «بيسوس» قد استلمها من جهة ما وهو سيدفع المبلغ الباقي . ذلك اليوم سنتعر اننا رأسماليون حقيقيون من غير رب ولا دين ولا قانون ، عازمين على كل شيء ومصممين على المغامرات الربحة الاخرى .

– وما هي هذه التجارة ؟ سالت في خوف ملك التمويلات العجيب .

(البارو) اغمض عينيه ، قذف بنفحة من دخان استحالت الى دوائر صفيرة ، ثم اجاب في صوت خفيض :

– جلود .

– جلود ؟ اعدت مندهشا مستغربا .

– اجل ، جلود ذئب البحر ، لكي اكون دقيقا ، جلود ذئب البحر ذي الشعر الوحيد الواحد .

ما تجرات على ان استقصي عن دقائق وتفصيلات اكثر . كنت اجهل

ان عجول البحر او الدئاب البحرية لها شعر واحد وحيد . حين انعمت نظري فيها وهي على صخرة في سواحل الجنوب بتشيلي ، رايت لها شعرا براقا يلتمع تحت شعاع الشمس دون ان الحظ لها اي شعر فوق كروشها الكسلى .

قبضت ما وردني من دخل ، في سرعة البرق ، ومن غير ان اسدد ما كان عليّ من ايجار ، ومن قسط للخياط ومن وصل للاسكافي ، وضعت مساهمتي المالية في يدَي شريكي المموّل .

ذهبنا لنرى الجلود . كان (البارو) قد ابتاعها من عمّة (خالّة) له ، من اهل الجنوب ، مالكة لعديد من الجزر غير المنتجة . فوق الجزر الصغيرة ذات المجالات غير الموجهة كانت الدئاب البحرية قد اعتادت على ممارسة احتفالاتها القرامية واتصالاتها الجنسية . ها هي الان امام عينيّ ، وقد غدت حزما كبيرة من الجلود الصفراء بعد ان ثقبها بطلقات البنادق خدم العمّة الماكّرة فخرّت صريعة . كانت أسفاط الجلود تبلغ سقف ذلك القبو الذي استأجره (البارو) كي ييهر بها أنظار المشتريين المزعومين .

– وماذا سنفعل بهذا الحشد ، بهذا الجبل من الجلود ؟ سألته في خطف من الكلام .

– ان الناس كل الناس في حاجة ماسة الى جلود من هذا الصنف الجيد ولسوف ترى . فخرجنا من القبو ، (البارو) مودعا شررا من الطاقة يطلقه من لفاقته وانا مطرق الرأس صامتا .

(البارو) كان يروح من هنا الى هناك وهو يحمل سجلا فيه عينة من جلودنا الاصلية الاصيلة ، جلود «ذئب بحري ذي شعر واحد وحيد» وكان فد ملاً السجل بأوراق بيضاء في بياض لكي يعطيه مظهرا تجاريا . قروشنا الاخيرة ذهبت في اعلانات بالصحافة عسى ان شخصية مهمة ومتفهمة تقرؤها فتكفيينا وكفى . وسنصبح ان بعناها ، اغنياء اثرياء . (البارو) ، وهو ما هو من رجل متأنق أنيق ، كان يحلم بشراء نصف اثنتي عشرة بدلة من الجوخ الانجليزي ، اما انا ، اكثر تواضعا منه ، فكنت ادأهب احلامي

لترضى بأني سوف اقتني مرشّة ماء او فرشاة حلاقة أحسنّ بها ذقني ،
اذ ان الفرشاة الحالية كانت توشك على ان تغدو صلعاء جرداء .

اخيرا حضر المشتري ، كان سرّاج خيل ، ذا جسم ضليع متين ، قصير
القامة ، ذا عينين رابطتي الجأش ثابتتي الجنان ، قليل الكلام ، وفسي
عرض (٢٢) من الصراحة هي في حكمي بعض من السفاهة . استقبل
(البارو) في جفاء وفتور وأقيين حتى لا يعرف مدى اهتمامه به وحدد له
موعدا بعد ثلاثة ايام لكي نريه بضاعتنا الممتازة .

في مجرى هذه الايام الثلاثة ، اقتنى (البارو) لفائف من الدخان
الانجليزي وبعضا من السيجار الكوبي من صنف «روميو وجوليت» وضعها
بشكل مرئي في الجيب الخارجي من سترته . حين حانت ساعة انتظار
وصول المعني ، بعثنا على ارض القبو الجلود التي تنمّ عن حالة احسن
ووضع افضل ومنظر اجمل .

الرجل خف الى الموعد المحدد بالضبط . لم ينزع عنه قبعته ، وحيثا
بمهمة تكاد لا تسمع ، ثم نظر الى الجلود المدودة على الارض نظرة سريعة
مزدرية ، من بعد اجال عينيه الصارمتين الخبيثتين في الرفوف المكتظة .
رفع يدا غليظة سميكة وسنّ اظفرا كي يحزّ به حزمة من الجلود فيختبرها ،
في المكان ذاته حيث حشرت انا اكثر الجلود حقارة واقلها قيمة .

(البارو) استغل تلك اللحظة الحرجة ليقدم له واحدا من السجاير
الاصيلة الكوبية ، فالتقطه المشتري بسرعة خاطفة وعضه من طرفه ثم تف
ثم ادخله في حلقة بين شذقيه وهو ثابت الجأش والنظر مشيرا الى الحزمة
التي كان يريد ان يحتزها ويقيّمها .

لم يكن بد من عرضها عليه واظهارها له . شريكى صعد السلم وهو

٢٢ - عرض : هكذا في الاصل مع «ال» التعريف Alarde ، والكلمة من اصل
عربي واضح ، ومن معانيها كذلك في اللغة الاسبانية ، مفاخرة ، استعراض ، تبجح .

مبتسم ابتسامة المحكوم عليه بالموت شنقا ، ثم نزل وأنزل الحرمة الشخينة .
المشتري استعرض جلود الحزمة واحدا اثر واحد ومن حين الى حين كان
يسحب من سيجار (البارو) الذي أهدها اليه دخانا ثم يقذف به جوا .

كان الرجل يرفع جلدا من الجلود ، يدلكه ، يدعكه ، يكشطه ، يطويه ،
يبصق عليه ، يرميه ، يتناول آخر وهكذا دواليك . بعد أن انتهى من
تفحصه وتفتيشه أجال من جديد نظره البازي عبر الرفوف المكوّمة
المرصوة بجلودنا الذئبية البحرية ذات الشعر الوحيد ، آخر الامر ركز
عينيه في جبين شريكى الخبير بالتمويلات والصفقات . كانت اللحظة
مؤثرة جدا .

وقتذاك قال بصوت حازم جاف جملة خالدة ، على الاقل بالنسبة لنا .

— يا سادتي ، انا لا اتزوج بهذه الجلود . ورحل الى الابد ، وقبعته
على رأسه كما دخل ، وهو يدخن سيجار (البارو) الهائل ، دون أن
يودّع او يستأذن بالانصراف ، ففضى من غير رحمة ولا شفقة على أحلامنا
المليونيرية .

اوائل كتبي

التجأت الى الشعر في سرعة الخائف الوجل . كانت ترفرف فوق
«سانتياغو» المدارس الادبية الجديدة . في شارع «ماروري» ، رقم ٥١٣ ،
انتهيت من كتابة ديواني الاول . كنت اكتب قصيدتين ، ثلاثا ، اربعا ،
خمسا ، في اليوم الواحد . في الاماسي عند أفول الشمس ، امام الشرفة
كان يجري يوميا مهرجان ما كنت لاستبدل به اي شيء في العالم . كان
غروب الشمس يختال في حشد من الالوان عظيم ، توزيعات نور متقنة ،
مراوح هائلة من لون برتقالي وآخر قرمزي . الفصل الرئيسي في ديواني
أسميته «شفق ماروري» ، لا احد سألني أبدا، ما هو هذا «ماروري» ،
لعل القليلين هم الذين يعرفون اني اشير بهذا الى شارع متواضع يزوره
أروع شفق وأبدعه .

في عام ١٩٢٣ ، نشر ديواني الاول هذا «شفقيات» . كي ادفع تكاليف

الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة وأحقق انتصارات عظيمة ، اثاثي القليل بيع ، الى دار الرهائن على عجل مضت ساعتى التي كان والدي قد اهداني اياها في وقار وجلال ، اذ انها كانت ساعتها الخاصة به وكان قد نقش عليها بريقين صغيرين منصالبين . ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء . لقد كان صاحب المطبعة رجلا لا يرحم ولا يشفق اذ انه بعد ان اصبحت الطبعة جاهزة والاعلقة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها» .
ساهم الناقد الادبي (ألونه Alone) في سخاء بدفع ما تبقى عليّ من «بيسوس» فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت الى الشارع وكتبتى على منكبىّ بحداء مهنرىء ممزق ، مجنونا من الغبطة والطرب .

يا لديواني الاول ! كان رأيي دائما هو ان عمل الكاتب ليس لغزا ولا هو بالأساوي ، بل انه ، على الاقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة . ان ما هو اكثر شبها بالشعر ، هو رغييف خبز او وعاء خزفي او حفر على الخشب متفول في طراوة وحنان ، ولو ان الايدي التي تصنع هذه التحف كانت بليدة غير متقنة . بيد اني اعتقد انه ليس ثمة من صانع واحد يشعر ، كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هـذا الشعور الثمل نحو اول خلق ابتدعته يدها وجناه تيه احلامه الذي لما يزل خافقا دافقا لحظة الابداع . انها لحظة ابداء لن تعود مرة اخرى ، اعني لحظة الابداع الاولى والفرح الاول بأول كتاب . قد ينشر في طبعات اخرى كثيرة اكثر اتقانا واجمل مظهرا من طبعته الاولى قد تنتقل كلماته وأشعاره لتسكب في كأس لغات اخرى مثل نبيد يغني ويفوح في اماكن اخرى من الارض بعيدا عن موطنه ، غير ان هذه اللحظة التي يولد فيها اول ديوان طازج المداد طري الورق ، ان هذه اللحظة الفاتنة الساحرة المسكرة ذات الانغام كأنها حفيف اجنحة عصفور يرفرف لأول مرة ، ذات الالوان كأنها تفتق برعم يتبدى في اعلى قمة لأول مرة ، لهي الحضور الوحيد في حياة الشاعر .

ان احدي قصائدي بدت وكأنها حادت عن ذلك الديوان الطفولي واتخذت لها طريقا خاصة بها ، الا وهي قصيدة «فيروييل» (٢٢)

Farrwell ، التي يحفظها كثير من الناس حتى الان عن ظهر قلب .
حيثما ذهبت وفي الاماكن التي لا اتوقع ان اسمعها ، ينشدونها لي من
الذاكرة او انهم يطلبون مني ان أنشدها عليهم . ما ان أحضر في مكان
 للمشاركة في ندوة او اجتماع او جلسة حتى تنطلق فتاة من الفتيات
الحاضرات في صوت مرتفع بترديد تلك الابيات المسيطرة على الدهن ، وان
كان ذلك يزعجني كثيرا . وأحيانا كان وزراء يستقبلونني وقد اتخذوا
وضعا عسكريا إحتراما وإجلالا فيباغتوني بانشادهم المقطع الاول من
القصيدة .

بعد عدة اعوام ، حكى لي (فيدريكو غارثيا لوركا) ، باسبانيا ، ان
الشيء نفسه كان يحدث له بالنسبة لقصيدته «المتروجة غير الوفية» (٢٤).
فقد كان كل واحد من الناس يطالبه بأن ينشد له قصيدته الجميلة الشهيرة
هذه برهانا منه على ما يئنه من صداقة نحو هذا الشخص او ذلك . ثمة
حساسية ايجابية عند الناس نحو النجاح الاستاتيكي الساكن الدائم لعمل ما
من اعمالنا الادبية . ان هذا لهو شعور صحي وحتى انه احساس بيولوجي .
ان هذا التكليف من لدن الفارئ يحاول تجميد الشاعر في لحظة واحدة ،
بينما الخلق في حقيقة الامر هو عجلة دائمة تدور على الدوام نحو الامام
بمهارة اكثر وبوعي اعمق واشمل ولو انها برونق اقل وعفوية اصغر .

كنت امضي مخلفا ورائي ديواني «شفقيات» . كان ثمة قلق يدفع
شعري ويحركه . كنت اجدد قواي في رحلات سريعة واسفار عابرة نحو
جنوب تشيلي . في عام ١٩٢٣ افتنيت تجربة غريبة . كنت قد عدت الى
بيتنا في «تيموكو» . بعد منتصف الليل وقبل ان اضطجع فتحت نوافذ
غرفتي . خلبتني السماء وبهرتني . كانت عامرة بجمهرة من النجوم المتلألئة
المتكاثرة . الليل حديث التضمخ بالرذاذ غب المطر والنجمات القطبية تتناثر
على رأسي .

٢٤ - المتروجة غير الوفية : لقد ترجمنا هذه القصيدة في كتابنا «مختارات من الشعر

الاسباني المعاصر» ص ٩١ - ٩٣ .

شملتني نشوة ، اخذتني سكرة ، تعتعتني خمرة سماوية كونية .
اسرعت الى قرطاسي فكتبت في هذيان كما لو انه كان يوحى اليّ وينملي
عليّ ، القصيدة الاولى لديوان اسميته بأسماء عديدة الى ان استقر في
النهاية على اسم «حامل المقلع المتحمس» . كنت أعوم في يم صيغ سلسلة
اغرف منها ما اغرف وكناني اسبح في مياهي الحقيقية .

في اليوم التالي قرأت مفعما بالمتعة قصيدتي الليلية . من بعد ، حين
وصلت الى «سانتياغو» ، قرأتها على الناقد الساحر (الريو اوبارثون) ،
الذي استمع اليها بانصات وأعجب بها ، ثم سألني بصوته العميق :

- انت متأكد من ان هذه الابيات ليست متأثرة ب (سابات
ارسكاتي) (٢٥) ؟ .

- أعتقد اني متأكد . لقد كتبتها في نوبة هيجان .

خطر لي آنذاك ان ابعث بقصيدتي الى (سابات ارسكاتي) نفسه ، ذلك
الشاعر العظيم ، شاعر «اورغواي» الكبير ، الذي تنوسي في هذه الايام
ظلمًا واجحافًا . كنت قد رأيت في هذا الشاعر انه قد تحقق فيه تطلمي
وطموحي لشعر لا يحتوي على الانسان فحسب بل على الطبيعة ايضا ، على
القوى الخبيثة ، شعر ملحمي يواجه سر الكون الرهيب العظيم وكذلك
امكانات الانسان الهائلة . كنا نتراسل . كنت في الوقت الذي اعمل فيه
جاهدا على انضاج شعري وتطويره ، اتمعن مليا في رسائل (سابات
ارسكاتي) التي كان يهديها الى شاعر شاب غير معروف فاستزيدته شاكرًا .

ارسلت اليه في «مونتيفيدو» هذه القصيدة تلك الليلة ذاتها متسائلًا
عما اذا كان يرى فيها أثرا بشعره ، اجابني على جناح السرعة في رسالة
كريمة نبيلة : «مرات قليلة في حياتي قرأت قصيدة في غاية الاتقان وفي
أوج الروعة كما هي عليه قصيدتك هذه ، لكنني اجد انه لا بد لي من ان

٢٥ - سابات ارسكاتي : (كارلوس Carlos) : شاعر من اورغواي ولد عام ١٨٨٧ .

اقول لك شيئاً : أجل ، ثمة في أبيات قصيدتك هذه بعض من التأثير بشعر (سابات ارسكاتي) .

كان ما قاله لي مثل نور برق في ليل داج ، ما زلت حتى الآن اشكره عليه ، . بقيت الرسالة في جيبى خلال عدة أيام ، تنطوي وتتجمد الى ان اهترأت . لقد كان كل شيء بعدها قيد الرهان محك الاختبار . كنت أهجس بالهديان العاقر لتلك الليلة حتى لا يفتنني هديان ليلة أخرى فأهدي او الفو او اقلد . عبثاً غطست في لجة تلك النجوم ، عبثاً غمرت حواشي تلك العاصفة الجنوبية . لقد كنت في ضلال . عليّ الا اثق بالوحي والالهام . يجب ان يقودني الوعي عبر السبل الصغيرة خطوة اثر خطوة . عليّ ان اتعلم ان اكون متواضعا . مزقت قصائد كثيرة ، أضعت أخرى . بعد عشر سنين من ذلك الحين ، يعثر على هذه القصائد فتُنشر .

انتهى برسالة (سابات ارسكاتي) طموحي في الاحاطة بشعر فسيح . اغلقت الباب على فصاحة كان محالاً ان استمر على سننها . اختصرت متعمداً أسلوبى وعبارتى . وأنا ابحت عن ملامحي الاكثر بساطة ، عن عالمي المتناسق الخاص بى ، شرعت بكتابة ديوان غزلى آخر . فكان حصيلة ذلك كتاب «عشرون قصيدة» .

ان ديوان «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة» ، هو كتاب اليمّ ورعوي يتضمن عواطف مراهقتى العاصفة جدا ، ممتزجة بالطبيعة المستبيحة الجارفة في جنوب وطنى . هو كتاب أحبه كثيراً لانه على الرغم من كآبته الحادة ، فيه متعة الوجود حاضرة . ساعدني في كتابته نهر ومصبه : نهر «امبريال» . ان قصائد «عشرون قصيدة» لهي «رومانث» (٢٦) سانتياغو ، بشوارعها الطلابية ، لهي الجامعة ، وهي فوح اليزفون للحب المتبادل .

٢٦ - رومانث Romance : هي نوع من القصائد نشأت في اسبانيا بالمصنوع الويسطى .

ان المقاطع المتعلقة بـ «سانتياغو» نظمت بين شارع «ايتشورين» و«نهج اسبانيا» وفي داخل المبنى القديم للمعهد التربوي ، لكن المنظر العمام مستوحى من مياه الجنوب وأشجاره . اما أرضفة قصبدة «اغنية يائسة» فهي الارصفة العتيقة لـ «كارهويه» و«باخو امبريال» . ان الالواح الغليظة الشخينة المكسرة والاشخاب كأنها جدعات يلطمها النهر الفسيح ورفرفة النوارس كنت أحس بها وما أزال ، كأنها تسري في مسام الجسد عند ذاك المصب .

في زورق مهجور طويل نحيل ، لباخرة غريفة ، قرأت كتاب (خوان كريستوبال) بكامله وكتبت قصيدة «اغنية يائسة» . كان للسماء من فوق رأسي زرقة عنيفة جدا لم أر مثلها قط . انا كنت انظم في القارب المختبىء في الارض . اعتقد اني ما عدت شعرت بانني جد شامخ الى السماء وجد عميق في باطن الارض ، كما كنت اشعر اذاك . من فوقني السماء الزرقاء العميقة ، في يدي كتاب (خوان كريستوبال) او الايات الوليدة فسي قصيدتي ، ازانني كل ما وجد وما يزال يوجد في شعري : صراخ العصافير البرية والبحر المتوقد دائما ليس يخمد او ينفد كأنه العوسج الذي لا يموت .

لقد سئلت دائما من هي ملهمة «عشرون قصيدة» ، انه لسؤال صعب الاجابة . الاثنان او الثلاث اللواتي تداخلن في هذا الشعر الكئيب المتوقد فلتقل انهن «ماريسول» (٢٧) و«ماريسومبرا» (٢٨) . ان (ماريسول) هي «عتابا» (٢٩) منطقة رائعة ساحرة ، ذات نجوم ليلية هائلة وعينين غامقتين كسماء «تيموكو» البليلة المضئخة . تتجسد بفرحها وجمالها الحي فسي صفحات الديوان كلها ، محاطة بمياه الميناء ومكللة بالهلال الذي يطل من فوق الجبال . اما (ماريسومبرا) فهي الطالبة الجامعية ، قبعة رمادية ،

٢٧ - ماريسول : معناها ، مريم الشمس .

٢٨ - ماريسومبرا : معناها ، مريم الظل .

٢٩ - عتابا : في الاصل Idilio ، وهي مقاطع شعرية شعبية تنغنى بالرمي والرمسة .

عينان رقيقتان ناعمتان ، شذى الحب الطلابي المتنقل المتجول الذي يفوح
كعطر الزيزفون ؟ خمود جسدي اثر التقاءات عاصفية مثيرة في مخابيء
المدينة .

اثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي .

مدويا كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحت بين الطلبة
والكتاب عن دعم أصلب وتأييد آمن . من جهة اخرى ، كان الزعيم الكبير
للبورجوازية الصغيرة ، (ارتورو اليستاندري بالما) الديناميكي الديماغوجي،
قد توصل الى ان يصبح رئيسا للجمهورية بعد ان هز البلد قاطبة بفصاحته
الساطعة المخيفة . على الرغم من شخصيته الفائقة فانه سرعان ما تحول
وهو على كرسي الحكم الى حاكم تقليدي شبيه بمن سبقه من حكام امريكا
الجنوبية . ان الفئة المسيطره من البورجوازية الكبيرة التي كان من قبل
يحاربها ، فتحت بلاعيمها وابتلعت خطبه النورية واحتوته واستحوذت
عليه فغدا ياتمر بأمرها . واسنمر بلدنا يتخاصم في نزاعات رهيبة عنيفة .

في الوقت نفسه ، كان الزعيم العمالي (لويس اميليو ريكاباريسن)
بفعايلته المدهشة ، ينظم صفوف البروليتاريا ، يشكل نقابات مركزية ،
يؤسس حوالي عشر صحف عمالية في طول البلاد وعرضها . كانت البطالة
وقلة الاعمال تهز مؤسسات النظام الرأسمالي . انا كنت في تلك الاوقات
اكتب في مجلة «وضوح» اسبوعيا . كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية
وندافع عنها وكثيرا ما كنا نصطدم بالشرطة اثناء مظاهراتنا في شوارع
سانتياغو فينهال رجال الامن علينا ضربا وتستيتا . كان يصل الى العاصمة
آلاف العمال المطرودين من اعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس . لقد
كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة
القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امنزجت السياسة فسي شعري وفي
حياتي . لم يكن ممكنا ان اغلق الباب عن الشارع واقبع داخل قصائدي
كما لم يكن ممكنا اغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، او عن الحزن في
قلبي ؛ قلب شاعر شاب .

(الكلمة)

... كل ما شئت ، ايها السيد ، أجل كل ما شئت ، بيد ان الكلمة
ترنم ، تحلق وتهبط ... فأركع لها وأسجد ... اهيم بها ، اذعن لها ،
اتبعها ، الثمها ، اتملظها ، اذيبها ... انا مفرم بالكلمة ... كل كلمة
مباغتة ... انتظرها في نهم ، اترصدها في شغف ، الى ان تحط على
حين غرة ... لفظة حبيبة ... تلتمع كالدرة ، تقفز كالسمكة الفضية ،
انها لزبد ، لخيط ، لمعدن ، لندي ... الاحق كلمة اطارد اخرى ، أريد
لحسنها ان التقطها جميعها ، ان أحضنها في شعري ... أوشك ان
التقط هنا وهناك ، تطير ، تثر ، اقتنص احداها ، انظفها ، انتف شعرها ،
اهيء نفسي امام الصحن ، أجسها فأحس بها شفافة ، رجراجة ، عاجية ،
لرجة ، دبقة ، كالثمرة ، كالطحلب ، كمصقل العقيق ، كحبة الزيتون ...
أقلبها ، أخضها ، اهزها ، اترشفها ، التهمها ، اتمثلها ، ازخرفها ،
امتقها ... تتدلى من القصيدة كما تتدلى عناقيد الرواسب من سقف
مغارة ، صقيلة كرسائع خشب ثقيف ، كالماس ترسب في شعري كما
ترسب بقايا سفين غريق في قاع اليم ، مجلية كهدايا الموج كالدر ...
كل شيء يكمن في الكلمة ... تبديل الفكرة ان كلمة حرّفت عن موضعها
او ان اخرى تربعت مثل ملكة على عرش جملة ، عنوة ، فخضعت
لجبروتها ... ان للكلمة لظلا ، لرونقا ، لوزنا ، لزغبا ، ان لديها كل مسا
اقتنته في تسيارها عبر مساري الانهار ، كل ما اكنزته في ترحالها عبر
مسالك الاوطان ، كل ما ادخرته في تجوابها عبر نسخ الجذور ... انها
لتليدة جدا وجديدة جدا ... تكتن في عش خبيء ، تجتن في برعم
زهرة ... لكم هي طيبة لساني ، لكم هي رائحة هذه اللغة التي ورثناها عن
اولئك الفزاة القساء ... اولئك كانوا يمضون قدما يجتازون سلاسل
الجبال الهائلة ، يخترقون غابات امريكا الشائكة بحثا عن البطاطا ، عن
شرائح اللحم ، عن الفاصولياء ، عن التبغ الاسود ، عن الذهب ، عن الدرّة ،
عن بيض مقلي ، في شهية نهمة شرهة ما شوهد لها في العالم مثيل من
بعد البتة ... كانوا يلتهمون كل شيء : الادبان ، الاهرام ، القبائل ،
الاصنام الشبيهة بالصلبان والانصاب التي احضروها معهم في اكياسهم
الكبيرة ... اينما مروا هدموا ، حيثما حلوا افسدوا فالارض منهم موات
يباب خراب ... غير انه كانت تتساقط من هؤلاء البرابرة ، من نعالهم ، من

لحاهم ، من خَوَّذهم ، من حدواتهم ، عدد الحصى ، كلمات مضيئة بقين
هنا يلتمعن يتوهجن ... مكثت اللفة . أجل لقد خسرنا ... بلى لقد
غنمنا ... اخذوا منا الذهب ، تركوا لنا الذهب ... اخذوا كل شيء ،
تركوا كل شيء ... لقد تركوا لنا الكلمة .

الفصل الثالث

دروب العالم

صملوك «بالبارائيسو» (Valparaiso)

ان «بالبارائيسو» لقريبة جدا من «سانتياغو» . لا يفصل بينهما الا الجبال الهلباء المزبرة المسننة التي في قممها ترتفع، كأنها المسلات، أشجار «كاكتوس» (١) Cactus الضخمة العدائية المؤذية الزهرة ، غير انه تمة شيء صعب التحديد يبعد بينهما . «سانتياغو» هي مدينة سجيئة تحيط بها أسوارها الثلجية ، بينما «بالبارائيسو» هي على العكس من ذلك تشرع أبوابها على البحر اللامحدود ، على ضجيج الشارع ، على عيون الاطفال .

في لحظات شبابنا الاكثر فوضوية كنا نحشر انفسنا في عربة قطار من

١ - كاكوتس : هي اشجار كثيرة الاضلاع ، مخددة ، ذات ازهار كبيرة صفراء،
تكثر في المكسيك .

الدرجة الثالثة دائما دون أن نكون قد نمنا بعد ، ودون اي فلس فسي جيوبنا . كنا شعراء ورسامين في العقد الثاني من عمرنا مزودين بشحنة قيّمة من الجنون العنيد تريد أن تفرغ ، أن تمتد ، أن تنفجر . كانت نجمة «بالبارائيسو» تنادينا بنبضها الساحر .

ما شعرت بمثل هذا النداء الا بعد عدة سنوات وذلك في مدينة اخرى . وخلال سنوات اقامتي في مدريد فقد كنت واصدقائي ، كلما دخلنا الى حانة او خرجنا من مسرح في السحر ، او تجولنا في شارع او آخر ، نسمع صوت طليطلة ينادينا ، صوت اشباحها الابكم ، لحن سكونها . في هذه الاوقات المتأخرة كنا نمضي مجموعة من الاصدقاء المجانين كجنون رفاق شبابي في تشيلي ، نحو هذه المدينة العريقة العتيقة ذات البيوت الكلسية والأزقة الضيقة المعوجة كي ننام فوق ضفاف نهر «التاخو» (٢) تحت القناطر الحجرية .

لست أدري ما سبب انه من بين رحلاتي الرائعة الساحرة اللى «بالبارائيسو» بقيت رحلة واحدة عالقة بذاكرتي ومحفورة في ذهني ، مضمخة بشدى اعتساب اقتلعتها على فزع من الحقول . كنا نروح لتوديع صديقين لنا احدهما شاعر والآخر رسام يزعمان السفر الى فرنسا ، طبعاً ، بالدرجة الثالثة . بما اننا جميعاً لم نكن نملك ما ندفع به اجرة مبيتنا في فندق من الفنادق ولو كان اكثرها فيرانا ، فقد فتشنا عن (نوبوا Nova) وهو احد مجانيننا المفضلين ومن سكان مدينة «بالبارائيسو» العظيمة . لم يكن الوصول الى بيته بالامر السهل . صعدا وتزلقنا فوق تلال وتلال لا تنتهي ، لا نرى في العتمة غير طيف (نوبوا) الذي كان يقودنا ويرشدنا .

كان (نوبوا) رجلاً مهيباً ، ذا لحية عامرة ، وشوارب ضخمة ، كانت اطراف رداءه الغامق يخفق بعضها بعضاً كأنها أجنحة طيور في قمم تلك الجبال العجيبة التي كنا نصعد فيها على عماوة وفي ضيق شديد . ما

٢ - التاخو : هو نهر يمر بطليطلة ، كان العرب يدعونوه : التاجه ، والقناطر الموجودة عليه هي من العرب .

كان يسكت أو ينصت . كان قديسا مجنوناً ، معروفا جيدا لدينا نحن الشعراء . وكان ، طبعا ، طبيعيا من المؤمنين بالطبيعة ، نباتيا من آكلي النبات حتى منبت الاصالة . كان يشيد علاقات سرية ، لا يعرفها غيره ، بين الصحة الجسدية وهبات الارض الطبيعية . كان يعظنا بينما كنا نطلع على التلال ، يوجه نحو الخلف صوته المنغم ، كما لو كنا تلاميذ له . كان شكله الضخم يزحف كأنه قامة القديس (كريستوبال Cristobal) لكن هذا القديس ولد في الليالي المعتمة وفي الضواحي المنعزلة .

بعد المشقة والعناء القينا عصا الترحال في بيته واذا به مجرد كوخ صغير أو خص حقير من غرفتين ليس غير ، الواحدة منهما يشغلها سرير صاحبنا القديس (كريستوبال) والاخرى يملأ جزءاً كبيراً منها كرسي عظيم مصنوع من شجر الصفصاف ، متشابك في وفرة بتزيينات هشة من القش وبجوارير غريبة عجيبة مضافة الى أرجله وأذرعته ، انه لتخفة فنية من عهد الملكة (فيكتوريا) . المقعد الكبير خصص لي كي انام عليه تلك الليلة . اما اصدقائي فقد مدوا على الارض صحفا مسائية وتمددوا في وقار وقناعة فوق الاخبار والافتتاحيات .

بعد قليل من الوقت عرفت بفضل الزفير والشخير انهم قد ناموا جميعا . لقد كان صعبا بالنسبة لتعبي ان يصالح النوم ويصاحبه طالما انه لا يستريح فوق ذلك المقعد التذكاري . ما كان يسمع الا سكون مرتفعات وصمت قمم متوحدة أو نباح كلاب فلكية كانت تخترق الليل أو صفير سفينة بعيدة جدا تدخل الى الميناء أو تخرج منه . كل هذا كان يؤكد لي اني في «البارائيسو» .

شعرت فجأة بنشوة فريية فاتنة تسري في جسدي . نشوة شدي جبلي ، فوح سفوح المروج ، عطر كعطر نباتات كانت قد نمت ونمو طفولتي ثم نسيتها في ضوضاء حياتي بالمدينة . شعرت اني قد تصالحت والنوم فعفوت عنه وغفرت له اني يقط مسهد تلك الليلة ، احسست اني ملفوف بهديل الام الارض وترنيمها . من اين يجيء خفق الارض البرتي هذا ؟ ، بكاراة الاشداء الطاهرة النقية هذه من اين تأتي ؟ وانا ادخل أصابعي من خلال الوعور الصفصافية لذلك المقعد الضخم اكتشفت جويريرات لا حصر

لها وفي داخلها جسست نباتات جافة ملساء ، اغصانا خشنة مدوّرة ،
أوراقا رمحية الشكل ، طرية او صلبة . عثرت اذن على دار الصناعة
الصحية التي يخبئها واعظنا النباتي ، عن صورة طبق الاصل لحياة هذا
القديس العاكف على التقاط الاعشاب بيديه الكبيرتين كيدي القديس
(كريستوبال) ، وهو ابدا خصب الجنى ، جواب الحقول .

بعد ان كشفت عن اللغز وعرفت السر نمت في طمانينة ، في رعاية
شدى تلك الاعشاب الساهرة الحارسة .

لقد سكنت خلال بضعة اسابيع ، في بيت يواجه بيت السيد (ثويلو
اسكوبار) بشارع ضيق من شوارع «بالبارايسو» . شرفات غرفنا كانت
تقريبا تتلامس ، كان جاري يخرج مبكرا الى الشرفة ليجري تمارين رياضية
في جسم ناسك زاهد متقشف تنمّ عنه أوتار قيثار أضلاعه . يرتدي دائما
بدلة شغل (فارول) فقيرة او سترة خالقة بالية . كان نصفه ملاكا والنصف
الاخر بحارا . وكان قد انسحب منذ زمن بعيد من إبحارته ، من
الجمارك ، من الموانئ والبواخر . كل يوم يمسح وينفض ويسحج بدلته ،
بدلة الزينة الوحيدة في اتقان وكمال دقيقين . كانت بدلة من الجوخ الفاخر
الاسود ما رأيته ابدا يلبسها ولا مرة واحدة خلال عدة سنين ، فلقد كان
يحفظها في الخزانة بين كنوزه الكثيرة .

لكن كنزه الاكثر حدة والاكثر تمزيقا للقلب كان آلة كمان من نوع
«ستراديفاريوس» احتفظ به وصانه في حيطه واعتناء طيلة حياته كلها ،
دون ان يلمسه او يعزف عليه ودون ان يسمح لاحد ان يلمسه او يعزف
عليه . كان السيد (ثويلو) يفكر في انه سوف يبيع هذا الكمان في مدينة
نيويورك فهناك سوف يدفعون له مبلغا محترما ثمنا لهذه الآلة الموسيقية
الشهيرة . يخرجها احيانا من الخزانة الفقيرة ويسمح لنا ان نتأمله فسي
خشوع ديني وعاطفة مؤثرة . كان يحلم في انه سيسافر الى الشمال ذات
يوم وسيعود بلا كمان لكن سيعود محملا بالخواتم الفاخرة والاسنان الذهبية
التي ستحل في فمه بدل التجايف التي حثّها ونخرها مجرى السنين
وعبور الدهر الطويل .

صباح ذات يوم لم يخرج السيد (ثوليو) الى الشرفة لاجراء التمارين الرياضية . دفناه هناك في اعلى المدينة ، في مقبرة الربوة ، مكفنا ببدلته السوداء التي لاول مرة غطت هيكله العظمي الصغير ، هيكل ناسك زاهد متقشف . اوتار كمانه ما بكت على رحيله ، لا احد كان يعرف ان يعزف عليه الا . حين عدنا ففتحنا الخزانة لم نعثر على ذلك الكمان اليتيم لعله طار الى البحر او الى نيويورك ، كي يحقق احلام السيد (ثوليو) .

ان مدينة «بالبارائيسو» هي كنوم ، ملتوية ، متدرجة . تنسفع الفاقة على سفوح روايبها كأنها شلال عارم . نعرف عن سكان هذه الروابي المكتظة بهم ما يأكلون وما يلبسون (ونعرف كذلك ما لا يأكلون وما لا يلبسون) . الملابس المنتورة للتجفيف ترفرف كالبيارق فوق كل دار والأقدام الحافية المعرضة للشمس بلا توقف عليها تطهرها من اوساخها ، تمّ عن حبها الذي لا يخمد نحو هذا الحبيب الذي ليس يخمد .

لكنما ، قرب البحر ، في السهل ، ثمة بيوت لا تفتح نوافذها ولا تترع شرفاتها ، لا تدخل اليها اقدام كثيرة ولا تحمل اليها الغبار قط . من بين هذه الدور كانت دار الرائد . قرعت الباب بمطرقة برونزية كبيرة ، عدة مرات متتالية كي يسمع طرقي . اخيرا سمعت خطوات خفيفة تقترب واذ بالباب يفتح نصف مصراع ويطل منه وجه متفحص لا تبدو عليه علائم الثقة بي وكأنه يرغب ان يطردني ، كان وجه الخادم العجوز العتيقة في تلك الدار ، عليها منديل كبير وعلى خصرها مئزر طويل يكاد لا يسمح لخطوها ان يهمس .

كان الرائد ايضا رجلا عجوزا ، يسكن وخادمه وحيدين منعزلين هذه الدار الفسيحة ذات النوافذ المغلقة . قصده كي يريني تشكيلة مجموعته من الاصنام . كانت تملأ الدهاليز والجدران مخلوقات عجيبة شقراء اللون، مساخر (٢) مخددة ، باللون الابيض وباللون الرمادي ، تماثيل تمثل جثثا

٣ - مساخر : هكذا في الاصل **Mascaras** وهي جمع اسباني للكلمة العربية مسخرة، بمعنى قناع او برقع .

بائدة لآلهة هائلة ، خصلات شعر مجففة ، دروع رهيبة فوق اطر خشبية
ملبسة بجلود نمور رقطاء ، أطواق من أسنان مفترسة ، مجاديف قوارب
لعلها كانت قد قطعت زبد المياه السعيدة المحظوظة (٤) . مدى ونصصال
وسكاكين عنيفة كانت تبعث الذعر في الجدران التي تتدلى منها اوراق
فضية اللون كأنها افاع تتلوى في الظلال .

لاحظت ان التماثيل الخشبية للآلهة الذكور كانت مصفرة جدا .
العضو الذكري منها كان مغطى في اعتناء بستر من قماش هو نفسه القماش
الذي استفيد منه لصنع منديل الخادم ومثورها ، كان التأكد من هذا في
غاية السهولة .

الرائد العجوز كل يتنقل في خفوت بين تلك الانصاب التذكارية . يشرح
لي قاعة انر قاعة بين جد وهزل عن هذه المخلوقات العجيبة شرح من عاش
كثيرا وما يزال يعيش على قبس نماثيله . دُئينه الابيض يبدو كلحية وثن
في «ساموا» . اراني البنادق ذات المواسير الطويلة والمسدسات التي بها
طارد العدو وعقر الرثم والنمر . كان يحكي لي عن مغامراته دون ان يماوج
في لحن همسه الوثير . كان ذلك كما لو ان الشمس تسربت على الرغم من
النوافذ المغلقة وتركت هنا شعاعا صغيرا واحدا لا غير ، فراشة حية ضئيلة
ترفرف بين التماثيل والاصنام .

عند التوديع قلت له بان لديّ مشروعا للقيام برحلة نحو الجزر ، وان
لديّ رغبات شديدة للتوجه شطر الرمال المذهبة في اقرب وقت ممكن .
آنذاك ، بعد ان التفت الى الجانبين ، قرب من اذني شاربيه البيضاوين
المتاكليين وهمس لي راجفا : «حتى لا تسمع هي ، حتى لا تعرف ، انا كذلك
انوي ان اقوم برحلة وقد اعددت لها العدة» . بقي هكذا ساهما ، لحظة ،
واصبغه بين شفقتيه، كأنه يصغي لوطء نمر في الغابة . ثم اغلق الباب فجأة،
على الظلام ، كما يهبط الليل على افريقيا .

٤ - قد يعني بهذا جزر «كناريس» Canarias التي كان العرب يسمونها «الجزر
السعيدة» وكذلك تسمى بالاسبانية Las Islas Afortunadas .

سألت الجيران :

– هل ثمة رجل آخر غريب الاطوار هنا ؟ هل ثمة شيء يحرز همّ
مجيئي الى «بالبارائيسو» .

أجابوني :

– ليس لدينا تقريبا اي شيء مما يمتع بفرابته او اي شخص ممسا
يستحق المشاهدة لشدوذه ، لكن ، ان مضيت في هذا الطريق سوف تتعثر
بالسيد (بارتولوميه) .

وكيف سأميزه من بين الآخرين وأتعرف عليه ؟

– ليس ثمة مجال للخطأ ، آيته انه يرحل دائما في عربة يجرها
حصان .

بعد ساعات قليلة ، بينما كنت اشترى تفاحا من دكان بهذا الشارع
نفسه ، توقفت عند بابها ، عربة يجرها حصان ، ونزل منها رجل طويل ،
أرقل عديم الرشاقة والهندام ليس له الا ثوب اسود مهلهل .

جاء ليشتري تفاحا كذلك . على منكبه بيغاء اخضر سرعان ما طار
نحوي وحط على رأسي دون تقدير او احترام .

– هل حضرتك هو السيد (بارتولوميه) ؟ – سألت ذلك الفارس .

– اجل ، انها الحقيقة ، انا ادعى (بارتولوميه) – واشهر سيفه الذي
كان يتمنطق به تحت ثوبه فأعطانيه كي ينحني ويملا سلته بالتفاح والعنب .
كان سيفا عتيقا ، طويلا حادا ، ذا مقبض بديع صنعته أيدي صنّاع ماهرين ،
مقبض كأنه الوردة المفتحة .

انا ما كنت اعرفه من قبل ولا عدت فرأيتته من بعد ، لكنني رافقته في
اجلال واحترام . ثم فتحت له باب العربة فصعد ودخل ودخلت سلته ،

وضعت بين يديه ، في وقار وكياسة ، البفاء والسيف .

ان عوالم «بالبارائيسو» لهي مهجورة متروكة ، بلا معنى ولا زمن ، كأنها صناديق رست ذات مرة الى قعر قبو سفينة ليس يُدرى من اين جاءت ولا احد سأل عنها او ادعاها لنفسه ، فهي ابدأ حبيسة ذلك القبو المعتم لن تستطيع البتة الانطلاق من حدودها ودياجيرها . ربما مكثت في اسرار «بالبارائيسو» السيطرة وفي ارواحها الطاغية ، الى الأبد ، سلطة موجة ضائعة ، عاصفة ، ملح ، بحر يهوج ويموج ، بحر كل نسمة من سكان «بالبارائيسو» ، يرغي ويزيد ، يثور ويهدد ، لكنه حبيس سجين ففسدا هديراً لا تستجاب شكواه ، حركة وحيدة اليمة تتفتت طحيناً وتمج زبدا اذ تخيب احلامها وترتد على صخر الواقع الصلد .

في هذه الحيوانات الغريبة الاطوار التي عثرت عليها او بها ، كانت دائماً فجؤي وحدهم المطلقة والبناء المؤثر ، انصهارهم الكامل في مياه البحر ، فهناك في الاعالي ، عبر الروابي ، يزهر البؤس وينشق في فوران محموم من القطران (ه) والفرح . ان ارصفة الميناء والرافعات والعربات وأشغال العمال تغطي خصر الساحل ببرقع صبغته السعادة الهاربة من بسوس الروابي . غير ان نمة آخرين ما اسنطاعوا ان ييلفوا الاعالي ليسكنوا التلال ولا الاسافل ليعملوا في الميناء بل مكثوا في صناديقهم محتفظين بنصيبهم من عالم اللابهاية عالم البحر .

لقد صانوا كل ذلك بأسلحتهم الخاصة ، بينما الفناء يقترب منهم كما الضباب .

ان «بالبارائيسو» لتهتز احياناً مثل حوت جريح . ترتج ، تحتضر ، تموت وتبعث .

ان كل مواطن هنا يحمل في ذاكرته زلزالاً . انه لهول ملتصق بقلب

ه - القطران : مكدا في الامس Alqutràn . عن العربية

المدينة . ان كل مواطن هنا لهو بطل من قبل ان يولد . اذ ان في ذاكرة الميناء انطبع رعشة الارض التي ترتعد من اخفاقتها وتثور على فشلها وتطلق صرخة من الندم تبلغ اعماقها ، كما لو ان مدينة ترسو تحت البحر وتستقر تحت الارض ، فجأة ، شرعت تطوي أبراجها وأشرعتها الدفينة لتقول للانسان ان كل شيء قد انتهى وانها ستقلع باحثة عن مغامرة اخرى قد تكون رابحة ظافرة .

أحيين ، حين تكون الاسوار والجدران والسقوف قد تدرجت بين الغبار وألسنة النيران ، بين الضجيج والسكون ، بعد ان يخمد كل شيء الى الابد في احضان الموت ، تخرج من البحر ، كأنها آخر هول ، الموجة الكبيرة ، اليد الخضراء الهائلة ، طائلة ملوثة بالخطر ، تعلو كأنها برج حاقد تم تهوي لتسحق وتجرف حيثما وقعت او صفت ، كل ما تبقى من حياة .

كل شيء كان يبدأ بحركة كسلى فيستيقظ من كان قد نام من سكان «البارائيسو» . تأخذ الروح وهي بين الاحلام تنصلل بجذور عميقة ، بعمقها الارضي . لقد أحبت الروح دائماً ان تعرف عمقها وها هي تعرفه . ثم تنفض حركة الارتجاف الاخير ، ليس ثمة من يفيث او يعين فالالهة رحلوا والكنائس المزهوة غدت كنلا مطحونة مهروسة .

ان هذا الرعب ليس كرمب من يعدو هاربا من نور هائج غضوب ، ليس كدعر من يهدده خنجر ، ليس كخوف من أو شك على الفرق ، انه لهول كوني ، انه لخطر مفاجيء . الكون ينهار يتهدم يتقوض بينما الارض تدوي في رعد اصم ، بصوت ، ما من احد سمعه قبل ولا عرف له مثيلا .

يترسب الغبار الذي اثارته البيوت عند انهيارها شيئا فشيئا وكل شيء يهدأ ، يخمد . نظل وحدنا مع امواتنا دون ان ندري اننا اموات نحن ام احياء .

تنطلق المدايح من تحت ومن فوق وتتلوى درجة درجة بعضها فوق بعض دون تماس بين الواحدة والاخرى . تغدو نحيلة رفيعة كأنها شعر او

خيطة ، تستريح قليلا ، تطلع شاقولية الظهر ، تراوح ، تسرع الخطو ، تمتد . تتقهقر . لا تنتهي ابدا .

كم من مدارج ؟ كم من درجة مدارج ؟ كم قدم على الدرجات ؟ كم قرن من الخطى ، من النزول والصعود مع الكتاب ، مع الطماطم ، مع السمك ، مع الزجاجات ، مع الخبز ؟ كم الف من الساعات دارت على هذه الدرجات فأبلتها وجعلتها قنوات تجري فيها الامطار لاعبة او باكية ؟ .

يا لها من مدارج !

ما من مدينة سفحت المدارج ، عرّتها في ناريخها ، في وجهها ، ذرّتها ثم جمعتها ، كما مدينة «البارائيسو» . ما من وجه له مثل هذه الاثلام والاخاديد حيث تروح وتجرء الحيات كما لو انها دائما وابدا تصعد الى السماء ، كما لو انها دائما ابدا تهبط الى البحر مصدر الخلق .

يا لها من مدارج انبتت في منتصف الدرب حراشف من الزهور الارجوانية ! يا لها من مدارج اخذت بيد بحار آب من سفره الى آسيا ليجد في بيته ضحكة جديدة او غيابا رهيبا ! يا لها من مدارج هوى من عليها مثل نيزك اسود ، سكير فتدحرج فوقها ! يا لها من مدارج تصعد الشمس عليها لتمنح جها الخالد الى التلال !

ان مشينا مدارج «البارائيسو» كلها فاننا نكون قد درنا حول العالم كله .

يا «البارائيسو» يا مدينة آلامي . . . ماذا جرى لك في وحدة المحيط الهادي الجنوبي ؟ أنت نجمة تائهة ام معركة ديدان نجا تألقها من المصيبة ؟

يا له من ليل ، ليلك ! نقطة من الكوكب الارضي وقد اضيء ، ضئيلًا ، في الكون الفارغ الخاوي . حباحب خفقت ، حدوة من ذهب توهجت بين الجبال .

ان ليلك الهائل نشر من بعد اشكالا عظيمة ضاعفت من نورك . فنجمة

الدبران (١) سطعت بنبضها القصيّ البعيد ، الثريا نشرت ملابسها البرّاقة
عند ابواب السماء ، بينما كانت تدور عربة القطب الجنوبي الصامتة في
المدى الليلي لنهر المجرّة .

اذّك برج القوس الشامخ الكثيف الشعر القى الماسة من اقدامه
الضائعة ، برغوثا من جلده العصي البعيد .

لقد ولدت «بالبارائيسو» ، متوهجة وثرثرة فاضحة ، مزبدة وبغيا .

امتلا ليل أزقتها بحور البحور السمراوات السوداء ، تترصدك في
الظلام الابواب ، تتخاطفك الايدي في العتمة ، شراشف الجنبوب تينتهت
البحارة ، أسرّتها ضيعت الرحاله والجوالة والعاير والمسافر . ان البغايا :
(بوليانتا) ، (كارميلا) ، (فلور دي ديوس) ، (مولتيكولا) ، (بيرنيثه) وغيرهن
كثيرات ، انشان الحانات والملاهي ، صنّ الفرقى من الهديان بالهديان ،
حفظن السكرى من التعمّعة بالتمتعّة ، تبدّلن ، تجددن ، رقصن ، بسلا
خلاعة ، ولكن بكأبة اصيلة ممطرة وحزن جنسي دام .

لقد خرجت من الميناء لصيد الحيتان اكثر السفن صلابة وجلدا ،
وسفن أخرى انطلقت نحو جزر الذهب . هذه الاخيرة عبرت البحار السبعة
لتأخذ فيما بعد من الصحراء التيشيلية فلزات «الأروت» التي ترقد هناك
كانها غبار لا يحصى لتمثال محق وسحق تحت اكثر منطقة في العالم جفافا .

لقد كانت هذه هي المغامرات الكبرى .

لقد تلالات «بالبارائيسو» عبر ليل الكون ، لقد بدت بواخر تمخر من
عالم الى عالم ، سفن موشاة كأنها حمام سحرية ، سفن شذية عطرة ،
اشرعة جائعة ارساها «كابو دي اورنوس» في مراسيه ردحا من الزمن . . .
احايين كثيرة كان الرجال حديثو العهد في الاقلاع والإبحار يستمعجون

اليابسة ويستوحشون الكلاً كانت أياما ضارية ساحرة حين لم تكن المحيطات تتصل فيما بينها الا عن طريق مسافات المضيّق «الباتاغوني» ، حين كانت «بالبارائيسو» ندفع بعملة جيدة أجره البحارة الذين كانوا يتفنون عليها ويعشقونها .

في احدى السفن وصلت آلة موسيقية من الطراز القديم ، في أخرى عبرت السيدة (فلورا تريستان) وهي الجدة «البيروانيّة» (٧) لـ (غاوغين Cauguin) (٨) ، وفي «واجير» (Wager) وصل (روينسون كروزو) ، الآلة الموسيقية شحنت بقدها وقديدها (٩) من ميناء «خوان فيرنانديث» ؛ سفن أخرى جلبت ثمر الاناناس ، بنتا ، ففلا من «صوماطرا» ، موزا من «غواياكيل» Cuayaquil ، شايا مع الياسمين (١٠) من «استام» Assam ، مشروب «ال انيس» (١١) من اسبانيا . . . امتلأ الرصيف البعيد وحدوه «سنتورو» Centauro المؤكسده بالأشذاء والطور : في هذا الشارع تفعمك عدوبة القرفة ، اذ ذلك تخترق روحك مثل سهم ابيض رائحة فاكهية «تشيريمويا» Chirimoyas (١٢) من هذا الزقاق او ذلك تطل لتقاتلك فئات طحالب البحر : طحالب البحر التشيلي كله .

كانت «بالبارائيسو» آنذاك ، تتشج وتقلد بالذهب الاسود ، تستحيل الى شجرة يرتفال بحرية ، كان لها اقصان وأوراق ، كان لها نضارة وظل ، كان لها تلالؤ الشمر وألق البحر .

٧ - البيروانية : نسبة الى «البيرو» ، احدى جمهوريات امريكا الجنوبية .

٨ - غاوغين. : رسام فرنسي (١٨٤٨ - ١٩٠٣) .

٩ - بقدها وقديدها : في الاصل بلحمها وعظمها .

١٠ - الياسمين : هكذا في الاصل (Jazmin) ، عن العربية

١١ - ال انيس Anis مشروب يشبه العرق ، منه الحلو ومنه الحاد .

١٢ - تشيريمويا : هي كلمة من اصل امريكي ، وهي شجرة تكثر في امريكا الوسطى ،

يبلغ علوها حوالي ثمانية امتار ، على جلعها اقصان كثيرة ، وقمتها كثيفة ، ازهارها عطرة ، اوراقها مستطيلة خضراء ، تؤكل فاكهتها .

لقد قررت قمم «بالبارائيسو» لقاء رجالها ، الاطاحة بالمنازل من الاعلى كي تحور هذه المنازل في المستنقعات التي يصبغها الصلصال باللون الاحمر ، المتاهات الذهبية باللون المذهب ، الطبيعة النفور باللون الاخضر . لكن الرجال ابوا والمنازل جفخت فتسببت الرجال والمنازل بالقمم ، التفوا عليها ، تسمتروا فيها ، تعذبوا منها ، تعودوا على كل ما هو شاقولي بها ، تعلقوا بأسنانهم في كل مفارة ، غرزوا اظافرهم في كل هاوية . وما ميناء «بالبارائيسو» الا الحرب السجال بين البحر وطبيعة الجبال المراوغة ، بيد ان الانسان في هذا الصراع ربح الجولة فتصلحت القمم والامواج وتعاونت الرابية والتساطىء على تكوين المدينة وخلقها فالبساها زيا واحدا ليس كما هو الحال عليه في الثكنات بل في تنوع الربيع ، في تلون ألوانه ، في شكل رسومه ، في تناغم الحانه ، في نشاطه ، في حركته . ففدت المنازل الحانا وألوانا : من ازرق وأصفر ومن اسود واحمر ومن أرجواني وأخضر . هكذا انجزت «بالبارائيسو» مهمتها ففدت ميناء حقيقيا ، سفينة راسية لكنها حية تعجّ نشاطا ، أشرعة راياتها مشرعة على الرياح فلقد كان المحيط العظيم بأواجهه ورياحه يستحق مدينة ذات بيارق ورايات .

لقد عشت بين هذه الربا الشذية الجريحة، هي ربا مفعمة للذبة فيها الحياة تلطم بأمواج تتجاوز الاسوار ، تقذف بأصداف لا تسبر ، تعزف بأبواق معوجة . في المدرج ينتظرك ، مهرجان برتقالي ، راهب يهبط ، طفلة حافية غارقة في بطيختها التي تأكلها ، زحمة من بحارة ونساء ، بيعة من حدائد متأكسدة ، سيرك صغير جدا لا يسع شبوطه الا شاربي المروض المهرج ، مدرج يصعد الى الغيوم ، مصعد يرتفع وقد حمل بالبصل ، سبعة حمير تحمل ماء ، سيارة اطفاء تعود من حريق ، واجهة محل فيها من الزجاجات ما يحيي او يميت .

لكن هذه الروابي لها اسماء عريقة عميقة . ان الحفر بين هذه الاسماء ليس ينتهي او ينقضي لان رحلة «بالبارائيسو» لا تنتهي لا في الارض ولا في الكلمة . اليكم هذه الاسماء او بعضا منها (١٣) : الربوة الفرحة ، الربوة

الفراشة ، الربوة القطبية ، ربوة المستشفى ، ربوة المسيح ، ربوة الركن ،
ربوة الذئب ، ربوة المراسي ، ربوة أواني الفخار (١٤) ، ربوة السنديان ،
ربوة البطم ، ربوة الطاحونة ، ربوة القصب ، ربوة السيدة (البيرا) ، ربوة
القديس (اسطفان) ، ربوة الزمردة ، ربوة اللوزة ، ربوة (رودريغيث) ، ربوة
المدفعية ، ربوة الحلابين ، ربوة مريم العذراء ، ربوة المقبرة ، ربوة شوك
الدراج ، ربوة الشجرة المطوقة ، ربوة المستشفى الانجليزي ، ربوة سعف
الجريد ، ربوة الملكة (فيكتوريا) ، ربوة القديس (خوان دي ديوس) ، ربوة
الفرضة ، ربوة «فيثكايا» ، ربوة السيد (الياس) ، ربوة الرأس ، ربوة
قصب السكر ، ربوة السفرجل ، ربوة الثور ، ربوة «فلوريدا» .

لم اعد اقدر على المسير بعد في اماكن اخرى كثيرة . ان «بالبارائيسو»
تحتاج الى نسناس بحري جديد او الى اخطبوط (١٥) حتى يستطيع ان
يتعرف عليها ويطوف بها . اما انا فاني استغل شيئاً ما من مداها الفسيح ،
مداها اللداتي الودود ولكنني لا ابلغ ان اضمها من يمينها ذات الالسوان
العديدة ، من يسارها ذات الخصوبة والعطاء من راسها او من هاويتها .

انا فقط اتبعها في اجراسها ، في تموجاتها ، في اسمائها .

لاسيما اسماءها ، اذ ان للاسماء جدورا واصولا ، ان لها لهواء وزيتا ،
ان لها تاريخا ، لدهنا دم في مقاطعها وحروفها .

قنصل لتشييلي في جُحر

جائزة ادبية طلابية ، بعض من الشهرة لكتبي الجديدة ، بردتسي
الشهيرة ، كل هذا منحني هالة من الوقار والاحترام ، وذلك خارج اطر
الدوائر الفنية والادبية . لكن الحياة الثقافية لبلداننا في عام ٢٠ كانت

١٤ - اواني الفخار . هكذا في الاصل **Alfareras** ، عن العربية
١٥ - اخطبوط (Octopierna) : كلمة من اصل افريقي ومعناها ، ذو الثمانية ارجل ،
تقرأ بضم الهمزة .

تتوقف كلية على اوروبا ، ما عدا استثناءات بطولية معدودة . في كسل جمهورية من جمهوريات امريكا اللاتينية كان هناك محفل كوني لا يهتم الا في الثقافة الاوروبية وبخاصة الفرنسية منها واما بالنسبة لكتاب الفئة الحاكمة فقد كانوا يعيشون في باريس . لم يكن شاعرنا الكبير (بيثينه هويدوبرو) (١٦) يكتب باللغة الفرنسية ، فحسب ، بل انه غير اسمه لينطق كما هو بالفرنسية ، استبدل به اسم «فينسنت» .

والحقيقة هو انه ، ما ان حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس . يسألونني ان راوني في احد الشوارع او احد الاماكن : «لكن ، ماذا تفعل هنا ؟ عليك ان تذهب الى باريس» .

لقد نوسط لي صديق من اصدقائي لدى رئيس دائرة في وزارة الشؤون الخارجية ، فاستقبلني هذا الرئيس حالا احسن استقبال ، اذ انه كان قد قرأ شعري .

— بالاصافة الى شعرك فاني اعرف كذلك تطلعاتك . اجلس في هذا المقعد المريح ، فمنه تستطيع ان ترى الساحة ومهرجان الساحة . تأمل في هذه السيارات ، ان كل شيء لباطل وعبث . انك لسعيد كونك شاعرا شابا . افترى ذاك القصر ؟ لقد كان ملكا لعائلي . وها انت تراني هنا ، في هذه الحظيرة ، مكبلا وقد غدوت بيروقراطيا . ليس من شيء ذي قيمة سوى الروح . هل يعجبك (تشايكوفسكي) (١٧) ؟

بعد ساعة من الحديث الادبي والفني . عندما مد لي يده لتوديعي ، قال لي بالا اقلق حول هذا الموضوع اذ ان الامر في ايد امينة ، كيف لا وهو مدير الخدمات القنصلية وصاحب الامر والنهي في هذا الموضوع .

١٦ - بيثينه هويدوبرو : شاعر من شييلي (١٨٩٣ - ١٩٤٨) .
١٧ - تشايكوفسكي (Pioty Ilich) : الموسيقي الروسي الشهير (١٨٤٠ - ١٨٩٣) .

— اعتبر نفسك من الآن معينا لمنصب في الخارج .

كنت اتردد خلال سنتين كاملتين الى دائرة هذا الرئيس الدبلوماسي الكيس ، وهو في كل مرة اكثر كرما وترحيبا . ما ان يراني اطل من الباب حتى ينادي في فتور على احد من مساعديه ويقول له وهو يقتل شاربيه : اسمع ، لست اليوم مستعدا لاستقبال احد مهما كان ، دعني انسى النثر اليومي ، ان ما هو روعي في هذه الوزارة هي زيارة الشاعر ، ليس الا ، ليته لا يفادرننا ابدا .

كان يكلمني في صراحة وصدق ، انا متأكد من هذا . من بعد ياتي الفصل التالي ، يحدثني عن الكلاب الاصيلة «من لا يحب الكلاب ، لا يحب الاطفال» . ثم يستعرض الروايات الانجليزية ، ثم يعرج على علم طبائع الانسان ثم يحلق الى الروحانيات لينتهي متحدثا عن مسائل تتعلق بعلم الانساب وبخاصة اشعة الاشراف . لدى توديعي يعيد على مسمعي هامسا ، كما لو كان الامر سرا بين اثنين لا يجوز البوح به ، ان لا احزن او اقلق وان منصبي في الخارج اكيد . مع اني كنت في عوز واحتاج الى المال لكي اكل على الاقل ، فقد كنت اخرج من عنده راضيا ، استنشق الهواء كاني وزير او مستشار . وحين كان يسألني اصدقائي «ماذا كنت تعمل هذا اليوم؟» اجيب بانني اعد نفسي للسفر الى اوروبا .

لقد دام هذا الامر الى ان التقيت صدفه بصديقي (بيانتشي Bianchi) . ان آل (بيانتشي) في تشيلي هم فخذ من قبيلة نبيلة . منهم رسامون وموسيقيون مشهورون وقضاة وكتاب ورواد مكتشفون ومتسلقون لجبال «الانديس» Andis ، تنفذ الحكومة لهم ما يشاؤون وتلبي مطالبهم او وساطاتهم في اسرع وقت . سألني صديقي هذا الذي كان سفيرا يعرف الاسرار الوزارية والدبلوماسية :

— ألم يصدر تعيينك حتى الان ؟

— سوف احصل عليه بين لحظة وأخرى ، كما أكد لي ذلك احد حماة الفنون والآداب ممن يعملون في الوزارة .

ابتسم لي ثم قال :

— هيا بنا الى الوزارة .

نأبطني من ذراعي الى ان وصلنا الوزارة فصعدنا الدرجات المردسية ، فكان يخلي لنا الدرب الصاعد فراشون ومستخدمون ونازلون وطالبون . لقد كنت مندهشا جدا الى درجة اني ما استطعت ان انطق ببنت شفة حين استقبلنا وزير الخارجية فهذه هي اول مرة التقي فيها بوزير للخارجية ، كان قصير القامة جدا ولكي يخفي قصره ، جلس على مقعد عال وراء مكتبه . شرح له صديقي الامر وكلمه عن رغباتي الشديدة بالخروج من تسميلي ، فوضع الوزير ابهامه على زر من أزرار أجراسه الكثيرة واذ بحاجب الادب وحامي حماي الروحي وشفيعي يطلّ بطلعته البهية فجأة مما ضاعف من بلبتي وزاد في ارتبائي .

— ما هي المناصب الخالية في دائرتكم ؟ قال له الوزير .

لم يكن ليستطيع هذا الموظف الموبخ ان يكلم الآن عن (تسايكو - سكي) ، بل اقتصر على تعداد أسماء مدن مبعثرة في العالم ، ما التفتت مدا سوى اسم واحد لا غير بدا لي اني كنت قد سمعت به او قرأته من ق . . . « رانغون » .

— الى ابن تريد الذهاب يا (بابلو) ؟ قال لي الوزير .

— الى رانغون — اجبت بلا تردد .

— اصدر تعيينه حالا — أمر الوزير ظهيري وشفيعي الذي جرى . عاد بقرار التسمية .

كان هناك في القاعة الوزارية كرة للكرة الارضية . صديقي (بانتشي) وأنا اخذنا نبحث فيها عن مدينة «رانغون» المجهولة . كان للخارطة الكروية العتيقة جدا انبجاج عميق كأنه جُحْر ، بناحية من آسيا وفي هذا السحوف اكتشفناها .

. رانغون . ها هي هنا رانغون .

لكن حين التقيت من بعد بأصدقائي الشعراء ، وأرادوا الاحتفال بتعييني ، حصل انه نسيت كليا اسم المدينة ، ما استطعت الا ان اقول لهم بأنني عيَّنت قنصلا في الشرق الخرافي وان المكان الذي عينت فيه يوجد في جنح من الخارطة .

(Montparnasse) « مونتيبارناسه »

انطلقنا ذات يوم من ايام حزيران لعام ١٩٢٧ نحو المناطق القصية البعيدة . استبدلنا ببطاقتي من الدرجة الاولى اثنتين من الدرجة الثالثة واقلعنا في سفينة « ال بادين » Baden . كانت باخرة المانية ، قيل بأنها وحيدة في نوعها ، لكن كان يجب ان يقال بدلا من هذه «وحيدة» ، خامسة او سادسة الخ . كانت الوجبات في هذه الباخرة تقوم على مرحلتين متتابعتين ان انتهى من الاولى شرع بالثانية : واحدة منهما سريعة الى المفتربين البرتغاليين والجليقيين (١٨) ، والاخرى الى المسافرين الاخرين على اختلاف اجناسهم وبخاصة الالمان الذين كانوا يعودون من عملهم في المناجم او المعامل بأمريكا اللاتينية . صاحبني (البارو Alvaro) صنف المسافرات حالا . كان مغازلا فعلا ، فقد قسمهن الى مجموعتين، اللواتي يهاجمن الرجل ، واللواتي يخضعن للسوط . لم تكن هذه الصيغ في التصنيف والتقسيم دقيقة دائما . كان يستعمل انواع الحيل جميعها ليقع الفتيات في حباله ويصيدهن في شبابه . حين كان يطل عند جسر الباخرة مثنى من المسافرات المهمات ، يأخذ يدي بسرعة ويتظاهر بأنه يفسر لي معاني خطوط كف يدي ، بإشارات غريبة . حين ترجع المنزهتان من جولتهما الاولى ، تتوقفان فترجوانه ان يقرأ لهما البخت . فورا يأخذ يد هذه او تلك فيداعبها ويدغدغها اكثر مما يجب وكان

١٨ - الجليقيون (Gallegos) : هم سكان منطقة «غاليشيا» Galicia

او «جليقيا» كما كان يدومها العرب ، وهي المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا .

يوقع لهما المستقبل السعيد الا وهو زيارة غرفتنا في السفينة .

بالنسبة لي تحولت رحلتي الى شيء آخر فلم اعد انظر الى المسافرين الذين كانوا دائما يحتجون صارخين على وجبة الطعام الخالدة من « كارتوفيل » (١٩) لسم اعد اأمل فسي الكون او في المحيط الاطلسي الرتيب ، فقد فرصت نظري على التمعن في عينين سوداوين واسعتين لفتاة برازيلية، برازيلية في كل شيء، برازيلية الى حد ما لا حد له، منذ ان صعدت الى الباخرة بصحبة ابويها واخيها في ميناء ريو دي جينيرو» .

ان مدينة «ليتبونة» البهجة الفرحة في تلكم الاعوام بصيادها الذين يملأون ارصفتها مينائها وشوارعها ، ومن غير ان يكون بعد في المرش (سالازار) (٢٠) ، ادهشني وفتنتني ، الأكل في الفندق الصغير كان لذيذا، صوان كبيرة من الفواكه كانت تتوَج المائدة . الدور الكثيره الالوان، القصور القديمة ذات الاقواس فوق الابواب ، الكنائس الهائلة المخيفة كأنها بفيابها قنصور بيض الرخ والتي كان الله قد غادرها منذ قرون ليعيش في اماكن اخرى ، دور الميسر داخل القصور العنيقة ، الجمهور المتطفل بتشكل طفولي في السوارع الطويلة ، (الدوقة براغانشا) (٢١) ، وقد فقدت عقلها ، تمضي عبر شارع مرصوف بالاحجار ، في وقار وجلال ، وهي تنبع بمائة من النبان الصعاليك الداهلين ، هكذا كان دخولي الى اوروبا .

ومن بعد ، مدريد بمقاهيها المكتظة بالناس ، في تلك الايام كان (بريمو دي ريبيرا) (٢٢) الدمث يلقي الدرس الاول فسي الديكتاتوريه

١٩ - كارتوفيل : هو نوع من الاكل الالمانى .

٢٠ - سالازار (Antonio de Olivera) : الديكتاتور البرتغالى المعروف

١٨٨٩ - ١٩٧٠) .

٢١ - الدوقة براغانشا : من الاسره الملكيه البرتغاليه التي اقصيت عن الملكيه والحكم .

٢٢ - بريمو دي ريبيرا (Miguel) : كان جنرالا في الجيش ثم حكم اسبانيا حكما

ديكتاتوريا (١٨٧٠ - ١٩٣٠) .

على بلد سيتلقى من بعد الدرس الاكمل . ان قصائدي الاولية
في ديواني «مقام في الارض» قد تأخر الاسبان في فهمها ، وهم ما فهموها
واستوعبوا الا حين نشأ جيل (البرتي) (٢٣) و(لوركا) و(اليكساندره)
(ودينغو) . واسبانيا كانت بالنسبة لي كذلك القطار اللامتهي والعربة من
الدرجة الثالثة ، اكثر العربات قساوة ورداءة في العالم ، التي اقلتني الى
باريس .

لقد اختفينا ؛ انا وصاحبي ، بين جمهرة مقهى «مونتبارناس»
الدخانية ، بين ارجنتينيين وبرازيليين وتشيليين . اما الفائزوليون فلم
يكونوا قد حلموا بعد بأن يبينوا ويظهروا ، فقد كانوا مقبورين اذالك تحت
نير حكم (غومت Comez) (٢٤) . وهناك في زاوية من زوايا المقهى جلس
اوائل الهنود الحمر من الدين اتوا الى باريس بملابسهم السابقة . وقربي
على طاولة مجاورة جازتي تناول في تودة قهوة بالحليب وحول عنقها التفتت
افعى . كانت جاليتنا الامريكية الجنوبية تشرب «كونياك» ، ترقص
«التانغو» وهي تنتظر سانحة كي تبدأ بمشاجرة كبيرة والتعارك مع اكثر
الناس هناك .

لقد كانت باريس وفرنسا وأوروبا بالنسبة اليينا نحن القرويين
البوهيميين القادمين من امريكا الجنوبية لا تعدو ان تكون مثتي متر ليس
الا ، وزاويتين : «مونتبارناس» ، وال «روتوند» وال «روم» وال «كوبول» ،
وثلاثة مقاه او اربعة اخرى ليس اكثر . لقد اصبحت عادة عند الامريكيين
الجنوبيين وبخاصة الارجنتينيين منهم الذين كانوا اكثر عددا واكثر عريضة
واكثر غنى ، مسامرة الملاهي المليئة بالسود . في كل لحظة كانوا يشيرون
الشغب في هذا المقهى او ذلك ويشاهد دائما منظر احد الارجنتينيين وهو

٢٣ - البرتي : لقد ترجمنا له ومنه وكذلك لشعراء جيله المعروف بجيل عام ٢٧ في
كتابنا المذكور «مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» ، وهو شاعر ولد في قرية من قرى
«قاديش» عام ١٩٠٢ ويعيش منذ نهاية الحرب الاهلية الاسبانية في ايطاليا ، وله كذلك
سرحيات رائمة . لقد عاد الى اسبانيا في عام ١٩٧٧ .

٢٤ - غومت (Juan Vicente) : ديكتاتور فينرولي (١٨٥٧ - ١٩٣٥) .

بحمل بين اربعة من النوادل وبمر بين الطاولات بلا توقف لبوضع على ناصية الشارع في صخب واحنجاج اذ لم تكن نوجب ابناء عمنا ابناء «بونوس ايرس» ، هذه التصرفات العنيفة - علما بأنهم كانوا هم الذين يبدوون بها - التي تعسد لهم سراويلهم الانيفة . وما هو اكثر حطوره انها كانت تخربط تسريجات شعرهم ، فلفد كانت الاناقة والليافة جزءاً اساسيا فى النقاة الارجتينية تلك الفترة من الزمن .

ان الحقيقة هي انني ، في هذه الايام الاولى لي بباريس النبي كانت تطير ساعتها دون ان أدري ، لم أتعرف على اي فرنسي ولا على اي أوروبي ولا على اي آسيوي بله على اي مواطن من افريقيا او من المحيط الهادي . كان الامريكيون الناطقون باللغة الاسبانية جميعا ، من المكسيكيين حنى البانثاغونيين ، يقضون اوقاتهم في مجالس للنكت والنكت يضخمون العيوب ، يصفر بعضهم بعضا ويحفره ، دون ان يستطيعوا ان يعيتوا مفترقين لحظة واحدة فقد كان رجل من غواتيمالا ، مثلا ، يفضل لفضاء الوف في شكل لزيد ، مصاحبة صعلوك من باراغواي على مصاحبة (باسنور) (٢٥) .

في هذه الايام تعرفت على (ثيسار بايجو) (٢٦) ، الذي هو «تشولو» (٢٧) عظيم وشاعر شعير متفضن صعب اللمس خشن المجس كانه جلد الغابة ، لكنه شعر عظيم جدا ذو ابعاد انسانية .

لقد وقعت لي معه حادثة حين قدموني اليه في مقهى الـ «روتوند» ففد قال لي وهو يصافحني فى لهجته البيروية المهذبة :

— انت اعظم شعرائنا كلهم ، لا يقارن بك الا (روبين داريو) (٢٨) .

-
- ٢٥ — ناسور Louis : كيميائي فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٥) .
٢٦ — ثيسار بايجو : شاعر من البيرو (١٨٩٣ - ١٩٣٨) .
٢٧ — تشولو Cholo : هو الهجس المختلط الدماء من دماء الهنود الحمر ومن دماء الاوروبيين .
٢٨ — روبين داريو^{٤٣} : شاعر مشهور جدا من «نيكرانوا» (١٨٦٧ - ١٩١٦) .

- يا (بايخو) - قلت له - اذا اردت ان تكون اصدقاء دائما فارجوك
الا تعود فتقول لي شيئا من هذا القبيل ، فليست أدري ان بدأنا علاقتنا على
هذا النحو من المدح والمجاملة وعلى هذا الشكل في التخاطب باننا اديبان
كبيران ، اين سنقف فيما بعد والى اين سنصل .

بدا لي ان كلماتي هذه قد أزعجته جدا . تربيتي المعادية للأدب كانت
تجعلني أصير سيء الادب ، بينما هو ، على العكس من ذلك ، ينتمي الى
جنس اكثر عراقة من جنسي ذي مجد وكياسة ولباقة . لقد شعرت حين
لاحظت انه تضايق من كلامي ، كاني ريفي جلف فظ .

لكن ذلك مر كسحابة صيف ومنذ تلك اللحظة غدونا صديقين
حميمين . بعد عدة سنوات ، حين عرجت على باريس مرة أخرى لقضاء
بعض من وقت ، كنا نتقابل يوميا . حينذاك عرفته في عالمه الدائني وأحببته
اكثر فأكثر .

كان (بايخو) أقصر قامة مني، اكثر عظما، كان كذلك اكثر «مهندا»(٢٩)
مني بعينه الفامقتين وبجبهته الشامخة المعقودة قناطر وقبابا وبميسمه
ال «اينكي» (٣٠) الجميل الحزين في شيء من الجلالة والمهابة . كان مزهوا
معجبا متباهيا كجميع الشعراء قاطبة فلقد كان يسره ويرضيه ان يطنب
الناس في الحديث عن سجاياه البدوية وملامحه الهندية ، كان يشمخ
برأسه كي الحظ في وجهه هذه المزايا فأكبرها وأطربها ويقول لي :

- اقليس حقا ان في وجهي لنضارة البدوي ؟ . ثم يضحك من نفسه
في ابتسامة صامتة .

ان افتخاره لمختلف جدا عن فخر (بيثينته هويدوبرو) ، هذا الفخر

٢٩ - مهنت : لم نجد أصلح من هذه الكلمة لترجمة ما معناه انه كان اكثر هنديا اجمر .

٣٠ - ال «اينكي» : نسبة الى (inca) وهو ملك او امير او نبيل في قبائل «البيرو»
القديمة .

الذي كان يبدبه احيائين كثيرة هذا الشاعر المتقاطر و(بايخو) فسي اشياء كثيرة ، فلقد كان (هويدوبرو) يترك على جبينه عقيدة من الشعر تتدلى ويحصر أصابعه في صدرينه وينثر رأسا وصدرًا نم يتساءل :

— أفما تلحظون شبيهي من (نابليون بوناپرت) ؟

— بلى ، كانوا يجيبونه مسنهزين احيانا .

كان (بايخو) متجهما عبوسا كئيبا ، بيد ان ذلك لم يكن الا في المظهر فكانه رجل يفف في شبه ظل نصفه نور ونصفه الآخر عتمة ، خلال ربح طويل من الزمن ، فلا النور يبلغ الظلام ولا الظلام يبلغ النور وكل في مكانه لا يبرحه . كان في طبعه جليلا وقورا ، ووجهه كأنه قناع صلب لا يرق ولا يلين ، رصين يحسبه الناس تكلفا وما هو بذلك . لقد رأينه عدة مرات (وبخاصة حين كنا نفدر على اجنتائه من سيطرة زوجته ، كانت امرأة فرنسية طاغية مدعية وهي ابنة بواب) . لقد شاهدته حين يخرج معنا ، وهو يقفز قفزات النلامذة فرحا وغبطة ، ثم يعود الى وقاره وجلاله الى خضوعه وانقياده .

على حين غرة طلع من ظلال باريس نصير الاب هذا الذي كنا ننتظره ولا يأتي ابدا ، نصيرا ياوبنا ويعطينا . كان حامي الادب هذا كاتبا تشيليا ، صديقا لـ (رافائيل البرتي) وللفرنسيين ولنصف العالم . وكذلك كان ، وهذه ميزة اكثر أهمية من غيرها ، ابن صاحب اكبر شركة تشيلية للسفريات البحرية . وكان شهيرا بتبديره واطلاق يده .

كان ذلك المسيح الحديث السقوط من السماء يريد ان يحتفل بسي ويكرمني فقادنا جميعا الى ملهى للروس البيض يدعى «الحانة القفقاسية» ، كانت جدران هذه الحانة مزينة بأزياء ومناظر من جبال القفقاس ، ما ان جلسنا حتى احاط بنا عدد كبير من الروسبات او المدعيات بانهن روسيات ، متزينات كما تتزين فلاحات تلك الجبال .

ان (كوندون) ، هذا هو اسم مضيفنا راعي الفنون ، يبدو وكأنه آخر روسي من عصر الانحطاط ، هشا أشقر ، كان يطلب بلا هوادة او انقطاع

زجاجة «شمبانيا» اثر زجاجة ، يقفز قفزات جنونية ، مقلدا رقصات القوزاق» (٢١) التي ما رآها او رآهم قط .

-- «شمبانيا ، شمبانيا» ، ثم خرّ ساقطا مضيفنا المليونير الشاحب الوجه البدن . ظل مخزونا تحت الطاولة ، نائما نوما سباتا كأنه جثة هامدة بمفقاسي أهلكه الدب الابيض .

.. بنا رعشة تلجية وهزة جليدية ، لا الرجل يستفيق فيدفع - لقد حاولنا بعثه بأضمدة من ثلج بزجاجات من نشادر مفتوحة موضوعة قيد انفه - ولا نحن نملك ان ندفع . الراقصات ما عدا واحدة منهن ، هجرنا وقد رأينا في حيرة وتشتت . بحثنا في جيوب مضيفنا فما عثرنا الا على دفتر «شيكات» مزخرف ، ما كان صاحبنا في شروطه الجشية تلك بقادر على التوقيع .

لقد ألح صاحب الحانة القفقاسي الاعظم على ان يكون الدفع عدلا ونقدا وحالا ، فأغلق باب الخروج تحسبا كيلا نولي الأذبار ، فما استطعنا ان ننجو من السجن الا بترك جواز سفري الدبلوماسي الجديد القشيب هناك حبيسا لدبه مرهونا بدلا منا .

خرجنا وقد حملنا مضيفنا المليونير المنهك فكلفنا جهدا كبيرا نقله الى سيارة «تاكسي» ، تكفيته فيها ، انزله منها عند باب فندق فاخر فتركناه بين أذرعته بوابين ضخمين لابسين ازياء حمراء فحملاه كما لو انهما يرفعان أمير بحر (٢٢) سقط على جسر سفينته .

كانت تنتظرنا في سيارة «التاكسي» فتاة الحانة ، الفتاة الوحيدة التي ما هجرتنا في وقت الضيق والتعاسة . دعوناها ، انا و(البارو) ، الى مطعم «ليس هاليس» Les Halles لتتدوق حساء البصل عند الفجر ،

٢١ - القوزاق (Cosacos) : هم سكان بعض مناطق روسيا ، وكذلك هم المسافر الخيالة في روسيا القيصرية .

٢٢ - أمير بحر : او أمير البحر ، هكذا في الاصل Almirante . عن العربية

اشترينا لها ورودا من السوق وقبلناها قبلات شكر وامتنان على سلوكها السامري ف شعرنا ان لها جاذبية ما . لم تكن لا بالجميلة ولا بالقبيحة ، بل ان انفاها الباريسية المتجعدة المتفضتنة كانت تمنحها شيئا من الاعتبار . آنداك دعوناها الى فندقنا البائس التعس ، لم يكن هناك من جانبها اي مانع او تعقيد في الذهاب معنا .

دخلت مع (البارو) الى غرفته ، وأنا هويت في فراشي مستسلما للنوم ، لكن ما ان غفوت قليلا حتى أحسست ان احدا يهزني ، يخضني ، كان (البارو) ، وجهه بدا لي غريبا كوجه مجنون وديع .

— هناك شيء يجري — قال لي — ان لهذه المرأة لشيئا متميزا غريبا غير ما لوف ، شيئا ما انا بقادر على ان أشرحه لك ، عليك ان تجربها بنفسك الآن حالا .

بعد دقائق معدودات جاءت هذه المرأة فحشرت نفسها بلطافة وهي كأنها حاملة ساهمة ، في فراشي . حين ضاجعتها خبرت فيها هذه الميزة الغريبة ، هذه الهبة السحرية ، كان شيئا لا يوصف ، شيئا ينبع من أعماقها يتفجر ، ثم يرجع أدراجه الى اصل الشهوة ، نبع اللذة ، مولد الموجة ، الى سر «فينوس» الخصب ، ثم يعود يقذف ثم ينخطف . ان (البارو) لعلى حق وفي يقين .

في اليوم التالي ، اثناء الفطور ، حذرني (البارو) قائلا باللغة الاسبانية:

— ان لم ندع هذه المرأة الآن ، فان سفرنا سيبوء بالفشل والاحباط اذ أننا ، يا عزيزي ، لن نركب البحر بل سر الجنس المقدس ولنز هذه المرأة الذي لا يسبر .

قررنا ان نفعمها هدايا : ورودا ، شوكولاتا ، نصف ما تبقى معنا من «فرنكات» . اعترفت لنا بانها ما كانت تعمل في ذلك الملهى القفقا سي ، بل انها زارته لأول مرة تلك الليلة . ثم من بعد اخذنا لها سيارة تاكسي وركبنا معها . كان سائق التاكسي يجتاز حيا مجهولا ، حين أمرناه بالتوقف

فودعناها وتودعنا منها بقبل كثيرة كبيرة ، تركناها هناك ، تائهة لكن
مبتسمة .

ابدا لم نرها من بعد ، قط .

سفر الى الشرق

كذلك لن أنسى الفطار الذي أقلنا الى مرسيليا ، محملا مثل سلة
مواكه غريبة ، بأناس شتى ، بفلاحين وبحارة ، بالأت «أكوردبون» وأغان
كانت تنسق وتتجاوب في عربات القطار كلها . كنا نمضي نحو البحر
الابيض المتوسط ، نحو أبواب النور عام ١٩٢٧ . لقد سحرتني
مرسيليا برومنطيكيتها التجارية وميناء «بيوكس» ، المجنح بأترعنه الفوارة
في كدرها القائم . لكننا الباخرة التي كانت تابعة الى شركة «ميساجريس»
البحرية والتي قطعنا تذكريتين للركوب بها حتى «سينفابور» ، كانت قطعة
من فرسا في البحر ، ببرجوازيها الصغيرة التي كانت تهاجر لتشفل
مناصبها في المستعمرات النائية . حين لاحظ بحارة السفينة ان لدينا
آلة كاتبه وأنه يبدو علينا من كتبنا وأوراقنا اننا من الكتاب ، وذلك خلال
الرحلة ، طلبوا منا ان نكتب لهم على الآلة الكاتبة رسائلهم . كنا نكتب ما
يملونه علينا من رسائل غرامية بحثارية غريبة عجيبة ، الى خطيباتهم في
مرسيليا ، في «بورديو» في الريف . ما كان يهمهم كثيرا ان نحسن الاسلوب
ونديج الجمل الجملة ، بل ان ما كان يهمهم هي الآلة الكاتبة ، لكن ما كان
يقولونه في هذه الرسائل كان يشبه قصائد (تريستان كوربيير) ، رسائل
كلها فظاظلة وطراوة معا . راح البحر الابيض المتوسط يفتح امام قيديم
سفينتنا بموانئه ، بسجاجيده ، ببضائعه ، بأسواقه . في البحر الاحمر
أدهشني ميناء «جيبوتي» Djibuti ، الرمال المحترقة المخددة من
كثرة ذهاب (ارنور رامبو Arthur Rimbaud (٣٣)، تلك الفتيات السوداوات
كأنهن نحف بسلاهن الملسة بالفاكهة ، تلك الاكواخ البائسة لاولئك السكان

٢٢ - أدنور رامبو (آرنور) Jean : الشاعر الفرنسي الشهير (١٨٥٤ - ١٨٩١) .

البدايين ، وهواء غير متناسب ونسيم تلك الانحاء في مقاه منارة بضوء شاقولي ذي اطياف هناك كانوا يتناولون الشاي المبرد بالليمون .

ان المهم هو رؤية ما يجري في «شانفهاي» ، ليلا . ان الممدن ذات السمعة السيئة والصيت «الحسن» تجذب المرء اليها كمثمل نساء سامئات . كانت «شانفهاي» تفتح شذقتها الليلي لتبتلعنا نحن الاثنين . فنحن اثنان من ريفيي العالم ، مسافران من الدرجة الثالثة ، ليس لهما الا قليل من المال وكثير من الفضولية الحزينة .

دخلنا الى هذا الملهى وذاك ، الى القريب والبعيد . كانت ليلة فسي منتصف الاسبوع ، لذلك فان الملاهي كانت خاوية . لقد كان محزنا ومحبطا ان ترى تلك المدارج ؛ مدارج الرقص الهائلة ، كانما بنيت لكي يرقص فوقها مئات الفيلة ، وهي خاوية على مدارجها ، لا يرقص فيها احد . في الزوايا الكثيبة كانت تطلع منها فجأة روسيات ضامرات من عهد القيصر يتشاءبن وهنّ يطلبن منا ان ندعوهن على زجاجة «شمبانيا» . هكذا تجولنا في ستة او سبعة من محلات اضاعة الوقت حيث لم يكن يضيع منا الا وقتنا .

كان الوقت متاخرا كي نعود على ارجلنا الى الباخرة التي خلفناها بعيدة جدا، خلف ازقة الميناء المتصالبة فلذلك استأجرنا لكل واحد منا «ريكشوا» . لم نكن متعودين على هذا النوع من الثقليات بأحصنة بشرية . لقد كان صينيو عام ١٩٢٨ يخبّون وهم يجرون العربّة بلا هواده ولا راحة عبر مسافات طويلة بعيدة .

«با للصينيين من عرق جدّ ناعم وجدّ ماهر ، ليس عبثا ان لهذا الجنس الفتي عام من الحضارة» كنا نفكر في هذا : (البارو) وأنا ، كل في مقعده المتدرّج الجاري .

غير ان شيئا بدأ يوسوس في صدري ويقلقني . لم اكن ارى شيئا ، وأنا سجين تحت حصار اتخذت فيه كافة الاحتياطات كيلا ارى شيئا ، لكن ، بلى ، كنت اسمع على الرغم من القماش المشمع ، صوت حصاني وهو يهمهم ويدمدم وصوت حوافره وهي تخبّ وتدبّ . على نغم حوافره

أضربت من بعد اصوات اخرى متنافمة لأقدام حافية كانت تخب عبر الاسفلت البليل . أخيرا همدت الاصوات والضجّات ، علامة بأن الاسفلت قد انتهى . لقد اصبح مؤكدا اننا نسير فوق اراضي حقول بور ، خارج المدينة .

توقفت فجأة ، عربتي . فك الحوزي في مهارة القماش الذي كان يحميني من المطر . لم يكن ثمة اي ظل لاية باخرة في تلك الضاحية غير الآهله . والعربة الاخرى كانت واقفة ازائي ، ثم نزل منها (البارو) تأهها مخبولا .

— «موني ، موني» Money Money (الفلوس، الفلوس) كانوا يرددون بالانجليزية في صوت هادىء ، ونظرنا واذ بهم سبعة او ثمانية يحيطون بنا .

أبدى صديقي حركة بيده وكأنه يبحث عن سلاحه في جيب السروال فكان هذا كافيا لكي يضربونا كلينا بضربة في القفا لكل منا . انا هويت نحو الخلف ، لكن الصينيين في خفة وسرعة تلقفوا رأسي وهو في الهواء كي يحيلوا بينه والصدمة العنيفة على الارض وفي رقة ونعومة فرشوني على الارض البليلة مستلقيا . قلبوا جيوبي ، بحثوا في قميصي ، خلعوا عني قبعتي ، نزعوا مني حذائي ، سلخوا مني جرابي ، فكوا عن عنقي ربطتي ، في سرعة عجيبة وفي حذافة بالغة كما البهلوان . لم يدعسوا سانتيمترا واحدا من الملابس الا حركوه وقلبوه ولا «سانتيما» واحدا مما كان معنا وهو قليل وحيد ، الا وأخذوه وسرقوه . لكن لصوص شانفهاي بما لهم من لباقة تقليدية وعفة نفس أبية احترموا لنا في حرص وقداسة ، أوراقنا ، وجوازي سفرنا .

بعد ان مضوا وبقينا وحدنا ، تحركنا باتجاه الانوار التي كانت تثرى من على بعد ، فوجدنا مئات من الصينيين الليليين لكنهم شرفاء محترمون . لم يكن بينهم من يعرف الفرنسية او الانجليزية او الاسبانية ، غير أنهم أبدوا استعدادهم لمساعدتنا في الخروج من ورطتنا وانقطاعنا عن الباخرة فأرشدونا الى ان وصلنا الى غرفنا من الدرجة الثالثة ، غرفة فردوسية تنفسنا فيها واسترحنا .

وصلنا الى اليابان . لا بد ان المال الذي كنا ننتظر ان يصل من تشيلي، قد وصل الى القنصلية . اضطررنا أن ناوي تلك الليلة الى ملجأ بحارة في «يوكوهاما» . فقضينا فيه عدة ايام ، كنا ننام فوق نضائده من الحلفاء ، انكسر زجاج النافذة ، اثلج السماء ، كان البرد يلدغ ويلدغ حتى روحنا ، وما من احد يهتم بنا او يرثي لحالنا . ذات سحر انشقت سفينة بترول الى قسمين امام الساحل الياباني فامتلا الملجأ بالناجين من الفرق . من بينهم بحار بشكائسي لم يكن يعرف من اللغات الا لغته واللغة الاسبانية فحكى لنا مغامرته : خلال اربعة ايام بلياليها بقي عائما على قطعة من الباخرة ، وهو محاط بأمواج النفط الملتهبة . هؤلاء الناجون من الفرق كانوا يتلقون مساعدات وموئا ، وكان هذا الشاب البسكوي الكريم يعطينا من كل شيء وكأنه حامينا وراعينا .

نقيضه كان القنصل العام لتشيلى - يبدو لي انه يدمى (دي لا مارينا) او (دي لا ريبيرا) - استقبلنا من مقامه العالي الرفيع وهو يحاول ان يشعرا بضالتنا ، بضالة من نجا من الفرق ويطلب العون والمساعدة . فهو وقته قصر جدا ، وهذه الليلة سيتعشى مع «الكونديسه» (يوقسو سان) ، الحاشية الامبراطورية ، دعتة لتناول الشاي في القصر ، هو عاكف على دراسة عميقة عن السلالة الملكية .

- يا له من انسان رقيق جدا جلالة الامبراطور ، الخ .

كلا ، ليس عنده هاتف ، فما هي حاجة الهاتف في «يوكوهاما» بالنسبة له ؟ ان كلموه فانهم سيكلمونه باللغة اليابانية اما بالنسبة لآخبار أموالنا ، فان مدير المصرف ، وهو صديق حميم له ، لم يكن قد تفضل فأخبره بشيء حول هذا الامر . انه ليأسف ان يودعنا ، اذ انهم ينتظرونه في حفلة استقبال ، الى الغد ، ان شاء الله ، الى الغد .

وهكذا كل يوم ، كنا نغادر القنصلية ونحن نرتعد من البرد لان ملابسنا كانت قد تضاءلت نظرا للسطو والهجوم الذي شن علينا ، لم تكن نلبس الا ما يعطى لنا من ملابس الناجين من الفرقى . علمنا فى آخر لحظة ان ارسدتنا قد وصلت الى «يوكوهاما» قبل ان نصل نحن اليها . وكان

المصرف قد أرسل ثلاث رسائل يخبر فيها السيد القنصل بوصول المبلغ، لكن تلك الدمية ذات القلائد أعني ذلك الموظف العالي السامي جدا لم يكن قد درى بهذا الشيء الضئيل الذي هو أقل كثيرا من ان يصل الى عالي مقامه ورفيع شأنه . (حين اقرأ في الصحف ان فنصلا او آخر قد أفتيل من قبل احد مواطنيه الفاضلين ، افكر بـخنين في ذلك المقلد المجلل) . تلك الليلة ذهبنا الى احسن مقهى في طوكيو وهو مقهى الـ «كورونكو» Koroncko بـ «غينزا» Ghinza . لقد كان يؤكل جيدا في تلكم الاوقات بطوكيو، بفضل اسبوع الجوع الذي كان يملا الاطعمة توابل . شربنا بمصاحبة فتيات يابانيات للذيذات ، عدة مرات ، نخب المسافرين التمساء كلهم ، نخب اولئك المسافرين الذي لا يعتني بهم القناصل الفاسدون التافهون الموزعون في انحاء العالم .

اتها «سينغابور» . كنا نظن انفسنا قرب «رانغون» . يا له من فشل مرير ! ان ما كان في الخارطة وهو لا يعدو ان يكون بضعة ميليمترات قد استحال الى هاوية مرعبة . ما زالت تنتظرنا عدة ايام على ظهر الباخرة ، ولكن اية باخرة ! فالباخرة الوحيدة التي تقوم عادة برحلة بين المدينتين كانت قد اقلعت في اليوم السابق الى «رانغون» . لم يكن معنا ما ندفع به اجرة الفندق ولا ثمن التذكريتين . فأرصدتنا الجديدة تنتظرنا فسي «رانغون» .

لقد وجدتتها ! . فلأمر ما ثمة هنا في «سينغابور» قنصل تشيلي ، انه زميلي ، السيد (مانسيًا) . اتصلنا به فـخفـ سريعا الى فندقنا ، لكن ابتسامته اخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، تخفـ الى ان اخفت كليا لتترك مكانها تكشيرة غضب وانزعاج .

— لا استطيع مساعدتكما في شيء ، اتصلا بوزارة الخارجية فسي تشيلي .

حرضت فيه النخوة وتضامن القناصل الاخوي . عبثا ، فلقد كان للرجل وجه كوجه سجنان لا يرحم ولا يشفق ، اخذ قبـعته وخرج مهرولا ، وما كاد ان يختفي حتى خطرت لي فكرة رائعة :

– يا سيد (مانسيًا) ، اني لأجد نفسي مضطرا ان أقوم بالقاء عدة محاضرات عن بلدنا على ان يدفعوا لي مقابلها مبالغ مسبقة ، وبهذا أستطيع أن أجمع ما يكفي لشراء البطاقتين والمصاريف الأخرى ، فلهذا اني أرجوك ان تؤمّن لي المكان والمترجم والاذن اللازم .

أصبح الرجل عند ذلك شاحب الوجه مضطربا . ثم أردف قائلا :

– ماذا ، أمحاضرة عن تشيلي في «سينغابور» ؟ لا أسمح بهذا ، هذه هي منطقة اختصاصي ومجال نشاطي ، ما من احد يستطيع الكلام عن تشيلي هنا سواي .

– هدّء من روعك ، يا سيد (مانسيًا) – أجبته . كلما كان عدد المحاضرين عن وطننا النائي أكثر ، كان أفضل ، لا أرى بهذا ما يدعوك للفضب .

أخيرا عقدنا صفقة في هذه التجارة الغريبة من التلميح بالتهديد في انه يعادي الوطنية . جعلنا نوقع له على عشرة وصول ، وهو يرتعد من غضب ، ثم ناولنا النقود التي حين أحصيناها وعددناها وجدنا ان الوصول كانت تتضمن مبلغا أكثر مما دفعه لنا .

(بعد عشرة ايام ارسلت له انا «شيكا» لايفائه الدين من «رانغون» ، لكن بدون تضمين الفوائد ، طبعا) .

من على ظهر السفينة التي كانت تتهادى مقتربة من «رانغون» ، رأيت، مطلّ القمع الذهبي الهائل للمعبّد الرائع ، معبد «سوي داغون» Swel Dagon . كانت جمهرة من الأزياء الغريبة تتزاحم على رصيف الميناء في حشد من الألوان عنيف . نهر عريض وسخ يصب هناك في خليج «مارتابان» . ان لهذا النهر اسما هو أجمل اسم نهر من أنهار العالم جميعها «إيراوادهي» .

أزاء مياهه ، على ضفافه بدأت حياتي الجديدة .

((البارو) (Alvaro))

.... انه لعفريت (البارو دي سيلبا) (٢٤) يعيش فسي
نيويورك ... اتخيله وهو يأكل برتقالة في لحظات غاضبة شامة ...
يحرق بالكبريت ورق لغائفه من التبغ ، يوجه أسئلة مزعجة مفيظة الى
نصف العالم لقد كان دائما معلما فوضويا ، ذا ذكاء لامع ، ذكاء
يستقصي لكنه لا يؤدي الى أية جهة ، الا الى نيويورك ، كان ذهابه الى هذه
المدينة في عام ١٩٢٥ كان يحيا بين شقائق النعمان التي كانت تفرّ
من بين يديه وهو يعدو مسرعا ليقطفها فيعطئها الى مسافرة مجهولة يريد
مضاجعتها دون ان يعرف لها اسما ولا جهة ولا يدري من اين جاءت والى
اين تمضي وبين قراءاته التي لا تنتهي لـ (جويس Joyce) (٢٥) ، كان
يدلي اليّ والى آخرين كثيرين ، بأراء يشكّ في مدى صحتها ، وجهات
نظر في كل شيء كأنه مواطن يعيش في كهفه بالمدينة ويخرج من حين الى
آخر ليتمتع بالموسيقى ، بالرسم ، بالكتب ، بالرقص ... دائما يأكل
برتقالا ، يقشر تفاحا ، حمية غذاء لا تحتل ، يتدخل في كل شيء ، لقد
رايت فيه مجسما نقيض الريفني الذي طالما حلمت في ان اكونه ، بله نحن
الريفيين جميعا نحلم دائما ان نكونه ، لا يرحل بعناوين ملصقة على
الحقائب ، بل يمضي يدور حول نفسه وفسي نفسه مزيج من البلدان
والالحن والحفلات والمقاهي حتى مطلع الفجر ، والجامعات ذات الثلوج على
الاسطحة .. لقد بلغ في أحلامه المفرطة حدا جعل لي العيش مستحيلا ...
انا حيث أصل أحاول أن أحلم حلم النبات في ان يكون له موضع لا يتزحزح
منه ، ان أحدد لي مكانا لا أبرحه ، ان أغرز جذرا كي أفكر ، كي أوجد ...
بينما (البارو) كان يمضي من كهبة الى أخرى ، من فكرة الى أختها ،
مسحورا بالأفلام التي يمكن ان تمثل فيها ، لبسنا ذات مرة ملابس جعلتنا
نبدو كمسلمين كي نذهب الى الاستوديوهات فيتعاقدوا معنا للتمثيل ...
ثم توجهنا الى هذه الاستوديوهات (في الطريق حين دخلنا الى حانوت

٢٤ - سيلبا : معناها ، غابة .

٢٥ - جويس (جيمس James) : كاتب ايرلاندي (١٨٨٢ - ١٩٤١) .

لنشترى تبغا ، وانا أرثدي زيا بنغاليا ، وذلك في «كلكوتا» ، الناس ظنوا اني من عائلة اطافون). وصلنا الى استوديوهات «دوم-دوم» Dum - Dum وسرعان ما خرجنا منها مطرودين - ما زلت أحتفظ بصور لي في تلك الازياء - ووشيكاً خرجنا راكضين من فندق «ي م ك أ» YMCA لاننا ما دفعنا اجرة اقامتنا فيه اما عن الممرضات اللواتي كسنّ يعشقننا فحديثهن يطول (البارو) حشر نفسه في اعمال تجارية هائلة . . . كان يريد ان يبيع شاي «اسام» Assam اقمشة مسن «كشمير» ، ساعات ، كنوزا قديمة . . . كل شيء كان يعطي ثماره عما قريب . . . كان يترك عينات من الحرير الكشميري ، مساطر من الشاي فوق الطاوات ، فوق الاسرة . . . كل ذلك وقد هيا حقيبته للسفر او انه قد اصبح في مكان آخر من العالم . . . في ميونيخ . . . في نيويورك . . .

ان كنت انا قد تعرفت على كتاب مثابريسن ، مشمرين ، متقنين ، خصبين فاني اجزم قائلا بان (البارو) هو اعظمهم جميعا وفضلهم على الإطلاق . . . قلما ينشر ما يكتب . . . لا أفهم لماذا . . . كان في كل صباح ، وهو في السرير ، ونظارته طالعة من حديسة (٣٦) انفه ، «هزّي» ، «هزّي» (٣٧) على الآلة الكاتبة ، مستهلكا مواعين وحزما من انواع الورق كله ، والاوراق جميعها . . . لكنه لا يستنفذ حركاته ، كهرباءه ، انتقاداته ، برتقالاته ، تحولاته الزوبعية ، كهفه في نيويورك ، باقاته من شقائق النعمان ، غموضه الذي يبدو واضحا ، وضوحه الذي يبدو غامضا . . . وما يبدهه ويؤلفه يقبع ولا يخرج قد يكون لانه لا يرغب . . . ربما لانه لا يستطيع نشره . . . قد يكون لانه جد مشغول . . . ربما لانه جد غير مشغول . . . بيد انه يعرف كل شيء ، يعلم بكل شيء ، يرى كل شيء عبر القارات بهاتين العينين الزرقاوين الجريثتين ، بهذا اللمس الحاذق الذي يدع رمل الزمن يتسلل بين اصابعه .

٣٦ - حديسة : في الاصل Jorobilla وهو تصغير اسباني للكلمة العربية حديسة.

٣٧ - هزّي : في الاصل Dale que Dale بمعنى اعطيه ، اعطيه ، وهذا يقال

للاقتصا او الرافص كهي يتحسس ويميد ويؤيد .

الفصل الرابع

الوحدة المضيئة

اطياف من المغابة

لقد غرقت في هذه الدكريات ، عليّ أن استيقظ تويًا . انه لصخب البحر . اكتب الان ، في «ايسلانيفرا» (١) Isla Nigra على الساحل ، قرب «البارايسو» . لقد هدأت زوايا عظيمة كانت تسوّط (٢) الشاطيء . ان المحيط — ينظر اليّ بالف عين من زبد اكثر مما انظر اليه انا عبر نافذتي — ما يزال يحقن في تموجه اصرار العاصفة الرهيب .

يا لها من سنين بعيدة نائية ! ان تشييدها من جديد لهو كما لو ان انغام الامواج هذه التي اصفي اليها الان تتسرب في داخلي مترادفة متتابعة متبددة ، احيانا تتماوج كي تنيمني ، و احيانا اخرى تلتمع كبريق سيف مباغت . سالتقط هذه الاطياف بلا سرد تاريخي متصل ، مثل هذه الامواج التي تروح وتجيء .

١ - ايسلانيفرا : معناها ، جزيرة سوداء .

٢ - تسوّط : هكذا في الاصل ، والفعل مشتق من الكلمة العربية السوط .

عام ١٩٢٩ ، ليلا . ارى جمهرة من الناس وقد اجتمعوا في الشارع . انه احتفال اسلامي . لقد حفروا خندقا كبيرا في الشارع وملؤوه جمرا . اقترب . تلهب وجهي حدة الجمر المكوم ، تحت طبقة خفيفة من الرماد ، فوق شريط قرمزي من نار حية متوهجة . تظهر فجأة شخصية غريبة ، بوجه مصبوغ بالابيض والاحمر ، محمولة على اكتاف اربعة رجال يلبسون كذلك ثيابا حمراء . ينزلونه ، يبدأ يمشي متمايلا عبر الجمر او فوقه ، ويصيح بينما هو يمضي سائرا :

— الله ، الله (٣) .

كان الحشد الهائل من الناس يبلع هذا المنظر مذهولا مندهشا . لقد عبر الساحر سليما هذا الشريط الطويل من الجمر . حينذاك ينطلق رجل من بين صفوف الحشد ، يخلع خفيته ويقوم حافي القدمين بالمشير على الجمر . ثم ينطلق متطوع آخر فآخر وهكذا دواليك . بعضهم يتوقف في الخندق لكي يراوح فوق النار على صياح «الله ، الله» يؤدي حركات وإشارات فظيعة ، يرفع النظر الى السماء . آخرون يعبرون حاملين أطفالهم في احضانهم . لا احد منهم يُصلى بهذه النار الحامية او لعلهم يصلون فيصبرون ونحن لا نعرف .

ازاء النهر المقدس يرتفع معبد « كهالسي » لإلهة الموت عندهم . دخلنا مع مئات الداخلين من الحجّاج الذين اتوا من اقاصي البلاد كي يتبركوا بها ويحصلوا على نعمتها . حفاة عراة ، او بائيات رثة واسمّال بالية ، خائفين فزعين ، يدخلون فيجبرهم البراهمة على ان يدفعوا مالا في كل خطوة يخطونها مقابل اي شيء يرونه او يتبركون به . كان البراهمة يرفعون مسحا من المسوح السبعة للالهة الكريمة ، وحين يرفعونه ، ترنّ ضربة قارعة كأنها قرعت كي تقوض الكون كله ، وما ان يرى الحجّاج ذلك حتى يخرّوا سجدا ثم يكبرون وأيديهم مرفوعة كأنهم يحيون معا ، ولكن بكلتيهما معا ، ثم يسجدون ويضعون جباههم على الارض ويمضون هكذا

٢ - الله ، الله : هكذا في الاصل (! Alà ! Alà) ■

الى ان يرفع المسح الثاني فالثالث . الخ يأخذ الكهنة بتجميع الحجاج في فناء واسع حيث يضحون التيوس ويقطعون رؤوسها بضربة واحدة تدبجها وتدميها فيقبضون منهم اناوات جديدة . ثغاء الحيوانات الجريحة لا يُسمع اذ تخنقها الضربات الطارقة القارعة ونخفيها . ترش الحيطان الكلسية الوسخة بالدم حتى السقف . وما هذه الإلهة الا صنم ذو وجه غامق اللون وعينين بيضاوين ولسان قرمزي طوله متران ينزل من فمها حتى يبلغ الارض . في أذنيها وفي عنقها عُلقت أطواق من جماجم وشعارات ترمز للموت . يدفع الحجاج نفودهم الاخيرة قبل ان يندفعوا الى الشارع .

لقد كان الشعراء الذين تحلقوا من حولي لينشدوا لي اغانيهم وأشعارهم مختلفين جدا عن أولئك الحجاج المدعنين الخاضعين . فلقد جاء هؤلاء الشعراء ومعهم طنبييرات (٤) ، وهم يرتدون ملابسهم البيضاء السابفة الفضفاضة ، فجلسوا القرفصاء على السندس الاخضر ، كل واحد منهم كان يطلق بحة وصرخة بين بين تكاد لا تبلغ ان تكون صرخة ، فتصعد من شفثيه أغنية نظمها هو بنفسه وأجراها على بحر من بحور الاغاني القديمة الالفية ، غير ان المعنى جديد والمحتوى قد تغير . لم تكن هذه الاغاني اغاني حسية شهوانية لمتعة او لذة ، بل هي اغاني احتجاج على الجوع ، اغان مكتوبة في السجون . ان كثيرا من هؤلاء الشعراء الشبان الذين التقيت بهم في كل مكان على طول الهند وعرضها ، والذين لن انسى نظراتهم الظليلة الكئيبة ، كانوا قد خرجوا من السجن امس او اول امس وربما يعودون اليه غدا او بعد غد . لانهم كانوا يحاولون التمرد على البؤس والثورة على الآلهة . ان هذا لهو الزمن الذي قدر لنا ان نعيش فيه ، وهو العصر الذهبي للشعر العالمي . بينما تطارد الاغاني الجديدة والاناشيد الجديدة ، فان مليونا من البشر يفترشون الدروب ليلة بعد ليلة ، ينامون في العراء في ضواحي «بومباي» . ينامون ، يولدون ، يموتون . لا دار ولا خبز ولا دواء . في هذه الشروط القاسية ، تركت انجلترا المتمدنة المتبججة مستعمراتها : مستعمرات امبراطوريتها العظمى . لقد ودعت مواطنيها القدماء دون ان تترك لهم شيئا ؛ لا مدارس ولا مصانع ولا مساكن ، اللهم الا سجوننا وجبالا من زجاجات ويسكي فارقة .

٤ - طنبييرات : في الاصل صيغة تصغير اسبانية وبالجمع للكلمة العربية طنبور .

ان ذكرى انسان الغاب «رانغو» لهي طيف آخر غص طري يأتي خياله مع الامواج . في «ميدان» بسومطرا لمست ، احابين ، باب تلك الحديقة النباتية الخراب . كان هو بنفسه يأتي ليفتح لي الباب فادهش واعجب . كنا نتجول معا وقد اخذني من يدي الى ان نجلس حول طاولة كان هو يضربها بيديه وبرجليه ، عند ذلك يظهر نادل ويأتي لنا بزق من خمرة الجمة (بيرة) ، لا هو بالصغير ولا بالكبير ولكنه كاف لانسان الغاب وللشاعر .

كنا نرى في حديقة الحيوانات ب «سينغابور» الهدهد داخل قفص متالقا وهائجا ، رائع الجمال كأنه طير قد جاء لتوّه من جنة عدن . وهناك كان يتنزه في قفصه نمر ارقط ابيض اسود كان ما يزال يفوح برائحة الغابة ، لقد كان مقطعا غريبا من الليل المنجم ، شريطا مغناطيسيا يهتز بلا هوادة ، يركانا اسود مطاطيا يريد احراق العالم ، محرك قوة نفية تتلوى تملوح ، له عينان صفراوان مسددتان كما الخنجر ، تتساءلان بناهما عما لم يكن يفهمه لا السجن ولا البشر .

وصلنا الى المعبد الغريب معبد لا سيريبينته (٥) La Serpiente في ضواحي مدينة «بينانغ» ، في المنطقة التي كانت تسمى من قبل ، الهند الصينية .

ان هذا المعبد معروف موصوف من قبل رحالة وصحفيين ، لست ادري ، بعد العديد من الحروب والتهديم وبعد عتو الدهر ومضي الزمن وتساقط الامطار ، ان كان ما يزال صامدا حيا . تحت سقف من قرميد ثمة بناء واطيء ومسود ، متاكل بأسنان الامطار المدارية وحتتها ، تحف به غابة كثيفة من اوراق الموز الكبيرة الحجم ، وله رائحة كرائحة الرطوبة ، شدى كشدى الخبز العفن . لما دخلنا الى المعبد لم نر شيئا في الظليل (تصغير ظل) . اريج قوي شديد كرائحة البخور ، وثمة شيء يتحرك . انها لاغنى تشاءب تجبئد . شيئا فشيئا لمحنا اخرى فاخرى ثم اخرى واذا هي بالمشرات . ممن بعد عرفنا ان هناك بالئات وبالالاف ؛ منها

صفيرات ملتفات معقوفات على شمعدانات ، منها غامقات ، منها معدنيات .
منها نحيلات رفيفات ، كلها غافية متخمة . ففي كل الجهات ، فعلا ،
ثمة أطباق رقيقة من الزجاج الفرفوري (بورسيلان) ، بعضها طافح بالحبوب
وبعضها مليء بالبيض لم تكن الافاعي تنظر اليها او تلحظنا . مررنا محاذين
لها عبر متاهات ضيقة في المعبد ، ها هي فوق رؤوسنا ، معلقة بالفن
المعماري المزخرف ، ها هي تنام في المحراب الحجري ، ها هي في المدابح .
وها هي ذي اعمى «زوسيل» (٦) المهابة ، تبتلع بيضة قرب اثنتي عشرة
حبة قاتلة كأنها جوقة من الراقصات اللواتي لهن خواتم تفصح عن سمهن
السريع الفتك . ميزت من بينها حبة «فير دي لانس» ، عددا كبيرا من
تثينات البر (ذات القرون) ، حبة «ديروسي» ، حبة «نويا» ، كانت تملأ
البهو الافاعي الخضراء ، الرمادية ، الزرقاء ، السوداء . كل شيء فسي
سكون . من حين الى حين كان يعبر الظل كاهن برداء زعفراني (٧) . كان
يزيق لون برده يجعله يبدو وكأنه حبة اخرى ، تتحرك ، تتشاب ، تتجبد
بحثا عن بيضة او عن طبق من حليب .

التيتم بهذه الافاعي الى هنا ؟ كيف تألفت وتعدت ؟ على اسئلتنا كانوا
يجيبون بابتسامة ، قائلين لنا انها اتت وحدها وانها ستذهب وحدها حين
يخطر لها ذلك . ما هو اكيد ان الابواب كانت دائما مفتوحة وليس عليها
مشبكات من حديد او خشب وليس فيها زجاج ولا شيء من هذا القبيل
مما يجبرها على البقاء في المعبد .

خرجت سيارة الركاب من «بينانغ» وكان عليها ان تجتاز ادغال الهند
الصينية وضيعها كي تصل الى «سايفون» . لا احد في هذه السيارة يعرف
لغتي ولا انا اعرف لغة احد منهم . كنا نتوقف في منعطفات الغابة البكر ،
على مدى الطريق الذي لا ينتهي ، فينزل المسافرون ، فلاحون بملابس
قرية ، وبكرامة صامتا مطرقة ، وعيون زائغة ، لم يبق الا ثلاثة مسافرين

٦ - روسيل : هذه الاسماء كلها بالفرنسية .

٧ - زعفراني : هكذا في الاصل **Azafraan** . عن العربية

ار اربعة في السيارة التي تشق طريقها وهي تصرصر وتهدد كي تنطلق تحت اللبلة الحارة .

شعرت فجأة برعب متدفق طاغ ، اين انا ؟ والى اين امضي ؟ لماذا افضي هذه الليلة الطويلة بين اناس لا اعرههم ؟ كنا نجتاز «لاوس» و«كامبوديا» . تمنعت في وجوه آخر مرافقي في هذه الرحلة الغربية ، كانت وجوها صلبة متجهمة . وعيونهم مستيقظة ، ملامحهم وتقاسيم وجوههم بدت لي مربعة مخيفة ، لا شك في اني بين عصابات قطاعي طرق اصليين من هؤلاء الذين تحكي عنهم الحكايات الشرقية .

كانوا يتبادلون نظرات من ذكاء حاد ويلحظونني عرضا وخطفا . في هذه اللحظة توقفت السيارة في سكون وسط الغابة . لقد اخترت موضعا لي كي اموت هنا غريبا وحيدا . لا ، لن اسمح لهم ان يأخذوني فيصلبوني تحت ظل تلك الاشجار التي لم ارها من قبل ، والتي تخفي عني السماء بظلها الغامق الشاحب . ساموت هنا في هذه السيارة الحانية ، على مقعدها ، بين سلال الثمار واقفاص الدجاج ، فهذه الدجاجات هي الشيء الوحيد الليف في هذه اللحظة الرهيبة . نظرت فيما حولي ، مقرا ان اواجه غيظ جلادي ان همرا بقتلي ، فتنبّهت الى انهم قد اختفوا . انتظرت زمنا بدا لي دهرا ، وحيدا ، بقلب واجف خائف ، مغمورا مظلما بظلام هذه الليلة الاجنبية الشديد الكثيف . انا ساموت ، هاندا اموت دون ان يدري بموتي احد ، بعيدا عن بلدي الصغير الحبيب ، نائيا عن اهلي وحيبي وكتبي . على حين غرة ، بزغ نور ، طلع نور آخر ، امتلات الطريق بالانوار والاضواء ، قرع طنبور ، تفجرت انغام تصر الاذن من الحان موسيقى «كامبوديا» ، صدحت النايات تجاوبت الطنبيرات ، تلالات المشاعل ، فملات الطريق انغاما وانوارا . صعد رجل فقال لي باللفظة الانجليزية :

لقد حصل عطل في السيارة ، بما ان الانتظار سيكون طويلا ، ربما حتى شروق الشمس ، وليس هنا من مكان صالح للنوم فان المسافرين قد ذهبوا الى الضيعة للبحث عن فرقة موسيقية وراقصين حتى تسامروا الليل وتقصوا وقتا ممتعا جميعا ، وها هم قد عادوا والفرقة الموسيقية .

خلال ساعات عديدة ، تحت تلك الأشجار التي لم تعد تنهدد نسبي
وتتعدني ، شاهدت الرقصات الطقوسية الرائعة البديعة لشعب ذي ثقافة
نبيلة وحضارة عريقة ، واستمعت الى ان اشرفت الشمس ، الموسيقى
اللديلة التي كانت تكتسح الطريق .

ليس للشاعر ان يخشى الشعب ، بدا لي ان الحياة كانت تحذرني
وتعلمني الى الابد درسا : درس الشرف المكتنز ، درس الأخوة التي لا
نعرفها ، درس الجمال الذي يزدهر في الدياتير .

مؤتمر في الهند

ان هذا اليوم لهو يوم مشرق ، ها نحن في مؤتمر الهند . أمة في أوج
كفاحها في سبيل تحررها . آلاف المندوبين يملأون الأروقة . اعترف
(غاندي) شخصا وكذلك اعرف (البانديت موتيلال نهرو) الذي هو ايضا
زعيم الحركة التحررية واعرف ابنه الشاب الانيق (جواهر لال نهرو) الذي
وصل حديثا من انجلترا . (نهرو) كان من مؤيدي الاستقلال الكامل بينما
(غاندي) كان يدعو الى نوع من الحكم الذاتي البسيط كخطوة اولى لازمة .
(غاندي) : وجه ناعم لثعلب ذكي جدا ، رجل عملي ، سياسي شبيه بزعماننا
المتأمركين (أ) القدياء ، معلم ماهر في اللجان والمؤتمرات ، عالم خبير
بالتكتيك والمراوغة ، لا يتعب ولا يمل . بينما كانت الجماهير مثل تيسار
جارف لا ينتهي ، تلمس بشكل طقوسي ديني ، طرف بردته البيضاء
وتصيح (غاندي اغاندي !) ، هو كان يحييهم تحية هادئة ويبتسم لهم دون
ان يرفع عن عينيه النظارة ، يستلم رسائل وقرأها ، يجيب على البرقيات ،
يؤدي أعماله كاملة دون ان يبذل جهدا كبيرا حتى لا يتعب ، ان (غاندي)
لقديس لا ينفد . وأما (نهرو) فهو أستاذ ذكي للثورة الهندية .

٨ - المتأمركون : وجدنا انها اصلح كلمة لترجمة Criollos ومع الأمريكيون ذوم
الاصول الأوروبية .

كانت الشخصية الكبيرة في ذلك المؤتمر هو (سوبحاس شاندرابا بوسه Subhas Chandra Bose) هو ديمافوجي مندفع ، عدو للامبريالية عنيف ، شخصية سياسية تسحر ابناء وطنه . انضم في حرب عام ١٩١٤ الى اليابانيين الذين غزوا بلده ، وذلك لكي يقاوم الامبراطورية البريطانية . بعد عدة سنوات ، في الهند نفسها ، حكى لي احد رفاقه كيف سقط رجل «سينفاپور» القوي :

كانت اسلحتنا موجهة نحو اليابانيين المحاصرين . ثم تساءلنا . . . ولماذا ؟ امرنا جنودنا : «وراء ، در» وصوبناها ضد القوات الانجليزية . القضية كانت واضحة . كان اليابانيون غزاة عابرين . بينما الانجليز كانوا غزاة خالدين .

لقد اعتقل (سوبحاس شاندرابا بوسه) ، خوكم ، ادين بالموت من قبل المحاكم البريطانية في الهند نظرا لانها اعتبرته قد اقترف الخيانة العظمى . توالى الاحتجاجات وتضاعفت من طرف الجناح الاستقلالي . اخيرا ، بعد معركة قانونية حامية ، توصل محاميه - (نهره) على وجه الدقة - الى الحصول على العفو عنه . منذ تلك اللحظة استحال الى بطل شعبي .

(الآلهة المتكئة)

. . . في كل جهة تماثيل (بوذا) ، «اللورد» (بوذا) . . . تماثيل صارمة ، شاقولية ، متآكلة ، بمذهب من الزينة كأنه الق ذو حياة وبمسحة من الاحباط كأنما هذه التماثيل تخشى ان يستنفدها الهواء . . . وما يزيد في ابراز المذهب وهذه المسحة من الاحباط بها ان عليها في خدودها ، في ثناياها ، في مرافقها ، في سررها في افواها وابتساماتها لطخات صغيرة : فطر ، نباتات مسامية ، روث ، براز ، غائط ، من حيوانات الغابة . . . او بالاحرى ثمة رواقد كبيرة ، نصب حجرية بأربعين مترا ، من الفرانيت المرمل ، شاحبة ، ممددة بين الادغال الهامسة ، على حين غرة ، تطلع من هذه الزاوية بالغابة او من تلك ، تبرز من على منصة محدقة بالاشجار او من على مرتفع من الارض مكتنف بالأيك . . . اراقدة هي ام غير راقدة

في أحلامها العميقة ؛ لست أدري ، بيد أنها هناك هي منذ مائة سنة ، الف سنة ، الف الف سنة لكنها تنتظر ناعمة هادئة وهي بهذا الحشر الأرضي الفامض المعروف لا تدري أفستمكت أم ستمضي عجبا هذه الابتسامة الحجرية الناعمة ، هذه الجلالة المهيبة المصنوعة من حجر صلد خالد ، لمن تبتسم ، لمن ، فوق هذه الأرض الدامية ؟ . . . لقد مرت بها الفلاحات الهاريات ، رجال الحرائق ، المحاربون المتقنعون ، الكهنة ، السواح الشرهون فما برحت مكانها هذه النصب ، هذه الاحجار الهائلة ذات الركب ، ذات الانحناء في العبادة الحجرية ، ذات النظرة الضائعة لكنها موجودة باقية ، لقد مكثت هذه النصب اللاانسانية الى الابد ، سرمديّة خالدة ولكنها كذلك انسانية ، بشكل ما ، او فسي تضاد من النحت متناقض ، فسواء اكانت آلهة أم لم تكن ، وسواء اكانت أحجارا أم لم تكن ، لقد مكثت تحت نعيب الطيور السوداء ، بين رفرفة الطيور الحمراء : طيور الغابة نحن كذلك نفكر بشكل او بآخر في تماثيل المسيح الاسبانية الرهيبة التي ورثناها نحن بدماملها وبكل شيء ، بثورها وكل شيء ، بندوبها وكل شيء ، بهذه الرائحة كرائحة الشمع ، كرائحة الرطوبة ، كرائحة قطعة لدى الكنائس حبسية تماثيل المسيح هذه كذلك شكّت في ان تكون بشرا او ان تكون آلهة . . . كي تصبح بشرا ، لكي تقترب اكثر ممن يعانون ويتعذبون ، من النساء الحواض وممن المضروبة اعناقهم ، من المفلوجين والبخلاء ، من اصحاب الكنائس وممن الناس الذين يحيطون بالكنائس ، كي تصبح هذه التماثيل انسانية فسان المثاليين النحّات وهبوا قروحا تفسح لها الابدان فاستحال كل ذلك العذاب الى دين : « اذنب تتعذب ، لا تلذب تتعذب ، عش وتعذب ليس لك من منجى يحرك ولا من مهرب » . . . هنا ، كلا ، هنا السلام بلغ الحجر . . . فلقد تمرد المثالون النحّات على نواميس الالم فتماثيل بوذا هذه الهائلة الجسيمة ذات اقدام آلهة عملاقة ، لديها في الوجه ابتسامة حجرية انسانية تبعث في النفوس الطمأنينة ، تحررها من المعاناة والالم . ينبع منها أريج ، ليس كرائحة غرفة ميتة ، ليس كرائحة خزانة اشياء الكنيسة المقدسة ورائحة بيوت العنكبوت ، بل كشلدى فضاء من نبات ، كعطر زخات اعصارية تتساقط مشحونة بطلع من الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بريش طيورها بأوراق اشجارها .

أسرة إنسانية تعيسة

لقد قرأت في بعض المجلات حول شعري ان اقامتي في الشرق الاقصى اشرت في جوانب معينة من شعري وانها انطبعت بشكل خاص في ديواني «مقام في الارض» . في الحقيقة ان اشعاري الوحيدة لتلك الفترة هسي القصائد التي يحتويها «مقام في الارض» ، لكن ، دون ان أجرؤ على دعم هذا الرأي الذي سايدته في شكل صارم ، اقول انه يبدو لي مخطئا هذا الكلام عن التائر والتأثير .

ان كل هذه الباطنية الفلسفية للحياة في الاقطار الشرقية ، حين واجهت الحياة الواقعية تكشفت عن قلق ، عن عصاب ، عن ضياع ، عن انتهاز غربي ، اي عن ازمة المبادئ الراسمالية . لم يكن في الهند خلال تلك السنوات مجال واسع للتأملات الباطنية العميقة ، حياة ذات متطلبات مادية قاسية ، شروط استعمارية مستندة الى اكثر الدناءات نقاوة فسي الخسة ، آلف الموتى كل يوم بالكوليرا ، بالجدري ، بالحمى ، بالجوع ، قطاعات اقطاعية غير متوازنة بسبب الفنى المفرط في السكان والفقر المدقع بالصناعة ، كل هذه الامور كانت تضغط على الحياة وتطبعها بشراسة؛ ففيها تعدم التأملات الصوفية وتختفي الانعكاسات الروحية .

لقد كانت الخلايا الصوفية توجهه ، تقريبا دائما ، من قبل مغامرين غربيين ، من بينهم الامريكيون سواء من الشمال او الجنوب . ليس هناك مجال للتسك في ان من هؤلاء وأولئك ثمة أناسا ذوي نيات حسنة ، لكن الاكثرية كانت تستغل سوقا رائجة رخيصة حيث كانت تباع ، في كميات هائلة وبالجمل ، تمائم ، تعاويد ، أوثنان غريبة ، محفوفة ملفوفة بالماورائيات التافهة المتهافتة . هؤلاء كانوا يتخمون بفضل ال «دهارما» وال «يوغا» ؛ فلقد كانوا يستطيعون جدا الرياضة الدينية المضمخة بالفراغ والسفسطة .

لهذه الاسباب ، فان الشرق اثر في نفسي كونه أسرة إنسانية كبيرة تعيسة ، دون ان أفرغ في ضميري اي مكان لطقوسه او آلهته . لا اعتقد ، اذن ، ان شعري في ذلك الحين ، قد عكس شيئا آخر غير الشمسور بالوحدة ؛ وحدة غريب نقل من منبت غرسه الى عالم هيف غريب .

أذكر واحدا من أولئك السواح؛ سواح الباطنية، كان نباتيا ومحاضرا فذا . كان طرازا صغيرا في حجمه ، قصر القامة ، في منتصف العمر ، ذا صلعة لناعمة كاملة شاملة ، وعينين زرقاوين صافيتين واضحتين ونظرة خارقة مستهترة ، لقبه هو (بويرس) ، قدم من الولايات المتحدة ، من كاليفورنيا ، كان يؤمن بالديانة البوذية ومحاضراته كانت تنتهي دائما بهذه الوصفة الناعمة في الحمية : «كما كان يقول (روكيفلر ٩) Rockefeller : تغذ ببرتقالة كل يوم» .

(بويرس) هذا ، استلطفته لقله أدبه ووقاحته الحلوة المفرحة ، وكان يعرف اللغة الاسبانية . بعد محاضراته كنا نروح معا لنلتهم وجبات كبيرة متخيمة من الخروف المشوي (كباب) (١٠) ، مع البصل . كان بوذا لاهوتيا، لست أدري ان كان بشكل شرعي او غير شرعي ، ذا شراهة اكثر اصالة من مضمون محاضراته .

لقد افتتن ، اولا ، بفتاة خلاسية هجينة ، هامت بملابسه (سموكين) وبنظرياته ، كانت آنسة ضامرة هزيلة ، ذات نظرة اليمة وهي كانت تعتقد انه إله ، انه بوذا حيا . هكذا تبدأ الديانات .

بعد مضي عدة اشهر على هذا الحب ، جاء ذات يوم يبحث عني كي احضر زواجا جديدا له . تركنا خلفنا ، ونحن على دراجته النارية التي كانت تضعها تحت تصرفه شركة تجارية يخدم فيها بائع مبردات كهربائية ومراوح هوائية ، غابات ، منازل ، مزارع رز ، الى ان وصلنا اخيرا الى ضيعة صغيرة بأبنية من الطراز الصيني وسكان صينيين . استقبلوه بأسهم نارية وموسيقى بينما الخطيبة الصغيرة ظلت جالسة في مكانها وهي متزينة بالبدلة البيضاء كأنها صنم ، على كرسي اعلى من كراسي الاخريات ، على

٩ - روكيفلر John Danjon : هو الراسمالي اليهودي الامريكسي (١٨٣٩ - ١٩٣٧) ، وابنه كذلك كان له الاسم نفسه (١٨٧٤ - ١٩٦٠) ، وهو والد نائب رئيس الولايات المتحدة السابق .

١٠ - (كباب) : هكذا في الاصل Khebab ، والقوسان من المؤلف .

وقع الموسيقى تناولنا المشروبات المرطبة من كل نوع . (بويرس) وعروسه
ما تبادلنا كلمة واحدة .

عدنا الى المدينة ، شرح لي (بويرس) انه في هذه الملة ، حسب شرعها،
الخطيبة هي وحدها من يتزوج . وان الاحتفالات ستستمر دون حاجة الى
ان يكون العريس موجودا ، وانه في وقت لاحق سيعود ليعيشا معا .

- افندري انك بهذا تمارس تعدد الزوجات ؟ سألته .

- ان زوجتي الاخرى تعرف هذا وستكون سعيدة جدا وراضية ؟ -
اجاب .

كان في تاييده هذا كثير من الحقيقة مثلما هو الامر عليه ، في برتغالة
كل يوم . حين وصلنا الى بيته ، بيت زوجه الاولى ، وجدناها ، اعني
الخلاسية الاليمة ، تحسرج وكاسها من السم موضوعة على المائدة الصغيرة
قرب سريرها، وقرب الكاس رسالة وداع . كان جسدها الاسمر ، عاريا
تماما ، هامدا نحت كلتها ، دام احتضارها عدة ساعات .

لقد صاحبت (بويرس) على الرغم من اني شعرت بالاسف لهذا الامر
مشمئزا ، لانه كان يتألم بشكل واضح . لقد حطمه الاستهتار الذي كان
يحملة في داخله . ذهبت معه الى الاحتفال الجنائزي . على ضفة نهـر
وضعنا التابوت (١١) الرخيص فوق تل عال من الحطب . أشعل (بويرس)
النار في العيدان بعود ثقاب ، وهو يتمتم بالسانسكريتي جملا طقوسية .

كان بضعة من العازفين وهم يرتدون برودا بلون مائل الى البرتقالي ،
يرتلون او ينفثون في آلات جد حزينة . انطفات النار في الحطب وهي في
منتصف استفادها للعيدان ، فكان لا بد من تجديد الجذوة بعود ثقاب .
كان النهر يجري داخل مجراه غير مبال ولا مهتم . كانت السماء الزرقاء
الخالدة ؛ سماء الشرق ، تبدي جمودا مطلقا ، سكونا سرمديا نحو تلك

١١ - التابوت : هكذا في الاصل El ataud . عن العربية

الجنابة الحزينة الموحشة ، جنازة مهجورة مسكينة .

لم تكن حياتي الرسمية تشتغل الا مرة واحدة كل ثلاثة اشهر . فلقد كان عليّ حين يصل مركب الى «كالكوئا» وهو ينقل زيت القطران (برفين) الصلب واسفاطا كبيرة من الشاي الى تشيلي ، ان اختم وأوقع وئاسق وأوراقا بسرعة محمولة . من بعد تمر ثلاثة اشهر اخرى من البطالة والعطالة ، من التأمل الصوفي في اسواق ومعابد . هذه هي اكثر فترة اليمة في شعري .

لقد كان الشارع هو ديني ومعبودي . الشارع البيرماني ، المدينة الصينية بمسارحها في الهواء الطلق وتنانينها المصنوعة (جمع تثنى) من الورق، وفوانيسها الرائعة . الشارع الهندي ، هو اكثرها تواضعا ، بمعابده التي كانت أماكن تجارة لهذه الطائفة او لتلك ، والناس المساكين الفقراء الساجدين على الوحل خارجها . ان الاسواق حيث اوراق الـ «بيتيل» (١٢) ترتفع في اهرامات خضراء مثل جبال من دهنج . حوائث الطيور ، أماكن لبيع الوحوش والطيور المتوحشة . الشوارع الملتفة المتجمدة حيث تعبر النساء البيرمانيات الرجراجات وفي نفورهن لفافة تبغ طويلة . كان كل هذا يستولي عليّ ، يمتصني ثم يروح يفرقني في رقية الحياة الواقعية .

ان الطوائف جعلت سكان الهند يصنّفون كما لو كانوا في مدرج أروقة يعلو بعضها بعضا وهذا المدرج متوازي السطوح ، في اعلاه تجلس الآلهة . كان الانجليز من جهتهم لهم مدرجهم من الاجناس يبدأ من المستخدمين الصغار في الحوائث ، يمر بأصحاب المهن والمثقفين ، يأتي الى المستوردين ويتوج بسطح هذا المركب الذي يجلس فيه براحة تامة ارستوقراطيو الخدمة المدنية وأصحاب بنوك الامبراطورية .

ما كان لهذين العالمين ان يتماسا . فلم يكن ابناء البلاد الاصليون يستطيعون الدخول الى الاماكن المخصصة للانجليز . وكان الانجليز يعيشون

١٢ - بيتيل : هو نات يشبه ثمرة الفليفلة ، ولاوراته طعم كطعم النسخ .

بعيدين عن نبض البلاد . لقد جلبت لي هذه الوضعية صعوبات ومشاكل . ذات مرة شاهدني اصدقائي البريطانيون وأنا اركب عربة تسمى «غاهري» gharry وهي عربة مختصة بمواعيد الفرام المؤقتة المتدرجة حيث يمارس الحب على عجيب . لفتوا نظري بشكل لطيف قائلين ان قنصلا مثلي انا يجب عليه الا يستعمل هذه العربات مهما كان السبب . كذلك أسروا لي اشياء وقالوا انه يجب عليّ الا اجلس في مطعم فارسي ، وهو مكان مليء بالحياة ، كنت فيه اتناول احسن شاي بالعالم في طاسات (١٢) صغيرة شفافة . كانت هاتان النصيحتان آخر ما قالوه لي من عتاب ونصيحة ، من بعد لم يعودوا يسلمون عليّ ابدا ولا يردون لي تحية البتة .

شعرت اني سعيد بهذه المقاطعة . لم يكن اولئك الاوروبيون ذوو الافكار المسبقة والعقد النفسية يهمنى في شيء اذ انهم لم يكونوا مهمين حتى نفول . . . وفي نهاية الامر ، انما ما جئت الى الشرق كي اتعايش ومستعمرين عابرين ، بل جئت كي احيا مع روح ذلك العالم القديمة ، مع تلك الاسرة الانسانية الكبيرة التعيسة . لقد تغلغت في روح هؤلاء الناس وحياتهم جدا الى درجة اني عشقت هناك واحدة من بنات البلد . كانت تلبس مثل انجليزية واسمها الفني الشارعي كان هو (خوسيه بليس) ، لكن في العلاقات الحميمة بيبتها الذي شاركتها السكن فيه ما ان تعرفت عليها وعشقتها ، حتى كانت تنزع عنها تلك الملابس وذلك الاسم وتستعمل ثوبها الباهر «سارونغ» واسمها البرماني العميق الخفي .

«تائفو» (١٤) الأرامل»

لقد كانت لي صعوبات في حياتي العاطفية الخاصة . اذ ان هذه الفتاة الحلوة (خوسه بليس) راحت تكثف حبها لي وتتاجج عاطفة الى ان

١٢ - طاسات : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٤ - تائفو : اسم رقصة .

أصيبت بداء الغيرة . ولربما ، لولا هذا السبب ، كنت قضيت حياتي معها الى الابد . كنت أهييم بأقدامها العارية ، كنت أغرم بالزهور البيضاء التي كانت تتالق في شعرها الفامق . لكن مزاجها الحاد كان يقودها الى حالة من النوبة الهمجية . كانت تفار وتنفر من الرسائل التي تصلني من بعيد ، تخبيء البرقيات التي تصلني دون ان تفتحها ، كانت تنظر في حقد الى الهواء الذي أستنشقه .

أحيان كان يوقظني شبح يتحرك خلف الكليّة ، واذ بها هي ، بشوبها الأبيض ، تسن لي سكينها الطويلة الحادة ، او تتنزه حول سريري حائرة بهمّ يقتلني ولا يطاوعها قلبها . «حين تموت ستنتهي مخاوفي» كانت تقول لي . في اليوم التالي كانت تؤدي طقوسا غريبة كي تهبها الجن ضمانا عن وفائي .

لا بد انها قاتلتني يوما ما . لحسن حظي ، تلقيت رسالة رسمية بانتقالي الى «سيلان» . لقد حضرت سفري سرا ثم خرجت من البيت صباح ذات يوم كما هي عادتي ، طبعا تركت ملابسني وكتبي ، وصعدت الى الباخرة التي ستقلني الى مكان بعيد .

لقد هجرتها ، هجرت هذا النمر الارقط المدعو (خوسه بليس) ، والالم يمضني والحزن يضمنني . ما ان شرعت الباخرة بالاهتزاز في أمواج خليج «بينغالا» حتى جلست اكتب قصيدة «تأنفو الارمل» ، وهي قطعة مأساوية من شعري ، موجهة الى المرأة التي فقدتها وفقدتني لان في دمها بركان الكوليرا يرفر ، يفرقع ، يقرقر من غير هواده ولا استراحة . فيا لها من ليلة جد كبيرة ويا لها من ارض جد وحيدة .

(الأفيون)

... كان ثمة شوارع برمتها عاكفة على الأفيون... جالسين على منصات وعتبات يمتد المكيفون المدخنون فوقها... انها لمعابد الهند الحقيقية... فلا سجاجيد ولا وسائد من حرير ولا بدخ ولا ابهة... بل الواح خشبية

بلا لون ، غلايين من خيزران ، وسائد من فختار صيني ... تطفو في
 الاجواء سكيئة ورسانة وصرامة ما عهدتها المعابد ... الرجال صرعى
 خاشعون بلا حراك ولا صراخ ولا عياط ... تناولت غليوننا فنشقته ...
 ليس بشيء ... ما هو الا دخان قائم بارد فاتر لزج لزوجة اللين ...
 دخنت اربعة غلايين ، مكثت خمسة ايام مريضا ، غثيان اثر غثيان ، يأتيني
 من البصلة النخاعية ، من الشوكة الظهرية ، ينزل عليّ من المخ من النخاع
 من الدماغ كراهية للشمس ، حقد على الوجود عقاب
 الافيون ... ما كان لهذا ان يكون خاتمة المطاف ... فلطالما كتب عن
 هذا السم المقدس الشهير ، ولتد ما قيل عنه ، وكثيرا ما قلبت الحقائق
 ونفضت المحافظ في مخافر الحدود الجمركية وفي المطارات بحثا عنه علّ
 هذا السم يقتنص او يمسك به قبل ان يطير كان لا بد لي من ان
 اهزم القرف ، اغلب التفزز ، أقهر الاشمزاز ... كان لا بد لي من معرفة
 الافيون معرفة حقا ، من ان اسبر غوره ، أكشف سره ، اعرف امره ، أفصح
 لغزه ، كي اعطي شهادتي وادلي بحكمي ... عكفت عليه ، دخنت غلايين
 كثيرة ، حتى خبرت كنهه ليس فيه من حلم ، ليس فيه من خيال ،
 ليس فيه من نوبة ، ليس فيه من حدة ... كل ما فيه وهن ، كل ما فيه
 ضعف ، كل ما فيه ارتخاء رخييم مطرب كما لو ان معزوفة موسيقية ناعمة
 ابدية امتدت في الزمن ، في الفضاء يحس المرء ان اغماء بداخله ،
 ان دغلا بعروقه فاية حركة مرفق او قفا ، اي صوت مركبة بعيد ،
 اي تزمير ، اية جلبة شارع ، تأتي فتشكل قسما من كل ، من لذة
 مريحة ادركت لماذا كان يباذق الزراعة والمستخدمون المياومون
 والحوذيون الذين يجرجرون عربات ال « ريشكا » كل يوم ،
 يخرون تورا هناك غافلين هامدين ساكنين لم يكن الافيون جنسة
 الشاذين او فردوس هواة اللذة والضاربة ، كما قيل لي كدبا وبهتاننا ، بل
 منجى المستفكين الوحيد ، مناص الفقراء الوحيد لقد كان اولئك
 العاكفون على الافيون جميعهم اناسا فقراء مساكين لا اريكة مطرزة
 عندهم ولا وسادة حريرية لديهم ، لا علامة على غنى ولا اشارة عن ثروة ...
 لا شيء يلمع في ذلك المكان حيث يقبع المكيفون المدخنون ولا حتى عيونهم
 الساهمة شبه المغمضة اتراهم يستربحون ، أم تراهم يفعلون ؟
 ابدا ما عرفت ، قط ما دريت ... لا احد ينطق ... لا احد ينبس ...
 لا احد يهمس ... ليس لمة من اثاث ، ليس هناك من فرش ولا ارائك ...

لا شيء غير مخدات خشبية صغيرة ... لا شيء الا السكون ورائحة الافيون
جبارا عتيا ، مسيطرا سائدا يبعث الاشمئزاز والنفور ... لا شك في ان
هناك طريق الابداء ، درب الفناء ... ان افيون الشرفاء والاعيان
والمستعمرين كان يخصص للفقراء المستعمرين ... فلقد كان لأولئك
المدخنين لافتة علقت على الباب ، تبين الترخيص بالبيع والترويج ، رقم
المحل ، تاريخ الامتياز ... وفي الداخل كان يسود سكون رهيب كئيب ،
جمود خافت هامد ، عطالة تخفف التعاسة تحلي التعب ... سكينه
مظلمة ، رواسب احلام مبتورة وجدت غدورها وماءها ... اولئك الذين
كانوا يحلمون بعيون ساهمة مغمضة بين بين ، كانوا يحيون ساعة مغمورين
في لجة البحر، ليلة كاملة على ظهر ربوة متلذذين باستجمام رقيق ممتع ...

بعد ذلك ما عدت اليهم ... فلقد عرفت ... ولقد خبرت ...
ولقد لست ... ولقد جسست شيئا لا يمك ... لا يُحتوى ... شيئا
خفيا قصيئا يتلاشى في الهواء ...

« سيلان »

لقد كان لسيلان ، اجمل جزر العالم الكبيرة ، عام ١٩٢٩ الوضع
الاستعماري نفسه الذي كان يسيطر في بيرمانيا والهند . كان الانجليز
يتحصنون في احيائهم وفي نواديهم ، محاطين بجمهرة غفيرة من موسيقيين ،
من صانعي اوان فخارية ، من خياطين ، من اقنان ، من رهبان يرتدون
الملابس الصفراء ، من آلهة هائلة مصنوعة في الجبال الحجرية .

ما كنت انا لاستطيع ان اختار بين الانجليز الذين يرتدون «سموكين»
كل ليلة ، وبين الهنود الذين كانوا في اكثريتهم الغفيرة منعزلين لا اطالهم ،
الا ان اميش وحيدا . لقد كانت هذه الفترة من حياتي اكثرها وحسدة
ووحشة ، لكنني اذكرها على انها اكثر فترات حياتي اضاءة وبريقا ، كما لو
ان اشعاعا خارقا حط على نافذتي كي يضيء مصري ، نورا ينبعث من
داخلي ، ومن خارجي ..

ذهبت لعيش في بيت صغير ، حديث البناء بضاحية «ولويذا» ازاء البحر . كانت منطقة غير أهلة . كانت الامواج تتكسر على الارصفة ، في الليل تنمو الموسيقى البحرية .

كانت تأسرني في كل صباح اعجوبة تلك الطبيعة المجلية الحديثسة الاغتسال . مند مطلع الشمس وانا مع الصيادين . كانت القوارب المجهزة بعوامات طويلة جدا تبدو كأنها عناكب بحرية . يجلب الرجال أسماك ذات الوان عنيقة من قاع البحر ، أسماكاً مثل عصافير الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بعضها بزرق غامقة فصفورية لماعة مثل مخمل فاقع اللون ينبض بالحياة ، بعضها على شكل كرة واخزة ناخسة ، يفرغ هواءها في الفضاء حتى يستحيل الى كيس صغير مسكين من الشوك .

كنت اأمل في رعب اغتيال جواهر البحر وتحفه وحليته . كانت الاسماك تقطع فتباع الى السكان الفقراء قطعاً قطعاً . لقد كانت ممدى الدابحين تقطع هذه الاضاحي ، تفتت مادة اللجة الربانية كي تحيلها تجارة دامية .

كنت امشي عبر الشاطيء حتى ابلغ حثام الفيلة . ما كنت اضيع او اخطيء دربي وقد اتخذت لي رفيقا كلبى . كان يطلع من الماء الهادى فطر رمادي جماد ، من بعد يفتدو افاعي ، من بعد يصير رؤوسا هائلة مكومة ، من بعد يصبح جبلا ذات انياب . لا قطر في العالم له مثل هذا الفطر ، لا بلد له مثل هذه الفيلة التي تعمل في الطرق . لو اراها الآن — ليس في السرك او في الحديقة الحيوانية تحت الدوالي — كما كنت اراها مندهشا وهي تعبر بحمولتها الخشبية من جانب الى آخر ، كأنها عمال مستخدمون ضخام عظام مجدّون مجتهدون .

ما كان لي من رفيق او صديق غير كلبى ونمبتي . كانت هذه النمسة الحديثة الخروج من الغابة تنام في سريري ، تأكل من زادي على مائدتي . لا احد يستطيع ان يتصور مدى حنان النمسة وحنوها . كانت حيوانتي الصغيرة تعرف كل لحظة من وجودي ، كل شيء من حياتي . تشنزه عبر اوراقى تجري خلفي كل يوم ، تحشر نفسها بين كتفي ورأسي ساعة

القيولة ، تنام في هذا الحلم الفرع الكهربائي الذي تتصف به الحيوانات البرية .

صارت نمستي الليفة شهيرة في الضاحية . ان للأنامس في المعارك التي تخوضها ضد الافاعي الاصلال لقيمة وسمعة حسنة الى درجة تكاد تبلغ ان تكون شيئاً خرافياً . انا اعتقد بعد ان رأيتها تتصارع كثيراً من المرات ضد الحيات أن الدله تهزم الحية بسبب ما للدله من خفة وسرعة حركة وبسبب جلدها السميك ذي الشعر الملون بلون ملحي ولون فلغلي مختلطين وهذا يحير الزحافة . من هنا جاء الاعتقاد بأن الدله بعد خوضها المعارك ضد اعدائها السامة تخرج تبحث عن عشبات الترياق .

ان هذا الصيت الشائع الذي اكتسبته نمستي - كانت دائما تصحني في تجولاتي الطويلة عبر الشاطيء - جعل اطفال الريض (١٥) يتوجهون ذات مساء نحو بيتي في مسيرة مهيبة . فلقد ظهرت في الشارع افعى فظيعة فجاءوا يستنجدون بـ «كيريا» Kiria ، نمستي المشهورة ، لان انتصارها الاكيد جعلهم يستعدون لاجراء احتفال عظيم سيقومون به حال القضاء على العدو الدايم . فحملت نمستي بين ذراعيّ وتقدمت العرض العسكري ومن خلفي اتبع بالمعجبين - عصابات بأسرها من الاولاد السيلانيين ، لا يلبسون الا خرقة بالية تغطي عوراتهم - .

الافعى كانت نوعا اسود مما يسمى الافعوان المخيف او حية «روسيل»، ذات قدرة مميتة . كانت تتشمس بين أعشاب خضراء وهي على أنبوب ابيض تبدو واضحة متميزة كأنها سوط فوق الثلوج .

توقف الاولاد بعيدا وهم ، هادئون ، ينتظرون ، يرقبون ، انا تقدمت على الانبوب الغليظ الكبير الى بعد مترين من الافعى التي كانت قبالي ، أطلقت نمستي ، اشتمت الخطر من الهواء ، توجهت بخطى بطيئة نحو الافعى ، انا وأصحابي الصغار كتمنا أنفاسنا ، فالمعركة العظيمة على وشك

١٥ - الريض : هكذا في الاصل Arrabal ■ عن العربية

البدء ، التفتت الانفى ، رفعت رأسها ، فتحت شدقتها ، صوّبت نظرتها المخدرة الى الحَيَيوان ، الدله استمرت تتقدم ، لكن ، ما ان اصبحت على بعد قليل من السنتيمترات من فم المسخ حتى انتبهت انتباهها دقيقا وتنبهت لما سيجري واذ بها تقفز قفزة هائلة وتشرع بمسابقة سريعة جدا بانجسها عكسي تاركة خلفها الانفى والمتفرجين الذين فوجئوا بجنون النمسة ، لم تتوقف عن جريها حتى وصلت غرفة نومي وهناك ارتاحت واطمأنت .

هكذا اضعت سمعتي الحسنة وصيتي العظيم في ضاحية «ويلواذا» منذ اكثر من ثلاثين سنة .

في هذه الايام احضرت لي شقيقتي دفترا يحتوي على اشعاري الاولى، نظمتها بين عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩ . حين تصفحتها ابتسمت لذلك الالم الطفولي والعداب المراهقي ، ضحكت من ذلك الشعور الذهني بالوحدة الذي يطبع كل تأليف الشبان . ان الكاتب الشاب لا يستطيع ان يكتب شيئا دون هذه الرهبة من الوحدة ولو كان كل ذلك وهميا ذهنيا فرضيا، كما ان الكاتب الكهل الناضج لا يستطيع ان يعمل شيئا من غير طعم المصاحبة الانسانية ، طعم المجتمع .

الوحدة الحقيقية عرفتها في تلكم الايام والاعوام ب «ويلواذا» . لقد نمت خلال ذلك الزمن كله على سرير مثل هذه الأسرة التي يستعملها الجنود او متسلقو الجبال . ما كان يصحبنى في بيتي غير طاولة وكرسيين وعملي وكلبي ونمستي والفلام الذي كان يخدمني ويعود الى ضيعته في الليل . هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما نسميه مصاحبة لان شرطه كخادم شرقي كان يفرض عليه ان يكون اكثر صمتا من ظل ، كان يسمى او انه ما زال يسمى (برامبي) Brampy لم اكن اضطر الى ان اطلب منه اي شيء او أمره بأي شيء ، اذ ان كل شيء كان معدا جاهزا ، دائما ، طعامي على المائدة ، ملابسه نظيفة مكوية ، زجاجة الويسكي على الشرفة ، كان يبدو وكأنه قد نسي الكلام ، ما كان يعرف الا ان يبتسم بأسنان كبيرة .

لم تكن الوحدة في هذه الوضعية موضوعا لابتهاال ادبي ووحى شعري فحسب بل كانت كالجدار ؛ كجدار سجين ، تستطيع ان تضرب رأسك به وتكرهه دون ان يخف لنجدتك احد ، تصيح وتبكي وما من مجبر .

لقد كنت أدرك انه كان هناك عبر الهواء الازرق ، في الرمل المذهب ،
أبعد من الغابة التي كنت أتردد عليها ، أبعد من الافامي والفيلة التي كنت
اشاهدها ، مئات الآلاف من البشر الذين ينفون ويعملون ازاء الماء وفسي
البحر ، يصنعون نارا ، يصوغون جرارا ، وان هناك نساء كذلك ملتهبات
ينمن عاريات فوق الحصر وعلى الارض تحت ضوء النجمات الرائعات .
لكن، كيف اقترب من هذا العالم الخافق دون ان يعتبروني عدوا يتجسسهم
ويتجسس عليهم ؟

رحت أتعرف خطوة فخطوة على الجزيرة العظيمة . ذات ليلة عبرت
كل احياء «كولبو» العتمة المظلمة كي أحضر وليمة عشاء . كان ينطلق من
دارمعمة صوت طفل او امرأة تغني . امرت الحوزي أن يقف . فاكنتسحتني
حين اقتربت من الباب الفقير ، هبة أريج عطر ، أريج «سيلان» الذي لا
يخطئه الانسان ، مزيج من الياسمين (١٦) والعرق وزيت الجوز الهندي ،
والمفوليا . فدعاني اصحاب البيت ان ادخل على الرحب والسعة ، كانت
وجوههم غامقة اللون مصهورة بالحر وشذى الليل ، قعدت هادئا ساكنا على
الحصيرة المفروشة ، بينما كان يرئم في العتمة من احدى الزوايا المظلمة
ذلك الصوت الانساني الساحر الذي جعلني اتوقف فأطرق بابا لا اعرف
اصحابه ، صوت طفل او امرأة ، مرتعش باك ، صوت يصعد ، يصعد الى
ما لست أدري ، يخفت فجأة ، يتطامن ، يهبط حتى يغدو معتما كالدجاجير ،
صوت يتحد والعنبر ، يلتف في توريقات رسوم عربية (ارابيسكو) ،
يسقط على حين غرة بكل ثقله الشفاف كما لو ان فوارة من ماء لمست
السماء كي تنعق لتوها فتنهار بين ازهار الياسمين .

لقد امضيت هناك وقتا طويلا ، ساكنا جمادا تحت رقيقة
الطنبور وسحر ذلك الصوت ، من بعد تابعت طريقي ، ثملا من لغز شعور
لا يفسر ، من نغم سره كان يخرج من كل الارض ، أرض رنانة منغمة ،
ملفوفة بالظل ، محفوفة بالشذى .

كان الانجليز قد جلسوا على المائدة ، لابسين اسود وأبيض .

١٦ - الياسمين : هكذا في الاصل Jazmin . عن العربية

- سامحوني ، فلقد توقفت في الطريق كي استمع الى موسيقى -
قلت لهم .

هم ، وقد عاشوا خمسة وعشرين عاما في «سيلان» ، تفاجأوا بشكل
انيق ، موسيقى ؟ افلابناء هذا البلد موسيقى ؟

ما كانوا يدرون بهذا ، كان بالنسبة لهم الخبر الاول حول هذا
الموضوع .

لم يكن لهذا الانفصام الرهيب بين المستعمرين الانجليز والعالم
الاسيوي الفسيح الرحب حد ولا نهاية . وكان يعني دائما انعزالا لانسانيا ،
جهلا كاملا بقيم أولئك الناس وحياتهم .

كانت هناك بعض الاستثناءات في الاستعمار ، تحققت من ذلك في
وقت لاحق . لقد عشق احد الانجليز عشقا جنونيا فتاة هندية اصيلة ،
كان هذا الانجليزي يعمل فني « نادي الخدمات » فعزل
من منصبه ، حالا وعزل عن ابناء وطنه وكأنه اجدم . حدث كذلك في ذلك
الوقت ان المستعمرين أمروا بحرق كوخ فلاح سيلاني بقصد اخلائه
والاستيلاء على ملكية الارض ، كان الانجليزي الذي يجب عليه تنفيذ الاوامر
باحراق الكوخ موظفا بسيطا يسمى (لونرد وولف) ، لكنه رفض ان يطيع
فخلع من منصبه وعاد الى انجلترا . كتب هناك كتابا من احسن ما كتب
حول الشرق : (Avillage in The Jungle) هو مؤلف انموذجي في الحياة
الحقيقية ، في الادب الواقعي . لكن هذا المؤلف افحم كثيرا او قليلا بشهرة
زوجة (وولف) التي هي (فيرجينيا وولف) (١٧) ، كاتبة عظيمة واصيلة ذات
شهرة عالمية كبيرة فغطت بشهرتها على شهرة زوجها ، فما لاقى هذا الكتاب
الشهرة التي يستحقها .

شيئا فشيئا اخدت تتحطم القشرة الصلبة وبدات باكتساب اصدقاء

١٧ - فيرجينيا وولف : الكاتبة الانجليزية الشهيرة (١٨٨٢ - ١٩٤١) .

قليلين ولكنهم جيدون . اكتشفت في الوقت نفسه الشبان الغاطسين في الثقافة الاستعمارية الذين ما كانوا يتكلمون الا عن آخر كتاب ظهر فسي بريطانيا . وجدت ان عازف البيانو المصور السينمائي الناقد اليونيسل وينديت) هو مركز الحياة الثقافية التي كانت تعج بالمناقشة والمجادلة بين كتاب الامبراطورية مع ميل لعكس قيم «سيلان» البكر .

ان (ليونيل وينديت) هذا الذي كان يملك مكتبة كبيرة ويستلم او اخر الكتب الصادرة في انجلترا ، كانت له عادة قريبة وجيدة في الوقت نفسه ، الا وهي انه كان يرسل لي الى داري البعيدة عن المدينة رجلا يركب دراجة ومعه كيس مليء بالكتب والمجلات كل اسبوع . وهكذا خلال تلك الاوقات كنت اقرأ الكثير من الكيلومترات من الروايات الانجليزية ، من بينها «ليدي تشارلي» في طبعها الاولى الخاصة المنشورة في «فلورنسا» . ان مؤلفات (لورانس Lawrance) (١٨) ادهشتني بسبب أسلوبها الشعري وبسبب ما لها من مغناطيسية حيوية اكيده موجهة الى العلاقات الخبيثة بين ابناء الوجود . لكن بعد مدة وجيزة انتبهت الى انه ، على الرغم من عبقريته ، كان خائبا فاسدا كما هم عليه الكثير من الكتاب الانجليز الكبار ، بسبب رغبته التربوية ونزعه التعليمية . ان السيد (د. هـ. لورانس) يجلس على كرسي الاستدلة في التربية الجنسية التي ليس لها الا ما ندر من العلاقة مع تعلمنا الفطري الطبيعي للحياة وللحب وللجنس . انتهيت منه مالا بشكل نهائي ، سئما تماما دون ان يقل اعجابي ببحثه الصوفي - الجنسي المملب الذي كان اكثر الما كلما كان اكثر عديم جدوى وغير مفيد .

اذكر من بين اشياء «سيلان» ، عملية صيد الفيلة الضخمة .

كانت الفيلة قد تكاثرت بافراط في ناحية معينة من تلك المنطقة وكانت تغير على المنازل والمزارع فتؤذيها ، فراح الفلاحون - بالنيران والمجاسر وأنعام «تام - تام» - يجمعون القطعان الوحشية من هذه الفيلة ويدفعونها نحو ركن من الغابة ، واستمروا على هذا المنوال اكثر من شهر على طول

١٨ - لورانس (D.H.) : رواي انجليزي (١٨٨٥ - ١٩٣٠) .

نهر كبير يخترق الغابة ، ليل نهار والمجارم في أيديهم وهم يرددون «تام - تام» وهذا على ما يبدو كان يخيف الفيلة ويقلقها فأخذت هذه الوحوش الكبيرة تتحرك مثل نهر بطيء نحو الشمال الغربي من الجزيرة .

ذات يوم وقد هنيء ال «كرال» El Kraal والحواجز كانت تسد قسما من الغابة ، رأيت في ممر ضيق ، اول فيل دخل ، وما ان دخل حتى شعر بأنه محاط فلم يعد يستطيع التراجع . ثم تقدمت المئات وعبرت في هذا الممر الضيق المسدود . لم يستطع هذا القطيع المؤلف من حوالي خمسمائة فيل لا ان يتقدم ولا ان يتقهقر .

توجهت فحول الفيلة الاكثر قدرة وهمة نحو الحواجز لتحطمتها ، لكن خلف هذه الحواجز كان الفلاحون يكمنون فرشقوها بسهام عديدة أوقفتها عن زحفها . عند ذلك قررت الفيلة التراجع الى مركز ذلك المكان المسور بالحواجز والرجال لحماية الاناث والصفار . لقد كان دفاعهم وتنظيمهم مؤثرين في نفسي جدا . كانت الفيلة تطلق نداء مقلقا ، نوعا من الصهيل او الحنين ، وهي من ياسها كانت تجتث الاشجار من جذرها الاكثر وهنا وضعفا .

ثم ، دخل مروّضان يمتطيان سهوتي فيلين اليفين كبيرين . كان هذا الزوج الاليف من الفيلة يعمل وكأنه شرطة رخيصة سخيقة . كان هذان الشرطيان يتركزان على جانبي الحيوان السجين ثم يضربانه بخروطيهما حتى تهن قواه الى درجة لا يقدر بعدها على التحرك ، اذالك يأتي الصيادون فيربطون رجلا من رجليه الخلفيتين بحبال سميكة متينة الى جذع شجرة متينة قوية . وهكذا فقد اخضع الفيلة واحدا فواحدا .

يرفض الفيل السجين الغذاء لعدة ايام . لكن الصيادين يعرفون نقطة الضعف فيه . يتكونه يصوم زمنا ما ، ثم يحضرون له براعم ونوى من شجيرات المفضلة ، من هذه الاشجار التي كان يبحث عنها ، حين كان حرا طليقا ، في رحلات طويلة عبر الغابة . وفي النهاية يقرر الفيل اكل هذه المغريات واذ به يفدو حيوانا اليفا ويبدأ بتعلم اعماله المرهقة وحمل ائقاله المضنية .

الحياة في «كولومبو»

لم يكن يبدو في «كولمبو» أي أرهاص لثورة أو تمرد . كان الجو السياسي مختلفا عما هو عليه في الهند . فلقد كان كل شيء غارقا في سكينه جائرة مزعجة . كان هذا البلد يعطي للانجليز أفضل انواع الشاي الناعم الرفيع في العالم .

كان هذا البلد مقسما الى نواح او مقاطع يعلو بعضها بعضا . تأتي، بعد الانجليز الذين كانوا يشغلون قمة الهرم ويعيشون في منازل كبيرة ذات حدائق واسعة فسيحة ، طبقة منوسطة شبيهة بالطبقة المتوسطة فسي امريكا الجنوبية . كان افراد هذه الطبقة يدعون او ما زالوا يسمون «البورجوازيين» ، وهم ينحدرون من «البوير» القدماء ، اولئك المستعمرين الهولانديين في افريقيا الجنوبية الذين نفوا الى «سيلان» خلال الحرب الاستعمارية التي جرت في القرن الماضي .

تحت هذه الطبقة تأتي طبقة السكان البوذيين والمحمديين (١٩) من السيلانيين وهذه الطبقة مؤلفة من ملايين كثيرة ، وتحت هذه الطبقة تأتي طبقة اخرى في اسوأ شروط عمل وأقل أجرة وهي كذلك كانت تعد ملايين من المهاجرين الهنود جاؤوا من جنوب الهند وهم يتكلمون «تاميل» وديانتهم هي «الهندوسية» .

كان فيما يسمى «بالعالم الاجتماعي» الذي كان يقيم احتفالاته فسي نوادي «كولمبو» الجميلة ، زعيمان يتنازعان الميدان ، احدهما نبيل فرنسي مزيّف اسمه (الكونت ماوني) الذي كان له مريدوه وأتباعه ، والآخر بولوني أنيق مستهتر ، صديقي (وينزر) الذي كان يبسط آراءه في مجالس محدودة . هذا الرجل كان عبقريا بشكل ظاهر واضح ، مستهترا بشكل مبالغ ، عالما بكل ما في الكون ، مهنته كانت غريبة عجيبة : «محافظ الكنز الثقافي والاثري» ، وما كنت أدري بهذا الى ان اصطحبته مرة في جولة من جولاته الرسمية .

١٩ - المحمديون : هكذا في الاصل Mahometanos ، يعني بهم المسلمين .

ما كان صديقي (وينزر) يؤدي مهنته بشكل سيء ، بل كان يذهب الى الاديرة النائية ، وبرى من الرهبان البوذيين كان ينقل الى سيارة شحن صغيرة رسمية اعمال النحت الرائعة من حجر الفى ، ثم ينتهي مصر هذه التحف النحتية في متاحف انجلترا . كان هؤلاء الرهبان المرتدون برودا بلون زعفراني ، حين يترك لهم (وينزر) كتعويض عن تحفهم القديمة ، دمي سيئة الصنع من «سليوليود» ياباني تمثل (بوذا) ، يفرحون جدا وينظرون الى هذه التماثيل الصغيرة التافهة باجلال وتقديس ويضعونها في المدابح نفسها حيث كانت تبتم خلال قرون وقرون تلك التماثيل اليصبية والفرانيتية التي تنقل الى انجلترا .

لقد كان صديقي (وينزر) نتاجا ممتازا للامبراطورية ، اي ، كان رجلا وغدا انيقا .

جاء شيء ليعكسر لي تلك الايام التي كانت تستهلكها الشمس وتستنفدها . حبيبتي اليرمانية العاصفة (خوسه بليس) تمركزت تجاه بيتي . جاءت من بلدها البعيد تحمل معها كيسا من الرز - كما لو انه لا رز الا فسي « رانغون » - ، اسطواناتها المفضلة لـ (باول روبيسون) سجادة طويلة مطوية . عكفت على مراقبتي من الباب المواجه لبابي ، من بعد شنت السب والشتيم ضد كل من كان يزورني ، بدافع من غيرتها الشرهة ومن توجسها المسيطر عليها ، وكانت تهدد باحراق بيتي دائما . اذكر انها اغارت وسلاحها سكين ، على فتاة حلوة اورو آسيوية جاءت لتزورني .

اعتبرت الشرطة الاستعمارية ان وجودها يشكل بؤرة فوضى فسي هدوء ذلك الشارع وقالوا لي بانهم سوف يطردونها من البلاد ان لم اتول شأنها انا واخذها الى بيتي . عانيت عدة ايام ، حائرا متدبدا بين الحنان الذي يوحى لي به جها التعيس، وبين الرهبة التي كنت اشعر بها اذ انني لم اكن ادعها تضع رجلا في بيتي خوفا منها وحذرا، فقد كانت ارهاية غرامية قادرة على كل شيء .

اخيرا قررت ذات يوم الرحيل . رجنتي ان اصطحبها حتى الباخرة.

عندما كانت الباخرة على وشك الاقلاع وكان عليّ ان اغادرها ، انطلقت هي من بين مرافقيها في السفر فانكبّت عليّ تملأ وجهي بالدموع وهي تقبلني في رباط (٢٠) من الحب والالام . كما في طقس من الطقوس كانت تقبل لي ذراعيّ ، يديّ ، بدليّ ، ثم هوت على حدائيّ قبله دون ان استطيع ان اتجنب ذلك ، حين نهضت من جديد كان وجهها مغبرا ملطخا بحوار حدائيّ الابيض . لم استطع ان اقول لها ان تدع السفر وان تقادر معي الباخرة التي كانت ستبعدها عني الى الابد . لقد كان العقل يمنعني من ذلك ، لكن قلبي تفطر لها وما زال فيه ندب ما التأم ولم يبرأ منه حتى الان . لم تزل في ذاكرتي ذكريات ذلك الالام المضطرب العنيف الحاد وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة على الوجه المغبر الحزين .

كنت قد انتهيت تقريبا من كتابة الجزء الاول من ديواني «اقامة في الارض» ، غير اني كنت اكتب في ببطء . لقد كنت منفصلا عن عالمي بسبب البعد والسكون وكنت عاجزا عن الدخول في العالم الغريب الذي يحيط بي .

كان ديواني يلتقط كفصول طبيعية نتائج حياتي الراسبة في الفراغ : «اقرب الى الدم منها الى المداد» (٢١) لكن اسلوبي أصبح اكثر صرفا واشد نقاوة واعطيت نفسي اجنحة في تكرار كآبة محتدمة . اصررت على الحقيقة والبلاغة (لان طحين الحقيقة والبلاغة يصنع خبز الشعر) في أسلوب مر الخ بشكل اصراري نظامي على تهديمي الذاتي ، ليس الاسلوب هو الانسان فحسب بل هو ايضا ما يحيط به ، فاذا الجو لم ينفذ الى داخل القصيدة فان القصيدة تكون ميتة ، ميتة لانها لم تستطع التنفس .

ابدا ما قرأت في عدوبة ولدة ونهم وكثرة كما في تلك الضاحية من «كولومبو» التي عشت فيها زمنا طويلا . من حين الى حين كنت ارجع الى

٢٠ - رباط . هكذا في الاصل *Arrebato* وكانت تعني باللهجة الاندلسية العربية ،

الطارة وهي تعني بالاسبانية ، هيجان ، احتداد ، نوية ، الخ .

٢١ - بيت شعر من قصيدة في الديوان .

رامبو) ، الى (كيبيسدو) (٢٢) ، الى (بروست) (٢٣) . ان مقطوعة « عبر طريق «سوان» » أعادتني الى الحياة ، جعلتني أميش من جديد عواصف مراهقتني وجبها وغيرها . وأدركت انه في تلك المقطوعة لقطعة «فينتويل» الموسيقية ، مقطوعة موسيقية نعتها (بروست) بأنها «نسيمية وأليمة» ، ليس يذاق الوصف الاكثر لذة للانغام المؤثرة فحسب ، بل كذلك مدى العاطفة اليائس .

لقد كانت مشكلتي في تلك الوحدة الممضة هي ايجاد هذه الموسيقى والعثور عليها ، لاستماعها . بحثت بمساعدة صديقي الموسيقي والعالم بالموسيقى الى ان عرفت ان «فينتويل (بروست)» ألفها ، ربما ، (شوبرت) (٢٤) و(فانغر) Wagner (٢٥) و(سينت - سينس) (٢٦) و(فوري) Faure (٢٧) و(ثيسار فرانك) Cessar Frank (٢٨) و(سيندي) Cindy (٢٩) . لقد بقيت تربيتي الموسيقية السيئة الشنيعة جاهلة بكل هؤلاء الموسيقيين تقريبا ، وظلت أعمالهم العظيمة مثل صناديق غائبة او مغلقة . لم يستطع سمعي ان يميز حتى اكثر الالحان وضوحا ، وان ميز ذلك فبصعوبة بالغة وبمساعدة احد اصدقائي .

توصلت اخيرا وأنا استقصي استقصاء اكثر ادبيا منه موسيقيا الى الحصول على مجمع (البوم) بثلاث اسطوانات من عزف موسيقي على البيانو والكمان لـ (ثيسار فرانك) . لم يكن ثمة مجال للشك بأن في هذه

٢٢ - كيبيدو : كاتب وشاعر اسباني مشهور (١٥٨٠ - ١٦٤٥) .

٢٣ - بروست (مارسيل) : الروائي الفرنسي المعروف ، مؤلف *الزمن الضائع* (١٨٧١ -

١٩٢٢) .

٢٤ - شوبرت (فرانز) : الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٩٧ - ١٨٢٨) .

٢٥ - فانغر (ريتشارد) : الموسيقي الالماني المعروف (١٨١٣ - ١٨٨٤) .

٢٦ - سينت سينس (كميل) : موسيقي فرنسي (١٨٣٥ - ١٩٢١) .

٢٧ - فوري (هابريل) : موسيقي فرنسي (١٨٤٥ - ١٩٢٤) .

٢٨ - ثيسار فرانك : موسيقي فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٠) .

٢٩ - سيندي (Vicente) : موسيقي فرنسي (١٨٥١ - ١٩٣١) .

الاسطوانات كانت مقطوعة «فينتويل» ، ليس في هذا شك البتة .

ان شففي ما كان الا ادبيا . لقد توقف (بروست) ، وهو في رأبي اعظم اديب واقعي شعري ، في تاريخه النقدي لمجتمع يحتضر كان يحبه ويمقته في الوقت نفسه ، في مسرة عاطفية، عند اعمال كثيرة من الفن ، من اللوحات، من الكاندرائيات ، من الفنانات المثلثات ، من الكتب . لكنه أعاد ، مع انه كان يضيء كل ما كان يلمسه ، سحر هذه القطعة الموسيقية وعبارتها المنبعثة من جديد في حدة ما اظنه وهبها لقطع وصفية اخرى . لقد قادني كلماته الى ان اعيش من جديد حياتي الدائية ، متسامري البعيدة الضائعة في داخل نفسي ذاتها ، في غيبوبتي نفسها . أحببت ان ارى في المقطوعة الموسيقية مقال (بروست) الادبي الساحر فأخذت محمولا على أجنحة الموسيقى .

ان المقطوعة تختبئ في خطورة الظل ، تنطلق ، تبلغ باحتضارها درجة الخطر ثم تطيل هذا الاحتضار . تبدو وكأنها تبني احتباس أنفاسها مثل العمارة «القوطية» التي تكرر الحلبي المعمارية فيها ، مدفوعة بالثغم الذي يعلو بلا هوادة ، المربعات نفسها .

ان المادة المولودة من الالم تبحث عن مخرج لها منتصر ، لا ينكر وهو في القمة أصل هذه المادة التي أمضتها الالم وعثفها الحزن . يبدو هذا المخرج وكأنه يتلوى وينعقف في شكل حلزوني مؤثر ، بينما البيانو الشاحب الفامق يصحب مرة بعد اخرى الموت وانبعاث اللحن . ان أحشاء البيانو الظليلة تلد طلقا اثر طلق هذا الوليد الحلزوني الافعواني الى ان يندغم الحب والالم في الانتصار المحتضر .

لم يكن ثمة شك ، بالنسبة لي ، في ان هذه هي القطعة الموسيقية المنشودة .

كان هذا الظل المباهت يسقط مثل قبضة اليد فوق داري الضائعة بين اشجار الجوز الهندي في «فيلا واذا» ، لكن هذه القطعة الموسيقية كانت كل ليلة تعيش معي ، تقودني ، تلفني ، تهيني حزنها الدائم الخالد ، كأبتها المنتصرة .

لما ير النقاد الذين طالما نكلوا بمؤلفاتي حتى الآن هذا التأثير السحري الذي اعترف به هنا . لاني هناك في «فيلا واذا» كتبت قسما كبيرا من ديواتي «مقام في الارض» . مع ان شعري ليس هو «شديا ولا نسيميا» بل هو ارضي في شكل حزين ، فانه يبدو لي ان مواضيع قصائدي التي ترتدي لباس الحداد في هذا الديوان لها علاقة وشيجة بالدائبة الباطنية البلاغية لتلك الموسيقى التي تعايشت وياي هناك .

حين عدت الى تشيلي بعد عدة اعوام تلاقيت في ندوة ادبية مع ثلاثة من الموسيقيين الشبان كانوا اعظم موسيقيي تشيلي ، جرى ذلك ، فيما اظن عام ١٩٣٢ ، فسي بيت (مارتا برونيت) . كان (كلاوديو اراو) Claudio Arrau (٢٠) يتحدث على حدة مع (دومينغو سانتا كروث) و(ارماندو كارباخال) ، فاقتربت منهم ، فما اعاروني انتباها او التفاتا ، بل مضوا في حديثهم الصافي الهادي عن الموسيقى والموسيقيين . حاولت ان المح بالتكلم عن تلك القطعة الموسيقية الوحيدة التي كنت اعرفها .

نظروا اليّ بشكل ذاهل ثم قالوا لي في تكبير :

– (ئيسار فرانك) ، لماذا (ئيسار فرانك) ؟ ان الذي عليك ان تعرفه هو (فيردي) . ثم تابعوا حديثهم بعد ان قبروني في جهلي الذي لما اخرج منه حتى الآن .

سينغابور

الحقيقة هي ان الوحدة التي كنت اشعر بها في «كولبو» لم تكن ثقيلة خانقة فحسب بل كانت كذلك كابوسا سيائيا . لم يكن لي الا القليل من الاصدقاء في ذلك الشويرع الذي كنت اسكن فيه . كانت تمر بسريري ذي الطراز العسكري صديقات من مختلف الالوان دون ان يدعن فيه ذكرى

٣٠ - كلاوديو اراو : عازف بيانو تشيلي ولد عام ١٩٠٣ .

البرق الجسدي . لقد كان جسدي مجعرة متوقدة متوحدة ليل نهار في ذلك الشاطئ المداري . كانت تجيء صديقتي (باستي) ، على الدوام ، بمجموعة من صديقاتها : صبايا سمراوات ومذهبات ، ذوات دماء مختلفة ؛ دم «بويري» ، دم انجليزي ، ومن مشتقات الله وأصنافه ، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلحي .

لقد باحت لي احدهن بزيارة قامت بها الى «شوميريس» Chummeries وهو اسم المنازل التي كان يعيش فيها مجموعات من الشبان الانجليز ، من مستخدمي المحلات والشركات ، يعيشون معا كي يقتصدوا فسي الملابس والاغذية على شكل مشاعة صغيرة . حكّت لي هذه الفتاة بشكل طبيعي ودون شعور بالابتذال او بالبداءة انه في احدى المناسبات ضاجعها اربعة عشر رجلا منهم .

— وكيف فعلت ذلك ؟ سألتها .

— كنت المرأة الوحيدة بينهم تلك الليلة ، وكانوا يحتفلون بشيء ما . وضعوا الحاكي وأنا اخذت ارقص مع كل واحد منهم بضعة خطوات ثم اثناء الرقص كنا نضيع في غرفة النوم ، هكذا ارضيتهم جميعا واحدا اثر واحد .

لم تكن هذه الفتاة بغيا محترفة بل كانت بالاحرى نتاجا استعماريًا ، فاكهة ساذجة ومعتاء ، حكايتها هذه اثرت بي جدا ولكنها ما اثرت على علاقتي بها فقد ظللت اكن لها المحبة والاستلطاف .

لقد كان منزلي المتوحد المنعزل بعيدا عن المساكن الاخرى كلها . حين استأجرته حاولت ان اعرف اين يقع المرحاض منه ، اذ انه ما كان يرى ولا في اية ناحية من هذا المنزل . من بعد اكتشفت انه في عمق المكان وراء الحمام .

بدافع من حب الاستطلاع تفحصته واذ به صندوق من الخشب وفي وسطه فتحة ، كان لهذا المرحاض شبه غريب بذاك الذي عرفته في طفولتي

الفلاحة ، في بلدي ، غير ان مراحضنا تلك كانت تتركز فوق بئر عميقة او فوق مجرى مائي ، بينما مراحضي هذا ليس له من مستودع الا سطل معدني بسيط يقع تحت تلك الفتحة المدورة .

كان السطل هذا يصحو مع الشروق نظيفا كل يوم دون ان ادري كيف كان يتخلص من مضمونه وأين يختفي هذا المضمون . صباح ذات يوم نهضت من فراشي في وقت ابكر مما كانت عليه عادتي في النهوض ، فدهشت حين رأيت ما كان يجري .

كانت هناك امرأة تسير نحو هذا المرحاض كأنها تمثال غريب يمتسي ، امرأة ما رأيت مثلها في الحسن بسيلان من قبل قط ، من جنس «تاميل» ومن طائفة «باريا» (٢١) Paria ، كانت ترتدي «ساري» Sari احمر ومذهب من قماش خشن جدا ، وفي قدميها الحافيتين كانت تضع خلاخيل (٢٢) ، على كل جانب من أنفها كانت هناك خرزتان صغيرتان حمراوان تلتمعان ، قد تكونان بلورتين عاديتين ، لكن عليها كانتا تبدوان وكأنهما جوهرتان .

توجهت بخطى جليلة وقورة نحو المرحاض ، دون ان تلتفت اليّ او نعيرني انتباهها وكأنها لا تشعر بوجودي ثم اختفت والآناء القدر فوق رأسها مبتعدة بخطوها الربائي .

لقد كانت جد جميلة الى درجة انني بقيت مشغول البال مضطربا . كأنها غزال نفور أتي من الادغال وهو ينتمي الى عالم آخر ، الى وجود آخر ، الى عالم منفصل لا يمت بصلة الى عالمي . ناديتها فلم تجب ، ذات مرة تركت لها في طريقها هدية : حريرا ، مرة اخرى فاكهة ، مرة اخرى عطرا ، كانت تمر ولا تدري بي ولا تنظر الى هداياي . لقد تحول طريق مسيرها وعملها البائس الى احتفال اجباري بملكة غير مبالية ، كنت انا

٢١ - باريا : هي طائفة من البراهمة ، محرومة من الحقوق الانسانية والمدنية .
٢٢ - خلاخيل : في الاصل Ajorca وهي مأخوذة من الكلمة العربية الشمركة .

المحتفل وهي الملكة الأنوف بما لها من جمال وحسن .

ذات صباح وقد قررت ما قررت وعزمت ان اغامر، اخذتها بقوة من معصمها وجذبتها اليّ ونظرت اليها وجها لوجه وما وجدت لغة اكلمها بها ، فانصاعت وتأودت فقتتها ، دون ان تبدو على شفيتها اية ابتسامة ، وعريتها دون ان تبدي حراكا ، املتها على السرير فمالت ، انمتها فنامت ، كان خصرها النحيل جدا ، الضامر جدا ، كانت اردافها المكتنزة جدا ، المتثلثة جدا ، كان نهذاها الطافحان جدا ، الواثبان جدا ، تجعلها تبدو وكأنها تحفة الفية من تحف جنوب الهند وتمائليها . وكان اللقساء لقاء رجل بصرمه . مكثت الوقت كله وعيناها ساهمتان مفتوحتان ، كانت جمادا بلا حراك . لقد احسنت صنعا باحتقاري وازدرائي ، والتجربة ما تكررت من بعد .

لقد كلفني جهدا ان اقرا البرقية التي وصلتني ، وزارة الخارجية تعلمني بنقلي الى مكان جديد . فقد نقلت من قنصل في «كولمبو» الى قنصل في «سينغابور» و«باتافيا» اي المهمة ذاتها والعمل نفسه ولكن هذا المنصب الجديد يرفعني من دائرة الفقر الاولى الى دائرة الفقر الثانية . كان لي الحق بكولمبو في ان احجز لنفسني من المبالغ التي تكسبها القنصلية ، مرتبي (ان توفر في هذه المبالغ) وقدره مائة وستة وستون دولارا وستة وستون سنتيما . الان بعد ان اصبحت قنصلا في مستعمرتين معا فاني سوف استطيع ان آخذ مبلغا قدره ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون دولارا واثنتان وثلاثون سنتيما (ان توفر في صندوق القنصلية) وهذا يعني انني ، عما قريب ، سوف ادع النوم على السرير العسكري ، طموحي المادي ما كان مفرطا وما كنت اطمع بأكثر من هذا .

لكن ، ماذا سافعل ب (كرينا) نمستي ؟ اهديها الى اولاد الحي الذين لم يعودوا يكونون لها الاحترام اللازم بعد ان فقدوا ايمانهم بقدرتها على مقارعة الافاعي ؟ لا ، لا ابدا ، فانهم لن يعتنوا بها ولن يدعوها تاكل معهم على المائدة كما كنت قد عودتها على ذلك ، بل انهم سيفلتونها في الغابة لترجع الى وضعها البدائي الحيواني ، فهي من غير شك فقدت غرائزها الدفاعية واصبحت اليقة وهناك في الغابة ستلتهمها الطيور الجارحة او الزاحفة دون سابق انذار او اعدار . من جهة اخرى ، كيف احميها معي ؟

انهم في الباخرة لن يقبلوا بمثل هذا المسافر الغريب من نوعه .

قررت حينذاك ان اصطحب معي في السفر (برامبي Brampy)
خادمي السيلاني ، كان ذلك مصروفا باهظا لا يتحملة الا مليونير وكذلك
كان جنونا ، لاننا سنذهب الى قطرين وهما ماليزيا واندونيسيا ، يجهل
خادمي (برامبي) لفتيهما . لكن النمسة تستطيع السفر خفية في داخل
سفط نضعه على ظهر الباخرة تحت جسرهما وهناك يرقد خادمي قربها فهي
تعرفه وتطمئن اليه فتظل خبيثة دون ان يراها احد ، لكن المشكلة كانت
الجمارك فلعلمهم ينقبون في السفط ويرونها ، لكن خادمي (برامبي) الماكر
تكفّل بخداع رجال الجمارك .

وهكذا ، بحزن ، بفرح ، بنمسة ، تركنا جزيرة سيلان قاصدين عالما
آخر لا نعرفه .

قد يكون من الصعب على الآخرين ان يفهوا لماذا كان لتشيلى هذا
العدد الكثير من القناصل المبعثرة في انحاء العالم كله . انه فعلا لغريب ان
جمهورية صغيرة منزوية قرب القطب الجنوبي ترسل ممثلين رسميين الى
ارخبيلات ، سواحل ، ارصفة (٣٣) في الجانب الآخر من الكرة الارضية .

في عمق الامر - اشرح انا وهذا رأيي الخاص - ان هذه القناصل كانت
نتاج الوهم واعطاء الاهمية للذات والتركيز عليها وهذا ما نتميز به نحن
الامريكيين الجنوبيين عادة . من ناحية اخرى كنت قد قلت في مجال آخر
انه من هذه الاماكن النائية جدا كانت تشحن الى تشيلى ، قنب هندي ،
زيت القطران الصلب (بارفينا) لصنع الشموع وبخاصة شاي ، شاي كثير
جدا ، اذ اننا نحن التشيليين نتناول الشاي اربع مرات في اليوم ، ولا
نستطيع زرعه في بلادنا . لقد اضرب مرة عمال ملح البارود اضرابا هائلا
محتجين على نقص هذه المادة الغذائية الغريبة جدا . اذكر ان احد المصدرين

٣٣ - ارصعة : هكذا في الاصل Arrecifes وهي في الاسبانية تعنى الهودي او
الصخور تحت الماء او الحيوود البحرية . عن العربية

الانجليز سألني في احدى المناسبات بعد ان سقاني ما سقاني من الويسكي،
عما نفعل نحن التشيليين بمثل هذه الكميات الهائلة من الشاي .

– تناولها – قلت له .

(لقد كان يظن انه سابوح له بسر استغلاله صناعيا ليعرف هذه
الصناعة وينقلها الى بلده ، تأسفت لتخيبي آماله) .

لقد كان للقنصلية التشيلية في سينغابور عشر سنوات من الوجود .
نزلت من الباخرة بالثقة التي كانت تعطينها الثلاث والعشرون سنة من
العمر ، دوما بصحبة خادمي (برمبي) ونمستي (كرينا) . توجهنا مباشرة الى
فندق «رافليس» . هناك امرت بغسل ملابسني التي لم تكن بالقليلة ، ومن
بعد جلست على شرفة الغرفة ، تمددت في كسل على كرسي مريح هزاز
وطلبت كاسا ، كأسين ، ثلاث كؤوس ، من «الجن» .

كل شيء كان Sommerst Maufham (٢٤) جدا ، الى ان خطر لسي
البحث في دليل الهاتف عن مقر قنصليتي ، فلم تكن مسجلة هذه القنصلية
في الدليل ، يا للشياطين ! طلبت ان يصلوني حالا بمركز الحكومة الانجليزية
هنا ، اجابوني بعد طول استشارة وبحث انه ليس ثمة قنصلية تشيلية .
سألتهم عما اذا كانوا يعرفون اي شيء عن القنصل السيد (مانسيا)
فاجابوني بالنفي المطلق .

شعرت بالانزعاج والضييق اذ لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع اجرة
تلك الليلة في الفندق وتكاليف غسل ملابسني . فكرت في ان مقر القنصلية
لا بد ان يكون في «باتافيا» ، ولذلك فاني قررت المضي في السفر على
ظهر الباخرة نفسها التي احضرتني الى هنا وكانت ما تزال راسية في المرفأ
على وشك الاقلاع نحو «باتافيا» . امرت باخراج ملابسني من الغلاية حيث
كانت تنتقع ، صنع (برامبي) منها حزمة بليلة وانطلقنا مسرعين نحو رصيف
الميناء .

٢٤ – لا نحاول ترجمة التماير الواردة بلغة غير اللغة الاسبانية .

كانوا قد رفعوا سلم الصعود الى ظهر السفينة . صعدت درجات السلم لاهثا . نظر اليّ رفاق سفري السابقون المستمرون في رحلتهم وضباط الباخرة مستغربين مندهشين . حشرت نفسي في الغرفة نفسها التي كنت قد نركتها صباحا ثم تمددت على ظهري في السرير وأغمضت عينيّ فيما كانت الباخرة تبتعد عن الميناء المشؤوم .

لقد تعرفت في الباخرة على فتاة يهودية ، تدعى (كروزي) شقراء ، سميئة شيئا ما ، ذات عينيّن طافحتين بالفرح ولونهما برتقالي . تقالت لي ان لها منصبا جيدا في «باتافيا» ، اقتربت منها في الحفلة الاخيرة للرحلة البحرية . بين كأس وكأس كانت تجرني الى الرقص وأنا كنت أتبعها بشكل غبي في تلك الالتواءات البطيئة التي كان الرقص عليها في تلك الاوقات . في هذه الليلة الاخيرة قررنا ان نمارس الحب في غرفتي بشكل ودّي ، عارفين بأن مصيرنا التقيا صدفة ولمرة واحدة . حكيت لها عن خيبة آمالي وقشليّ فأشفقت عليّ ورتت لي في نعومة بالغة فوصل حنانها الى قلبي وتغلغل في روحي .

اعترفت لي (كروزي) من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في «باتافيا» . كان تمة منظمة فلندعتها دليّة ، كانت مهمتها هي ان تشبك فتيات اوروبيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب او القاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا اعطوها الحق في الاختيار بين «مهاجرا» او امير من سيام او تاجر صيني غني فقررت اختيار هذا الاخير ، لكونه شابا وديعا .

حين هبطنا الى اليابسة ، في اليوم التالي ، لمحت سيارة «رويلرويز» وجانبها من وجه صاحبها الصيني ، العين الفنسي الذي كان يجلس في الخلف وذلك من خلال ستائر حريرية مزهرة على نوافذ السيارة . ثم اختفت (كروزي) بين الناس والعفش والبضائع .

انا نزلت في فندق «دير نيديرلاند» ، كنت اسعد للغداء حين رأيت (كروزي) تدخل ثم ارتمت بين ذراعيّ مختنقة بالبكاء .

- انهم يطردونني من هنا ، يجب علي ان ارحل غدا .

– لكن ، من هم هؤلاء الذين يطردونك ، ولماذا يطردونك ؟ .

حكى لي بشكل متقطع عن خيبتها وعن الضرر الذي لحق بها ، قالت انه كانت على وشك الصعود الى السيارة الفخمة حين جاء رجال شرطة الهجرة فاعتقلوها كي يخضعوها الى تحقيق قاس ، لم تحد بدا ممن الاعتراف بكل شيء . اعتبر المسؤولون الهولنديون ان نيتها في العيش مع رجل صيني على شكل تسرّ هي جناية خطيرة . اطلقوا في النهاية سراحها شريطة الا تزور عشيقها هذا وشريطة ان تتركب ، لترحل في اليوم التالي ، الباخرة نفسها التي وصلت بها والتي كانت ستقلع لتعود الى الغرب ..

ان ما كان يحزّ في نفسها هو انها خيبت آمال ذلك الرجل الذي كان ينتظرها ، لم يكن بعيدا عن التأثير في شعورها هذا اغراء تلك السيارة الفخمة . لكن (كروزي) في اعماقها كانت عاطفية جدا . كان في دموعها شيء اكثر من مصلحة خابت ، اكبر من اغراء مادي : كانت تشعر بانها اهيئت وانها جُرحت في كرامتها .

– هل تعرفين عنوانه ، اليس عندك رقم هاتفه ؟ سألتها .

– بلى – اجابتنى – لكنني اخاف ان يعقلوني فلقد هددوني بالسجن في زنزانة .

– لن تخسري شيئا ، اذهبي كي تري هذا الرجل الذي قد فكر فيك دون ان يعرفك ، فانت تدينين له على الاقل ببضعة كلمات تشرحين بها له الامر . ماذا يهمك بعد من رجال الشرطة ؟ . دعهم وشأنهم . اذهبي وانظري صينيك ، خدي احتياطاتك واهزئي ممن اهانوك وستشعرين انك انتقمت وبهذا تخرجين من البلد وانت اكثر رضى واحسن حالا .

لقد عادت تلك الليلة صديقتي في وقت متأخر . فقد ذهبت ورات المعجب بها عن طريق المراسلة فقصت عليّ تفاصيل المقابلة التي جرت بينهما . الرجل هو شرقي متفرنس ومثقف ، يتكلم الفرنسية بشكل طبيعى ، متزوج على طريقة الشرفاء الصينيين وهو يملّ من زوجته وحياته كثيرا .

كان هذا الخطيب الاصفر قد جهز لخطيبته البيضاء التي جاءته من
القرب منزلا بحديقة فسيحة ، تشبيكات على النوافذ ضد الدباب
والناموس ، اثنا من طراز لويس الرابع عشر ، سريرا كبيرا ذا كلثة حريرية
وضع تحت التجربة تلك الليلة . اخذ صاحب الدار هذا يريها التحف
الصغيرة التي اعددها وهياها : الشوك ، السكاكين الفضية (هو لا ياكل الا
بالعيان) ، المشروبات الاوربية ، الثلجة المكونة بالفواكه واشياء اخرى .

من بعد توقف ازاء صندوق كبير مغلق بشكل محكم ، اخرج مفتاحا
صغيرا من جيب سرواله ، فتح ذلك الصندوق وأرى عيني (كروزي) اعجب
كنز في الكنوز ، مئات من الكلاسين النسائية ، سراويل قصيرة ناعمة
الملمس ، كلسات ضئيلة الحجم . مشدات خاصة بالحريم بالمئات بل
بالآلاف كانت تتوج ذلك الكنز المطهر بالشذى والمطر بأريج الصندل . هناك
اجتمعت انواع الحرير كلها ، الالوان جميعها فالسلسلة كانت تتدرج من
البنفسجي الى الاصفر ، من الالوان الوردية المختلفة الى الالوان الخضراء
السحرية ، من الالوان الحمراء العنيفة الى الالوان السوداء البهية ، من
الالوان السماوية الكهربائية الى الالوان البيضاء الشفافة الرفافة . جمع
هذا الوثني قوس قزح الشهوة الذكرية كله في سبيل ارضاء لذته الشهوانية
الفريسة .

— لقد بهرت وسحرت — قالت لسي (كروزي) ثم غرقت بالبكاء
والنحيب — تناولت انا هكذا على غير اتفاق قبضة من هذه المشدات وها
هي الآن معي — أردفت قائلة .

لقد شعرت انا كذلك بالتأثر واستهواني هذا السر الانساني . هذا
الصيني التاجر الجدّي الحازم المستورد او المصدر يصنف ويجمع كلاسين
ومشدات نسائية كما لو كان هاوي فراشات يتابعها ويصطادها ، كيف هذا
ومن يفكر في مثل هذا ؟

— دعي لي واحدا من هذه الكلاسين — قلت لصديقتي .

هي اختارت واحدا ابيض اخضر وداعبته بنعومة وحنان قبل ان
تعطينيه .

— اهديه لي واكتب لي عليه شيئاً ، يا (كروزي) ، من فضلك .

اذالك هي مطته بعناية تامة وكتبت اسمي واسمها على سطح الحرير
الذي بلتته كذلك بالدموع .

في اليوم التالي انطلقت ورحلة دون ان اراها وما عدت فرايتها من بعد
ابدا . كلسونها الخفيف الرقيق الشفاف واهدائها عليه ودموعها ليه
مشت مع حقائبي ، مختلطة بملايسي وكتبي خلال سنين كثيرة . لا اعرف
متى وكيف احدى زائرائي المستفلات خرجت من داري وقد لبسته فطار
معها .

((باتافيا))

في تلكم الازمان ، حين لم تكن توجد بعد الفنادق الضخمة كان نزل
«نيديرلانده» شيئاً خارقاً للعادة . كان له بهو مركزي كبير مخصص لقاعة
الطعام والمكاتب ، وشقة لكل مقيم نازل تفصلها عن الاخرى حديقة صغيرة
وأشجار قديرة عظيمة وفي قمم هذه الاشجار كانت تستوطن عصافير لا
حصر لها ، سناجب غشائية تطير من غصن الى آخر ، حشرات تصر وتصر
كما في الغابة . كان خادمي (برامبي) منصرفا الى عمله في الاعتناء بالنمسة
التي كانت كل يوم اكثر قلقا واشد حزنا في منزلها الجديد هذا .

هنا ، نعم ، كان ثمة ما يسمى بقنصلية تشيلي ، على الاقل كانت
مذكورة في دليل الهواتف . في اليوم التالي بعد ان غدوت احسن حالا
وانق ملبسا توجهت شطر مكاتبها . كان الشعار القنصلي لتشيلي معلقا
في صدر بناء كبير وعلى واجهة محل كتب عليه كذلك ما يدل على انه مقر
شركة للسفريات البحرية . قادني احد الاشخاص العديدين الذين كانوا
هناك الى مكتب المدير ، وهو رجل هولاندي ضخم الهيئة عظيم الجثة ملون
الوجه والبشرة ، لا تبدو عليه علائم مدير شركة بل له ملامح عتال ميناء .

— انا القنصل الجديد لتشيلي هنا — قدمت نفسي — اتني لابدا باجزال

الشكر اليكم على خدماتكم الجليلة العظيمة راجيا ان تطلعوني على مجريات الامور المهمة في القنصلية ، اذ انني أرغب بتولي مهام منصبتي توفرا .

— ليس من قنصل هنا سواي — اجاب حانقا هائجا .

— وكيف ذا ؟

— ابدأوا بان تدفعوا لي ما انتم مدينون به — صرخ .

قد يعرف هذا الرجل عن الابحار الشيء الكثير ، لكن اللياقة لم يكن يعرفها ولا في اية لغة . كان يهرس الجمل يدعسها ويقضم بعضات فاضبة السيجار الثقيل الذي كان يلدغ الهواء فيما حوله .

لم يدع لي هذا الممسوس المتخبط فرصة كي اقاطعه اثناء كلامه المتدفق . ان شعوره بالاهانة والسيجار كانا يسببان له هجومات مسن السعال مدوية سخابة حين لا تسببان له تفا ونفا وغرغرة . اخيرا استطعت ان أحشر جملة في محاولة للدفاع عن نفسي :

— ايها السيد ، انا لا ادين لك بشيء وليس عليّ ان ادفع لك شيئا . اني لأعرف ان حضرتك قنصل Ad Honorem اي فخري، فان كان هذا امرا قابلا للنقاش في رأيك فاني لا اجد ما يمكن اصلاحه بهذا الصراخ الذي لست على استعداد للقبول به مطلقا .

في وقت لاحق تأكدت من ان هذا الشيخين الهولاندي كان لديه بعض من الحق . فلقد كان هذا الرجل ضحية لنصب واحتيال حقيقيين ما كنت انا ، طبعا ، ولا حكومة تشيلي بمسؤولين عما لحقه من اجحاف وظلم . لقد كان (مانسيا) هذه الشخصية الماكرة المتتوية ، هو من كان يهيج حنق الهولاندي وغضبه . فلقد بدأت أعرف ان (مانسيا) هذا لم يقم على رأس عمله في «باتافيا» ابدا ، بل كان يعيش في باريس منذ زمن طويل ، وكان قد اتفق مع هذا الهولاندي كي يقوم بمهامه القنصلية بدلا عنه وأن يرسل

اليه الاوراق والعوائد المالية لقاء مرتب شهري ، غير انه لم يدفع له هذا المبلغ قط . ومن هنا شعور الهولاندي بالاهانة والظلم ، ومن هنا غضب الهولاندي الارضي (٢٥) الذي تداعى فوق رأسي كتداعي طنّف الحائط .

في اليوم التالي شعرت بأني مريض جدا ؛ حمى خبيثة ، زكام ، ضنك ، وحدة ونزيف ، حر وعرق . كانت الأنف تنزف مني دما مثلما في طفولتي بتيموكو ، تحت برد تيموكو .

توجهت بعد ان بدلت جهدا قويا ، جهد من يريد ان يحيا ، الى قصر الحكومة حيث كان يقع في منطقة «بويتنرور» Buitenzor داخل حديقة اشجار رائعة فسيحة . ابعد البيروقراطيون بصعوبة عيونهم الزرق عن اوراقهم البيض وزروا ما بين عيونهم ثم اخرجوا اقلاما كانت كذلك تترشح مثلي وكتبوا اسمي ببعض قطرات من عرق .

خرجت اكثر مرضا مما دخلت . مشيت عبر النهج الى ان جلست تحت فيء شجرة هائلة . كل شيء هنا كان منعشا صحيا طازجا حيا ، الحياة تتنفس هادئة قديرة . تكشف الاشجار السامقة الهيفاء عن سيقانها الصقيلة المساء لجنيئة البدن ، كتيفة الفرع ، ازائي ، امامي ، ورائي ، كان يبلغ علوها مائة متر او اكثر . قرأت الصفائح المطلية بالميناء حيث تصنف الاشجار فصائل فصائل من اشجار الكافور ، لم اكن اعرفها من قبل . تنزلت من العلو الهائل موجة من الشدى الرطب فتنسمت ملء رئتي ، تساقطت عليّ موجة من الأريج الزكي فأفعمت قلبي . تلك الشجرة الامبراطورة بين الاشجار رقت لحالي فأرسلت اليّ من روحها نفحة عطر اعادت اليّ روحي وشفّنتني .

او لربما كانت شفائي جلاله الحديقة الخضراء ، تناغم الاوراق ، تلون الثمار ، تصالب الخطوط ، السحليات التي كانت تنفجر مثل نجومات بحر بين اوراق النبات، العمق البحري لذلك الحرش الغابي، صراخ الببغاوات،

٢٥ - الهولاندي الارضي : اشارة وتمييزا للهولاندي البحري واسطوره المروقة .

عياط القروود . كل هذا أعاد لي الثقة في مصري ، أرجع لي الفرح بالحياة التي كانت تطفأ فيّ مثل شمعة استهلكت فنفلت .

عدت الى النزل وقد استعدت أنفاسي . جلست في شرفة شقتي ومعني اوراق للكتابة ونمستي فوق الطاولة الصغيرة جالسة ، وقسرت ارسال برقية الى حكومة تشيلي . كان ينقصني المداد . ناديت على نادل في النزل وطلبت منه بالانجليزية حبرا **ink** كي يحضر لي محبرة . لم يبد عليه انه فهمني بل اقتصر على النداء الى نادل آخر كان يرتدي بدلة بيضاء مثله وكان حافيا جدا مثله كي يساعده على تفسير رغباتي المبهمة اللفز . لم يكن هناك ما يمكن عمله اذ انني حين كنت اقول : **ink** واحرك قلمي وانا اغمسه في محبرة خيالية وهمية كي يفهموا قصدي كان الغلمان السبعة او الثمانية الذين خفثوا لمساعدة الاول على حل هذا المعضل ، يكررون ايفاع مناورتي باقلام يخرجونها من جيوبهم وينادون في حدة واندفاع (**ink, ink**) مبتئين ضحكا . كان هذا الذي اقوم به من حركات يبدو لهم على انه طقس من الطقوس الجديدة يريدون تعلمه واتقانه . بعد ان يئست انطلقت الى الشقة المجاورة وانا اتبع بسلسلة طويلة من الخدم المرتدين البياض ، الحفاة الاقدام ، وتناولت من على طاولة وحيدة منزوية محبرة كانت هناك باعجوبة فأشهرتها أمام عيونهم المندهشة وصرخت بهم :

— هذا ، هذا **This This** .

عند ذلك ابتسموا وقالوا في ايفاع واحد :

— حبر ، حبر . **Tinta!Tinta!** .

وهكذا عرفت ان الحبر كما هو في الاسبانية يقال له بلغة «ملايو»
(**Tinta**)

لقد حانت اللحظة التي أعيد فيها اليّ الحق بأن اتمركز قنصليا . كانت ثروتي المتنازع عليها هي : خاتم مع ممحاة متآكلة منقرضة منقضة،

قطعة قماش مغموسة بالمداد كي احببر الخاتم ، بعض ملفات ووثائق تحتوي على المجمل والباقي . كان الباقي قد راح ليتوقف في جيوب ذلك القنصل الفشاش الذي كان يعمل من باريس في هذه القنصلية . سلمني الهولاندي الذي استهزيء به اعواما كثيرة الحزمة التافهة ، دون ان يدع علك سيجاره ، في ابتسامة باردة . ابتسامة «مستدون» (٣٦) خائب الامل .

— من حين الى حين كنت اوقع على وصلوات قنصلية واضع عليها الخاتم الرسمي المتضعع . وهكذا اخذت تردني الدولارات التي كانت تحوّل الى العملة الوطنية «غولديرس» Guilders فتكفي بشكل مضغوط لدعم وجودي : المبيت والتغذية لي ، راتب خادمي ، العناية بنمستي (كيريا) التي كانت تنمو بشكل واضح جلي وتاكل ثلاث بيضات واحيانا اربع بيضات في اليوم ، بالانسافة الى هذا فقد كان عليّ ان اشترى سموكين Smoking ابيض و«فراك» Frac والتزمت ان ادفع الثمن على اقساط شهرية . كنت اجلس احيانا ، وحيدا دوما ، في المقاهي الفاصة بالناس في الهواء الطلق ، ازاء القنوات العريضة كي اشرب بيرة او «جن» فعدت من جديد لاحبا حياه هادئة يائسة .

ان وجبة مطعم الفندق كانت جلييلة . كانت تدخل الى قاعة الطعام مسيره مؤلفة من عشرة خدام الى خمسة عشر خادما احيانا ، ثم يروحون يستعرضون انفسهم امام كل واحد من نزلاء الفندق وقصعاتهم مرفوعة على اكفهم التي نعالو وتهبط . وكل فصعة مقسمة الى اوعية ، وفي كل وعاء يلمع طعام لذيذ غريب . فوق فاعدة من الرز كانت تلك الماكولات اللانهائية تشيد دعائمها . كنت انا ، وانا رجل اكل ولزمن طويل غير مغدّي ، اختار شيئا من كل فصعة من هذه القصعات ، من كل خادم من الخمسة عشر خادما او الثمانية عشر ، حتى يصبح طبقي جبلا حيث الاسماك الغريبة ، حيث البيضات المعماة ، حيث الخضراوات غير المتوقعة ، حيث الفراخ غير المفصرة ، حيث اللحوم غير المألوفة ، كانت كل هذه اللدائد تتوج قمة غدائي كما راية على قمة جبل قاعدته من رز . يقول الصينيون ان الاكل يجب ان

٣٦ - مستدون Mastodonte : فيل الري منقرض .

يحتوي على ثلاث خصائص جديدة : طعم ورائحة ولون . كانت وجبة نرلي تجمع هذه الخصال الثلاث ورابعة اخرى وهي : الوفرة .

في تلك الايام فقدت (كيريا) : نمستي . كانت لها العادة المجازفة الخطرة وهي متابعتي حيث امضي بخطيواتها السريعة القصيرة . ان الدهاب خلفي كان يعني اجتياز الشوارع التي تخترقها السيارات الصغيرة والكبيرة والشاحنات وعربات «ريكيشا» التي يجرها البشر والمارة الهولنديون والصينيون والملايويون . انه لعالم مضطرب مزدحم بالنسبة لنمسة لا تعرف في الدنيا الا شخصين اثنين : انا وخادمي .

لقد جرى ما لا يمكن تفاديه وكان ما خفت ان يكون . حين عدت الى الفندق ونظرت الى خادمي فهمت الماساة ، لم اساله شيئا . لكن حين جلست في الشرفة ، هي لم تقفز الى حضني ولا امرت ذيلها الكثيف الشعر عبر رأسي .

وضعت اعلانا في الصحف : « نمسة ضائعة ، تستجيب لنداء (كيريا) »^{٢٢} ما من احد اجاب ولا من جار رآها فدل عنها ، ربما ماتت ، لقد اختفت الى الابد .

شعر حارسها (برامبي) بلذب كبير الى درجة انه اختفى عن نظري خلال زمن طويل . كان شبعا كان من يفضل ملابسني وينظف احديتي . كان يخيل لي احيانا وكاني اسمع صراخ (كيريا) يناديني من على غصن شجرة في الليل ، اشعل النور ، افتح النوافذ والابواب علثا تأتيني . اتحرى شجر الجوز الهندي ، استقصي كل مكان ، واذ هي ليست اياها . ان العالم الذي كانت (كيريا) تعرفه وتألّفه قد استحال الى احتيال ، انهارت ثقتها في غابة المدينة المهتدة المتوعدة . لقد شعرت لزمن طويل اني مثقوب بالكآبة ، منخول بالهم .

قرر (برامبي) من خجله العودة الى بلده . تأسفت لهذا كثيرا ، لكن ، في الحقيقة ، تلك النمسة كانت الشيء الوحيد الذي يجمعنا . جاء ذات

مساء بفرض ان يريني البدلة الجديدة التي اشتراها كي يصل الى قريته
الأم ، حسن الهدام بهي المنظر . ظهر فجأة وهو يرتدي الابيض ومزرور
حتى العنق . ما كان اكثر مفاجأة هي قلنسوته الهائلة كانه رئيس الطهارة
فقد كان قد البسها رأسه الغامق جدا ، حين بدا هكذا انفجرت في فهقة
عارمة . لم يشعر (برامبي) بالاهانة بل على العكس ابتسم لي في عدوبة
شديدة بابتسامة تصفح لي جهلي وتفهمه .

ان اسم شارع داري الجديدة في «باتافيا» هو «بروبولينغو» . هذه
الدار هي عبارة عن قاعة ، وغرفة نوم ومطبخ وحمّام . ابدا ما امتلكت
سيارة ولكن في هذه الدار كان يوجد كراج ظل دائما فارغا . كان في هذه
الدار الجديدة متسع يزيد عن حاجتي . اتخذت طاهية من جزيرة «جاوا» ،
فلاحة عجوزا تشعر بالمساواة وتؤمن ان الناس سواسية وكانت كذلك لطيفة
جدا . واتخذت كذلك خادما صغيرا جاويا ايضا كان يخدمني في المائدة
وينظف ملابسي ويمسح احديتي . هناك أنهيت ديواني «مقام في الارض» .

لمد تضاعف شعوري بالوحدة ففكرت بالزواج . كنت قد تعرفت على
فتاة «كرويا» ، بالاحرى هولندية مع قطرات دم من ملايو . كانت تعجبني
جدا ، كانت امرأة طويلة وناعمة لطيفة ، غريبة كليا عن عالم الفنسون
والاداب (بعد عشرين سنة ستكتب كاتبة تاريخ حياتي وصديقتي (مارغاريتا
أغريه) عن زواجي هذا ما يلي : «لقد عاد (نيرودا) الى تشيلي في عام ١٩٣٢ .
قبل هذا بعامين تزوج في «باتافيا» ب (ماريا انطونيته اجينار Maria
Antonieta Agenar وهي شابة هولندية مستقرة في «جاوا» . تفتخر
جدا لكونها زوجة قنصل ، ولها عن امريكا الجنوبية فكرة غريبة جدا ، هي
لا تعرف الاسبانية فتبدأ بتعلمها . لكن ليس ثمة شك في ان ما لم تتعلمه
ليس اللغة فحسب . ومع كل هذا فان انسجامها العاطفي مع (نيرودا) هو
قوي جدا فدائما يريان معا . ان (ماروكا) وبهذا الاسم يدعوها (بابلو) ، هي
طويلة جدا ، بطيئة ، متكلفة الرصانة» .

كانت حياتي بسيطة جدا . تعرفت من بعد على اشخاص آخرين لطفاء
جدا . القنصل الكوبي وزوجته كانا صديقيّ الاجباريين اذ كنا متحدثين
باللغة . كان هذا القنصل يتكلم بلا انقطاع ولا هوادة كانه آلة متحركة دائما .

كان رسميا يمثل (ماتشادو Machado) (٢٧) طاغية كوبا ، غير انه ، كان يحكي لي ان ثياب السجناء السياسيين ، ساعاتهم ، خواتمهم ، وأحيانا أسنانهم الذهبية كانت تظهر في بطون الاسماك الكبيرة الشرهة بخليج «هافانا» .

كان الفنصل الالماني(هيرث) يعجب بالتشكيلية الحديثة *la plastica* بالخيول الزرق لـ (فرانت مارك) بالاشكال المستطيلة لـ (ويلهيلم ليهمبروك) . كان شخصا حساسا ورومانطيكيا ، وهو يهودي ذو قسرون من التراث الثقافي ، سألته ذات مرة :

— (هتلر) هذا الذي يظهر اسمه من حين الى حين في الصحف ، هذا الزعيم المعادي للسامية وللشيوعية ، ألا تعتقد انه قد يصل يوما الى سلطة الحكم ؟

— مستحيل — قال لي .

— كيف تجزم بأنه مستحيل ، بينما نشاهد في التاريخ كل ما هو محال وغير معقول ؟

— انت لا تعرف المانيا — ادلى برأيه — ثم اردف قائلا :

— اجل ، هناك في المانيا هو امر مستحيل ، ان محرضا مجنوننا مثل هذا (هتلر) لا يمكن له ان يحكم ، ولا حتى في ضيعة .

يا صديقي المسكين ، يا للفنصل المسكين (هيرث) ، لقد كان ينقص القليل كي يحكم ذلك المحرض المجنون العالم كل العالم . لا بد ان (هيرث) الساذج قد انتهى في غرفة غاز مجهولة ورهيبة مع كل ثقافته ورومانطيكته النبيلة .

٢٧ — ماتشادو Morales, Cerardo : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٦) .

الفصل الخامس

اسبانيا في القلب

كيف كان (فيدريكو Federico) (١)

سفر طويل عبر البحر دام شهرين اعادني الى تشيلي عام ١٩٣٢ .
هناك في تشيلي نشرت ديواني «حامل المقلع المتحمس» الذي كان مبعثرا
بين اوراقى ، ونشرت كذلك ديواني «مقام في الارض» الذي نظمته في
الشرق . في عام ١٩٣٣ عينت قنصلا لتشيلي في «بوينس ايرس» حيث
وصلت في شهر آب .

لقد وصل الى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريبا (فيدريكو غارثيا
لوركا) كي يمدن مسرحيته ، مأساة «أعراس الدم» ، ويشرف على تمثيلها

١ - فيديريكو غارثيا لوركا : هو الشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٩٨ - ١٩٣٦) ،
ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ، مختارات من الشعر الاسباني المعاصر . ونحن في
صدد اعداد كتاب عن المواضيع والالفاظ العربية في اعماله .

الذي قامت به فرقة (لولا ميمبريبيس Lola Membrives) . لم تكن قد تعارفنا بعد فتم تعارفنا في «بوينيس ايريس» . وكثيرا ما كان الادباء والاصدقاء هناك يحتفلون بنا معا ويكرمونا . على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث . كان لفيديريكو خصوم . وكذلك كان لي ايضا خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون . هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزيا كي يطفئوا النور حتى لا يرى . وهذا ما حصل في تلك المرة . بما انه كان هناك اهتمام عند الناس لحضور حفلة التكريم التي كان يريد اقامتها على شرفنا «نادي القلم» في فندق «بلانا» ، فان احد هؤلاء الخصوم اخبل يتصل بالناس هاتفيا كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي كان سيقام على شرف (لوركا) و(نيرودا) قد ألغي . وقد بلغ بهذا الخصم او الخصوم الحد من الصفاقة انهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدوا الوليمة . لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا اخيرا وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتاب الأرجنتينيين .

لقد بادرنا الحضور بمفاجأة ادهشتهم . كنا حضرنا خطابا على التناوب «أل اليمون» (٢) . اعتقد ان كثيرا من القراء لا يعرفون معنى هذه الكلمة وأنا كذلك لم اكن اعرفها لكن (فيديريكو) الذي كان دائما مليئا بالابداعات والاملوحات والنوادر والخواطر شرح لي ذلك فقال :

«اثنان من مصارعي الثيران يصارعان في الوقت نفسه وبمعطف واحد وحيد . ان هذه الطريقة في المصارعة هي اخطر تجربة في فن مصارعة الثيران ، ولذا فقلما ترى في حلبات المصارعة . لا ترى الا مرة او مرتين كل قرن ولا يمكن ان يؤديها الا مصارعان أخوان او ان لهما دما مشتركا ، وهذا ما يسمى عندنا في اسبانيا بالمصارعة على «اليمون» . وهذا ما سنقوم به ، انت وأنا ، في خطاب نلقيه على المحتفلين بنا» .

وهذا ما صنعناه ، وما من احد من الحضور كان يعرف هذا الاسلوب

٢ - ليمون : اصل الكلمة مربي ، الليمون ، وال «اليمون» اي على الليمون ، هو نوع من اللعب يقوم به الاطفال وهم يفتنون ويرددون هذه الكلمة بالتناوب ، وهو كذلك ما بشرحه (نيرودا) والمصارعة اخذه من لعبة الاطفال هذه .

في المصارعة او المخاطبة . حين وقفنا لكي نشكر مدير النادي على هذا التكريم ، وقفنا معا في الوقت نفسه كأننا مصارعا خطاب واحد . بما ان الوليمة قد قدمت على موائد صغيرة منفصلة ، بعضها يبعد عن بعض فان (فيديريكو) كان في طرف وأنا في الطرف الآخر ، ولهذا فان الناس الجالسين قربي كانوا يشدونني من طرف سترتي معتقدين اني على خطأ وأن المتكلم الان هو (فيديريكو) ، والشيء ذاته جرى لفيديريكو في الطرف الآخر من القاعة . شرعنا في الوقت نفسه بالخطاب فقلت انا «سيداتي» وتابع (فيديريكو) و«سادتي» وهكذا. اخذنا نتناوب وتتشابك جملنا الى درجة ان هذه الجملة بدت وكأنها نص وحيد متناسق مترابط الى ان ختمنا كلامنا . ذات الخطاب كان مخصصا ومهديا الى (روبين داريو) (Ruben Dario) (٣) لاننا ، (فيديريكو) وأنا ، كنا نبجل (روبين داريو) باعتباره واحدا من عظماء مبديي اللغة الشعرية في اللغة الاسبانية ، دون ان ننتهم في اننا «محدثون» (٤) Modernistas . وإليكم نص الخطاب :

نيرودا : سيداتي ...

لوركا : وسادتي : ثمة في فن مصارعة الثيران طريقة تدعى :

« المصارعة على «اليمن» » ، في هذه الطريقة يصارع اثنان معا مختلسا احدهما جسد الآخر ، آخذين بالدثار ذاته .

نيرودا : (فيديريكو) وأنا ، مريوطين بسلك كهربائي ، سوف نتناوب كسي نجيبكم على هذا الاستقبال الحار .

لوركا : انها لعادة نبيلة في مثل هذه الندوات ان الشعراء يعرضون كلمتهم الحية ، سواء أفضية كانت أم خشبية ، ويحيون بصوتهم الخاص زملاءهم وأصدقاءهم .

٣ - روبين داريو : هو شاعر من «نيكراغوا» بأمريكا الوسطى (١٨٦٧ - ١٩١٦) .
٤ - محدثون : من ينتمون الى مذهب ادبي عرف باسم «الحداثة» Modernismo
وقد انتشر هذا المذهب في اسبانيا وأمريكا اللاتينية في مطلع هذا القرن ، وكان (داريو) زعيما لهذا المذهب .

نيرودا : لكننا الآن سنبحث فيما بيننا رجلا ميتا ، نديما ارمل ، داكنا في دياجير ميتة هي اكبر ميتة ، انه ارمل الحياة ، ذاك الذي كان في ابانه وزمانه بعلا ماهرا ، سنختبيء تحت ظله المتوقد ، سنكسرر اسمه حتى تقفز قدرته من الفناء والنسيان .

لوركا : اننا سنروح ، بعد ان نرسل تحياتنا في حنان طائر البطريق الى الشاعر الرقيق (امادو بيثار Amado Villar) ، سنروح نقذف فوق هذا السماط باسم عظيم ، متاكدين انه لا بد من ان تتكسر الاقداح ولا بد من ان تتناثر في الفضاء الشوك والسكاكين بحثا عن العين التي طالما اشتاقت اليها وحنّت ، وانه لا بد ان تلتخ هذا السماط ضربة من بحر . نحن سنذكر اسم شاعر امريكا واسبانيا: (روبين)

نيرودا : (داريو) . لانه ، سيداتي . . .

لوركا : وسادتي

نيرودا : اين هي ، في بوينس ايريس ، ساحة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو تمثال (روبين داريو) ؟

نيرودا : لقد كان يعشق الحدائق ، فاین هي حديقة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو حانوت الزهور والورود باسم (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين هي شجرة النفاح وتفاحات (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هي اليد القطعاء يد (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين ؟

لوركا : ان (روبين داريو) ينام في مسقط رأسه : «نيكاراغوا» تحت أسده

المرمري الفظيع مثل هذه الاسود التي يضعها الاغنياء عند أبواب منازلهم .

نيرودا : أسد مطمور في مخزن لمن أسس الاسود ، أسد بلا نجوم لمن كان يمنح النجوم !

لوركا : لقد صور حفيف الغابة بكلمة نعت واحدة وكان مثل (فراي لويس الفرناطي Fray Luis de Cranada) (٥) رئيس لغات ، لقد صنع اشارات نجمية بالليمون ورجل الأيل ، والرخويات المليئة بالربع والابد ؛ ووضعنا على البحر بزوارق والظلال في آبسيء عيوننا ، وشاد منزلها هائلا من جن (٦) فوق اكثر مساء رمادي امتلكته السماء ، وحيثى ندا لند ربح الجنوب الداكنة ملء رثيه ومدى صدره كأنه شاعر رومانطيكي ، ووضع يدا فوق تاج العمود «الكورنتي» (٧) في شك تهكمي حزين من العهود كلها .

نيرودا : ان اسمه لجدير بالذكر في اتجاهاته الجوهريّة؛ بالأم قلبه الرهيبة، بارتياحه المتوهج ، بهبوطه الى متاهات جهنم ، بصعوده الى قلاع الشهرة ، بنعوته ؛ نعوت شاعر كبير ، منذ ان كان والى الازل ، ولا بد من ذكره .

لوركا : لقد علم ، كونه شاعرا اسبانيا ، قدماء المعلمين وعلم الاطفال ، بشعور من العالمية والكرم لا نجدهما في الشعراء الحاليين، لقد علم (بايه - انكلان Valle Inclàn) (وخوان رامسون خيمينيث)

٥ - فراي لويس الفرناطي : كاتب وشاعر اسباني ولد في غرناطة (١٥٠٤ - ١٥٨٨) .
٦ - جن : هكذا في الاصل gin وهي كلمة لا توجد في قاموس المجمع الملكي للغة الاسبانية ، قد تكون ما قيدناه او خمر «الجن» المعروف او شيئا آخر ، وقد سألنا عنها المختصين فلم يهتدوا الى معناها في هذا النص .

٧ - الكورنتي : نسبة الى جزيرة «كورينتو» Corinto . باليونان .

٨ - بايه - انكلان Ramon del : كاتب اسباني معروف (١٨٦٦ - ١٩٣٥) .

والاخوين (ماتشادو Machado) (٩) وكان صوته ماء وملح بارود، في اخدود اللغة الموقرة . لم يكن للغة الاسبانية منذ زمن (رودريغو كارو) الى زمن الاخوين (أرخينسولا) (١٠) او السيد (خوان ارغويخو) (١١) ، اعياد كلمات ، اصطدامات حروف ، أضواء وصيغ مثلما كان لها في (روبين داريو) . لقد تنزه (داريو) من منظر (بيلاثكيت Vilazquez) (١٢) ومجمرة (غويا ١٣) وكآبة (كيبيدو) حتى لون الفلاحات «المايوركيات» (١٤) التفاحي الخفي ، في ارض اسبانيا كما في أرضه نفسها .

نيرودا : لقد اتت به الى تشيلي دوامة بحر الشمال الساخن فتركه هناك البحر ، مهجورا على الشاطيء القاسي المسنن وكان المحيط يلطمه بأزباد واجراس وكانت ريح «بالبارائيسو» السوداء تملأه بملح ذي جرس ورنين ، فلنصنع هذه الليلة تمثاله بالهواء يخترقه الدخان والصوت والظروف والحياة على منوال شاعريته المخترقة بالأحلام والالحان .

لوركا : لكنني أريد ان اضع فوق هذا التمثال الهوائي دمه مثل غصن مرجان يهزه التموج ، أعصابه على نمط مطابق لبقاة أشعة ، رأسه

-
- ٩ - الاخوان ماتشادو : هما الشاعران الاسبانيان (مانويل Manuel ١٨٧٤) - (١٩٤٧) و(انطونيو Antonio ١٨٧٥ - ١٩٣٩) ، وقد ترجمنا لهما وعنهما في كتابنا المذكور ، ونحن الآن في صدد اعداد كتاب عن (أنطونيو) بتكليف من وزارة الاعلام العراقية - قيد الطبع -
- ١٠ - الاخوان أرخينسولا : هما الكاتبان الاسبانيان (بارتولوميه ليوناردو) (١٥٦٢ - ١٦٣١) شاعر ومؤرخ ، و(لوبيرييو ليوناردو) (١٥٥٩ - ١٦١٣) شاعر وكاتب مسرحي .
- ١١ - خوان ارغويخو : شاعر اسباني (١٥٦٧ - ١٦٢٣) .
- ١٢ - بيلاثكيت : رسام اسباني شهير (١٥٩٩ - ١٦٦٠) .
- ١٣ - غويا Francisco رسام اسباني معروف (١٧٤٦ - ١٨٢٨) .
- ١٤ - المايوركيات : نسبة الى جزيرة «مايوركا» وهي جزيرة اسبانية في البحر الابيض المتوسط .

الكوكبي حيث الثلج «الفونغوري» (١٥) اللجيني النقي يلونه ويدبجه
طيران الطيور الصداحة ، عينيه الداكنتين الساهمتين الرقراقتين
بمليون دمعة ، وكذلك عيوبه . ان الرفوف قد اكلها اللفت البري ،
حيث يرن القصب فارغا من الناي ، زجاجات الكونياك فارغة من
الشمالة الماساوية ، حيث ذوقه السيء اللذيذ وفضلاته المتهتكة التي
تملأ بالانسانية جمهرة اشعاره . ان المادة الخصبه لتسعره العظيم
تظل منتصبه صامدة خارج الاشكال والصيغ والمهاميز .

نيرودا : اننا : (فيديريكو غاريا لوركا) ، اسبانياً ، وايثي ، نشيلىا ، نوجه
انظار المسؤولية في هذه الليلة الرفاقية نحو هذا الظل العظيم الذي
غنى اعلى مما غنينا وحيى بصوته العبقرى هذه الارض الارجنطينية
التي نظاها .

لوركا : اننا ؛ (بابلو نيرودا) ، تشيلىا ، وايثي ، اسبانياً ، قد توافقنا في
اللغة وفي الشاعر النيكراغوي الارجنطيني الشيلي الاسباني العظيم:
(روبين دارو) .

نيرودا ولوركا : تكريما له وتمجيذا نرفع كووسنا لنشرب نخبه .

اذكر اني ذات مرة ، تلقيت من (فيدريكو) دعما مفاجئا في مغامرة
هزلية - فلكية - فلقد دعانا الى عشاء وقضاء ليلة صاحبة مليونير مسن
هؤلاء الذين لا يمكن ان تنتج امثالهم الا الارجنطين او الولايات المتحدة .
كان هذا المليونير رجلا متمردا عصاميا استطاع ان يجمع حظا من المال من
طريق صحيفته الواسعة الانتشار ذات التأثير المهم في الاوساط جميعها ،
كانت داره الفسيحة المحاطة بحديقة واسعة تجسد احلام غني جديد يحب
التطيل والتزمير . المكتبة ليس فيها الا الكتب القديمة التي كان يشتريها
برقيا من المزادات التي كان يقيمها من حين الى حين اصحاب مكتبات
اوروبيون ، وهذه المكتبة بالاضافة الى سعتها كانت طافحة عامرة . لكن
ما هو اكثر فخفخة وفخامة كان سطح قاعة القراءة العظيمة هذه فقد كانت

١٥ - الفونغوري : نسبة الى (فونغورا) وهو شاعر اسباني (١٥٦١ - ١١٢٧) .

مفروشة كلها بجلود نمور رقطاع ، مخاط بعضها الى بعض حتى تبدو وكأنها سجادة واحدة ضخمة مديدة . عرفت ان لهذا الرجل في افريقيا وفسى آسيا وفي الامازون اشخاصا مهمتهم هي حصد جلود النمرور الاراقسط والأبائل والوعول والقطط الرائعة الخلابة التي كانت تلتصق بقع من بعضها تحت قدمي في هذه المكتبة الفاخرة .

هكذا كانت الاشياء عليها في دار الشهير بـ (ناتاليو بوتانا) رأسمالي قدير مسيطر على الرأي العام في بنوس ايريس . (فيديريكو) وأنا جلسنا حول المائدة على جانبي صاحب الدار المليونير ، وجلست مقابلنا شاعرة طويلة شقراء خفيفة الظل والدم صوبت عينيها الخضراوين خلال الاكل اليّ اكثر مما صوبتهما الي (فيديريكو) . كان هذا الاكل مؤلفا من عجل ضخم حمل بكامله الى الجمر والرماد على نعش هائل ، وكان المشيعون الذين حملوه على اكتافهم هم اربعة عشر راعيا من رعاة البقر . كانت الليلة زرقاء مليئة بالنجوم بشكل غاضب نزق ، وعطر المشوي بجلده ، اختراع رفيع للارجنطينيين ، يمتزج بنسيم السهوب ، بأشدهاء البرسيم والنعناع على وشوشة آلاف الجداجد والاشراغ .

وقفنا بعد الاكل واقتربنا ، أنا و(فيديريكو) الذي كان يتهج لكل شيء ويبتسم لكل شيء ، من الشاعرة ، ثم ابتعدنا سوية نحن الثلاثة باتجاه المسبح المضاء هناك ، (فيديريكو) كان يسير أمامنا ولم يكن يسدع الضحك والكلام فقد كان سعيدا وهذا طبعه وهذه عادته فلقد كانت السعادة جلده ، بشرته .

كان هناك برج عال يطل على المسبح ، وكان بياضه المتلألئ يلمتص تحت الانوار الليلية .

صعدنا حتى اعلى مرأى في البرج .

هناك بقينا نحن الشعراء الثلاثة ذوي الاساليب المختلفة ، منفصلين عن العالم ، بين المسبح الزرقاء تبرق من تحت ، من بعيد تسمع انغام القيثارة وأغاني الحفلة ، من فوق يكاد يمسك الليل ذو النجوم القريب الداني برؤوسنا ليفرقتنا في اعماقه .

حضنتُ الفتاةَ الشاعرة الطويلة الذهبية فعرفت حين قبّلتها أنها امرأة
مغلّمة ناضجة ومجربة . أمام دهشة (فيديريكو) انبطحنا أرضاً في ذلك
المرأى وما ان بدأت بعربتها من ملابسها قطعة قطعة حتى لمحت فوقنا عيني
(فيديريكو) مختلتين مضطربتين تنظران وهما لا تصدقان ان ما يجري ،
بجري .

— ابعدا عنا ، امش ، اذهب من هنا ، خذ بالك من أن يصعد على الدرج
احد من الناس ، صرخت به .

بينما كانت الاضحية الى السماء ذات النجوم والى (افروديت) الليلية
تستهلك ، تستنفذ ، هناك في اعلى البرج ، ركض فيديريكو فرحاً لتأدية
مهمته ؛ مهمة قواد وناطور ، لكنه هرول كثيراً وكان حظه سيئاً في هذه
المهمة ، فتدحرج عبر درج البرج المعتم فكان علينا ان نخف : انا وصدقتي،
لمساعدته ولم يكن الامر سهلاً . وظل (فيديريكو) يعرج خلال خمسة عشر
يوماً .

(ميفيل ايرنانديث Miguel Hernandez) (١٦).

لقد مكثت زمناً طويلاً في قنصلية تشيلي ببونس ايريس . ثم نقلت
في بداية عام ١٩٣٤ الى قنصلتنا في برشلونة باسبانيا . كان السيد
(توليو ماكيرا) هو رئيسي في عملي الجديد اذ انه كان قنصلاً عاماً لتشيلي
في اسبانيا . كان هذا الرجل احسن موظف ممن عرفتهم ، تأدية لواجبه،
كان صارماً حازماً مشهوراً بأنه نفور غضوب ولكنه كان يعاملني بشكل
ممتاز في طبية وتفهم وود .

لقد اكتشف السيد (توليو) بسرعة اني كنت اضرب واطرحُ نفسي

١٦ — ميفيل ايرنانديث : هو شاعر اسباني مشهور (١٩١٠ - ١٩٤٢) ترجمنا له ومنه
في كتابنا المذكور .

صعوبات كثيرة وتعثرات جمة واني ما كنت احسن التقسيم (ابدا ما استطعت ان اتعلم هذا التقسيم اللعين) ، عند ذلك قال لي :

- (بابلو) ، يجب ان تعيش في مدريد ، هناك الشعر ، هنا فسي برشلونة ثمة هذه الضربات والطرحات والتقسيمات الرهيبة التي لا تحبك وانا استطيع ان اکتفي بنفسي في هذا الامر .

حين وصلت الى مدريد وقد غدوت في ليلة وضحاها وبفن الخفة فنصلا لتشيلى في عاصمة اسبانيا ، تعرفت فيها على اصدقاء (فيدريكو غارثيا لوركا) و(رفائيل البرتي) جميعهم . كانوا كثيرين . خلال بضعة ايام واذ بي اصبح شاعرا اسبانيا آخر بين الشعراء الاسبان . طبعنا نحن الامريكان مختلفون عن الاسبان ، اختلافا يبرز دائما في افتخار او خطأ من قبل هذا الفريق او ذلك .

كان اسبانيو جبلي اكثر مودة واكثر تضامنا واكثر بهجة مما هم عليه زملائي في امريكا اللاتينية . تأكدت في الوقت نفسه اننا نحن كنا اكثر عالمية ، اكثر تمثلا ومعرفة للغات اخرى وثقافات اخرى . فلقد كان عدد الذين يعرفون اللغات الاجنبية من بينهم جد قليل وما كانوا يتكلمون الا اللغة القشتالية . حين جاء (ديسنوس) و(كريفيل) الى مدريد ، كان عليّ ان اقوم بالترجمة بينهما وبين الكتاب الاسبان .

كان احد اصدقاء (فيدريكو) و(رفائيل) هو الشاعر الشاب (ميغيل ايرنانديث) . لقد عرفته حين جاء وهو يتنمل نعلا مصنوعا من خيوط القنب ولبس سروالا فلاحيا محاكا من نسيج صفيق ، من اراضي بلده «اوريويلة» Orihuele حيث كان فيها راعي عنز . انا نشرت له في مجلتي «كابايو فيرده» Caballo Verde (١٧) اشعاره فكانت تبهرني بوميضها وبريقها وغازاتها .

كان (ميغيل) فلاحا جدا الى درجة انه كانت تشم منه رائحة التراب،

له وجه من قطعة سكر ، من كعك ، ومن بطاطا ، يستخرج في شروشه
ويتنلع مع جذوره ويظل محتفظا بنضارته ورونق ما تحت التراب .

كان يعيش ويكتب في منزلي . لقد اثر به شعري ذو الآفاق الامريكية
والأبعاد الاخرى فراح هذا الشعر يبدله ويغيره .

كان يروي لي حكايا أرضية عن حيوانات وعصافير . كان هذا الكاتب
الطالع من الطبيعة مثل حجر لم يمسّ من قبل في عذرية غابية وقسوة
حيوية جارفة . كان يحكي لي عن مدى الروعة والتأثير والدهشة حين يضع
المرء سمعه فوق بطن العنزة النائمة فيسمع جلبة الحليب الذي يصل الى
الضروع ، الحفيف السري الذي ما استطاع احد سماعه الا ذاك الشاعر ؛
شاعر العنز .

كان ، مرات اخرى ، يكلمني عن شدو العنادل . كان الشرق الاسباني ،
موطنه ، مليئا ببيارات البرتقال المزهرة وبالعنادل . بما انه في بلدي لا
يوجد هذا العصفور ، هذا المغني الرفيع فان المجنون (ميجيل) احب ان
يعطيني اكثر صورة تعبيرية تشكيلية عن حيوية هذا الطائر فتسلق شجرة
في الشارع حتى بلغ الفصن الاخير تم اخذ يصفر ويزغرد ويفرد مثل
عصافير بلده مسقط رأسه ، مثل العنادل الحبيبة اليه .

لم يكن عنده ما يعتاش به ولذلك بحثت له عن عمل . لقد كان صعبا
في تلك الاوقات ايجاد عمل لشاعر في اسبانيا . في النهاية اهتم بالموضوع
رجل «فيكونت» كان موظفا عاليا في وزارة الخارجية واجابني بأنه موافق
على تعيين (ميجيل) في منصب من المناصب وانه اعجب بأشعاره التسي
قراها مليا وان الامر الآن يتوقف على (ميجيل) اذ ان عليه ان يقول ما هو
المنصب الذي يرغب به كي يصدروا قرار التعيين توّا . طربا (١٨) قلت
للشاعر :

١٨ - طربا : في الاصل **Alborozado** ، وهي مشتقة من الكلمة العربية ، البروز
al borozo ومن معانيها بالاسبانية ما قيدناه .

– (ميغيل) ، ها ان لك مصيرا وحظا . ان «الفيكونت» سيوظفك .
ستصبح موظفا عاليا . قل لي ما هو العمل الذي ترغب ان تشغله حتى
يصدروا قرار تعيينك .

ميغيل اطرق مفكرا . تفتى وجهه ذو التجميدات الكثيرة المبكرة عن
موسمها ، بغشاء من الترويات والتأملات . مرت الساعات ولم يجبني الا
في المساء فقال لي وعيناه تومضان كمن وجد حلا لمشاكل حياته :

– الا يستطيع ال «فيكونت» هذا ان يتوسط فيجد لي قطيعا مسن
العنز ارعاه هنا قرب مدريد ؟ .

ان ذكرى (ميغيل ايرنانديث) لا يمكن ان نفلت من جذور قلبي .
شدو العنادل الشرقية (شرق اسبانيا) وأبراجها النغمية المنصوبة بين العتمة
والازهار (١٩) كانت بالنسبة له حضورا متسلطا على عقله وجزءاً من مواد
دمه ، من شعره الارضي الغابي الذي اندغمت فيه رائعات الشرق الاسباني؛
لونه ، سداه ، صوته بغزارة الفتوة الرجولية القديرة وأريجها .*

لقد كان وجهه وجه اسبانيا ، مصقولا بالنور ، متجعدا مثل ارض
مفلوحة مزروعة بشيء حاسم من قمح ومن تراب . كانت عيناه
المتوهجتان في هذا الميسم المحروق المتصلب على الريح (٢٠) ، شعاعين من
قوة ومن حنان .

لقد رأيت مواد الشعر نفسها تخرج من كلماته لكنها الآن تنبثق من
ضخامة جديدة ، من بريق غابي ، من أعجوبة الدم الثلث الذي تمثل في

١٩ – الازهار : هكذا في الاصل **Azhares** وهي في الاسبانية زهر البرتقال
المنتشر في شرق اسبانيا .

٢٠ – الريح : اشارة الى ديوان الشاعر «رياح الشمب» .

ابن (٢١) . اني لاستطيع الجزم في انني خلال حياتي كلها ؛ حياة شاعر
رحالة ، ما رأيت ولم تعطني الحياة فرصة كي ارى ظاهرة شبيهة ، من
نبوغ ومعرفة كهربائية شفهاء ، بظاهرة (ميفيل ايرنانديث) .

(كابايو فيرده) (حصان أخضر)

كنا نتقابل يوميا في منازل ومقاه على شكل مجموعة واحدة او
مجموعات صغيرة مؤلفة من (فيديريكو) و(البرتي) الذي كان يسكن في بيت
قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل من الاشجار ، ندعوه **الغيل**
الصائع ، والرسام (البرتو) وهو خباز من طليطلة كان اذالك معلما في النحت
التجريدي ، و(التولاغيرة) (٢٢) و(بيرغامين) (٢٣) والشاعر العظيم (لويس
ثيرنودا) (٢٤) و (بيثينه اليكساندره) (٢٥) شاعر ذي مدى غير محدود ،
والمهندس المعماري (لويس لاكاسا) . كنا نرحل من شارع «لا كاستيانا» او
من محلات البيرة عند «البريد» حتى نصل قرب بيتي ، الذي كنا ندعوه
بيت الزهور ، فسي حي « ارغوايس » . كنا نهبط من الطابق
الثاني لحافلة كبيرة كان يدعوها مواطني وابن بلدي العظيم (كوتابوس)
سيارة اطفاء ، مجموعات صاخبة للاكل والشرب والفناء .
اذكر من بين الشبان زملاء في الشعر والسرور (ارتورو سراتو بلاخا) (٢٦)

-
- ٢١ - ابن : اشارة الى ابن الشاعر الوحيد ، وقد اهداه ابوه فصيحة وهو في سجنه،
لرجمناها في كتابنا المذكور ص ١٤٨ - ١٥١ .
٢٢ - التولاغيره (مانويل Manuel) : شاعر اسباني (١٩٠٦ - ١٩٥٩) .
٢٣ - بيرغامين (خوسيه José) : كاتب اسباني ولد عام ١٨٦٧ .
٢٤ - لويس ثيرنودا : شاعر اسباني (١٩٠٢ - ١٩٦٢) ترجمنا له وعنه في كتابنا
المذكور .

- ٢٥ - بيثينة اليكساندره : شاعر اسباني ولد عام ١٨٩٨ في اشبيلية ، ترجمنا له
وعنه في كتابنا المذكور ونحن في صدد اعداد كتاب عنه . حاز على جائزة نوبل للأدب
لعام ٧٧ . ولدت انا جائزته عام ٧٨ .
٢٦ - ارتورو سراتو بلاخا : شاعر وناقد اسباني ولد عام ١٩٠٩ .

وهو شاعر ، و (خوسه كاباييرو) وهو رسام ، ذو حـلدق وبراعة ولطافة ، و(انطونيو اباريشيو) (٢٧) ، الذي وصل من الاندلس (٢٨) مباشرة الى بيتي ، وآخرين كثيرين لم يعودوا موجودين في المكان او لم يعودوا موجودين في الحياة بيد ان اخوتهم تنقصني الآن بشكل حي كجزء من جسدي ومادة من روحي .

يا لمريد تلك ! كنت أغدو مع (ماروخا مايـسو) الرسامة الجليقية عبر الاحياء السفلى لمريد باحثين عن محلات بيع الحصر والحلفاء ، باحثين عن ازقة صانعي البراميل ودكاكين بائعي الجبال ونبـحث ثم نبـحث عن مواد اسبانيا الصلبة كلها ، مواد تجدل قلبها ، تفتل قلبها وتشده . ان اسبانيا لصلبة وقديرة تلوّحها الشمس الشاقولية وتخرج من سهولها وسهوبها الشرر وتبني قلاع نور وسط العجاج . ان انهار اسبانيا الحقيقية الوحيدة لهم شعراؤها ، (كيبيدو) بمياهه الخضراء العميقة ذات الأزباد السوداء ، (كالديرون) (٢٩) بفدرانه التي تفنني ومقاطع حروفة التي تنشد ، الاخوان (ارخينسولا) الشفافان الفرانان ، (غونفورا) نهر جواهر وحلي .

لقد شاهدت (باية - انكلان) مرة واحدة فقط ، كان جد نحيل ، بلحيته البيضاء اللامنتهية ، بدا لي وكأنه يخرج من بين صفحاته وأوراق كتبه نفسها وقد طبع بها فجاء بلون صفحة صفراء .

لقد تعرفت على (رامون غومث دي لا سيرنا) (٣٠) في سردابه بـ «بومبو» ومن بعد رأيته في بيته . لا أستطيع ابدا ان انسى صوت (رامون) الجهوري وهو يوجه ويقود ، من مكانه في المقهى ، الحديث

٢٧ - انطونيو اباريشيو : شاعر اسباني هاجر الى امريكا عام ١٩٣٦ .

٢٨ - الاندلس : هو الاقليم الجنوبي من اسبانيا .

٢٩ - كالديرون de la Barca : كاتب اسباني معروف (١٦٠٠ - ١٦٨١) .

٣٠ - رامون غوميث دي لا سيرنا : كاتب اسباني (١٨٨٨ - ١٩٦٣) .

والضحك ، الافكار والدخان . ان (رامون غومث دي لاسيرنا) هو في رأي احد عظماء كتاب لغتنا ، وعبقريته لها من العظمة الملونة المتنوعة ما لـ (كيبيدو) و(بيكاسو) (٢١) . ان كل صفحة من صفحات (رامون غوميث دي لاسيرنا) تتمعن مثل ابن مقرض في ما هو فيزيائي وفيما هو ما ورائي، في الحقيقة وفي الطيف ، وما يعرفه وما كتبه عن اسبانيا لم يقله احد سواه . لقد كان مجمع عالم سرّي ، قد غير نحو اللغة بيديسه الذاتيتين الاصيلتين ، بعد ان ضمخ اللغة بآثار انامله التي لا احد يجرؤ بعد على محوها .

لقد رأيت السيد (انطونيو ماتشادو) عدة مرات وهو جالس في مقهاه بيدلته السوداء كبدلة كاتب عدل ، صامتا جدا ورسينا جدا ، عذبا متجهما كشجرة عتيقة في اسبانيا . كان يقول عنه الهمزة اللمزة (خوان رامون خيمينيث) ، الطفل الشيطاني القديم للشعر ؛ ان السيد (انطونيو) يفتد دائما وهو مليء بالرماد ، وانه ما كان يحمل في جيوبه الا اعقاب سجائر .

كان (خوان رامون خيمينيث) وهو شاعر ذو لمعان كبير ، هو الذي تكلف بإخباري عن الحسد (٢٢) الاسباني الخرافي مجسدا فيه . لم يكن هذا الشاعر العظيم بحاجة ان يحسد احدا من الناس او يغبطه في نعمة نظرا لان ابداعه الشعري كان بريقا كبيرا بدأ مع غموض القرن العشرين ، كان يعيش مثل ناسك مزيف ، يجرح وهو في مخبئه كل من يظن انه يفتيه بظلاله او يقلل من شأنه وشهرته .

كان الشعراء الشبان - (غارثيا لوركا) ، (البرتي) ، (خورخه غيين) (٣٣) ، (بيدرو ساليناس) (٣٤) ، مطاردين مضطهدين من قبل هذا (خوان

٣١ - بيكاسو **Picasso, Pablo** : الرسام الاسباني الغالد (١٨٨١ - ١٩٧٣) .

٣٢ - الحسد : هو من عيوب الاسبان ، وقد تكلم في ذلك كثير من كتابهم ، وبخاصة (أونا مونو) .

٣٣ - خورخه غيين : شاعر اسباني ، ولد عام ١٨٩٢ ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

٣٤ - بيدرو ساليناس : شاعر اسباني هاجر الى امريكا بعد الحرب الاهلية ومات هناك .

رامون) الشيطان الملتحي الذي كان كل يوم يرسل سهمه وسمه ضد هذا او ذلك من الشعراء . كان يكتب اسبوعيا ضدي في تعليقات ملتوية حلزونية ينشرها كل يوم احد في صحيفة (ال سول) El Sol (٢٥) . لكنني آثرت ان احيا وان ادعه يحيا ، فما رددت عليه بشيء البتة . لم احب - ولا اجيب - على التهجعات الادبية .

وصل ذات يوم الى بيتي الشاعر (مانويل التولاغيره) الذي كان يمتلك مطبعة وكان عنده ميل لان يكون طابعا فيها هو بنفسه وحكى لي انه ينوي اصدار مجلة شعرية بديعة تمثل احسن ما في اسبانيا من شعر وافضله . - ليس ثمة الا شخص واحد يمكن له ان يدير هذه المجلة - قال لي - وهذا الشخص هو انت .

انا كنت مخترعا ملحميا لمجلات سرعان ما تركتها او تركتني . فسي عام ١٩٢٥ أسست مجلة دعوتها « حصان ذو رحال » . كان ذلك الزمن هو الزمن الذي كنا نكتب فيه بلا علامات وقف ولا فواصل ولا تنقيط . في ذلك الزمن كان (هوميرتو ديث كاسانوف) يستعمل «سويتز» بعنق سلحفاة ، جراءة كبيرة بالنسبة لشاعر في تلك الفترة ، شعره كان جميلا ناصعا وسيبقى هكذا جميلا ناصعا الى الابد ، (روساميل ديل بايه) كان يرتدي ثوبا اسود وبشكل اسود من القبعنة حتى الحذاء كما كان فرضا على الشعراء اذالك ، اذكر هذين الزميلين بصفتهم مشاركين فعّالين . اعرف اني انسى آخرين . لكن عدو حصاننا ذلك هز الفترة والعصر هزا .

- اجل ، يا (مانوليتو) (٢٦) ! اني اقبل بإدارة المجلة .

كان (مانويل التولاغيره) طابعا مجيدا ، يداه كانتا تغنيان صناديق الحروف بخصائص فياضة رائعة . (مانوليتو) كان يشرف الشعر بشعره وبأيديه الملائكيتين العاملتين . لقد ترجم وطبع في جمال فريد «ادونيس» لـ (شيلي) (٢٧) ، مرثاة لـ (جون كيتس) (٣٨) ، طبع ايضا «حكاية خينيل»

٣٥ - السول : معناها ، الشمس .

٣٦ - مانوليتو Manolito : هو تصغير نجيب لمن يسمى Manolo .

٣٧ - شيلي : الشاعر الانجليزي المروف (١٧٩٢ - ١٨٩٦) .

٣٨ - جون كيتس : الشاعر الانجليزي المروف (١٧٩٥ - ١٨٢١) .

(La Fabula del Cenil) ل (بيدرو اسپينوسا Pedro Espinosa) (٢٩) كم من بريق كانت تودع مقاطع القصيدة المذهبة اللطيفة بالميناء في تلك المطبعة ذات الطراز الواحد ، الجليلة التي كانت تبرز الكلمات منصهرة من جديد في البوتقة .

أخرجت من عجلتي «حصان أخضر» خمسة أعداد متقنة في جمال لا يشك فيه ، كان يعجبني ان أرى (مانوليتو) وهو دائم الضحك مفعم الابتسامة وهو يصف الحروف ، يرتبها وهو من بعد يدفع بالقدم الآلة الصغيرة الورقية. أحيانا كان يحمل نسخ الطبعة في عربة طفله (بالوما) (٤٠). كان المارة يطرونه ويشنون عليه معتقدين ان في العربة الطفلة الصغيرة :

— يا للأب الجدير بالتقدير والاعتبار ! كيف يعبر وسط حركة المرور الشيطانية بهذه المخلوقة حانيا على ابنته حادبا !

لقد كانت المخلوقة هي الشعر الذي يمضي في رحلة على ظهر «حصانه الأخضر» . نشرت المجلة أول قصيدة جديدة لـ (ميفيل ايرنانديث) وطبعها ، قصائد (فيدريكو) و(ثرنودا) و(الكساندره) و(غيين) (الطيب : الاسباني) (٤١) . كان (خوان رامون خيمينيث) المريض باختلال عصابي لاذع ، يستمر في توجيه النبال الاحادية (كل يوم احد) .

العنوان لم يعجب (رفائيل البرتي) :

لماذا يجب ان يكون الحصان أخضر ؟ «حصان أحمر» ، يجب ان تسمى المجلة .

٢٩ - بيدرو اسپينوسا : شاعر اسباني (١٥٧٨ - ١٦٥٠) .

٤٠ - بالوما : معناها ، حمامة ، وهي الان صديقة لي وزميلة في جامعة مدريد وفي جمعية الادب المقارن التي أسست حديثا .

٤١ - (الطيب : الاسباني) : القوسان من المؤلف ، وهو هنا يميز (خورخه غيين) عن الشاعر الكوبي (نيكولاس غيين Nicolas Guillen) الذي لم تكن علاقته به حسنة .

لم اغير لون الحصان ، لكن (رفائيل) وأنا ابدأ ما تخصمنا ، لهسدا السبب ولا لاي سبب آخر ، نمة في العالم اماكن للاحصنة جميعها وئمة شعراء من الوان قوس القزح كلها .

لقد مكث العدد السادس من «حصان اخضر» في شارع «بيرياتو» دون تصفيف ولا تخييط ولا ترتيب . كان هذا العدد مخصصا لـ (خوليو ايريرا اي ريسيج Julio Herrera y Reissig) (٤٢) . وكان قد كتب هذه النصوص تكريما له وتعظيما الشعراء الاسبان ، فقتبت هناك هذه النصوص بجمالها دون ان تحبل ولا ان تلد : كانت المجلة ستظهر الى النور يوم التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، لكن في ذلك اليوم امتلا الشارع بارودا ودخانا . جنرال غير معروف يدعى (فرانثيسكو فرانكو) (٤٢) قد تمرد على الحكم الجمهوري في محميته بأفريقيا .

الجريمة حدثت في غرناطة

وأنا اكتب هذه السطور الآن ، تحتفل اسبانيا الرسمية بأعوام كثيرة – جدا – من التمرد والعصيان . يستعرض القائد وهو يرتدي الملابس الذهبية والزرقاء ، محاطا بالحرس المغربي (٤٤) وعلى جانبه سفر الولايات المتحدة وسفير انجلترا وآخرون كثيرون ، في هذه اللحظة بشوارع مدريد، القوات المسلحة ؛ قوات مسلحة مؤلفة في أغلبيتها من شبان فتيان ما عرفوا تلك الحرب ولا شهدوها .

٤٢ - خوليو ايريرا اي ريسيج : شاعر من الاورغواي (١٨٧٥ - ١٩١٠) .

٤٣ - فرانثيسكو فرانكو : كان رئيسا للدولة الاسبانية ولد عام ١٨٩٢ وتوفي

عام ١٩٧٥ .

٤٤ - العربي Moro : هي كلمة اطلقها الرومان على سكان شمال افريقيا ، وهي تطلق الآن على العرب جميعا ، ومن المعروف ان فرقة من الجنود الفاربية قد ساعدت (فرانكو) اثناء الحرب الاهلية ، ثم اخذ منهم حرسه الخاص حتى عام ١٩٥٨ حين نشب النزاع بين اسبانيا والغرب على «افني» .

اما انا فلقد عرفتها ؛ مليوناً من الضحايا الاسبان ! مليوناً من المنفيين الاسبان ! . كان يبدو لي ان هذه الشوكة الدامية لن تمحى ابداً من ضمير الانسانية . لكن هؤلاء الفنيان اللذين يسيرون الآن في العرض العسكري امام الحرس المغربي قد يجهلون حقيقة ذلك الناريخ الفظيع .

كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ . كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى (بوني ديغلان) متعبداً في السيرك الكبير «بريشه دي مدريد» . سرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الالام «الرياضية» فاقنعني ان اذهب الى السيرك وان اصطحب (غارثيا لوركا) معي لتناكد من اصالة هذا الاستعراض الجميل . اقمعت (لوركا) واتفقنا ان نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة . كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات «ساكن الكهوف المبرقع» و«المراد الحبشي» و«انسان الغاب الشرير» .

تخلف (فيدريكو) عن الموعد . كان قد راح ليلقى حتفه . لم اره من بعد هذا ابداً . مواعده كان مع مرده وسفاحين آخرين . هكذا بدأت حرب اسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

واي شاعر ! ابداً لم ار شاعرا مثله اجتمع فيه اللطافة والمبغرية ، القلب المجنح والشلال الشفاف . لقد كان (فيدريكو غارثيا لوركا) العبقرى المسرف في وحيه والهامه ، بؤرة الفرح التي تشع كالنور بسعاده الحياة . كان نابغة وفكها ، كوني وريفيا ، موسيقيا فداً ، ممثلاً رائعا ، فزعا ومعتقدا بالخرافات ، لامعا ونبيلا ، كان خلاصة اعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجا عربيا - اندلسيا ينير ويفوح مثل ابكسة ياسمين على مسرح اسبانيا، كان كل هذا ، با ويلتي لقد اختفى ذلك المسرح فاواه وآه .

لقد كان يفتنني (غارثيا لوركا) بقدرته العظيمة على الاستعارات والمجازات وكان بهمني ان اقرا كل ما كان يكتبه وهو كان يطلب مني ان اقرا له آخر ما كتبته من قصائد ، وحين اكون في منتصف القراءة بقاطعتني صارخا : «لا تستمر - لا تستمر ، اذ اني انا انثر بك» .

لقد كان (لوركا) في المسرح وفي السكون ، وسط الجماهرة وفي
الانزواء ، يضاف الجمال ويزيد الروعة . ابدا ما رايت مثله انموذجا له
هذا السحر العظيم في يديه ، قط ما كان لي اخ اكثر منه بهجة . كان
يضحك ، يغني ، يموسق ، ينغم ، يقفز ، يبدع ، يخترع ، يطلق شررا .
يا له من مسيكين ، فلقد كانت له هبات العالم كلها وكما كان صانع ذهب ،
خليفة نحل من الشعر العظيم ، كان يسرف في نبوغه ، يستنفد قريحته .

— اصغ — كان يقول لي ، وقد اخذني من ذراعي — افترى هذه
النافذة ؟ افلا تجدها «شورباتيلية» chorpatélico ؟

— وماذا تعني كلمة «شورباتيلية» ؟

— وانا كذلك لست ادري ، لكن علينا ان نميز بين ما هو «شورباتيلي»
وبين ما ليس هو «شورباتيليا» وبدون هذا يكون المرء ضائعا . انظر الى
هذا الكلب ، يا له من «شورباتيلي» !

او انه كان يحكي لي انه ذات مرة دعي الى مدرسة للاطفال الصغار
في غرناطة كانت تحتفل باحياء ذكرى «الكيخوته» (٤٥) ، وحين وصل الى
قاعة الاحتفال ، غنى الاطفال جميعهم تحت ادارة المديرية :

دائما دائما سيحتفل
من الأبد الى الأجل
بهذا الكتاب المفسر المتين
من لدن (ف. رودريغيث مارين) (٤٦) .

القيت ذات مرة محاضرة عن (غارثيا لوركا) ، وذلك بعد عدة سنوات
من موته ، فسألني أحد الحاضرين :

٤٥ — الكيخوته Quijote : هو كتاب (سيرفانتيس Cervantes) الخالد .
٤٦ — ف. رودريغيث مارين : هو كاتب وعلامة اسباني (١٨٥٥ - ١٩٤٢) . وحرف
الروي في الاصل على النحو التالي : ا.ب. ا.ب.

– لماذا تقول في قصيدة «نشيد الى (فيديريكو)» انه من اجله «تدهن المشافي باللون الازرق» (٤٧) ؟.

– انظر ، ايها الرفيق – اجبته – ، ان توجيه مثل هذه الاسئلة الى شاعر هو كمن يسأل النساء عن اعمارهن .

ليس الشعر بمادة ساكنة (استاتيكية) بل هو تيار متدفق الى حد انه احيانا يفلت من يدي خالق هذا الشعر ذاته . ان مادة الشعر الخام هي مصنوعة من عناصر هي هي وفي الوقت نفسه ليست اياها ، من اشياء موجودة وغير موجودة . على كل حال سأحاول ان اُجيبك في صراحة وصدق : ان اللون الازرق بالنسبة لي هو اكثر الالوان جمالا . ان للون الازرق انحناء الفضاء الانساني، مثل القبة السماوية، نحو الحرية والفرح . ان حضور (فيديريكو) ، سحره الشخصي ، كانا يفرضان جوا من البهجة حوله . يريد ان يقول بيت شعري هذا انه حتى المشافي ، حتى حزن المشافي ، يمكن لها ان تستحيل بتأثير من رقيته وفتنته ، بفتة ، الى ابنية جميلة زرقاء .

لقد كان لفيديريكو ادراك مسبق بموته . حين عاد ذات مرة من جولة مسرحية قام بها ، ناداني كي يقص عليّ حادثة غريبة جدا . كان قد وصل مع فناني فرقته « لابراكا » (٤٨) الى قرية نائية جدا في «قشتالة» ، فنزلوا في جوار القرية وهناك خيموا . ما استطاع (فيديريكو) ان ينام تلك الليلة وقد اضناه المسير وكان مرهقا مشغول البال بالرحلة وهموم الفرقة ومشاكل السفر . حين تفتق الفجر قليلا نهض من فراشه وخرج كي يقوم بجولة وحده عبر الحقول المترامية هناك ، كان ثمة برد لاذع كحد السكين من هذا البرد الذي تعدّه «قشتالة» للمسافسر والعابر والدخيل . كان الضباب ينطلق سحائب سحائب بيضاء تحيل كل شيء الى مداه الشبهي الرهيب .

٤٧ – هذه القصيدة تشغل الصفحات (٧٧ – ٨٢) من كتابنا ، «بايلو نيودا» ، مذكرات شعورية ، منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٤ .
٤٨ – لابراكا : معانها ، الكوخ .

ما كان ثمة الا حاجز كبير من حديد متأكسد ، تمائيل مهشمة ، أعمدة مكسرة فلاقا فلاقا بين اوراق الاشجار اليباس الهشة الموشوشة . توقف عند باب نطاق عتيق ، كان المدخل الى مزرعة فسيحة لدارة اقطاعية . كان الخلاء والخواء والوقت والبرد تجعل الوحشة اكثر تغلغلا وأشد وهرة . شعر (فيدريكو) على حين غرة انه جزع هلع فزع مشدوه بما سيطلع من ذلك الشروق ، مشدود الى شيء غامض لا بد ان يحدث ، أن يقع في ذلك القفر . هناك جلس على تاج عمود ساقط .

جاء خروف حوليّ صغير ليقضم اطراف الاعشاب بين الاطلسلال والخرائب . كان ظهوره ظهور ملاك صغير من ضباب يونس الوحشة ، يسمر عشبا عند انشقاق عمود الصبح ، كان وقوعه وقوع زهرة حنان فوق وحدة الربيع اليتيم ، ف شعر الشاعر ان هذا السامر يونسه ويصعبه .

فجأة واذ بقطع من الخنازير يجتاح الحظيرة . اقتربت اربع او خمس بهائم داكنة اللون ، خنازير شبه متوحشة ذات جوع جموح وظلاف صلدة .

(فيدريكو) حضر اذالك متهدا مفزعا مرعبا ، فلقد انقضت الخنازير على الخروف تعمل فيه انيابها فقطعته اربا اربا والتقمته والشاعر يرتعد خوفا ، يرفض منه صليده .

هذا المشهد الدموي الوحشي جعل (فيدريكو) يأمر فرقة مسرحه المتجول ان تواصل المسير توّا وان تقلع راحلة عن ذلك المكان .

كان يقص عليّ (فيدريكو) هذه الحكاية الرهيبة وهو ما يزال ينتفض رعبا ، وذلك قبل ثلاثة اشهر من الحرب الاهلية . انا أدركت من بعد في وضوح جلي او غير جلي ان هذه الحادثة ما كانت الا عرضا مسبقا لتمثيلية مصرعه ، ارهاصا لمأساته التي لا تصدّق .

ان (فيدريكو غارثيا لوركا) لم يعد رميّا بالرصاص ، بل افتيل . بديهيا ما كان يخطر على بال احد انهم سيقتلونه ذات يوم ، ما كان احد يفكر في ذلك . كان هو من بين الشعراء الاسبان الاكثر محبوبا الاكثر

معشوقا الاكثر شيها بطفل لما له من بهجة رائعة . من كان يمكن له ان يظن ان ثمة فوق هذه الارض ، وبخاصة فوق ارضه ، مرده مسوخا قادرة على اقترب جريمة غير مفسرة مثل هذه ؟ .

ان حدوث تلك الجريمة بالنسبة لي كانت اكثر حوادث ذلك الصراع الطويل اما . لقد كانت اسبانيا دائما مسرحا لمصارمين مجالدين ، ارضا ذات دماء كثيرة . ان ساحة مصارعة الثيران بقرياتها واناقتها القاسية تعيد وقد وشيت وزخرفت بفرقة تمثيل متجولة ، ذاك الصراع القديم بين النور والظل .

ان (فراي لويس دي ليون) (٤٩) تسجنه محاكم التفتيش ، (كبييدو) يموت- في زنزانته ، (كولبوس) (٥٠) يمشي والسلاسل في قدميه ، وكان المشهد الاكبر هو مستودع العظم في «الاسكوريال» (٥١) **El Escorial** كما هو عليه الآن «النصب التذكاري للشهداء» (٥٢) ، والصليب يعلو فوق مليون من الاموات (٥٣) وفوق ذكريات مظلمة لا حصر لها .

كتابي عن اسبانيا

لقد مر الزمن . بدأنا نخسر الحرب . لقد صاحب الشعراء الشعب

٤٩ - فراي لويس دي ليون : شاعر وكاتب اسباني ولد في مدينة «ليون» **León** (١٥٢٧ - ١٥٩١) .

٥٠ - كولبوس **Colon Cristobal** : مكتشف امريكا (١٤٥١ - ١٥٠٦) .

٥١ - الاسكوريال : هو دير في بلدة بهذا الاسم تقع على بعد اربعين كيلومترا من مدريد ، وفيه مكتبة مشهورة .

٥٢ - النصب التذكاري للشهداء : اقيم هذا النصب تخليدا لشهداء الحرب الاحلوية ، وهو قريب من «الاسكوريال» .

٥٣ - يقتبس (نيرودا) هذا من بيت شعر للوركا ، وقد اقتبسه كذلك الشاعر المصري (عبد الرحمن الابنودي) في قصيدة يهديها الى (الوركا) فقمنا بترجمتها الى الاسبانية ونشرناها في العدد الثاني من مجلة **Mundo Arabe** في بحث عن الادب المصري ما بين حرب حزيران ٦٧ وشرين اول ٧٣ . وفوق النصب التذكاري هذا صليب كبير كذلك .

الاسباني في نضاله . (فيدريكو) كان قد اغتيل في غرناطة ، (ميفيسل ايزونديث) تحول من راعي عنز الى مناضل فعلي، كان ينشد أشعاره وهو في الزي العسكري في الخط الاول من المعركة النارية ، (مانويل التولاغيره) استمر في مطابعه . نصب مطبعة في حماة المعركة بالجبهة الشرقية ، قرب «خيرونا» في دير فديم . هناك طبع في شكل فريد من نوعه كتابي «اسبانيا في القلب» . اظن ان كتبا قليلة في تاريخ الكتب الغريب ، كانت لها مثل ما كان لهذا الديوان من مخاض عجيب ومن مصير غريب .

لقد تعلم الجنود في الجبهة صف حروف المطبعة ، لكن كان ينقصهم الورق . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . لقد كان خليطا غريبا ما صنعه ، بين القنابل المتساقطة ، في أجيح المعركة . كانوا يقذفون بكل شيء الى الطاحونة من راية للعدو الى عباءة مدماه لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد غير المتألقة فيما بينها ومع فلة خبرة الايدي الصانعة فقد خرج الورق بديعا جدا . ان ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة لهذا الكتاب تدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ذات الصانعة السرية . رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في «واشنطن» بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض اكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما ان طبع ديواني وجلد حتى اخذت تتسارع هزيمة الجمهورية . لقد امتلات الدروب التي تؤدي الى خارج اسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين . لقد كان هذا النزوح اشد الحوادث ابلاما في تاريخ اسبانيا .

مع هذه الحشود الراحلة الى المنفى كان الجنود الذين نجوا من فرقة الجبهة الشرقية يمضون مهزومين، وكان من بينهم (مانويل التولاغيره) وكذلك الجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا «اسبانيا في القلب» . ان كتابي هذا كان مفخرة هؤلاء الرجال الذين طبعوا شعري في تحد للموت . عرفت ان كثيرين منهم آثروا شحن الاكياس بالنسخ المطبوعة على شحنها بأغديتهم وملابسهم . والاكياس على اكتافهم شرعوا بالمسيرة الطويلة باتجاه فرنسا .

لقد هوجم هذا الطابور الهائل من الهاربين الى المنفى بالقنابل التي كانت تساقطها الطائرات مئات من المرات . وهناك وراء الحدود ، فسي

فرنسا ، لاقى من نجا من هؤلاء الاسبان معاملة سيئة في المنفى . لقد قدمت النسخ الاخيرة من هذا الكتاب اُصاحي في احدى الميامر وهكذا فان هذا الديوان المتوهج ولد ومات في وطيس المعركة .

لقد بحث (ميفيل ايرنانديث) عن ملجأ في السفارة التشيلية التي كانت خلال الحرب قد آوت عددا هائلا لا يقل عن اربعة آلاف من انصار (فرانكو) لكن السفير في ذلك الوقت وهو (كارلوس مورلا لينش) رفض ان يأوي الشاعر الكبير فسي سفارته ، مع انه كان يزعم انه صديق حميم له . بعد ايام قليلة اعتقل (ميفيل) وسجن ، ثم مات بالسبل في زنزانه بعد ثلاث سنين من الاسر . اذ ان العنديل لم يطق اصفاده وما قدر على تحمل وطأة أسره .

كان عملي القنصلي قد انتهى اذ ان الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبى بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

الحرب وباريس

وصلنا الى باريس . استأجرت بمشاركة (رافائيل البرتي) وزوجته (ماريا تيريسا ليون) شقة في حي «كواي دي ل هورلوغ» وهو حي هادئ ورائع . كنت ارى قبالي «البونت نوف» وتمثال (هنري الرابع) وصيادي الاسماك الذين كانوا منتشرين على ضفتي نهر «السين» . خلف بيتنا كانت ساحة «دوفين» الكثيرة العروق تفوح برائحة كرائحة اوراق الشجر والمطاعم . . هناك كان يسكن الكاتب الفرنسي (اليجو كاربينتيير) (٥٤) ، وهو واحد من اكثر الرجال الذين عرفتهم حبا بالحياة فلم يكن يجروا على ابداء الراي حول اي شأن من الشؤون ، ولا حتى حول النازيين الذين كانوا يغيرون على باريس مثل الدئاب الجائعة .

من على شرفتي ، من جانبها الايمن ، كنت المح ، منحنيا قليلا الى خارج

٥٤ - اليجو كاربينتيير : ولد في كوبا عام ١٩٠٤ .

الشرفة ، أبراج «كونسيرجير» الكبيرة ، كانت ساعتها الكبيرة بالنسبة لي هي حد الحي الأخير .

لقد حزت لحسن الحظ على صداقة اثنين من اعظم ادباء فرنسا فكانا لي صديقين حميمين خلال سنين عديدة الا وهما (بول إيلوار) (٥٥) و(اراغون) (٥٦) . لقد كانا وما زال كلاسيكيين غربيين في الملاحظة والظرافة ذوي اصالة حيوية تضعهما الموضع الاكثر ريننا في غابة فرنسا . وهما في الوقت نفسه مساهمان حقيقيان راسخان في الاخلاق التاريخية . ثمة قليلون من الاشخاص مختلفون متباينون فيما بينهم كتباين هذين الاثنين واختلافهما . لقد تمتعت باللذة الشعرية في اضاءة الوقت كثيرا من الاحيين مع (بول ايلوار) . ان يجب الشعراء على الروائر فانهم سيطلقون السر ويبوحن به ، ليس هناك اجمل ولا اروع من اضاءة الوقت عبثا . وكل واحد له اسلوبه الخاص به لممارسة هذا الميل القديم . لم اكن احس مع (بول) لا بالليل ولا بالنهار كيف يمضيان وينقضيان وابدأ ما عرفت ان كان لما كنا نتحدث به اهمية ام ليس له من اهمية البتة . . (اراغون) هو آلة اليكترونية من الدكاء ، من المعرفة ، من العبقرية اللوذعية ، من السرعة البلاغية والفصاحة وسرعة الخاطر . من بيت (ايلوار) كنت دائما اخرج وانا ابتسم دون ان اعرف مما ابتسم ، بينما بعد قضاء بضعة ساعات مع (اراغون) كنت اخرج منهكا لأن هذا الابليس كان يجبرني على التفكير . لقد كان هذان الاثنان صديقين من خلص اصدقائي وكنت مشدودا اليهما جدا ، ولعل ما كان يعجبني فيهما اكثر من الخصال الحميدة ، هو عظمتهم المتناقضة .

نانكي كونارد Nancy Cunard

قرنا ، أنا و(نانكي كونارد) ، اصدار نشرة شعرية عنونها أنا «شعراء

٥٥ - بول ايلوار : الشاعر الفرنسي المعروف (١٨٦٥ - ١٩٥٢) .

٥٦ - اراغون Louis : تاجر المقاومة الفرنسية والروائي المعروف ولد عام ١٨٩٧ .

العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .

كان ل (نانكي) مطبعة صغيرة في دارها الريفية بالريف الفرنسي . لست اذكر الآن اسم هذه الناحية ، لكن كانت بعيدة عن باريس . حين وصلنا الى دارها كان الوقت ليلا وكان في السماء قمر منير . كان الثلج والقمر يرتجفان مثل ستارة تحيط بالمرعة . انا ، متحمسا ، خرجت للتنزه . حين اردت الرجوع كان ندف الثلج يدوم فوق رأسي في عناد واصرار ولذلك أضعت دربي ومتسيت نصف ساعة أخبط خبط عشواء في بياض الليل .

كان ل(نانكي) تجربة في الطبع والطباعة ، عندما كانت صديقة (اراغون) نشرت ترجمة قصيدة *Hunting of The Snark* وكانت قد ترجمتها هي بالاشتراك مع (اراغون) . في الحقيقة ، هذه القصيدة ل (لويس كارول)(٥٧) هي غير قابلة للترجمة واعتقد اننا لا يمكن لنا ان نجد عملا شبيها مسن فسيفساء مجنون الا في اعمال (غونفورا) .

بدات اهيء أنمطا من الحروف وأظن انه ليس هناك صصاف حروف أسوأ مني على الاطلاق . بما اني كنت أضع أنمطا حرف (p) على العكس فانها كانت تستحيل الى حرف (d) بسبب غبائي المطبعي . في بيت شعر ظهرت مرتين كلمة *Parpados* (٥٨) فأصبحت مرتين مكررتين كلمة *Dardapos* (٥٩) . لقد عاقبتني على ذلك (نانكي) فقد كانت تفاديني خلال عده سنين ، دائما على هذا النحو *dardapos* وكانت تبدأ رسائلها اليّ من لندن بعبارة *My dear dardapo* . لكن النشرة خرجت لاثقة جدا واستطعنا ان نطبع ستة او سبعة اعداد . بالاضافة الى الشعراء المتزمين مثل (غونثاليت تونيون) او (البرتي) او بعض الشعراء الفرنسيين ، فاننا نشرنا قصائد ملتبهة حماسية وعاطفية ل (و. هـ. اودين *W. H. Auden*) (٦٠) ، و(سبيندير) الخ . هؤلاء

٥٧ - لويس كارول : هو عالم بالرياضيات وكاتب قصصي انجليزي (١٨٣٢ - ١٨٩٨) .

٥٨ - معناها : جفون .

٥٩ - كلمة لا معنى لها .

٦٠ - اودين : مؤلف مسرحي وشاعر انجليزي ولد عام ١٩٠٧ .

السادة الانجليز لن يعرفوا ابدا ما عانته اصابعي الكسلى وهي تصف
حروف اشعارهم .

من حين الى حين كان يصل من انجلترا شعراء اصدقاء لـ (نانكي)
وكل واحد منهم كان يضع زهرة بيضاء في العروة وكان هؤلاء كذلك يكتبون
قصائد ضد (فرانكو) .

ابدا ما وجد في التاريخ الفكري الثقافي مادة خصبة للشعر والشعراء
كما توفرت هذه المادة في الحرب الاسبانية . ان الدم الاسباني كان بمثابة
مغناطيس جعل الشعر يهتز خلال فترة عظيمة ولمدة طويلة .

لست ادري ان كانت تلك النشرة قد لاقت نجاحا ام لم تلق لانه في
تلك الحقبة انتهت بشكل سيء الحرب الاسبانية لتبدأ بشكل سيء حرب
عالمية جديدة ، هذه الاخيرة على الرغم من ضخامتها، على الرغم من قساوتها
التي لا عد لها ولا حصر ، على الرغم من بطولاتها المسفوقة المسفوحة ، لم
تستطع ابدا ان تأسر قلب الشعر الجماعي كما أسرت الحرب الاهلية
الاسبانية .

كان عليّ أن اعود من اوروبا الى بلدي ، (نانكي) كذلك سافرت الى
تشيلي يصحبها مصارع ثيران ترك في «سانتياغو» الشيران و(نانكي كونارد)
لكي يفتح محلا لبيع النقانق والسجق والمحاشي الاخرى . لكن صديقتي
العزيزة جدا لا تقبل الهزيمة لانها من النوع الرفيع جدا فاتخذت لها في
تشيلي عشيقا : شاعرا صعلوكا ، متشردا قدر الهندام سيء المظهر ،
تشيليا من اصل «باسكوي» . لم يكن ينقصه النبوغ بل حرم من الاسنان .
اضف الى هذا وذاك ان هذا العاشق المفضل الجديد كان سكيراً عريدا ،
وكان يبغض هذه الامراة الارستوقراطية الانجليزية بصفحات ليلية معادة
مكررة مما كان يجبرها على الظهور في المجتمع بنظارة غامقة الحدقتين
كبيرة الحجم .

في الحقيقة كانت هي شخصية من الشخصيات «الكينخوتية» المزمنة
الشجاعة المثيرة للشجون وهي كانت اكثر من عرفت منهم غرابية . وهي
الوريفة الوحيدة لـ (كونارد لينه) وابنة السيدة قامت

بفضيحة اهتزت لها لندن وذلك في عام ١٩٣٠ ، فقد هربت مع رجل اسود ، كان مويستيا (صيغة تحقير) في اول عصبة «جاز» استوردها فندق Savoy حين وجدت Lady Cunard السرير خاليا من ابنتها ورسالة منها تخبرها فيها ، مفتخرة مزدهية ، بمصيرها الاسود ، توجهت هذه السيدة النبيلة الى محاميتها وقررت حرمانها من الوراثة . هكذا ، اذن من عرفتها انا ، متشردة عبر العالم كانت محرومة من ارث العظيمة البريطانية . كان يحضر مجالس السمر التي كانت تقيمها والدة (نانكي) ، (جورج مور) «٦١» ، (كان يشاع بأنه هو الوالد الحقيقي لـ (نانكي) و(السير توماس بيشام) (٦٢) والشاب (الدوس هوكسلي) (٦٣) وأمير «غاليس» الذي اصبح من بعد دوق «ويندسور» (٦٤) .

(نانكي كونارد) اعادت الصفحة صفعتين ، ففي شهر كانون الاول الذي حرمتها فيه أمها من الوراثة ، تلقت الارستوقراطية الانجليزية جميعها كهدية في عيد الميلاد كتيباً ذا غلاف احمر معنونا على النحو التالي : (Negro man and white Lady Ship) لم ار اكثر من هذا الكتيب تقريبا، يبلغ احيانا وبالة (سويفت Swift) (٦٥) .

كانت حججها في الدفاع عن السود تنزل كضربات هراوة على رأس Lady Cunard وعلى المجتمع الانجليزي . اذكر انها كانت تقول لهم ، واورد من الذاكرة لان كلماتها وعباراتها كانت اكثر بلاغة :

«اذا حضرتك ، ابنتها السيدة البيضاء ، او بالاحرى جماعتك، خطفتهم قبيلة اكثر قدرة وقوة منهم ثم ضربتهم وقيدتهم بالاصفاد ، ثم نقلتهم

-
- ٦١ - جورج مور : روائي ايرلاندي (١٨٥٢ - ١٩٣٣) .
٦٢ - السير توماس بيشام : ضابط ايقاع فرقة موسيقية ، انجليزي (١٨٧٦ - ١٩٦١) .
٦٣ - الدوس هوكسلي : كاتب انجليزي (١٨٩٤ - ١٩٦٣) .
٦٤ - دوق ويندسور : كان ملكا لانجلترا باسم (اوارد الثامن) تنازل عن العرش عام ١٩٣٦ .
٦٥ - سويفت اجو ناتان Jonathan : كاتب انجليزي (١٦٦٧ - ١٧٤٥) .

بعيدا عن انجلترا كي يباعوا في سوق الشخاسة ، معروضين كمنادج رخيصة للوفاء الانساني ، مجبرين على الاعمال الشاقة تحت لدع السياط، وبتفذية لا تكاد تسد الرمق ، فماذا سيبقى من ابناء جنسك ؟ لقد عانى السود من هذا ومن غيره من التمييز والقساوة . فقدوا بعد قرون عديدة من المعاناة والعداب افضل الرياضيين واقواهم ، وكذلك فقد خلقوا موسيقى اكثر عالمية من غيرها . افكنتم تستطيعون ايها البيض ان تخرجوا منتصرين من مثل هذا الجور الكثير ؟ اذن ، من هم اكبر قيمة ومس هم اجدر ؟ »

وهكذا في ثلاثين صفحة .

لم تستطع (نانكي) ان تعود لتقيم في انجلترا ومنذ هذه اللحظة احتضنت قضية الجنس الاسود الملاحق المضطهد . لقد ذهبت الى «اديس ابابا» خلال غزو الحبشة . من بعد وصلت الى الولايات المتحدة كي تتضامن وتدعم الفتيان السود من «سكوتسبورو» الذين اتهموا بفضائح لم يرتكبوها . لقد ادانت العدالة العنصرية في امريكا الشمالية هؤلاء الفتيان السود وطردت الشرطة الديموقراطية في الولايات المتحدة (نانكي كونارد) خارج الحدود .

في عام ١٩٦٩ ماتت صديقتي (نانكي كونارد) في باريس . في ازمة احتضارها نزلت شبه عارية في مصعد (اسانسور) الفندق ، وهناك خرت واغلقت للابد عينيها السماويتين الجميلتين .

حين ماتت كانت تزن خمسة وثلاثين كيلوغراما ، ما كانت الا هيكل عظميا ، كان جسدها قد استهلك ونفذ في معارك خاضتها ضد الظلم في العالم . ما كان ثوابها الا حياة كانت تغدو في كل يوم اكثر وحدة ووحشة والا ميتة مهجورة مخدولة .

مؤتمر في مدريد

كانت الحرب الاهلية في اسبانيا تمضي من سيء الى اسوأ ، لكن

روح المقاومة لدى الشعب الاسباني كانت قد عدت العالم قاطبة بصمودها
وثباتها . كانت تحارب في اسبانيا فرق المتطوعين الاميين . أنا رأيتهم
ياتون الى مدريد عام ١٩٣٦ موحدي الصفوف . كانوا مجموعة كبيرة من
اجناس وأعمار وأشكال واللوان مختلفة .

نحن في باريس عام ١٩٣٧ ، والامر الرئيسي كان هو الاعداد لمؤتمر
ضد الفاشية يحضره الكتاب من انحاء العالم قاطبة . مؤتمر يُعقد في
مدريد . آنذاك بدأت بمعرفة (اراغون) معرفة عميقة . اول ما فاجأني منه
كان قدرته العجيبة على العمل والتنظيم ، يملئ الرسائل جميعها ،
يصححها ، يذكرها عن ظهر قلب ، لا تفر منه صغيرة ولا كبيرة ، يقضي
ساعات متواصلة عاكفا على العمل في مكتبنا الصغير ، ثم ، كما هو معروف
عنه ، يكتب كتباً ضخمة في النثر وأما شعره فهو احسن ما كتب في اللغة
الفرنسية . لقد رأيت ينقح تجارب ترجمة كتب قام بترجمتها عن الروسية
والانجليزية، ورأيت يعيد صياغة بعض التعابير على الورق نفسه ، ورق
الملازم المطبوعة ثم يدفع بها ثانية الى المطبعة . انه ، في حقيقة الامر ،
لرجل عجيب وقد انتبهت الى عظمته منذ ذلك الحين .

كنت قد نحتت من عملي القنصلي وهذا معناه اني بقيت بلا سينتيم
واحد . فعملت بأجرة قدرها اربعمائة فرنك فرنسي قديم في جمعية
الدفاع عن الثقافة التي كان يديرها (اراغون) . كان لزوجتي (ديليا ديل
كاريل Delia del carril) في ذلك الحين ، ولسنين طويلة،
شهرة بانها غنية ، مالكة ، مخولة ، لكن ما هو اكيد انها كانت اكثر فقرا
مني . كنا نعيش في فندق صغير مشبوه حيث كان الطابق الاول منه
مخصصا للأزواج العابرين المرضيين ، يدخلون مشى ويخرجون مشى بعد
ساعة من الزمن . لقد كنا لا نأكل الا القليل الزهيد وان اكلنا فاكل سيء
وذلك خلال بضعة اشهر . لكن مؤتمر الكتاب المعادين للفاشيستية كان
واقعا وحقيقة . كانت تصل من الجهات جميعها جوابات قيّمة جريئة .
وصل جواب ايجابي من (ييتس Yeats) (٦٦) ، شاعر وطني من

٦٦ - ييتس (ويليم بطلر Williams Butler) : شاعر ايرلاندي (١٨٦٥-١٩٣٩).

ايرلاندا . جواب آخر من (سيلما لاغيرلوف Selma Lagerlof) (١٧) ،
كاتبة سويدية كبيرة . لقد كان هذان الكاتبان كبيرين فسي السن فما كانا
يستطيعان السفر الى مدينة محاصرة مقنبله كما كانت عليه مدريد اذالك ،
لكنهما كانا متضامنين في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

لقد اعتبرت نفسي دواما شخصية ذات اهمية ضئيلة ، وبخاصة فيما
يتعلق بالقضايا العملية والمهام العالية ، لذلك فقد بقيت مشدوها ، بفسم
مفتوح ، حين وصلني امر مصرفي جاء من الحكومة الاسبانية بمبلغ كبير من
المال لتغطية مصاريف المؤتمر ، بما فيها ثمن تذاكر سفر المؤتمريين
والمندوبين القادمين من اقطار اخرى ، وفعلا فقد بدأ الكتاب يقدون
بالعشرات الى باريس .

لقد حرت ، ماذا أستطيع أن أعمل بهذا المبلغ من المال ؟ آثرت ان أحوله
الى المنظمة التي كانت تعد لهذا المؤتمر .

— حتى اني ما رأيت هذا المبلغ من المال ، ولو قبضته لما كنت قادرا على
التصرف به — قلت ذلك لـ (رفائيل البرتي) الذي كان يمر بباريس فسي
تلك الايام .

— انت غيبي جدا — اجابني (رافائيل) — تخسر منصبك القنصلي في
سبيل اسبانيا ، وتمشي بأحدية مفتقة ولا تخصص لنفسك من هذا المبلغ
بضعة آلاف من الفرنكات لمصاريفك الضرورية لقاء عمك .

نظرت الى حدائي فرأيت انه فعلا كان مفتوقا ، فأهداني (البرتسي)
زوجا من الاحدية الجديدة .

خلال بضع ساعات سنتطلق باتجاه مدريد مع بقية المندوبين جميعهم .
وجدنا انفسنا، انا وزوجتي (ديليا) و(امبارو غونثاليث تونيون) .

Amparo Conzalez tunon اننا مثقلون برسائل الكتاب التي كانت تصلنا من اطراف العمورة بأسرها ، كانت تأشيرات الخروج من لدن السلطات الفرنسية تسبب لنا مشاكل كثيرة . عمليا سيطرنا على مكتب الشرطة المسؤول عن اعطاء التأشيرات في باريس حيث كانت تمتد هناك هذه اللوازم الضرورية التي كانت تسمى بشكل تهكمي Recipisson احيانا كنا نحن بأنفسنا نطبع على جوازات السفر بهذه الاله الفرنسيه الرفيعة المدعوة Tampon .

بين نارويجيين وايطاليين وارجنتينيين ، وصل من المكسيك الشاعر (اوكتاييو باث) (٦٨) بعد ان قام بألف مفامرة سفرية هنا وهناك . لقد كنت أشعر بالافتخار لانني احضرته للمشاركة في المؤتمر . كان قد نشر ديوانا واحدا ، كنت قد استلمته قبل شهرين من مجيئه ، فبدأ لي انه يحتوي على نواة حقيقية من الشعر . لم يكن يعرفه في ذلك الوقت احد غيري .

جاء ليراني صديقي القديم (ثيسار بايخو) بوجه مكفهر ، كان غاضبا لان زوجته ما أعطيت بطاقة سفر وكانت هذه الزوجة ثقيلة لا يتحملها احد . حصلت بسرعة على بطاقة سفر لها فأخذ البطاقة (بايخو) وخرج صاحب الوجه كما جاء . كان يجري له شيء تأخرت بضعة شهور فسي اكتشافه .

«أم الخروف» (٦٩) كانت ما يلي : كان قد وصل الى باريس لحضور المؤتمر ابن بلدي ومواطني (بيثينته هويدوبرو) (٧٠) . كنا ، أنا و(هويدوبرو) متعادين متخاصمين لا يحيي احدنا الآخر فيما كان هو صديقا حميما لـ (بايخو) واستغل هذه الايام في باريس كي يملأ رأس صاحبني الساذج بمفتريات عني . ثم توضح كل شيء بعد حديث صاحب أليم جرى بيني وبين (بايخو) .

-
- ٦٨ - اوكتاييو باث : شاعر مكسيكي ولد عام ١٩١٤ .
 - ٦٩ - أم الخروف : صبر اسباني بمعنى مفتاح السر .
 - ٧٠ - بيثينته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣ - ١٩٤٨) .

لم يكن قد خرج من قبل قطار مكتظ بالكتاب من محطات باريس كما كان عليه ذلك القطار الذي أقلنا الى مدريد. عبر ممرات القطار كنا نتعارف او نحلّ التعارف وننتهي الى خصام . ذهب بعضهم الى النوم ، آخرون كانوا يدخنون تباعا بشكل لا ينتهي . لقد كانت اسبانيا بالنسبة للكثيرين منهم لغزا وكانت وحي تلك الفترة من التاريخ .

لقد تنحى (بايخو) و(هويدوبرو) ناحية من القطار . توقف (اندرية مالرو) (٧١) لحظة للحديث معي في تشنجات وجهه ومشمعه على كتفه . كان هذه المرة يسافر وحده اذ انني قبل كنت اراه دائما مع الطيار (كورتون - موغليينير) الذي كان المنفذ الرئيسي لغامراته عبر سماوات اسبانيا : مدن ضائعة يكتشفها ويفر عليها بطائراته او يزود الجمهورية بالطائرات .

أذكر ان القطار توقف لزمان طويل في الحدود . يبدو ان (هويدوبرو) اضاع حقيبته . بما ان الناس جميعهم كانوا مشغولين او منشغلين بسبب تأخر القطار فما كان احد منهم ليهتم به وبحقيبته . فجاء هذا الشاعر التشيلي بأسوأ اللحظات يبحث عن حقيبته وتوجه نحو رئيس الحملة (مالرو) الذي كان عصيبا بطبعه وكان قد وصل الى الحد الاقصى من الارهاق بسبب كومة المشاكل الملقاة على عاتقه ، ربما لم يكن يعرف (هويدوبرو) من قبل لا اسما ولا شكلا ، وحين اقترب منه وهو على الرصيف لاختباره بفقدان حقيبته ، فقد (مالرو) مسا تبقى له من الصبر وضاق ذرعا به فصاح - هذا ما سمعته - . «حتم تزعج حضرتك الناس كلهم ؟ اذهب» je vous emmerde (٧٢) .

شاهدت صدفة هذا الحادث الذي اذلّ غرور الشاعر التشيلي وزهوه . كنت أفضل لو انني كنت على بعد ألف كيلومتر من هناك في تلك اللحظة ، لكن الحياة غريبة الأطوار تأتي بالمفارقات والصدف العجيبة . لقد كنت انا

٧١ - اندرية مالرو : شاعر وسياسي فرنسي ولد عام ١٩٠١ .

٧٢ - الكلام بالفرنسية : معناه «كل خرا» .

الشخص الوحيد الذي كان يكرهه ويمقته (هويدوبرو) ممن كانوا يسافرون في القطار وكان من نصيبي انا ، وثالثة الانثافي انني تشيلي مثله ، ان اكون الشاهد الوحيد على الاهانة التي لحقته في تلك الحادثة .

حين تابع القطار السفر وقد حل الليل وبدانا نتدحرج على ارض اسبانيا ، فكرت في (هويدوبرو) ، في حقيته ، وباللحظة الحرجة التي عانى منها ، عند ذلك التفت الى بعض الكتاب الشبان من جمهوريات منتصف امريكا الذين وفدوا الى غرفتي في القطار وقلت لهم :

- رجاء ، اذهبوا لتروا كذلك (هويدوبرو) فقد يكون وحيدا حزينا خائبا . ذهبوا ليعودوا بعد عشرين دقيقة وهم فكهون يستهزئون منه اذ انه قال لهم : «لا تكلموني عن الحقيبة الضائعة ، فليس لهذا أهمية ، بل ما هو خطير جدا انه بينما جامعات «تشيكاغو» و«برلين» و«كوبنهاغن» و«براغ» تمنحني القابا تشريفية، اجد ان جامعات بلادكم الصغيرة القليلة الاهمية هي الوحيدة التي تصرّ على تجاهلي وحتى انها لم تدعني لالقاء محاضرات حول مذهب الخلق الابداعي» .

اخيرا وصلنا الى مدريد ، فيما كان المؤتمرون الزوار يتلقون الترحاب ويوزعون على الفنادق ، اردت ان ارى من جديد داري التي كنت قد تركتها مغلقة منذ حوالي عام ، كتبي واشيائي ، فقد تركت فيها كل حاجاتي . وكانت هذه الدار عبارة عن شقة في بناية مسماة «دار الزهور» عند مدخل المدينة الجامعية . كانت الفرق المتقدمة من قوات (فرانكو) تتاخم هذه المنطقة وكانت تتقدم احيانا فتستولي عليها الى درجة ان المنازل الكائنة هناك غيرت عدة مرات اصحابها ما بين الجمهوريين والفرانكويين .

توصل (ميغيل ايرنانديث) وكان يرتدي زي المحاربين المتطوعين (ميليشيا) وينكب بندقيته ، الى الحصول على عربة لشحن كتبي وما كان يهمني اخذه من اثاث بيتي .

صعدنا الى الطابق الخامس وفتحنا في شغف باب الشقة . كانت طلقات الرشاشات قد كسرت النوافذ وخرقت أجزاء من الحيطان ، والكتب

كانت قد انهارت من على الرفوف ، وكان من المستحيل ان نرشد بين الانتقاض الى ما كنا نريد حمله . على كل حال بحثت عن بعض الاغراض في تخبط . والغريب في الامر ان الاثواب والملابس والحاجات التافهة او غير المفيدة كانت قد اختفت ، فقد اختطفها الجنود الغزاة او المدافعون . فيما كانت الحلل والقدور وآلة الخياطة والصحون والاواني غارقة هناك في الفوضى ولكنها ناجية بنفسها سليمة ، لم يبق اثر لبدلتي القنصلية الرسمية ولا اقنعتي «البولونيزية» ولا سكاكيني الشرقية .

— ان الحرب لهي كثيرة الاهواء غريبة الاطوار كالاخلام ، يا (ميفيل) .

وجد (ميفيل) هناك بين الاوراق المبعثرة على الارض بعض النسخ الاصلية من مؤلفاتي . ان تلك الفوضى كانت بابا نهائيا يفلق في حياتي . قلت لـ (ميفيل) :

- لا أريد ان آخذ شيئاً .
- لا شيء ؟ ، ولو كان كتاباً ؟
- ولو كان كتاباً — أحبته .
- وعدنا بالعربة فارغة .

(الافئدة والحرب)

... منزلي أمسى بين حجري الرحي ... من هناك يتقدم المغاربة والايطاليون ... من هنا يتقدم او يتقهقر او يصمد المدافعون عن مدريد ... المدفعية بقنابلها اخترقت الجدران ... النوافذ تهشمت دقاقا فتاتا ... عثرت على بقايا الرصاص بين كتبي الطريحة الارض ... لكن اقنعتي ، اين اقنعتي ؟ ، لقد ولت ... اقنعتي التي التقطها في «سيام» في «بالي» في «سوماطرا» ، في ارخبيل «الملايو» ، في «باندونغ» ... مذهبة ، رمادية اللون ، بلون الطماطم ، بحواجب فضية ، زرقاء ، جهنمية ، متجهمة ، مقطبة . اقنعتي كانت الذكرى الوحيدة لذلك الشرق الاول الذي وصلت اليه متوحدا فاستقبلني بمسكه : اريج الشاي ، رائحة الروث ، شميم الافيون ، فوح العرق ، شلى الياسمين ، عبير النعناع ، عطر

الفاكهة العفنة في الشارع ان تلك الاقنعة لهي ذكرى الرفصات النقية جدا ، ذكرى التجليات امام المعابد انها لقطرات خشبية ملونة بالاساطير ، لبغايا معتقدات مزدهرة ترسم في الهواء احلاما ، عادات ، شياطين ، غرائب لم تعرفها من قبل طبيعتي الامريكية واذن . . . ربما ان المحاربين وضعوها على وجوههم وأطلقوا من نوافذ منزلي كي يرعبوا بها المغاربة (٧٣) ، بين طفلة وطفلة . . . كثير منها غدا مزقا اربا مدماة ، هناك عند النوافذ . . . بعضها تدحرج من طابقي السابع (٧٤) وقد اقتلعته طلقة من الطلقات . . . هناك قبالتها تمركزت قوات (فرانكو) المتقدمة . . . نجاهها كانت ترعق شرذمة المرتزقة الاميين . . . من بيتي ثلاثون قناع لآلهة من آسيا شرعت بالرقصة الاخيرة ، رقصة المنية . . . كانت لحظّة هدنة . . . كانت المواقع قد تبدلت . . . جلست أنظر الى النفايات ، الى لطخات الدم في الحصيرة . . . ثم سرحت بنظري من خلال النوافذ الجديدة ، اي من خلال الفجوات التي احدثها الرشاش ، نحو البعد ، نحو المدى ، الى ما وراء المدينة الجامعية ، نحو السهول ، نحو القلاع القديمة بدت لي فارغة ، اسبانيا بدا لي ان اواخر ضيوفي قد رحلوا الى الابد بأقنعة او بلا أقنعة ، بين الطلقات والاناسيد الحماسية ، بين الفرع المجنون ، بين الدفاع غير المصدق . . . بين المنية او الحياة ، ذلك كان قد انتهى بالنسبة لي لقد كان السكون الكبير غيب الولىمة . . . بعد الحفلة الاخيرة . . . بتشكل من الاشكال ، مع الاقنعة التي رحلت ، مع الاقنعة التي سقطت ، مع الجنود الذين ما دعوتهم ابدا الى بيتي ، رحلت عني كذلك اسبانيا

٧٣ - كان على شاعر عظيم مثل (نيرودا) ان يميز بين فرقة من المرتزقة وبين شعب بكامله ، وكان عليه الا يتماهى في هذه الكراهية تجاه المغاربة .

٧٤ - كان من قبل قد ذكر انه الخامس ولعله هنا يقول السابع على سبيل المبالغة والمجاز .

الفصل السادس

خروجت ابحت عن شهداء

اخترت طريقا

مع اني استلمت هوية الانتساب في وقت متأخر بتشيلي ، حين انخرطت رسميا في الحزب ، فاني اعتقد اني حددت نفسي أمام نفسي شيوعيا خلال الحرب الاهلية في اسبانيا . أن اشياء كثيرة ساهمت في قناعتني العميقة .

كان زميلي المتناقض ، الشاعر «النيتشي» (١) ليون فيليب Léon Filipe (٢) رجلا رائعا حقا . أحسن ما فيه من جاذبية كان حسه

١ - النيتشي : نسبة الى (نيتشه) الفيلسوف الالمانى المشهور .
٢ - ليون فيليب : شاعر اسباني مات في المكسيك (١٨٨٤ - ١٩٦٨) ترجمنا له
ومنه في كتابنا المذكور .

الفوضوي (٢) بالعصيان وبالتمرد التهكمي . ففي أوج الحرب الاهلية تبنى بسهولة المذهب الفوضوي ذا الجاذبية الذي كان يتمثل في «اتحاد الفوضويين الايبيريين» (٤) . كان يخفّ دوما الى الجبهات الفوضوية حيث يعرض أفكاره وينشد قصائده المعادية للدين . كانت هذه القصائد تعكس عقيدة تدعو الى الغاء السلطة بشكل غامض ، وتعادي الكنيسة ورجالها بتحريض وكفر وإلحاد . كلماته كانت تأسر المجموعات الفوضوية التي كان يتضاعف عدد أفرادها بشكل هائل يوما بعد يوم في مدريد بينما سكان المدينة كانوا ينطلقون الى جبهة المعركة التي كانت تقترب اكثر فأكثر منها . كان الفوضويون قد دهنوا الحافلات والسيارات نصفها أحمر والنصف الآخر أصفر . كانوا يبهرجون بلبد شعرهم ولحاهم ، وأطواقهم وأساورهم من الرصاصات ، مهرجان اسبانيا المحتضر . لقد رأيت العديد منهم وهم ينتعلون أحذية رمزية نصفها من جلد أحمر والنصف الآخر من جلد أسود، ولا بد ان صنعها قد كلف الاسكافية جهدا جهيدا . ولا يظن احد انهم كانوا عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة غير قادرة على الدفاع اذ ان كل واحد منهم كان يحمل سكاكينا ، مسدسات ضخمة ، بنادق سريعة الطلقات وبنادق خفيفة النخ . كانوا يتربعون عند مداخل أبواب الابنية الرئيسية ، فرقا فرقا ، بعضهم كان يدخن ، الآخر يبصق ، وهم يستعرضون بنادقهم ويهددون بأسلحتهم . كان همهم الرئيسي هو قبض ايرادات من المستأجرين الفزعين او بالاحرى جعل هؤلاء الناس يتركسون لهم بمحض ارادتهم حلبيهم ، خواتمهم وساعاتهم .

كان (ليون فيليب) يعود من احدى محاضراته الفوضوية وقد حل الليل حين التقينا في مقهى يقع بزواية العمارة التي كنت اسكن فيها . كان الشاعر يرتدي بردي برده اسبانية تليق به في لحيته الناصرية (٥) . حين خرجنا

٢ - الفوضوي : نسبة الى المذهب الفوضوي وليس الى الفوضى .

٤ - اتحاد الفوضويين الايبيريين *Federacion Anarquista Ibérica* ويعرف

بعروله الاولى

٥ - الناصرية^١: نسبة الى مدينة الناصرة بفلسطين اي انها تشبه لحية المسيح

الناصرى .

من المقهى لمس بأحد هدّاب برده الرومانطيقية الانيقّة احد رفاقه الحساسين . لا اعرف فيما اذا كانت الوجاهة ومظهر النبيل العريق الذي كان يبدو على (ليون فيليبه) هما ما أزعج ذلك «البطل» من الطليعة المناضلة، لكن ما هو اكيد اننا اعتقلنا على بعد بضعة خطوات من مكان ذلك الحادث، من لدن مجموعة من الفوضويين يتراسهم ذلك الذي اهين عند مدخل المقهى . ارادوا التحقق من اوراقنا وبعد ان القوا عليها نظرة قادوا الشاعر «الليوني» (٦) وهو محاط من جانبيه برجلين مسلحين .

بينما كانوا يأخذونه الى ساحة الرمي القريبة من داري والتي كانت فرقتها الليلية لا تدعني انام وذلك في مناسبات عديدة ، رأيت اثنين من المليشيا المسلحة وهما يعودان من الجبهة ، شرحت لهما الامر وعرفتتهما من هو (ليون فيليبه) وانباتهما بالخطر الذي ينتظره ، فاستطعت بفضلهما أن اعتق صديقي .

ان هذا الجو من البلبلة العقائدية ومن التهديم الرخيص، جعلني افكر كثيرا . لقد عرفت مآثر رجل فوضوي نمساوي عجوز حسير البصر وبلبلة طويلة شقراء تخصص في القيام بـ «تنزّهات» وكوّن فرقة اسمها «شروق» لانها كانت تفعل ما تفعل عند شروق الشمس .

— الم تشعر حضرتك مرة بألم في الرأس ؟ كان يسأل الضحية .

— بلى ، طبعا ، بعض المرات .

— اذن سأعطيك مسكنا للالام — كان يقول لهذه الضحية ذلك الفوضوي النمساوي ، فيصوب المسدس الى جيبين الضحية ويطلق النار .

فيما كانت هذه العصابات تتكاثر في ليل مدريد الاعشى ، كسان الشيوعيون هم القوة الوحيدة المنظمة التي خلقت جيشا لمجابهة الالمان

٦ — الليوني : نسبة الى مدينة الشاعر Léon وهي مدينة بشمال اسبانيا ، ومعنى الاسم : اسد .

والإيطاليين والمغاربة ورجال الكتائب (٧) «الفلانج» (Falangistas) وكانوا في الوقت نفسه القوة المعنوية التي تنمي المقاومة والنضال ضد الفاشية .

ببساطة : كان عليّ ان اختار طريقا . وهذا ما فعلته انا في تلكم الايام ولم اندم ابدا على قرار اتخذته بين دياجير تلك الفترة المأساوية واملها .

(رفائيل البرتي)

ان الشعر لهو دوما فعل سلم . ان الشاعر يولد من السلام كما يولد الخبز من الدقيق .

ان المنسولين ، والحرييين ، والدئاب ، يبحثون عن الشاعر ، لحرقة ، لقتله ، لعضه . عرييد يجيد الضرب بالسيف ترك (بوشكين) (٨) جريحا جرح موت بين اشجار غابة مظلمة . أحصنة عدت محمولة فوق جثة (بيتوفي) (٩) ، مصارعا ضد الحرب مات (بايسرون) (١٠) في اليونان ، الفاشيون الاسبان بدأوا الحرب في اسبانيا باغتيال أحسن شعرائها .

ان (رفائيل البرتي) يمكن ان ندعوه **الناحي من الموت** . الف مئة كانت قد أعدت له ، واحدة في غرناطة كذلك ، مئة اخرى كانت تنتظره في «باداخوث» (١١) ، كانوا يبحثون عنه في «اشبيلية» المفعمة بالشمس او

-
- ٧ - الكتائب Falange : هو حزب اسمه (خوسه انطونيو بريمو دي ريبيرا) .
(١٩٠٣ - ١٩٣٦) .
- ٨ - بوشكين Aleksandr : الشاعر والروائي الروسي الشهير جدا (١٧٩٩ - ١٨٣٧) .
- ٩ - بيتوفي Sandor : شاعر من هونغاريا (١٨٢٢ - ١٨٤٩) .
- ١٠ - بايرون : شاعر انجليزي معروف (١٧٨٨ - ١٨٢٤) .
- ١١ - باداخوث : هي مدينة تقع في جنوب غرب مدريد ، كان العرب يدمونها، بطليوس .

في وطنه الصغير «كاديث» (١٢) او في «بورتو دي سانتا ماريبا» (١٣) ، يبحثون عنه في كل مكان لطمعنه بالخناجر ، كي يقتلوا فيه الشعر ، مرة أخرى .

لكن الشعر لم يمت ، ان للشعر لارواح القطة السبع . قد يزعمونه ، قد يجرجرونه ، قد ينفونه ، قد يحبسونه ، قد يفرغون فيه اربع طلقات ، لكن الشعر يخرج من هذه الحوادث المرضية بوجه نقي وبابتسامة من أرز .

لقد عرفت (البرتي) في شوارع مدريد بقميص ازرق وربطة عنق ملونة ، عرفته مناضلا في صفوف الشعب حين لم يكن هناك شعراء كثر يؤدون هذه المهمة الصعبة ويقومون بهذا المصير الخطير . لم تكن قد قرعت الاجراس (١٤) في اسبانيا ولم يكن قد دق ناقوس الخطر بعد ، لكنه كان يعرف ما يمكن ان يأتي به الغد . انه لرجل من الجنوب ، ولد ازاء البحر المدوي ، قرب خوابي التبيد الاصفر (١٥) كالزبرجد . لقد جبل قلبه من نار الاعتاب من هدير الموج . لقد كان شاعرا منذ قلامه اظفاره مع انه ما كان يدري بهذه الموهبة المختزنة آنذاك (١٦) ، ثم عرف هو ، ثم عرفته اسبانيا ، ثم عرفه العالم كل العالم شاعرا كبيرا .

ان (رفائيل البرتي) يعني بالنسبة لنا نحن الذين كان لنا الحظ فسي التكلم بالاسبانية وفي معرفة هذه اللغة القشتالية ، بريق الشعر في هذه

١٢ - كاديث : هي مدينة اسسها الفينيقيون على الساحل الجنوبي من اسبانيا وكان العرب يسمونها قادش .

١٣ - بورتو دي سانتا ماريبا: هي قرية على الساحل قرب «قادش» حيثولد (البرتي) .

١٤ - اشارة الى رواية (همنغواي) المشهورة ، لمن تفرغ الاجراس ؟

١٥ - تشتهر «قادش» وضواحيها بهذا النوع من التبيد المسمى «اخريث» باسم البلدة

التي كان العرب يدعونها . شريش ، ولهذا فان هذا التبيد يعرف عالميا ،

وبخاصة في انجلترا باسم «شريش» . (Cherry)

١٦ - اشارة الى ان (البرتي) بدأ رساما الى ان شرع في كتابة الشعر فربيع

الجائزة القومية للاداب عام ١٩٢٥ عن ديوانه «بحار في البر» ،

اللغة . ليس هو بشاعر فطري مطبوع فحسب ، بل هو كذلك عالم بالصيغ الشعرية . ان لشعره ، كما الوردة الحمراء المزدهرة في الشتاء بأعجوبة ، ندفة تلج من (غونفورا) جلدرا من (خورخه مانريكه) (١٧) ، تويجا من (غارثيلاسو) (١٨) ، شذى متشحا بالحداد من (غوستافو أدولفو بيكر) (١٩) اي انه في كأسه الشفافة ، تنصهر اغاني اسبانيا الجوهريّة .

لقد أضاءت هذه الوردة الحمراء في اسبانيا درب من حاولوا منسح الفاشية والوقوف في وجهها . ان العالم كله ليعرف هذا التاريخ البطولي المأساوي . لم يكن (البرتي) يكتب القصائد الملحمية فحسب ، بل كان ينشدها في الشكنات وفي الجبهات ، وهو الذي ابتدع حرب العصابات الشعرية ، اخترع الحرب الشعرية ضد الحرب ، خلق الاغاني التي راشت ورفرت تحت قصف المدافع ، ثم راحت من بعد تحلق في كل سماء وفوق كل ارض .

ان هذا الشاعر ذا النسب العريق النقي الاصيل علم العالم كيف يكون الشعر نفعا عاما وخدمة اجتماعية في لحظة حاسمة حرجة من تاريخ العالم . وهو في هذا يشبه (ماياكوفيسكي Maiakovski) . ان هذا الانتفاع الشعبي بالشعر يعتمد على القوة ، على الحنان ، على الفرح ، على الجوهر الحقيقي . ان الشعر من غير هذه المزية يرن ولكنه لا يغنّي .

نازيون في تشيلي

لقد عدت مرة اخرى في الدرجة الثالثة بالباخرة الى تشيلي . مع انه ليس لنا في أمريكا اللاتينية ظاهرة أن يفدو كتاب بارزون مثل (ثيلينه)

١٧ - خورخه مانريكه : شاعر اسباني (١٤٤٠ - ١٤٩٧) .

١٨ - غارثيلاسو : شاعر اسباني (١٥٠١ - ١٥٣٦) .

١٩ - غوستافو ادولفو بيكر : شاعر اسباني رومانطيكي (١٨٣٦ - ١٨٧٠) .

Céline (٢٠) ، (دريو لا روشيل) ، (عزرا باوند) خائنين ، في خدمة الفاشية ، فقد كان لدينا تيار قوي منتعش بشكل طبيعي او اصطناعي بالتيار الهتلري . ففي الجهات جميعها كانت تتألف مجموعات صغيرة تقف لترفع الدراع بالتحية الفاشية ، متنكرة بأنها حرس وطنسي . ولم يكن الامر مقتصرا على هذه المجموعات الصغيرة فحسب ، بل ان الطبقة الحاكمة الاقطاعية في هذه القارة كانت تتعاطف (وما زالت) مع كل من يعمل ضد الشيوعية ، سواء اكان المانياً او من اليسار المتطرف في صفوف (كريويا) ، اضع الى هذا ، ان مجموعات كبيرة من سلالات المانية الاصل كانت تستوطن مناطق معينة في تشيلي والبرازيل والمكسيك وتشكل فيها الاكثرية من السكان . ولقد اسرت هذه الفئات جميعها وحلبت بطلوع هتلر) النيركي وحكايا العظمة الالمانية الخرافية الالفية وعودتها الى الدنيا.

في تلك الايام من المجد المدوتي والنصر الصاخب للهتلرية ، كان عليّ أن اعبر اكثر من مرة شارعاً في قرية او مدينة بجنوب تشيلي تحت غابات حقيقية من رايات ذات صلبان معقوفة . في احدى المناسبات ، باحدى القرى الصغيرة الجنوبية ، رايتني مضطراً لاستعمال الهاتف الوحيد في ذلك المكان فكان عليّ أن احنى رأسي على غير ارادتي اجلالاً للفوهرر ، اذ ان صاحب ذلك المحل الالمانى كان قد «تعبر» فوضع آلة الهاتف في هيئة تجبر المرء على أن يبقى في حالة استعداد وذراعه مرفوعة نحو الاعلى باتجاه صورة لهتلر كانت هناك معلقة .

لقد كنت مديراً لمجلة «اورورا دي تشيلي» (٢١) : المدفعية الادبية قاطبة (لم يكن لدينا من مدفعية غير هذه المدفعية) اخذت تشن طلقاتها ضد النازيين الذين كانوا يستولون على البلدان بلدا اثر بلد فيبتلعون ما كانوا يكتسحون . في تلك الاوقات اهدى السفير الهتلري بتشيلي كتباً مما يدعى بالثقافة الالمانية الحديثة ، الى المكتبة الوطنية ، فأجبنا على هذا بتوجيه

٢٠ - ثيلينه Louis Ferdinand : طبيب وكاتب فرنسي (١٨٩٤ - ١٩٦١) .

٢١ - اورورا دي تشيلي : معناها ، فجر تشيلي .

نداء الى قرائنا نطلب منهم ان يرسلوا لنا الكتب الحقيقية الالمانية لالمانيا الحقيقية التي كان (هتلر) قد منع تداولها بين الناس ، فكان هذا تجربة عظيمة ، اذ اننا استلمنا اسفاطا كثيرة محزومة ومرتبطة بشكل صحيح جيّد لم تكن تحتوي الا على نجاسات وأقذار . تلقيت انا تهديدات بأني لا يسد مقتول ، استلمنا كذلك مجموعات كاملة من صحيفة «ستورنير» وكانت صحيفة مختصة بوصف المهارة والبغاء ، سادية وضد السامية ، كان يرأس تحريرها (جوليوس ستريشار) (٢٢) الذي اُعدم من بعد فسي «نوريمبورغ» فلاقى قصاصه المستحق . لكن ، شيئا فشيئا ، وعلى حذر، بدأت تصلنا منشورات باللغة الالمانية منها كتب (هينريش هاينسه) (٢٣) و(توماس مان) (٢٤) و(أنا سيفيرس) و(أرنولد زوينغ) (٢٤) . حين حزنا على خمسمائة مجلد من الكتب توجهنا الى المكتبة الوطنية لنودعها هناك .

يا للمفاجأة ! كانت الابواب قد اغلقت في وجهنا بأقفال متينة .

اذكّ نظمنا مسيرة وتسللنا الى مدرج الجامعة هناك ونحن نحمل صور الاب (نيوميير) (٢٥) و (كارل فون اوسيتيسكي) (٢٧) ، ولست ادري باية مناسبة كان يجري احتفال برعاية السيد (ميغيسل كروتشافا توكورنال) وزير الشؤون الخارجية حينذاك . وضعنا الكتب واللوحه في سدة الرئاسة حيث كان الوزير ، وربحنا المعركة اذ ان الكتب قد قبلت منا وظلت هناك .

-
- ٢٢ - جوليوس ستريشار : سياسي الماني (١٨٨٥ - ١٩٤٦) .
 - ٢٣ - هينريش هاينه : شاعر الماني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) .
 - ٢٤ - توماس مان : روائي الماني (١٨٧٥ - ١٩٥٥) .
 - ٢٥ - ارنولد زينغ : كاتب الماني يهودي ، ولد عام ١٨٨٧ .
 - ٢٦ - نيوميير **Martin** : هو عالم باللاهوت وراهب بروتستانتي الماني ولد عام ١٨٩٢ .
 - ٢٧ - كارل فون اوسيتيسكي : كاتب الماني وداعية للمسلم (١٨٨٩ - ١٩٢٨) .

فكرت في أن أنصرف الى عملي باخلاص اكثر وقوة اشد . لقد كان تماسي باسبانيا قد عززني وأنضجني فلقد حان ان تنتهي ساعات شعري المربة وأن لي أن ابدأ شيئاً جديداً ، وكانت الدائمة والكتابة اللتان صبغتنا قصائد ديواني «عشرون قصيدة حب» والحالة الاليمة المؤثرة التي طبعت «مقام في الارض» تقترب من نهايتها . بدأ لي اني عثرت على عرق معدن دفين ، ليس تحت الصخور في باطن الارض ، بل تحت اوراق الكتب . افي مكنة الشعر أن يخدم أشباهنا من بني البتر ؟ افيستطيع ان يصاحب الانسان في صراعه ونضاله ؟ لقد كنت افرطت في المسير في درب اللامعقول ، وفي مجال ما هو سلبي ، فكان لا بد لي من أن اوقف نفسي عن هذا وذلك وأن ابحث عن طريق ما هو انساني ، مبتعداً عن الادب المعاصر ولكن بجذور عميقة تمتد الى تطلعات الكائن البشري .

لقد شرعت بالعمل في كتابي «نشيد عام» .

ولهذا فاني كنت احتاج الى مكان للعمل ، وجدت بيتا حجرياً يواجر المحيط ، في موضع غير معروف ، يدعى «ايسلا نيفرا» . كان صاحب هذا البيت قبطاناً اسبانياً ، اشتراكياً قديماً اسمه (ابلايو سوبرينو) ، كان هذا السيد يبنيه ليسكن فيه وعائلته لكنه شاء أن يبيعه لي ، فكيف ابتعته ؟ عرضت مشروع كتابي «نشيد عام» على دار النشر «ايرثيا» التي كانت تنشر مؤلفاتي لكنها رفضت ذلك . فاستطعت بمعاونة ناشرين آخرين أخريين دفعوا مقدماً ، ومباشرة الى صاحب البيت ، ان اشترى في عام ١٩٣٩ بيتاً للعمل في «جزيرة سوداء» .

ان فكرة قصيدة رئيسية تجمع الاحداث التاريخية والشروط الجغرافية والحياة وصراعات شعوبنا ، كانت تلح وتبدو على انها عمل عاجل لا بد لي

٤٨ - ايسلانيفرا : معناها ، جزيرة سوداء ، وهي قرية صغيرة على الساحل بتشيلي، كان للشاعر هناك منزل فيها .

من تأديته . فسمحت «جزيرة سوداء» بما لها من شاطئ بكر وحركة المحيط الصاخبة ، أن انصرف في شغف وعاطفة لتشييد هذا النشيد الجديد .

احضر لي إسبانيا

غير ان الحياة أخرجتني من هناك توّ٣٠ .

كانت تصل الى تشيلي اخبار الهجرة الاسبانية المرعبة ؛ كان قد عبر الحدود الافرنسية اكثر من خمسمائة الف رجل وامرأة ، من المحاربين والمدنيين . فحشدتهم حكومة (ليون بلوم) (٢٩) الفرنسية أسيرة القوى الرجعية ، في معسكرات ووزعتهم على حصون وسجون وأبعدتهم الى المناطق الفرنسية المحاذية للصحراء الاسبانية (٣٠) .

كانت حكومة تشيلي قد تبدلت اذ ان أرواح الشعب الاسباني وطدت القوى الشعبية التشيلية فكان لنا حكومة تقدمية .

قررت حكومة تشيلي ، حكومة الجبهة الشعبية ، هذه ارسالي الى فرنسا للقيام بمهمة من أنبل المهمات التي نفذتها في حياتي الا وهي مهمة اخراج عدد كبير من الاسبان المنفيين هناك في سجون فرنسا ومعقلاتها وترحيلهم الى وطني تشيلي . . وهكذا سيستطيع شعري أن ينتشر مثل نور متوقد يجيء من امريكا اللاتينية بين هؤلاء الرجال المكومين الذين عانوا ما لم يطقه احد غيرهم من جلد والم وبطولة ، هكذا شعري سينصهر في المساعدة المادية التي تقدمها امريكا اللاتينية حين تأوي الاسبان وتساعدهم وبذلك تقوم بإيفاء دين قديم علينا لهم .

٤٩ - ليون بلوم : سياسي فرنسي (١٨٧٢ - ١٩٥٠) .

٥٠ - الصحراء : هكذا في الاصل Sahara^١ ، وهي ما ندموه بالساقية الحمراء،

جنوب المغرب . والمناطق الفرنسية هي أقطار المغرب العربي المستقلة .

خرجت من خلوتي وعزلتي وأنا غير قادر على الحركة ، مجصص الساق بعد اجراء عملية فيها - هكذا كانت عليه شروطي الفيزيولوجية في تلك اللحظة - فقدمت نفسي الى السيد رئيس الجمهورية ، (بيدرو اغسره نيردا) الذي استقبلني في مودة ومحبة .

- اجل ، احضر لي آلافا من الاسبان ، فنحن لدينا متسع من العمل للجميع ، احضر لي صياديسن ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، اكستريمادويين (٢١) .

بعد ايام قليلة وأنا ما زلت مجصص الساق ، خرجت أبحث عن اسبان في فرنسا من اجل تشيلي . كانت لي مهمة محددة ، كنت قنصلا مكلفا بالهجرة الاسبانية الى تشيلي . هذا ما كان ينص عليه قرار التعيين فذهبت وأنا مفتخر بلقبى هذا الى السفارة التشيلية بباريس .

لم تكن الحكومة والوضع السياسي في وطني منسجمين؛ فمثلا، السفارة في باريس ما تغير فيها موظف واحد فظلت على حالها ، وقد كان يفضب رجالها من الدبلوماسيين المصمفين فيها الانيقين الرشيقين ، مجرد الاحتمال بأن استطيع ان ارسل ببعض الاسبان الى تشيلي . وضعوني في مكتب قرب المطبخ بالسفارة . ضيفوني الى درجة انهم منعوا علي استعمال اوراق الكتابة الموجودة في السفارة . اخذ يفد الى ابواب السفارة حشد غير المرغوب بهم من الاسبان : من محاربين جرحى ، قضاة ، محامين ، كتاب وأطباء كانوا قد فقدوا مشافيتهم ، عمال من الاختصاصات جميعها .

بما انهم كانوا يشقون طريقا في معاكسة الريح ؛ هو وجوه الموظفين المقيتة ، كي يصلوا الى مكنتي ، وبما ان مكنتي كان في الطابق الرابع من البناية فان هؤلاء الموظفين فكروا بشيء شيطاني ، الا وهو ايقاف المصعد وتعطيله . كان الكثير من الاسبان جرحى جاؤوا من معسكرات الاعتقال في افريقيا فكان يحزّ في نفسي أن اراهم يصعدون الدرج في مشقة وعناء

٢١ - اكستريمادويين : نسبة الى منطقة في جنوب غرب اسبانيا .

حتى طابقي الرابع ، بينما الموظفون الشرسون كانوا يتسلثون بهذه الصعوبات ويستنهضون بي .

شخصية شيطانية

كي تزيد حياتي تعقيدا أخبرني حكومة الجبهة الشعبية لتشيلى بوصول قائم بالاعمال ، ففرحت كثيرا جدا نظرا لان رئيسا جديدا فني السفارة قد يلقي العراقيل التي كان الدبلوماسيون في السفارة قد اسرفوا في وضعها امام حركة الهجرة الاسبانية . هبط من محطة Saint - Lazare شاب هزيل يضع نظارة بلا اطار Pince nez كانت تجعله يبدو وكأنه فأر عجوز ، وراق يفحص كل شيء في تجارته ، كان يبلغ من العمر حوالي اربع وعشرين سنة او خمس وعشرين ، له صوت اثنوي رفيع حاد جدا ، فقال لي في صوته هذا المتقطع انه سيعترف بي رئيسا له وانه ما جاء الا لمساعدتي وسيعمل تحت امرتي مساعدا في هذا العمل العظيم من ارسال «مهزومي الحرب الامجاد الاكارم» الى تشيلي . وعلى الرغم من فرحي بالحصول على مساعد جديد فان هذه الشخصية ما استراحت في روحي وما ارتحت لها ، ولا راق في عيني ، وعلى الرغم من التملق والمبالغة اللذين كان يفرض فيهما فقد بدا لي اني رايت شيئا مزيفا في شخصيته اللطيفة . عرفت فيما بعد انه مع انتصار الجبهة الشعبية لتشيلى ووصولها الى الحكم ، غير على حين غرة موقعه من «فارس كولبوس» وهي منظمة يسوعية الى عضو في الشبيبة الشيوعية، فسرت هذه الشبيبة في اوج عهد الانخراط فيها بمواهبه الفكرية وفرحت بعضوية السيد (اريانو ماريين) الذي كان يكتب مسرحيات هزلية ومقالات ، وكان محاضرا لامعا ، باخصار ، كان يعرف كل شيء ، كما بدا لهم .

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الاندلاع ، وكانت باريس تتوقع كل ليلة الغارات الالمانية وكانت في كل دار تعليمات نظرية وعملية كي يلجا الاهالي في حالة غارة من الغارات الى الملاجئ والمخابئ . كنت اروح كل ليلة الى بيت صغير في Villiers - sur - Seine مقابل النهر كي اعود كل صباح مكدرا الى السفارة .

توصل (أرييانو مارين) هذا الحديث الوصول ، في بضعة ايام قلائل ، الى أن تكون له أهمية ما حصلت عليها انا ابدأ . كنت قد قدمته السى (نيفرين) (٢٢) الى (الباريث ديل بايو) والى بعض قادة الاحزاب الاسبانية . بعد مضي اسبوع فقط كان هذا الموظف الجديد يخاطبهم بـ «انت» (٣٣) . كان يدخل او يخرج من مكاتب زعماء اسبان. ما كنت أعرفهم انا بنفسى ، وكانت محادثاته الطويلة معهم ، بالنسبة لى ، سرا . من حين الى حين كان يناديني كى يرينى قطعة الماس او زمردة كان قد اشتراها لأمه او يحكى لى عن شقراء ذات دله وغنج كانت تجبره على انفاق مبالغ كثيرة جدا فى الملاهى والحانات الباريسية . أصبح (أرييانو مارين) هذا صديقا سريع الود لـ (أراغون) وبخاصة لـ (السا Elsa) اللدين الجأناهما فى السفارة لحمايتهما من حركة القمع التى اخذت تلاحق الشيوعيين ، فكان يتحفظهما بملاطفات وهدايا صغيرة ، لا بد ان طبيعة هذا الشخص قد الهمت (السا تريولى Elsa Triolet) اذ انها تتكلم عنه فى واحدة او اثنتين من رواياتها .

كان علىّ ان انتقل الى «بروكسل» كى احلّ هناك مشكلة ماساوية للمهاجرين ، حين كنت اخرج من الفندق المتواضع جدا حيث كنت أسكن ، وجدت نفسى على بعد فم الجرة (٣٤) من مساعدي اللامع الاثيق (أرييانو مارين) فأخذنى فى أحضانه وهو يرحب ويهلل ثم دعانى الى الاكل فسى اليوم نفسه .

اجتمعنا على مائدة هناك فى فندقه ، وهو اكثر الفنادق غلاء فسى «بروكسل» . كان قد امر بأن توضع فوق المائدة اصص زهور ، طلب طبعاً «كافيار» و«شمانيا» . كنت انا خلال الاكل محافظا على الصمت المنشغل

-
- ٣٢ - نيفرين Juan : سياسى وطبيب اسباني (١٨٨٧ - ١١٥٦) .
 ٣٣ - انت : ضمير المخاطب يستعمل بين الاقارب والاصدقاء بينما الآخرون يخاطبون usted ويقابلها بالعربية «حضرتك» .
 ٣٤ - الجرة : هكذا فى الاصل jarra ، والتعبير هنا اسباني يقابله بالعربية ، فاب فوسين او ادنى .

المهموم فيما كنت أسمع خطط مضيقي اللذيذة ومشاريعه الشيقة وأسفاره القريبة للراحة والاستجمام ، وكان يحكي لي عن مجوهراته وتحفه ، كنت كأني استمع الى غني حرب جديد ولكن مع بعض علائم الخبسل والعته والجنون ، وكان في حدة نظرائه وفي تأكيدات الحازمة الجازمة يسبب لي نوعا من الدوار فقررت ان اقطع بما هو صحي (٣٥) وأن اكلمه بصراحة عن مشاغلي وضيق وقتي فطلبت منه ان نتناول القهوة في غرفته لان عندي ما ابوح به اليه .

عند منحدر الدرج الكبير ، بينما كنا نصعد لتحدث علي حدة ، اقترب منه رجلان ما كنت اعرفهما من قبل فقال لهما بالاسبانية ان ينتظراه حتى ينزل بعد دقائق قليلة .

ما ان ولجت الى غرفته حتى تركت جانبا القهوة وبدات بالقول المعنف الطافي :

- يبدو لي - قلت له - انك تسير في طريق وخم قدر ، انك تحولت الى معتوه بالمال . قد تكون ما زلت صغيرا جدا كي تفهم ما اقوله لك ، ان واجباتنا السياسية هي جدية جدا فمصر آلاف المهاجرين في ايدينا ، ولا يمكن ان نلعب بهذا المصير ، انا لا اريد ان اعرف شيئا عن شؤونك وقضاياك ، لكنني اريد ان احذر ، ثمة اناس يقولون بعد ان يقضوا حياة تعيسة بائسة انه «لا احد قدم اليهم النصيحة الجميلة وانه لا احد حذرهم من مغبة ما كانوا يفعلون» ولكن هذا لا ينطبق عليك فهانذا احذر مما تفعل والمقابلة عليك وهذا ما اقوله ، ليس الا ، والان فاني سانصرف .

نظرت اليه حين مددت يدي لاودعه فرأيت الدموع تنحدر من عينيه الى فمه ، فشعرت بشيء من الندم ، ألم اذهب بعيدا في تفريعي وتعنيفي؟ اقتربت منه وربت على كتفه :

- لا تبك .

٣٥ - بما هو صحي : تعبير اسباني ، يقابله بالمربية ، بالتي هي احسن .

– اني لابيكي من غضب – اجابني .

ابتعدت دون ان اقول له كلمة اخرى ثم عدت الى باريس ولم اره بعد البتة . حين نزلت رايت هناك عند الدرج الرجلين المجهولين ينتظران ثم رأيتهما يصعدان بسرعة الى غرفته .

ان خاتمة هذه الحكاية جرت بعد زمن طويل في المكسيك ، حيث كنت انا هناك قنصلا لتشيلي آنذاك . ذات يوم كنت مدعوا الى الغداء في بيت لاجئين اسبان يقيمون في المكسيك ، وكان من بينهم اثنان تذكراني .

– من اين تعرفاني ؟ – سألتهما .

– نحن من كنا في «بروكسل» وصعدنا للتكلم مع زميلك (اريمانو مارين) حين رأيناك تهبط من غرفته .

قصا عليّ فصلا غربيا للغاية . كانا قد وجداه في غرفته مفتسلا بالدموع ، متأثرا بأزمة عصبية وقال لهما وهو في نشيج ونحيب : « لقد عانيت الآن قبل قليل ، امرا ما عانيت مثله ابدا في حياتي كلها ، فلقد خرج (نيرودا) من هنا وهو على نية أن يخبر عنكما الـ «جيستابو» (٢٦) في انكما شيوعيان خطيران من اسبانيا ، فلم استطع اتناهما بالعدول عن هذا الامر الذي ازمع عليه ولا قدرت ان اجعله ينتظر بضعة ساعات ريثما تستطيان الهرب ، فليس لكما الا دقائق معدودات كي تفرا بجلديكما ، واتركا عندي حقائبكما فساخفظها ثم اوصلها لكما حيث تكونان او تقيمان» .

– يا له من قدم ، ابله – قلت لهما – على كل حال من حسن حظكما انكما استطعتما ان تفلتا من الالمان .

– لكن الحقائب كانت تحتوي على تسعين الف دولار ، وهي ملسك

٣٦ – الجستابو Gestapo : الشرطة العسكرية الالمانية .

النقابات الاسبانية فلم نستطع ان نستعيد هذا المبلغ لنعيده الى العمال ولم نعد نرى المال ولا الحقائق .

من بعد عرفت ان هذه الشخصية الشيطانية قد قامت بجولة ممتعة طويلة في بلدان الشرق الادنى منمتعا بصحبة حبيبته الباريسية . على فكرة تبين كذلك ان تلك الشقراء المتدلة المتطلبة ما هي الا طالب اشقر من جامعة السوربون .

ثم بعد مضي زمن قليل نشر في الصحف انسحابه من الحزب الشيوعي قائلا : «ان اختلافات عقائدية عميقة تجبرني على اتخاذ هذا القرار» .

جنرال وشاعر

ان كل رجل وصل من الهزيمة او من الأسر كان رواية ذات فصول ، ذات نحيب ، ذات ضحك ، ذات شعور بالوحدة ، ذات غرام . بعض هذه الروايات والحكايات كان يدهلني ويأسرني .

لقد عرفت جنرالا في الطيران ، طويل القامة ، زاهدا في الدنيا ، رجل كلية عسكرية وخبرة ودراية ، له من الاوسمة ما له ، ومن الانقلاب احسنها . هناك كان يسير عبر شوارع باريس ، ظلا «دونكيخوتيا» للارض الاسبانية ، عجوزا منتصبا كحور قشتالة .

حين استطاع الجيش الفرانكي (٢٧) شطر المنطقة الجمهورية السى قسمين كان على هذا الجنرال (هيريرا) ان يعيش في الظلام المطبق المطلق ، ان يفتش خطوط الدفاع ، ان يعطي الاوامر في هذه الجبهة او تلك ، في هذا القسم او ذلك وهو في طائرته يحلق في الليالي المعتمة ، وفي الدياجير المظلمة فوق اراضي جيش العدو ، من حين الى حين طلقة فرانكية كانت

٣٧ - الفرانكي : نسة الى (فرانكو) رئيس الدولة الاسبانية .

تمر فتكاد تلمس مركبته ، ولكن هذا الجنرال لكثرة ما كان عليه ان يتجول ويحلق ، كان يملّ ويسأم فتعلم كمي يستطيع ان يقرأ في العتمة ، طريقة «برايل» Braille . حين اتقن كتابة العميان كان دائما يسافر لتأدية مهماته الخطيرة وهو يقرأ بالاصابع ، بينما تحته كانت تتوهج النيران وآلام الحرب الاهلية الاسبانية . لقد حكى لي هذا الجنرال انه استطاع ان يقرأ خلال جولاته الليلية كتاب «الكونت مونت كريستو» وانه حين اخذ بقراءة «الثلاثة المسلحون بالبنادق» قوطعت قراءه بالهزيمة تم اضطر الى اللجوء الى فرنسا .

اذكر حكاية أخرى ذات تأثير كبير في نفس كل انسان يسمعها ، وهي قصة الشاعر الاندلسي (بيدرو غارفياس) . استقر به المنفى في قلعة للورد ب «اسكوتلانديا» . كان هذا الحصن منعزلا وحيدا بعيدا فكان (غارفياس) لطبيعته الاندلسية القلقة الانيسة يروح كل يوم الى حانة هناك في المنطقة ويجلس في صمت وسكون، اذ انه لم يكن يتكلم الانجليزية بل انه يكاد لا يتكلم الاسبانية اللهم الا لغة اندلسية فجزية ما كنت انا افهمها ، يشرب كؤوس بيرته في كآبة ووحدة . لفت هذا الزبون الاخرس الابكم نظر صاحب الحانة . ذات ليلة وقد غادر الحانة السمثار والسكرارى، التفت اليه صاحب الحانة ورجاه ان يظل عنده ليستمر في مقارعة كؤوس الخمر حتى مطلع الفجر ، قرب نار المدفأة المتوقدة التي تقذف الشرر فتبوح بما لا يستطيعان البوح به .

لقد اصبحت هذه الدعوة طقسا وعادة . ففي كل ليلة يستقبله صاحب الحانة الوحيد مثله ، فلا امرأة تأويه ولا أسرة تشغله او تسليه . شيئا فشيئا اخذت تنفك عقد من لسانيهما فكان (غارفياس) يحكي له فصص الحرب الاسبانية كلها عن طريق صحبات وإيماءات ولعنات وتأوهات اندلسية جدا . كان صاحب الحانة يصغي اليه في سكون مهيب دون ان يفهم ، طبعا ، ولا كلمة واحدة مما يقول مسامره .

لقد بدأ الاسكوتلاندي من جانبه ، يقص على الشاعر حكاية فشله في حياته - هذا ما كان يخيل للشاعر - حكاية هرب زوجته التي هجرته : مآثر ابنائه الذين كانت صورهم بالازياء العسكرية تزين الجدران حول المدخنة ، كل هذا طبعا قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه ، أقول قد ...

لان (غارفياس) كذلك ما فهم ولا كلمة واحدة مما كان يقوله الآخر وذلك خلال الشهور الطويلة التي استغرقتها هذه الاحاديث الشيقة القريبة .

غير ان صداقة هذين الرجلين الوحيديين المهجورين اللذين كانا يتحدثان في ود وعاطفة ، كل عن همومه وشؤونه بلفته التي لا يفهما الآخر ، راحت تزداد وتنمو وتعمق كل ليلة حتى الشروق واصبحت صداقتهما ضرورية لكل منهما .

حين كان على (غارفياس) ان يرحل مضطرا الى المكسيك ، تودعا شاربين ، متحدثين ، متعاقبين ، باكيين ، حزينين . ان ما كان يحزن في نفسيهما هو انهما سيعودان من جديد ، كل الى عزلته ووحدته .

— (بيدرو) — قلت له مرات كثيرة — ماذا تظن انه كان يقص عليك ؟

— (بابلو) ، الحقيقة انني ما فهمت منه كلمة ، لكن حين كنت انصت اليه كان لديّ الشعور الاكيد اني افهم كل ما يقول ، وحين كنت اتكلم انا، كنت متاكدا كذلك انه كان يفهم كل ما اقول ، وهذا هو المهم .

ال (وينيبيج) (Winnipeg)

لقد سلمني موظفو السفارة صباح ذات يوم برقية طويلة وهم يتسمون ، فبدا لي غريبا انهم يتسمون لي اذ انهم ما كانوا يردون لي تحية ولا يبادروني بتحية ، فكيف هذا ؟ لا بد ان الرسالة تحتوي على شيء بعث في نفوسهم الغبطة والفرح .

فضتها واذ بها برقية من تشيلي ، موقعة من لدن السيد الرئيس (بيدرو اغيره ثيردا) ، اي الشخص نفسه الذي كنت قد استلمت منه التعليمات القاطعة الحاسمة لترحيل الاسبان المنفيين من فرنسا الى تشيلي .

قرات في ذهول ودهشة ان السيد (بيدرو) رئيسنا الطيب ، علم هذا

الصباح اني اقوم بمحاولة لادخال المهاجرين الاسبان الى تشيلي ففوجيء وهو يطلب مني ان انفي هذا الخبر الغريب في أسرع وقت .

استفريت من امر هذه البرقية التي أرسلها لي السيد الرئيس ، لقد كان عملي في التنظيم والاختيار والتسفير عملا شاقا وكنت اقوم به وحدي . لحسن حظي ان الحكومة الاسبانية التي تأسست في المهجر ادركت أهمية المهمة التي ألقيت على عاتقي ، لكن مع ذلك فان مصاعب جمة كانت تنشأ كل يوم ، مصاعب غير متوقعة تعرقل اعمالي وأشغالي . اناء ذلك كان يتهاى من معسكرات فرنسا او افريقيا آلاف اللاجئين كسي يرحلوا الى تشيلي .

كانت الحكومة الجمهورية في المهجر قد استأجرت باخرة «وينيبغ» لترحيل اللاجئين ، وهذه الباخرة ضاعفت من قدرتها عن طريق بعض التحويلات التي أجريت في آلتها ، وكانت تنتظر راسية برصيف «ترومبيلوب» ، وهو ميناء صغير قرب «بورديس» .

ما العمل ؟ ان ذلك العمل المأساوي المكثف المضاعف ، اذ اننا كنا على حافة الحرب العالمية الثانية ، كان بالنسبة لي قمة وجودي ومحك قدرتي، ان رمز يدي المدودتين نحو أولئك المقاتلين الشجعان المطاردين، كان يعني بالنسبة لهم الانتقاذ من الفناء وكان دليلا على ان وطني تشيلي هو وطن مناضل كريم يحضن المناضلين الكرماء . لقد خابت آمالي وفشلت احلامي حين استلمت برقية الرئيس .

قررت استشارة (نيغرين) في هذا الامر . فلقد كنت محظوظا بتعرفي في صداقتي بالرئيس الاسباني (خوان نيغرين) وبالوزير (الباريث ديل بايو) وبآخرين من المسؤولين الاسبان الجمهوريين . كان (نيغرين) اكثرهم أهمية . لقد بدت لي دوما السياسة الاسبانية انها سياسة محصورة ليس لها آفاق واسعة ، كأنها سياسة تخطط على مستوى محافظة او ناحية وليس على مستوى قطر او عالم .

كان (نيغرين) عالميا او على الاقل كان اوروبيا . اتم دراساته فسي

«ليبزيغ» . كانت له قيمة اكايدمية وكان يحافظ في باريس بجدارة وكرامة على هذا الظل اللامادي الذي يكون عادة لحكومات المهجر .

تحدثنا ، رويت له قصة البرقية الرئاسية الغريبة التي جعلتني فعلا ابدو وكأني دجال ، محتال ، ثرثار ، مهذار ، يقدم لشعب من المنفيين ملجأ لا يوجد . وقلت له ان الحلول الممكنة هي ثلاثة لا رابع لها ، الاول مستنكر فظيع كريبه وهو ان اعلن ببساطة اني الفيت موضوع هجرة الاسبان الى تشيلي ، الثاني ، مأساوي وهو ان اعلن علنيا عدم موافقتي وانتهاء مهمتي ثم اطلق رصاصة في صدفي ، الثالث غير مناسب وهو ان امسأ الباخرة بالمهاجرين وأن اذهب معهم وننطلق من غير اذن او سماح نحو «البارائيسو» لنرى ماذا سيحدث .

ارتمى (تيفرين) نحو الخلف في مقعده وسحب من سيجاره الكبير ما سحب ، ثم ابتسم في كآبة واجابني :

— الا تستطيع استعمال الهاتف ؟

كانت الاتصالات الهاتفية بين اوروبا وامريكا في تلك الايام على غاية من الصعوبة والتعقيد الى درجة لا تطاق ، اذ لا بد من انتظار ساعات وساعات ومع ذلك فقد اتصلت بتشيلي فاستطعت ان اسمع في ضجيج كبير يبعث على صمم الأذان ، صوت وزير الخارجية النائي البعيد ، من خلال محادثة متقطعة كان يجب ان تعاد عشرين مرة ، دون ان نعرف ان كان يفهم بعضنا الآخر ، ونحن من حين الى حين نصرخ صراخا هائلا ، او نسمع الجواب ياتينا كأنه صخب محيط هائج ، اعتقدت اني جعلت الوزير (اورتيفا) يفهم اني لن امثل لتناقض كلام الرئيس واعتقد اني فهمت منه انه يطلب مني ان أنتظر حتى اليوم التالي .

فقضيت ، كما هو منطقي ، ليلة مزعجة في فندقي الصغير بباريس . في مساء اليوم التالي عرفت ان الوزير قدّم في ذلك الصباح استقالته ، فهو كذلك لم يكن ليقتبل بتجريدي من الصلاحيات التي خولها الي الرئيس ، فارتعدت الحكومة واستعاد رئيسنا الطيب الذي كان قد شوش وبلبل

نتيجة ضغوط مارسها بعضهم عليه ، فاستلمت برقية جديدة تشير ان
استمر بعملية التهجير .

اخيرا شحنتا المهاجرين في باخرة «وينيبغ» : على ذلك الرصيف
اجتمع الزوج بزوجته ، الاب بابنه ، بعد ان كانوا مفترقين لزم من طويل ،
وكان بعضهم يأتي من طرف في اوروبا او افريقيا وبعضهم يأتي من الطرف
الآخر . حين يصل قطار كان الناس المنتظرون يخفون لرؤية ذويهم
واصحابهم ، يعرف بعضهم بعضا بين الدموع والصراخ والركض والازدحام،
وكان القادمون يخرجون رؤوسهم من نوافذ القطار ويشربون لعلهم
يستعجلون رؤية من فقدوه من اهلهم وأقربائهم ، كانت هذه الرؤوس تبدو
كأنها عناقيد انسانية ، ثم تلاقوا وصعدوا معا الى الباخرة فرحين باكين .
منهم الصيادون ومنهم الفلاحون ومنهم العمال ومنهم المثقفون ، كانوا عينة
اسبانية من القوة والبطولة والعمل . ان شعري في نضاله قد استطاع ان
يحصل لهم على وطن فكنت بهذا مفتخرا وشعرت بالاعتزاز .

اشتريت صحيفة . كنت اسير عبر شارع Varennes - Sur - Seine
كنت امر قرب القلعة القديمة التي تعلو فوق اطلالها المحمرة بالنباتات
المتسلقة على جدرانها ابراج صغيرة من الصخر الاسود . ها هي القلعة التي
كان فيها (رونسارد) (٢٨) وشعراء «لا بلياد» يجتمعون في الزمن القديم .
لقد كان لهذه القطعة في نفسى مكانة حجر ومرمر ، سحر بيت شعر ذي
احدى عشرة نبرة (٢٩) ، مسطر بأحرف ذهبية عريقة . فتحت الصحيفة،
ذلك اليوم كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت ، هذا ما كانت تقوله في
احرف كبيرة وبمداد اسود قدر تلك الصحيفة التي سقطت من يدي في
تلك القرية القديمة الضائعة .

كان العالم كل العالم يتوقعها ، فهتلر كان يبتلع الاراضي والبلدان ،
وكان السياسيون الانجليز والفرنسيون يتراخضون مع مظلاتهم لكي يهبوه

٢٨ - دونسارد (بيي دي Pierre de) : شاعر فرنسي (١٥٢٤ - ١٥٨٥) .

٢٩ - هو بحر من بحور الشعر في اللغات اللاتينية .

مدنا وممالك وبشرا .

لقد كان يملأ الضمائر دخان من التشويش والبلبله . كنت ارى من نافذة غرفتي بباريس مباشرة «لوس انفاليدوس» فأرى أوائل فرق المحاربين وهي تخرج ، والفتيان الذين ابدا ما عرفوا للزي العسكري لونا من قبل وما عرفوا قط أن يرتدوا هذا الزي العسكري وهم ينطلقون كي يدخلوا فسي مخطم الموت الكبير .

لقد كان انطلاقهم حزينا والحزن كان بيئنا في سيماهم . لقد كانت هذه الحرب حربا خاسرة من قبل ان تبدأ ، وحزنهم كان شيئا لا يحدد . كانت القوى الشوفينية المتعصبة تجري في الشوارع تطارد المفكرين التقدميين . لم يكن العدو متمثلا بالنسبة لهم في اتباع (هتلر) ، فسي مجموعة «لافال» ، بل في زهرة الفكر الفرنسي . لقد حمينا في السفارة التي كانت قد تغيرت كثيرا الشاعر الكبير (لويس اراغون) ففضى فيها اربعة ايام عاكفا على الكتابة ليل نهار فيما الشراذم كانت تنتظره للقضاء عليه . هناك في سفارة تشيلي انهى روايته «مسافرو لا امبريال» *Ios Viajeros de la imperial* وفي اليوم الخامس توجهه وقد ارتدى الزي العسكري الى الجبهة ، كانت حربه الثانية ضد الالمان .

لقد تعودت في تلك الايام الشفقية على هذا الارتياب الاروبي الذي لا يعاني ثورات مستمرة او زلازل ، بل يحتفظ بسم الحرب القاتل وهو يملأ الهواء والخبز .

خوفا من الغارات كانت العاصمة الكبيرة تنظفء ليلا ، وهذه العتمة، عتمة سبعة ملايين نسمة معا ، هذه الدياجير الكثيفة الثقيلة التي كان لا بد من السير في ظلها بمدينة النور ، ظلت ملتصقة في ذاكرتي .

... في نهاية هذه المرحلة ، كما لو ان هذا السفر الطويل كان غير مجد ، أعود فأجد نفسي وحيدا في هذه الاراضي الحديثة الاكتشاف ... مثلما في مخاض الولادة ، كما في البدء المنذر للربح الميتافيزيقي حيث نبتت أوائل أشعاري ، كما في شفق جديد قد هيجهته وأثارته قدرتي

الابداعية ، ادخل في احتضار ، اغفل في حشجة ، ألج في الوحدة
الثانية ، فالى اين المسير؟... والى اين العود؟... الى اين التوجه؟...
أسكت أم أنبض؟... انظر الى ضواحي الوضوح وأطراف العتمة فلا أجد
الا الفراغ نفسه... هذا الفراغ الذي صنعه يداي في عناية قدريسة
وحيطة مشؤومة....

بيد ان ما هو اكثر قربا ... ما هو اكثر جوهريا ... ما هو اكثر
حدة ... ما هو اكثر سعة وامتدادا وعمقا ... ما كان ليتجلى لي حتى
هذه اللحظة ... كنت فكرت في العوالم كلها لكنني ابدا ما فكرت في
الانسان ... كنت قد استنبطت قلب الانسان في قساوة واحتضار ...
غير اني ما فكرت في البشر ... كنت ارى مدنا ولكنها مدن فارغسة
خاوية ... كنت ارى معامل ومصانع في مشاهد مأساوية بيد اني ما كنت
ارى العذاب والعناء والشقاء تحت أسطح المنازل ، فوق الشوارع ، في
المحطات ، في المدن في الارياف

حين انطلقت الرصاصات الاولى فاخرقت قيثاره اسبانيا وانبثقت
منها بدل الالحن فوآرات دم ، توقف شعري مثل شبح في وسط شوارع
الكتابة الانسانية ... وأخذ يتسرب اليه تيار من الجذور والدماء ... منذ
ذلك الحين اتحد دربي بدرب الآخرين ... ورأيت اني قد عبرت من جنوب
الوحدة نحو شمالها فكان الشعب ... الشعب الذي اراد شعري المتواضع
ان يكون له سيفا ومنديلا ... كي يجفف العرق عن آلامه الكبيرة ، كي
يعطيه سلاحا في معركة الخبز

اذالك يتسع المدى ، يغدو كبيرا عميقا ابديا سرمديا ها نحن نقف
فوق الارض ... نريد ان نحوز على كل ما هو موجود ... نمتلكه السى
الابد ... لا نبحث عن اللغز فنحن اللغز ... ان شعري يبدأ كي يصبح
جزءا ماديا من جو فضائي أبدي ... من جو ، هو في الوقت نفسه ما تحت
البحري وما تحت الارضي ... ان شعري يشرع كي يلج عبر دهاليز ما هو
نباتي رائع ... ان شعري يتهاى كي يتحادث وأشباحا شمسية في وضح
النهار ... ان شعري يستعد كيما يسبر ، يستنبط غور المعدن الخبيء
في سر الارض ... ان شعري يعد العدة كي يحدد العلاقات المنسية بين
الخريف والانسان ... ان الجو ليعتم احيانا ولكن وشيكا ما ينجلي

ببريق مشحون بتألق ورعب بناء جديد بعيد عن الكلمات المستعملة
المستهلكة يبرز في سطح الهواء . . . قارة جديدة من أكثر مواد شعري
اكتنانا وسرية تشمخ عبر الفضاء لقد قضيت في تعمير هذه الاراضي ،
في تصنيف هذا الملكوت ، في لمس ضفاهه الطلسم ، في اخماد عواصفه
وتهدئة ازباده ، في التجواب عبر حيواناته ، في التسيار عبر جغرافيته
الطولانية ، سنين غامضة ، متوحدة ، قصيئة . . .

الفصل السابع

المكسيك المزهرة الشانك

لقد ارسلتني حكومتي الى المكسيك . وصلت في عام ١٩٤٠ وانا مليء
بهذا الكدر القاتل الناتج عن آلام كثيرة وفوضى اليمة كي استنشق النسيم
والحياة في هضبة «أناهواك» التي نعتها (الفونسو ريس Alfonso
Reyes) (١) بأنها اكثر منطقة ، شفافية في العالم .

لقد غمرني المكسيك المزهرة الشانك ، الجاف العاضف ، العنيف الرسم
واللون ، العنيف البشرية والخلق ، بتمائمه وبأنواره المباشرة .

لقد جيت المكسيك خلال سنين وسنين من سوق الى سوق ، لان
المكسيك هو في الاسواق ، ليس هو بالاغاني ذات الحروف الحلقية التي
نسمعها في الافلام السينمائية ، وليس هو بالتفاهة المزيفة لشارب

١ - الفونسو ريس : كاتب وروائي مكسيكي (١٨٨٩ - ١٩٥٩) .

ومسدس ، ان هو الا ارض المناديل ذات اللون القرمزي وذات اللسبون
الفيروزي البراق . ان هو الا ارض الاواني والجرار والفاكحة المنفلقة تحت
سرب من الحشرات هنا وهناك . ان هو الا حقل صبار ذو مداد ازرق
فولاذي وذو تاج من الاشواك الصفراء .

ان كل هذا لتمنحه اكثر الاسواق جمالا في العالم ، وتريك ثمة في
اسواق المكسيك ، الفواكه والصوف ، البنّ والانوال ، قدرة انامل المكسيك
الخصبة الخالدة المدهشة .

لقد تجولت عبر المكسيك ، ركضت على مدى شواطئه ، شواطئه
العالية الجرف ، المتقدة ببريق سمردي فوسفوري . لقد انحدرت من
«توبولوبامبو» في «سينالوا» . عبر هذه الاسماء نصف الكروية ، اسماء
خريفية تركها الآلهة هناك تراثا في يدي المكسيك ومضوا عنها حين بدأ
الرجال الذين هم اقل قساوة من الآلهة ، يأمرن فيها ويسودون عليها .
لقد مشيت عبر مقاطع هذه الاسماء ، هذه المقاطع المؤلفة من اللغز والرونق ،
عبر هذه الاصوات الفجرية الصباحية . فهذه الناحية باسم «سونورا» وتلك
باسم «يوكاتان» ، اما «أناهواك» فهي تشمخ كأنها مجمرة باردة حيث تصل
اليها الأشداء البليلة من «ناياريت» حتى «ميشواكان»
حيث يدرك أريج دخان الجزيرة الصغيرة «خانيتثيو» ، وعطر اللرة الذي
يصعد عبر «خاليسكو» وعبر الكبريت لبركان «باريكوتين»
الجديد وقد امتزج بعبق رطب من أسماك بحيرة «باتشوارو» .
ان المكسيك لهو آخر الاقطار السحرية ، انه لسحري في قدمه وتاريخه ،
انه لسحري في موسيقاه وتضاريسه . لقد شعرت وأنا اطرق دربي عبر
هذه الصخور المسوّطة (٢) بالدم المستديم ، المتصالبة بخيط عريض من
الدم والطحلب ، اني هائل واني عريق واني لجدير بهذه المسيرة بين هذه
الابداعات الكثيرة العريقة . ثمة وديان وعرة مسدودة بجدران هائلة
صخرية ، من حين الى حين تلال مرتفعة متشققة كما لو بسكين ، غابات
استوائية عملاقة ، اطلالات متوهجة من خشب ومن افاع ، من عصافير ومن

٢ - المسوّطة : مشتقة من الكلمة العربية السوط Azote .

اساطير . لقد وجدت في تلك الاراضي الشاسعة المعمورة حتى اطرافها الاخيرة بصراع الانسان في الزمن ، وجدت في ابعادها ومداهها الكبير اننا نحن ، تشيلي والمكسيك ، قطرا امريكا المتقاطران . ابدأ ما حركتني العبارة الدبلوماسية المصطلح عليها والتي تجعل سفير اليابان يجد في اشجار كرز تشيلي ، والانجليزي يجد في ضباب شواطئنا ، والارجنتيني او الالماني يجدان في ثلج بلادنا المحقق الكثيف ، شباها بما لهم في بلدانهم ، او بما في بلدان العالم جميعها .

انه ليسرني التنوع الارضي ولتطيب لي الفاكهة الارضية المتميزة في اصنافها كلها . اني لا اقص شيئا من قدر المكسيك ، هذا البلد الحبيب ان ثرنته في الاشياء البعيدة ببلدنا المحيطي الغلابي بل اني ابين خصائصه وأرفع من ميزاته كي تتباهى قارتنا الامريكية بكل عبااتها ، بمرتفعاتها واعماقها قاطبة . وليس ثمة في امريكا وربما في الكرة الارضية بلد اكثر عمقا انساني كما هو المكسيك وانا المكسيك . انك لتري من خلال ارشاداته المضيئة ومن خلال اخطائه الكبيرة ، السلسلة نفسها من الكرم السخي جدا ، من الحيوية العميقة المتدفقة جدا ، من التاريخ الفريد في نوعه جدا ، من الخصوبة المعطاء الدائمة ابدأ .

لقد انحرف بنا المسير ذات يوم عبر القرى صيادة الاسماك ، حيث الشبكة تغدو جد شفافة صافية فتبدو فراشة كبيرة تعود الى المياه كي تحوز على التحراشف الفضية التي تنقصها ، عبر مراكز هذه القرى ذات المناجم التي ما ان يستخرج منها المعدن حتى يغدو شبكية صلبة وسبكية متينة في هندسة براقة جدا ، عبر الطرق حيث تشاد الاديرة الكاثوليكية الكثيفة الشائكة كشجر الصبار الهائلة ، عبر الاسواق حيث البقول معروضة مثل زهرة ، وحيث غنى الالوان والاذواق يصل الى درجة الاحتدام والنوبة ، الى ان اجتازنا مدينة المكسيك لنصل الى «يوكاتان» ، وهي مهد نشأ من أقدم جنس في العالم أعني شعب «ماياب» Mayab الوثني ، ان الارض هناك لتتهتز بما لها من تاريخ وما بها من بذور . لما نزل تنمو هناك ازاء شجر الصبار النشيط الحيوي ، الاطلال المليئة بالدكاء والاضاحسي والتضحيات .

حيث تتقاطع الطرق الاخيرة ، وصلنا الى الارض المديدة الفسيحة

حيث ترك أولئك المكسيكيون القدماء تاريخهم الموشى مخبأ تحت اشجار الغابة . هناك نثر على نوع جديد من الماء ، انها لاغرب مياه في هذا الكوكب ، ليست كمياه البحر ، ليست كمياه النهر ، ليست كمياه الجدول ، ليست كمياه الفدير ، ليست بالمياه المعروفة ، ليس ثمة في «يوكاتان» من ماء الا تحت اعماق الارض تنشق فجأة عن بئر واسعة بكر ثم تعود فتتشق عن بئر أخرى على حين غرة ، انحدارات هذه الآبار مليئة بالنباتات الصغيرة المدارية . انك لترى من خلال هذه الاعشاب في الاعماق مياهها عميقة خضراء فلكية . لقد وجدت قبائل «المايا» هذه الشقوق الارضية المسماة «ينوته» (٢) Cenote فالتوها وعبدها بطقوسهم الغريبة . كما في الاديان جميعها فدس البئر ، في المبدأ ، الحاجة والخصوبة ، كذلك في هذه الارض . ولقد هزمت المياه الخبيثة الارض اليباب الجفاف فكانت الارض تتصدع حسية منها فتنبثق المياه كي يفرح البشر .

عند ذلك . فوق الآبار المقدسة ، عبر آلاف السنين ضاعفت الاديان البدائية والاديان الغازية الوارده من سر الماء اللغز . لقد ألفت مئات العرائس العذراوات الزينات بالزهر والذهب بعد احتفالات عرائسية على صفاق الآبار . بانفسهن ونفسهن الى اعماق هذه المياه الجارية التي لا سبر غورها . فكانت تطفو على السطح الزهور والتيجان والحلي ، لكن العرائس مكثن في حماة الطين القصي مشدودات السى الماء بسلاسلهن الذهبية (٤) .

لقد انقد جزء ضئيل جدا من هذه الجواهر بعد آلاف السنين فوضعت في واجهات متاحف المكسيك وأمريكا الشمالية . بيد اني حين نغلغلت في هذه الانحاء الخالية الوحيدة لم أبحث عن الذهب بل عن صراخ الصبايسا الفارقات . لقد خيل اليّ اني كنت أسمع في نعيب الغربان والخفافيش الغرب . حترجة العرائس الجشاء واني الملح في طيرانها السريع السدي

٢ - ينوته : هي شر عميقة واسعة .

٤ - من المعروف ان حصاره المكسيك هي حصاره مديمه جدا ، وما زال التشابه الموجود بينها وبين الحضارة المصرية موضع بحث الدارسين وعلماء التاريخ القديم .

تمبر به العظمة المعتمة للماء السحيق السواعد الصفراء لتلك الصبايا
الغريقات .

لقد شاهدت ذات مرة حمامة تجثم فوق التمثال الذي يطيل ذراعاه
الحجرية البيضاء ويمدها فوق الماء والهواء الخالدين ، لست أدري أي نسر
كان يلاحقها ، كانت هي غريبة في تلك الاصقاع حيث لا طير الا القبرة ذات
الصوت الابكم ، واليمامة ذات الريش الرائع وال «كوليبيري» (٥) الفيروزي
والطيور الجارحة الكواسر ، كانت هذه الطيور جميعها تجتاح الغابة بحثا
عن أكلها وسعيا وراء بهجتها وطربها. حطت الحمامة فوق راحة يد التمثال،
بيضاء مثل قطرة ثلج فوق الاحجار الاستوائية المصنوع منها التمثال .
نظرت اليها مستعبرا اذ انها جاءت من عالم آخر ، من عالم متناسق ودّي،
اتت من سارية «فيثاغورية» (٦) او من نقطة في البحر الابيض المتوسط .
لقد توقفت عند حافة الدياجير ، عند حاشية المنايا . فاحتقرت سكوني
وهي لا تدري انني كذلك انتمي الى هذا العالم البدائي ، الامريكي الدامي،
القديم العريق فطارت امام عيني الى ان ضاعت في السماء .

الرسامون المكسيكيون

كان الرسم مسيطرا على الحياة الفكرية في المكسيك ، الرسامون
المكسيكيون يغطون العاصمة بتاريخ وجغرافيا ، بفارات مدنية ، بمجادلات
حديدية . على قمة من قمم الرسم اذالك كان يتربع (خوسه كليمنتس
اورونكو) (٧) ، وهو رجل عملاق أقطع اليد ، نحيل الجسم هزيله ، نوع
من (غويا Coya) (٨) في وطنه الطيفي . لقد تحدثت معه مرات كثيرة،

٥ - كوليبيري Colibri : هو عصفور امريكي صغير ، ذو منقار طويل ضعيف .
٦ - فيثاغورية : نسبة الى (فيثاغورس Pitagoras) الفيلسوف ومالم الهندسة
اليوناني المشهور .

٧ - خوسه كليمنتس اورونكو : رسام مكسيكي (١٨٨٣ - ١٩٤٩) .
٨ - غويا Francisco de : رسام اسباني مشهور (١٧٤٦ - ١٨٢٨) .

كان شخصه يبدو خاليا من العنف الذي يظهر في أعماله الفنية . كانت له نعومة صانع الفخار الذي أضع يوما يده في المخرطة ويده الأخرى يشعر انه لا بد يخلق عوالم لا تنتهي . ان فلاتحاته المرميات بالرصاص ، وجنوده وصناعات اللحام وحوذتيه وكل ناؤوس رسمه بصلبان رهيبة ، ان هذا كله لهو اكثر ما في رسومنا الامريكية جدارة بالخلود وسيظل يدل على فساوتنا وعنفتنا .

كان (ديفنو ريبيرا) (٩) قد عمل كثيرا فسي تلكم الاعوام وكان يتخاصم مع الناس جميعهم ، ذلك ان الرسام العملاق هذا كان ينتمي الى عالم الخرافة ، حين كنت اراه كنت أستغرب من ان ليس له ذبول ذات حراشف او اقدام بحوافر .

كان دائما خلاقا ومبتدعا ، فلقد نشر قبل الحرب العالمية الاولى في باريس (ايليا اهرينبورغ) (١٠) كتابا حول مآثر (ريبيرا) وتزييفاته (١١) عنونه : «حياة (خوليو خورنيتو Julio Jurenito) وسلوكه» .

بعد مضي ثلاثين سنة كان (ديبعو ريبيرا) لما يرل معلما كبيرا فسي الرسم والخرافة ، فقد كان ينصح بأكل اللحم البشري كحمية صحية نافعة وكان يعطي وصفات عن كيفية طهي نماذج بشرية من الاعمار جميعها ، مرات اخرى كان يصرّ على تنظير العلاقات السحاكية وفلسفتها وكان يدعم رايه هذا قائلا بان العلاقة السحاكية هي العلاقة الاخلاقية الوحيدة بناء على ما دلت عليه اقدم الآثار التاريخية التي عثر عليها في حفريات أشرف هو بنفسه عليها .

احايين كان يحدثني خلال ساعات طويلة وهو بحرك عينيه الهنديين

٩ - ديمو ريبيرا : رسام مكسيكي (١٨١٦ - ١٩٥٧) .

١٠ - ايليا اهرينبورغ Grigorievich : كاتب روسي يهودي (١٨٩١ - ١٩٦٧) .

١١ - تزييفاته : هنا بمعنى لوحاته التي يقلد فيها لوحات آخرين او ينقلها طبق الاصل.

مقطبتي الجبين ويروح لي بأصله اليهودي ... احيانا اخرى وقد نسي الحديث السابق يحلف ويقسم لي انه هو والد الجنرال (رومل) (١٢) ، ثعلب الصحراء ، ويطلب مني ان يظل هذا سرا بيننا لان افتضاحه يمكن ان يؤدي الى نتائج عالية خطيرة جدا .

لقد كان لحن صوته المقنع الرائع ، اسلوبه الهاديء في اعطاء التفاصيل والوصف البديء واكاذيبه المفاجئة تجعل منه مهدارا ثرثارا ، رائعا مدبا، ولا احد مما عرفه واستمع الى تخريفاته يستطيع ان ينسى عدوبة حديثه وان كان سفالة .

كان في تلك الفترة (دافيد الفارو سيكيروس) سجيننا ، فقد كان احد الاشخاص قد أركبه في غزوة مسلحة على دار (تروتسكي) (١٣) . فعرفته انا وهو في السجن ، لكن ، في الحقيقة ، خارج السجن اذ اننا كنا نخرج مع رئيس السجن ، العميد (بيرث رولفو) كسي نتناول بضعة من كؤوس الخمر في مكان خفي وكنا نعود في ساعة متأخرة من الليل ، فاودع (دافيد) رابتنا على كتفه من خلف الاسلاك حيث يبقسى سجيننا الى اليوم التالي وهكذا ...

اثناء واحدة من هذه السهرات بينما كنا نعود من الشارع الى السجن تعرفت على اخيه ، وهو شخص غريب جدا يدعى (خيسوس سيكيروس) ، قد تكون كلمة «مدار» أقرب في وصفه من كلمة «مناقق» ، كان يتسلل من الجدران دون ضجة او حركة على الاطلاق واذا به خلفك او بجانبك ، لا يتكلم الا قليلا وان تكلم فبوشوشة لا تكاد تسمع . كان يحمل في محفظة صغيرة كل ما يمكن ان يحشر فيها ؛ من ذلك اربعون او خمسون مسدسا ، كذلك في خفوت وسكون وصمت . ذات مرة دون انتباه مني فتحت المحفظة هذه

١٢ - رومل Rommel, Ervin : هو المارشال الالمانى المعروف بثعلب الصحراء، الذي كان يقود القوات الالمانية في معارك الصحراء الليبية .

١٣ - تروتسكي Trotski Lev : السياسي والمفكر الروسي المعروف (١٨٧٦ -

فاكتشفت مندهشا دار الرسانة هذه بمقابض سوداء ، لؤلؤية وفضية .

لقد كان هذا كله في سبيل لا شيء ، اذ ان (خيسوس) ، كان مسالما جدا بقدر ما كان اخوه (داود) متساغبا . وكان لـ (خيسوس) ايضا مواهب فنية كأخيه فقد كان ممثلا كبيرا يجيد نوعا من التمثيل الصامت ، دون تحريك الجسد او اليدين ، دون بث اي صوت ، لا يتحرك فيه الا وجهه الذي يبدل ملامحه اراديا فيعبر عما هو حي كأن له براقع متلاحقة متبدلة ، عن الخوف ، عن الكآبة ، عن الفرح ، عن الحنان . كان هذا الوجه الشاحب لهذا الشبح يصحبه في متاهاته الحيوية كلما طلع او برز او قفز من حين الى حين وهو محمل بمسدسات ما استعملها البنت .

كان هؤلاء الرسامون البركانيون يجذبون اليهم الراي العام كله ، فقد كانوا احيانا يفومون بمناقشات حادة عنيفة . ذات مرة بعد ان استنفدت الحجج اخرج كل من (دييفو ريبيرا) و(سيكيروس) مسدسيه الكبيرين واطلقا النار تفريبا في الوقت نفسه ، لكن . على أجنحة الملائكة المصنوعة من الجص المعلقة في سقف المسرح حين بدأت ريش الجص الكبير تتساقط فوق رؤوس المتفرجين ، خرج هؤلاء من المسرح مهرولين فزعين ، وانتهت المناقشة برائحة قوبة من البارود وبقاعة فارغة .

لم يكن (روفينو تامايو Rufino Tomayo) (١٤) يعيش اذالك في المكسيك بل في نيويورك . ومن هناك تنتشر رسوماته ولوحاته المتأججة المعقدة التي تمثل المكسيك كما تمثلها فواكه اسواقه وانسجته .

ليس هناك من تتساه به بين رسم (دييفو ريبيرا) ورسم (دافيد الفارو سيكيروس) اذ ان (دييفو) هو كلاسيكي ذو خطوط مستقيمة . وهو بهذا الاسلوب المستقيم المنعطف كأنه نوع من علم الخط التاريخي ، راح يربط تاريخ المكسيك بعضه ببعض ويجلو في أعماله برونق وزخرفة ناتئة عادات المكسيك ومآسي تاريخه ، فيما (سيكيروس) هو انفجار مزاج بركاني يؤلف بين فنية مندهشة وأبحاث طويلة .

١٤ - روفينو تامايو : رسام مكسيكي ولد عام ١٩٠٠ .

بين الخروج كل ليلة من السجن وبين أحاديث حول الاحتمالات الممكنة ، دبّرنا ، أنا و(سيكيروس) نفسه موضوع هربه وحرته ، فطبعنا له على جواز سفره تأشيرة دخول الى تشيلي وتوجه نحو وطني تصحبه زوجته (انجيليكا اريناليس) .

كانت حكومة المكسيك قد بنت مدرسة في مدينة «شيان» بتشيلي ، ثم تهدمت هذه المدرسة بالزلازل ، وفي هذه المدرسة رسم (سيكيروس) جدارية فائقة ممتازة . لقد كافأني الحكومة التشيلية على هذه الخدمة التي قدمتها للثقافة الوطنية بتوقيفي عن عملي لمدة شهرين .

(نابليون اويكو Napoléon Ubico)

لقد قررت زيارة غواتيمالا . فتوجهت اليها بسيارة عبرت بنا برزخ « تيوانتيببيك » ، وهي منطقة ذهبية في المكسيك ، بنسائها المرتديات ازياء فراشات وبرائحة في الهواء كرائحة الشهد . من بعد ولجنا غابة « تشياباس » الكبيرة . كنا نوقف السيارة ليلا منذهلين بالحفيف والضجيج وبرقيات الغابة التي تبثها في جلبة وصخب . فتجيبها الجداجد بأزيز عنيف ، أزيز كوكبي سيّار لا يصدق .

كان المكسيك الغريب يمد ظله الاخضر فوق ابنية قديمة عتيقة ، فوق رسومات سحيقة ، فوق جواهر وحلي ، فوق نصب تذكارية ، فوق رؤوس هائلة لحيوانات حجرية ، كل هذا كان يجثم في الغابة ، في الوجود المكسيكي الالفي الخرافي . بعد اجتياز الحدود ، هناك في اعلى امريكا الوسطى ، بهتني درب «غواتيمالا» الضيق بخطوطه ونباتاته العملاقة وبحيراته الهادئة السطوح كأنها عيون منسيّة لآلهة معتوهة ، ثم بدت غابات الارز والانهار العريضة البدائية التي تطل منها قطعان الحماة والحجر كأنها بشر أحياء يسبحون هناك .

لقد قضيت اسبوعا مع (ميغيل انخيل استورياس) (١٥) الذي ما كان

١٥ - ميغيل انخيل استورياس : رواي من «غواتيمالا» فاز بجائزة نوبل للاداب قبل (نيرودا) ، (١٨٩٩ - ١٩٧٤) .

قد عُرف بعد برواياته المنتصرة الرائعة ، فأدركنا منذ ان تعارفنا اننا ولدنا شقيقين متحابين فما افترقنا يوما واحدا طيلة هذا الاسبوع اذ اننا كنا نخطط في الليل لزيارات خاطفة نفوم بها الى مثنى نائية من سلاسل الجبال الملقمة بالضباب او الى موانئ اسنوائية لـ United Fruit .

لم يكن للعوانيماليين الحق في الكلام اذ لم يكن يجزؤ احد منهم ان يتكلم في السياسة امام الآخر فلقد كانت الحيطان تسمع وتبلغ بما تسمع . كنا احيانا نوقف العربية في اعلى الهضبة . وهناك ، بعد التأكد الدقيق من انه ليس ثمة من احد خلف شجرة او وراء صخرة كنا نحلل الوضع ونتكلم عن الحالة في حديث يطول جدا .

كان زعيم «غوانيمالا» ادالك رجلا يدعى (اوبيكو) ، يتربع على سدة الزعامة منذ سنين طويلة ، وكان بدينا نخينا ، ذا نظرة باردة ، قاسيا جبارا في اخلاص ولفان لجبروته وطفئانه ، هو بملي القانون وهو الأمر الناهي وليس لاحد ان يتحرك او ينطق في غوانيمالا الا بامرته وبإذنه على ان يكون هذا في صريح العبارة والاشارة من لدن سيادته . تعرفت على احد مساعديه وهو الآن صديق لي . كان هذا نوريا جدا اذ تجسرا ذات يوم فناقش الزعيم في امر صغير جدا ، فما كان من الزعيم الا ان قيده هناك وربطه الى عامود في مكتبه بانعصر الرئاسي وجلده بلا رحمة عقابا له على وقاحته ونوربته .

طلب مني الشعراء الشبان ان انشد عليهم بعضا من قصائدي . فارسلوا برقية الى (اوبيكو) طالبين منه السماح بذلك . فامتلا المكسان باصدفائي جميعهم وبطلبة شبان ، فقرات متشرفا بعضا من قصائدي لانه بدا لي انها قد تفصح شيئا من نافذة ذلك السجن الكبسير . جلس رئيس الشرطة في مكان بارز في اول صف جلسة تفتيش وتحرر وانذار . من بعد عرفت ان اربع بنادق سريعة الطلقات كانت قد ركزت هناك ووجهت نحوي ونحو الجمهور . كانت ستنتطق فيما اذا فادر رئيس الشرطة مقعده وقاطع فراه الشعر .

لكن ما جرى شيء يستدعي ذلك فقد ظل رئيس الشرطة في مقعده ستمع الى اشعاري حتى النهاية .

ثم رغبوا بتقديمي الى الديكتاتور ، كان رجلا متورّما بهوس جنون نابليون ، وكان يدع خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه ويقف في تصنع وقفة (بونابرت) . قالوا لي ان رفض هذه اللفتة الكريمة هو امر خطير جدا ، لكنني آثرت الا اسلم عليه فعدت مسرعا إلى المكسيك .

مختارات من المسدسات

لقد كان المكسيك في ذلك الوقت اكثر مسدسيا منه استعمالا لهذه المسدسات في القتل . كان فيه نوع من العبادة نحو المسدس ، نسوع من الوثنية . وكان حاملو المسدسات يخرجون كي يلعبوا بمسدساتهم مزهوين مفتخرين . وكان المرشحون الى النيابة والصحف يبدأون حملات «نوع المسدسات» دائما ، ولكنهم يدركون انه أسهل على رجل مكسيكي نزع سنه من نزع سلاحه الناري الحبيب الى قلبه جدا .

اقام لي ذات مرة الشعراء حفلة تكريم في نزهة على ظهر سفينة قد زينت بالزهور والاضواء ببحيرة « اكسيوشيميلكو » اجتمع ما يقرب من عشرين شاعرا متجولا فأبحرت معهم بين المياه والزهور عبر القنوات والوعور في ذلك المصب المخصص للتنزهات الزهرية منذ عهد «الاستيكيين» (١٦) . كان الزورق الكبير يختال في زينة من الزهور على كل جانب وفي أشكال ودمى والوان زاهية . ان ايادي المكسيكيين لهي مثل ايدي الصينيين غير قادرة على صنع اي شيء قبيح ، سواء اكان مسن الحجر او الفضة او الطين او القرنفل .

لقد اصرت على احد اولئك الشعراء خلال العبور، بمد تجرّع العديد من افداح «تيكيلا» (١٧) كي ينوع في التكريم ويمنح الحفل شيئا جديدا ، ان اطلق الى الفضاء بعبارات نارية من مسدسه الجميل الذي كان له في

١٦ - الاستيكيون : هم سكان المكسيك القدماء .

١٧ - تيكيلا : نوع من الخمر يشبه «الجن» .

مقبضه ترصيعات من ذهب ومن فضة . واذ بالزميل الاقرب الينا يخرج من حزامه مسدسه وينحي جانبا مسدس المقدم الاول ، وهو في حماسة بالغة ، ثم يدعوني ان اطلق من مسدسه ما شئت من العيارات النارية . في هذا الشغب والهياج هبّ الشعراء الرواة الآخرون ، كل بدافع ياصرار عن مسدسه فتحلّقوا حولي وحوّموا فوق رأسي ، يريد كل منهم ان اخار مسدسه وليس مسدس الآخر ، ذلك السرادق من المسدسات الذي كان يتصالب امام انفي او يمر تحت ابطي كان يصبح اكثر تهديدا وخطرا على حياتي في كل مرة ، الى ان خطر لي ان آخذ قبعة مكسيكية اصيلة كبيرة فالتقطت المسدسات كلها في مستقر هذه القبعة ، فطلبت من طابور الشعراء المتحلّق باسم الشعر والسلام ان يدعوا لي مسدساتهم في هذه القبعة فأطاعوا جميعا وبهذا الشكل اسنطعت ان اصادر لهم مسدساتهم لعدة ايام واحفظت بها في داري . اعتقد اني الشاعر الوحيد الذي على شرفه قد قدّمت له مخنارات من المسدسات .

لماذا نيرودا

كان قد اجتمع في المكسيك ملح العالم . كتاب كثيرون من اقطار العالم جميعها التجاوا الى الحرية المكسيكية فيما كانت الحرب في اوروبا تمتد وتطول وقوات هتلر تحقق الانتصارات واحدا اثر آخر بعد ان اكتسحت فرنسا وايطاليا . هناك في المكسيك كان يقيم (انا سيجيرس) والمهرج التشيكوسلوفاكّي (اغون ايروين كيش) الذي توفسي فيما بعد ، وآخرون كثيرون . ان (كيش) هذا ترك بعض الكتب الساحرة الأخاذة وكنت انا اعجب كثيرا بعبقريته الفذة وبتمارينه الطفولية وبمعرفته بالشعوذة والتهريج . كان ما ان يدخل الى بيتي حتى يُخرج بيضة من اذنه او يبتلع على جرعات سبع قطع من النقود ، كان هذا الكاتب الكبير المسكين المنفي في أمس الحاجة اليها . كنا قد تعارفنا في اسبانيا ، وبما انه كان يعلن دائما عن حب الاستطلاع الملحّ عليه في معرفة لاي سبب اسمي نفسي (نيرودا) دون ان اكون قد ولدت وارثا هذا اللقب ، فكنت اقول له مازحا :

— يا (كيش) العظيم ، انك انت مكتشف سر العقيد (ريدل) — قصة

مشهورة في التجسس جرت في النمسا عام ١٩١٤ - لكنك ابدا لن تستطيع ان تعرف سر اسمي (نيroda) .

وهكذا كان ، لقد مات فيما بعد في «براغ» وسط تكريمات منحها اليه وطنه المحرر ، غير انه ما استطاع ذلك الباحث المحترف ان يعرف لماذا (نيroda) يُدعى (نيroda) .

لقد كان الجواب سهلا جدا وهو لا يتضمن ما يبعث على الروعة او الدهشة ومع ذلك فقد كنت لا أبوح به ابيه في حيلة مني وتحفظ . حين كان لي من العمر اربع عشرة سنة كان والدي يضطهد نشاطي الادبي فسي امعان وتمنت ، اذ لم يكن يرضيه ان يكون له ولد شاعر . كي اخفي أوائل اشعاري فقد بحثت لي عن لقب ائبناه لانشر به هذه الاشعار وبهذا يعمه والدي عن تبيان جلية الامر فعثرت في احدي المجلات على هذا الاسم التشيكي دون ان ادري انه اسم كاتب كبير يجعله شعب بكامله وانه مؤلف «بالادا» (١٨) وكاتب «رومانثيه» (١٩) جميلة جدا ، وان له نصبا تذكاريا منتصبا في حي «مالا سترانا» براغ . ما ان وصلت ، بعد سنين كثيرة ، الى تشيكوسلوفاكيا ، حتى هرعت فوضعت زهرة عند اقدام تمثالته الملتهجي .

اليوم السابق على «بيرل هاربور»

كان يتردد الى بيتي ، من الاسيان ، (وينشيلاسو رويس) و(كونستانثيا دي لا مورا) وهي جمهورية ، قريبة (دوق ماورا) ، وكتابها in place of Splendor كان Bestseller في الولايات المتحدة ، و(ليون

١٨ - بالادا Palada : هي قصيدة عاطفية روائية ذات أبيات متوازية متناسقة نشأت في شمال أوروبا .
١٩ - رومانثيه Romance : هي قصيدة غنائية ذات قافية واحدة عماد نسي البيت الثاني .

فيليبه)، و(خوان ريخانو) (٢٠)، ومورينو بيتا) و(هيريرا بيتيره) (٢١) وهؤلاء جميعهم شعراء ، و(ميغيل برييتو) و(رودريغيث لونا) وهما رسامان . ومن الايطاليين (فيتوريو فيدالي) ، وهو شهير لانه كان هو المقدم (كارلوس) في الطابور الخامس ، و(ماريو مونتاغنانا) وهما منفيان ايطاليان ، مليئان بالدكريات والحكايا المدهشة والثقافة الدائمة الحركة . وهناك كان ايضا (جاك سوستيل) و (جيلبرت ميديونسي) ، وكان يتكاثر المتجنون طوعا او على مضض وإكراه من جمهوريات امريكا الوسطى؛ غواتيماليون ، سالفادوريون ، هوندوريون . كان هؤلاء جميعا يملأون المكسيك ويصبغونه باهمية امنية ، وكانت داري ، وهي عبارة عن منزل قديم في حي « سان انجيل » تخفق كما لو كانت قلب العالم .

مع (سوسيل) هذا الذي كان آنذاك اشتراكيا من اليسار الفرنسي والذي بعد سنين أزعج كثيرا الجنرال (ديفول) حين كان هو رئيسا سياسيا للانقلابيين المنمردين في الجزائر ، وقع لي شيء أجدنسي مضطرا ان أروبه هنا .

كان عام ١٩٤١ قد تقدم ، والنازيون كانوا يحاصرون مدينة «لينينغراد» ويتوغلون في اراض سوفيتية اخرى . كان الثعالب ، العسكريون اليابانيون الملتزمون بمحور برلين - روما - طوكيو ، يخشون ان يخسروا حصتهم من غنيمة الحرب التي كانت تربحها المانيا . كانت تدور عبر العالم شائعات كثيرة تشير الى ان ساعة الصفر التي فيها تنطلق من الشرق الاقصى القوة الهائلة اليابانية آتية لا ريب . فيما كانت بعثة سلام يابانية تؤدي تحية التملق للحكومة الامريكية في واشنطن لم يكن ثمة مجال للشك

٢٠ - خوان ريخانو : شاعر اسباني ولد عام ١٩٠٢ ولجأ الى المكسيك عام ١٩٣٦ ، مثل زميله الشاعر (ليون فيليه) وآخرين كثيرين . توفي عام ١٩٧٥ .
٢١ - هيريرا بيتيره José : شاعر وروائي اسباني ولد عام ١٩١٠ ولجأ الى فرنسا عام ١٩٣٦ ، ثم الى المكسيك ، ثم الى السويد .

في ان اليابانيين سيشنون هجوما مفاجئا عما قريب اذ ان «الحرب الخاطفة المباشرة» كانت النموذج الدامي لتلك الفترة .

عليّ ان اوضح قبل كل شيء كيف تفهم حكايتي التي سأرويها اثر هذا التوضيح ، ان خطا يابانيا قديما من البواخر كان يربط اليابان بتشيلي . لقد سافرت انا اكثر من مرة في هذه السفن وكنت اعرف خط مسيرها ، كانت تتوقف في موانئنا ويهبط منها بحاراتها المختصون بشراء الحديد القديم والتقاط الصور ، ثم تحاذي هذه البواخر الشاطيء التشيلي كله، فشاطيء « البيرو » و « الاكوادور » وتستمر حتى ميناء « مانشانيو » المكسيكي ، كي توجه قيدومها نحو « يوكوهاما » مجتازة المحيط الهادي . حسنا اذن ، ذات يوم وأنا ما زلت بعد قنصلا عاما لتشيلي في المكسيك ، قدم الى القنصلية سبعة من اليابانيين فطلبوا مني فسي الحاج واستعجال ان اعطيهم اشارات دخول الى تشيلي ، وقد جاء هؤلاء من الشريط الساحلي لامريكا الشمالية ، من «سان فرانسيسكو» ، من «لوس انجليس» ومن موانئ أخرى ، كانت وجوههم تنمّ عن بعض القلق والاضطراب ، وكانوا انيقي اللباس مزودين بوئائق وجوازات سفر ، وعليهم ملامح مهندسين او صناعيين منفذين .

لقد سألتهم ، طبعا ، لماذا يريدون الذهاب الى تشيلي في اول طائرة تنقل مع انهم حديثو الوصول الى المكسيك ، اجابوني بانهم يرغبون للحاق بباحرة يابانية راسية في ميناء «توكوبييا» بتشيلي ، وهو ميناء لتصدير ملح البارود الناتج من شمال تشيلي . أجبتهم على ما قالوه بانهم ليسوا بحاجة الى السفر الى تشيلي ، وهي في الطرف الآخر من القارة الامريكية ، نظرا لان هذه البواخر اليابانية نفسها ، عادة ، ترسو في ميناء «مانشانيو» المكسيكي ، حيث يستطيعون ان يصلوا مشيا على الاقدام وفي وقت قريب جدا .

نظر بعضهم الى بعض وابتسموا مضطربين ، تكلموا فيما بينهم بلغتهم ثم تشاوروا وسكرتير السفارة الذي كان يرافقهم .

هذا السكرتير كان صريحا معي فقال :

- انظر ، ايها الزميل ، ان ما جرى هو ان هذه الباخرة قد غيرت طريقها ولن ترسو بعد في ميناء «مانثانيو». واذن ، على هؤلاء السادة الاختصاصيين المتميزين ان يذهبوا الى الميناء التشيلي كي يلحقوا بالباخرة.

لقد مر في ذهني بسرعة اني امام شيء مهم جدا ، فطلبت منهم جوازات سفرهم ، ومعلومات عن عملهم في الولايات المتحدة وقلت لهم توّان ان يعودوا في اليوم التالي .

لم يكونوا موافقين فقد كانوا يحتاجون الى تأشيرات الدخول حالا وكانوا على استعداد لدفع اي ثمن في سبيل الحصول عليها .
بما ان ما كنت أحاوله أنا هو كسب الوقت، فقد قلت لهم انه ليس من صلاحياتي اعطاء تأشيرات دخول الا بعد استشارة ، واننا سنتكلم عن هذا في اليوم التالي .

ظللت وحيدا بعد ان انصرفوا .

شيئا فشيئا بدأ يتوضح في ذهني اللغز ، لماذا هذا الهرب العاجل من الولايات المتحدة وهذا الاستعجال في الحصول على التأشيرات ؟ افتغير الباخرة اليابانية اتجاهها لاول مرة منذ ثلاثين سنة ؟ فماذا يعني كل هذا؟ لا بد ان الامر يتعلق في انهم مجموعة من الجواسيس اليابانيين المهمين جدا وانهم بعد تادية مهمة مستعجلة في الولايات المتحدة هربوا منها ، وهم الآن على عجل نظرا لانهم يعرفون ان امرا خطيرا لا بد وأقع في الحال وان هذا الامر ما هو الا مشاركة اليابان في الحرب .

هذه النتيجة التي توصلت اليها جعلتني في حالة عصبية بالغة ، ماذا استطيع ان افعل ؟

لم اكن اعرف من ممثلي الامم الحليفة للمكسيك لا انجليزا ولا امريكيين شماليين ، ما كنت على اتصال وثيق الا باولئك الذين عينوا ممثلين رسميين للجنرال ديغول وهم على علاقة وطيدة بالحكومة المكسيكية .

اتصلت بهم في سرعة ، شرحت لهم الوضع ، وها هي في حوزتنا
اسماء هؤلاء اليابانيين وأوراقهم فان قرر الفرنسيون التدخل في هذا
الشان فاننا سنلقي القبض عليهم ، هذه حجتي التي أبديتها اليهم متحمسا .
ثم اتر ملاحظة الجمود وعدم الاهتمام بما قلته وأبديته قلت يائسا من هؤلاء
المثئين الديغوليين :

– ايها الدبلوماسيون الشبان ، أكتشفوا سر هؤلاء العملاء اليابانيين
تكسبوا الفخر والمجد ، من ناحيتي فاني لن أمنحهم تأشيرات الدخول ، لكن
على حضراتكم ان تسرعوا في اتخاذ قراركم حول هذا الشان .

دام هذا الشد والمذ (٢٢) اكثر من يومين ، لسم يهتم (سوستيل)
بالوضوع اطلاقا ، لم يشأ ان يعمل شيئا ، وأنا ، كقتصل بسيط لتشيلى ،
ما كنت لاستطيع ان افعل اكثر مما فعلت . تجاه رفضي اعطاءهم تأشيرات
الدخول اضطر اليابانيون ان يحصلوا في سرعة على جوازات سفر
ديبلوماسية وتوجهوا الى السفارة التشيلية فحصلوا منها على هذه
التأشيرات فوصلوا في الوقت المناسب الى «توكايبا» حيث ركبوا فسي
باخرتهم المقصودة .
بعد اسبوع استيقظ العالم على خبر الافارة على ميناء «بيرل هاربور» .

انا «ال مالاكولوفو»

لقد نشر في صحيفة بتشيلي ، منذ عدة سنين ، انه حين وصل
صديقي المخلص الاستاذ المشهور (جوليان هوكسلى Julian
Huxley) (٢٢) الى «سانتياغو» ، سأل عني في المطار .

– أفتسال عن الشاعر (نيرودا) ؟ – أجابه الصحفيون .

٢٢ – الشد والد : تعبير اسباني ، واضح المعنى .

٢٣ – جوليان هوكسلى : عالم بالاحياء وكاتب انجليزي ولد عام ١٨٨٧ .

– كلا ، انا لا اعرف اي شاعر باسم (نيرودا) ، بل اني اريد التكلم مع «ال مالاكولوغو» (نيرودا) . ان هذه الكلمة الاغريقية «مالاكولوغو» تعني :
«اختصاصي في الرخويات» .

لقد منحتني هذه الحكاية التي كان يستهدف منها ازعاجي . لسدة عارمة . ولم يكن (هوكسلي) ليقتصد منها ازعاجي لاننا كنا صديقين منذ سنين كثيرة ، على فكرة هو انسان ظريف جدا وهو اكثر اصالة وحيوية من اخيه الشهير (الدوس) .

لقد كنت في المكسيك اذهب الى الشواطئ واغرق نفسي في مياهها الشفافة الدافئة لالتقط اصداقا ومحاربا بحرية رائعة جميلة ، من بعد ، في كوبا وفي اماكن اخرى كنت افعل الشيء نفسه فراح كنزي البحري يتضخم عن طريق هذا الصيد وعن طريق المغايضة والشراء والهدايا والسرقات (ليس ثمة من جامع شيء ، شريف البتة). الى ان ملاغرفا كثيرة في منزلي .

كنت املك اكثر الاصناف غرابة من بحار تشيلي ، الفيليبين ، اليابان . البلطيق ، جمعات من القطب الجنوبي ، حلزونات ملونة من بحر كوبا ، قوقعات رسامات لاسبات احمر وزعفرانيا (٢٤) ، ازرق (٢٥) وبنفسجيا كأنهن راقصات بحر الكريبي ، الحق اقول ان النوع الوحيد الذي كان ينقصني هو حلزونة أرضية من ماتسو غروسو *Mato Crosso* بالبرازيل ، رايتها مرة فلم استطع شراءها وما قدرت على السفر الى الغابة كي التقطها من هناك ، كانت خضراء كلها في جمال زمردة شابة فتية .

لقد بالغت في هذا المذهب الحلزوني حتى اني قمت بزيارة بحار نائية قصية ، كذلك اصداقائي بدأوا في البحث عن حلزونات في «تعطزة» معدية .

٢٤ – زعفران : هكذا في الاصل *Azaferan* . عن العربية .
٢٥ – ازرق *azul* : الكلمة مأخوذة من الكلمة العربية ذات الاصل الفارسي لآزود .

اما بالنسبة للتي كانت تنتمي اليّ فقد تجاوزت الخمسة عشر الفا ، كانت تملأ الرفوف كلها وكانت تتساقط من على الموائد والكراسي . وكتب علم الحلزونات او «مالاكولوجيا» ، فلتسمّ بما تسمى ، ملأت مكتبتي كذلك . ذات يوم أمسكتها جميعها ووضعتها في صناديق كبيرة ثم حملتها الى جامعة تشيلي ، فكانت اولى هباتي الى الروح الام *Alma Mater* وكانت مجموعتي هذه ذات شهرة واسعة فاستلمتها جامعتي ، هذه المؤسسة الجيدة ، في شكرات وخطابات ثم دفنتها في قبو ، ابدا من بعد ما رأيت ولا شوهدت .

(أراوكانيا) (Araucania)

حينما كنت بعيدا ، متميزا في جزر الارخبيل البعيد ، كان البحر يوشوش والعالم الصامت كان مفعما بأشياء تحكي عن وحدتي وعزليتي ، لكن الحروب الباردة والساخنة لوّثت الخدمة القنصلية وجعلت من كل قنصل تمثالا متحركا وصنما من غير شخصية لا يستطيع ان يقرر اي شيء، وكان عمله يدنو كثيرا بشكل مشبوه من عمل الشرطة .

كانت الوزارة تفرض عليّ ان اتحرى الاصول العرقية للناس : افريقيين ، آسيويين ، يهودا ، ولا احد من هذه المجموعات الانسانية كان يستطيع الدخول الى وطني .

كانت الحماسة تبلغ مدى بعيدا الى درجة اني كنت أغدو انا ضحية لها ، فحين أسست ، دون اي قرش من خزانة الدولة التشيلية ، مجلة متفنة عنونها «أراوكانيا» ووضعت على الغلاف صورة امرأة اراوكانية جميلة تضحك بكل أسنانها ، كان هذا كافيا لكي تلفت وزارة الخارجية نظري في لهجة شديدة لانها اعتبرت المجلة استخفافا وعصيانا ، علما بان رئيس الجمهورية السيد (بيدرو أغيره ثيردا) له وجه نبيل لطيف تبدو في سحناته مواد خلاسيّتنا وهجننا كلها .

انه ليعرف ان قبائل «أراوكانو» قد ابيدت عن بكرة ابيها ، ثم فسي النهاية تنوسيت بعد ان هُزمت لان التاريخ لا يكتبه الا الغالبون او الدين

يجنون ثمرة الانتصار . بيد انه ليس فوق هذه الارض الا اجناس قليلة
تفوق في جدارتها الجنس «الأراوكاني» .

وسياتي اليوم الذي نرى فيه جامعات اراوكانية وكتبا مطبوعة باللغة
الاراوكانية ، وعند ذلك سنعرف ما فقدناه من صفاء ونقاء وطاقاة بركانية .

ان الادعاءات «العرقية» الباطلة عند بعض أمم امريكا الجنوبية التي
هي نفسها نتاج تصالبات واختلاطات خلاسية هجينة لهي طرحة (٢٦) من
نوع استعماري . يريدون نصب سقالة حيث بضعة رجاء بيض موسوسون
متشككون او «مستبيضون» يقدمون انفسهم في المجتمع وهم يومنون الى
انفسهم امام الآريين الانقياء او السواح السفسطائيين . لحسن الحظ هذا
اصبح من مخلفات الماضي وها هي الامم المتحدة مليئة بمندوبين سود
ومنغوليين (صفر) ، اي ان نبات الاجناس الانسانية يعرض ، بنسغ
الدكاء الذي يصعد ، ألوان اوراقه كلها .

لقد انتهى بي الامر ان ضقت ذرعا وذات يوم تخلت الى الابد عن
منصبي : وظيفة القنصل العام .

سحر و سر

اضف الى هذا ، اني ادركت ان العالم المكسيكي المقموع المردوع ،
العنيف القومي، الملتف بكياسته التي يرجع عهدها الى ما قبل (كولومبوس)،
سيمضي كما كان بدون حضوري ولا شهادتي .

حين قررت العودة الى بلدي كنت افهم الحياة المكسيكية اقل مما كنت
افهمها حين وصلت الى المكسيك .

٢٦ - طرحة : هكذا في الاصل Tara ، وهي تعني ما يطرح من اللون الكامل مثل
وزن الوعاء او السفط او الشاحنة . عن العربية

كانت الفنون والآداب تنتج في دوائر متنافسة ، لكن الويل لمن يأتي من الخارج فيميل الى جانب ضد آخر او يكون مع فئة ضد اخرى، فان هؤلاء وأولئك سينقضون عليه ويسحقونه .

عندما هيات نفسي للسفر ، اقاموا لي مظاهرة هائلة ؛ حفلة عشاء حضرها ما يقرب من ثلاثة آلاف مدعو ، دون عد المئات من الذين ما وجدوا مكانا فارغا . عدة رؤساء جمهورية ارسلوا يعبرون عن مباركتهم .

بيد ان المكسيك هو حجر المحك لامريكا كلها ، وليس عينا انه قد نقتشت هناك ساعة التوقيت الشمسي لامريكا القديمة ، الدائرة المركزية للبت ، للمعرفة وللسر .

ان كل ما كان يمكن ان يجري ، جرى . لقد كانت الصحيفة الوحيدة للمعارضة تمويلها الحكومة ، كانت الديموقراطية الاكثر ديكتاتورية مسن الديكتاتورية نفسها تحكم هناك .

اني اذكر حادثة مأساوية اثرت في نفسي بشكل رهيب ، كان ثمة اضراب في معمل استغرق زمنا طويلا دون ان يُعثر على اي حل لانتهائه ، ودون ان يلتمح في الجو ضوء يشير الى انتهائه ، فاجتمعت نساء المصيرين واتفقن على زيارة رئيس الجمهورية كي يشرحن له الموقف ، ربما كن يردن ان يعبرن له عن قلقهن وبؤسهن . طبعا ما كن ليحملن اسلحة مطلقا . اشتريين باقة من الورود كي يقدمنها الى ولي الامر او الى زوجته ، كن على وشك الولوج الى القصر حين اوقفهن الحرس الجمهوري فمنع عليهن الاستمرار لان السيد الرئيس ما كان ينوي استقبالهن ، وأمرن بأن يتوجهن الى الوزارة المعنية وان عليهن ان يخلين المكان حالا ، فهذا امر قاطع عاجل .

النساء بيئن قصدهن وشرحن موضوعهن وقلن انهن لن يتسببن في اي ازعاج مهما كان ، وانهن لا يردن الا اعطاء هذه الزهور الى السيد الرئيس او الى حرمة المصون، والطلب منه ان يعمل على حل الاضراب في اسرع وقت ممكن ، اذ انهن لا يجدن ما يؤوين به اولادهن ولا ما يسد الرمق ، وانه من الصعب جدا ان يستمر الوضع على هذه الحالة ، فرفض رئيس الحرس ان يحمل اية رسالة او اي خبر الى السيد الرئيس، فأصرت

النساء من جانبهن على البقاء هناك الى ان يلتبى طلبهن .

آنذاك سمعت طلقات انطلقت من حرس القصر، واذ بسبع من النساء يسقطن مضرجات بدمائهن ميتات ، بالاضافة الى جريحات أخريات .

في اليوم التالي اقيمت الجنائز السبع ، كنت أظن ان موكبا هائلا سيرافق نعوش تلك النساء الشهيدات غير ان اشخاصا قلائل مشوا في الجنائز الموحدة . بلى ، تكلم الزعيم النقابي الكبير وكان هذا ثوريا معروفا، كان خطابه على المقبرة لا يُقدح فيه لما له من أسلوب بلاغي رثان طنان ، قرأته بكامله في اليوم التالي وقد نشرته الصحف ، فلم يكن يحتوي على سطر واحد من الاحتجاج ، لم تكن فيه كلمة واحدة من الغضب ولا حرف يطالب بمحاكمة المسؤولين عن هذه الفعلة الشنعاء . بعد مضي اسبوعين على هذه المجزرة ما كان احد يتكلم عن الحادثة . ابدا ما قرأت من بعد ان احدا يشير الى هذه الحادثة او يذكرها .

كان رئيس الجمهورية امبراطورا «ايتيكيا» ، لا يمكن ان يمس في شيء فهو اكثر رفعة من العائلة البريطانية المالكة بألف مرة . ما مسن صحيفة ، سواء في مزح او جد ، كانت تجرؤ على انتقاد هذا الموظف السامي ، والا فانها تتلقى حالا ضربة مميتة قاضية .

ان ما هو جذاب خلّاب ، تليف مآسي المكسيك الى درجة ان المرء يعيش مذهولا امام التورية ، تورية تبتعد اكثر فاكثر عن النبض الجوهري، عن الهيكل الدامي . ان الفلاسفة أصبحوا نقّادا في علم الجمال ، ارتموا على البحوث الفنية الوجودية الزهيدة التي تبدو ازاء البركان مشينة معيبة . ان السلوك المدني لتقطع وصعب . ان القهر ، الاخضاع ، الاذلال، يأخذ مجاري عديدة تترسب مياهها حول العرش .

لكن كل ما هو سحري ينشأ ويعاد نشوؤه دوما في المكسيك . من بركان بدأ يولّد من جديد فلاّحا في حقله الفقير بينما هو يبدر فاصوليا ، الى البحث المستمر عن رفات (كورتيس Cortés) الذي حسب ما يقال ، يستريح في المكسيك مع الخوذة الذهبية التي تغطي جمجمة الفاتح،

الى المتابعة الشديدة التي ليست اقل من الاخرى في البحث عن بقايا
الامبراطور الاثينيكي : (كوانثيموك Cuanthemoc) ، التي ضاعت منذ
اربعة قرون والتي قد تظهر هنا او هناك على حين غرة ، اذ ان هنودا
سريين لا يرون يحفظونها ويصونونها ، كي تعود للنشوء مرة اخرى في
الليل الطلسم .

ان المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي .
ما من شيء سوى الموت يقدر على ان يطوي اجنحته فوق قلبسي : قلب
جندي غاف .

الفضل الثامن

الوطن في دياجير

(ماكتشو بيكتشو) (١)

لقد اسرعت وزارة الخارجية فوافقت على استقالتي من عملي .

ان انتحاري الديبلوماسي منحني الفرع الاكبر : فرح انني استطيع العودة الى تشيلي . اني لاعتقد في ان الانسان يجب ان يعيش في وطنه واومن ان اجتثاث المرء من جذوره ، واستئصال البشر من تربتها ، لهما خيبة تعكر وضوح الروح واحباطا يفسد جلاء النفس . انا لا استطيع العيش

١ - ماکتسو بیکتشو : هي بلدة قديمة ، ترتفع ثلاثة آلاف متر من سطح البحر ، مبنية من حجر غرانيتي ابيض قرب اخدود **Urubamba** في سلسلة جبال «الانديس» ، اكتشفها عالم الالمان (الانجليزي) **Hiran Bingham** عام ١٩١١ ، وفي اعلى قمة من قمم هذه المدينة تسمى الصخرة المقدسة التي توحد الشمس بالمدينة .

الا في ارضي نفسها ، انا لا استطيع الحياة دون ان اضع قدميّ وبديّ
وسمعي في تربة وطني ، انا لا استطيع التنفس دون ان احس بدوران
مياها وظلالها ، انا لا استطيع النمو دون ان اشعر بجلدوري وهي تبحث
في الحماة عن الذات الأم ، عن الجوهر الاصل .

لكن قبل بلوغي تشيلي قمت باكتشاف آخر اضاف تطورا جديدا
الى تطور شعري .

لقد توقفت في «البيرو» وصعدت حتى اطلال «ماكتشو بيكتشو» ،
امتطينا أحصنة حتى استطعنا السمو الى اعالي هذه المرتفعات ، اذالك
لم يكن نمة طريق معبّدة للسيارات . لقد رأيت من على ذراها الابنيسية
الحجرية القديمة التي تحيط بالقمم العالية جدا لسلسلة جبال «الانديس»
الخضراء . كانت تنحدر من القلعة المتآكلة المنقضة بفعل الحت على مضي
القرون والدهور ، سيول ووديان . كانت تصعد من نهر «ويلكامايسو»
Wilcamayo كتل من ضباب ابيض تعمم هذه الدرى . لقد شعرت
بضآلتي في مركز تلك السرّة الحجرية ، سرّة عالم غير مألوف بالسكان ،
عالم فخور منيف شاهق ، كنت انمي اليه بشكل من الاشكال . لقد شعرت
ان يديّ كانتا قد عملتا هناك في احدى المراحل التاريخية السحيقة ، كانتا
تحفران اخاديد ، تملسان الصخور .

احسست اني تشيليّ ، بيرويّ ، امريكي . عثرت في تلك المرتفعات
الوعرة ، بين تلك الاطلال المتناثرة المجيدة ، على عقيدة ايمان كي يستمر
غنائني ونشيدتي .

هناك ولدت قصيدتي «مرتفعات ماکتسو بيكتشو» (٢) .

٢ - مرتفعات ماکتسو بيكتشو : لقد ترجمنا هذه القصيدة - الملحمة ولكنها لم
نشرها بعد .

سهوب ملح البارود

لقد وصلت من جديد في نهاية عام ١٩٤٣ الى « سانتياغو » ، فنزلت في منزلي الذي استطعت تملكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبي لما قد يجيء به المستقبل . في هذا المكان ذي الاشجار الكبيرة السامقة جمعت كتبتي وبدأت مرة اخرى الحياة الصعبة .

لقد بحثت من جديد عن جمال وطني ، جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء في بلدي ، عن اعمال زملائي ، عن ذكاء بني وطني .

لم يكن البلد قد تغير، او تبدل . ارياف وضيق غافية ، فقر مربع في المناطق المنجمية ، والناس المتائقون يملأون ناديتهم : نادي

لقد سبب لي قراري الذي اتخذته اضطهادا وملاحقة ودقائق نجمية . (٣)

واي شاعر يندم ؟

ان الصحفي (كورثيو مالابارت) (٤) الذي اجري معي مقابلة بعد سفوات مضت على ما سارويه الآن ، قال في مقالة ، مصيبا : « لست شيوعيا ، لكنني لو كنت شاعرا تشيليا لاصبحت شيوعيا ، كما فعل (بابلو نيرودا) . يجب على المرء هنا في تشيلي ان يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء » .

لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائبا في مجلس الشيوخ في ٤ آذار من عام ١٩٤٥ . اني ساظل افتخر مدى حياتي

٣ - دقائق نجمية : التعبير هنا يشبه ما نقوله بالعربية « رؤية نجوم الظهر » من شدة العذاب والاضطهاد .

٤ - كورثيو مالابارت : صحفي وكاتب ايطالي (١٨٩٨ - ١٩٥٧) .

بان الذين صوتوا لي هم الالف من التشيليين يعيشون في اقصى منطقة بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم النحاس وملح البارود .
انه لصعب وعسير جدا المسير عبد هذه السهوب ، فالسما لا تدهلر في هذه المناطق خلال نصف قرن او بزيد . والصحراء منحت عمال المناجم سيما صلبة وملامح متجهمة . فهم رجال ذوو وجوه ملوحة بالشمس محروقة ، ان تعبيرات نفوسهم عن الوحدة والعزلة والهجران تخفزن في عيونهم ذات الحدة الغامقة والشدة المعتمة . كان علي ان اصعد من الصحراء الى سلسلة الجبال ، ان ادخل في كل بيت فقير ، ان اعرف الاعمال اللانسانية التي يتعرضون لها ، ان اشعر اننى مستامن على امال الانسان المنزل المضطهد المغمور ، ان كل هذا ليس بمسؤولية سهلة

وعادية . غير ان شعري استطاع ان يفتح طريقا للاتصال فاستطعت ان امشي وان اجري وان استقبل على اني اخ وفي من لدن مواطني الذين يعيشون في ظروف صعبة وحياة قاسية صلبة .

لست ادري ، ان كان في باريس او في براغ ، حين راودني شك ضعيف حول موسوعية المعلومات لدى اسدقائي الحاضرين معي هناك ، تقريبا كلهم كانوا كتابا والطلبة كانوا قلة فيهم .

– نحن نتكلم كثيرا عن تشيلي – قلت لهم – واني على يقين بانكم تاملونني نظرا لانني تشيلي ، لكن ، افتعرون شيئا عن بلدي البعيد النائي ؟ مثلا ، في اية وسيلة من وسائل النقل نتحرك ؟ اعلى فيل ، افي سيارة ، ابطار ، اعلى متن طائرة ، اعلى دراجة ، ام على ظهر جمل ام في مزلفة جليد ؟

اجاب اكثرهم في جدية وقناعة : على ظهر فيل .

ليس في تشيلي لا فيلة ولا جمال . لكنني ادرك انه لامر مبهم ومحير ان بلدا يولد في القطب الجنوبي الجليدي لينتهي في السهوب السبخة المالحة والصحاري حيث لا مطر منذ نصف قرن على الاقل . كان علي ان اجتاز هذه الصحاري واجوب بها خلال سنين عديدة لاني كنت نائبسا اختاره سكان تلك الفيافي العزلاء ، لاني كنت ممثلا لشغيلة لا حصر لهم

يكدون في ملح البارود والنحاس ، هؤلاء ما اسثعملوا يوما ربطة عنق قط .

التوغل في تلك السهوب ومواجهة تلك الرمال هو كالدخول في القمر ، ان هذا النوع من الكرة الخالية والكوكب الفارغ يختزن الثروة الكبرى في وطني ، لكن لا بد من استنباطها من باطن الارض الجافة القاسية وهذه الارض ليست مزودة بما يفري للعيش فيها ، ان نقل الماء اليها يكلف جهودا جيدة ناهيك عن حفظ نبتة تزهر ولو كانت زهرة متواضعة ، او عن مقتابعا وثماني سنوات من الالاح وسبع ضحايا .

انا انتمي الى الطرف الآخر من الجمهورية التشيلية ، فقد ولدت في اراض خضراء ذات اشجار غابية فكانت لي طفولة ذات مطر وثلج . ان اضطراري لمجابهة تلك الصحراء القمرية كان يعني انقلابا في وجودي كذلك ان تمثيل اولئك الرجال في مجلس الشيوخ ، وتمثيل اراضيهم الهائلة المنعزلة كان مشروعا صعبا وعملا شاقا . ان الارض العارية بسلا حشيشة واحدة ، ولا قطرة ماء تائهة ، لهي سر شديد ولغز نفور . فيما تحت الغابات ، ازاء الانهار ، كل شيء يكلم الانسان ، الصحراء هي على العكس من هذا لا تخاطب احدا وانا ما كنت لافهم لغتها ، اي ، صمتها .

خلال سنين طويلة ركزت مؤسسات ملح البارود سيطرة حقيقية : اقطاعيات او ممالك في تلك السهوب ولقد اُغلق الانجليز ، الالمان ، وتشكيلة الغزاة المحتلين كلهم على هذه الاراضي المنتجة للمح البارود واقطعوهما لانفسهم واعطوها اسم مكاتب . هناك صكوا جملة خاصة بهم فرضوها على العمال ، ومنعوا اي اجتماع قد يعقدونه وحرموا الاحزاب ومنعوا الصحافة الشعبية . لم يكن من السهل الدخول الى تلك المناطق الا بسماح خاص لا يتوصل اليه الا القلة المختارة .

كنت ذات مساء اتحدث الى عمال مرآب في مكاتب ملح البارود التابعة (ماريا اليئا) . كانت ارضية هذا المرآب دائما موحلة بالمساء والزيت والسوائل ، فكنت والقادة النقابيين الذين اصطحبوني ندوس على السواح نخينة تعزلنا عن الارض الموحلة .

ان هذه الالواح النخينة - قالوا لي - كلفتنا خمسة عشر اضرابا

متتابعا وثمانى سنوات من الالاح وسبع ضحايا .

بالنسبة للضحايا السبع فقد قصوا عليّ انه في احد الاضرابات هذه ، اخذت شرطة التركة سبعة من فادة العمال ، كان الحراس يمتطون الخيل فيما العمال وهم مربوطون الى الخيول بحبال يناعونهم على الاقدام عبر الاراضي الرملية النائية ثم افرغوا فيهم ما شاءوا من العيارات النارية . ظلت اجسادهم ممددة تحت اشعة الشمس المتوهجة اللاهبة وبرد الصحراء الفارص الى ان عشر عليهم رفاقهم فدفنواهم .

من قبل كانت الاشياء اسوأ كثيرا ، مثلا ، في عام ١٩٠٦ ب «ايكيكه» نزل المذبون الى المدينة من مكاتب ملخ البارود جميعها ، كسي يقدموا مطالبهم مباشرة الى الحكومة ، فاجتمع آلاف الرجال المنهكين بما قاسوه من المسير الطويل للاستراحة في ساحة تجاه مدرسة هناك ، كانوا ينوون ان يتوجهوا في صباح اليوم التالي ليروا حاكم المنطقة فيعرضوا عليه مطالبهم ، لكنهم ما اسنطعوا ان ينفدوا ما عزموا عليه ، فلقد قدمت في فجر ذلك اليوم قوات عسكرية يقودها عقيد فاحاطت بالساحة وبدأت باطلاق النار والتقتيل دون اي انذار او تحذير فسقط صريعا في تلك المجزرة اكثر من ستة آلاف رجل .

في عام ١٩٤٥ كانت الامور تجري في صورة احسن ، لكن ، احيانا ، كان يبدو لي ، ان زمن الابداء الجماعية يعود من جديد . ذات مرة منعت من التوجه الى العمال في محل النقابة ، فدعوتهم انا الى خارج ذلك السور ، وفي وسط الصحراء بدأت اشرح لهم الوضع وابين لهم الوسائل الممكنة للخروج من هذه الحالة التي هم عليها ، كنا ما يقرب من مائتي شخص واذ بي اسمع ضجة آليات تقترب ، على بعد اربعة امتار او خمسة مني وقفت دبابة عسكرية ثم فتحت فوهتها واطلت فوهة رشاش منها قد صوت نحو رأسي ، ثم اطل قرب الرشاش ضابط متائق جدا لكنه جاد جدا ، اقتصر على توجيه نظره اليّ بينما كنت اتابع خطابي ، وهذا كان كل شيء .

ان الثقة التي وضعها في الشيوعيين اولئك العمال الكثيرون ، وهم اميون في غالبيتهم ، كانت قد ولدت مع (لويس ايميليو ريكايرتين) الذي بدأ نضاله في هذه المنطقة اليباب . من عامل محرض بسيط ، من فوضوي

قديم ، تحول الى حضور شبحي هائل في كل مكان ، فلقد ملا البلسد بالنقابات والاتحادات واستطاع ان ينشر اكثر من خمسة عشر صحيفة مهمتها الدفاع عن هذه المنظمات الجديدة التي خلقها ، وكل هدا بلا اي سنتيم . كان المال يخرج من الضمير الجديد الذي كان العمال قد تبثوه وتكفلوا به .

لقد رأيت في بعض الاماكن مطابع (ريكابرين) التي خدمت قضية العمال في بطولة وجراة ، وظلت تعمل في سبيل هذه القضية اكثر من اربعين سنة ، بعض هذه الآلات حطمها رجال الشرطة ثم أُصلحت من بعد في دقة واعتناء ، وكان تلمع فيها الندوب الهائلة تحت اللحام الفراسي الودي الذي جعلها تتحرك من جديد .

لقد تعودت في تلك الجولات الكثيرة التي كنت اقوم بها عبر السهوب ان انزل في اكثر ابيوت فقرا ، في بيوت صغيرة ، او أكواخ او اخصاص يغطنها رجال الصحراء . كان ينتظرنني دوما عند مداخل المناجم مجموعة من العمال وهم يحملون رايات صغيرة للترحيب بي ، من بعد كانوا يدلونني على المكان الذي سأبيت فيه . ثم يتوافد عليّ في غرفتي خلال اليوم كله نساء ورجال يعرضون عليّ شكوايهم العمالية ونزاعاتهم المحلية او العائلية . هذه الشكاوي كان لها احيانا طابع قد يراه من هو غريب ، مضحكا هزليا؛ مثلا نقص الشاي قد يؤدي بهم الى شن اضراب ذي نتائج خطيرة . اهو من الضروريات الملحة كما هو الامر عليه في لندن ، في هذه المنطقة البائسة الفقيرة ؟ لكن ، ما هو اكيد ان الشعب التشيلي لا يمكن له ان يعيش دون تناول الشاي عدة مرات في اليوم ، كان العمال الحفاة الذين يسألونني عن سبب فقدان هذا الشيء الغريب ، هذا المشروع الكريه الطعم ، لكنّه ضروري لا غنى عنه ، يقدمون لي حجة عذر قائلين :

— اننا ، ان لم نتناوله ، نشعر بوجع شديد في الراس .

لقد كان لاولئك العمال المسجونين خلف جدران الصمت ، فوق الارض المتوحدة وتحت السماء المتوحدة ، حب الاستطلاع السياسي الحيوي ، كانوا يريدون ان يعرفوا ماذا يجري في يوغوسلافيا او في الصين ، كانوا يهتمون بالتغيرات والتحويلات والمصاعب في البلدان الاشتراكية ، وبناتج

الاضرابات العمالية الكبيرة في ايطاليا ، وبشائعات الحروب وظهور الثوار
في اكثر الاماكن بعدا عن تشيلي .

كنت استمع دوما خلال الاجتماعات التي تنعقد هنا وهناك الى مطلب
ملح متكرر الا وهو ان اقرا عليهم بعضا من قصائدي ، وكثيرا من المرات
يطلبون هذه القصائد باسمائها . طبعاً ما فهمت ابدا او عرفت فيما اذا كانوا
جميعاً يفهمون او لا يفهمون ، يدركون او لا يدركون القليل او الكثير من
ابيات قصائدي التي انشدها ، فلقد كان هذا صعب التحديد في ذلك الجو
من الاطراق والسكون المطلق ، من الاحترام المقدس الذي كانوا ينصنون فيه
الى هذا الانشاد . لكن ما هي اهية هذا ؟ فانا ، وانا واحد من اكثر
الاغبياء شهرة ، ما استطعت ابدا ان افهم ابياتا ليس بالقليله من شعر
(هولديرين) (٥) ومن شعر (مالارميه) (٦) . مع العلم انني قرأت هذه الابيات
بالاحترام المقدس نفسه .

اما الطعام ، فانه حين يراد له ان يخذ ملامح وايحه كبرى . بعدو
قدرا كبيرة من دجاجة او طير غريب يسطادونه من السهوب . وما كان
يوضع في الصحون كان بالنسبة لي سمياً ، لا اسطيع ان اغرز فيه
سنتي ، وكثيرا ما كان ارانب يقال بانها مطهية . كانت الظروف تجبر على
صنع طبق مفضل من هذا الحيوان الصغير الذي ولد كي يموت في المختبر .

والاسرة التي خصصت لي ، دائما كانت ذات طراز واحد . نفسي
الببوت التي لا حصر لها حيث كتب انام . فان هناك اسرة لها خااستان
اثنتان وميزتان لا تجدهما الا في الاديرة ، اولاهما شرشف بنساء مشل
الثلج متبيسة بفعل قوة النشا ، قادرة على ان تعف وحدهمسا فائمة .
والثانية يبوسة في السرير شبيهة ببووسة ارنس الصحراء غير الرملية .
هناك لا يعرفون ما يسمى بالفراش بل هو الواح بقدر ما هي ملساء بقدر ما
هي قاسية لا ترحم .

- ٥ - هولديرين Friedrich : شاعر الالمى (١٧٧٠ - ١٨٤٣) .
٦ - مالارميه Stephane : شاعر وناقد فرنسي (١٨٤٢ - ١٨٩٨) .

ومع هذا فان كل شيء هناك كان يغفو قريسر العين ، فبلا اي جهد كنت ادخل لأشارك في النوم ذلك الفيلق الغفير من زملائي ورفاقي . كان النهر دائما جافا ومتوهجا كأذ مـجمرة من نار ، فيما الليل في الصحراء كان يمد رطوبته تحت قبة ذات نجوم متقنة الصنع .

لقد جرى شعري وحياتي جريان نهر امريحي ، مثل تيار من ميساه تشيلي ، فشعري وحياتي ولدا من عمق الجبال السري بالجنوب وتوجها بلا توقف نحو مخرج بحري في حركة تياراتهما . لم يرفض شعري اي شيء مما استطاع جرفه معه في مجراه ، لقد قبل الهوى ، وحضن السر ففتح له طريقا بين قلوب الشعب .

لقد كان لي ان اكافح وان اكابد ، ان احب وان اغني ، ان انتصر وان انهزم ، ان اتذوق طعم الخبز وان اذوق طعم الدم ، فماذا يريد الشعب بعد ؟ ان النقيضين من دمع ومن قبل ، من وحدة ومن شعب ، يعيشان في شعري ، يعملان في شعري ، لاني عشت من اجل شعري ، وشعري دعمني في صراعاتي . وان كنت قد حزت على جوائز كثيرة ، جوائز تفلت هاربة مثل فراشات ذات طلع هارب ، فاني قد نلت الجائزة الكبرى ، جائزة يحتقرها الكثيرون ، ولكنها في واقع الامر مستعصية على الكثيرين . لقد غدت بكـد دروس قاسية من جمالية ومن بحث ، عبر متاهات الكلمة المكتوبة ، شاعرا شعبيا ، بلى فهذه هي جائزتي ، ليست الكتب ولا القصائد المترجمة او التأليف التي تصف او تشرح او تحنط كلماتي . ان جائزتي لهي هذه اللحظة القصيرة في حياتي حين ، في عمق فحم « لوتا » وسط وهج الشمس بتلك الارض المحترقة ، من حفرة ملح اليايود صعد انسان كما لو كان يصعد من جهنم ، في وجه مشوه بسبب العمـسل الرهيب ، في عينين محمرتين بسبب الغيار القاتل ، فمد لي يده المتصلبة ، هذه اليد التي تدل عليها خارطة تلك السهول في قساوتها وتقطيعها . فقال لي في عينين تبرقان : « اني لاعرفك منذ زمن طويل ، يا اخي » . ان هذا هو اكليل الغار لشعري ، هذا الثقب في السهوب الرهيبـة حيث يخرج عامل قالت له الريح والليل والنجوم بتشيلي مرات عديدة : « انك لست وحدك ، ثمة شاعر يفكر في الامك » .

لقد انتسبت الى الحزب الشيوعي بتشيلي في ١٥ تموز من عام ١٩٤٥ .

(غونثاليث بيديللا Conzalez Videla)

كانت المرارات التي انا ورفاقي كنا نمثلها ، لا تصل الى المجلس الا في صعوبة جمة . تلك القاعة المريحة البرلمانية كانت مثل سرير وثير لا تنعكس عليه جلبة الجماهير غير المرتاحة ولا تجد لها صدئ في مجلس الشيوخ . وزملائي في العصبة المضادة كانوا اكاديميين خبراء في فن الخطابة الوطنية الرنانة ، وتحت هذا الستار الحريري المزيف كانوا يسيطون ويسهبون في كلامهم ، فكنت اشعر بالاختناق .

فجأة تجدد الامل ، اذ ان احد المرشحين الى الرئاسة وهو (غونثاليث بيديللا) اقسم ان يعمل في سبيل العدالة ، فجلبت له بلاغته الفعالة سمعة حسنة ، وانا كنت قد عينت رئيسا للدعاية في حملته الانتخابية فحملت الى انحاء ارض تشيلي كلها هذه البشرى الجديدة عن مرشحنا هذا .

فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة من الاصوات رئيسا للجمهورية .

لكن رؤساء الجمهورية في قارتنا الامريكية « الكريوية » كانوا يعانون من مسخ وتغير في الخلق والخلقة مرات كثيرة ، في حالة هذا الذي اروي حكايته الآن ، فانه غير من اصدقائه في سرعة واستبدل بهم آخرين واقحم اسرته في الطبقة الارستوقراطية ، وشيئا فشيئا اصبح ديماغوجيا عينسا شهيرا .

الحقيقة هي ان (غونثاليث بيديللا) لا يدخل في اطار الديكتاتوريين النموذجيين التقليديين في امريكا الجنوبية ، اذ ان في (ملغاريجو) (٧) ديكتاتور بوليفيا ، وفي الجنرال (غوميث) ديكتاتور فينزويلا ، اعراقا ارضية وطبقات معدنية يمكن معرفتها ، ولهما اشارة تنمي ببعض العظمة ، ويبدو عليهما كأنهما يتحركان بدافع قوى مدمرة ،

٧ - ميلغارينو Mariano: عقيد قام بانقلاب عسكري في بوليفيا، وحكمها ديكتاتوريا (١٨١٨ - ١٨٧١)

ولكن هذا لا ينفي عنهما انهما سفاحان ، غير انهما كانا قائدين جابها المارك والنيران .

بينما (غونثاليت بيدولا) كان ، على العكس من ذلك ، نتاج الطبخ السياسي ، تافها متماديا في غيه ضعيفا يحاول ان تبدو عليه ملامح القوة والجبروت .

في حديقة حيوانات امريكا ، كان الديكتاتوريون هم العظائيات العملاقة ، بقايا اقطاعية هائلة في اراض ما زالت كما كانت قبل التاريخ . ان يهوذا تشيلي ما كان الا تلميذا في الطفيان وفي درجات العظائيات ومراتبها لا يمكن له ان يتعدى كونه ضبا ساما (٨) ، بيد انه فعل ما فيه الكفاية من اذى لتشيلي ، فهو على الاقل اعاد تاريخ البلد الى الوراء . كان التشيليون في عهده المبارك ينظر بعضهم الى بعض في خجل دون ان يفهموا كيف جرى ذلك وكيف يجري هذا الامر المخجل .

كان هذا الرجل من دعاة الاعتدالية ، بهلوان مجلس . توصل الى ان تموضع في يسارية مشهوية . في «ملهاة الاكاذيب» هذه كان بطلا مكارا خبيثا . في هذا لا احد يجادل . في بلد حيث السياسيون فيه ، عموما ، جادون جدا او هكذا يبدوون ، ارتاح الناس لظهور التفاهة والسخافة والطيش والخفة والبطلان ، ولكن حين ، راقص «ال كونفا» هذا خرج من الام (٩) ، كان الوقت متأخرا جدا : كانت السجون مليئة بالمعتقلين السياسيين الى درجة انه انشئت معتقلات مثل معتقل «يساغوا» . وتركزت الدولة البوليسية ، اذالك ، كتجديد قومي في وضع البلاد . فلم يكن ثمة سبيل غير الجلد والصبر والصراع بشكل سرّي للعودة الى الحشمة والجديّة .

ان الكثيرين من اصدقاء (غونثاليت بيدولا) الذين رافقوه حتى النهاية في نشاطاته الانتخابية قد سيقوا الى السجون في سلسلة الجبال العالية

٨ - ضب سام : هو الضب الابرس السام الذي يقال له الوذغ .
٩ - خرج من الام : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، فاض عن الحد .

او في الصحراء بسبب انشقاقتهم عن مسخه ومخالفتهم لتغيره وتبدله .

فالحقيقة هي ان الطبقة العالية المورطة بقدراتها الاقتصادية ، ابتلعت مرة اخرى حكومة امتنا كما جرى ذلك عدة مرات من قبل ، لكن في هذه الحالة ، كان الهضم عسيرا غير مريح فمرت تشيلي في حالة مرضية كانت تتراوح بين الفشية والحشجة .

لقد تحول رئيس الجمهورية الذي اخترناه بأصواتنا ، تحت حماية ورعاية الولايات المتحدة ، الى وطواط مطاط خسيس ذنيء حقير سافل لثيم رذيل بخس تافه شرس عنيف دموي . انه لاكيد ان تانيب ضميره له لم يكن يدعه ينام وبذلك فقد نصب ، قرب القصر الجمهوري ، مواخير للقلمان وللغايا خاصة به ، زودها بسجاجيد ومرايا للذات . لقد كان لهذا التemis عقلية تافهة يبد انها ملتوية ، ففي الليلة نفسها التي بدأ فيها القمع واضطهاد الشيوعية والشيوعيين ، دعا اثنين او ثلاثة من القادة العمال الى العشاء معه ، بعد انتهاء الوليمة نزل معهم من على درج القصر الجمهوري ، ثم أخرج من عينيه بعض الدموع فعانقهم وقال لهم : «اني ابكي لاني قد امرت بسجنكم ، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم ، ولست أدري فيما اذا سيشاهد بعضنا بعضا بعد هذه اللحظة» .

«الجسد الموزع»

لقد كانت خطاباتي عنيفة دوما وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائما بالناس الذين ياتون ليسمعوني . لكن ، بعد مضي وقت قليل على انتخابي وعضويتي وخطبي ، طلب من المجلس طردي فطردت منه ووجه الامر الى الشرطة باعتقالي .

بيد اننا ، نحن الشعراء ، نملا بين جواهرنا الاصيلية ، ذانا مصنوعة في معظمها من نار ودخان .

كان الدخان قد خُصص للكتابة . ان العلاقة التاريخية لكل ما كان

يجري لي اقتربت بشكل مأساوي من المواضيع الامريكية القديمة . في ذلك العام من الخطر والاختباء انهيت اكثر كتبي اهمية الا وهو «النشيد العام» .

كنت ابدل دارا بدار في كل يوم تقريبا . في الجهات جميعها كانت الابواب تفتح كي تحميني . كان ثمة دائما اناس لا اعرفهم يعبرون عن رغبتهم في ابوائي لعدة ايام . كانوا يرجون مني ان ابقى عندهم ملتجئا ولو لبضعة اسابيع ولو لبضعة ساعات . فعبرت قري ، حقولا ، موانئ ، مدنا ، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ، مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، اطباء ، بحارة .

نمة موضوع قديم في الشعر الفولكلوري يعاد ويكرر في اقطارنا جميعها وهو موضوع «الجسد الموزع» . يفترض المعنى الشعبي ان قدميه في جهة وان كليتيه في جهة اخرى فيصف اعضاء جسده كلها التي تركها مبددة مبشرة عبر الارياف والمدن . وهذا ما كنت اشعر به انا في تلكم الايام .

من بين الاماكن المؤثرة التي حوتني وضمنني ، اذكر بيتا ذا غرفتين ، ضائعا بين التلال الفقيرة في «البارائيسو» .

فلقد خصص لي فيه جزء من غرفة وركنينا من نافذة كنت منه اراقب الحياة في الميناء . من هذه المطة (١٠) الحقيرة كان نظري يحيط بقسم من الشارع . كنت ارى في الليالي مسير الناس المزدحم . كان ربضاً (١١) فقيرا وكان ذلك الشارع ، على بعد مائة متر من نافذتي ، يحتكر الاضاء كلها له في ذلك الحي المعتم ، وتملاه حوانيت صغيرة وخاديرف ولعب اطفال .

قابعا في ركني كان لي حب للاستطلاع لا حد له ، احيانا لم اكن

١٠ - المطة : في الاصل **atalaya** وهي الكلمة العربية **الطلائع** ومن معانيها باللغة

الاسبانية ما عرّبناه في النص .

١١ - ربض : هكذا في الاصل **arrabal** وهو الحي الشعبي خارج المدينة ، ولورة

الربض التي قام بها اهل قرطبة على الخليفة مشهورة معروفة .

اتوصل الى حل المشاكل ، مثلا ، لماذا كان الناس الذين يمرون ، سواء منهم المتسكعون او المستعجلون يتوقفون دائما في المكان نفسه ؟ ما هي هذه السلع السحرية التي كانت تعرض في هذه الواجهة ؟ اسر بكاملها كانت تتوقف لمدة طويلة واطفالها على الاكتاف . ما كنت ابلغ ان ارى وجوه التجلي والوجد التي كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون الى تلك الواجهة الساحرة ، لكنني كنت اتخيلها وافترضها .

بعد مضي ستة اشهر عرفت ان ذلك المكان كان واجهة حانوت بسيط لبيع الاحذية . سجل اذن ان الحذاء هو اكثر ما يهتم الانسان . اقسمت ان ادرس هذا الموضوع ، ان ابحت فيه وان اعبر عنه ، لكن ما كان لسي الوقت كي انفذ هذا العزم او الوعد الذي املته ظروف غريبة . غير ان الاحذية ليست قليلة في شعري . انها تمشي على اكعابها في كثير من مقاطع قصائدي دون ان اكون قد عزمت على ان اغدو شاعرا حدائيا .

كانت تصل الى هذا البيت زيارات تطول احاديثها ، جيران يمكنون هناك ساعات وساعات ، زوار ثقلاء نرنارون لا يدرون انه على بعد قليل منهم ، مفصولا عنهم بحاجز من ورق صحف قديمة ، ثمة شاعر مطارد من قبل من لست ادري من محترفي الصيد الانساني .

السبت مساء وكذلك صبيحة كل يوم احد كان ياتي الى البيت خطيب احدي فتيات العائلة التي تستضيفني ، وكان ممن لا يجب ان يخبروا بوجودي . كان هذا الشاب عاملا ، يستودع لديه قلب الفتاة ، لكن ، آه ، ما كان اهل الفتاة يثقون به بعد . كنت اراه من كوة النافذة وهو ينزل من على دراجته التي كان عليها يوزع البيض في ذلك الحي الشعبي الواسع المديد كله ، بعد قليل اسمعه وهو يدخل مترنما الى البيت . كان عدو هدوئي وطمانيني ، اقول انه عدو لانه كان يصير على ان يبقى هناك يغازل الفتاة على بعد قليل من السانتيترات من رأسي . هي كانت تدعوه الى ممارسة الحب الافلاطوني في احدي الحدائق او في السينما، ولكنه كان يقاوم بشكل بطولي ويصر على ممارسة الحب الطبيعي في البيت، وأنا كنت العن هامسا بين اسناني عناد موزع البيض المنزلي .

كان بقية افراد الاسرة يعرفون سر اختيائي عندهم : الام الارملة ،

الفتاتان الرائعتان والابنان البحاران . كان هذان الشابان يفرغان الموز في رصيف الميناء وأحيانا كانا يعودان الى البيت غاضبين لان ما من باخرة كلفتهما بتفريغ شحنتها من الموز . عن طريقهما عرفت ان مركبا قديما قد تفكك قطعة قطعة في الميناء . فوجهت انا من ركني السري العمليات فانتزعا من قيدوم المركب التمثال الجميل وتركاه مخبأ في قبو بالميناء . ما استطعت ان ارى هذا التمثال الا بعد مضي عدة سنين بعد ان انتهى فراري ونفبي . ان المرأة الخشبية الجميلة ذات الوجه الاغريقي مثل بقية وجوه التماثيل في المراكب القديمة ، تنظر اليّ الآن في جمالها الكئيب الحزين فيما اكتب هذه المذكرات ازاء البحر (١٢) .

كانت الخطة هي ان اركب حفية الباخرة المشحونة بالموز في غرفة احد هذين الشابين وان اهبط منها حين تصل الى ميناء «غواياكيل» ، طالعا من بين عناقيد الموز . شرح لي الشاب البحار انه يجب عليّ ان اظهر فجأة على ظهر السفينة ، تحت القسم المغطى منها ، حين ترسو في الميناء الاكوادوري ، وأنا البس رداء انيقا وأدخن سيجارا نقياً ، ابدأ ما استطعت ان أدخن هذا النوع من التبغ . فقررت العائلة بعد ان تبين ان الاقلاع قد اقترب ، ان تفصل لي البدلة المناسبة - انيقة ومخملية - ، لهذا الغرض اخذت لي المغاييس بشكل جيد دقيق .

في ضرب اثنين بثلاثة (١٣) كانت بدلتي جاهزة . ابدأ ما سررت بمثل سروري حين استلمتها . ان فكرة «المودا» هذه التي كانت عند نساء البيت مقاشرة بفيلم شهير في ذلك الوقت وهو فيلم : ذهب مع الريح . الشابان من جهتهما كان يعتبران ان الطراز الذي كانا يريدان ان تكون البدلة عليه هو قدوة في الاناقة التقطاه من رقصات «هارلم» ومن حانات الرقص في البحر الكاريبي . ان السترة ، متصالبة ومحزمة ، كانت تصل حتى ركبتي ، والسروال كان يشد على رسفي .

١٢ - لقد كتب (نيودا) عن هذه الفتاة الخشبية قصيدة بمنسوان تمثال على قيدوم السفينة ، ترجمناها ونشرناها في صحيفة الجمهورية العراقية عدد ٢٠٤٩ بتاريخ ١٩-٦-١٩٧٤ لمن مجموعة من القصائد تحت عنوان «سبع قصائد لبابلو نيودا» .

١٣ - في ضرب اثنين بثلاثة : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي في وقت عين .

احتفظت بهذا الزي الجدير بالرسم والوصف ، المصنوع بأيدي أناس طيبين النية جدا ، ولم تسنح لي مناسبة كي البس هذه البدلة . ابدا ما خرجت من مخبائي في الباخرة ولا نزلت مطلقا مع الموز بـ «غواياكيل» ، لابساً مثل (كلارك غيبيل) (١٤) مزيف . لقد اخترت ، على العكس ، طريق البر . انطلقت نحو الجنوب الاقصى لتشيلي الذي هو الجنوب الاقصى لامريكا وعزمت على اجتياز سلسلة الجبال .

طريق في الغابة

كان الامين العام لحزبي في ذلك الوقت هو (ريكاردو فونسيكا) ، وهو رجل حازم جدا ، دائم الابتسامة ، جنوبي مثلي . من الطقس البارد والمناخ الرطب بـ «كاراهويه» . ان (فونسيكا) اعنى بحزبي اللاشعرية ، بمخابئي، بغاراتي السرية ، بطبع منشوراني وكتبي الهجائية . لكنه امتنى اكثر ما اعتنى ، في حيلة وحذر ، بسر عناويني . لقد نان رئيسي هذا الشاب اللامع الامين العام للحزب الشيوعي (ريكاردو فونسيكا) هو الوحيد الذي كان يعرف على وجه الدقة خلال سنه ونصف مخابئي وحركائي . ابن كنت انام كل ليلة وأين كنت اكل كل يوم . لكن توعدك سحنته كان يضمني وينضي ذلك اللهب الاخضر الذي كان يطل من عينيه ، ويطهي ، ويخدم تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهه ، وذات يوم رحل عنا الى الابد ذلك الرفيق الطيب .

لقد اختير في اجواء اللاشعرية قائدا اعلى ، رجل فظ غلبت العلب ، كان حمالا في «بالبارائيسو» يدعى (غالو غونثاليث) ، كان رجلا معقدا في هيئة خادعة وفي حزم قاتل . يجب عليّ هنا ان اقول انه ، في حزبنا ، لم توجد عبادة الشخص ، لكن الحزب الشيوعي لتشيلي هو منظمة قديمة مرت بمراحل من الضعف العقائدي ، بيد انه دائما كانت تسود روح الضمير

١٤ - كلارك غيبيل Clark Gable : الممثل الامريكاني المعروف (١٩٠١ - ١٩٦٠) ،

«طل» نيلم ذهب مع الريح .

التشيلي ، وعي شعب صنع كل شيء بأيديه ، ففي حياتنا القومية كان لنا قادة قلائل جدا وهذا انعكس ايضا على حزبنا .

غير ان هذه السياسة الهرمية للفترة الستالينية ، انتجت كذلك في تشيلي جوا مخلخلا محميا باللاشرعية التي فرضت علينا .

لم يكن (غالو غونثاليث) ليستطيع الاتصال بمجموع الحزب . كانت المطاردة تتفاقم وتشتد وكان لنا في السجون آلاف المعتقلين وكذلك فقد حشد جمع كبير منا في معتقل خاص بساحل «بيساغوا» **Pisagua** الخالي الصحراوي .

لقد كان (غالو غونثاليث) يقوم وسط حياة لا شرعية، بفعاليات ثورية كثيفة مهمة ، لكن عدم اتصال القيادة بالهيكل العام للحزب كان يبرز في وضوح . لقد كان رجلا عظيما حقا ، نوعا من العالم الشعبي والعارف بكل شيء ، مناضلا جريئا شجاعا .

اليه كانت تصل خطط هربي الجديد ، وهذه المرة طبقت هذه الخطط بدقة متناهية ، وكانت ترى هذه الخطط ان انتقل الى مكان يبعد السف كيلومتر عن العاصمة وأن اعبر من بعد سلسلة الجبال على ظهر جواد ، وسينتظرنى الرفاق الارجنطينيون في جهة محددة عند الحدود .

خرجنا بعد ان حل الليل في سيارة كانت لنا رحمة وحماية . فلقد قادني صديقي الدكتور (راؤول بولنيس) السلي كان فسي ذلك الوقت طبيبا للشرطة الآلية ، بسيارته حتى ضواحي «سانتياغو» وهناك اصبحت في عهدة منظمة الحزب التي اعدت لي سيارة اخرى صالحة للسفر الشاق الطويل ، وكان في انتظاري بها رفيق قديم في الحزب هو السائق (ايسكوبار) .

مضيانا ليل نهار عبر الطرق . كنت انا خلال النهار ، كي ازيد في دم الحية والنظارة اللتين كانتا تخفيان ملامحي ، التف بأغطية مخفية ، بخاصة حين نعبقرى والمدن او نتوقف في محطات البنزين .

مررت بـ «تيموكو» في الظهيرة . لم أوقف في أي مكان ، لا أحد رأيني
فعرفني . للصدفة والزهر (١٥) البسيط ، كانت مدينتي القديمة «تيموكو»
هي سبيلي للخروج والهرب . عبرنا الجسر وضاحية «بادره لاس كاساس» ،
توقفنا بعيدا عن المدينة ، لأكل شيء ، جالسين فوق صخرة هناك . عبر
المنحدر كان يجري نهر نحو مصبه وكانت مياهه تصطبغ . كانت طفولتي
تودعني . لقد نموت ونشأت في هذه المدبنة ، وشعري ولد هنا بين التلة
والنهر ، هنا كنت التقط صوت المطر ، هنا كنت أتضمخ بالغابات ، هنا
كنت أنتشي بالخسب . وهانذا ، في طريقي نحو الحرية ، انزل لحظة قرب
«تيموكو» فأسمع صوت الماء الذي علمني الغناء .

ثم تابعتنا السفر . ما كان لنا من لحظة فلق الا مرة واحدة فقط . فلقد
امرنا ضابط كان واقفا وسط الطريق في صوت حاسم ان نقف ، فحبست
أنفاسي ولكن تبين انه ليس بهجوم كاسح بل ان الضابط طلب منا ان نأخذه
معنا في السيارة الى مكان يبعد مائة كيلومتر عن ذلك الموضع ، جلس قرب
السائق ، رقيقي (إسكوبار) ، فتحدث في لطافة معه ، وأنا تصنعت النوم
كي لا يكلمني ، لأن صوتي ، صوت شاعر ، كانت تعرفه حتى حجارة
تشيلي .

ثم وصلنا دون أي خطب من خطوب الدهر ، الى نقطة النهاية . كانت
هذه النقطة هي عبارة عن عزبة مليئة بالأخشاب ، ظاهريا غير مأهولة ، الماء
كان يلمسها من الجهات الأربع ، أولا كان لا بد من عبور البحيرة الواسعة
«رانكو» الى مكان بين الاحراج والاشجار العملاقة السامقة ، من هناك كان
لا بد من امتطاء حصان يمر عبر ممر ضيق خلال فترة من الزمن الى ان
نعود فنركب زورقا لنجتاز مياه بحيرة «مايهويه» . كانت دار
صاحب العمل لا تكاد تبين ، وهي مختبئة في سفح سلسلة الجبال الهائلة،
تحت أغصان الاشجار الضخمة ، بين دوي الطبيعة العميق . انه لقول
معروف بأن تشيلي هي آخر ركن في العالم . ذلك المكان المبتن بالغابسة
البكر ، المحاط بالثلج ، المطوق بمياه البحيرات ، هو في الحقيقة آخر ركن
مسكون في المعمورة .

١٥ - الزهر : هكذا في الاصل **Azar** بمعنى الحظ والبخت . عن العربية

كانت غرف المنزل حيث انزلوني مجهزة بما يجب في تلك المنطقة ، بمدفأة من صفر وحديد مليئة بحطب بري حديث القطع ، يتأجج ليلاً نهار . كان مطر الجنوب الرهيب يلطم بلا هوادة ، النوافذ ، كما لو كان يلتمس الدخول الى البيت ، يسيطر على الغابة الظليلة ، على البحيرات ، على البراكين ، على الليل ، ويثور غاضباً لأن أولئك الحرس من البشر كان لهم دستور آخر ولم يخضعوا لجبرونه وانتصاره .

انا كنت أعرف قليلاً جداً ذلك الصديق الذي كان ينتظرني هناك وهو (خورخه بيت) ، سائق طائرة قديم ، مزيج من رجل عملي ومن رائد ، كان يحتدي جزمة ويلبس سترة سمكية قصيرة ، كان له طبع أمر فطري ولهجة قائد عسكري ، يتناسبان مع ذلك الجو ، مع ان الفرق الوحيدة المصطفة هناك كانت الاشجار .

صاحبة الدار كانت امرأة هشة نواحة ، محاصرة بمرض العصاب . كانت تعتبر الوحدة الثقيلة في تلك المنطقة ، المطر الخالد ، البرد ، مسببة لشخصيتها الكريمة ، كانت تتباكى طيلة النهار كله وقسماً كبيراً من الليل ، لكن كل شيء كان يسير لديها سيراً حسناً وكانت تستخرج مواد الغابة والماء .

كان ابييت) يقود هذه المؤسسة الخشبية ، وهذه المؤسسة كانت تفتصر على صنع رواقد للسكك الحديدية ، تصدر لاستعمالها في السويد والدانيمارك . خلال النهار كانت تصرّ صريراً حاداً ، المناشر التي تقطع الجذوع الكبيرة ، اولا كان يسمع التقوض العميق للشجيرة التي كانت تسقط وتهوي ، كل خمس او عشر دقائق كانت تهتز الارض مثل زلزال غامض حين يرضها انهيار شجر الارز والبطم والسرو والعفص والميس ، اعمال جسيمة هائلة للطبيعة ، اشجار مفروسة هناك من قبل الريح منذ الف سنة ، تشكو الآن من فعل المنشار الذي يلوي جسمها ويطرحة ارضاً ، صوت المنشار المعدني يصرّ عالياً مثل نغم الكمان البري الهمجي الذي يتلو قرع الطبول حين تهوي الاشجار على الارض . كل هذا كان يشكل جواً من التوتر الاسطوري ، من الشدة السرية ، من الرعب الكوني . الغابة كانت تموت ، وانا كنت اسمع متألماً آنينها كما لو ان اكثر الاصوات قدما ترن وهي تترنح ، الرنة الاخيرة ، الآهة التي ابدان لن تعاد .

كان صاحب هذه الغاية كلها هو رجل من «سانتياغو» لا اعرفه . كان يعلن عن زيارته الى غابته في اواخر الصيف فكان الناس الذين يعملون عنده يخشون هذه الزيارة ويهابونها ، وهو يدعى (بييه رودريغيث) . أخبروني انه اصبح رأسماليا حدثا ، وانه صاحب مناسج ومعامل اخرى . وانه رجل صناعي مهم . وانه ماهر وكهربائي الحركة . ولزيادة المعلومات اضيف بانه كان رجعييا من جفن الكرم (١٦) وهو عضو دائم في اكثر الاحزاب يمنية بشيلي . بما اني كنت عابرا في مملكته دون علمه ، فان هذه الميزات التي ينتمتع بها كانت عناصر اجاده بالنسبة لي في هذه الآونة فلا احد كان يستطيع ان ياتي الى مملكته للبحث عني . فلقد كان المسؤولون المندنيون ورجال الشرطة دائما يحب امره هذا الرجل العظيم الذي كنت اتمتع بضيافته وحمائه ، دون ان يدري وان مسن المستحيل ان يعرقل بي وانا بمملكته .

كان انطلاقي من جديد على وشك الابتداء ، اد ان التاوج في سلسلة الجبال كانت على وشك الابتداء كذلك ، ولا يمكن اللعب مع جبال «الانديس» . كان الطريق يتدارسه يوميا اسدقائي . ان كلمه طريق هي من نافل القول ففي الحقيقة والواقع كان الامر هو انكشاف درب محته منذ زمن الثلوج . لقد اصبح الانتظار مقلقا بالنسبة لي . عرفاني من الجانب الارجنيني لا بد وانهم قد انطلقوا للبحث عني .

حين كان كل شيء قد اعدت . وكنا على وشك الافلاع جاء العيطان العام والرائد الاعظم للاخشاب ليخبرني بان شيئا جديدا قد طرا . قال هذا وعلائم التائر بادية على سيماء وجهه ، فقد اعلن «البطرون» الاعلى عن زيارته وانه سيصل بعد يومين .

بقيت حائرا ، لم تكن الاستعدادات قد جهزت تماما في ذلك الوقت ، وما هو اكثر خطورة بالنسبة لوضعي ، بعد ذلك العمل الطويل من الاختفاء

١٦ - من جفن الكرم : تعبير اسباني يشبه التعبير المرادب الشمس من ام العنقود بمعنى اصيل .

والتنقل ، كان ان هذا «البطرون» سيرف اني كنت ملتجئا في اراضيه الخاصة وهو صديق حميم لملاحقي ومطاردي (غونثاليت بيدبلا) وهو يعرف ان السيد الرئيس قد وضع ثمنا لرأسي ، ما العمل ؟

كان (بييت) منذ اللحظة الاولى يرثي ان نكلم (رودريفيث) صاحب المكان ، وجها لوجه .

اني اعرفه جيدا - قال لي - هو رجل في معنى الكلمة ولن يبوح عنك ولن يفشي بسرک .

كنت غير موافق فان تعليمات الحزب كانت ان اخفي في سرية كاملة، و(بييت) كان يحاول نسف هذه التعليمات ، وهذا ما قلته له ، تناقشنا في حدة وصخب واثناء النقاش السياسي قررنا ان اذهب لاسكن في بيت شيخ قبيلة « مابوتشة » ، كان هذا البيت عبارة عن كوخ مفروز في طرف الغابة نفسها .

انتقلت الى الكوخ فاصبح وضعي هناك مزعوما جدا الى درجة اني اخيرا ، بعد التفكير والتقدير ، قبلت ان اقابل (بييه رودريفيث) صاحب المؤسسة والمناشير ، والغابات . عينا نقطة محايدة للقائنا ، بين منزله وكوخ شيخ القبيلة . حين خيم المساء رأيت سيارة «جيب» تقترب ، ثم نزل منها مع صديقي (بييت) رجل كهل «شيبوي» ذو شعر أشيب ووجه حازم . اول ما قاله لي انه منذ هذه اللحظة يتولى هو مسؤولية حراستي وحفظي . في مثل هذه الظروف ، لا احد يجرو على محاولة الاعتداء على امني .

تكلما من غير ود كبير ، لكن الرجل شيئا فشيئا راح يكسب ودي فاستلطفته ودعوته الى بيت الشيخ لان البرد كان هناك شديدا جدا ، كي نتابع حديثنا ، فقبل وتابعنا الحديث . وبأمر منه ظهرت زجاجة شمبانيا وأخرى من ويسكي ، وتلج يبرد ويرطب ذلك كله .

حين بدانا بالكأس الرابعة من الويسكي كنا نتناقش بأصوات عالية

مرتفعة . لقد كان هذا الرجل استبداديا في فتاعاته واعتقاداته ، يقول
اشياء هامة ، وكان عالما بكل شيء ، لكن غطرسته كانت تجعلني غضوبا
نزقا . كلانا كان يضرب ضربات شديدة فوق طاولة الشيخ الى ان انهينا في
سلام تلك الزجاجاة .

لقد استمرت صداقتنا لزمان طويل . من بين مزاياه وفضائله ،
صراحة غير منكرة من انسان متعود على ان تكون له المفلاة في مقبض
يده (١٧) . لكن كذلك كان يتقن قراءة شعري قراءة رائعة حقا بنبرة صوت
رجولية وذكية الى درجة ان اشعاري هذه كانت تبدو لي وكأنها تولد من
جديد .

عاد (رودريفيث) الى العاصمة ، الى مؤسسانه واعماله . كانت له
لطافة اخيرة ، فقد نادى اذباعه المتحلقين حولي وامرهم بصوته ذي
النبرة الآمرة :

اذا كان للسيد (ليغاريتيه) من هذا اليوم الى اسبوع اي مانع يعرقل
مسيره الى الارجننتين عبر ممر المهربين ، فانه يجب عليكم ان تشقوا طريقا
آخر يصل الى الحدود ، اوقفوا اعمال الاخشاب كلها لتعملوا جميعا في
شق هذه الطريق . هذه هي اوامري .

(ليغاريتيه) كان اسمى في تلك اللحظة .

ان (بييه رودريفيث) ذاك الرجل الاقطاعي المسيطر ، مات بعد سنتين
من لقائنا ، في حالة فقر مدقع ، بعد ان عوقب على تهريب خطير قام به ،
فقضى شهورا كثيرة في السجن ، لا بد ان السجن كان معاناة لا توصف
بالنسبة لطبع غطريس وطبيعة آمرة .

اندا ما عرفت من بعد على وجه الدقة ان كان مذنبا ام بريئا من التهمة

١٧ - المقلاة في مقبض يده : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، في مقبضه
مقاليد الامور .

التي وجّهت اليه ، لكنني عرفت ان طبقة الاقلية الحاكمة في بلادنا ،
التي كانت تأرق متمنية دعوة من (رودريغيث) ، هجرته ما ان رآته
يُستنطق ويتهدم .

فيما يتعلق بي ، فاني ما زلت الى جانبه ، دون ان يمحي من ذاكرتي .
لقد كان (بييه رودريغيث) بالنسبة لي امبراطورا صغيرا امر بفتح طريق
طولها ستون كيلومترا عبر الغابة البكر كي يبلغ شاعر حريته .

جبال الانديس

ان لجبال الانديس دروبا غير معروفة ، يستعملها منذ زمن قديم
المهريون العدّاعون الصعوب الى درجة ان الدرك لا يشغلون انفسهم بنعيقهم
وملاحظتهم . ان انهارا كثيرة ومهاوي سحيقة تتكفل بمنع العابر والسالك
ان يسلك .

كان صاحبي (خورخه بيت) هو رئيس تلك الحملة الجبلية ، لقد
انضاف الى حامية ظهورنا المؤلفة من خمسة رجال من الفرسان ورعاة
البقر . صديقي القديم (فيكتور بيانشي) الذي كان جاء الى هذه المواضع
بصفته مستاحا للاراضي ، كي يحل النزاعات القائمة هناك حول تقسيم
الارض . لم يعرفني اذ انني كنت في لحية نامية جدا بعد سنة ونصف من
الحياة المتخفية . ما ان عرف خطتي لاجتياز الغابة حتى ابدى استعداداه
لمساعدتي وقدم لنا خدمات لا تثنى لكونه مكتشفا مدربا خيرا . ولقد كان
من قبل قد سعد قمة « اكوانكاغسوا » في حملة مأساوية كان هو
الوحيد الذي نجا منها سالما .

كنا نسير في صف منتظم ، محميين بجلالة الفجر . منذ زمن طويل ،
اي منذ طفولتي ، لم اكن قد امتطيت سهوة جواد ، لكن هنا كنا نمشي
خطوة خطوة بطيئين متمهلين . ان الغابة الانديسية الجنوبية لا يسكنها الا
اشجار ضخمة سامقة تتباعد الواحدة عن الاخرى . انها لاشجار عملاقة
من الارز والبطم والعفص والصنوبر . اشجار الميس تدش بضخامتها ،

توقفت لاقيس واحدة فكانت في قطر حسان . من الاعلى لا ترى السماء .
من تحت الاوراق قد سقطت خلال قرون عديدة فشكلت طبقة من الدبال
كانت تفرق فيها حوافر المطايا . في مسيرة صامتة كنا نجتاز تلك الكاندرائية
من الطبيعة البرية .

بما ان دربنا كان مخفيا ومحرما ، فقد كنا نقبل بأقل الصوى ارشادا
وأضعف العلامات توجيها . لم يكن ثمة من آثار ولم تكن هناك من دروب،
ومع اصحابي الاربعة على ظهور الخيل كنا نبحت ، مشكلين كتيبة من
الفرسان - ونحن نزيل العراقيل ، متجنبين الاشجار القديرة ، متخطين
الانهار المستحيلة ، متسلقين الصخور الهائلة ، غارقين في الثلوج
المدمرة ، عن اتجاه لحرיתי - بالاحرى كنا نخمن تخميننا - . ان الذين
كانوا يصطحبونني كانوا يعرفون التوجه ، الامكانية بين اوراق الشجر
الكبيرة واغصانها المشتبكة المعقدة ، لكن كي يكونوا على يقين فانهم كانوا
يعلمون هنا وهناك فوق لحي الشجر بسكاكين حادة تترك آثارا تدلهم حين
يعودون بعد ان يتركوني وحيدا مع مصري .

احيانا كنا نتبع اثرا ضعيفا جدا صنعه - ربما - مهربون او مجرمون
هاربون، وكنا نهجل فيما اذا كان الكثير منهم قد قضاوا نجهم على حين غرة
حين فاجأهم أيدي الشتاء الجليدية القارسة وعواصف الثلج الرهيبة التي
حين تفرغ شحنتها فوق جبال الانديس تلف العابر وتفرقه تحت سبعة
طوابق من البياض .

على كل جانب من جانبي ذلك الاثر من الدرب رأيت ، في تلك الوحشة
البرية ، شيئا كأنه بناء انساني . كان اجزاء من اغصان مكومة تحملت عدة
فصول شتائية ، قربانا نباتيا قدمه مئات العابرين ، جثوات عالية من
خشب ، شواهد لتذكر من سقطوا هنا صرعى ، من لم يستطيعوا المضي،
فمكثوا تحت الثلوج الى الابد . كذلك قطع اصحابي بالمدى والسكاكين
الاغصان التي كانت تلامس رؤوسنا وتهبط الينا من اشجار البلوط التي كانت
اوراقها الاخيرة تخفق قبيل اكتساح زوايع الشتاء . وأنا كذلك كنت
اترك على كل جثوة ذكرى ، بطاقة بريدية من ختسب ، غصنا مقطوعا من
الغابة كي أزين قبور العابرين الهالكين هناك والذين ما عرفتهم ابدا .

كان علينا ان نجتاز نهرا . ان هذه المنحدرات الصغيرة المولودة فسي قمم جبال الانديس كانت تتعجل ، تفرغ شحنة سريعة جدا سرعان ما تصبح شلالات تحطم الاراضي ، تفتت الصخور بفعل من طاقتها وسرعتها اللتين جلبتهما من تلك المرتفعات الشهيرة : لكن هذه المرة وجدنا غديرا ، مرآة كبيرة من المياه ، مخاضة نهر . الخيول خاضت في المياه الى اعناقها وسبحت حتى الضفة الاخرى . وجوادي كذلك تابع مسير رفاقه ففرق في المياه كله تقريبا فبدات انا اترنج واهتز من غير سند ولا مدعم ، قدماي شدنا على الانساق بينما الجواد كان يكافح كي يحتفظ براسه في الهواء الطلق . هكذا عبرنا ، وما ان وصلنا الى الضفة الاخرى حتى سألني رعاة البقر والفلاحون الذين كانوا يرافقوننا في شيء من الابتسام ولعله استخفاف :

– هل خفت كثيرا ؟

– كثيرا جدا ، ظننت انه قد حانت ساعتى الاخيرة – قلت .

– كنا نسير خلفك والاصرة في اليد – اجابوني .

– في هذا المكان نفسه – اضاف احدهم – سقط والدي فجرفه التيار . ما كان ليحدث الشيء نفسه لحضرتك ، فقد احتطنا لذلك فوضعنا الاصرة في اليد حتى ننقلك ان سقطت .

تابعنا المسير الى ان دخلنا في نفق طبيعي ، ربما كان قد شقه هناك في الصخور الصلبة الصلدة نهر ضائع غزير او هزة ارضية قامت هناك في الاعالي بهذا العمل ، بهذه القناة الكهفية من حجر محفور ، من غرائب . فما ان تسربنا في هذا النفق بضعة خطوات حتى اخذت المطايا تتزحلق ، تحاول ان تثبت في المنحنيات الحجرية الملساء رجلاها ، فتكبر ، تنفجر الشرار حين تصطك حوافرها بالصخر : اكثر من مرة رأيتني ممددا فوق الصخور بعد ان هويت من على صهوة مطيتي التي كانت تدمي من انفها وأقدامها ، لكننا مضيئا مصرين فوق ذلك الدرب الصعب المديد الرائع .

كان شيء ينتظرنا في وسط تلك الغابة الوحشية . على حين غرة ،

مثل رؤيا فريدة ، وصلنا الى مرج براق قابع في حوض الجبال : ماء زلال، مرج مخضوضر ، ازهار غابية ، خريز انهار ، السماء من فوق ، نور سمح كريم لا يفصله عنا اية ورقة او اي غصن او اية شجرة .

هناك نزلنا كأننا ننزل وسط دائرة سحرية ضيوفا على حياض مقدسة . واكثر قداسة كان ذلك الاحتفال الذي شاركت فيه . فلقد نزل البقارة من على ظهور مطاياهم . وسط المرج كانت هناك جمجمة ثور وضعت فسسي موضع بارز كما في قداس . اقترب اصحابي في سكون وصمت ، واحدا اثر الآخر ، كي يضعوا بعض النقود وبعض الأغذية في فجوات الجمجمة العظيمة . شاركتهم في هذا القربان المقدم الى الف «اوليس» تائه هارب ، لعل هؤلاء العابرين النائهم يجدون الخبز والملح في مدارات هذا الثور الميت ، حين يمرون به ذات يوم .

لكننا لم نقتصر على تقديم القربان في هذا الاحتفال والقداس ، بل ان اصداقائي الريفيين خلعوا عنهم قبعاتهم وشرعوا في رقصة غريبة ، يقفرون على رجل واحدة فقط حول تلك الجمجمة المهجورة ، وهم يدوسون فوق الاثر الدائري الذي خلفته هناك رقصات كثيرة اداها كل من عبر من قبل . حينذاك ادركت وان كان ادراكا غير واضح دقيق ، ان ثمة اتصالا بين مجهول ومجهول ، ان ثمة مطلباً وتلبية ، ان ثمة سؤالا وجوابا في تلك المناطق الاكثر وحشة ، الاكثر انعزالا بهذا العالم .

لقد وصلنا ليلا الى حلاقيم الجبال الاخيرة فاصبحنا على وشك ان نعبر الحدود التي ستعدني لسنين طويلة عن موطني . رأينا فجأة ضوءاً مشتعلا كان دلامة أكيدة على ان هناك بيتا انسانيا ، وحين اقتربنا وجدنا ابنية مقوضة واقبية غير منسقة ، بدت لنا فارغة خاوية . ولجنا فرأينا ، على ضوء النار ، جدوعا كبيرة تتأجج في وسط القبو ، اجساد اشجار هائلة كانت هناك تتوهج ليل نهار ، تطلق عبر تشققات السقف دخانا ينكاسل يطوف وسط الدياجير كأنه حجاب أزرق عميق . شاهدنا كتلا من الجبن كوتما هناك الذين خثروه وروبوهم في تلك المرتفعات . وكان قرب النار يرقد بعض الرجال كأنهم اكياس ممددة . ميزنا في السكون نغم اوتار قيثارة، ولحن كلمات اغنية تولد بين الجمر والعممة فجلت لنا اول صوت

انساني مشرنا عليه في طريقنا الموحشة . كانت اغنية حب وحنين ، أسفا على الحبيب الثاني وحنينا الى ذلك الربيع البعيد ، ونداء اليماموجها الى تلك المدن التي قدمنا منها ، ولوعة تريد احتضان مدى الحياة اللانهائي ، لم يكونوا ليعرفوا شيئا عنا ، لم يكونوا ليعلموا شيئا عن الهارب القادم ، ما كانوا يعرفون شيئا عن شعري ، ما كانوا قد سمعوا يوما باسمي . او لعلهم يعرفونه ، افتراهم يعرفونني ؟ تطلقنا حول النار وغنيتنا واكلنا ، ثم توجهنا وسط العتمة نحو غرف بدائية جدا . كان يمر عبر هذه الغرف تيار من ماء معدني حار ففرقنا فيه وغطسنا ، جدول من الحرارة ينطلق من الجبال ليستقبلنا في كنفه .

كنا نربط في الماء متمتعين ، نغتسل ونزيل عنا اوضاع المسيرة المرهقة ، فشعرنا اننا في غضارة ونضارة واننا ولدنا من جديد في هذا التعميد . حين بزغت الشمس في اليوم التالي انطلقنا لنجتاز المسافة الاخيرة التي كانت ستبعد بي عن كسوف وطني وخسوفه ، كنا نتهادى على ظهور مطايانا ، نغني ونشدد ونحن ممثلثون بهواء جديد ، مغممون بانفاس تدفعنا نحو درب العالم الفسيح الذي ينتظرنا . عندما اردنا (الذكر هذا جيدا) ان نعطي الى الرجال الجبليين بضعة قطع من نقود مكافأة لهم على ما قدموه لنا من اغان واغذية ومياه معدنية وسقف وفراش ، اي ، على هذا اللقاء غير المتوقع ، على هذا الكنف الذي آوانا ، على هذا الود الذي شملنا وحضننا ، رفضوا عطاءنا رفضا باتسا ديون ان يقولوا اي شيء ولا ان يبدوا اية حركة جسدية بل اکتفوا بالنظر الينا عابئين ، لقد قاموا بواجبهم نحونا ولا شيء اكثر . ان في «لا شيء اكثر» ، في عبارة «لا شيء اكثر» الصامتة كان يكمن كل شيء ، ربما انهم رأوا انفسهم فينا ، ربما عثروا على احلامهم ذاتها متجلية في احلامنا . من يدري ؟

لسان مارتين» San Martin بجبال الانديس

خص مهجور بيثن لنا الحدود بما كتب عليه . هاندا اغدو حرا طليقا .
كتبت على حائط الكوخ : «الى اللقاء ، يا وطني ، ارحل وانت معي» .

في قرية «سان مارتين» بجبال الانديس كان يجب ان يكون بانتظارنا صديق تشيليّ . ان هذه القرية الصغيرة جدا في سلسلة الجبال الارجنطينية لم يكن فيها ما يتيه او يجعل المرء يضيع ، ولذلك فقد اعطوني علامة وحيدة للاستدلال على صديقي هذا وهي ما يلي :

— اذهب الى احسن فندق في القرية وهناك سيأتي للبحث عنك (بيديتو راميرث) .

لكن الاشياء الانسانية معرضة للخطأ دائما ففي «سان مارتين» لم يكن هناك فندق واحد فقط بل كان اثنان وكلاهما من النوع الجيد . فأيهما اختار؟ آثرنا اغلاهما وهو يقع في أطراف القرية ورفضنا الفندق الاول الذي رايناه امام ساحة القرية الجميلة .

لقد حصل ان الفندق الذي اخترناه كان من درجة رفيعة جدا الى درجة انهم ما ارادوا ان يقبلوا بنزولنا فيه . لقد لاحظوا في ازدراء آثار عدة أيام من السفر على ظهور الخيل ، أكياسا على اكتافنا ، وجوهنا الملتحبة المقبرة ، كان منظرنا يخيف كل من في الفندق من عمال ونزلاء .

وكان هذا المنظر يخيف اكثر ما يخيف صاحب الفندق الذي كان يضيف فيه انجليزا نبلاء قادمين من «اسكوتلانديا» ليصطادوا سمك «السلمون» في الارجنطين . نحن لم يكن علينا ملامح نبلاء ولا مظاهر سادة . فاعطانا مدير الفندق «الهيئات» متأسفا ومحتجا بحركات مسرحية في ان الغرفة الاخيرة قد حجزت منذ عشر دقائق . اثناء ذلك اطل من الباب سيد اتيق عليه سيماء رجل عسكري ، تصطحبه امرأة شقراء كأنها ممثلة سينمائية ، فصرخ بصوت رنان :

— قف ! التشيليون لا يمكن طردهم من اي مكان ، هنا سيبقون .

وبقيتا . كان راعينا هذا يشبه كثيرا الجنرال (بيرون) (١٨) وسيدته التي

١٨ — بيرون Juan Domingo : هو الزعيم الارجنطيني المعروف (١٨٩٥ - ١٩٧٤) .

تصعبه تشبه هي الاخرى (ايفيتا) (١٩) الى درجة انا ظننا انها هما ، لكن من بعد ، بعد ان اغتسلنا ولبسنا وجلسنا على المائدة نحتمي في غير لذة زجاجة شمبانيا كنا نشك في انها شمبانيا ، عرفنا ان الرجل هذا هو قائد الشرطة المحلية وان الشقراء هي ممثلة من «بونوس ايريس» جاءت لتزوره .

كنا نزعم اننا تاجر اخشاب تشيليون جئنا لنعقد صفقات تجارية مربحة . كان العميد قائد الشرطة يدعوني «الانسان الجبل» . اكتشف (فيكتور بيانثشي) الذي كان ما يزال يرافقتي لما يكنه لي من صداقة ولما يكنه من حب للمغامرة ، قيثاره هناك في الفندق ، وبأغانيه التشيلية السافلة البديئة كان يخلب ويفتن ارجنتينيين وارجنتينيات . لكن مضت ثلاثة ايام ولم يكن يأتي (بيدريتو راميرث) للبحث عني . لم يكن يرافقتي الحظ في الامور جميعها ، ما كان على جسدي من قميص نظيف ولم يكن معي ما اشتري به قمصانا جديدة . ان تاجر اخشاب جيد ، كان يقول (فيكتور بيانثشي) يجب ان يكون له على الاقل قمصان جيدة نظيفة .

اتناء ذلك قدم لنا قائد الشرطة غداء في المجلس البلدي . لقد توطدت صداقته بنا فاعترف لنا انه على الرغم من شبهه الجسدي بالجنرال (بيرون) فانه هو ضد البيرونية . كنا نقضي ساعات طويلة ونحن نتناقش فيمن عنده رئيس أسوأ من الآخر ، انا ام هو ، هل هي تشيلي ام هي الارجنتين .

فجأة بلا سابق انذار او اعدار واذ ب (بيدريتو راميرث) يلج ذات صباح غرفتي في الفندق .

— يا تعيس ، — صرخت به — لماذا تأخرت كثيرا ؟

لقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، لقد كان هو ينتظر مطمئنا هادئا في الفندق الآخر الذي يقع بساحة القرية .

بعد عشر دقائق تدحرجنا عبر السهول اللامتناهية وبقينا نتدحرج ليل

١٩ - ايفيتا : هو تصغير (ايفا Eiva) وكانت زوجة لبيرون ، (١٩١٩ - ١٩٥٢) .

نهار . من حين الى حين كان الارجنطينيون الذين يصحبوني يوقفون السيارة كي يحتسوا «ماته» (٢٠) Mate ثم نستمر في عبور تلك الرتابة اللامتناهية .

في باريس وبجواز سفر

كان همي الاكبر ، طبعا ، في «بونوس ايريس» هو ان احصل على هوية جديدة ، ان الاوراق الزيفة التي افادني كثيرا كي اعبر الحدود الارجنطينية لن تصلح بعد فيما اذا حاولت السفر عبر القارات والتجول في اوروبا . كيف الحصول على اوراق اخرى ؟ كانت اثناء ذلك تبحث عني في جد واجتهاد الشرطة الارجنطينية التي استنفرتها الحكومة التشيلية لهذا الغرض .

تذكرت في هذه الحالة من الياس والقنوط والضغط والمطاردة شيئا كان ينام في ذاكرتي . لا بد ان الروائي (ميغيل انخيل استورياس) وهو صديقي منذ ايامي في بلده ، هو الآن في بونوس ايريس يؤدي مهمة دبلوماسية في سفارة بلده «غواتيمالا» . لقد كان لنا شبه فيزيولوجي غريب غامض . في اتفاق مشترك بيننا سمينا انفسنا « شومبيبه » Chompipe وهي كلمة هندية يشار بها الى الديكة في غواتيمالا وفي جزء من المكسيك . أنفان طويلان ، سر في الوجه وفي الجسد ، يوحدنا شبه عام بعالم الدجاج المغدى .

جاء ليراني في مخبائي .

— يا صاحبي «شومبيبه» — قلت له — ، اعزني جوازك ، امنحني متعة ان اصل الى اوروبا وقد غدوت (ميغيل انخيل استورياس) .

٢٠ - ماته : هو شاي من «بارغواي» يشربه الامريكيون الجنوبيون والمغربون العرب الذين يعودون الى اوطانهم من امريكا اللاتينية .

يجب عليّ أن أقول هنا ان (استورياس) كان دوما ليبراليا ، بعيدا جدا عن السياسة الحزبية ، غير انه ما تردد لحظة ، اذ انني ، بعد ايام قليلة كنت اعبر ، بين «يا سيد (استورياس) تفضل من هنا» ، وبين «يا سيد (استورياس) تفضل من هناك» النهر العريض الذي يفصل الارجنتين عن الاورغواي فدخلت الى «مونتيفيديو» ثم عبرت المطارات وتجاوزت مخافر شرطة المراقبة الى ان وصلت اخيرا الى باريس تحت ستار «روائي غوايمالي عظيم» .

لكن في فرنسا عادت قضية هويتي لتصبح معضلة . ان جوار سفري القشيب لن يقاوم الفحص الذي لا يرحم حين يتقدونه في *La Sureté* لقد كان عليّ ان اترك كوني (ميغيل انخيل استورياس) وأن اغدو من جديد (بابلو نيرودا) ، لكن كيف يتأتى هذا لي و(بابلو نيرودا) لم يصل الى فرنسا، بل ان الذي وصل كان (ميغيل انخيل استورياس) . .

لقد اخبرني مستشاري بأن عليّ ان آوي الى نزل «جورج الخامس» .

— هناك ، بين جبابرة العالم ، لن يطلب احد منك اوراقك — قالوا لي .

فنزلت هناك لبضعة ايام ، دون ان انزعج كثيرا من ملابس الجبلية التي ما كانت لتتلاءم مع ذلك العالم من الاغنياء والانيقين . عند ذلك طلع (بيكاسو) الذي بقدر ما هو عبقرى كبير بقدر ما هو انسان طيب جدا . كان سعيدا كما الطفل لانه كان قد التقى اول خطاب في حياته ، كان موضوع الخطاب يدور حول شعري ، حول مطاردتي وملاحقتي ، حول غيابسي واختفائي . وها هو العبقرى اللامع في الرسم الحديث ينشغل الآن في ود اخوي وعطف ابوي بحل معضلتي في جزئياتها الاكثر دناوة وحقارة . كان نكلم مع السلطات المسؤولة ، كان يتصل هاتفيا بنصف الناس كي يعملوا على مساعدتي في الخروج من هذه الورطة . لست أدري كم من اللوحات الرائعة الخالدة ترك رسمها من اجلي ، لقد كنت اشعر بالذنب واتأسف جدا اني جعلته يضيع الكثير من وقته للمقدس .

في تلك الايام كان بنعقد في باريس مؤتمر للسلام العالمي . ظهرت في

قاعة المؤتمر باللحظة الاخيرة كي القى قصيدة من قصائدي ، كان المندوبون يصفقون لي ويعانقونني فقد كان الكثير منهم يظنون اني كنت قد مت وما كانوا يعتقدون بانني قادر على الاستهزاء بمطاردة الشرطة التشيلية الغاضبة .

في اليوم التالي وصل الى الفندق الذي اقيم فيه السيد (الديريت) وهو صحفي كبير يعمل في وكالة الانباء الفرنسية ، فقال لي :

— حين علمت حكومة تشيلي عن طريق الصحافة انك في باريس ، اعلنت ان الخبر عار من الصحة وانه كذب وبهتان وان الذي حضر المؤتمر هو شبه لك وليس اباك فانت توجد في تشيلي وان رجال الشرطة يتقصون اترك وان مسالة اعتقالك لن تتعدى ساعات قلائل ، فماذا تجيب على هذه المزاعم ؟

تذكرت انه في احدي المناقشات التي دارت حول موضوع (شيكسبير) ان كان هو من كتب اعماله الخالدة ام لا ، وهي مناقشة انبيقية (٢١) وعبثية عقيمة ، اشترك (مارك توين) (٢٢) فأدلى برأيه : « في الحقيقة لم يكن (وليم شيكسبير) هو من كتب هذه المؤلفات ، بل رجل انجليزي آخر ولد في اليوم نفسه والساعة ذاتها ومات ايضا في التاريخ نفسه ولكي تزداد المطابقت بينهما كان كذلك يسمى (وليم شيكسبير) .

أجب انت — فلت للصحفي — في اني لست (بابلو نيرودا) بل انا تشيلي آخر ، يكتب شعرا يصارع في سبيل الحرية اسمه كذلك (بابلو نيرودا) .

ان قضية تجهيز اوراقني ما كان بالامر السهل فلقد كان (اراغسون) و(بول الوار) يساعدانني كذلك في الحصول على اسمي . اثناء ذلك عليّ ان اعيش في وضع شبه سري . من بين البيوت التي آوتني فيها ، كانت

٢١ — انبيقية : مأخوذة من الكلمة العربية الانبيق **Alambique** ، وهي ها بمعنى شحيحة المردود .

٢٢ — مارك توين : روائي من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٣٥ - ١٩١٠) .

دار السيدة (فرانكويس جيروكس) . أبدا لن انسى هذه السيدة الاصيلة
اللكيية . كانت هذه الدار تقع في «بالس رويال» (القصر الملكي)
قرب «كوليت» . تبنت هذه السيدة المحترمة ابنا
فيتناميا ، فلقد كان الجيش الفرنسي قد تكفل في فترة من الفترات بالعمل
الذي وقع من بعد على عاتق الامريكيين الشماليين : قتل الابرياء في اراضي
فيتنام البعيدة . عند ذلك تبنت هي الطفل .

اذكر انه في هذه الدار كان هناك لوحة لبيكاسو من اجمل اللوحات
التي رأيتها في حياتي ، وهي لوحة ذات ابعاد كبيرة ، سابقة على الفترة
التكميية ، تمثل ستارتين من قطيفة حمراء تتدليان ، تنقلقان بين
كمصراعي نافذة ، تلمسان مائدة ، المائدة عليها اربعة ارغفة من الخبز
الفرنسي الطويل نتصالب في تناسق ، بدت لي هذه اللوحة انها جديرة
بالانحناء لها اجلالا واحتراما . كانت الارغفة الكبيرة الطويلة كأنها الطيف
المركزي لـ «الايقونات» (٢٣) او مثل لوحة القديس 'ماوريشيو'
تلك اللوحة الرائعة التي رسمها (ال غريكو El Greco) والتي توجد في
دير «الاسكوريال» . لقد سميت لوحة (بيكاسو) هذه باسم علم وهو
صعود القديس الخبز .

في احد هذه الايام جاء (بيكاسو) نفسه لزيارتي في مخبائي ، فاخذته
ليري لوحته التي رسمها منذ اعوام كثيرة وكان قد نسيها ، فراح يدقق في
اللوحة بجديرة تامة ، غارقا في هذا الانتباه الفائق والكثيب بعض الكتابة الذي
قلنا يبيده ، ظل اكثر من عشر دقائق في صمت وسكون ، يقترب خطوة ثم
يتعد أخرى عن عمله الرائع هذا .

— كل مرة تعجبني اكثر — قلت له حين انهى تأمله — سوف اقترح
على متحف بلدي تشيلي أن يشتريها فالسيدة (جيروكس) على استعداد
لتبيعها لنا .

٢٣ — الايقونات : هي الرسوم والالواح البيزنطية القديمة الموجودة في الكنائس .

ادار (بيكاسو) من جديد رأسه نحو اللوحة ، ثم سمر عينيه في ذلك
الخبز الرائع وأجاب بتعليق واحد فقط :

— ليست سيئة .

عشرت على بيت للايجار بدا لي غريبا . كان يقع في شارع «بيير ميل»
في الـ Arrondissement الثاني ، اي ، حيث أضاع ابليس عباءته (٢٤) . كان
حيا عماليا ولطبقة متوسطة فقيرة جدا . كان يجب السفر ساعات طويلة
تحت الارض بـ «المترو» كي يصل المرء الى هذه المحطة . ان الذي اعجبني
في هذه الدار هو انها تبدو مثل قفص . كان لها ثلاثة طوابق ، دهاليز ،
غرف صغيرة ، كانت قفص طيور لا يوصف .

لقد خصصت الطابق الاول الذي كان اكثر اتساعا من اخويه ، وكانت
فيه مدفأة نشارة؛ للمكتبة، وجعلت فيه قاعة للحفلات المحتملة والزيارات
الطارئة . في الطابقين الاعليين ، تمركز اصدقاء لي ، جاؤوا جميعا من
تشيلي ، فهناك نزل الرسامان : (خوسه بينتوريثي) و(نيميسيو انتونيث)
وآخرون لم أعد أذكرهم الآن .

لقد زارني في تلكم الايام ثلاثة من كبار الادباء في الاتحاد السوفييتي:
الشاعر (نيكولاي تيخونوف) الكاتب المسرحي (اليكساندر كورنييتشوك) الذي
كان في الوقت نفسه محافظ «اوكرانيا» والكاتب الروائي (كونستانطين
سيمونوف) . ابدا ما كنت قد قابلتهم من قبل ، فعائقوني كما لو كانوا اخوة
عادوا بعد غياب طويل ليجدوا اخا لهم ، واعطاني كل واحد منهم بالاضافة
للمعانفة قبلا رنانة ، من هذه القبل «السلافية» التي يتبادلها الرجال فيما
بينهم والتي تعني صداقة كبيرة واحتراما ، والتي كلفني جهدا جهيدا أن
أعود عليها . بعد مضي السنين ، حين فهمت طبيعة هذه القبل الاخوية
الرجولية ، كانت لي مناسبة بأن ابدا حكاية من حكاياتي بهذه الكلمات :

٢٤ — حيث أضاع ابليس عباءته : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، حيث أضاع
القرود ابنه .

– ان اول رجل قبلني كان هو فنصل تشيكوسلوفاكيا

حكومة تشيلي لم تكن تحبني ، لم تكن تحبني لا داخل تشيلي ولا خارجها كذلك . كانت تسبقني الى كل جهة امر بها ، رسائل ومكالمات هاتفية تحض الحكومات على معاداتي وطردني .

علمت انه في قصر «فرساي» كان ثمة تقرير عني جاء فيه تقريبا ما يلي : ان (نيرودا) وزوجته (ديليا ديل كارمن) يقومان برحلات متكررة الى اسبانيا حيث يوصلان ويأتیان بتعليمات من السوفييت وإليهم وان مرجعهما في هذه التعليمات هو الكاتب الروسي (إيليا ايهرينبورغ) الذي يقوم (نيرودا) معه برحلات سرية ايضا من حين الى حين ، ولكي تكون هذه الاتصالات بين (نيرودا) و(ايهرينبورغ) اكثر سرية فان (نيرودا) استأجر شقة في العمارة نفسها حيث يسكن الكاتب للسوفييتي» .

لقد تبع هذه الاقاويل سلسلة من التخريصات والهراءات . لقد اعطاني (جان ريتشارد بلوش) رسالة الى صديق له كان رئيسا مهما في وزارة الخارجية . شرحت لهذا الموظف العالي كيف انهم يسعون جهدهم كي يعملوا على طردني من فرنسا مختلفين أكاذيب وادعاءات كثيرة . قلت له اني في لهفة للتعرف على (ايهرينبورغ) ، لكن ، لسوء حظي ، حتى هذا اليوم ، (ايهرينبورغ) ما خصني بهذا الشرف العظيم . نظر اليّ هذا الموظف الكبير في اسى واسف ووعدني بانهم سيقومون بتحرق دقيق حول هذه المسألة لكنهم ، ما قاموا ابدا بشيء من هذا القبيل وبقيت الاتهامات الباطلة واقفة على اقدامها .

عند ذلك قررت ان اقدم نفسي الى (ايهرينبورغ) ، كنت اعلم انه كان يتردد دائما الى «لا كوبول» حيث يتفدى على الطريقة الروسية ، اي ، عند المساء .

– انا الشاعر (بابلو نيرودا) ، من تشيلي – قلت له – بناء على قول الشرطة نحن صديقان حميمان . ان رجال الامن ومخبريهم يؤكدون في اننا نعيش في بناء واحد، وبما انهم سيتردونني بسببك من فرنسا فاني احببت على الاقل ان اهرفك عن قرب وان اصافح يدك .

اني لا اظن ان (ايهرينبورغ) كان يعبر عن علامات مفاجأة ازاء اية ظاهرة تحدث في العالم ، غير انه ، استغرب واندھش لما قلته ، فرأيت نظرة ذھول تشبه الخدر تخرج من بين حاجبيه المزبثرين ، من حيث عقیصة شعره الغاضبة السائبة .

— انا كذلك كنت اود التعرف عليك ، يا (نيرودا) — قال لي — ان شعرك يعجبني جدا . والآن ، كل ، كل هذه الـ «شاوكروت» (Choucrote) المصنوعة على طريقة منطقة الـ «سائيا» .

منذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين حميمين . يبدو لي انه في ذلك اليوم بدأ بترجمة ديواني «اسبانيا في القلب» . يجب عليّ أن اعترف ان الشرطة الفرنسية ، دون ان تقصد ذلك طبعاً ، قد منحنتني اكثر الصداقات محبة في حياتي وزودتني كذلك بأحسن مترجم لي الى اللغة الروسية .

جاء ذات يوم ليراني السيد (جوليس سوبرفييه) (٢٥) . كنت قد حصلت على جواز سفر تشيلي بأسمي وكانت مدة صلاحيته لما تنته بعد . كان هذا الشاعر القديم الكبير النبيل قلماً يخرج الى الشارع آنذاك فتأثرت وتفاجأت بزيارته .

— انقل اليك خيراً مهما . ان صهري ، زوج ابنتي ، (بيرتاوكس) ، يريد ان يراك ، لست أدري بم يتعلق الامر .

انا (بيرتاوكس) هذا كان مدير الامن العام . وصلنا الى دائرته : الشاعر المعجوز وانا ، جلسنا مقابله ، امام الطاولة . أبدا ما رأيت طاولة تحتوي على هواتف اكثر من طاولة هذا المدير . كم عددها ؟ اعتقد انه لا يقل عن عشرين هاتفاً . كان وجهه الذكي الخبيث ينظر اليّ من بين تلك الغابة الهاتفية . انا

٢٥ — جوليس سوبرفييه : كاتب وشاعر من اورفواي . اخذ الجنسية الفرنسية (١٨٨٤ - ١٩٦٠) .

كنت افكر في انه لا بد ان تكون في هذا المكان الرفيع جدا ، خيوط الحياة
الباريسية تحت الارضية كلها . تذكسرت (فانتوماس *Fantomas*
و«الكوميسير» (مايفريت) (٢٦) .

كان هذا المدير قد قرأ كتبي وكانت له معرفة غير متوقعة بشعري .

— لقد استلمت طلبا من سفير تشيلي بأن اسحب منك جواز سفرك .
ان السيد السفير يقول بأن حضرتك تستعمل جواز سفر ديبلوماسيا ، وهذا
ليس شرعا . افسح ما يقول ؟

— ان جوازي ليس ديبلوماسيا — اجبته — . انه جواز رسمي
بسيط ، انا عضو في مجلس الشيوخ بلدي ، وبهذه الصفة فان لي الحق
بامتلاك هذه الوثيقة . على كل حال ، فما هو هنا وتستطيع حضرتك ان
تدقق فيه ، شريطة الا تسحبه مني فهو ملكي ، خاص بي .

— (هو صالح حتى الآن ؟ من جدده ؟ سألني السيد (بيرتاوكس) أخذا
جواز سفري .

— هو صالح طبعا — قلت له ، — اما بالنسبة لن جدده لي ، فاني لا
استطيع ان ابوح باسمه ، فان بحث فان حكومة التشيلي ستعزله مسن
منصبه .

فحص رئيس الشرطة في دقة جوازي ، ثم استعمل واحدا من هوائفه
الكثيرة وأمر ان يوصلوه بسفير تشيلي .

المحادثة الهاتفية جرت في حضوري .

— كلا ، ايها السيد السفير ، لا أستطيع ان افعل هذا فان جواز سفره

٢٦ . — مايفريت : شخصية في الروايات البوليسية التي كتبها (سيمونون *Simenon*) .

شرعي قانوني وما زال صالحا ، اني لا أعرف من جدده له ، أكرر القول في انه سيكون غير صحيح اما اخذنا منه اوراقه . لا استطيع ، يا سعادة السفير ، اني لآسف جدا .

كان يستشف من هذه المحادثة اصرار السفير وكذلك كان واضحا غضب خفيف من جهة (بيرتاوكس) في النهاية وضع الهاتف وقال لي :

– يبدو انه عدو لدود لك . لكن حضرتك تستطيع البقاء في فرنسا ما شئت من الزمن .

خرجت مع (سورفييه) الشاعر العجوز ما كان يستطيع ان يفهم كيف يجري هذا الامر ، وانا من جهتي ، كنت أحس بشعور انتحار ممزوج بشعور آخر من الاشمئزاز والاستنكار . لقد كان ذلك السفير الذي يناكذي، ذلك المواطن مع مطاردي في تشيلي هو (جواكين فيرنانديث) ذاته ، من كان يفتخر ويتباهى بأنه صديق لي ولم يكن بضيع فرصة الا وتملقني ، والذي في صباح ذلك اليوم نفسه ارسل لي تحية مع سفير غواتيمالا .

جنود

ان (ايهرينبورغ) الذي كان يقرأ وترجم شعري ، كان يلومني : انك تكرر كلمة «جذر» كثيرا في شعرك ، لماذا هذه الجذور الكثيرة في شعرك ؟

ان هذا لحقيقة . لقد غلغلت اراضي الحدود جدورها في شعري فلم تستطع ابدا أن تخرج منه بعد . ان حياتي لهي حج طويل المدى يطوف حول العالم دائما ، ودائما يعود الى الغابة الجنوبية لبلادي ، الى الغابة الضائعة.

هناك الاشجار الكبيرة هوت طريحة الثرى بما لها من سبعمائة سنة من حياة مديدة قديرة ، احيانا أخرى اقتلع جدورها زلزال ارضي او حرقها الثلج او هدمها الحريق . لقد أحسست بالاشجار السامقة وهي تسقط في عمق الغابة : البلوط الذي يخر في نوح مصيبة صماء كما لو انه قرع بيده

الضخمة على أبواب الأرض طالبا جدنا .

بيد ان الجذور تظل في العراء، معرضة للدهر العدو، للرطوبة الطافية،
لحزازات الصخور وأشنياتهما ، للتلف المتتابع الناخر القارض .

لا شيء اجمل من هذه الايدي المبسوطة الكبيرة ، الجريحة المحروقة
التي تحكي لنا حين نعبّر دربا في الغابة عن سر الشجرة الدفين ، عن لغز
الاوراق ، عن طلسم الاغصان ، عن أحجية العضلات العميقة لهذه الطاقة
النباتية ، انها لترينا وهي في وضع مأساوي وحالة مهلوبة مزبثرة ، جمالا
جديدا : انها اعمال العمق في فن النحت : انها مؤلفات انموذجية سريسة
للطبيعة الخالقة :

ذات مرة ، فيما كنت اسير مع (رافائيل البرتي) بين الشلالات والاحراج
والغابات قرب «اوسورنو» ، لفت (رافائيل) نظري الى ان كل غصن هو
مختلف عن الآخر وأن الاوراق تتنافس في تغيير الاسلوب اللانهائي .

— انها لتبدو وكأنها اختيرت من لدن عالم نبات لتزين حديقة رائعة —
كان يقول لي .

بعد سنين في روما ، تذكر (رافائيل) تلك النزهة وحن الى ثروة غاباتنا
الطبيعية .

هكذا كان ... وهيهات أن يعود ... اني لأذكر في كتابة ، خطاي في
عهد الطفولة وزمن الشباب ، بين « بوروا » و « كاراهوييه »
او نحو « تولتين » في تجليات الشاطئ . كم من اكتشاف كان
لي ! رشاقة اشجار القرفة وشذاها غب المطر ، الاشنة التي تندلى لحاها
الشتوية من وجوه الغابة التي لا حصر لها .

لقد كنت انبش الاوراق الساقطة محاولا أن أمثر على بريق بعض
مفردات الاجنحة : القوارب المذهبة التي ارتدت صباغ عباد الشمس الازرق
كي ترقص رقصة «باليت» صغيرة تحت الجذور .

فيما بعد ، حين كنت أعبّر على جواد سلسلة الجبال نحو الجانب
الارجنتيني ، تحت عقود الأشجار السامة الخضراء برز عائق : جذر احدى
هذه الأشجار ، اكثر علوا من مطاينا ، كان يسد علينا الدرب ، فما كان الا
ان اعملنا فيه الفأس وببأس شديد حتى قدرنا على اختراقه . ان تلك
الجذور لهي كاتدرائيات مقوضة رأسا على عقب : كانت العظمة الجليلة
تفرض علينا هيبتها وجبروتها .

الفصل التاسع

بداية منفى ونهايته

في الاتحاد السوفييتي

في عام ١٩٤٩ ، حديث الخروج من المنفى ، دعيت لأول مرة الى الاتحاد السوفييتي ، بمناسبة احياء ذكرى (بوشكين) المئوية . وصلت مع الشفق الى موعدي ، مع درة «البليطيق» الباردة الى لينينغراد القديمة الجديدة ، النبيلة البتلة . ان لمدينة (بطرس) الاكبر و(لينين) «ملاك» كما لباريس . لها ملك رمادي : شوارع بلون الفولاذ ، قصور من حجارة رصاصية ، بحر من فولاذ اخضر . كانت اكثر المتاحف روعة في العالم ، كنوز القياصرة ، ازيائهم ، جواهرهم الباهرة ، ملابسهم للاحتفالات ، اسلحتهم ، اوانهم ، كلها امام ناظري . والذكريات الجديدة الخالدة : الطراد «اورورا» (١) Aurora الذي مدافعه وافكار لينين هدت اسوار

١ - اورورا : كلمة اسبانية تعني الصبح او اللجر .

الماضي وفتحت ابواب التاريخ .

لقد بادرت الى موعد مع شاعر مات منذ ١٠٠ سنة (اليكساندر بوشكين) مؤلف أساطير خالدة كثيرة ومبدع روايات . ان امير الشعراء الشعبيين هذا يملأ قلب الاتحاد السوفييتي العظيم . بمناسبة ذكراه المثوية رمم الروس حجرا حجرا وقطعة قطعة قصر القياصرة . كان كل سور قد رفع كما كان قبل ، ناشئا من الانقراض المسحوقة بفعل من المدفعية النازية . لقد استخدمت التصميمات القديمة للقصر ، وناق تلك الفترة التي بني فيها اول مرة ، كي يشيدوا من جديد النوافذ الزجاجية الملونة البراقة ، الاطناف المطرزة ، تيجان العواميد المزهرة ، على شرف شاعر رائع من عهد آخر ، تكريما له وتخليدا .

ان اول ما اثر بي في الاتحاد السوفييتسي كان شعوره بالامتداد ، انزواؤه الفضائي فهو يمتد عرضا لا طولا ، حركة اشجار الـ «بتولا» في المروج ، الغابات النقية الهائلة بشكل اعجوبي ، الانهار الكبيرة ، الاحصنة المختالة فوق حقول القمح .

لقد عشقت في اول نظرة الارض السوفييتية وادركت انها لا تلقسي درسا أخلاقيا على أركان الوجود الانساني كله وتعلم الانسانية كيفية تسوية الامكانيات والتقدم النامي في الانتاج والتوزيع فحسب، بل كذلك ادركت انه من تلك القارة السهوية ذات النقاوة الطبيعية الفنية ، كان سينتج طيران كبير . ان الانسانية قاطبة تعرف انه هناك تصنع الحقيقة العملاقة ، وان في العالم ثمة توترا مدهلا ينتظر ما سيحدث . بعضهم ينتظر في فزع وبعضهم ينتظر أمعة ، وبعضهم يؤمن انه لا بد ان يقع ما يتوقع وانا كنت اتوقع انه سيحدث طيران عظيم عبر المدى والفضاء .

كنت أجدني وسط غابة من الفلاحين ، لابسين ازياء قديمة مهرجانية، ينصتون الى قصائد (بوشكين) . كان كل ذلك يخفق : البشر ، اوراق الاشجار ، المدى حيث القمح الجديد يبدأ الحياة . كانت الطبيعة تبدو وكأنها تشكل وحدة منتصرة وانسانها الجديد . كان لا بد ان يبرز ذات مرة ، من قصائد (بوشكين) في غابة (ميشايسلويسكي) الانسان الذي

سيطر نحو كواكب اخرى .

فيما الفلاحون يشهدون مهرجان التكريم هذا واذا بديمة سكوب تفرغ
شحنها واذا بصاعقة نصعق بالقرب منا فتحرق رجلا وشجرة كانت تأويه
وتظله . فبدا لي هذا كله انه داخل اطار الطبيعة العاصفي . اصف الى هذا
ان ذلك الشعر المصاحب بالمطر كان منذ زمن في كتبي وكان ذا علاقة
وثيقة بي .

ان البلد السوفييتي يتغير بشكل دائم مستمر ، تبنى مدن وقنوات
هائلة ، حتى الجغرافيا تتبدل . لكن في اول زيارة لي انطبعت في نفسي
نابنة راسخة نواحي التشابه التي كانت تلتصقني بهم ، كذلك كل ما كان
يدو لي فيهم غريبا عن روعي بعيدا عن نفسي ، كل ما كان يصعب عليّ
فهمه او التقاطه .

ان الكتاب في موسكو يعيشون دوما في احتدام جدال مستمر . لقد
علمت هناك ، قبل ان يكتشف ذلك الغربيون محبو الفضائح ، بكثير ، ان
(باسترنالك) (٢) كان الشاعر السوفييتي الاول ، في قرن واحد
(ماياكوفيسكي) . ان (ماياكوفيسكي) هو الشاعر الجماهيري ذو الصوت
الرعدى والمظهر البرونزي والقلب العظيم النبيل الذي استطاع ان يطوع
اللغة ويواجه اكثر القضايا صعوبة في الشعر السياسي واكثر مشاكله
البيانية تعقيدا ، بينما (باسترنالك) هو شاعر شفقي كبير ، شاعر الذاتية
الميتافيزيقية ، وهو سياسيا شاعر رجعي متواضع ، ما استطاع ان يرى
في تحول وطنه وتغييره ابعده مما كان يرى سادن كنيسة مثقف . على كل
حال فاني استمعت الى اكثر النقاد صرامة في انتقاده بسبب جموده
السياسي وهم ينشدون قصائده عن ظهر قلب كثيرا من الاحايين .

ان وجود اعتقادية Dogmatismo سوفييتية في الفنون خلال مراحل
طويلة لآمر لا يمكن انكاره . بيد انه يجب ان يقال كذلك ان هذه «الاعتقادية»

٢ - باسترنالك (بوديس) : شاعر وكاتب روسي (١٨٩٠ - ١٩٦٠) .

اعتبرت دائما عيبا كوفح وجها لوجه . ان عبادة الشخصية ادت ، عن طريق المقالات النقدية التي كان يكتبها (زدانوف Zhdanov) ، وهو «اعتقادي» لامع ، الى نصلب خطير في مجرى الثقافة السوفيتية وتطورها. لكن كانت هناك اجابات كثيرة من الجهات جميعها على هذه المقالات ، وانه الامر معروف ان الحياة هي اقوى واعند من الفروض والاوامر والقواعد . ان التورة لهي الحياة وان الفروض تبحث دائما عن نعشها وقبرها .

ما زال (ايهرينبورغ) على كبره في العمر المهيح الاكبر لكل ما هو حقيقي وجوهري وحي في الثقافة السوفيتية . لقد زرت مرات كثيرة صديقي الطيب الودود في شقنه بتسارح (غوركي) ، شقته المكوبة بلوحات (بيكاسو) ، او في عزبته (Dacha) قرب موسكو . لقد كان له هوس بالنباتات فهو دائما في حديقته ينزع النباتات الطفيلية ويجني ثمار كل ما ينمو حوله .

فيما بعد انشأت صداقة متينة مع الشاعر (كيرسانوف) الذي ترجم الى الروسية شعري ترجمه نبعث على الاعجاب حقا . ان (كيرسانوف) . مثل السوفيت جميعا ، وطني متوهج . ان لتسعره ومضا منفجرا . جرسا تمنحه اللغة الروسية الجميلة التي يقذف بها الى الهواء بريشته فتنبعث تفجرات وشلالات .

كنت على الدوام ازور في موسكو او في الريف شاعرا كبيرا آخر الا وهو الشاعر التركي (ناظم حكمت) ، وهو كاتب خرافي اسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنه خلال ١٨ سنة .

لقد ابهم (ناظم) بانه كان يريد اثاره فتنه وتمرد في صفوف البحرية التركية فادانوه بكل عفوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف انهم جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ومن بعد ادخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو اكثر من نصف متر فشعر اخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يقزز ويرتعد . عند ذلك فكر : لا بد ان الجلاديين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون ان يروني اتداعي ، يريدون ان يروني

تميسا بأئسا . فانبعثت قواه في انفة وعنجهية وبدأ يغني ، اولا في صوت خفيض من بعد في صوت اكثر علوا ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرتة ، غنى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، اناشيد شعبه النضالية . غنى كل ما كان يعرفه من غناء . وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعداب . عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : «يا اخي ، انك بهذا قد اجبت عنا جميعا . فلم نعد نحناز فيما نفعله ، فها نحن جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا ان نبدأ الغناء » .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قسوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان (ناظم) يراهم وهم يأتون السى السجون جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبنك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم حصة وحيدة وجراية يتيمة . اخذوا ينظرون الى مرعى الباحة في السجن بذهول ، من بعد بانباها وتركيز ، من بعد بشرهة ونهم . ذات يوم التقطوا اقداء الحتائش والاعشاب وقربوها من أفواهم ثم راحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الايدي فيبتلعونها الى ان انتهوا الى ان يرعوها بأربعة أرجل كما الدواب .

لقد عاش (ناظم) ، الذي كان عدوا لدودا للاعتفادية ، سنين طويلة منفيا في الاتحاد السوفيني . ان حبه لهذه الارض التي حضنته لمتثل في هذه الجملة التي قالها : «انا اؤمن بمستقبل الشعر ، اؤمن لانني اخيا في بلد يشكل الشعر فيه اكثر مقتضيات الروح لزوما وضرورة» . في هذه الكلمات ننوس اسرار كثيرة لا تدرك من على بعد . ان الانسان السوفييتي ، والابواب منفتحة على المكتبات كلها والقاعات جميعها والمسارح قاطبة ، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي . ليس من مجال لنسيانه حين يتناقش حول مصير العمل الادبي . فمن ناحية ، يجب على الصيغ الجديدة ، اي التجديد الضروري لكل ما يوجد ، ان تتجاوز القوالب الادبية الجاهزة وان تعمل على تحطيمها . ومن ناحية اخرى كيف يمكن للادب ان لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة ؟ كيف يمكن له ان يبتعد عن المواضيع الاساسية ، الانتصارات ، المنازعات ، المشاكل الانسانية ، عن خصب وحرمة وتناسل شعب كبير يواجه تغييرا شاملا للنظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي الذي

كان سائدا في بلده ؟ كيف يمكن له ان لا يتضامن مع هذا الشعب الذي بهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون يعكرون صفسو الاجواء الانسانية كلها ؟ افتستطيع الآداب والفنون أن تتخذ موقفا مستقلا استقلالا هوائيا هشا ازاء أحداث جهورية ومجربات اساسية ؟

ان السماء ليضاء . في الرابعة مساء تغدو سوداء . منذ هذه الساعة يفلق الليل المدينة .

ان موسكو لهي مدينة شتوية . هي مدينة الشتاء الجميلة . لقد تمركز الثلج فوق سطوح المنازل المتكررة المترامية بشكل لا نهائي . تلتهم الشوارع النظيفة ابدا . ان الهواء لهو بلور قاس شفاف . لون فولاذي ناعم ، زغب تلجي يحوم ، ذهاب المارة واياهم كما لو انهم لا يحسون للبرد طعما ولا لدعا ، كل هذا يجعلنا نحلم في ان موسكو ما هي الا قصر للشتاء كبير ذو زخارف شبحية وحية ، خارقة ومدهشة .

ثلاثون درجة تحت الصفر في موسكو هذه التي هي مثل نجمة من نار ومن ثلج ، مثل قلب متوهج مشنعل ، قلب يكمن وسط صدر الارض .

هانذا انظر عبر النافذة ، ثمة حراس في الشوارع ، فماذا يجري ؟ لقد توقف حتى الثلج عن الحركة عن الهطول . انهم يدفنون (نيسهينسكي Vishinski) العظيم ، تنفتح الشوارع في جلاله ووقار كي يمر موكبه . يسود سكون عميق ، خفوت في قلب الشتاء احتراما لهذا المحارب الكبير . ان نار (نيسهينسكي) توؤب الى اس الوطن السوفييتي .

ما زال الجنود الذين حيوا بأسلحتهم الموكب حين مر في اماكنهم ثابتين في تشكيلات ثلاثية ، من حين الى حين يقوم احدهم برقصة صغيرة ، رافعا يديه القفازيتين ومحليا بجزمته الطويلة لحظة . ثم يرجع متصلبا راسخا ثابتا .

لقد روى لي صديق اسباني انه خلال الحرب العظمى في اشد الايام بردا وصقيعا ، اثر غارة جوية داهمة كان المسكويون يثرون وهم يأكلون

المثلجات فى السوارع ، «آنذاك ادركت انهم لا بد واربحو الحرب – كان يقول لى صديقى – ، حين رأيهم يأكلون المثلجات فى هدوء وطمأنينة نفس وسط حرب رهيبه وبرد شديد» .

لقد تزركشت اشجار الحدائق بيضاء من نلج . لا شيء يقرون بهذه الاوراق المتبلورة فى الحدائق بشتاء موسكو ، ان الشمس تجعلها اكثر شفافية ، تقتلع منها لها ابيض دون ان تدوب ابة قطرة من قامتها الزهرية من قوامها الثلجى . انه لكون مشجر يدعك ترى من خلال ربيعته الثلجى ابراج «الكريمين» العتيقة القديمة ، السهام الرشيقه الهيفاء الالفية ، قباب كنيسة «القديس باسيل» المذهبة .

انى لارى ، بعد ان عبرت ضواحي موسكو باتجاه مدينة اخرى ، دروبا مريضة بيضاء ، ان هي الا الانهار المتجمدة . فى مجارى هذه الانهار الجليدية بطلع من حين الى حين كما ذباية فى خوان ابيض باهر ، طيف صياد مطرق الرأس . يقف الصياد وسط السماط السببب المبدد الجليد ، يختار نقطة ، بثقب الجليد حتى يدع التيار الدفين مرثيا جليا ، فى هذه اللحظة نفسها لا يمكن له الصيد اذ ان الاسماك المباحثة هربت مدعورة من ضجيج المناقب الحديدية التي عملت فى الجليد ثقبا وتنقيا ، حينذاك يعيش الصياد بعضا من طعم هنا وبعضا من طعم هناك كي يجذب الاسماك الفارّة ثم يرمى بصنارته ويترقب ، ينتظر ساعات وساعات فى ذلك البرد الابليسي اللعين .

ان عمل الكتاب ، فى راىي ، له شبه كبير بعمل اولئك الصيادين فى القطب الشمالى . على الكاتب ان يبحث عن النهر فان وجده متجمدا فانه يضطر ان يثقب الجليد . عليه ان يجلد ويصبر ، ان يتحمل الطقس المعادي والنقد المضاد ، ان يتحدى التفاهة ، ان يبحث عن التيار العميق ، ان يرمى بالصنارة الصالحة الصائبة ، لينخرج بعد جهد جهيد وصبر شديد سمكة صغيرة . بيد انه لا بد له من ان يرجع الكرة ويعود للصيد من جديد ، ضد البرد ، ضد الصقيع ، ضد الماء ، ضد النقد ، وهكذا دواليك حتى يخرج فى كل مرة صيدا أكبر وأعظم .

دميت لحضور مؤتمر للكتاب ، كان يجلس هناك فى سدة الرئاسة

صيادو الاسماك العظماء . كتاب الاتحاد السوفيتي الكبار (فاديف) بابتسامته
البيضاء وشعره الفضي . (فيدين) بوجهه النحيل الحاد كوجه صياد
انجليزي . (ابهرينبورغ) بتواصي نسره المضطربة وببدلته الني وان كان قد
دسنا حدينا يعطى انطبعا بانه كان ينام وهو يرنديها . و(تيخونوف) .

كان ذلك ممذلين في الرئاسة بوجههم المنغولية . الناطقون باسم
آداب اكثر الجمهوريات السوفيتية بعدا ، ممتاو شعوب ما كنب أدري أنا
حتى بأسمائها . شعوب ما كانت لها الابجدية من قبل .

الهند المزارة من جديد

كان عليّ في عام ١٩٥٠ ان أسافر الى الهند على غير توقع او انتظار .
لقد استدعاني الى باريس (جوليوت كوري Joliot Curie) (٢) كي
يكلفني بمهمة الا وهي السفر الى «دلهي الجديدة» للاتصال هناك باناس من
مخلف الآراء والاتجاهات السياسية والبحث هناك عن امكانيات تدعيم
الحركة الهندية من اجل السلام العالمي . كان (جوليوت كوري) هو الرئيس
الدولي لانصار السلام . تحدثنا في اسهاب . كان يقلقه ان السلم في الهند
ليس له الوزن الذي يجب ان يكون عليه . غير انه كان للهند سمعة حسنة
في انها دولة مسالمة من الطراز الاول . وكان لرئيس وزرائها نفسه ؛
(البانديت نهرو) ، الشهرة في انه زعم السلام ان قضية السلام لهي قديمة
عميقة بالنسبة لملك الامة .

اعطاني (جوليوت كوري) رسالتين : واحدة منهما لعالم بحثة مسالم
في «بومباي» والاخرى لرئيس الوزراء (نهرو) على ان أسلمها له يدا ليد .
لقد استغربت انه اختارني على التعيين للقيام بسفر مرهق طويل وبعمل
سهل جدا ، كما كان يبدو . ربما انه اعتمد على حبي الذي ما خمد أبدا
نحو ذلك البلد حيث قضيت بضعة سنين اثناء شبابي او لعله استند الى اني

٢ - جوليوت كوري Frédéric : فيزيائي - كيميائي (١٩٠٠ - ١٩٥٨) .

حزت في هذه السنة نفسها على جائزة السلام بقصيدتي «فليستيقظ الحطاب» ، ميزة منحت كذلك الى (بابلو بيكاسو) و (ناظم حكمت) .

ركبت الطائرة متوجها الى «بومباي» . بعد ثلاثين سنة كنت اعود الى الهند من جديد ، والهند الآن ليست مستعمرة تكافح في سبيل تحررها وانعتاقها بل هي جمهورية (٤) ذات سيادة : حلم (غاندي) الذي حضرت مؤتمراته الاولى عام ١٩٢٨ . لم يعد من اصدقائي الطلبة النوريين اذاك الذين اودعوني في ثمة وأخوة حكاياهم الكفاحية البطولية اي فرد حي ، هذا ما كنت أفكر فيه حين وصلت .

ما أن نزلت من الطائرة حتى توجهت الى الجمارك وفي نيني ان اتوجه الى اي فندق مهما كان ، كي أسلم الرسالة الى العالم الفيزيائي (رامان) (٥) وأواصل سفري من بعد الى دلهي الجديدة . لم أكن احسب حساب الضيافة والاقامة عند هذا العالم . لكن حقائبي ما كانت لتخرج من سورها اذ ان مجموعة ممن كنت احسبهم رجال جمارك ، كانوا يفتشون حقائبي تفتيشا دقيقا وبحثا متطائرا وفي عدسة مكبرة : لقد شاهدت في حياتي تحريات وفتيشات عديدة لكنني ابدا ما شاهدت كما هذه المرة : لم يكن عفتشي بالكثير النامي : حقيبة صغيرة تحتوي على ملابس ومحفظة تتضمن لوازمي الشخصية . راحت سراويلي وملابسي الداخلية وأحذيتي تعلق في الهواء ترقبها خمسة أزواج من العيون ، كانت الجيوب والفرزات والدروز تنقب تنقبا دقيقا مجهريا . كي لا تنسخ ملابسني بأحذيتي فقد كنت في مطار روما قد طويت هذه الاحذية بصحيفة متجعدة عثرت عليها في غرفة فندقني هناك وأظن انها « الاوبسيفاتور رومانو » . ففرشوا هذه الصحيفة فوق طاولة وأخذوا ينظرون اليها بالنور الكاشف ثم طوها في اعتناء كما لو انها وثيقة سرية ثم وضعوها قرب اوراقني ووثائقي الاخرى . كذلك فانهم درسوا وفحصوا احذيتي من الداخل ومن الخارج كأنها نماذج فريدة من الحفريات الهائلة .

٤ - من المعروف ان الهند هي دولة تابعة للكومونولث البريطاني .

٥ - رامان Chandrasekhara Venkata : عالم فيزيائي هندي ولد عام ١٨٨٨ .

لقد دام هذا البحث الخرافي زهاء ساعتين . لقد صنعوا من اوراقى
(جواز سفر ، مفكرة عناوين ، الرسالة التي كان عليّ أن أسلمها الى رئيس
الحكومة ، صحيفة «الابوسير فاتور رومانو») ربطة مطولة ختموها بشكل
احفالي بالشمع الاحمر امام ناظري ، بعد ذلك قالوا لي اني أستطيع
التوجه الى الفندق .

بدلت جهدا تشيليا كي لا افقد صبري،. ثم اندرتهم بأنهم لن يقبلوني في
اي من الفنادق ان لم اكن مزودا بوثيقة تثبت هويتي، وان موضوع زيارتي
الى الهند هو اعطاء الوزبر الاول الرسالة التي لن أستطيع اعطاها له لانهم
خطفوها مني وبقيت معهم .

— نحن سنتكلم مع الفندق كي يفلوك فيه ، اما بالنسبة للاوراق فاننا
سنعيدها اليك في اللحظة المناسبة .

هذا هو البلد الذي شكل كفاحه من اجل الاستقلال جزءا من مصري
وشبابي . قلت في نفسي . اغلقت حقيبتي وفي الوقت نفسه اغلقت فمي.
كان فكري ، في داخلي ، يشكل كلمة واحده لا غير : خرا .

التقيت في الفندق مع الاستاذ (بايرا) فحكيت له محنتي . كان هو
رجلا هنديا ذا مزاج طيب . لم بول الامر الاهمية اللازمة فلقد كان متسامحا
مع بلده ومتساهلا اذ انه اعتبر الهند في مرحلة التنسكل والتكون فيما كنت
انا على العكس ، فلقد رأيت في تلك الفوضى شيئا سيئا جدا ، شيئا ما
كنت أنتظره من امة مستقلة جديدة تجري لي هذا الاستقبال الفاضح
المخزي .

كان صديق (جوليوت كوري) الذي كنت أحضر له رسالة التقديم ، هو
مدير الدراسات الفيزيائية — الذرية في الهند ، فدعاني لزيارة مراكزه
النوية هذه واطاف قائلا باننا مدعوان الى الغداء في اليوم نفسه على
مائدة أخت رئيس الوزراء . هكذا كان حظي وهكذا كانت حياتي كلها دوما:
بيد بلطموني على أضلامي وبيد أخرى يقدمون لي باقة ورود كي أغفر الحيف .

ان معهد الابحاث النووية كان واحدا من هذه الاماكن النظيفة الواضحة

المشعة التي فيها ترى رجالا ونساء وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة شفافة ، يحومون ويطفون كالماء الجاري ، يعبرون دهاليز وممرات ، يتفادون التماس بأدوات والواح كبيرة وأوان وأوعية كثيرة . مع اني لم أفهم الا القليل من تلك الشروح العلمية فان تلك الزيارة أفادتني كأنها حمّام من مطر كان ينظفني ويفسل عني أوضار تلك البقع التي لطخني بها رجال الشرطة وتنكيداتهم وإزعاجاتهم وتفتيشاتهم . أذكر في غير وضوح انسي رأيت من بين الاشياء الاخرى نوعا من الزئبق ادهتني . لا شيء أروع من هذا المعدن الذي يعرض طاقته كأنها حياة حية . لقد سرني دائما بحركته وتحركه : قدرته على التحول السائلي الكروي السحري .

لقد نسيت اسم اخت (نهرو) التي تغدينا معها ذلك اليوم . حين رأيتها زال عني المزاج السيء . كانت امرأة ذات جمال وحسن عظيمين ، متزينة، منبرجة كأنها ممثلة غريبة النوع ، كان رداؤها Sari يبرق في السوان زاهية ، وكان الذهب والدر والجوهر تزودها بزخارف تزيد من جمالها ، لقد أعجبتني كثيرا . لقد كان ، فعلا ، شيئا مناقضا أن تراها وهي تأكل بيديها ، ان ترى اناملها الطويلة المحلاة بالزينة وهي تفرز في الارز ومرق Curry . قلت لها اني سأذهب الى دلهي الجديدة كي أرى اخاها وأقابل انصار السلام العالمي . أجابتنى انه ، في رأياها ، سكان الهند جميعا يجب عليهم ان ينخرطوا في هذه الحركة العالمية .

في المساء سلمني رجال الشرطة السفط وأوراقى . لقد كان أولئك المنافقون من رجال الشرطة قد كسروا الخوانم الشمعية التي هم بأنفسهم وضعوها حين صفتّوا وثائقي في حضوري . بالتأكيد انهم صوروا كل شيء حتى وصول حسابات محل تنظيف الثياب التي كنت أحملها في جيبى . مع مضي الوقت عرفت انهم استجوبوا جميع الأشخاص التي كانت عناوينهم تبدو في مفكرتي ، ومن بين هؤلاء الأشخاص ارملة (ريكاردو غويرالديس) (٦) التي هي أخت زوجتي في ذلك الوقت . كانت هذه السيدة امرأة متصوفة سطحية ليس لها من هوى ولا هوس الا

٦ - ريكاردو غويرالديس : روايتي ارجنتيني (١٨٨٦ - ١٩٢٧) .

الفلسفات الآسيوية ، وكانت تعبت في ضيعة نائية جدا في الهند ، ومع ذلك فقد ازعجوها نظرا لان اسمها كان من جملة الاسماء التي أحملها في مفكرني .

في دلهي الجديدة رأيت سبعا من الشخصيات بالعاصمة الهندية ، في يوم وصولي نفسه ، حيث كنت اجلس في حديقة تحت ظلال تحميني من وهج النار السماوية . كانوا كنانا ، فلاسفة ، كهنة هندوسا او بوذيين ، من اناس الهند ، هؤلاء البسطاء جدا الى درجة تبعث على التقدير والتفديس ، غير مزودين بأي تيجح مصطنع ولا زهو مزيف . ارتاوا بالاجماع ان بشكل انصار السلام حركة واحدة تنصهر مع الروح القديمة لهذا البلد العريق بتقاليده الحية من حب للخير وتفاهم منسرك . اضافوا في حكمة انهم يرون انه من الضروري ان تصلح العيوب ، عيوب الميل نحو جانب دون آخر او سيطرة قسم على آخر : ليس على احد او فئة ان بدعى الحركة لنفسه سواء اكان من الشيعيين او البوذيين او البورجوازيين . ان مساهمة الانجاهات كلها كان هو المحور الرئيسي وعقدة الامر . كنت على انفاق معهم .

جاء ليراني سفير شميلي في دلهي الجديدة وهو صديق قديم لي ، كاتب وطبيب يدعى الدكتور (خوان مارين) (٧) وحين وصل كنت انا اتفدى . بعد كثير من اللف والدوران والمواربه في الكلام قال لي انه كان قد قابل رئيس الشرطة . فاخبره رئيس الشرطة الهندي في هذا الطابع الجدي الذي يتكيفه الرجال المسؤولون حين يتوجهون لمخاطبة الدبلوماسيين ان نشاطاتي تزعج حكومة الهند وتقلقها وانه ليتني أهجر الهند عما قريب . فأجبت السفير ان نشاطاتي قد اقتصرت على مقابلة سبعة من الاشخاص الشهيرين المعروفين في حديقة الفندق ، أفكارهم معروفة لدى الجميع ، كنت افترض انا . اما بالنسبة لي ، قلت له ، فاني حين اسلم رسالة (جوليوت كوري) الى رئيس الوزراء ، لن ارغب من بعد ان استمر في بلد يعاملني على الرغم من وقوفي المجرب الى جانب قضاياه بهذه الوقاحة وقلة الكياسة دون اي مبرر او داع .

٧ - خوان مارين : روائي ومؤرخ تشيلي (١٩٠٠ - ١٩٦٣) .

لقد كان سفيري ، مع انه كان واحدا من مؤسسي الحزب الاشتراكي بتشيلي ، خامدا هامدا . قد يكون بسبب تراكم السنين عليه وبسبب تراكم الامتيازات الدبلوماسية لم يبد اي احتجاج على الالهانة التي لحقت به وبني من جراء هذا السلوك الفبي من لدن الحكومة الهندية ، وانا لم اطلب منه اي دعم او تضامن معي بل ودعته بالتي هي احسن ، فمضى هو مرتاحا من الحمل الثقيل الذي كان يعني بالنسبة له وجودي في الهند وانا مضيت يائسا الى الابد من حساسيته ومن صداقته .

كان (نهره) قد حدد لي موعدا في صباح اليوم التالي بمقر الحكومة في مكتبه . وقف ومد لي يده دون اية ابتسامة من ترحيب وتكريم . ان مقر الحكومة هذا قد وصف كثيرا فلا حاجة بي للكلام عنه . نظرت السيّ عينان داكنتان باردتان من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدموني اليه والى ابيه في اجتماع حاشد من اجل استقلال الهند . فذكرته بهذا الاجتماع واللقاء فلم تنغير ملامحه ابدا . على كل ما كنت ا قوله كان يجيب في مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف او حرفين وهو يرقبني بنظرته الباردة الجامدة الثابتة .

ناولته من بعد رسالة صديقه (جوليوت كوري) فقال لي بأنه يشعر نحو هذا العالم الفرنسي شعور التقدير والاحترام ، ثم قرأ الرسالة في رصانة . كان حديثه في الرسالة عني ويطلب منه مساعدتي في مهمتي . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد في ظرفها ونظر اليّ دون ان يفول لي شيئا . فكرت لتوّي ان حضوري يسبب له اشمزازا لا يفاوم ، كذلك مر في ذهني ان هذا الرجل ذا اللون الاصفر الشاحب لا بد انه يمر في لحظة فيسيولوجية سيئة او سياسية مزعجة او نفسية مضايقة . كان في سلوكه بعض من الانفة والتشامخ ، شيء من التكبر والعجرفة ، زهو شخص متعود على ان يكون آمرا ناهيا دون ان يكون له شيء من هيبة القائد . تذكرت ان اباه (البانديت موتيلال زيماندار) ، سليل جنس قديم من السادة ، كان امين خزانة (غاندي) وانه ساهم ليس بمعرفته السياسية فحسب بل كذلك بشروته الكبيرة في حزب المؤتمر الهندي . فكرت في انه ربما يكون هذا الرجل قد عاد ليصير بشكل مهلهل (زيماندارا) وانه لهذا السبب يرمقني في احتقار ولا مبالاة كما لو كان ينظر الى فلاح حاف عار .

– ماذا عليّ ان اقول للاستاذ (جوليوت كوري) حين اعود الى باريس؟

– ساجيب على رسالته – قال في جفاف .

احتفظت بالسكون والصمت خلال بضعة دقائق بدت لي دهرا . كان ظهر لي ان (نهرو) ليست عنده اية رغبة في ان يقول لي شيئا ، لكن ما كنت ابدي اي تملل او عدم صبر كما لو اني كنت أستطيع البقاء هناك جالسا الى الابد بدون اي غرض ولا هدف ، يملؤني شعور بان أضيع وقت رجل عظيم جدا ومهم جدا .

اعتبرت انه لا بد لي من ان اقول له بضع كلمات عن مهمني . ان الحرب الباردة تهدد بان تصير ساخنة بين لحظة وأخرى . ان هاوية جديدة قد تبتلع الانسانية . كلمته عن خطر الاسلحة الذرية الرهيبة وعن أهمية ان يتكلم جميع الذين يريدون تجنب الحرب الذرية او اكثرهم على الافل .

كما لو انه ما سمع مي شيئا ، استمر في تأمله واطراقه الفكري الروحي . بعد انتهاء بضع دقائق تفوّه قائلا :

– ان ما يحصل هو ان كتلة واخرى تتراشقان بحجج السلام .

– بالنسبة لي – أجبته – ان الذين يتكلمون عن السلام او يريدون المشاركة في السلم جميعا يستطيعون ان ينتموا الى الكتلة نفسها السى الحركة نفسها ، فنحن لا نريد اقضاء احد عن حركتنا ما عدا انصار الحرب ودعاة الانتقام .

استغرق الصمت طويلا فأدركت ان الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدي مودعا فصافحني في سكون . حين كنت اتوجه نحو الباب سألني في شيء من الود :

ماذا تستطيع ان تعمل في سبيل حضرتك ؟ الا تستطيع ان أقدم ل حضرتك شيئا ؟

أنا عادة بليد الإجابة غير سريع الخاطر ، غير مجهز بالخبث والمكر ، لكن
للمرة الوحيدة في حياتي استفدت من تلك الفرصة السانحة :

— بلى ، طبعا ، لقد نسيت ، على الرغم من اني قد جئت سابقا الى
الهند فاني لم تسنح لي فرصة زيارة «تاج محل» القريب جدا من دلهي
الجديدة . كان من الممكن أن تكون هذه هي الفرصة المناسبة لزيارة هذا
المشهد التذكاري الرائع لو لم تخبرني الشرطة اني لا استطيع مغادرة المدينة
وان عليّ ان اعود الى اوربا في أسرع وقت ممكن، ولهذا فاني سأرحل غدا.
كنت فرحا بأنني رشقته بالسهم (أ) . حيثه في خفة وغادرت مكتبه .

في قاعة الاستقبال بالفندق كان المدير ينتظرني .

— عندي رسالة لحضرتك ، رسالة شفوية ، لقد اتصلت بي الحكومة
هاتفيا لتخبرني ان حضرتك تستطيع زيارة «تاج محل» حين يطيب لحضرتك .

— اعد حسابي — اجبته — اني لآسف لعدم قدرتي على القيام بهذه
الزيارة ، فاني سأتوجه الآن حالا الى المطار كي آخذ أول طائرة تقلني الى
باريس .

بعد خمس سنين على هذا كلفت ان اكون عضوا في لجنة الجوائز التي
كل سنة تمنح جائزة لينين للسلام في موسكو وهذه اللجنة هي محكمة
أممية أشكل أنا جزءا منها . حين حانت لحظة تقديم أسماء المرشحين لذلك
العام ، قذف مندوب الهند باسم رئيس الوزراء (نهر) .

أنا ابتسمت ابتسامة لم يفهما احد من الاعضاء الآخرين وصوتت
ايجابيا . بتلك الجائزة الاممية نصّب (نهر) واحدا من أبطال السلام في
العالم .

أ — رشقته بالسهم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، كالتة له الصاع صاعين وان
كان التعبير العربي في الاصل يعني الخير والمودة .

زيارتي الاولى للصين

لقد زرت الصين مرتين بعد الثورة ، الاولى عام ١٩٥١ ، حين شاركت في مهمة حمل جائزة لينين للسلام الى السيدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سون يات سين Sun Yat Sen) (٩) .

لقد منحت هي هذه المداوية الذهبية بناء على اقتراح (كوو موخو) (١٠) نائب رئيس الصين وكاتب شهير . كان (كوو موخو) كذلك نائب رئيس لجنة الجوائز مثلما كان كذلك (اراغون) . الى هذه اللجنة كان بنتمسي : (ائسا سيفيرس) ، السينمائي (أليكساندروس) (١١) و (ايهرينبورغ) وانا ، وآخرون لا اذكر الان اسماءهم . كان ثمة حلف سري مؤلف من (اراغون) و(ايهرينبورغ) ومني ، عن طريق هذا الحلف توصلنا الى ان تمنح اللجنة الجائزة في اعوام اخرى الى (بيكاسو) ، الى (بيرتولد بريخت) (١٢) الى (رافائيل البرتي) . لم يكن الامر سهلا ، على فكرة .

خرجنا بالقطار المتجه نحو الصين العابر «سيبيريا» . لقد كان حشر نفسي في هذا القطار الاسطوري مثل الدخول في باخرة تبحر عبر الارض في المدى السحري الغريب . لقد كان كل شيء اصفر فيما حولي . على كل جانب من كويتي في القطار ، فرسخا اثر فرسخ . كان الخريف السيبيري يسود ويسيطر ولا شيء يرى غير اشجار «البتولا» الفضية ذات الاوراق الصفراء . ثم بدا المرج المديد ، صحراء جليدية او غابات الصنوبريات Taiga ومن حين الى حين تقترب من محطات المدن الجديدة . كنا نهبط ، (ايهرينبورغ) وانا ، كي نتنسط بعد التخدير القطاري . كان الفلاحون ينتظرون القطار في المحطات ومعهم حزم وطرود وحقائب مكمومة في قاعات الانتظار .

٩ - سون يات سين : سياسي صيني (١٨٦٦ - ١٩٢٥) .

١٠ - كوو موخو : كاتب صيني ولد عام ١٨٩٥ .

١١ - اليكساندروف : مخرج سينمائي روسي ولد عام ١٩٠٣ .

١٢ - بريخت : مؤلف مسرحي وشاعر الماني معروف (١٨٩٨ - ١٩٥٦) .

لم يكن لدينا من الوقت الا القليل نستفيد منه كي نقوم ببعض الخطوات عبر هذه القرى . كانت جميعها سواء وفي كل قرية كان ثمة تمثال لستالين ، من اسمت . احيانا كان التمثال مدهونا بالفضة و احيانا اخرى بالذهب . من عشرات التماثيل التي شاهدناها والتي كانت رتيبة سواء ، لسب ادري ايها كان اقبح وابشع اهي الفضيحة ام الذهبية . حين نعود الى القطار الذي أبحر بنا لمدة اسبوع كان (ايهرينبورغ) يسليني بحديثه الظريف المرتاب ولو انه كان وطنيا وسوفييتيا . كان (ايهرينبورغ) يحدثني في ازدياء وتهكم عن كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة .

كان (ايهرينبورغ) قد وصل الى برلين مع الجيش الاحمر . كان هو ، بلا شك ، المع المراسلين الحربيين على الاطلاق . كان الجنود الاحمر يحبون هذا الرجل الغريب الاطوار اللامركزي . لقد اراني في موسكو قبل السفر بقليل هديتين كان اولئك الجنود قد اهدوهما اليه بعد ان استخرجهما من بين الاطلال الالمانية . ان احدي هاتين الهديتين هي بندقية صنعها صانعو اسلحة بلجيكيون ل نابوليون بوناپرت والاخرى هي عبارة عن مجلدين صغيرين من أعمال (رونسارد) فد طُبعا في فرنسا عام ١٦٥٠ . كان هذان المجلدان الصغيران مشيطين وملوثين بالمطر والدم .

تنازل (ايهرينبورغ) عن بندقيته الى المتاحف الفرنسية ، ماذا اصنع بها ؟ كان يقول لي وهو يداعب ماسورة هذه البندقية النابوليونية الجميلة الجيدة الصنع وفندقها المصقول اللامع . اما بالنسبة لمجلدي (رونسارد) فقد احتفظ بهما لنفسه في غيرة وحيطة .

كان (ايهرينبورغ) متفرنسا متحمسا . انشدني في القطار قصيدة من قصائده السرية ، كانت قصيدة قصيرة يتغنى فيها بفرنسا كما لو كان بغازل امرأة يهيم بها .

اقول ان القصيدة سرية لانها كانت الفترة التي فيها بدأت بروسيا تشن الاتهامات ضد «الكونية» Cosmopolitismo . كانت الصحف تنشر وشايات معممة ضد الكونيين . فقد كان لفن الحديد كله يدو لهذه الصحف انه كوني . كان هذا الكاتب او ذاك الرسام يسقط ضحية هذا الاتهام وبمحي اسمه كليا . وهكذا كان على قصيدة (ايهرينبورغ) المتفرنسة

ان نحمي حنانها كما زهرة سرية .

ان الكثير مما كان يطلعني عليه (ايهرينبورغ) كان يختفي من بعد الى الابد في ليل (ستالين) المعتم المظلم اختفاءات كنت انا ارجع اسبابها السى طبعه المتمرد المتناقض .

كان (ايهرينبورغ) بالنسبة لي بوفرة شعره غير المنتظمة وبتقطيب جبينه العميق وبأسنانه المتسمة بالتبغ ، وبعينيه الرماديتين الباردتين ، هو الارتياحي القديم ، الخائب الكبير . انا كنت افتح عيني ، حديثا ، على الثورة العظيمة ولم يكن فيّ متسع لجزئيات مشؤومة . كنت اخالف قليلا الدوق العام السائد اذاك والمتمثل في تلك التماثيل المدهونة بالذهب او الفضة . لقد أثبت الزمن اني لست على صواب وحق ، لكنني اعتقد انه لا احد ولا حتى (ايهرينبورغ) كان يدرك عمق المأساة وفداحة المصيبة الى ان انعقد المؤتمر العشرون فكشف لنا جميعا عن ذلك كله .

كان يظهر لي ان القطار يسير في بطء كثير عبر المدى الاصفر ، يوما بعد يوم ، شجرة «ال بتولا» اثر شجرة «ال بتولا» . هكذا كنا نفترب عبر «سيبيريا» من جبال «اورال» .

كنا ذات يوم نتغدى في عربة المطعم حين لفت نظري جندي كان يتسفل مائدة وحده ، كان ثملا جدا وهو شاب اشقر كثير الابتسام . كان يطلب في كل لحظة من النادل ان يأتي له ببيض نيء ، ثم يكسر هذا البيض وفي سرور (١٢) كبير واضح يفرغ كل بيضة في طبق ثم يطلب زوجا آخر من المبيض ، وفي كل مرة كان يحس انه اكثر سعادة ، يستدل على هذا من ابتسامته الطروب ومن عينيه الزرقاوين الفرحتين فرح طفل صغير . لا بد انه قد قضى وقتا كثيرا وهو يكسر ويصب ويطلب ثم يكسر ويصب ويطلب لان زلال البيض اخذ يتدفق ويفيض بشكل خطير من أطباقه ويسقط على ارضية العربة .

١٢ - سرور : في الاصل البروز Alborozo وهي كلمة عربية من معانيها فسي الاسبانية الطرب والفرح والسرور .

— Tovarich — كان ينادي الجندي في حماسة على النادل ليطلب منه بيضات جديدة كي يضاعف من كنزه وثروته البيضية .

وأنا كنت أراقب في حماسة كذلك هذا المشهد السريالي البريء جدا، المبالغت جدا في اطار تلك الوحشة السيبيرية المحيطة .

الى ان نادى النادل المستنفر على شرطي عسكري . نظر الشرطي المسلح تماما من علوه اذ كان طويلا جدا ، في حزم وجدية الى الجندي فلم يعره هذا اي انتباه بل استمر في عمله يكسر البيض ويهتسه .

افترضت انا ان السلطة سوف تخرجه في عنف من حلمه المسرف المبدع ، لكنني دهشت حين رايت الشرطي الهرقلي يجلس قربه ويمر يده في حنان عبر الشعر الاثقل ويكلمه في نصف صوت ، مبتسما له ومحاوفا انناعه الى ان جعله يقوم فجأة في نعومة ورشاقة من مقعده وقاده من ذراعه كانه اخ كبير له ، الى مخرج العربة نحو المحطة نحو شوارع القرية .

فكرت في مرارة ماذا كان يقع لو ان سكريا مسكينا هنديا جعل يكسر البيض في قطار اكوادوري .

خلال تلك الايام السيبيرية كان يسمع في الاضاحي والاماسي عزف (ايهرينبورغ) في قوة على معازف آلتة الكاتبة . هناك أنهى رواية «الموجة الاولى» وهي الاخيرة قبل روايته الاخرى «ذويان الجليد» . من جهتي كنت لا اكتب الا على فترات متقطعة بعض قصائد من ديواني «أشعار القبطان» وهي قصائد غزل ب (ماتيلده Matilde) سأنشره من بعد في «نابولي» غفلا من التوقيع .

تركنا القطار في «ايركوتز» . قبل ان نأخذ الطائرة الى «مونفوليا» ، ذهبنا للقيام بنزهة عبر البحيرة ، بحيرة «بايكال» الشهيرة ، في اطراف «سيبيريا» التي كانت تعني في العهد القيصري باب الحرية . نحو هذه البحيرة كانت تتجه افكار المسجونين والهاربين وأحلامهم . كانت الطريق الوحيدة الممكنة للفرار والهرب . «بايكال ، بايكال» ما زالت حتى الآن

ترددها الاصوات الروسية الفخمة وهي تفني الاناشيد القديمة .

لقد دعانا معهد أبحاث البحيرات الى الغداء . فكتف لنا العلماء عن اسرارهم العلمية . ابدا ما اسنطعنا تحديده عمق تلك البحيرة الني هي ابنة جبال «اورال» وعينها . من على بعد الفي متر عمقا تسنخرج اسماك غريبة عجيبة . اسماك عمياء . نسنخرج من هاوينها المعنمة الليلية . ما ان سمعت هذا حتى اخذتني السهية وتمكنت من افعان العلماء البحابين من ان يحضروا لي الي مائدتي روجا من تلك الاسماك العجيبة . اني لواحد من الاشخاص العلائل في العالم . الذين اسنطعوا ان يألوا اسماكا قعرية عميفة مروية ب «فودكا» سيبرية جيدة .

من هناك طرنا الي مونفوليا . ما زلت اخنفظ بذكري ضبابية ليلك الاراضي القمرية حيث يعيش السكان هناك في خيام بدوية بينما شرعوا في خلق اوائل مصانعهم وانشاء اوائل جامعاتهم . حول «اولان باتسور» تنفتح ارض يياب مدورة لا نهائية شبيهة بصحراء «اتاكاما» في وطني . لا يمزجها الا قوافل الجمال التي تجعل وحسنها ووجدتها اكثر فدما . بالمناسبة بذوقت في طاسات (١٤) فضية مصنوعة في سكل مدهل وبسكي المنفولين . ان كل فرية تصنع كحولها (١٥) مما ستطيع . ان هذا الذي ذقه كان من حليب نافه متخثر منحمر . ما زلت حتى الآن كلما ذكرته بعنسر بدني . لكن . كم هو رائع اني كنت في «اولان بانور» ، انا من يعيش في الاسماء الجميلة ، انا احيا في هذه الاسماء كما لو كنت احيا في منازل الاحلام . لقد عنستمتنعاً منلذا بكل مقطع من اسم «سينعابور» من اسم «سمرند» . اني اريد حين اموت ان يدفنوني في اسم . في اسم رنان جيد الاختيار ، كي تفني مقاطعه فوق عظامي ، قرب البحر .

ان الشعب الصيني هو من اكثر الشعوب ابتساما في العالم . عبر الاسنعمار الذي لا يرحم ، عبر الثورات ، عبر المجاعات ، عبر المجازر ؛

١٤ - طاسات : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٥ - كحول : هكذا في الاصل Alcohol . عن العربية

يبتسم ، يعرف ان يبتسم في المآسي اكثر من اي شعب آخر . ان ابتسامه الاطفال الصينيين لهي أجمل حصاد أرز تفرطه هذه الجمهرة الفقيرة من الخلق . غير ان ثمة نوعين من الابتسامات الصينية . نمة نوع من الابتسامه الطبيعية تضيء الوجوه بلون قمحي ، هي ابتسامه الفلاحين وابتسامه الشعب العديد . النوع الثاني هي ابتسامه «انزع وضع» (١٦) ، تتشابه ، تلمسق نم تمحق تحت الانف ، انها ابتسامه الموظفين .

لقد كلفنا جهدا ان نميز بين هذين النوعين حين وصلنا ، انسا و(ابهرينبورغ) الى مطار بكين لأول مرة . لقد رافقتنا الابتسامات الحقيقية خلال الايام الاولى ، كانت ابتسامات زملائنا الكتاب الصينيين ، روائيين وشعراء ، استقبلونا احسن استقبال في كرم ضيافة وجود نفس . هكذا تعرفنا على (تينغ لينغ) وهو روائي ، حائز على جائزة (ستالين) ، ورئيس اتحاد الكتاب . على (ماو دونغ) ، على (ايمسي سياو) ، على (اي شينغ) الرائع وهو شيوعي قديم وأمير الشعراء الصينيين . هم كانوا يتكلمون الفرنسية او الانجليزية . لقد دفنتهم الثورة الثقافية جميعا بعد سنوات قلائل . لكن في ذلك الحين ، حين وصلنا ، كانوا شخصيات الادب الصيني الاوائل .

في اليوم التالي ، بعد منح جائزة (لينين) التي كانت تدعى بجائزة (ستالين) ، أكلنا في السفارة السوفييتية . لقد كان حاضرا في هذه الوليمة ، بالاضافة الى السيدة التي منحناها الجائزة ، (شو اين لاي) والمارشال العجوز (شو تيه) (١٧) وآخرون قلائل . كان السفير بطلا من أبطال «ستالينغراد» وهو عسكري سوفييتي اصيل كان يقني ويشرب الانخاب بشكل متكرر سريع . لقد جلسنا انا قرب (سونغ سين لينغ) كانت امرأة وقورة جدا وما زالت بعد جميلة . لقد كانت الشخصية الانثوية الاكثر احتراما في تلك الفترة .

كل واحد منا كان له تحت تصرفه زجاجة صغيرة مليئة بالفودكا . كانت

١٦ - انزع وضع : تعبير أسباني بمعنى النفاق والزيف .

١٧ - شو تيه : سياسي وعسكري صيني ولد عام ١٨٨٦ .

gambé تنفجر في فيض ووفرة . ان النخب الصيني يجبرك على ان تشرب الكأس كلها حتى السلافة دون ان تدع فيها قطرة واحدة . كان المارشال العجوز (شو تيه) ، مقابلي ، يملأ قدحه مرارا وتكرارا وبابتسامته الفلاحية الكبيرة كان يحثني على نخب جديد في كل لحظة . في نهاية الاكل انبهزت لحظة شرود فكر هذا الاستراتيجي القديم كي اذوق جرعة مسن زجاجته الفودكية . لقد تاكدت شكوكي حين عرفت ان المارشال كان يتناول ماء نقيا خلال الاكل فيما انا كنت اتجرع كميات كبيرة من المسائل الناري .

حين حانت ساعه تقديم القهوة ، اخرجت جارتني في المائدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سن يات سين) المراه الرائعة التي جئنا كسي نقلدها الوسام ، من علبة الدخان سيجارا . من بعد ، في ابتسامه ضئيلة جدا قدمت لي آخر . «لا ، انا لا ادخن ، شكرا جزيلا» قلت لها . وحين مدحت لها علبة سجايرها ، اجابتنني : «اني احتفظ بهذه العلبة لانها ذكرى تمينه جدا في حياتي» . لقد كانت هذه العلبة شيئا مذهلا باهرا ، كانت مصنوعة من ذهب خالص نقي ، مرصعة بالجواهر والاماس والبواقيت والدر . بعد ان امعن النظر في العلبة واضفت مدائح جديدة اعدتها الى صاحبها .

لقد نسيت هي فيما بعد اني ارجعت العلبة اليها فحين وفنا لنضع المائدة اتجهت نحوي في شيء من التوتر فائلة :

— علبة سجانري Please (١٨) .

انا ما كنت اشك قطعاً في اني اعدت العلبة اليها . لكن . على كل حال ، بحثت عنها فوق المائدة ثم تحت المائدة دون ان اعثر عليها . لقد تلاتت ابتسامه ارملة (سن يات سين) واضمحلّت وما كان في وجهها الا عينان سوداوان تخترقني كما شعاعان لا يرحمان . لم يكن ليُعنر على تلك الحاجة المقدسة في اية جهة من الجهات وبدأت انا اشعر اني مسؤول عن ضياع هذا الشيء الثمين المقدس ، لقد كانت تلك الاشعة السوداء تقنعني في اني

18 - Please : كلمة انجليزية ، معناها ، من فضلك .

انا لص الجواهر المرصعة .

لحسن حظي في الدقيفة الاخيرة من الاحتضار لمحت العلبة التي عادت للظهور في يديها . لقد عثرت عليها في محفظتها ، ببساطة وبشكل طبيعي . فاستعادت هي ابنسامتها ، لكنني لم اعد ابتسم خلال عدة سنين طويلة . اني لافكر الآن مهموما في انه ربما ان الثورة الثقافية قد تركتها بتسكل نهائي من غير علبة سجائرها الذهبية الثمينة .

كان الصينيون في ذلك الفصل من السنة يلبسون اللون الازرق ، بدلة ميكانيكي كانت تغطي كل واحد منهم سواء الرجال والنساء ، وكان هذا اللون يعطيهم مظهرا سماويا متوحدا جماعيا . لم تكن هذه الوردية اسمالا كما لم يكن عندهم سيارات . بل انها لجماهير غفيرة تملأ كل شيء وتطفو في كل ناحية وتبرز في كل زاوية .

لقد كنا هناك في العام الثاني للثورة الصينية . بشكل اكيد كان هناك قلة في المواد ومصاعب في اماكن مختلفة ، لكن هذا كله ما كان يشاهد اتناء التجوال في مدينة بكين . ان ما كان يشغل بالنا بشكل خاص : بال (ايهرينبورغ) وبالي هو هذه الجزئيات الصغيرة ، بعض تشنجات النظام . حين اردنا ان نشترى زوجا من الجرابات او المناديل تحولت المسألة الى مشكلة دولة . كان الزملاء الصينيون يتناقشون فيما بينهم . بعد مداوات عصبية انطلقنا من الفندق في كروان (١٩) على رأس القافلة كانت تهدر سياراتنا ، من بعد سيارة الحرس ، فسيارة الشرطة ثم سيارة المترجمين . انطلق فوج السيارات في عجلة وسرعة ففتح طريقا وسط الجماهرة المزدحمة من الناس البسطاء . كنا نمر مثل هيار جليدي عبر القناة الضيقة التي يدعها الناس حرة . حين وصلنا الى المخزن نزل من السيارات اصدقائنا الصينيون فطردوا من المحل المشترين جميعهم وأوقفوا حركة السير وشكلوا بأجسادهم حاجزا وبسواعدهم سابطا انسانيا عبرناه : (ايهرينبورغ) وأنا، مطاطي الرأسين كي نخرج منه بعد خمسة عشر دقيقة كذلك مطاطي الرأسين وفي أيدينا صفت صغير وتصميم على الا نشترى من بعد زوجا من

١٩ - كروان : هكذا هي الاصل Caravana عن العربية ، من اصل فارسي .

الجرات البتة .

كانت هذه الاشياء تجعل (ايهرينبورغ) غاضبا حانقا . فتصور كيف كان في المطعم الذي سأروي قصته الآن . كانوا يقدمون الينا في مطعم الفندق أسوأ الطعام الانجليزي ، اطعمة خلفتها في الصين الانظمة الاستعمارية . انا نظرا لاني معجب كبير بالطهي الصيني ، قلت لترجمي الشاب باني احترق رغبة للتمع بفن الطهي البكيني التمهير . اجابني بانه سيطلب الاستشارة حول هذا الامر .

اجهل فيما اذا استتار ام لا لكن ما هو اكيد انا ظللنا نمضغ ونعلك لحم البقر المشوي التافه في الفندق . عدت فكلمته عن الموضوع ، فصمت مطرقا مفكرا ثم قال :

ان الزملاء قد اجتمعوا عدة مرات لدراسة هذه الحالة ، والمنسكلة على وشك ان تحل .

في اليوم التالي اقترب منا عضو مهم في لجنة الاستقبال . بعد ان علق في وجهه ابتسامة بتشكل صحيح ، سألنا ان كنا فعلا راغبين في ان ناكل طعاما صينيا فقال له (ايهرينبورغ) في حزم ان اجل وأنا اضفت اني منذ ايام صباي وأنا اسمع عن اكلهم الشهي الغني واني منذ ذلك الحين وأنا متشوق لندوق متعة بكين الشهيرة جدا .

— ان الموضوع لصعب — فال الزميل الصيني وهو في حالة انتغال وقلق .

سكون ، حركة راس ، نم اوجز قائلا :

— انه لشبه مستحيل .

(ايهرينبورغ) ابتسم ابتسامته المهددة المرة ، ابتسامة مستهزىء متشكك بصر على شكوكه . انا ، على العكس ، غضبت — ايها الزميل — قلت له — اعمل المعروف بتجهيز اوراقتي كي اعود الى باريس حالا . ان لم استطع ان اكل الطعام الصيني في الصين فاني سأكله في الحي اللاتيني بباريس .

فهو هناك ليس بمشكلة .

ان احتجاجي العنيف لاقى نجاحا . بعد اربع ساعات وصلنا ونحن
مقادان من لدن حاشيتنا العديدة الى مطعم مشهور يعد منذ خمسمائة سنة
طبق البط المصنوع بصمغ اللك ، طبقا صغيرا لكنه جدير بالذكر والذكرى .

كان المطعم الذي يفتح ليلا نهارا لا يبعد اكثر من ثلاثمائة متر عن مطعم
فندقنا .

«اشعار القبطان»

من اتجاه الى اتجاه في هذه التجوالات ، تجوالات منفي ، وصلت الى
بلد ما كنت امرفه فتعلمت ان احبه حبا شديدا : ايطاليا . لقد بدا لي في
هذا البلد كل شيء رائعا وبخاصة البساطة الايطالية : الزيت ، الخبز ،
الخمير الطبيعي . حتى تلك الشرطة تلك الشرطة التي ما ازعجتني
ابدا ولا عاملتني معاملة سيئة قط ، لكنها طاردتني مطاردة لا تتعب ولا تمل ،
شرطة وجدتها في الجهات جميعها ، حتى في الاحلام وفي الحساء .

لقد دعاني كتاب ايطاليا لقراءة اشعاري فقرأتها في نية حسنة في كل
مكان ، في الجامعات ، في المسارح ، في موانئ «جنوا» ، في فلورنسا ،
في قصر «لا لانا» ، في «تورين» ، في البندقية .

كنت اقرا في متعة لا نهائية امام قاعات مكتظة بالناس . احدهم كان
يجلس قربي على المنصة ليعيد من بعد ، انشاد اشعاري مقطعا مقطعا ، في
لغة ايطالية سامية ، فكان يعجبني سماع ابياتي في هذا البريق الذي تضيفه
عليها اللغة الايطالية الرائعة . لكن ما كان هذا ليعجب الشرطة الايطالية
كما كان يعجبني . في القشتالية ، جواز مرور ، بينما في الايطالية كان نعمة
نقاط ومسائل شرف . ان مدائح السلام وهي كلمة محرمة عند «الفريبيين» ،
والافدح من هذا ان اتجاه شعري نحو تمجيد النضال الشعبي ، كان يؤدي الى
نتائج خطيرة .

كانت مجالس البلديات قد ربحتها في الانتخابات الاحزاب الشعبوية

ولهذا فانهم استقبلوني في هذه المجالس الفخمة الفاخرة ضيف شرف عليها . كثيرا من المرات كانوا يُعيّنونني عين المدينة : فانا مواطن شرفي في ميلان ، في فلورنسيا ، في جنوا . قبل انشادي او بعده كان المستشارون يضعون لي اوسمتهم . كان يجتمع في الفاعه مواطنون اعيان وارسنوقراطيون وأساقفة . كانوا يشربون نخبي كؤوس شمبانيا ، وكنت أشكرهم على هذا باسم وطني البعيد النائي . كنت أهبط درجات القصور الفخمة لمجالس البلديات بين العناق والتقبيل . في التسارع كانت الشرطة تنتظرني فلا تنركني لحظة لا في الشمس ولا في الظل (٢٠) .

اما ما حدث في البندقية فقد كان سينمائيا . القيت فصائدي في الفاعة كما هي عادتني في ايطاليا . عينت مرة اخرى مواطن شرف . لكن الشرطة كانت تريد ان اذهب من المدينة حيث ولد وتعدب (ديسديمونا) . لقد ربض رجال الشرطة ليلا نهارا على ابواب الفندق .

جاء صديقي القديم (فيتوريو فيدالي) «الرائد كارلوس» من «تريستا» ليسمع أشعاري . وصاحبني كذلك في المتعة الخالدة بالتجوال عبر القنوات فكنا نرى ونحن في الجندول القصور الرمادية الساحرة . اما بالنسبة للشرطة فانها حاصرني اكثر مما كانت تحاصرني من قبل . فلقد كان رجال الشرطة يمشون مباشرة خلفنا ، على بعد مترين . حينذاك قررت ان اهرب كما فعل (كازانونا) من هذه المدينة التي كانت تريد ان تضيق عليّ الخناق . خرجنا منطلقين جريسا ، انا و(فيتوريو فيدالي) والكاتب الكوستاريكسي (خواكين غوتيريث) الذي كان هناك صدفة . وعلى اثرنا انطلق الشرطيان . في سرعة توصلنا الى ان نركب فسي الجندول الآلي الوحيد بالبندقية ، جندول رئيس البلدية (٢١) الشيوعي . لقد خدّد جندول السلطات البلدية مياه القناة ومخر مسرعا فيما السلطات الاخرى كانت تجري كما الايائل السمر بحثا عن زورق آخر الى ان عثرت

٢٠ - لا في الشمس ولا في الظل : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، لا في الحر ولا في القر .

٢١ - رئيس البلدية : في الاصل **Alcalde** وهي الكلمة العربية القاضي ، وكان القاضي في الاندلس يقوم بمهام رئيس البلدية كذلك .

عليه . كان الزورق الذي ركباه واحدا من هذه القوارب الرومانطيقية الكثيرة ذات المجذاف المدهونة باللون الاسود وذات الزخارف الذهبية التي يستعملها العشاق في البندقية . كان زورقهم يطاردنا من على بعد وبدون أمل كما بطة تلاحق دخسا بحريا .

في نابولي هذه المطاردات استعجل بها وكانت على نحو آخر . وصل رجال الشرطة الى الفندق حيث كنت ابيت في وقت ليس هو بالمبكر اذ انه في نابولي لا احد يعمل مبكرا ولا حتى رجال الشرطة . احتجوا بخطأ في جواز السفر ورجوني ان ارافقهم الى مديرية الشرطة . هناك قدموا لي فهوة «ايكسبريس» وأخبروني بأنني يجب ان اغادر الاراضي الايطالية في اليوم نفسه .

لم يفدني بشيء حبي لايطاليا .

— ان الامر لا بد ان يكون خطأ — قلت لهم .

— لا شيء من هذا القبيل ، انا لتأسف كثيرا ، لكن عليك ان تغادر البلد حالا .

ثم بشكل غير مباشر وبطريقة زائغة اخبروني ان سفارة تشيلي هي التي طلبت طردني من ايطاليا .

كان القطار سيخرج في المساء . كان اصدقائي قد خفوا قبلي السى محطة القطار لتوديعي . قبل . زهور . هتافات . (باولو ريكيشي) ، آل (اليكاتا) . آخرون كثيرون . Arivederci : مع السلامة ، مع السلامة .

لقد اسرف رجال الشرطة الذين كانوا يرافقوني في رحلتي القطارية المتجهة الى روما في اللطف والكياسة . لقد رفعوا لي حقائبي ووضعوها كما يجب واشتروا لي صحيفة L'Unité وصحيفة El Paese Sera ولا بأي شكل صحيفة من الصحف اليمينية . كانوا يطلبون مني ان اعطيهم صوراً لهم ولاقربائهم . ابدأ ما شاهدت في حياتي شرطة اكثر رقة ولطافة من الشرطة الايطالية :

— انا لتأسف لهذا الامر كثيرا يا صاحب السعادة فنحن ارباب عائلات فقيرة وعلينا ان نطيع الاوامر ، انه لشيء مقرف

في محطة روما ، حيث كان عليّ ان اغيّر العطار لأواصل سفري نحو الحدود ، لمحت من نافذة القطار جمهره غفيره من الناس . سمعت هتافات . لاحظت حركات غامضة وعنيفة . حزم كبيرة من الزهور كانت تسير نحو القطار مرفوعة فوق نهر من الرؤوس .

— نابلو ! نابلو !

حين نزلت من القطار وأنا محروس في انافة ، صرت حالا وسط وطيس معركة هائلة . فلقد اختطفني من ايدي رجال الشرطة كتاب وكاتبات ، صحفيون ، نواب ، حوالي الف من الاشخاص الهاجمين . رجال الشرطة من جهنهم تقدموا في عملية معاكسة واسترجعوني من اذرع اصدقائي . لقد ميزت في تلك اللحظات المساوية بعض الوجوه الشهيرة : (البرتسو مورافيا) وزوجته : (ايلسا مورانتي) روائية مثله ، الرسام المشهور (ريناتو غوثوسسو) . شعراء آخريين ، رسامين آخريين .. كان المؤلف المعروف (كارلو ليفسي) مؤلف « المسيح توقف فسي ابولي» يناولني بافة من الزهور ، لكن الزهور كانت تنساقط متبعثرة على الارض ، كانت تطير قبعات ومظلات ، كانت ترن صفعات ولكمات ولكزات كأنها الانفجارات . كان رجال الشرطة ينالون من هذا كله النصيب الاكبر والقسم الاسوا وشن اصدقائي حملة معاكسة واستردوني . اثناء المناوشة والاشتباك استطعت ان ارى وجه الحلوة (ايلسا مورانتي) وهي تضرب بقبعنها الحريريّة على رأس احد رجال الشرطة . ثم اخذت ثمر العريبات التي تأخذ وتجلب الحقائق في محطة القطار واذا بواحد من هؤلاء الحمّالين ذوي المرسات الغلبة Facchino يهوي بهراوته ضربا على ظهور القوة البوليسية . لقد كان هذا تعبيرا عن نضامن الشعب الرومي (٢٢) معي . لقد احتدم النزاع وصارت المعركة عويصة سائكة الى درجة ان رجال الشرطة قالوا لي على حدة :

٢٢ - الرومي : نسه الى روما .

– تكلم مع اصدقائك . قل لهم بأن يهدأوا

كانت جمهرة الناس تهتف :

– نيرودا يبقى في روما . نيرودا لن يغادر ايطاليا . فليبق الشاعر ،
فليبق التشيلي ، فليرحل النمساوي . («النمساوي» هو (دي غاسبري)
رئيس وزراء ايطاليا) .

بعد نصف ساعة من الحرب السجال والهجومات المضادة وصل امر
سام من السلطات العليا بالسماح لي في البقاء بايطاليا، فعانقني اصدقائي
وقبلوني فابتعدت عن تلك المحطة وأنا أدوس في اسي تلك الزهور المتناثرة
ضحيا المعركة .

لقد اصبحت اصبوحة اليوم التالي في دار احد النواب ، المتمتع
بالحصانة البرلمانية ، حيث اخذني اليه الرسام (ويناتو غوتوسو) الذي لم
يثق بالكلمة الحكومية . هناك وصلتني برقية من جزيرة «كابري» بعثها
المؤرخ الشهر العظيم (ايروين ثيريو) (الذي لم اكن اعرفه
شخصيا . كان يعبر في هذه البرقية عن انه شعر بالاهانة ازاء هذا العمل
الشائن والاستخفاف بالتقاليد الايطالية وثقافة ايطاليا وانتهى قائلا بأنه يقدم
لي «فيلا» بكابري نفسها كي أقضي فيها ما شئت من الوقت لعله بذلك يزيل
شيئا مما لحقني من حيف في بلده .

لقد كان كل شيء يبدو وكأنه حلم من الاحلام . وحين وصلت الى
كابري في صحبة (ماتيلده اورونيا) صار الاحساس اللاواقعي بالاحلام
اكبر واعظم .

وصلنا ليلا وفي فصل الشتاء الى هذه الجزيرة البديعة . في الظل
كان الشاطئ يمتد ابيض عاليا ، غريبا صامتا ، ماذا سيجري ؟ ماذا
سيجري لنا ؟ كانت تنتظرنا هناك عربة خيل . صعّدت العربة وصعدت
عبر الشوارع الليلية الخلاء ، بيوت بيضاء خرساء ، ازقة ضيقة شاقولية .
اخيرا توقف الحودي ، انزل حقائبنا ووضعها في تلك «الفيلا» ، كذلك
بيضاء وعلى ما يبدو خاوية فارغة

حين ولجنا الدار رأينا النيران وهي تتوهج فى المدفأة الكبيرة . على ضوء الشمعدانات المضاءة رأينا هناك رجلا طويلا ابيض الشعر واللحية والبدلة . كان هذا هو السيد (ايروين نيرو) صاحب نصف جزيرة كابرى، وهو مؤرخ وعالم فى التاريخ الطبيعى . كان وسط اللهب شامخا كأنه طيف (تايتا) إله الحكايا الطفولية .

كان له ما يقرب من تسعين سنة من العمر وكان اكثر الرجال شهرة فى الجزيرة .

— ان هذه الدار دارك وتستطيع ان تكون هنا مطمئنا مرتاحا .

غاب عدة ايام لم يكن يزورنا ذوقا وادبا وكياسة ، بل كان يرسل لنا رسائل صغيرة مختزلة جدا فيها نصائح وزهره او ورقة من حديقة داره . لقد مثل لنا (ايروين نيرو) قلب ايطاليا الفسيح العميق الكريم النبيل .

من بعد تعرفت على مؤلفاته ، على كتبه التي هي اكثر صحة من كتب (اليكس مونشي) (٢٣) ولسو انها اقل شهرة . كان العجوز النبيل (نيرو) يعيد فى مزاح ودعابة :

— ان عمل الإله النموذجي هو ساحة جزيرة «كابري» .

لقد كنا : انا و(ماتيلده) ، ننطوي على حينا . كنا نقوم بجولات عبر «اناكابري» للجزيرة الصغيرة المجزأة الى الف بستان وبستان ، بريق طبيعى كتب عنه الكثير وفعلا هو بريق طاغ غريب . بين الصخور ، حيث تسوط الشمس والريح ، عبر الارض الجافة ، تنفجر نباتات وتنبثق زهور صغيرة، تنمو متناسقة فى اطار تاليف موسيقي حدائقي . ان لجزيرة «كابري» العميقة هذه التي يطوف بها المرء بعد حج طويل وبعد ان تسقط عن ملابسه اشارة سائح ، جزيرة «كابري» الشهيرة بصخورها ودواليها الصغيرة وبأناسها المتواضعين الاصيلين العاملين ، لسحرا اخادا . ها هو المرء ينصهر

٢٣ - اليكس مونشي : كاتب وطبيب سويدي (١٨٥٧ - ١٩٤٩) .

في ذات واحدة والاشياء والناس . ها هو المرء بعرفه الحوذيون والصيادون .
ها هو المرء يشكل جزءا من «كابري» الخفية الفقيرة . ها هو المرء يعرف ابن
النبيد الجيد الرخيص وأين يشتري الزيتون التي يأكل مثلها اهالسي
« كابري » .

انه لمحتمل أن خلف أسوار القصور المليئة بالندماء تدور الشرور
والكأس والطاس والخلاعة والقمار ، الاشياء الروائية التي تقرأ في الكتب،
لكنني شاركت في حياة سعيدة في عزلة كاملة او بين اكثر الناس بساطة
في العالم . انه لزم لا ينسى . كنت أنظم في كل صباح وفي المساء كانت
(ماتيلده) تنسخ على الآلة الكاتبة ما كتبه من قصائد . لأول مرة كنا نحيا معا
في دار واحدة . لقد نما حيننا وزاد في ذلك المكان ذي الجمال المهدهش
المسكر . لم نعد نستطيع ان نفترق ابدا .

هناك انهيت كتاب حب . كتاب مغمم بالعاطفة والالم ، طبع فيما بعد
بنابولي في شكل مغفل التوقيع : «أشعار القبطان» .

والآن سأروي لكم حكاية هذا الكتاب . هو من بين كتبي أكثرها بعثا
للمجادلة والمناقشة فيه وحوله . لقد بقي زمنا طويلا سرا لا تسبر له أبوة
ولا نسب ، ظل زمنا طويلا وهو لا يحمل اسمي على غلافه كما لو اني كنت
اتبرا منه او ان الكتاب نفسه ما كان ليعرف من هو أبوه الذي خلفه . كما
ان هناك ابناء غير شرعيين طبيعيين ، ابناء الحب الطبيعي ، كذلك كان كتابي
هذا ابنا طبيعيا لا شرعيا .

ان القصائد التي يتضمنها هذا الكتاب نظمت هنا او هناك ، على مدى
منفاي في اوروبا . ثم نشرت بشكل مغفل في نابولي عام ١٩٥٢ . ان حبي
ل (ماتيلده) ، حنيني الى تشيلي ، عواظي ومشاعري تملأ صفحات هذا
الكتاب الذي حافظ على نفسه دون اسم صاحبه في طبعات كثيرة .

لطبعته الاولى ، حصل الرسام (باولو ريكتي) على ورق جدير بالاعجاب
وعلى نماذج حروف قديمة للطباعة وعلى نقوش اخدها عن كؤوس مسن
«بومباي» . لقد أعد (باولو) كذلك في حماسة اخوية قائمة المشتركين ،
ولم يطل الوقت حتى ظهر المجلد الاول الجميل ولم يطبع منه حينذاك اكثر

من خمسين نسخة . فاحتفلنا لهذه المناسبة احتفالا استغرق كثيرا من الوقت ، اعدنا مائدة مزهرة عليها Frutti di mare واحتسنا نبيذا شافانا كالماء ، الابن الوحيد لدوالي «كابري» . يصحبنا فرح الاصدقاء الذين احبوا حبنا .

لقد عزا بعض النقاد المرتابين الى اسباب سياسية ظهور هذا الكتاب بلا توقيع . «الحزب قد عارض ، الحزب لم يقر قصائد هذا الكتاب» قالوا ان حزبي لا يعارض ابدا اي تعبير عن الجمال .

الحقيقة الوحيدة هي انني ما شئت ، خلال زمن طويل ، ان تجرح هذه القصائد شعور (ديليا ديل كاريل) زوجتي التي كنت انفصل عنها . لقد كانت (ديليا) ، وهي عابرة ناعمة جدا في حياتي ، خيطا من فولاذ وحرير يربط يدي خلال الاعوام الرنانة الصاخبة ، وخلال ثمانية عشر سنة كانت لمي الرفيقة المثالية . كان هذا الكتاب ذو الهوى الجارف المناجج سيهوي كما الحجر المقلدوف على بنائها الطري الهش . لقد كانت هذه وليست أخرى هي الاسباب العميقة ، الشخصية ، المحترمة لاغفالي ذكر اسمي على الكتاب الغفل .

ثم شب الكتاب ولو انه بلا اسم ولقب وغدا رجلا ، رجلا طبيعيا وقيما . لقد شق له دربا في الحياة فكان عليّ في نهاية الامر أن اعترف به ابنا . ها هو الآن يمضي عبر الطرقات ، اي ، عبر المكاتب والمكتبات ، ها هو ديوان «أشعار القبطان» يحيا موقعا عليه بتوقيع القبطان الحقيقي .

نهاية المنفى

لقد اقترب منفاي من نهايته عام ١٩٥٢ . وصلنا عبر سويسرا الى «كان» Cannes كي نركب باخرة ايطالية نقلنا الى « مونتيبديو » هذه المرة ما كنا نريد ان نرى احدا في فرنسا . ما اخبرت بمرورنا الا (أليس فاسكار) ، مترجمتي وصديقتي لزمن طويل . غير انه كانت تنتظرنا في «كان» حوادث غير متوقعة .

لقد التقيت في الشارع ، قرب شركة السفريات البحرية ، ب (بول الوار) وبزوجته (دومينيك) ، كانا قد علما بوصولي فانتظراني عند باب الشركة كي يدعواني للغداء الذي سيحضره (بيكاسو) . من بعد التقينا بالرسم النتيلي (بيميسيو انتونيث) وزوجته (اينيس فيفيروا) اللذين دعيا كذلك .

كانت هذه هي المرة الاخيرة التي رأيت فيها (بول الوار) . اني لأذكره وهو تحت اشعة شمس «كان» ببدلته الزرقاء التي تبدو وكأنها بيجاما . لن انسى ابدا وجهه الملوح المتورد ، عينيه الزرقاوين ، ابتسامته الفتية دائما تحت الضوء الافريقي في شوارع «كان» المتلألئة . لقد جاء (الوار) من «سينت - ترويث» كسي يودعني ، أحضر (بيكاسو) وأعدّ الغداء . كانت الحفلة مسلحة .

حادث غيبي غير متوقع خرب لي اليوم كله . لم يكن في جواز سفر (ماتيلده) تأشيرة دخول الى الاورغواي . فكان لا بد من اللجوء الى قنصلية هذا البلد . اصطحبتها في سيارة تكسي وانتظرت عند باب القنصلية . ابتسمت (ماتيلده) متفائلة حين خرج القنصل لاستقبالها . كان يبدو انه شاب طيب . كان يدندن بانغام *Madame Butterfly* ويرتدي ما هو ليس بقنصلي : قميصا داخليا وسروالا قصيرا *Short* هي ما كانت لتتصور انه خلال مجرى الحديث سيتحول هذا النموذج *El Tipo Pinkerton* الى مزعج رخيص تافه حقير . لقد اراد بمظهره مظهر *Pinkerton* ان يقبض أجرة ساعات اضافية فوضع امامها انواع العراقيل كلها . فاحتفظ بنا في سباق (٢٤) طيلة الصباح كله . كان طعم *Bouillabaise* خلال الغداء مثل طعم المرارة في فمي . عدة ساعات كلف (ماتيلده) الحصول على التأشيرة . كان *Pinkerton* هذا يضع لها في كل لحظة قيودا وعراقيل : أن تصور ، أن تغير الدولارات فهو لا يقبض الا فرنكات ، ان تدفع تكاليف المكالمات الهاتفية مع مدينة «بورديو» . ارتفعت التعريفة (٢٥) الى أكثر من مائة وعشرين دولارا ثمن تأشيرة عبور كان من المفروض ان تمنح

٢٤ - في سباق : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، الجبل على الغاوب .
٢٥ - التعريفة : هكذا في الاصل *la Tarifa* . عن العربية

مجانا . لقد بلغ بي التفكير الى اني كنت أخشى ان تفقد (ماتيلده) الباخرة
وفي هذه الحالة انا كذلك لن اركب الباخرة . لزمنا طويلا اعتبرت ذلك
اليوم اكثر الايام مرارة في حياتي .

علم وصف المحيطات المختلفة

اني لعاشق البحر . منذ سنين عديدة وانا اجمع معارف لا تفيدني
كثيرا لاني ابحر فوق الارض .

هانذا اعود الى تشيلي ، الى بلدي المحيطي وتقترب سفينتي مسن
سواحل افريقيا . لقد عبرت اعمدة «هرقل» القديمة (٢٦) ، اليوم هي مدرعة
هذه الاعمدة ، في خدمة الامبريالية قبل الاخيرة .

انظر الى البحر نظرة مجردة عن المنفعة ، نظرة عالم المحيطات النقي
الظاهر الذي يعرف السطح والعمق ، بلا لذة ادبية ، بل بتذوق المكتشف ،
بمذاق العالم الدارس .

لقد اعجبني دوما القمص البحرية وعندني شبكة منها في رفوف
داري . اكثر كتاب اعود اليه للمراجعة هو كتاب لـ (وليم بيب) (٢٧) او
بحث يصف الحلازين البحرية في بحر الشمال .

ان ما يهمني هي مجموعة الاحياء البحرية ، هذا الماء الغدائي الهبائي
الكهربائي الذي يصبغ البحار بلون برق بنفسجي . هكذا توصلت الى معرفة
ان الحيتان تتغذى من هذا النماء البحري المتكاثر الذي لا حصر له . ان
نباتات صغيرة جدا ونقايات وهمية تعمر قارتنا الراعشة الراجفة . الحيتان
تفتح اشدقها الهائلة فيما تنزاح متزحزح ، رافعة السننها حتى الحلق

٢٦ - اعمدة هرقل القديمة : هي اعمدة قرب مضيق جبل طارق الذي يحتله الامبرياليون
البريطانيون .

٢٧ - وليم بيب : هو عالم الطبيعة ، الامريكي الشمالي (١٨٧٧ - ١٩٦٢) .

الاعلى كي تملأها هذه المياه الحية ذات الاحشاء وتغذيها . هكذا يفتلدي الحوت الاخضر الزاهر Bahiametas Clauca الذي يمخر باتجاه جنوب المحيط الهادي نحو الجزر الساخنة الدافئة ، قبالة نوافذ داري فسي «ايسلا نيغرا» .

من هناك يعبر كذلك الدوب سمك «البريس» المهاجر ، او الحوت ذو الاسنان ، وهو اكثر الحيتان المطاردة «تسيلية» . لقد زخرف البحارة التشيليون عالم البحر الفولكلوري بهذا النوع من الحيتان . فقد نقشوا بالسكين في أسنانها قلوبا وسهاما ، انصاب حب صغيرة ، صورا طفولية لزوارقهم الشراعية ولخطيباتهم . لكن حوتنا الاخضر الزاهر السليدي يمخر ، باتجاه الجنوب ، يعبر المضيق ورأس « اورنوس » El Cabo de Hornos وبحر الشمال واوبنته ، ليس في بساطة كي يفرك حنك سمك «البريس» المهذب بل لكي يسلب منه كنزه الشحمي واكثر من هذا كي يخطف منه كيسه العنبري (٢٨) الرمادي الذي يخبئه هذا الحيوان الضخم في جبله الجوفي وما من حيوان غيره له مثل هذا الكيس الفضي .

هاندا آتي الآن من جهة اخرى . لقد خلفت وراثي آخر معبد ازرق في البحر الابيض المتوسط ، كهوف جزيرة «كابري» وضواحيها البحرية وتحت البحرية حيث كانت عرائس البحر يخرجن كي يسرحن شعرهن الازرق فوق الصخور ، لان حركة البحر كانت قد صبغت وضمخت ضفائر شعرهن المجنونة .

لقد استطعت ان اشاهد في مماهة «نابولي» الذرات الكهربائية للاجهزة العضوية الربيعية ، صعود وهبوط السلمة المصنوعة من دخان وفضة ، تهتز تماوج في رقصها العذب الجليل ، مكتنفة من الداخل بالحزام الكهربائي الوحيد الذي ما وضعته حتى الآن اية سيدة من سيدات الاعماق البحرية الاها .

٢٨ - منبر : هكذا هي الاصل Ambar ■ عن العربية

منذ سنين كثيرة ، في «ماداس» بالهند المتجهمة لشبابي ، زرت مماهة رائعة . ما زلت حتى الآن اذكر تلك الاسماك الصقيلة البراقة ، الاسماك البنية السامة ، مجموعات الاسماك المرتدية حرائق واقواس قزح ، واكثر من هذا وذلك ، الاخطبوطات الجدية الرزينة جدا ، المعدنية كانها آلات حاسبة ، يعيون لا حصر لها ، باطراف وارجل لا عد لها ، برياح شديدة ، بمعارف كثيرة .

من ذلك الاخطبوط الكبير الذي عرفناه جميعا لاول مرة في كتاب «عمال البحر» لـ (فيكتور هوغو) (٢٩) ان (فيكتور هوغو هو كذلك اخطبوط الشعر الضخم المتعدد النغمات) ، من ذلك النوع ما استطعت ان ارى غير قطعة ذراع في متحف التاريخ الطبيعي بـ «كوبنهاغن» . هذا ، اجل ، كان «كراكين» القديم ، رعب البحار القديمة ، كان يمسك بشرع فيطويه طيا ويمزقه اربا يرفعه فوقه ، يخترقه ويشربكه . قطعة الذراع التي رايتها انا محفوظة بالكحول في المتحف كانت تشير الى ان طول ذلك الاخطبوط كان يتعدى ثلاثين مترا .

لكن الحيوان الذي كنت ابحث عنه في اصرار واستمرار هو اثر كركدن البحر او بالاحرى جسده . نظرا لان اصدقائي كانوا لا يعرفون هذا الكركدن البحري وحيد القرن الهائل في بحار الشمال ، صرت اشعر اني مخزن وحيد للكركدن ، اني انا نفسي كركدن بحري .

هل يوجد الكركدن ؟

هل من الممكن ان حيوانا بحريا مسالما يحمل في جبينه حربة من العاج بطول اربعة او خمسة امتار مخددة مثلومة على مدى طولها ، على نمط حربة النبي سليمان ، منتهية بثقب ، يمر دون ان ينتبه اليه ملايين البشر ، ولا ان يعرفوا حتى اسطورته ولا حتى اسمه الرائع ؟

عن اسمه استطيع القول — Narval او Narwhal (٣٠) انه ابداع

٢٩ — فيكتور هوغو Victor Hugo : الكاتب الفرنسي المعروف (١٨٠٢ - ١٨٨٥) .

٣٠ — كلمتان من اصل سويدي .

اسم من أسماء حيوانات أعماق البحار ، اسم كأس بحرية تتغنى ، اسم صيصة زجاجية .

لماذا اذن لا احد يعرف اسمه ؟

لماذا ليس هناك آل «نارفال» ، دار جميلة باسم «نارفال» وأكثر من هذا ، لماذا ما من احد يدعى «نارفال راميرث» او «نارفال كارفاخال» ؟

ليس ثمة من هذا شيء . ان وحيد القرن البحري يظل في سره ، في تياراته ذات الظلال عابرة البحار ، في سيفه العاجي الطويل الغارق في لجة المحيط المجهول .

لقد كان صيد وحيد القرن في العصر الوسيط رياضة صوفية وجمالية . لقد بقي وحيد القرن الارضي الى الابد باهرا ساحرا ، فسي السجاجيد ، تحيط به السيدات المرميات الرخاميات ذوات الأبهة والشعر المسترسل وتكلمه في جلالتها الطيور المزغردة الصداحة كلها .

اما بالنسبة لوحد القرن البحري فان السلاطين في العصور الوسيطة كانوا يتهادون قطعة من جسمه الرائع البديع ، من هذه القطعة كانوا يكشطون غبارا وفتاتا يحلون بها في سوائل خاصة يشربونها فتمنحهم حلم الانسان الخالد الا وهو الصحة والشباب والقوة .

بينما كنت شاردا ذات مرة في الدانيمارك ، دخلت الى حانوت قديم يبيع تحف التاريخ الطبيعي ، هذه السلع المجهولة في قارتنا الامريكية والتي هي بالنسبة لي تحتوي على سحر الارض كله . هناك اكتشفت وهي مهملة في زوايا الحانوت ، ثلاثة او اربعة قرون من الكركدن البحري ، أكبر هذه القرون كان يقاس تقريبا خمسة أمتار . فتناولتها وبقيت المسهبا واداعبها خلال فترة من الوقت .

كان صاحب الحانوت المعجوز يراني وأنا اشهر هذه الحربة العاجية وأقوم بطعنات وهمية ، ضد طواحين البحر غير المرئية . من بعد كنت اتركها ، كل واحد أضعه في زاويته . ما استطعت ان اشترى الا قرنا صغيرا

لكركدن حديث الولادة من هذه التي تخرج احيانا لتسبر سطح المياه الشمالية الجليدية بمقدمة فرنها البريء .

. وضعته في حقيبتى ، لكن في نزل صغير بسويسرا ، امام بحيرة «ليمان» احتجت أن أرى ذلك الكنز السحري لوحيد القرن البحري وان المسه فأخرجته من حقيبتى .

الآن لا أجده .

هل تركته في نزل «فيسيناك» او انه تدحرج في آخر لحظة تحت السرير ؟ ام انه عاد في شكل سحري لبلى الى الدائرة القطبية ؟

هاندا انظر الى الامواج الصغيرة ليوم جديد في المحيط الاطلسي .

تدع الباخرة على كل ضلع من قيدومها مزقا بيضاء ، زرقاء ، كبريتية من مياه ، من ازباد ، من مهاو مهتزة .

انها ابواب المحيط ترتجف ، تضطرب .

من فوق القيدوم تطير الاسماك الصغيرة الصاروخية الفضية الشفافة.

هاندا اعود من منفاي .

انظر الى المياه مستغرقا متاملا . ابحر فوقها نحو مياه اخرى : امواج وطنى المعوصفة .

سماء يوم طويل تغطي المحيط كله .

سيحل الليل عما قريب ومع ظله ساخبيء مرة اخرى قصر اللغز الاخضر الكبير .

الفصل العاشر

إبحار مع إياب

خروف في داري

لقد جاء قريب لي كان نائبا في البرلمان ليقضي بضعة ايام في داري بـ «ايسلا نيجرا» بعد ان فاز في انتخابات برلمانية جديدة . هكذا تبسدا حكاية الخروف .

فما ان درى بذلك اكثر منتخبيه حماسة حتى خفوا للاحتفال به وتكريمه . في امسية اول يوم من ايام هذه الاحتفالات اتوا بخروف وشووه على طريقة ارياف تشيلي ، بصلاء في الهواء الطلق وسفود يسلك في جوف هذا الحيوان من اوله الى آخره ، ولهذا فان هذه الطريقة من الشى تدعى «الشى على السفود» ، ويشربون عادة فيما هم يسلمون منه فيأكلون كثيرا من النبيد ويعزفون على القيثارة النواحة الصداحة .

وكان لديهم خروف آخر ينتظر مصير أخيه ، ابقوه الى امسية اليوم التالي ، فقيده قرب نافذتي . طيلة الليل كان يئن ويبكي ، يثغو ويشكو من وحدته . كان يمزق قلبي سماع صيحاته واثاته فقررت ان انهض وأن اخطفه واسرقه .

وضعته في سيارة واخذته معي الى داربي في «سانتياغو» التي تبعد عن «ايسلانيفرا» مائة وخمسين كيلومترا ، فهناك لن تطاله السكاكين . ما ان اطلقت سراحه حتى راح يقضم في نهم شديد افضل اعشاب حديقسة داربي . استهوته زهور الخزامى فحصدتها ولم يبق منها شيئا حيا . لم يجرؤ على تذوق الورود لاسباب شوكية لكنه انقض على زهور الخيري (١) والزنايق فالتهمها في لذة غريبة . لم يكن بد من ان اربطه مرة اخرى واقيدته ، فجعل يثغو محاولا ان يؤثر بي ويشير شجوني كيما ارق له كما فعلت من قبل فبقيت حائرا لا ادري ما افعل .

الآن سوف ترتبط قصة (خوانيتو) بحكاية الخروف . حصل انه في ذلك الوقت قام الفلاحون في جنوب تشيلسي باضراب عنيف استطاع الاقطاعيون الذين ما كانوا يدفعون اكثر من عشرين «سنتيما» في اليوم لكل فلاح يعمل عندهم ، ان ينهوه بواسطة القمع والضرب والحبس والاضطهاد .

شعر شاب فلاح شارك في الاضراب بخوف شديد جعله يقفز الى قطار كان يسير مسرعا . هذا الفتى الشاب يدعى (خوانيتو) ، وكان كاثوليكيسا مؤمنا وما كان يعرف عن امور العالم شيئا . حين مر بجابي القطار ليفتش تذاكر السفر ووصل اليه اجابه الفتى بانه ليس لديه اية تذكرة وانه متجه الى العاصمة وانه كان يظن ان القطارات هي كي يركب فيها من شاء السفر من الناس ، مجانا . حاول الجابي انزال الفتى من القطار لكن المسافرين بالدرجة الثالثة - اناس من الشعب ، كرماء دائما - قاموا فيما بينهم بحملة جمع للنقود ودفعوا ثمن تذكرة الفتى .

١ - الخيري : هكذا في الاصل Aleli وتكتب كذلك Alheli ، وهذه الكلمة يستعملها (فيدريكو غارنيا لوركا) كثيرا ، وقد اعدنا كتابا من الموضوع العربي والكلمات العربية هند (لوركا) .

مئسى (خوانيتو) عبر شوارع العاصمة وساحانها وتحت ابطه حزمة من الملابس اتى بها من قريته . بما انه لم يكن يعرف احدا من سكان العاصمة، فهو لم يشا ان يكلم من الناس احدا . فقد كان يسمع وهو في قريته ان سكان العاصمة هم لصوص في اكثريتهم فكان يخشى ان ينزعوا عنه قميصه وان يخطفوا منه نعليه المصنوعين من القنب واللذين كان يحملهما تحت ابطه وقد لفهما بجريدة عثر عليها في ناصية احد الشوارع . كان الفتى يشرذ خلال النهار في الشوارع الاليفة المكتظة بالناس الذين هم على عجل، يسيرون دوما يتعرقلون به او يدفعونه فلا يدري اين يسير ، ويستغربون لهسدا Caspar Hauser (٣) الذي هوى من كوكب آخر . اما في الليل فانه كان يبحث ايضا عن اكثر الاحياء احياء ، شوارع الحانات والكهوف الليلية ، فكان حضوره هناك يبعث على الاستغراب والاستهجان . فمن هو هذا الراعي الشاحب الوجه التائه بين السكارى والاثمين . لم يكن له سنتيم واحسد يشترى به ما يسد رمقه ، صبر وكابد الى ان هوى ذات يوم فاقد الوعي من جوع ومن حسرة .

احاط بالفتى الملقى على رصيف الشارع حشد كبير من محبي الاستطلاع ثم حملوه وادخلوه الى مطعم صغير قريب من هناك وتركوه كما كان مطروحا ملقيا . «انه القلب» فال بعضهم ، «بل هو اغماء كبلبي» قال آخر ، اقترب صاحب المطعم منه ونظر اليه فقال : «انه الجوع» . ما ان اكل بضعة لقمات حتى استعادت تلك الجثة انفاسها واستردت الحياة . استخدمه صاحب المطعم عنده في غسل الصحون والواني وكان يودّه ويحبه . وكان لهذا الود اسباب اذ ان الفتى كان يبتسم دائما وهو يغسل جبالا من الاطباق والملاعق . كان يشعر ان الامور تجري على ما يرام فهو الآن ياكل اكثر مما كان وهو في قريته .

لقد شاءت الصدفة ان يجتمع في داري الراعي والخروف معا .

طاب للراعي ذات يوم ان يتعرف على المدينة فقاده خطاه الى ما هو

٢ - غاسبر هاوسير : هو امير «بادن» Baden الذي سجن منذ ان ولد حتى عام

١٨٢٨ (١٨١٢ - ١٨٣٣) .

ابعد من جبال الصحون والاوناي تلك فاجتاز في لهفة شارعا ثم عبر في شوق ساحة فشارعا فساحة وكان كل ما يراه يفننه ويغلب لبه ، وحين اراد العودة الى مطعمه لم يعد يعرف من اين يتجه ، لم يكن قد سجل عنوانه لانه لا يعرف الكتابة فبحث عبثا عن ذالك الباب الذي حضنه واكرمه وأطعمه فما استطاع ان يجد اليه سبيلا .

قال له احد المارة وقد رق لحاله وحزن لحيرته ان عليه ان يتوجه الى الشاعر (بابلو نيرودا) . لست ادري لماذا اوحى اليه بهذه الفكرة . قد يكون لان الناس في تسليبي عندهم ميل غريب بان يكلفوني بكل ما يخطر على بالهم من افكار وكذلك ان يحملوني مسؤولية كل ما يقع من مصائب . انها لعادة قومية عجيبة .

وصل ذات يوم الفتى والحيوان الاسير في داري . لم يكن صعبا عليّ ان اقوم بخطوة اخرى فانكفل بهذا الراعي بعد ان تحملت مسقة التكفل بالخروف غير الضروري . كلفت الفتى بعمل الا وهو الامتناء بالحيوان المجتر كى لا يقضم ازهارى كلها، بل ان يرعى من حين الى حين لينسبع نهمه كلاً الحديقة وبدع لي فيها شيئا من الزهور والورود .

لقد تفاهم الراعي والخروف تفاهماً كاملاً، فوضع الفتى لخروفه منذ اليوم الاول للامان والضمان جببلا في عنقه كان يقوده به من مكان الى آخر . كان الخروف يأكل بلا هوادة والراعي لا يقصر هو الآخر في هذا الشأن ، وكلاهما يسرح عبر الدار كلها حتى في غرف النوم . لقد كان بينهما تكامل تام توصلنا اليه بواسطة رحم الام الارض وجبل سرتها الذي يؤاخيها وهو ما يخول الانسان ان يكون له سلطة اصيلة حقيقية على الحيوان . هكذا انقضت شهور كثيرة . كلاهما ائرى كنوزه اللحمية ، بخاصة ، المجتر الذي لم يكن ليفدر ان يرعى كثيرا ، متنقلا من مكان الى آخر ، بسبب ما كان له من الإلية وما اصبح له من السمنة . كان يلج احيانا في رصانة الى غرفتي، ينظر اليّ في غير اكتراث ثم يخرج بعد ان يترك لي على الارض مسبحة صغيرة من خرز داكن اللون غامق .

انهى كل شيء حين شعر الفتى الفلاح بحنين الى قريته فقال لي انه سيعود الى اراضيه النائية . كان قراره هذا قد اتخذه في آخر لحظة لان

عليه ان يفي بندر الى مريم العذراء بقربنه . ما كان يستطيع ان ياخذ اخاه الخروف معه فتودعا في حنان . ركب الفتى الراعي القطار ، ولكن هذه المرة بتذكرة كان يحملها في يده متباهيا . لقد كان ذاك انرحيل متسيرا للتسجون وللدموع .

لم يدع في حديفتي خروفا بل متكلة خطيرة او بالاحرى سمينة . ما العمل مع هذا المجنر؟ من سيعتني به الآن؟ . لقد كانت لي متاعل سياسية كثيرة . كانت داري مخللة انر الملاحقات التي جلبها لي شعري المكافح . اخذ الخروف من جديد يشغو ويرسل اناته الشاكية الاليمة .

اغمضت عينيّ ولف لاختي ان تاخذه . آه واواه هذه المره كنت متاكدا من انه لن ينجو من السفود .

من آب عام ١٩٥٢ الى نيسان عام ١٩٥٧

ان الاعوام التي انفضت بين آب عام ١٩٥٢ ونيسان عام ١٩٥٧ لن ترسم بشكل مفصل في مذكراتي لاني قضيت معظم هذا الوقت في تشيلي، ولم تقع لي اشياء غريبة ولم اقم بمغامرات يمكن لها ، ان رويتها ، ان تسلي قرائي . غير اني اجد انه من الضروري سرد بعض الاحداث الهامة التي جرت في هذه الفترة المذكورة . لقد نشرت كتابي «الاعناب والريح» . اشتغلت في همة واصرار على تهيئة «اناشيد بدائية» و«اناشيد بدائية جديدة» و«كتاب الاناشيد الثالث» . نظمت مؤتمرا قاريا للثقافة انعقد في «سانتياغو» وحضره اديباء وكتاب مشهورون جاءوا من امريكا كلها . احتفلت كذلك في «سانتياغو» بعيد ميلادي الخمسين بحضور كتاب مهمين قدموا من العالم جميعه : من الصين جاء (اي شينغ) و (ايمسي سياو) ، من الاتحاد السوفييتي طار قادما اليه (ايليا ايهرينبورغ) ، ومن تشيكوسلوفاكيا (دريدا) و (كوتفاليك) ، من بين الامريكيين اللاتينيين جاء (ميغل انخيل استورباس) و (اوليبيرو خيروندو) و(نوراه لانجه) و(البو روميرو) و(ماريا روسا اوليبر) و(راوول لارا) . وآخرون كثيرون . اهديت الى مكتبة تشيلي مكتبي الخاصة ومنافع اخرى . قمت برحلة الى الاتحاد السوفييتي لاشارك بصفتي عضوا في

اللجنة المحلفة التي تمنح جائزة لينين للسلام ، التي انا نفسي كنت قد حصلت عليها في هذه الفترة حين كانت لما تزل تسمى جائزة ستالين . انفصلت نهائيا عن زوجتي (ديليا ديل كاريل) . بنيت دارا سميتها «لا تشاسكونا» انتقلت اليها كي اعيش و(ماتيلده اوروتيا) فيها . اسست مجلة «صحيفة تشيلي» وأخرجت منها بضعة أعداد . ساهمت في الحملات الانتخابية وفي نشاطات اخرى قام بها الحزب الشيوعي بتشيلي . نشرت دار النشر «لوسادا» ، في بونوس ايريس ، اعمالها الكاملة في ورق كورق الكتاب المقدس .

سجين في «بونوس ايريس»

بعد انتهاء هذه الفترة من الزمن دعيت لحضور مؤتمر السلام الذي كان سيعقد في «كولومبو» بجزيرة سيلان ، التي عشت فيها منذ زمن بعيد . كان ذلك في نيسان ١٩٥٧ .

ليس الالتقاء بالشرطة السرية امرا خطيرا ، لكن اذا كانت هذه الشرطة هي البوليس الارجنطيني السري فان اللقاء يأخذ طابعا آخر ، طابعا لا يخلو من الدمابة ولكنه ذو نتائج مباغتة غير متوقعة . بعد ان وصلت من تشيلي الى الارجنطين وفي نيتي مواصلة السفر الى الاقطار النائية القصية ، ذهبت الى السرير وأنا مرهق جدا وما ان اخذ النوم يسري في اعصابي التعب حتى اقتحم رجال الشرطة الدار حيث كنت انام واخذوا يفتشونها تفتيشا دقيقا بطيئا ، نزعوا الكتب والمجلات ، خلعوا خزائن الملابس ، حشروا انفسهم في الملابس الداخلية . كانوا قد اخذوا الصديق الارجنطيني الذي اضافني في بيته ، عندما اكتشفوني في الغرفة التي كنت انام فيها وهي غرفة خافية في عمق الدار .

– من هذا السيد ؟ سالوا .

– اسمي (بابلو نيرودا) – اجبت .

– أهو مريض ؟ – استقصوا زوجتي .

– أجل ، انه لمريض وتعب جدا من السفر ، لقد وصلنا صبيحة هذا اليوم وسناخذ غدا طائرة تقلنا الى اوروبا .

– حسنا جدا ، حسنا جدا – قالوا ثم خرجوا من الغرفة .

بعد ساعة من الزمن عادوا من جديد ومعهم سيارة اسعاف . احتجت (ماتيلده) لكن هذا لم يغير شيئا من الامور . فقد كانت لديهم تعليمات مشددة بان يأخذوا جسدي ، تعباً او طازجا ، سليماً او مريضاً ، حياً او ميتاً .

كانت السماء تمطر تلك الليلة ، قطرات سميكة عتيقة كانت تتلقت من سماء «بونوس ايريس» المثقلة بالغيوم الكثيفة . كنت اشعر اني في بلبله وتشويش وفي هذيان وتخدير . كان الجنرال بيرون قد سفت من الحكم والجنرال (ارامبورو) (٢) باسم الديموقراطية اطاح بالاستبداد والظفيان . غير اني غدوت سجيناً دون ان ادري كيف ولم ومتى والى اين ، دون ان اعرف اذا كان السبب لهذا او لذلك او لذلك ، الغير سبب ام للاسباب جميعها ، وأنا مريض هالك او شبه هالك . لقد اصبح سريسر سيارة الاسعاف الذي انزلوني به وأنا محاط بأربعة من رجال الشرطة متكللة عويصة اثناء نزول الدرج ، صعود الدرج ، العبور بين الممرات ، الصعود بالمصاعد ، الهبوط بالمهابط . كان رجال النقالة يتزحلقون ويعانون كثيراً ولكي تزيد (ماتيلده) من معاناتهم فانها قالت لهم بأنني ازن مائة كيلوغرام . وفي الحقيقة كنت ازن هذا الوزن بالمعطف والبطنيات التي كانت تفتيني من أخمص قدمي حتى رأسي . لقد كنت التمع مثل جرم ، مثل بركسان «اوسورنو» . فوق تلك المحفة التي خصتني بها الديموقراطية الارجنتينية . كنت أفكر ، وهذا كان يخفف عني اوجاع التهاب الوريد ، ان من كان يحمل النقالة ليس هم أولئك الفقراء المساكين الذين كانوا يجهدون ويتصببسون عرفاً تحت ثقلي ووزني ، بل هو الجنرال (ارامبورو) بداته .

فاستقبلت من لدن الروتين الحبسي والتصنيف السجني والتفتيش

٣ - ارامبورو Pedro Eugenio : عسكري وسياسي ارجنتيني (١٩٠٥ - ١٩٧٠) .

المعتلي فاستولوا على حاجاتي الشخصية جميعها ، ولم يدعوني احتفظ بالرواية البوليسية التيفة التي كنت احملها معي لافراها فلا أمل داخل هذا السجن الرهيب . لكن الحفيظة هي انه ما كان لديّ وقب للملل . كانت تفتح الطاقات الحديدية تم تفلق . كانت الحمالة. نعبر الدهاليز والبوابات الحديدية ، تحفها اكثر فاكثر عمقا وشدة انغام الاعمال وازيز الاغشلاق العولاذية . فجاء وجدتني وسط حشد كبير من السجناء الذين انسي بهم الى السجن هذه الليلة نفسها ، كان عددهم يربو على الالفين . لم استطع الاتصال بأحد منهم وما كان يقدر منهم احد على الاقتراب مني . لكن ما نصفتني اليد التي كانت تتسلل من تحت البطانيات كي تصافحني، ولا الجندي الذي يترك بندقيه جانبا كي اوقع له على ورقة يخفيها في جيب سرواله .

من بعد وضعوني فوق ، في زنزانة بعيدة جدا لها ضافة عالية جدا . كنت أرغب ان استريح ان انام ، ان انام ان انام . لم استطع ذلك لان الفجر قد بزغ والسجناء الارجنطينيون شرعوا بالقيام بضجيج يصم الآذان وبجلبة مدوية سخابه كما لو انهم كانوا يشاهدون مباراة بين «ريفير» River و«بوكا» Boca .

بعد بضع ساعات تحرك تضامن الكتاب والاصدقاء في الارجنطين وتنسلي وفي بلدان اخرى عديدة ، مما اضطرهم الى اخلاء سبيلي من الزنزانة فأخذوني الى المستوصف واعدوا لي هناك حوائجي الشخصية التي كانوا سلبوها مني واعتقوني . كنت على وشك مغادرة السجن حين اقترب مني احد حراسي ورضع في يدي ورقة ، كان عليها قصيدة مكتوبة يهداها اليّ ، أبيات بدائية مليئة بالاخطاء ومفعمة بالبراءة الشعبية . اعتقد ان شعراء قلائل في العالم اهدي اليهم ما اهدي اليّ وتلقوا تكريما شعريا من قبل الشخص الذي كانت مهمته هي الحراسة القاسية الشديدة كما تلقيت من حارسي الشاعر .

شعر وشرطة

ذات يوم قالت لنا الخادمة : «ايتها السيدة ، با سيد (بابلو) ، انسا

حامل» . ثم وضعت طعلا . أبدا ما استطعنا ان نعرف منها من هو والد
عدا الطفل . بالنسبة للخادمة ما كان يهمها والده في شيء وكل ما كان
يهمها هو ان نقبل ، انا و(مانيلده) ، أن نكون عرابين لهذا الوليد . لكن هذا
لم يكن ممكنا . ما استطعنا ذلك . ان اقرب كنيسة الينا هي في «ال تابو»
El Tabo ، وهي ضيعة صغيرة سعيدة نفق فيها عادة لنضع للسيارة
بنزيننا . تنفذ القس كالفنذ قائلا : «أفعراب شيوعي لا ، أبدا ، (نيرودا)
لن يدخل هذا الباب ولو حمل في ذراعيه ابنك الصغير» . عادت الفتاة الى
مكنتها وأشغالها في الدار ، مطاطنة الرأس ، غير قادرة على فهم السبب
الذي ادى بهذا القس الى الرفض .

في وقت آخر رأيت السيد (استيريو) وهو يعاني ويتالم . كان هذا
السيد مصلح ساعات قديم وهو احسن ضابط للساعات في «بالبارائيسو»
كلها ، كان يصلح ساعات البحرية العسكرية في اثقان ودقة . كانت زوجته
لنازع ، رفيعة عمره التي صاحبته خمسين سنة في هذه الحياة كانت
تموت فتالت له ولها ، وقلت : يجب عليّ ان اكتب شيئا عنها ، شيئا
يواسيها قليلا في محنتها الكبيرة ، شيئا يقرأه لزوجته المحتضرة لعلها
تسترد بعض أنفاسها . هكذا فكرت . لست ادري ان كنت على صواب في
ذلك ام لم اكن ، فكتبت القصيدة وعبرت فيها عن اعجابي وعاطفتي نحو
الفنان وفنه ، ووصفت فيها حياته النقية بين «تيك تالك» الساعات العتيقة .
اخدت هذه القصيدة (ساربتا فيال) لنشرها في الصحيفة ، كانت هذه
الصحيفة تسمى «لا اونيون» (٤) la union يدبرها رجل يدعى
(باسكال) . السيد (باسكال) هذا هو كاهن . لم يتأ نثر القصيدة . لن
نشر هذه القصيدة مطلقا فمؤلفها(نيرودا) هو شيوعي مطرود من الكنيسة .
لم يشأ . ماتت السيدة ، رفيقة السيد (استيريو) القديمة والكاهن اصر فلم
تنشر القصيدة .

اني أريد ان احيا في عالم بلا محرومين ولا مطرودين . لن احرم احدا .
لن اقول غدا لهذا الكاهن : «لن تسطيع تعميم احد لأنك ضد الشيوعية» .
اني لأرغب ان اعيش في عالم يكون فيه البشر بشرا ، دون اية القاب ولا

٤ - لا اونيون : معناها ، الاتحاد .

نعوت الا كون المرء انسانا ، من غير ان يلصق في رأسه شيء : لا اعلانا ولا قاعدة ولا كلمة . أريد ان يكون في مكنة من يشاء ، الدخول الى الكنائس كلها ، الى المطابع جميعها . اريد الا ينتظروا احدا عند بوابة دار البلدية كي يعتقلوه او يطردوه بعد اليوم . اريد ان يدخل الجميع الى دار البلدية او يخرجوا منها مبتسمين فرحين . لا أريد لأحد ان يهرب في جندول . لا أريد لأحد ان يطارد بدراجات نارية . أريد للاغلبية القصوى ، للاغلبية الوحيدة ، للناس كلهم ان يستطيعوا الكلام ، القراءة ، الاستماع ، الازدهار . لم أفهم ابدا الصراع الا على انه الصراع في سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط الشدة الا كي تنتهي الشدة الى الابد . لقد اتخذت لي طريقا لأنني اعتقد ان هذه الطريق ستؤدي بنا جميعا الى هذه المحبة الدائمة . انسي اناضل في سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامنتهية . من بين هذه اللقاءات بين الشعر والشرطة ، من بين هذه الحوادث العرضية التي جرت لي وحوادث أخرى لن أروها لننا ، خرجت وأنا أو من ايماننا مطلقا بالمصير الانساني ، وعندي القناعة التامة باننا نقتررب من عهد الحنان الكبير العظيم . اني لاكتب وأنا ادري ان فوق رؤوسنا جميعا يحوم خطر القنبلة الدريسة الساحقة الماحقة التي لن تبقي ولن تدر في الارض شيئا ولا احدا . ولكن هذا لن يبدل من املي ورجائي . اننا لنعرف انه في هذه اللحظة الحرجة ، في هذا الخفق والرعدة من الاحتضار ، لا بد ان يدخل النور الى العيون الساهمة . سنفاهم جميعا . سننتقدم معا . وهذا الامل هو قطمي اكيد .

(اسيلان) القاها من جديد

لقد أمادتني من جديد الى «كولومبو» قضية دولية الا وهي الصراع ضد الموت الدري . عبرنا الاتحاد السوفيتي باتجاه الهند على متن طائرة Tu 104 كانت هذه الطائرة النفاثة الرائعة قد انطلقت كي تقل وفدنا الكبير . ما توقفنا الا في «طاشقند» قرب «سمرقند» على مرحلتين طارت بنا كي تضعنا في قلب الهند . كنا نظير على ارتفاع ١٠.٠٠٠ مترا . كي نستطيع ان نجتاز جبال «هملايا» فان هذا الطير الهائل حلق على ارتفاع ١٥.٠٠٠ مترا . من الاعلى كنا نلمح منظرا طبيعيا خلابا كان يبدو وكأنه لا يتحرك مع تحرك طائرنا السريعة . ها هي الحواجز الاولى تبدو من تحتنا،

تظهر منحدرات سلسلة جبال «الهملايا» الزرقاء والبيضاء . هناك لا بد انه يمشي انسان الثلوج المهيب في وحدته الرهيبة . من بعد ، على يسارنا ، تتميز هضبة جبل «ايفريست» بين اكاليل الثلوج وتيجانها . الشمس تشرق فوق ذاك المنظر الفريد ، نورها يحزّ ويحزّ جوانب الصخور المستنة ، قدرة السكون الثلجي المسيطرة السائدة .

اتذكر جبال «الانديس» الامريكية التي اجتزتها عدة مرات . هنا لا تسود تلك الفوضى ، ذاك الغضب الهائل ، تلك الصحراء الوبائية الوجودية في سلسلة جبالنا . تبدو لي هذه الجبال الآسيوية اكثر كلاسيكية ، اكثر تنظيما ، اكثر اتساعا وامتدادا . قممها الثلجية تنقش أديرة ، تحفر معابد هندية او صينية في المدى الفسيح اللانهائي . ان وحدتها لهي اكثر عرضا واتساعا . ظلالها لا ترتفع أسوارا من حجارة رهيبة بل تمتد حدائق غريبة عجيبة زرقاء في دير كبير هائل .

اقول لنفسي بانني الآن استنشق انقى هواء في العالم وانني انظر الى اعلى مرتفعات الارض من اعلى مرتفع . انه لاحساس فريد تمتزج فيه السرعة والثلوج والوضوح والافتخار .

نظير نحو سيلان . الآن قد هبطنا الى ارتفاع قليل ، فوق اراضي الهند الساخنة الحارة . لقد تركنا الطائرة السوفييتية في دلهي الجديدة كي نأخذ طائرة هندية ، اجنحتها تثر وتهتز بين سحب سوداء عنيفة . افكاري وسط التآرجح هي الآن في الجزيرة المزدهرة التي كنت اعيش فيها وليس لي من العمر الا اثنان وعشرون عاما . لقد عشت في سيلان وجودا متوحدا منعزلا ، وكنبت هناك اكثر اشعاري مرارة وأنا محاط بطبيعة الفردوس المتنوعة الخلافة .

اعود بعد انقضاء زمن طويل على تلك الايام ، ايام صباي وشبابي ، الى هذا الاجتماع المؤثر من اجل السلام ، الذي دعت اليه حكومة سيلان . لقد لاحظت وجود المثات من الرهبان البوذيين جماعات جماعات ، ببرودهم ذات اللون الزعفراني ، وهم غارقون بالتأمل الذي يميز تلامذة (بوذا) وأتباعه . حين يناضل هؤلاء الكهنة ضد الحرب والدمار والموت فانهم بهذا يؤكدون

من جديد مبادئ السلام ومشاعر الوثام التي دعا اليها قديما الامير
(سيدرانا غاوتاما) المدعو كذلك (بوذا) . كم هي
بعيدة - افكر - عن الاضطلاع بهذه المهمة وسلوك هذا النهج ، الكنيسة
في اقطارنا الامريكية ، انها كنيسة من نوع اسباني ، رسمية وداعية الى
الحرب ، كم هو منعش ومشجع ان يرى المسيحيون الحقيقيون كهنتهم
الكاتوليك وهم من على منابرهم يحاربون أفدح الجزائم وأكثرها خُطورة
واشدها ارهابا الا وهي جريمة الموت الذي يفтал ملايين من الابرياء
ويترك الى الابد لخطاه البيولوجية في سلالات الانسانية وذرياتها .

لقد مضيت متخبطا عبر الأزقة باحثا عن الدار التي كنت اعيش فيها
بضاحية « فيلا وانا » . فجهدت كثيرا حتى عنرت عليها . كانت الاشجار قد
نمت ووجه الشارع قد تغير .

كانت الفرفة القديمة حيث كتبت اشعاري الاليمة ستهدم نظرا لان
جدرانها كانت مناكلة متداعية فقد آذت رطوبة المدار هذه الحيطان التي
كانت تنتظرني واقفة كي تودعني في هذه اللحظة الاخيرة من حياتها .

ما التقيت باحد من اصدقائي القدامى . غير ان الجزيرة عادت لترن
في قلبي بلحنها القاطع لاوتار القلب ، بوميضها المديد . البحر ما زال يفني
غناءه القديم نفسه تحت سعف النخيل ، ضد ارصفت الميناء . عدت لاجول
عبر طريق الغابة ، عدت لارى الفيلة ذات الخطو الجليل وهي تملأ الدروب ،
عدت لاشعر بعبق العطور الفواحة ، بوشوشة النمو وحفيف الحياة فسي
الغابة . لقد وصلت الى صخرة « سيخيريوا » حيث شاد هنالك
ملك مجنون حصنا له . لقد بجلت كما اكرمت من قبل ، تماثيل بوذا
الهائلة العديدة التي يمضي الرجال تحت ظلالها وكانهم حشرات صغيرة .

ابتعدت من جديد وانا متأكد اني بعد هذه المرة لن اعود ابدا الى هذه
الجزيرة .

زيارة ثانية للصين

لقد طرنا من « كولومبو » بعد انتهاء مؤتمر السلام هذا عبر اجواء الهند ،

وكان معنا (خورخه امدو) (٥) وزوجتسه (ثيليا) .
ان الطائرات الهندية كانت تفلح دوما وهي غاصة بمسافرين معتمدين ومليئة
بالاصفاط والسلل ومزدحمة بالاشكال والالوان . كان يبدو مستحيلا حشر
هذا العدد الكثير من الناس في مثل هذه الطائرة التي اقلتنا . حشد ينزل
في اول مطار وحشد يصعد . كان علينا ان نواصل السفر الى ما هو ابعد
من «مدراس» الى «كلكوتا» . كانت الطائرة تتمايل تحت العواصف
الاسنوائية . كان النهار الليلي الذي هو اكثر ظلمة من الليل يطوينا فجأة ثم
يهجرنا تاركا مكانه لسماء باهرة ساطعة . ثم تعود الطائرة تتمايل وترتعد
وترتجف ، على حين غرة تنفجر الصواعق والبروق فتضيء السماء وتجلو
العممة لماما . كنت انظر الى وجه (خورخه امدو) وهو يمر من اللون الابيض
الى الاصفر ومن الاصفر الى الاخضر وكان هو يرى في وجهي تحول الالوان
ذاته الناتج عن الخوف الذي كان يخنق أنفاسنا ويبدل الواننا . بدأت الطائرة
بالامطار ، كانت المياه تتسرب ، تترشح من ثقب في سقفها كثقوب السماء ،
تساقط قطرات ثخينة تذكرنى ببיתי في «تيموكو» اثناء فصل الشتاء ،
لكن هذه القطرات لم تكن تستهويني على ارتفاع ١٠٠٠٠ مترا . لكن ما كان
يستهويني هو ان راهبا كان يجلس خلفنا فتح مظلة احتمى تحتها من المطر
واخذ يقرأ في جديده شرقية نصوص كتابه المحتوي على كنوز المعرفة القديمة .

لقد وصلنا بلا حوادث الى «رانغون» في «برمانيا» . لقد اكتملت في
هذه الايام ثلاثون سنة على مقامي في الارض ، على اقامتي في «برمانيا»
حيث كتبت هناك اشعاري الاليمية وأنا اذاك غير معروف البتة . في عام
١٩٢٧ حين كان لي من العمر ٢٣ سنة نزلت في «رانغون» هذه نفسها .
لقد كانت «برمانيا» حينذاك ارضا تهدي من الحر ، ارضا لا تنفد اليها
اللغات ، ارضا ساخنة ساحرة . لقد كان المستعمرون الانجليز يستغلونها
استغلالا بشعا ويخنقون أنفاسها ، غير ان العاصمة كانت نظيفة ومضيئة ،
كانت الشوارع تلتمع بالحياة وواجهات المحلات كانت تتباهى بمغرياتهما
الاستعمارية .

اما الآن فهذه المدينة تبدو نصف فارغة ، واجهات المحلات غير مزودة

٥ - خورخه امدو : روائي برازيلي ولد عام ١٩١٢ .

بأي شيء مما يغري ويجذب الانظار، الشوارع فيها مليئة بالاوساخ والاقذار المتراكمة . ان صراع الشعوب من اجل استقلالها ليس بالامر السهل لا بد، بعد قفزة السلاح وتفجر الارواح وانتصاب الرايات وتحقيق التحرير ، من ان تشق هذه الشعوب طريقها عبر العواصف والمصاعب . انا لا اعرف حتى الآن تاريخ «بيرمانيا» المستقلة الحبيسة قرب نهرها القدير، نهر «اير اودهى» وفي سفوح معابدها الذهبية ، لكنني استطيع ان المح - ابعده من القمامة في الشارع ومن الحزن المتوج - المآسي كلها التي تهز الجمهوريات الجديدة . انه كما لو كان الماضي ما يزال مستمر في اضهاد هذه الجمهوريات الفتية .

لم اجد اي ظل لـ (خوسيه بليس) ، بطله قصيدي «تانغو الارمل» . لا احد استطاع ان يدلني شيئا عنها ، عن حياتها او موتها . حتى الحي الذي كنا نعيش فيه معا لم يعد له من وجود .

لقد طرنا الآن من «بيرمانيا» عابرين سلاسل الجبال التي فصلها عن الصين . انه لمنظر متجهم عابس ، ذو سكون رعوي . لقد حلقت الطائرة من «ماندالاي» فوق حقول الارز ، فوق المعابد المفرطة في الزخرفة ؛ فوق ملايين من اشجار النخيل ، فوق الحرب الاخوية بين البيرمانيين وتغلغل في الهدوء الصارم المحاذي لمناظر الصين الطبيعية .

كان ينتظرنا في «كون مينغ» وهي اول مدينة صينية بعد الحدود ، صديقي القديم ، الشاعر (اي تشينغ) . لقد كانت تقاسيم وجهه العريض الاسمر ونظرات عينيه الكبريتين المليئتين بالطيبة والشيطنة المتبقطة، مرة اخرى ، مقدمة فرح لسفر طويل ان (اي تشينغ) و(هو تشي مينغ) كانا شاعرين من جفن الكرمة الشرقية القديمة ، متشككين بين القساوة الاستعمارية في الشرق ووجود صعب في باريس . ان هذين الشاعرين ذوي الصوت العذب الطبيعي ، وفد خرجا من السجون ، تحولا خارج بلدهما الى طالبين فقيرين بعملان في المطاعم . لقد حافظا على ثقتهما بالثورة . وعادا في الوقت المناسب وهما ناعمان جدا في الشعر وصلبان جدا في السياسة ، الى بلدهما لكي يؤديا مهماتهما المصرية .

اشجار الحدائق في « كون مينغ » كانت قد اجريت لها عملية

جراحية جمالية . كانت جميعها تأخذ اشكالا غير طبيعية و احيانا كانت تلمح وتلاحظ ندوب مبنورة قد غطيت بصلصال وطين او غصون ملتوية لم تزل مضمدة مثل ذراع جريح . اخذونا لثرى البستاني ، العبقري العظيم الذي كان يسيطر على تلك الحديقة الغريبة . رأينا اشجار التنوب الغليظة العتيقة وهي لما تنم بعد اكثر من ثلاثين سانتيمترا وكذلك رأينا اشجار برتقال ، افزاما تغطيها برتقالات ضئيلة كأنها حبات ارز مذهبة .

كذلك ذهبنا لزيارة غابة احجار باسلة ، كانت كل صخرة تتناول كأنها مسلة من حجر واحد او تستشيط كأنها موجة من بحر جلمود . عرفنا ان هذا الدوق بالاحجار العجيبة هو ارث قديم منذ قرون سحيقة . لقد زينت هذه الصخور الكبيرة العديدة ذات المظهر المبهم اللغز ساحات المدن القديمة ، حين كان الحكام في الزمن القديم يريدون ان يقدموا احسن هداياهم الى الامبراطور فانهم كانوا يرسلون اليه واحدة من هذه الصخور الضخمة ، وكان وصولها يتأخر سنوات عديدة ، كان يدفعها عشرات من العبيد خلال الالف الكيلومترات حتى تصل الى بكين .

ان الصين بالنسبة لي ، ليست لغزا ، على العكس اني اراها ، حتى داخل حدة الاندفاع التوري الرائع ، بلدا قد بني منذ آلاف السنين وما زال يبني ويشاد على الدوام . اني اراها معبدا هائلا من بنيانه القديم يدخل ويخرج البشر والاساطير ، المحاربون والفلاحون والآلهة . لا شيء عفويا يوجد فيها ، ولا حتى الابتسامة . عبثا يبحث المرء في الجهات كلها عن اشياء الفن الشعبي البدائي الصغير غير المتقن، عن هذا الفن المصنوع باخطاء في التصميم الذي يلمس احيانا حدود المعجزة . ان الدمسى الصينية ، والاعمال الفخارية والخزفية والاحجار المرصعة والاشخاب المزخرفة ، جميعها تكرر نماذج الفية . ان كل شيء له طابع اتقان معاد .

لقد كانت مفاجاتي الكبرى حين عثرت في سوق ضيعة صغيرة على اقفاص صغيرة للزيران مصنوعة من خيزران رقيق . كانت رائعة لانها في دقتها البنائية كانت مبنية غرفة فوق اخرى ، وكل غرفة بزيها الحبيس الاسير ، تشكل قلاعا في ارتفاع متر ، تقريبا . لقد بدا لي وانا انظر الى الاعشاش التي كانت تقيد الزيران والى اللون الاخضر الطري في عيـدان الخيزران ان اليد الشعبية كانت تطل منبعثة من الاقفاص ، البراءة التي

تستطيع ان تصنع الاعاجيب . حين رأى الفلاحون دهشتي واعجابي بهذه الافقاص لم يشأوا ان يبيعوني واحدا منها بل اهدوني قلعة صداحة ، اكبر قفص واجمله . بهذا الشكل رافقتي غناء الزيران القداسي خلال عدة اسابيع عبر اعماق الاراضي الصينية . لا اذكر اني تلقيت هدية مثل هذه الهدية البرية الجديرة بالذكرى الا في طفولتي .

شرعنا السفر في باخرة تقل الف مسافر عبر نهر «يونسغ تسه» اتهمم فلاحون ، عمال ، صيادون ، جمهرة مليئة بالنشاط والحيوية . لقد جلنا خلال عدة ايام ، باتجاه «نان كينغ» في هذا النهر العريض جدا ، المليء بالقوارب والاشغال ، الذي تعبده وتمخره آلاف الحيوانات ذوات الاحلام والهموم . ان هذا النهر لهو الشارع الرئيسي في الصين . لقد كان نهر «يانغ» العريض الهادىء يغدو احيانا نحيلاً ضيقاً فلا تكاد الباخرة تعبر حلاقيمه الجبارة الا بصعوبات قاسية على كل جانب من جانبيه تبدو الجدران الحجرية العالية السامقة وكأنها تتلامس في الاعالي حيث تلمح من حين الى حين غمامة سوداء في السماء ، رسمتها رسماً نموذجياً ايد شرقية بأقلام رصاص ، او ترى غرفة انسانية صغيرة بين ندوب الاحجار .

ليس في الارض الا مناظر قليلة لها مثل هذا الجمال الرهيب . ربما نستطيع مقارنتها بفجاج القوقاس العنيفة او بقنواتنا الجليلة المنعزلة فسي مضيق «ماغايانيس» .

بعد خمس سنوات على زيارتي الاولى للصين الاحظ الآن تغيراً ملحوظاً يتأكد كلما توغلت في هذا البلد من جديد .

في البداية ملاحظتي كانت متوشة . ماذا الاحظ الآن ؟ ما هي التغييرات الطارئة على الشوارع وعلى الناس ؟ آه ، اني لافتقد اللون الازرق . منذ خمس سنين زرت في هذا الفصل نفسه شوارع الصين ، كانت دائماً غاصة خافقة بالحيوات البشرية . لكن اذالك كان الناس كلهم يمشون وهم مرتدون ملابس زرقاء بروليتارية، نوعاً من القماش او النسيج العمالي الرقيق . كانت هذه هي ملابس الرجال والنساء والاطفال . لقد كان يلد لي هذه البساطة في البديل ، في تدرجاتها المختلفة من الزرقة .

لقد كان بديما ان ارى حينذاك هذه التموجات الزرقاوية العديدة وهي تعبر شوارع وطرقا .

الآن هذا قد تبدل ، فماذا جرى ؟

ببساطة ، الصناعة النسيجية في هذه السنوات الخمس نمت كثيرا الى درجة انه اصبح ممكنا ان يلبس الناس ما شاؤوا من الوان وأنواع ، مخططة او منقطة ، اصبح ممكنا لباس الملايين من الصينيين بكل اصناف الحرير والسماح لهم ان يستعملوا منها الوانا عديدة وأقمشة احسن وأفضل مما كانوا يستعملون من قبل .

ان الشوارع الآن هي أفواس قزح من ذوق الصين الدقيق النقي . ان الجنس الصيني لا يعرف ان يصنع شيئا قبيحا . وهذا البلد مزهر ومزدهر حتى الصندل الاكثر بدائية يبدو فيه وكأنه زهرة من قش .

لقد انتبهت وأنا ابصر عبر نهر «بانغ تسه» الى وفاء الرسوم الصينية القديمة . هناك ، في اعلى الفجاج ، شجرة ارز ملتفة مثل معبد صيني صغير ، جلبت الى ذهني حالا الصور التخيلية القديمة . ثمة اماكن قليلة في العالم ، حقيقية جدا ، خيالية جدا ، مفاجئة جدا ، مباغثة جدا ، مثل هذه الفجاج التي يخترقها هذا النهر العظيم ، فجاج ترتفع الى علو غير معقول ، فجاج تريك في كل صدع او شق في هذه الصخرة او تلك الاثر النفساني القديم لهذا الشعب المدهش العريق : خمسة أمتار او ستة من بقول حديثة الفرس ، او معبد صغير ذو خمسة سطوح او ستة للتفرج والتأمل . يبدو لنا هناك بعيدا أننا نرى في اعلى الصخور القرعاء الصلحاء ، العباءات البيضاء او دخان الاساطير ، وان هي الا النجوم وطيران عصفير رسمه عدة مرات اكثر رسامي الصور المصغرة الملونة قدما ومعرفة على وجه الارض قاطبة . ان شعرا عميقا ينطلق من هذه الطبيعة الجليلة العظيمة ، شعرا موحزا مختزلا عاريا كطيران طير او البريق الفضي لماء يطفو شبه ساكن بين الاسوار الحجرية .

بيد ان ما هو فائق بشكل لا نهائي في هذا المنظر الطبيعي هو رؤية الانسان وهو يعمل في مستقيمات قائمة الزوايا ، صغيرة ، في اشكال

قمرية خضراء بين الصخور . على ارتفاع هائل في قمم الاسوار الشاقولية، حيث يوجد منحني يحتفظ بقليل من التربة الصالحة للزراعة ، نمة هناك رجل صيني يزرع ويفرس . ان الارض الام الصينية هي واسعة وفسيحة . لكنها قاسية وصعبة . لقد ربت الانسان واعطته شكلا وحولته الى آلة عمل ، لا تتعب ، آلة ذكية وعنيدة . ان هذا التركيب المؤلف من ارض فسيحة ومن جهد انساني خارق ومن الفناء متدرج لكل انواع الظلم والقهر سيجعل الصين الجميلة المديدة العميقة الانسانية تزدهر وتتقدم .

لقد بدا لي (خورخه امدو) خلال عبور نهر «يانغ تسه» كله انه كان عصبيا كثيرا . كانت تزعجه جوانب من الحياة لا حصر لها في الباخرة وكذلك كانت تزعج (ثيليا) زوجته . لكن (ثيليا) لها طبع هادئ يسمح لها ان تمر بالنار دون ان تحترق .

واحد من هذه الاسباب التي كانت تزعجه هو اننا اصبحنا على غير ارادتنا ذوي امتياز وتمييز في هذا المركب . لقد كنا نشعر في غرنا الخاصة ومطعمنا الخاص بنا شعورا سيئا وسط مئات الصينيين الذين كانوا يتكلمون في جهات المركب كله . كان الروائي ينظر اليّ بعينين ساخرتين ولا يترك فرصة الا وعلّق عليها بتعليقاته اللطيفة القاسية .

الحقيقة هي ان كشف الحقائق المتعلقة بالفترة الستالينية قد عطل احد النوايا في اعماق (خورخه امدو) . نحن صديقان قديمان ، تقاسمنا أعوام المنفى معا ، دوما كنا نمتزج في قناعة وأمل مشتركين . لكنني اعتقد انني كنت متمدهبا بأقل مقدار من تشيعة وتمذهبه فلقد كانت طبيعتي الخاصة نفسها وطبعي ذاته يجعلاني اكثر ميلا للتفاهم مع الآخرين فيما (خورخه) كان على العكس من ذلك صارما دائما . لقد قضى معلمه (لويس كارلوس بريستيس) خمس عشرة سنة من حياته ، سجيناً . انها لاشياء لا يمكن ان تنسى ، بل تجعل الروح صلبة صلدة . انا كنت ابرر امام نفسي تشييع (خورخه) دون ان اشاطره هذا التعصب والتحزب .

ان تقرير المؤتمر العشرين كان اضطراب أمواج دفننا نحن الثوريين كلنا ، نحو مواقع جديدة ونتائج حديثة ، بعضنا شعر وكأنه يولد من جديد اثر تلك الكآبة الناجمة عن كشف الحقائق القاسية ، يولد من جديد نظيفا

من الدياجير والرعب ، مستعدا لمواصلة الدرب والحقيقة تسطع في يده .

(خورخه) ، على العكس ، يبدو انه بدأ ، هناك على حافة تلك الباخرة ، بين الفجاج الهائلة لنهر «يونغ تسه» ، مرحلة مختلفة في حياته . منذ ذلك الحين صار اكثر هدوءاً ، غدا اكثر اعتدالا في أفعاله وفي أقواله . انا لا اعتقد انه فقد ايمانه الثوري بل انه غرق اكثر من قبل في مؤلفاته ونزع عنها الطابع السياسي المباشر الذي كانت تتميز به بشكل مفرط طاغ . كما لو انه اطلق الابيفورية التي فيه فاندفع يكتب احسن كتبه مبتدئا برواية «غابرييله ، مسمار وقرنفلة» وهي رواية انموذجية ، نفيض بالحسيية والبهجة ، بالشهوانية والفرح .

لقد كان الشاعر (اي تشينغ) هو رئيس الوفد المرافق الذي كان يقودنا ويدلنا . كل ليلة كنا نتعشى : (خورخه امدو) و(ثيليا) و(ماتيلده) و(اي تشينغ) وأنا ، في غرفة منفصلة . كانت المائدة تنفطى بيقول خضراء وملهبة ، بأسماك حامضة - حلوة ، بأوز ، بديكة ، بفراريج مطبوخة بطريقة غريبة ، دائما للذبة . بعد عدة ايام اصبحت تلك الاكلة الرائعة تفص في حلوقنا ولو انها كانت من قبل تسري فيها بسرعة وكانت تطيب لنا . وجدنا فرصة كي نتحرر ولو لمرة واحدة من تلك الاطعمة الطيبة اللذيذة لكن مبادرتها وجدت طريقا صعبة ، راحت تتلوى هذه الطريق اكثر فاكثر مثل غصن من تلك الاشجار المضايقة المعدبة .

حصل ان عيد ميلادي كان يصادف وقوعه في تلك الايام . (ماتيلده) و(ثيليا) وضعتا مخططا كي يكرمانني بأكلة غريبة تفر من رتابة طعامنا ، كان الامر هو القيام بتكريم متواضع : اعداد فروج مشوي على طريقتنا مع سلطة من طماطم وبصل على الطريقة التشيلية . المرأتان صنعتنا من هذه المفاجأة سرا كبيرا . توجهتا بكل ثقة الى اخينا الطيب الشاعر (اي تشينغ) ، فاجابهما الشاعر وهو قلق قليلا ، انه لا بد له من الاجتماع بالاعضاء الآخرين في اللجنة للتداول حول هذا الامر .

كان الجواب مفاجئا . ان البلاد كلها تمر في موجة من التقشف ، (ماو تسي تونغ) تخلى عن احتفاله بعيد ميلاده حتى يساهم مع شعبه في التقشف والتوفير فكيف يمكن ان يحتفل بعيد ميلادي تجاه هذه الاجراءات

الصارمة من التقشف ؟ (ثيليا) و(ماتيلده) ردتا على هذه الحجة بأن الامر هو مناقض.كلنا فنحن نريد ان نستبدل فروجا واحدا مشويا على الفرن ولكن بأسلوب تشيلي ، بكل ما في هذه المائدة من اكل لذيذ متنوع (كان على المائدة فراريج وأسماك وديكة لم تلمس بعد) . أجاب (اي تشينغ) بعد اجتماعه الى اللجنة غير المرئية التي كانت تقود التقشف ، في اليوم التالي بأنه ليس ثمة من فرن على ظهر الباخرة التي كنا نبحر بها. (ثيليا) و(ماتيلده) اللتان كانتا قد تكلمتا مع الطاهي ، أجابتا (اي تشينغ) بأنهم مخطئون وان فرنا رائعا كان يسخن في انتظار فروجنا المحتمل . أغمض (اي تشينغ) عينيه بين يمين وأضاع نظرتة في تيار نهر «يانغ تسه» .

كان لنا في يوم ١٢ تموز ، تاريخ عيد ميلادي ، على المائدة فروجنا المستوي ، جائزة ذهبية من ذلك النزاع والمداولة . زوج من الطماطم مع بصل حار حاد كانت تلتهم في صينيتنا الصغيرة . وهناك من على بعد كانت تمتد المائدة الكبيرة المزخرفة مثل بقية الايام بأطباق براقاة وقصعات لماعة مليئة بأكل صيني طيب .

انا كنت قد مررت عام ١٩٢٨ بـ «هونغ كونغ» وبـ «شانغهاي» . تلك كانت صينا مستعمرة بتشكل حديدي ، فردوسا للمقامرين ولمدخني الافيون ، للمتردددين على المواخير وبيوت الدمار ، للصوص الليل للدوقات الروسية المزيفات ، لقراصنة البحار والاراضي . مقابل المؤسسات المصرفية الكبيرة في تلك المدن الكبيرة كان ثمة نماني او تسع مدرعات رمادية تكشف عن عدم الطمأنينة والخوف ، عن اغتصاب الاستعمار وتعبه ، عن احتضار عالم بدأ يفوح برائحة الموت . رايات بلدان كثيرة ، تمثل قناصل لؤماء ، كانت تتلألأ فوق بواخر قرصنة تابعة لجنحة مجرمين ، صينيين او ملايويين . كانت المواخير تابعة لشركات عالمية . انا قد رويت في مكان آخر من هذه المذكرات كيف أفتار عليّ اللصوص ذات ليلة وتركوني بلا نياح ، بلا نقود ، بلا وثائق شخصية ، مهجورا في احد الشوارع الصينية .

لقد عادت هذه الذكريات الى راسي حين وصلت الى الصين الثورة . هذه الصين اصبحت بلدا جديدا ، مدهشا في نظافته الاخلاقية . ان العيوب ، والمشاكل الصغيرة والاختلافات الضئيلة وكثيرا مما احكيه الآن عن

صين الثورة ، ما هي الا ظروف عابرة ليست بذات اهمية . ان انطباعي العام السائد هو اني لاحظت ان ثمة تغييرا ظافرا وتحويلا جذريا في الارض الفسيحة ذات اقدم ثقافة في العالم . ففي كل جهة كان يشرع بتجارب لا حصر لها وباختبارات هامة . كان النظام الاقطاعي قد دحر تماما والزراعة بدأت في نهج ومنهج جديدين . كان الجو النفسي المعنوي شفافا كما بعد مرور زوبعة عاصفة .

ان ما اقصاني عن سنن التطور الصيني لم يكن (ماو تسي تونغ) بل الماوسوتونفية اي الماوستالينية ، تكرار عبادة زعيم اشتراكي . من يستطيع ان ينفي عن (ماو) كونه شخصية سياسية ومنظما عظيما ومحورا كبيرا لنسبته ؟ كيف اقدر انا ان افلت من سحر هالته الملحمية ، من بساطته الشعرية ، من تواضعه الكئيب ، من اصالته العريفة ؟

لكن ، خلال زيارتي، رايت كيف ان المئات من الفلاحين الفقراء العائدين من اعمالهم كانوا يختنعون قبل ان يدعوا عدتهم ، وهم يحيون صورة بطل «يونان» Yunan المحارب المتواضع الذي تحول الآن الى إله . انا رابت كيف ان المئات من المخلوقات كانوا يهزون في ايديهم الكتاب الاحمر ، اكسيرا عالميا للفوز في «البينج - بونغ» ، لشفاء التهاب الزائدة الدودية . لحل المشاكل السياسية . لقد كان التملق يطفو على كل فم وفي كل يوم ، يتدفق من كل صحيفة ومن كل مجلة ، من كل دفتر ومن كل كتاب ، من كل تقويم ومن كل مسرح ، من كل تمثال ومن كل رسم .

كنت قد ساهمت بمقداري فسي عبادة الشخصية ، في حالة (ستالين) . لكن في تلك الاوقات كان (سنالين) يبدو لنا على انه المنتصر القاهر لجيوش (هتلر) ، على انه المنفذ للانسانية العالمية . لقد كان انتكاس شخصيته مجرى مبهما ، ما زال حتى الآن لغزا بالنسبة للكثيرين منا .

والآن هنا ، في وضح النور ، في المدى الارضي والسماوي الرحب للصين الجديدة ، يراد من جديد امام ناظري ، ان تستبدل أسطورة تحنكر الضمير الثوري ، تقتصر على قبضة يد واحدة خلق عالم سيكون للجميع . لم يكن سهلا بالنسبة لي ان ابتلع للمرة الثانية هذا القرص .

في «تشونغ كينغ» اخذني اصدقائي الصينيون الى جسر المدينة . لقد عشقت الجسور طيلة حياتي كلها . لقد اوحى لي والدي ، وهو عامل في السكك الحديدية ، ان اكن لها احتراما كبيرا . لم يكن يدعوها ابدا بالجسور . كان هذا النعت سيدنسا وينتهك حرمتها . بل كان يدعوها بالاعمال الفنية ، نعمتا ما كان ليطلقه على الرسوم واللوحات وأعمال النحت بله على قصائدي ، طبعاً . كان هذا النعت مقتصرا على الجسور فقط . لقد اخذني معه عدة مرات كي نشاهد جسر « مايبكو » الرائع ، بجنوب تشيلي . حتى الآن كنت اظن انه اجمل جسر في العالم ، وهو ممتدد بين سندس الجبال وخضرتها الجنوبية ، عاليا ، نحىلا ، نقىا ، مثل كمان من فولاذ باوتاره المشدودة المهيأ لعزف الرياح عليها ، رياح «كويبيويي» Collipulli . ان الجسر الهائل الذي يعبر نهر «يانغتسه» هو شيء آخر . انه اعظم عمل قام به الهندسة الصينية بمشاركة المهندسين السوفيت . وهو ، بالاضافة الى هذا نهاية صراع دام فرونا . لقد كانت مدينة «تشونغ كينغ» يفصلها هذا النهر الى قسمين منذ قرون وكان عدم الاتصال هذا بين شقيها يعني تأخرا وبطئا وعزلة .

ان حماسة اصدقائي الصينيين الذين كانوا يرونني الجسر هي اكثر مما كانت تستطيع ان تتحملة ساقي وقدماي . كان هؤلاء الاصدقاء يجعلوني اصعد أبراجا ، أهبط مهاوي كي ارى المياه التي تنساب هناك منذ آلاف السنين والتي تفتحها اليوم هذه القضبان الحديدية المؤلفة من كيلومترات عديدة ، عبر هذه السكك الحديدية ستمر القطارات ، هذه الارصفة ستكون لسائقي الدراجات ، هذا النهج الهائل سيكون مخصصا للمشاة . احس باختناق من هذه العظمة الكثيرة .

ياخذنا (اي تشينغ) ، ليلا ، الى الاكل في مطعم قديم ، ماوى اكثر الاطعمة تقليدية . مطر من ازهار الكرز ، قوس قزح من سلطة خيزران ، بيض له من العمر مائة سنة ، شفاة فتية شابة من اسماك قرشية . ان هذه الاطعمة الصينية هي مستحيلة ان توصف في تعقيدها وتنوعها الغريب ، في اختراعها الشاذ ، في قوالها غير المعقولة . زودنا (اي تشينغ) بمعارف عنها ، وقال ان القواعد العليا الثلاث التي يجب ان تتوفر في اية اكلة جيدة هي : اولاً ، الطعم ، ثانياً ، الرائحة ، ثالثاً ، اللون ، هذه الجوانب الثلاثة يجب ان تحترم دائما وأن يصر عليها دوما ، الطعم

يجب ان يكون لذيذا ، الرائحة يجب ان تكون ممتعة ، اللون يجب ان يكون منعشا ومتناغما ومتسقا . « في هذا المطعم حيث سناكل – قال (اي تشينغ) ستوفر ميزة اخرى : النغم» . يضاف الى الطبق (٦) المصنوع من الخبز الصيني المحاط بـ «المنجار» ، في آخر لحظة ، شلال صغير من طوابير «الجمبري» التي تصب في صفيحة معدنية تسخن على الجمر واللهب كي ينتج لحن ناي ، مقطع موسيقى يكرر دائما ويعاد .

في بكين استقبلنا (تيم لينيغ) التي كانت تترأس لجنة الكتاب التي خصصت كي ترافقنا اثناء زيارتنا للصين . كذلك كان موجودا اثناء هذا الاستقبال صديقنا القديم الشاعر (امي سيار) وزوجته الالمانية المصورة . كل شيء كان لطيفا وضاحكا ومبتسما . تنزهنا في زورق بين عرائس البحيرة الاصطناعية الهائلة التي بنيت لتسلية آخر امبراطورة . زرنسا مصانع ، دور نشر ، متاحف ، معابد . اكلنا في اصغر مطعم في العالم (صغير جدا الى درجة انه لا يحتوي الا على مائدة واحدة) تتردد اليه سلالة الاسرة الامبراطورية . كنا نحن الامريكيين الجنوبيين الاربعة نجتمع في مقر الكتاب الصينيين كي نشرب وندخن ونضحك كما لو كنا في اي جزء من قارتنا الامريكية . انا كنت كل يوم اعطي الجريدة الى مترجمنا الشاب المسمى (لي انا) (Li) وكنت اشير يا صبعي الى عواميد الصحيفة المكتوبة بحروف صينية واقول له :

– ترجم لي .

كان يشرع بعمله في لغة اسبانية تعلمها حديثا ، ويقرا لي المقال الافتتاحي من الزراعة ، المآثر السباحية (ماو تسي تونغ) ، الابحاث الماوماركسية ، الاخبار العسكرية التي كانت تبعث في نفسي الملل ما ان يبدأ بترجمتها .

– Stop – كنت اقول له . اقرأ لي من هذا العمود فهو افضل .

٦ – الطبق : Fuente : ومن معاني هذه الكلمة باللمة الاسبانية كذلك ، النبع، نشير لهذا لان (نيرودا) يستغل المعنى الثاني للحديث من الطبق .

هكذا فوجئت ذات يوم حين عثرت على دمل في المكان حيث وضعت اصبعي . كانت الصحيفة تتحدث عن دعوى سياسية يتهم فيها اصدقائي الذين كنت اراهم كل يوم والذين كانوا يشكلون قسما من الوفد المرافق لنا . مع ان القضية تبدو انها مشاركة منذ وقت طويل فهم ابدًا ما كانوا قالوا لنا اية كلمة حول هذا الشأن ولا تفوهوا مطلقا بانهم تحت الاستجواب والاستنطاق وان خطرا يهددهم وان تهديدا ينخر في مصائرهم .

لقد تغيرت الفترة ، والزهور انفلقت . حين هذه الزهور انفتحت بأمر من (ماو تسي تونغ) ، ظهرت قصاصات من ورق - في المصانع والمرائب ، في الجامعات والمكاتب ، في المزارع والحقول - كانت تعلن عن ظلم وتشكوك من جرم وتفضح أفعالا يرتكبها الرؤساء البيروقراطيون .

هكذا كما من قبل كانت قد نوقفت بأمر سام الحرب ضد الدباب وضد العصفير الدورية ، حين تبين ان تصفيتها سيجلب نتائج غير متوقعة ، كذلك الآن انتهت بتشكل حازم مرحلة تفتح البراعم . لقد وصل من اعلى ، أمر . اكتشاف اليمينيين . وفي الحال بدأ الصينيون في كل منظمة ، في كل معمل ، في كل منزل ، الاعتراف الذاتي عن نزعة يمينية او جعل الآخرين يعترفون بهذه النزعة اليمينية كي يقضى عليها نهائيا .

صديقتي الروائية (تينغ لينغ) اتهمت بانها اقامت علاقات غرامية مع جندي من اتباع (تشانغ كاي تشيك) (٧) . لقد كانت هذه التهمة حقيقة ، ولكن حدثت هذه العلاقات قبل الحركة الثورية العظيمة . وفي سبيل الثورة هي رفضت عشيقها ذلك ، ومن « بينان » Yenan (٨) حملت وليدها ومضت لتشارك في المسيرة الكبرى في تلك السنوات البطولية . ولكن هذا لم يقيّم لها بشيء ، فقد طردت من منصبها كرئيسة لاتحاد الكتاب وحكم عليها ان تقدم الطعام اجيرة في مطعم اتحاد الكتاب نفسه الذي كانت قد ترأسته خلال عدة سنين . لكنها كانت تؤدي عملها في هذا المطعم في انفة

٧ - تشانغ كاي تشيك : هو ديكتاتور لوريموزا المعروف ولد عام ١٨٨٦ .

٨ - بينان : لسنا ندري ان كانت هذه المدينة هي نفسها التي كان الشاعر (نيرودا) قد

اشار اليها من قبل ولكنه كتبها هكذا : Yunan ، وقد يكون الامر خطأ مطبعيا .

وكرامة ثم ارسلت من بعد للعمل في مطبخ مشاعة فلاحية في مكان ناء .
كان هذا آخر ما عرفته عن هذه الكاتبة التسويعية الكبيرة التي كانت
التخصية الاولى في الادب الصيني .

لست أدري ماذا حل ب (امي سياو) ، اما بالنسبة لـ (اي تشينغ)
الشاعر الذي كان يرافنا في كل ناحية وركن ، فان مصيره كان حزينا
جدا ، فقد ارسلوه في اول الامر الى صحراء «غوبي» ثم سمح له بالكتابة
على الا يوقع ما يكتبه باسمه الحقيقي الشهير داخل وخارج الصين ، وهكذا
حكم عليه بالانتحار الادبي .

كان (جورج امادو) قد انطلق نحو البرازيل ، من قبل ، اما انا فاني
سأرحل في وقت لاحق وفي فمي طعم من المرارة ما زلت أشعر به
حتى الآن .

قرود «سوخومي»

لقد عدت الى الاتحاد السوفيتي فدعوني هناك الى رحلة نحو الجنوب .
حين هبطت من الطائرة بعد ان عبرت اراضي شاسعة ، كنت قد خلفت
ورائي السهوب والقفار ، الهضاب والتلال ، الطرق والمعابر ، القسرى
السوفيتية والمدن العظيمة . لقد وصلت الى الجبال القوقازية المهيبة
العامرة بأشجار التنوب وبالحيوانات الغابية . لقد تزين البحر الاسود
ببدلة زرقاء كي يستقبلنا ويجثو تحت اقدامنا ، كان عبق عنيف من البرتقال
المزهر يأتي الينا من كل جهة .

نحن الآن في «سوخومي» ، عاصمة «افاسيا» Afgasia ، وهي
جمهورية سوفيتية صغيرة ، هذه هي «لا كولشيدا» Colchida
الاسطورية . انها منطقة الجلود الذهبية التي جاء اليها (خاسون) (٩)

٩ - خاسون : بطل من اباطال الاساطير اليونانية .

سنة قرون قبل ولادة المسيح ليسرق ويسلب . انها وطن «القلقاس»
Los dioseuros الاغريقيين . في وقت لاحق سارى في المتحف
نقتا من ممرر هليئي استخرج حديثا من البحر الاسود . على ضفاف هذا
البحر احتفلت الالهة اليونان بأسرارهم والغازهم . اليوم قد استبدل بالسر
واللغز الحياة البسيطة العاملة ، حياة الشعب السوفييتي . ليسوا هم
بأناس «لينينغراد» . ان لهذه الارض الشمسية ، القمحية ، العنبية ، لحنا
آخر ، لها نبرة صوت من البحر الابيض المتوسط . هؤلاء الرجال لهم
طريقة أخرى في المشي والسير ، ان لهاته النساء عيوننا وأيدي من ايطاليا
او من اليونان .

اعيش بضعة ايام في بيت الروائي (سيمونوف) في بستمان داره
اشجاره الجميلة . أعرفها وأذكرها ، فكلما ذكر لي اسم شجرة كنت أجيبه
كما فلاح متعصب لأرضه :

— من هذه ، يوجد في نشيلي، من هذه الاخرى تمة في وطننا الكثير،
وكذلك من تلك الاخرى . فينظر اليّ (سيمونوف) في ابتسامة مستهزئة ،
فأقول له :

— انه ليحزنني جدا انك لن تستطيع ان ترى العريشة في داري
ب «سانتياغو» ولا اشجار الحور المذهبة بالخريف التصيلي فليس هناك من
ذهب مثل ذهبه . لو ترى في طريق «ميليبيا» كيف يضح
الفلاحون عرائس الدرة الذهبية فوق اسطحة المنازل . لو ترى اشجار
الكرز المزهرة في فصل الربيع . لو تنسم شدى «البولدو» (١٠) .
لو تفرق رجلك وساقك في مياه «ايسلا نيغرا» النقية الباردة . لكن
الاقطار والبلدان ، يا عزيزي (سيمونوف) ، ترفع حواجز فيما بينها ، تلعب
لعبة الاعداء فيما بينها ، تتقاذف النيران في حروب باردة فنصبح نحن
معشر البشر منعزلين متباعدين . نقترّب من السماء بصواريخ سريعة ولا
نقرب أيدينا من أيدينا في أخوة انسانية .

١٠ - البولدو : نوع من الشجر ، ذو أوراق خضراء ودهور دائمة لها عطر فوّاح .

– ربما تتغير الاشياء – يقول لي (سيمونوف) مبتسما ويقذف بحصوة بيضاء الى الالهة الفرقي في البحر الاسود .

ان مفخرة «سوموخي» هي في مجموعتها من القروود . لقد ربى هناك معهد طب تجريبي ، مستغلا الطقس تحت الاستوائي ، اصناف القروود الموجودة في العالم جميعها . فلندخل . سنرى في اقفاص واسعة قروودا منحركة كهربائية وقروودا ساكنة استاتيكية ، بعضها كبير وبعضها صغير ، بعضها أجرد وبعضها اشعر ، بعضها ذو عينين انعكاسيتين وبعضها ذو عينين مشيرتين للشر ، ايضا بعضها مطرق مسكين وبعضها طاغ مسنيد . بعضها رمادي اللون وبعضها ابيض ، بعضها ذو است ولية بثلاثة الوان وبعضها كبير السن متقشف وبعضها متعدد الزوجات اناني الطبع لا يسمح لزوجا ان تتفدى دون اذنه ، لا يمنحها هذا الاذن الا بعد ان يتلع في وقار وسكينة اكله الخاص به .

ان اكثر المخابر تقدما في علم الاحياء هو في هذا المعهد، وان افضل البحوث تجري في هذا المعهد تدرس بأجهزة القروود الجهاز العصبي ، الوراثة ، ويقام ببحوث دقيقة حول سر الحياة وامكانية اطالة الاعمار .

تلقت نظرنا قرودة صغيرة لها طفلان . واحد منهما يتبعها باستمرار والآخر تحمله بذراعيها في حنان انساني . يحكي لنا المدير ان القرد الصغير الذي ترضعه كثيرا ليس بإبنها وانما هو لقيط تبنته . كانت هي على وشك ان نفست بوليدها حين ماتت قرودة اخرى بعد ان خلقت قردا فتبنت هذه القردة الام لتوها اليتيم ، منذ ذلك الحين انصرفت بحنانها الامومي وعطفها الانثوي نحو هذا الابن المتبنتى اكثر مما انصرفت نحو ابنها الحقيقي . ففكر العلماء ان هذا الميل الامومي الشديد سيجعلها تتبنى ابناء آخرين لقطاع لا يمتون اليها بصلة لكنها رفضتهم جميعا واحدا اثر الآخر ، لان سلوكها لم يكن يخضع ببساطة الى قوة حيوية بل الى ضمير قد شعسر حين ماتت رفيقتها بتضامن امومي .

((ارمينا))

الآن نظير نحو ارض مجد اسطورية . نحن في «ارمينيا» . هناك ،

نحو الجنوب ، تترأس تاريخ «ارمينيا» القمة الثلجية لجبال «ارارات» حيث رست سفينة نوح حسب ما جاء في الكتاب المقدس، كي يعاد تعمير الارض. لقد كان عملا صعبا لان «ارمينيا» هي ارض وعرة وبركانية. لقد زرع الارمن هذه الارض في تضحية لا يمكن وصفها ورفعوا حضارتها الى اعلى قمة في العهود القديمة . لقد اعطى المجتمع الاشنراكي الى هذه الامة النبيلسة المعذبة تطورا وازدهارا فائقين . فلقد ذبح الغزاة الاتراك على مدى قرون عديدة الارمن واستعبدهم . كل حجر في الهضاب ، كل بلاطة فسي المنازل ، صبغ وصبغت بالدم الارمني . لقد كان البعث الاشتراكي لهذا البلد اعجوبة، وردا عظيما على اقوال المتخرصين حول امبريالية سوفيتية. لقد زرت في «ارمينيا» معامل نسيج تشغل . . . ٥٠ عاملا ، مشاريع هائلة في الري وتوليد الطاقة ، مصانع اخرى كثيرة وقديرة . لقد تجولت من طرف الى آخر في المدن في الارياف في المراعي فلم ار الا ارمننا ، رجالا ونساء ، ارمننا . وجدت روسيا واحدا ، كان مهندسا ، فريدا في عينيه الزرقاوين بين آلاف العيون السود لأولئك المواطنين السمر . كان ذلك الروسي يدير مركزا كهرمائيا فسي بحيرة « سيفان » . ان سطح البحيرة هو كبير جدا ومياهها تتسرب من مجرى واحد للنهر فالمياه القيمة تبخر دون ان تستطيع ارمينيا العطشى ان تستفيد من هبات هذه المياه. فلكي تقهر عملية التبخير سده ويكسب منها الوقت قبل ان تقلل من حجم المياه ، فلقد وسع مجرى النهر وبهذا تندفق المياه ويقل حجم البحيرة شبه الراكدة وفي الوقت نفسه ستخلق بمياه النهر الجديدة ثمانية مراكز كهرمائية ، صناعات جديدة ، مراتب للالومينيوم ، طاقة كهربائية للاضاءة ، ما يكفي من المياه لارواء الارض كلها في هذا البلد . ابدا لن انسى زيارتي لذلك المصنع الكهرمائي المطل على البحيرة التي تنعكس في مياهها النقية جدا زرقة سماء ارمينيا التي لا تنسى . حين سألنسي الصحفيون عن انطباعاتي حول كنائس ارمينيا واديرتها القديمة ، اجبتهم مبالغا :

— ان اكثر كنيسة اعجبنتني هي المركز الكهرمائي ، ذلك المعبد المطل على البحيرة .

لقد شاهدت في ارمينيا اشياء كثيرة . اعتقد ان مدينة «ايريفان» Erevan هي من اجمل مدن العالم ، انها لمبنية من جير بركاني ، وهي

متناسقة كأنها الورد الموردة . ان زيارتي للمركز الفلكي ب «بينكان»
هى زيادة لا ننسى ، هناك رأيت لأول مرة كتابة النجوم .
كانت اجهزه دقيقة جدا تلتقط اشعاعات الكواكب المرتعشة وتروح تكتب
خفق النجم في الفضاء كأنه برقية كهربائية تأتي من السماء . لقد لاحظت
في تلك الخطوط البيانية ان لكل نجم نوعا من الخط والحرف مختلفا ،
ساحرا ومرتبجا ، مع أنه غير مفهوم بالنسبة لعيني : عيني شاعر أرضي .

توجهت مباشرة ، فسى حديقة الحيوانات ب «ايريفان» نحو قفص
«الكندور» ، لكن ابن بلدي لم يعرفني . كان هناك في ركن قفصه ، أصلح ،
بهاين العيين غير المباليتين ، عيني «كاندور» بلا آمال ولا رغبات ، عيني
عصفور كبير يحن الى سلسلة جبالنا . نظرت اليه في حزن لانني سوف
اعود انا الى وطني وسيبقى هو سجيننا في هذا القفص .

ان مغامرتي مع «ال نابير» El Tapir كانت مختلفة . كان التابير يملك حديقة
الحيوانات في «ايريفان» - قليلة هي حدائق الحيوانات التي لها مثل هذا
الحيوان - ان «التابير» من «الامازون» وهو حيوان بجسد نور ووجه عظيم
الأنف وعيين صغيرتين . يجب الاعتراف في ان «التابير» يتسبهي كثيرا ،
ان هذا ليس بسر .

كان «تابير» مدينة «ايريفان» يغفو في حظيرته قرب البحيرة الصغيرة .
حين رأني رشقني بنظرة ذكاء لعلنا كنا قد تلاقينا ذات يوم في البرازيل
فذكرني . سألني المدير ان كنت ارغب في ان اراه وهو يسبح فأجبته بأنني
كنت أرحل عبر العالم وليس لي من قصد الا ان ارى «تابير» يسبح .
ففتحوا له بوبيا فخرج منه وهو ينظر اليّ نظرة سعادة وغبطة وانقذف الى
الماء شاخرا كالحصان البحري ، مثل خيلان (11) اشعر . كان يعلو رافعا
جسده كله من الماء نم يغطس مسببا تموجا عاصفيا . كان ينهض نشوان من
الفرح ، كان يرنخ وينسخر ومن بعد بواصل في سرعة كبيرة العابسه
البهلوانية غير المعقولة .

١١ - خيلان : حيوان حرافي نصفه رجل ونصفه سمك ، وهو الساس البحري .

- ابدا ما رأيناه فرحا جزلا كما هو عليه الآن - قال لي مدير حديقة الحيوانات .

في الظهر ، عند الغداء الذي قدمته لي جمعية الكتاب ، رويت لهم في خطابي لاسداء الشكر على حفاوتهم بي مآثر الـ «تابير» الامازوني وحدتهم عن هوسي بالحيوانات واني لا ادع زيارة ابة حديقة من حدائق الحيوانات .

في الخطاب الجوابي ، رئيس الكتاب الارمن قال :

- لم يكن (نيرودا) بحاجة كي يذهب لزيارة حديقة الحيوانات في بلدنا ، فلقد كان يكفيه المجيء الى جمعية الكتاب كي يجد الاصناف والانواع كلها هنا مجمعة ، فنحن هنا لدينا اسود ، نمور ، نعالب ، عجول بحريسة وكذلك نسور ، افاع ، جمال ، بيثاوات .

النبيذ والحرب

لقد توقفت في موسكو بطريق عودتي . ان هذه المدينة ليست هي العاصمة العظيمة للاشتراكية فحسب ، ليست هي مقر الاحلام المتحققة فقط ، بل هي بالنسبة لي كذلك منزل اكثر اصدقائي محبة الى نفسي . ان موسكو لهي ، بالنسبة لي ، مهرجان واحتفال . ما ان اصل اليها ، عادة ، حتى اخرج وحيدا عبر الشوارع ، فرحا بالتنفس فيها ، مصفرا لحن «كويكا» (١٢) . انظر الى وجوه الروس ، الى عيون الروسيات وخصلات شعرهن ، الى الثلجات التي تباع في زوايا الطرقات ، الى الزهور الورقية الشعبية ، الى واجهات المحلات بحثا عن اشياء جديدة ، عن اشياء صغيرة تجعل الحياة كبيرة .

ذات مرة ذهبت ، كعادتي ، لآزور (ايهرينبورغ) . فاراني هذا الصديق

١٢ - كويكا : يقال له كذلك «تامايكا» ، وهو نوع من الرقص التشيلي .

الطيب اول ما اراني زجاجة «ماء الحياة» (١٢) نرويجية .
Aequavite على سطح هذه الزجاجة رسمت سفينة شراعية كبيره في مكان آخر كتب
تاريخ انطلاق الباخرة وتاريخ عودتها . انطلقت معها كذلك هذه الزجاجة
حتى «استراليا» ثم عادت معها الى موطنها «اسكاندينافيا» .

جعلنا نتحدث عن النبيذ . تذكرت تلك الفترة من شبابي حين كان
نبيدنا الذي ورثناه ابا عن جد ، يسافر الى الخارج ، بناء على دعوة لكونه
ممتارا فاخرا . لقد كان النبيذ اذالك غاليا جدا بالنسبة لنا نحن الذين كنا
ستعمل ملابس السكك الحديدية وكنا نعيش حياه بوهيمية عاصفة .

لقد كنت اهتم دائما في كل بلد احل به ، بسنن النبيذ ومسالكه، منذ
ان يولد من «أرجل الشعب» الى ان يتدورق في بلور أخضر او زجاج ذي
وجوه . لقد طاب لي في «جليقيا» تناول نبيذ «ريبيرو» (١٤) الذي يشرب
في طاسات ويدع على الفخار علامات دموية كثيفة متخثرة . اني لأذكر اني
شربت في «هنغاريا» نبيذا مكثفا معتقا يدعى «دم الثور» ، حين ينطسح
يجعل اوتار العنجر ترتعد وترتجف الحانا وانغاما .

لقد كان لاجداداي كروم عنب . ان قرية «برال» (١٥) ، حيث ولدت ،
هي مهد سلافة حريفه . لقد تعلمت من ابي ومن اعمامي : (دون (١٦) خوسه
انخيل) و(دون خويل) ، و(دون اوسياس) و(دون اموس) ، ان اميز النبيذ
المعتق من المصفى . لقد كلفني جهدا أن اجعلهم يميلون نحو النبيذ غسير
المكرر الذي يرشح في الزق وينصب من قلب اصيل سخى غير محصن .
كما في الاشياء جميعها كلفني جهدا ان اعود الى ما هو بدائي ، الى منبع
القوه والنشاط ، بعد ان تمرست على مجاوزة حاسة الذوق بعد ان تبلوقت

١٢ - ماء الحياة : هو نوع من العمر يشبه العرق .

١٤ - ريبيرو : هي كلمة من اللغة الجليقية تطلق على هذا النوع من النبيذ الشائع جدا
في «جليقيا» وهي مطعمة بتع في الشمال العربي من اسبانيا .

١٥ - برال : معناها عريشة او دالية ، وقد كنا نذكرنا ذلك .

١٦ - دون : ان هذه الكلمة تعني السعيد باللغة الاسبانية .

الطعم الشكلي التقليدي . ان الشيء نفسه يجري للفن : ان المرء يستيقظ على «افروديت» لـ (براكسطليس Praxiteles) ويظل يحيا مع تماثيل «اوثيانيا» البرية الهمجية .

لقد تدوقت بباريس في بيت رفيع نبيدا رفيعا . كان النبيل هو «موتون - روتشيلد» Mouton - Rothschild ذا جسد معصوم ، ذا شذى لا يمكن التعبير عن روعته ، ذا تماس كامل . البيت كان بيت (اراغون) و (ايلسا تربولي) .

لقد تلقيت هذه الزجاجات لتوتي وسأفنجها لك الآن - قال لي (اراغون) .

وروى لي الحكاية .

كانت الجيوش الالمانية تتقدم داخل الاراضي الفرنسية . وصل (لويس اراغون) وهو الشاعر الضابط واكثر جنود فرنسا ذكاء ، الى موقع متقدم . كان هو آمر فصيل من المرضيين . فأعطاهم الامر بالتقدم الى ما هو ابعد من هذا الموقع المتقدم ، الى بناء يقع على بعد ثلاثمائة متر منه . فأوقفه رائد ذلك الموقع الفرنسي . وكان هذا الرائد هو (الكنت الفونس دي روتسيلد) ، اصغر من (اراغون) وهو ذو دماء حارة مثل دماء (اراغون) .

- انك لن تستطيع ان تمر من هنا - قال له - فالنيران الالمانية ستطلق حالا .

- ان اوامري هي ان يتقدم فصيلي حتى ذلك البناء - رد (اراغون) في حزم وجزم .

- ان اوامري هي ان لا تتقدم وأن تظل هنا - اجاب الرائد .

اني متأكد ، لاني اعرف (اراغون) جيدا ، انه في ذلك النقاش خرجت منه شرارة اثر شرارة كما القنابل ، اجابة كأنها السيوف . لكن هذا النزاع لم يدم اكثر من عشر دقائق اذ سقطت ، على حين غرة ، امام عيني

(روتشيلد) المفتوحتين وأمام ناظر (اراغون) كذلك ، قنبلة من مدفع هاون الماني فوق ذاك البناء القريب منهما فأحالتة الى دخان وانقراض ورماد في هنيهة .

هكذا أنفذ الشاعر الاول لفرنسا بفضل عناد (روتشيلد) وأصراره .

منذ ذلك الحين ، في تاريخ تلك الحادثة الحولي نفسه يتلقى (اراغون) كل سنة بضعة Bonnes Bouteilles من «موتون - روتشيلد» ، من كروم «الكونت» الذي كان رائده في الحرب العالمية الاخيرة .

الآن انا في موسكو ، في دار (ايليا ايهرينبورغ) . لقد كان هذا المحارب الكبير بالادب ، العدو الخطير للنازية الى درجة انه وحده بساوي فرقة بأربعين الف رجل ، كذلك ابيقوريا صافيا . ابدا ما استطعت ان اعرف ان كان هو يعرف عن (سنندال) (١٧) أم عن (فواغراس) كان يندوق أشعمار (جورج مانريك) في لذة كثيرة بقدر ما كان لا يتدوق (بومسري - غرينو) . ان اكثر حبه حيوية وحياة كانت فرنسا بكاملها ، روح وجسد فرنسا اللذيذة الشدية .

الموضوع هو انه ، بعد الحرب ، ترددت اشاعة في موسكو بأنه ستعرض للبيع بعض زجاجات النبيذ الفرنسي . كان الجيش الاحمر اتناء زحفه نحو « برلين » قد استولى على معقل - فبو ، مليء بدعاية (غوبلز) (١٨) غير الصحية وزجاجات نبيذ كان هذا قد سلبها من خوابي فرنسا العذبة . ارسلت اوراق الدعاية وزجاجات النبيذ الى ثكنات الجيش الغالب فلم يجد الجيش الاحمر الذي بحث في الاوراق واحتفظ بالونات ما يفعل بالنسبة لهذه الزجاجات .

كانت الزجاجات المصنوعة من بلور مجيد تتباهى في عناوين خاصة

١٧ - ساندال : روائي فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٤٢) .

١٨ - غوبلز Joseph Paul : ساسي الماني (١٨٩٧ - ١٩٤٥) .

سوارين ميلادها . تنحدر جميعها من اصول رفيعة نبيلة ومن مواسم قطاف شهيرة معروفة . كانت زجاجات النبيذ Romané و Beaume و chateau - neuf - du Pape تحاذي زجاجات Pouilly التقراء وزجاجات Vourray العنبرية وزجاجات chambertin المخملية . كانت المجموعة بأسرها مدعومة بأرقام تسلسلية تبين تواريخ قطاف أعنايبها الرفيعة جدا .

لقد وزعت العقلية الاشتراكية النازعة الى المساواة في كل شيء على الحوانيت أمجاد المعاصر الفرنسيه السامية هذه بسعر النبيذ الروسي نفسه . وفرض على ذلك قيادا وحيدا ألا وهو أن كل ممتز لا يستطيع الحصول الا على عدد محدد ومختصر من هذه الزجاجات . انها لعظيمة مفاصد الاشتراكية ، بيد اننا نحن الشعراء على نمط سواء في انحاء الدنيا كلها . كل واحد من زملائي في الادب ارسل أقاربه ، جيرانه ، معارفه ، كي يشتروا له بسعر مخفض جدا زجاجات نبيذ ذات محتد سام وصنف عال . فانتبه من السوق في يوم واحد فقط .

لقد وصلت الى دار (ايهرينبورغ) كمية لن أبوح بها . بهذه المناسبة وجدتني في صحبة عدو النازية اللدود ، نتحدث معا عن النبيذ ونشرب جزءا من قبو (غوبلز) ، نخب الشعر وعلى شرف الانتصار .

القصور المستردة

لم يدعني الاشراف الى بيوتاتهم الكبيرة يوما ، البتة ، والحقيقة هي انني لم يكن لي من حب الاستطلاع الا القليل النادر ، دائما . ان الرياضة الفومية في تشيلي هي المزايدة . انك لتري اناسا كثيرين يخفون في زحمة وازدحام الى المزادات الاسبوعية التي تميز بلدي . كل مزاد له حظيره الخاصة به وكل حظيره دار لها مصيرها . حين تصل اللحظة المناسبة تبدأ بالمزايدة على احسن مزايده الحواجز الحديدية التي ما تركتني مرة اتخطاها ، لم تتركني ولا ترك العامة التي اشكل جزءا منها ، ومع هذه الحواجز الحديدية التي تحيط بالحظائر تغير اصحابها ومالكها المقاعد والكراسي ، تماثيل المسيح المدماة ، صور الفترة الحالية ، الصحنون ، الملاعق ، الملاحف التي تحتها تناسلت حيوات كسلى كثيرة . انه ليعجب الانسان التشيلي ان

بدخل ، أن يلمس ، أن يجس ، أن ينظر ، أن يساوم ويفاصل . قليلون هم الذين يشترون في آخر الامر . من بعد يهد بناء كل حظيرة فيزايد على كل قطعه من قطع البناء . فيأخذ المسترون معهم العيون ، اي النوافذ ، الامعاء ، اي السلالم والاقدام هي ارضيات البناء الخشبية ، وأخيرا فانهم يناسمون كل شيء حتى اشجار النخيل المفروسة .

في اوروبا ، على العكس من هذا فان الدور يحافظ عليها ولا تباع كما في تشيلي . انك لستطيع ان ترى ، احيانا ، صورة لكل «دوق» ولكل «دوقة» ، معلقة هناك على الجدران ، صورا رسمها رسام محظوظ لاصحاب هذه المنازل وسيداتها وهن عاريات فكانت معة لنا نحن الذين نتمعن الآن في هذه الرسوم وفي هذه الانحناءات التي بها . اننا لستطيع ان نلمح ايضا الاسرار ، الجرائم ، السعير المستعار ، هذه السجلات المحيرة التي هي الجدران ذات الزرابي والسجاجيد التي امنصت احاديث كثيرة مختصة بمقصورة المستقبل الاليكترونية .

لقد دعيت لزيارة «رومانيا» فلبيت الدعوة مسرعا وأسرعنت الى الموعد . اخذني الكتاب للاستجمام الى دارهم الريفية الجماعية وسط الغابات الجميلة . لقد كان منزل الكتاب الرومانيين من قبل قصرا لـ (كارول Carol) ذلك الطائش الذي اصبحت غرامياته فوق الطبيعية مهيزلة عالية . ان القصر الآن بأثاثه الجديد وحمّاماته الرمرية قد وضع تحت خدمة الفكر والشعر برومانيا . لقد نمث نوما مريحا جيدا في سرير جلالة الملكة ، وفي اليوم التالي ذهبنا لنزور قصورا اخرى اصبحت متاحف او منازل اسنجمام او مواضع لقضاء الاجازات . كان يصحني مسن الشعراء (جيبيليانو) و (بينويك) و (رادو باورلانو) . في الصباح الاخضر ، تحت عمق اشجار الثنوب بالحدائق الملكية القديمة ، كنا نعني في افراط ، كنا نضحك في صخب ، كنا ننتد اشعارا بكل اللغات . ان الشعراء الرومانيين باريوخهم الطويل من الآلام والواجع خلال الانظمة الملكية - الفاشية ، هم اكثر الشعراء قيمة وفي الوقت ذاته اكثرنا فرحا . لقد كان اولئك المنشدون الرواة الرومانيون جدا كما عصافير بلادهم الاحراجية ، الحازمون في قوميتهم الجازمون في ثورتهم ، المفرمون بالحياة غراما ثملا ، اكتشفا بالنسبة لي . في اماكن قليلة استطعت ان افوز بأخوة كثر في وقت قصير كما في «رومانيا» .

رويت للشعراء الرومانيين كي اسرهم وأبعث في نفوسهم فرحا كبيرا ان زيارتي السابقة لقصر نبيل كانت هي زيارتي لقصر «ليريا» بمدريد في عز الحرب الاهلية . فيما كان العدو يمضي منصرفا الى عمله المقدس بتقتيل الاسبان ، يشاركه في هذا الطليان والمغاربة والصلبان المعقوفة ، احتل رجال «الميليشيا» ذاك القصر الذي كنت اراه مرارا وتكرارا لدى عبوري بشارع «ارغواييس» في عامي ١٩٣٤ - ١٩٣٥ . كنت من حافلة الركاب النسي تملني اوجه نظره الاحترام، ليست نظرة طاعة لهؤلاء «الدوقيين» الجدد من آل (البا) الذين ما كانوا ليقدروا على اخضاعني وأنا امريكي اجنبي شبه همجي ، بل كنت مسحورا مأخوذا بهذه الجلالة التي لا يملك مثلها الا الخيول وشواهد القبور ونواويسها الصامنة البيضاء .

حين اندلعت الحرب الاهلية ظل (دوق ، البا) هذا مفيما في انجلترا ، لان لقبه في الحقيقة هو (بيرويك) . بقي هناك مع احسن لوحاته ومع اكنز كنوزه . متذكرا هذا الهرب «الدوقي» قلت لزملائي الرومانيين انه فسي الصين ، بعد التحرير ، هرب آخر سليل من سلالة (كونفوشيوس) الذي اغتنى بمعبد الفيلسوف المرحوم وبمظام قبره ، الى «فيرموزا» مزودا بلوحات وسراشف وأوان ، وعظام كتيره كذلك . لا بد انه جيد التوضع هناك نظرا لانه يقبض نمم بطاقات الدخول ليرى الناس وفات جسده المغفور له .

من اسبانيا كانت تخرج في تلكم الايام ، نحو بقية انحاء العالم اخبار رهيبة مرعبة : «قصر (دوق البا) التاريخي يسطو عليه الحمر» ، مشاهد آتمة من التخريب والتهديم . «فلننقذ هذه التحفة التاريخية» .

لفد ذهبت لأرى الفصر الذي كنت استطيع ان ادخل اليه بعد ان احتله رجال «الميليشيا» . كان الناهبون المفترضون عند الباب واقفين في ملابسهم العمالية الزرفاء وبنادقهم في ايديهم . كانت تتساقط اوائل القنابل فوق مدريد من طائرات الجيش الالماني . طلبت من رجال «الميليشيا» ان يتركوني ادخل الى القصر . دققوا في اورافي الثبوتية تدقيقا دقيقا وفحصا متمعنا . كنت على وشك ان ابدا باوائل خطاي داخل القاعات الثرية، الفنية حين منعوني من ذلك لاني ارتكبت خطأ فادحا : لم اكن قد نظفت حدائي في المسحة الموجودة عند البوابة . في الواقع ان مدامات القاعات

وأرضياتها كانت تلمع كالمرايا . نظمت الحداء ودخلت . كانت المستطبلات الفارغة في الجدران تعني لوحات غائبة . كان رجال المليشيا يعرفون ذلك كله . لقد قصوا عليّ كيف ان «الدوق» كان قد اخذ هذه اللوحات السى مصرفه في «لندن» منذ سنين كثيرة ووضعها هناك في صندوق محكم . ان الشيء المهم الوحيد في القاعة الكبيرة كان هو تذكارات صيد ؛ رؤوس ذات قرون ، لا حصر لها وخراطيم وحوش مختلفة . ما كان يلمت النظر اكثر من غيره هو دب ابيض كبير واقف على قدميه وسط الغرفة ورافع ذراعيه القطبيتين المفتوحتين وله وجه ضاحك يفتر عن اسنانه كلها ، وكان هذا الدب هو المفضل لدى رجال «المليشيا» اذ انهم ينفذونه بعرضة كل يوم ويسحجونه .

طبعا لقد اهتمت بغرف النوم حيث كان ينام الكثيرون من آل (البا) مع كوايس تسببها الاشباح «الفلامنكية» التي تأتي في الليالي لتدغدغ لهم أرجلهم . الأرجل لم تعد هناك موجودة لكن ، اجل ، اكبر مجموعة من الاحذية رأيتها في حياتي . ان هذا الدوق الاخير لم يزد شيئا في مجموعة لوحات القصر غير ان مجموعة احذيته كانت شيئا مفاجئا، شيئا لا يحصى لكثرتة . رفوف طويلة ذات زجاج كانت تصل حتى السقف ، فيها تحفظ آلاف الاحذية . كان ثمة ، كما في المكتبات ، سلالم خاصة ، ربما انها تستعمل كي تأخذ هذه الاحذية من كعابها . نظرت في حيطه وتمعن اليها . كان ثمة مئات الأزواج من الجزم البديعة لركوب الخيل ، بعضها اصفر وبعضها اسود . كذلك كان هناك من هذه الاحذية ذات الكعوب العالية، ذات الاقمصة المخملية والازرار الصدفية . كان هناك كميات هائلة من الاحذية الكبيرة ، من النعال ، من الاخفاف ، كل واحد منها وقالبه في داخله ، وهذا ما كان يجعلها تبدو وكان لها سيقانا واقداما نابثة صلبة تحت تصرفها وطوع امرها . فان فتحت الواجهة لهذه الاحذية فانها ستركض جميعها الى «لندن» وراء «الدوق» ! يمكن للمرء ان يستعرض هذه الاحذية ذات الكعوب العالية المصطفة على طول ثلاث غرف او اربع ، استعراضا بنظره ، بنظره فقط لان رجال «المليشيا» وقد تنكبوا البنادق لن يسمحوا له ولا حتى لذبابه ان تلمس هذه الاحذية . «الثقافة» كان المدّعون بقولون : «التاريخ» كان المتخرصون يزعمون . لقد كنت انا أفكر بالفتيان الفقراء المنتعنين نعلا من قتب الموقفين زحف الفاشية في قسم «سوموسير» (١٩) الرهيبة ،

المدفونة في الثلج والوحل .

كان قرب سرير «الدوق» لوحة ذات اطر ذهبية جذبتني بحروفها القوطية . عجبنا ، فكرت ، لا بد ان شجرة اسرة (البا) قد رسمت هنا وخطت ، لقد كنت على خطأ فلقد كانت قصيدة « ايف » لـ (روديارد كيبيلينغ) (٢٠) هذا الشعر المتبدل المنافق ، رائد مجلة «ريدير ديغيست» الذي مستواه الفكري لا يزيد علوا في رأيي عن مستوى احذية (الدوق البا)، مع اذن الامبراطورية البريطانية .

ان حمّام «الدوقة» سيكون منيرا للغاية ومهيجا جدا ، كنت أفكر انا ، لا بد انه سيتير بي اشياء كثيرة . بخاصة تلك العذراء المتكئة الموجودة في متحف «الباردو» (٢١) التي وضعت لها (غويا) الحلمتين الواحدة بعيدة جدا عن الاخرى ، الى درجة ان المرء يفكر كيف قاس الرسام الثوري البعد مضيئا قبة على قبة الى ان ترك لها عقدا غير مرئي من نهد الى نهد . لكن الغلط استمر فأخطأت مرة اخرى في توقعاتي . لقد اخطأت في الدب ، فضع الاحذية ذات الكعوب العالية ، في «الايويريت» الاسبانية ، في ال «ايف» واخيرا بدلا من حمّام إلهة وجدت مرحاضا مدورا ذا أبهة مزيفة بنصف برميل تحت مستوى الأرض ، بجمع مصنوعة من الهيصم ، متأنقة ، حاملات قناديل متحدلقة متكلفة متصنعة هزلية ، في النهاية ، قاعة حمّام للجارية كانه حمّام في فيلم امريكي شمالي .

كنت على وشك الانسحاب في عدم رضا كئيب حين خنفت عني اذ ان رجال «المليشيا» دعوني الى الغداء . هبطت معهم الى المطابخ . كان قد استمر هنا اكثر من اربعين او خمسين من الطهام والخدم والبستانيين الذين كانوا يعملون عند «الدوق» ، يعيشون ويطبخون لهم ولرجال «المليشيا» الذين كانوا يحرسون القصر . اعتبروا زيارتي مشرفة لهم . بعد

١٩ - سوموسيرا : هي سلسلة جبال قريبة من مدريد .

٢٠ - روديارد كيبيلينغ : روائي وشاعر انجليزي (١٨٦٥ - ١٩٣٦) .

٢١ - ال باردو : هو متحف مدريد الشهير .

بضعة همسات وبعد الذهاب والاياب وتوقيع وصول لا بد منها أخرجوا زجاجة مغبرة واذ بها من نوع *lachrima christi* لها من العمر مائة سنة، فما تركوني اشرب منها الا بضعة جرعات ، كان نبيدا لعجا حارا مركبا من عسل ونار ، وفي الوقت نفسه عنيفا شديدا ، لا يدرك باللمس . لن انسى بسهولة دموع «الدوق» التي انسكبت في الاقداح .

بعد اسبوع اغارت طائرتان المانيتان والقتا اربع قنابل محرقة فوق قصر «اليريا» . لقد شاهدت وانا على شرفة بيتي طيران العصفورين العرافين ، تلقا ملونا جعلني ادرك لتوتي اني اشاهد لحظات القصر الاخيرة .

لقد مررت ذاك المساء نفسه بالاطلال الدخانية — اقول هذا للكتاب الرومانيين منهيًا حكايتي — .

هناك علمت بنسيء مؤثر جدا — أضعت من بعد — اذ ان رجال «المليشيا» النبلاء انصرفوا تحت النار التي كانت تنزل من السماء ، وبين الانفجارات التي كانت تهز الارض ووسط الحرائق التي كانت تزداد وتنمو، لانقاذ ما يمكن انقاذه فما استطاعوا ان ينقلوا الا الدب الابيض، وكادوا ان يهلكوا في محاولتهم هذه اذ ان الدعائم كانت تنهدّ وكل شيء كان يشتعل، وكان هذا الحيوان المحنط الهائل يصر ويعاند كي لا يمر من بين النوافذ او الابواب . لقد رأيت من جديد ولاخر مرة بذراعيه المنفتحتين وبلونه الابيض ميتا من الضحك فوق عشب حديقة القصر .

عهد عابري الفضاء

موسكو من جديد . في صبيحة يوم ٧ من تشرين الثاني حضرت استعراض الشعب لرياضيه ، للفتوة السوفيتية المضيفة . لقد كان الشبان يسرون ثابتين أكيدين فوق الساحة الحمراء . كانت تتأملهم عينان حادتان لرجل مات منذ سنوات طويلة ، انه لمؤسس هذا الامن ، لمؤسس هذا الفرح وهذه القوة : (فلاديمير ايليش اوليانوف) (٢٢) المعروف بشكل خالد بلينين .

٢٢ — فلاديمير ايليش اوليانوف : هو (لينين) بطل الثورة البروليتارية في الاتحاد

السوفيتي (١٨٧٠ — ١٩٢٤) .

لقد عرّضت هذه المرة اسلحة قليلة ، ولكن لأول مرة شوهدت الصواريخ عابرة القارات ، الهائلة . تقريبا كنت استطيع ان المس باليد تلك السجائر العظيمة النقية ذات المظهر الدمى ، القادرة على حمل التدمير النووي الى أبعد نقطة في الكرة الارضية .

لقد منحوا في ذلك اليوم نفسه اوسمة للروسيين اللذين عادا من السماء . لقد كنت انا اشعر اني قريب جدا من اجنحتهما . ان مهنة الشاعر هي ، في قسمها الاكبر ، الطيران كما العاصف . لقد جاءني الرغبة عبر شوارع موسكو ، عند ضفاف البحر الاسود ، بين الفجاج الجبلية بالقوقاس السوفييتي ، في ان انظم ديوانا عن عاصف تشيلي . لقد كان شاعر «نيموكو» بشكل واع منصرفا الى «التعصفر» ، الى الكتابة عن ارضه النائية الفضية ، عن البلبل والمندليب ، عن القبرة والسدوري ، عن «الكندور» والكناري ، بينما كان عصفوران بشريان ، عابرا فضاء سوفييتيان ينطلقان ، يطلقان في الفضاء ويدهشان العالم اجمع . لقد حبسنا جميعا انفسنا ونحن نشعر فوق رؤوسنا بهما ، وننظر بعيوننا الى الطيران الكوني الشائني .

ذلك اليوم كانوا يمنحونهما اوسمة . وكان بالقرب منهما ، وجميعهم ارضيون بشكل كامل ، عائلاتهم ، اقاربهما ، اصلهما ، جنسهما ، جدرهما الشعبي . كان للرجال الشيب شوارب فلاحين كبيرة غزيرة وكانت النساء المعجزة يفتين رؤوسهن بمناديل الارياف الاصيلية . لقد كان رائدا الفضاء هذان مثلنا سواء بسواء ، فنحن جميعا ارواح من الحقل ، من الضيعة ، من المصنع ، من المكتب . لقد استقبلهما في الساحة الحمراء ، باسم الامة السوفييتية (نيكيتا خروتشوف) (٢٢) . من بعد رأبناهما في قاعة القديس (جورجوس) فقدموني الى (غورمان تيتوف) (٢٤) رائد الفضاء رقم اثنين ، وهو شاب لطيف له عينان مضيئتان . فسألته ، فجأة:

— قل لي ، ايها الرائد ، حين كنت تبجر عبر الكون وتنظر نحو كوكبنا،

٢٢ — نيكيتا خروتشوف Nikita Jruschov : هو الزعيم السياسي السوفييتي
١٨٩١ - ١٩٧٣ .

٢٤ — غورمان تيتوف : رائد الفضاء السوفييتي ولد عام ١٩٣٥ .

افكنت تلمح تشيلي ؟ كان ذلك كما لو اني قلت له : «انك لتدرك ان ما هو مهم في رحلتك كان هو رؤية «تشيلي» من عل» .

لم يتسهم كما كنت اتوقع بل فكر بضعة نوان ثم قال :

- اني لاذكر اني رايت سلسلة جبال صفراء بأمريكا الجنوبية وكنت الاحظ انها عالية جدا ، ربما انها كانت تشيلي .

طبعا كانت تشيلي ، ايها الرفيق . .

لقد تركت موسكو في الوقت الذي اكتملت فيه اربعون سنة على نشوء الثورة الاشتراكية ، واخذت القطار المنجه الى «فينلانديا» . حين كنت اعبى المدينة باتجاه المحطة كانت تصعد صواريخ نارية كبيرة مضيئة ، فوسفورية ، زرقاء ، حمراء ، بنفسجية ، خضراء ، صفراء ، برتقالية ، وتحلق عاليا جدا كأنها شحنات فرح تفرغ ، علامات صداقة تنطلق نحو الشعوب قاطبة من تلك الليلة المجيدة .

اشتريت في «فينلانديا» ناب كركدن بحري ومضيئا في سفرنا . اخذنا الباخرة التي ستعبدنا الى امريكا . كذلك امريكا ووطني يمضيان مع الحبة ومع الزمن . عندما مررنا ب «فينزويلا» في طريقنا الى «البارائيسو» ارسل الطاغية (بيريث خيمينيث) (٢٥) ، الطفل المدلل لدائرة الدولة بالولايات المتحدة ، نفل (تروجيلو) (٢٦) و (سوموئا) (٢٧) بضعة جنود كما لو كانوا يركبون الى الحرب . في مهمة منعنا من النزول الى «فينزويلا» ، ليس منع الركاب جميعهم بل منع رفيقة حياتي ومنعي من النزول من الباخرة . لكن ، ما ان وصلنا الى «البارائيسو» حتى كانت الحرية قد طردت الطاغية الفينزويلي ، فهورل المرزبان العظيم نحو «ميامي»

٢٥ - بيريث خيمينيث Marcos : جنرال فينزويلي ولد عام ١٩١٤ .

٢٦ - تروجيلو Rafael Léonidas : جنرال دومينيكاني (١٨٩١ - ١٩٦١) .

٢٧ - سوموئا Anastasio «Tachi» : جنرال بيكرانغوي (١٨٩٦ - ١٩٥٦) .

مثل ارنب مرويص . ان العالم يسير بسرعة منذ طيران «سبوتنيك» . من
كان يقول ان اول شخص سيقرع بابغرفتي في الباخرة بميناء «بالبارائيسو»
كي يرحب بمجيئنا ، هو الروائي (سيمونوف) الذي كنت تركته يسبح في
البحر الاسود ؟.

الفصل الحادي عشر

الشعر حرفة

قدرة الشعر

لقد كان ميزة من ميزات فترتنا - بين الحروب والثورات والحركات الاجتماعية الكبرى - انماء خصوبة الشعر حتى حدود ليست بمشبهة . لقد كان على الانسان الاجتماعي ان يواجه الشعر بشكل جرح او مجروح، سواء اكان في وحدته منعزلا وسواء اكان مشاركا في جماهير الاجتماعات العامة المحتشدة .

ابدا ما فكرت من قبل ، حين كتبت اوائل كتبي المفعمة بالحسزن والوحدة ، اني مع مضي السنين سأجدني أنشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة . لقد جبت وجلت في انحاء تشيلي كلها أنثر شعري بين أناس شعبي .

سأروي الآن ما جرى لي في «الغوطة المركزية» التي هي أكبر سوق وأكثرها شعبية وشهرة في تشيلي . مع شروق الشمس يصل اليهسا الشاحنات والعربات والسيارات التي تجلب البقول والفواكه والاطعمة على اختلاف أنواعها واصنافها من المزارع التي تحيط بالعاصمة اللاعقة الملتهمة الشرهة . يتكاثر الحمالة - وهم حتمد كبير ، حفاة عراة ، ذوو أجور قليلة زهيدة - في المقاهي الصغيرة والمخابيء الليلية المجاورة لحياء «الغوطة» .

ذات يوم جاء بضعة رجال في سيارة يبحثون عني فدخلت الى السيارة دون ان أعرف الى اين ولماذا انا امضي معهم في هذه السيارة . كنت احمل معي في جيبي نسخة من ديواني «اسبانيا في القلب» . ثم نرحوا لي في السيارة اني مدعو لكي محاضرة في نقابة حمالي «الغوطة» .

حين دخلت الى تلك القاعة غير المرتبة شعرت ببرد «ليل» (خوسيه اسونثيون سيلفا) (١) ، ليس بسبب فصل الشتاء المتقدم فسي زمهريره وأمطاره فحسب بل كذلك بسبب ذلك الجو في تلك القاعة ، الذي جعلني مندهشا مرتعدا . كان يجلس على صناديق ختبية او مقاعد ليست بمقاعد، اكثر من خمسين رجلا ، بعضهم يضع على خاصرته كيسا مربوطا على شكل مريول وبعضهم يغطي جسده بقميص مرقع عتيق وبعضهم الآخر يتحدى برد شهر تموز (٢) ببدنه العاري . انا جلست خلف طاولة صغيرة تفصلني عن ذلك الجمهور الغريب العجيب . كانوا جميعا ينظرون اليّ بعيون فحمية ساكنة ، عيون شعب بلدي .

تذكرت (لافريت) العجوز . كان (لافريت) ينمت هؤلاء المتفرجين الثابتين الجنان الذين لا يحركون اية عضلة من عضلات وجوههم ، وينظرون نظرات ثابتة جريئة ، بنمت كان يجعلني اضحك كثيرا . ذات مرة قال لي حينما كنا في سهول ملح البارود : «انظر الى هذين المسلمين المستندين الى عامود

١ - خوسيه اسونثيون سيلفا : شاعر كولومبي (١٨٦٥ - ١٨٩٦) .

٢ - تموز : هو شهر بارد من اشهر الشتاء في امريكا الجنوبية، حيث الفصول هناك معايرة لفصولنا المعهودة .

هناك في آخر القاعة ، اللدين ينظران الينا ، لا ينقصهما الا البرنس (٢) كي
يبدوا وكأنهما من مؤمني الصحراء الرباطي الجاش والجنان» .

ما العمل مع هذا الجمهور ؟ عم يمكن لي ان أحدثهم ؟ ما هي اشياء
حياتي التي في مكنتها ان تثير اهتمامهم ؟ دون ان استطيع ان أقرر شيئا ،
وقد أخفيت رغباتي بالخروج من هناك مهرولا ، اخذت الكتاب الذي كنت
احمله معي وقلت لهم :

لقد كنت في اسبانيا منذ زمن قريب . هناك كان ثمة صراع كبير
وظلقات رصاص كثيرة ، اسمعوا ما قلته حول ذلك الموضوع .

يجب عليّ هنا ان أشرح ان كتابي «اسبانيا في القلب» لم يبد لي قط
على انه كتاب سهل الفهم . له طموح الى الوضوح لكنه مغموس في زحمة
تلك الآلام الكبيرة المتعددة .

ما هو أكيد اني فكرت ان اقرا بضعة ابيات ثم اودعهم . لكن الاشياء لم
تجر هكذا . عندما شرعت اقرا قصيدة اثر قصيدة ، مدفوعا بإحساسي ان
هناك سكونا عميقا يسود وان كلماتي تتساقط فيه كما لو كان ماء عميقا وان
عيونا تلوها حواجب داكنة كثيفة الشّعر تتابع في اهتمام بالغ شعري ،
أدرت ان كتابي قد بلغ غايته وحقق غرضه فمضيت اقرا وأقرأ ، متأثرا
انا نفسي بنغم شعري ، مهتزا بالعلاقة المغناطيسية بين أشعاري وبين تلك
الأرواح المهجورة .

لقد استغرقت قراءتي اكثر من ساعة . حين كنت على وشك الانسحاب
نهض واحد من أولئك الرجال ممن يحملون الكيس المعقود حول الخصر
وقال :

— أريد ان أقدم لك الشكر باسم الجميع — قال ذلك في صوت عال —

٢ - البرنس : هكذا في الاصل Albornoz ١١١ عن العربية

وكذلك أريد ان اقول لك اننا لم ننفعل من قبل كما انفعلنا ونحن نصفي الى
أشعارك .

حين انتهى من كلمته هذه انفجر في نحيب وطفق آخرون عديسون
يكون . خرجت الى الشارع بين نظرات بليلة ومصافحات بأيد خشنة
غليظة .

هل يستطيع شاعر أن يكون هو نفسه بعد ان يمر بهذه التجارب من
الورد والنار ؟

عندما اريد ان اتذكر (تينا مودوتي) فاني ابدل جهدا
كبيرا كما لو اني التقط قبضة ضباب . كانت هشة ذكراها ، غير مرئية .
أعرفتها أم لم أعرفها ؟ .

كانت لما تزل جميلة : وجه بيضوي شاحب متأطر بجناحين سوداوين
من شعر ملموم ، وعينان مخمليتان وأسعتان تنظران من خلال السنين . لقد
طبع (ديغو ريبيرا) صورتها ، قوامها ووجهها ، على جدارية من لوحاته ،
مكحلة بتويجات نباتية ومزارق من ذرة .

لقد كانت هذه المرأة مناضلة ثورية ايطالية ، فنانة كبيرة في فن
التصوير ، وصلت الى الاتحاد السوفييتي منذ زمن بغرض تصوير الجماهير
والنصب التذكارية . لكنها ، هناك وقد احيطت بأنغام الخلق الاشتراكي
المبهرة ، رمت بألة التصوير الى نهر «موسكوفنا» وأقسمت ان تكرس حياتها
كلها لتأدية أكثر مهام الحزب الشيوعي تواضعا . حين كانت تؤدي هذه
المهام او قسما منها عرفت ان في المكسيك وشعرت انها تموت تلك الليلة .

وقع هذا عام ١٩٤١ . كان زوجها هو (فيتوريو فيدالي) الرائد المشهور
باسم (كارلوس) في الطابور الخامس . ماتت (تينا مودوتي) بسكتة قلبية
في التاكسي الذي كان يقلها الى بيتها . هي كانت تعرف ان قلبها ما كان
يسير سيرا حسنا لكنها لم تبح بهذا الامر الى احد حتى لا يظنوا عليها
بالعمل الثوري الذي كانت تؤديه ، فقد كانت مستعدة لتنفيذ ما لا ينفذه
احد غيرها : مسح المكاتب وتنظيفها ، الذهاب مشبا على الأقدام الى أبعد

المناطق وأكثرها شعبية ، قضاء الليالي في سهر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، الرسائل والتقارير او وهي تترجم مقالات . وفي الحرب الاهلية الاسبانية كانت ممرضة لجرحى مناضلي الجمهورية الاسبانية .

لقد وقعت لها حادثة مأساوية في حياتها حين كانت رقيقة الزعيم الكبير الشاب (خوليو انطونيو مييا) الذي كان لاجئا حينذاك في المكسيك . لقد ارسل الطاغية (جيراردو ماتشادو) (٤) من «لا هافانا» عصابة من حاملي المسدسات المجرمين كي يقتلوا هذا الزعيم الثوري . كانا يخرجان ذات مساء من السينما ، «تيننا» واضعة ذراعها بذراع «مييا» ، حين اطلقت عليهما عبارات نارية ، فسقط هو صريعا وتدحرجت هي معه على الارض ملطخة بدماء صاحبها فيما كان المغتالون المجرمون يهربون وهم محميون بشكل جيد . والطامة الكبرى هي ان رجال الامن هؤلاء الذين حموا المجرمين حاولوا اتهام (تيننا مودوتي) زاعمين انها هي القاتلة .

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على ذلك الحادث استنفرت في صمت قوي (تيننا مودوتي) . حاولت السلطات المكسيكية ان تكرر تلك الفضيحة التي ارتكبتها حين ارادت هذه السلطات اتهام (نيننا) بموت (مييا) ، مدعية ان موتها يتعلق بفضيحة . اثناء ذلك (كارلوس) وأنا كنا نكشف عن تلك الجثة الصغيرة . ان رؤية معاناة رجل قوي جدا وشجاع جدا ليس بالمنظر اللطيف . لقد كان ذلك الاسد يدمى حين يتلقى في جراحه سم الفضيحة القارض التي كان يراد بها تلطيخ (تيننا مودوتي) مرة اخرى وهي ميتة . كان الرائد (كارلوس) يزمجر ويزار بعينيه المحمرتين ، (تيننا) اصبحت من شمع في تابوتها الصغير ، تابوت لاجئة وأنا كنت ساكتا غير قادر على عمل شيء تجاه ذلك الكرب الانساني المجتمع في تلك الغرفة .

كان الصحفيون يملأون صفحات كاملة من سلسلة قصص قدرة . كانوا يسمونها «امراة موسكو الفامضة» . بعضهم كان يضيف «ماتت لانها كانت تعرف اكثر مما يجب» . متأثرا بالام (كارلوس) الفاضب ، اتخذت قرارا .

٤ - خيراردو ماتشادو : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١ - ١٩٣٩) .

كتبت قصيدة متحدية ، ضد أولئك الذين كانوا يهينون ميئتنا النبيلة .
ارسلتها الى الصحف كافة دون أدنى امل بأن ينشروها . ها لقد حدثت
الاعجوبة . فلقد ظهرت في اليوم التالي على الصفحات الاولى بدلا من
الفضائح المزورة المزيفة ، قصيدتي الساخطة الغاضبة .

كانت القصيدة معنونة على الشكل التالي « (تينا مودوتي) قد ماتت »
قرانها ذلك الصباح ، في مقبرة «المكسيك» (٥) حين اودعنا التراب جسدها
حيث ترقد هناك الى الابد تحت حجر غرائتي مكسيكي . فوق شاهد هذا
الحجر نقشت قصيدتي .

ابدا لم تعد تلك الصحافة تكتب سطرا واحدا ضد (تينا مودوتي) .

كان ذلك في «لوتا» منذ سنوات عديدة . لقد خف الى اجتماع سياسي
اكثر من عشرة آلاف عامل من عمال المناجم . ان منطقة الفحم هي منطقة
متزعزعة مهتزة لما فيها من فقر دام اكثر من قرن . ف جاء منها الى ساحة
«لوتا» عمال كثيرون غصت بهم الساحة . تكلم الخطباء السياسيون كثيرا .
كانت تطفو في الهواء الحار لمنتصف النهار رائحة كرائحة الفحم وملح
البحر . قريبا من هناك كان المحيط ، تمتد تحت مياهه على مدى اكثر من
عشرة كيلومترات الانفاق المعتمة التي كان أولئك الرجال يستخرجون
منها الفحم .

ها هم الآن يصفون، في عز الشمس . المنصة عالية جدا ومنها الحظ
ذاك البحر من خلال قبعات العمال السوداء وخوذهم . كان دوري فسي
الكلام هو الاخير . حين أعلن عن اسمي وعن عنوان قصيدتي «نشيد حب
جديد الى «ستالينغراد» » ، حدث شيء خارق ، مهرجان لن استطيع ان
انساه ابدا .

ان الجماهير الغفيرة ، حين سمعت اسمي وعنوان قصيدتي انكشفت
في هدوء . انكشفت لانه ، بعد تلك اللهجة الحاسمة والجميل السياسية

٥ - المكسيك : هو اسم عاصمة المكسيك كذلك .

الحازمة سيتكلم شعري : الشعر . انا رايت من على تلك المنصة العاليسة
حركة القبعات الهائلة : عشرة آلاف يد كانت تنزل في ايقاع واحد ، في
تموج لا يوصف ، في حركة بحر ساكن ، في زبد اسود ذي وقار صامت
واحترام خاشع .

اذالك قصيدتي نمت واكتسبت نبرتها النضالية التحريرية المطلقة .

هذا الشيء الآخر جرى لي في اعوامي الفتية . حينذاك كنت شاعرا
طلابيا ارتدي بردة غامقة اللون ، شاعرا لا يتغذى بما فيه الكفاية كشعراء
تلك الفترة جميعهم . كنت قد انتهيت من نشر ديواني «شقيقات» ، وكنت
اخذ اقل من ريشة سوداء .

دخلت مع اصدقائي الى ملهى ذي مائة سيئة (٦) . كان زمن «التانغو»
وعهد العريضة الدنيئة . فجأة توقف الرقص وتهشم «التانغو» كما كأس
انفجرت على حائط .

كان في مركز الحف حيث كان الناس يرقصون ، وغدان شهيران
يتشامان ويتهامزان ويتلامزان . حين يتقدم احدهم كي يصفع الآخر ،
يتفهمر الثاني وترتد مع تفهمره جمهرة محبسي الموسيقى الذين كانوا
يتمرسون خلف الطاومات . كان هذا كله يبدو وكأنه رقصة بدائية وحشية
في ساحة وسط القاعة البكر .

دون ان افكر مليا اقتربت منهما وانتهرتما وانا ما انا عليه من ضعف
جسدي وهزال عضلي :

ايها العريضان الرعديدان ، ايها الحقيران النافهان ، ايها الخسيسان
البخسان ، ايها الفرخان المشافبان ، اتركوا الناس وشأنهم في راحة وهدوء
فهم ما جاؤوا الى هنا لمشاهدة هذه المهزلة بل للرقص والمتعة .

٦ - مائة سيئة : تعبير اسباني بمعنى ، سيء او بمعنى ، سمعة سيئة .

نظر احدهم الى الآخر مندهشين متفاجئين كما لو لم يكن اكيدا ما كانا اليه ينصتان . توجه أقصرهما الذي كان ، قبل ان يقدوا وغدا ، ملاكما معروفا ، نحوي يريد ان يقضي عليّ ويفتالني ، وكان على وشك ان يزيلني من الوجود لو لم تظهر على حين غرة قبضة اصابت هدفها فدحرجت «الفوربلا» على الارض ، لقد كانت قبضة خصمه الذي قرر اخيرا ضربه والخلاص منه .

حين اخرجوا البطل المهزوم كما لو كان كيسا ، بدأت الايدي من الطاولات المنتشرة هناك تمتد لنا الزجاجات والراقصات اخذن يتسمن لنا متحمسات فرحات ، والعملاق الذي جاءت منه ضربة اراد المشاركة. ظانا انه يستحق التكريم بعد ان برأ نفسه بضرب خصمه ، لكنني شتمته وردعته بشكل صارم :

— انسحب من هنا فلأنت من العينة السافلة ذاتها .

انتهت لحظاتي من المجد بعد قليل ، اذ اننا لمحننا حين كنا نمر عبر مخرج ضيق نوعا من جبل له حزام من نمر يسد باب المخرج . لقد كان الملاكسم الآخر من طغمة الاوباش الاوغاد ، كان الغالب الذي ضربته بكلماتي وطردته يقطع علينا الممر في حراسة انتقامية .

كنت أنتظرك — قال لي .

بضربة خفيفة نحاني نحو باب هناك فيما كان اصداقائي يعدون هارين على غير هدى . بقيت مهجورا مخذولا وحيدا امام جلادي . نظرت نظرة سريعة علني اعثر على ما يمكن ان التقطه فادافع عن نفسي به فلم يكن هناك من شيء . قطع المرمر الثقيلة التي تغطي الطاولات ، الكراسي الحديدية مستحيلة الرفع فلا اصيص زهر ولا زجاجة ولا عكاز بائسة منسية .

فلنتكلم — قال الرجل .

ادركت ان اي جهد ابدله في الحوار سيكون عديم الجدوى ، وفكرت في ان هذا الوحش يريد روزي قبل التهامي كما النمر مع الأيل الوليد ، وفهمت

ان دفاعي الوحيد هو الا انهم عن الخوف الذي كنت أشعر به . اعدت اليه
الضربة التي اعطانيها لكنني لم استطع زحزحته ولا ميليمترا واحدا فقد كان
جدارا صخريا صلدا .

فجأة حتى رأسه نحو الخلف وغيرت عيناه : عينا سبع ، من تعابيرهما .
— هل حضرتك الشاعر (بابلو نيرودا) ؟

— أجل انا (بابلو نيرودا) .

أخفض رأسه واستمر قائلا :

— يا لي من حقير ! انا امام الشاعر الذي اعجب به جدا وهو من قال
لي في وجهي اني حقير دنيء .

ومضى يتأسف ورأسه بين يديه كليهما :

— اني قواد سافل والآخر الذي ضربته هو مهرب كوكائين ، نحن أسفل
السفلاء لكن ثمة في حياتي شيء نقي طاهر الا وهو خطيبيتي ، حبيبي
لخطيبيتي . انظر اليها يا سيد (بابليتو) (٧) ، انظر الى صورتها ، سأقول لها
ان صورتها لمستها يدك وهذا سيسرها ويهيجها .

ناولني صورة فتاة مبتسمة .

— هي تحبني بسببك ، يا سيد (بابليتو) ، بسبب اشعارك التسيبي
حفظناها عن ظهر قلب .

ثم انطلق ينشد :

— « في أحشائك ، جانبا جنين حزين مثلي ينظر اليّ »

٧ - بابليتو : هو تصغير تحبب لمن يسمى (بابلو) .

في هذه اللحظة فتح الباب بدفعة واحدة واذا بأصدقائي يعودون وقد جاؤوا بمعدات وأسلحة . رأيت الرؤوس تتزاحم عند الباب مندهشة ذاهلة .

خرجت في بضع . ظل الرجل هناك وحيدا ، دون ان يغير من موضعه وحالته ، واستمر يقول منشدا :

« فدى لهذه الحياة التي تضطرم في شرايينه سأفني يدي » .

لقد هزمه الشعر .

لقد هوت طائرة الطيار (بويس) التي ارسلت في مهمة تجسس فوق الاراضي السوفييتية ، من علو لا يصدق . صاروخان رائعان ادركاها فأسقطاها من غيومها . اسرع الصحفيون الى المكان الجبلي الذي انطلقت منه القديفتان .

كان المدفعيان شابين صغيرين ، منعزلين في ذلك العالم الهائل المليء بشجر التثوب والثلوج والانهار . كانا ياكلان تفاحا او يلعبان الشطرنج او يعزفان على « الاكورديون » او يقرآن كتباً ويحرسان . هما كانا قد صوبا نحو السماء دفاعا عن السماء الفسيحة ، سماء الوطن الروسي . فانها الصحفيون عليهما بالاسئلة العديدة .

— ماذا تاكلان ؟ من هم آباؤكما ؟ هل يعجبكما الرقص ؟ ما هي الكتب التي تقرأتها ؟

اجاب واحد من هذين الشابين المدفعيين على السؤال الاخير بأنهما كانا يقرآن أشعارا وانه من بين شعرائهما المفضلين الشاعر الكلاسيكي (بوشكين) والشاعر التشيلي (نيرودا) .

أحسستُ بفرح غامر حين عرفت ذلك . لقد كان ذلك الصاروخ الذي صعد وحلق وأسقط ، من عل الى اسفل سافلين ، يحمل ذرة من شعري المتوقد .

(الشعر)

... كم من عمل فني ... لم يعد العالم ليسع هذه الاعمال
لكونها ... لا بد من تعليقها خارج الغرف ... كم من كتاب ... كم من
كتيب ... من يستطيع ان يقرأها جميعها؟ ... لو انها صالحة للأكل ...
لو اننا نقدر في موجة شهية عارمة ان نجعلها سلطة فنفرمها وتبليها ... لم نعد
نستطيع ان نطيق منها اكثر ... لقد ضفنا ذرعا بها ... لقد اختنق العالم
في دوامة الكتب ... (ريفردي) (٨) قال لي : « لقد اعلمت
دائرة البريد بان لا نرسل لي ما يصلها باسمي من كتب . لم اعد أستطيع
فضها . لم يعد عندي مكان لها . لقد تسلفت الجدران فخشيت من كارثة
ان تنهال فوف رأسي » ... انكم جميعا تعرفون (اليوت) (٩) ...
قبل ان يكون رساما ، قبل ان يصبح مخرجا مسرحيا ، قبل ان يفدو كاتب
مقالات في النقد . كان يقرأ أشعاري ... فكنت أشعر بالفبطة ... لا احد
كان يفهم شعري كما يفهمه (اليوت) ... الى أن بدأ ذات يوم ينشدنسي
أشعاره وأنا ، بشكل أناني انطلقت مستنكرا : «لا تقرا لي أشعارك ، لا تقرا
لي أشعارك» ... نم حبست نفسي في الحمائم ، لكن (اليوت) ، من خلف
الباب ، طفق ينشد أشعاره على مسمع مني ... فتعرت بحزن شديد ...
الشاعر الاسكوتلاندي (فريزر) الذي كان حاضرا آنذاك نهمني : «لماذا تعامل
(اليوت) هذه المعاملة السيئة» ؟ ... فأجبتة : اني لا أريد ان أخسر احسن
قرائي فلقد ربينه حتى عرف كل شيء عن شعري حتى تفضناته وتجاعيدهم .
ان له لنبوفا كثيرا ... يستطيع ان يرسم اللوحات ... يقدر ان يكتب
المقالات ... بيد اني اريد ان أحافظ على هذا القارئ ، ان أحفظ به ، ان
أرويه كما أروي نبتة نادرة . انك لتفهمني وتتفهمني يا (فريزر) ... الآن
الحقيقة ، ان استمر هذا الوضع كما هو عليه ، هي ان الشعراء سينشرون

٨ - ريفردي : شاعر فرنسي ولد عام ١٨٨٩ .

٩ - اليوت : شاعر وناقد امريكي شمالي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) .

شعرهم كي يقرأه الشعراء الآخرون ، ليس الا كل واحد منا سيخرج معدنه ، قصيدته ويدسها في جيب الآخر او يضعها في طبقه (كيببدو) ترك قصيدة من قصائده تحت منشفة الملك فوق مائدته . . . هذا، نعم ، كان يستحق الهم والمغامرة . . . فاما ان نضع الشعر في ساحة تحت أوج الشمس . . . او ان الكتب تستهلك وتتفتت وتلف في اصابع الجماهير الانسانية . . . لكن هذا النشر من شاعر الى شاعر لا يفريني ، لا يستهويني، لا يشوقني بل يحدوني الى ان انتبد مكانا قصيا وسط الطبيعة ، قرب الصخر والموج ، نائيا بنفسي عن دور النشر وعن الورق المطبوع . . . لقد فقد الشعر صلته بالقارئ البعيد . . . فعليه ان يستردها . . . عليه ان يجوس الدياتير حتى يلتقي بقلب الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين قد يحتاجون في ساعة شفقية او في ليلة ذات نجوم الى بيت شعر واحد على الاقل . . . ان هذه الزيارة المباشرة تعادل كل ما مشيناه ، كل ما قرأناه ، كل ما تعلمناه . . . لا بد لنا من أن نضيع بين من لا نعرفهم كي يقطفوا عما قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الاوراق المتساقطة منذ الف سنة وحتى الآن في الغابة ذاتها . . . فيتناولوا في حنان هذا الشيء الذي صنعناه نحن . . . حينذاك سنكون شعراء حقيقيين . . . وفي هذا الشيء الذي نصنعه ليقطفه الآخرون سيحيا الشعر . . .

انا احيا مع اللغة

انا ولدت عام ١٩٠٤ . في عام ١٩٢١ نشرت لي قصيدة في كتيب . في عام ١٩٢٣ طبع لي اول ديوان وهو «شفقيات» . وهانذا اكتب هذه المذكرات في عام ١٩٧٣ . لقد مضت خمسون سنة على تلك اللحظة المثيرة التي يشعر فيها الشاعر بأوائل ابتهالات المخلوق الوليد المطبوع ، حيا ، مهتزا ، راغبا في ان يلفت الانظار اليه كاي وليد آخر .

ليس في مكنة المرء ان يعيش طيلة حياته كلها بلغة واحدة وهو يمطها طولانيا ، يسبرها عمقا ، ينبس شعرها ، يقلب امعاءها ، دون أن تتشكل هذه المعيشة وهذه الالفة جزءاً من تركيبها العضوي. وهذا ما حصل لي مع اللغة الاسبانية . ان للغة الكلام أبعادا أخرى بينما لغة الكتابة تتخذ طولا

غير متوقع . ان استعمال اللغة كرداء ، او كبترة في الجسم ، باكامه ، برقهه ، بترشحاته ، بلطخاته من الدم او من العرق يكشف عن الكاتب . هذا هو الاسلوب . انا وجدت فترتي التي عشت فيها ، مشوشة مضطربة بثورات الثقافة الفرنسية . لقد جذبني هذه الثورات دوما لكنها ما كانت لتتلاءم مع جسدي كرداء له . لقد تكفل (هويدوبرو) وهو شاعر تشيلي ، بالنماذج الفرنسية الرائجة التي طوعها لتتلاءم وطريقته في الوجود والتعبير ، بشكل يستحق التقدير والاعجاب . احيانا بدا لي وكأنه يتجاوز نماذجه ويتفوق عليها . شيء مثل هذا جرى ، في درجة أعلى ، ل (روبين داريو) حين اقتحم الشعر «الهيساني» (١٠) . بيد ان (روبين داريو) كان فيلا عظيما صحابا هتم زجاج نوافذ فترة كاملة من فترات اللغة الاسبانية كي يتسرب الى محيطها هواء العالم كله . فدخل وتسرب .

ان اللغة تفصل ، احيانا ، بين الاسبان والامريكان وبخاصة عقيدة اللغة ، فهي تنقسم الى قسمين . ان جمال (غونفورا) الجماد لا يناسب ادمادنا وآمادنا ، وليس ثمة من شعر اسباني وان كان آخر ما كتب الا وله هذه العادة السيئة بالاقنباس عن الثروة «الفونفولية» . ان شريحتنا الامريكية لهي من حجر مغبر ، من حمم مطحونة ، من صلصال ودم . اننا لا نعرف ان نؤمن الزجاج بقرعه على الحجر ، فنحن نروز الشيء بقرعه في الفراغ حتى يرن فنعرف قيمته . ان قطرة واحدة من نبيد (مارتين فييرو) او من شهيد (غابرييلا ميسترال) تجعل المثلثين يقفون في مكانهم مندهتين كأنهم ينظرون الى اصص زهور نادرة .

لقد اصبحت اللغة الاسبانية مذهب بعد (ثيرفانتيس) (١١) . اناقة وتهديا ، فقدت القوة الهمجية التي جلبتها من (غونثالو

١٠ - الهساني : فترج هذه الكلمة للدلالة على ما هو مكتوب باللغة الاسبانية مقابل «اساني» (Espouno) الذي يقتصر على ما هو من اسبانيا دون ان يشمل امريكا اللاتينية .

١١ - ثيرفانتيس : الكاتب الاسباني المعروف مؤلف دون كيشوته

١٥٧١ - ١٦٦٦ .

دي بريئو (١٢) ومسن (ارثيبريسته) (١٣) ، فقدت نزعة الاخصاب التي كانت ما تزال تتوهج في (كبييدو) . لقد جرى الشيء نفسه في انجلترا ، في فرنسا ، في ايطاليا . ان افراط (تشوسر) (١٤) و(رابيليس) (١٥) قد خصصي وشظف . ان «البيتراركية» (١٦) التثمينية جعلت الزمرد والماس والجوهر تلمع لكن نبع العظمة بدأ ينضب .

لقد كان لهذا الينبوع السالف علاقة بالانسان في كليته ، مداه ، غزارة ، فيضه .

على الاقل هذه كانت مشكلتي مع اني لم اطرحها على نفسي بهلده الحدود . ان كان لشعري من معنى ، فهو هذا النزوع الفضائي اللامحدود الذي لا يقنع داخل غرفة مسدودة . لقد كان عليّ ان اتجاوز حدودي غير اني ما صممت حدودا داخل اطار بفاة بعيدة . لقد كان عليّ ان اكون انا إياي ، مجتهدا ان امتد (١٧) مثل اراضي موطني ، مسقط رأسي . لقد ساعدني في هذا السبيل شاعر آخر من القارة نفسها الا وهو (والت وايتمان) (١٨) ، زميلي ، من «مانهاتان» .

يجب على النقاد ان يتعذبوا

ان «اغاني المالدورور» تشكل في العمق قصة متسلسلة كبيرة . لكن

١٢ - غونزالو دي بريئو : شاعر اسباني (١١٨٥ - ١٢٦٤) .

١٣ - ارثيبريسته : شاعر اسباني مات عام ١٣٥٠ .

١٤ - تشوسر : شاعر انجليزي (١٣٤٠ - ١٤٠٠) .

١٥ - رابيليس : كاتب فرنسي (١٤٩٤ - ١٥٥٣) .

١٦ - البيتراركية : نسبة الى الشاعر (بتراارك ، فرانثيسكو Pétarca, Francisco ايطالي (١٣٠٦ - ١٣٧٤) .

١٧ - من المعروف ان تشيلي هي ارض طويلة رفيعة ممتدة ، عرضها قليل جدا كما يبدو من الخارطة .

١٨ - والت وايتمان : شاعر امريكي شمالي (١٨١٩ - ١٨٩٢) .

يجب الا ينسى ان (ايسيدور دو كاس) اخذ اسمه المنحل عن رواية لكاتب القصص المتسلسلة (اوجين سو) (١٩) وهي رواية لوتريامون المكتوبة في « شاتيناي » عام ١٨٧٣ . لكن (لوتريامونت) ، نعرف ذلك ، مضى أبعد من (لوتريامونت) ، راح الى ما هو أعمق فقد اراد ان يكون جهنميا . وراح الى ما هو أعلى فقد اراد ان يكون ملاكا لعينا . ان (مالدورور) ، في عظمة النعاسة ، يحتفل ب «زواج الجنة بجهنم» . ان الغضب والقصائد الحماسية الفنائية والاحتضار تتشكل الامواج الجارفة في البلاغة «الدوكاسية» . (مالدورور) : مالدولور (٢٠) .

لقد خطط (لوتريامونت) لمرحلة جديدة ، انكر وجهه المكفهر فكتب مقدمة لشعر متفائل لم يسطع انجازه وخلفه فقد اخذت المنية هذا الشاعر الاورغواي في باريس. غير ان هذا التغيير الموعود في شعره، هذه الحركة نحو الطيبة والصلاح ، اللذين ما أمهلته المنية كي يقوم بهما ، قد اثارا من النقد الكثير . . . فهو يمجّد في آلامه لكنه يثان في عبوره الى الفرح . يجب على الشاعر ان يتعذب ويعاني ، عليه ان يحيا بائسا ، لا بد له من ان يظل يكتب الاغنية اليائسة (٢١) . هذا كان رأي شريحة اجتماعية ، رأي طبقة . لقد أطاع وخضع لهذه الصيغة «الشاهدية» (٢٢) الكثيرون ممن رزحوا تحت العذاب الذي فرضته قوانين ليست مكتوبة لكنها ليست اقل من المكتوبة شاهدية . ان هذه المراسيم غير المرئية تعاقب الشاعر بالكوخ ، بالحذاء المفتوق ، بالمستشفى ، بالتسول . وهكذا الناس كلهم يصبحون فرحين ويمضون في حفلاتهم بقليل من الدموع .

١٩ - اوجين سو : شاعر فرنسي (١٨٠٤ - ١٨٥٧) .

٢٠ - مالدولور : كلمة تعني الالم السيء . لاحظ التشابه اللفظي بين اسم بطل الرواية

Maldoror وبين هذه الكلمة Maldolor .

٢١ - الاغنية اليائسة : اشارة الى قصيدة لنيودا نفسه . ترجمناها في كتابنا ،

لنيودا ، مختارات شعرية ص ٥٤ - ٥٨ .

٢٢ - الشاهدة : نسبة الى شاهد القبر الحجري ، ومن معاني هذه الكلمة نسي

الاسبانية (La pidaril) : الناقد او الممن او حكاك الاحجار الثمينة ، ويستغل (نيودا)

هنا هذه المعاني كلها .

لقد تغيرت الاشياء لان العالم قد تغير . ونحن الشعراء ترأسنا، فجأة،
تمرد الفرخ . ان الكاتب التعيس والكاتب المصلوب يشكلان جزءاً من طقوس
السعادة في غروب الراسمالية . لقد صرف اتجاه الذوق العام ، في
مهارة ، الى تضخيم المصيبة وجعلها خميرة في الخلق الفني العظيم . لقد
اعتبر السلوك السيء والوجع وصفتين جيدتين في العمل الشعري . لم
يُعط في نهاية القرن، (هولديرلين) المجنون بالقمر والبأس، و(رامبو) (٢٣)
التائه المتمرر، و(جيرارد دي نيرفال) (٢٤) الذي شنق نفسه في عامود كهرباء
عند زقاق بائس ، حدة الجمال واحتداه فحسب بل كذلك درب الآلام .
فصار المذهب هو ان هذا الدرب من الاشواك يجب ان يكون الشرط اللازم
لكل نتاج روحي .

لقد كان (ديلان توماس) هو الاخير في السنكسار (٢٥) الموجّه .

ان ما هو غريب عجيب ان هذه الافكار البورجوازية العتيقة الفظة ما
زالت سارية المفعول في بعض الانفس ، انفس لا تجس نبض العالم في انفه
حيث يجب ان يجس لان انف العالم يشتم المستقبل .

ثمة نقاد يشبهون القرع، اغصانهم الدالة وتطعيماتهم، تبحث عن آخر
نفس لآخر تقليعة خوفا من ان تضيع منها لكنما جدورهم وشروشهم ما
تزال مطمورة بالماضي .

نحن الشعراء لنا الحق في ان نكون سعداء ، على اساس ان نكون
متحدين بشكل حديدي مع شعوبنا وان نصارع من اجل سعادتها .

«ان (بابلو) هو واحد من بضعة رجال قلائل سعداء ، ممن عرفتهم في
حباتي» يقول (ايليا ابهرينبورغ) في احد كتبه . و(بابلو) هذا هو انسا
و(ابهرينبورغ) لا بخطيء البتة .

٢٣ - رامبو : الشاعر الفرنسي المشهور (١٨٥٤ - ١٨٩١) .

٢٤ - جيرارد دي نيرفال : كاتب فرنسي (١٨٠٨ - ١٨٥٥) .

٢٥ - السنكسار : اخبار الشهداء والقديسين .

لهذا لا أستغرب أن يشغل كاتبو مقالات اسبوعية مشهورون أمجاد
بوضعي المادي مع أن «الشخصوية» يجب ألا تكون موضوع النقد . انسي
لافهم أن رفاهيتي المفروضة تفيظ الكثيرين لكن الامر هو اني سعيد مبس
الداخل . لديّ ضمير مطمئن وعقل غير مطمئن .

اني لاهيب بالنقاد الذين يحسدون التمراء ان كان لهم مستوى من
الحياة أفضل ، أن يفتخروا بأن الدواوين الشعرية تطبع وتباع وتؤدي
مهمتها بإيجاد عمل للنقاد ، أن يبتهجوا في أن حقوق المؤلف تدفع له وان
بعض المؤلفين ، على الاقل ، يستطيع ان يعيش من عمله المقدس . يجب على
الناقد ان يفتخر بهذا كله لا ان يطلق الشّعر على الحساء (٢٦) .

لهذا ، حين قرأت منذ وقت قريب العبارات التي خصني بها ناقد
شاب ، لامع «واكليروسي» كنائسي ، بدا لي ما كتبه سخفاً ، وليس لان هذا
الناقد فد لامع بدا لي ما كتبه أقل سخفاً وخطأً مما لو كان غير فد لامع .

بناء على ما يزعمه ان شعري يشعر بالسعادة ولذلك فهو يصف لي
العذاب . وفق هذه النظرية ان التهاب الزائدة الدودية سينتج نثراً ممتازاً
وان التهاب الصفاق سينتج اناشيد رقيقة .

انا امضي اعمل بالمواد التي املك والتي هي انا . اني التهم كل شيء:
المشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الاحداث ، المعارك . لو استطع لاكلت
الارض كلها ولشربت البحر جميعه .

أبيات قصيرة وطويلة

لاني شاعر فعال نشيط فقد حاربت تأملاتي الذاتية . لذلك فان العراك
بين ما هو واقعي وبين ما هو ذاتي، قد انحسم امره داخل وجودي نفسه .
دون ان أزعج اني بهذا أنصح احداً من الناس ، اقول ان تجاربي تستطيع

٢٦ - اطلاق الشّعر على الحساء . تعبير اسباني بمعنى تدليس النقاوة وتعكير الجو

الصافي .

ان تساعد وتفيد . لنر النتائج لاول وهلة .

انه لمن الطبيعي ان يخضع شعري لحكم النقد الرفيع وان يتعرض لهوى الانتقاد الحقير ، سواء بسواء . ان هذا يدخل في اللعبة . ليس لي حلول هذه الناحية من النقاش صوت ، لكن لسي رأي لاجل النقد الجوهري ان رأيي هو شعري بأسره المتمثل في كتبي ، لاجل الانتقاد المعادي لي ايضا حق ابداء الرأي وهذا الرأي كذلك مكون من ابداعي اللاتي الدائم .

ان ظهر ما اقوله على انه زهو وغرور فانتم على حق وهو كذلك فعلا . ان غروري هو زهو الصانع الذي مارس حرفته خلال سنوات كثيرة في حب لا يمحي .

لكنني راض من شيء واحد الا وهو انني بشكل او باخر ، جعلت الناس ، على الاقل في وطني ، يحترمون حرفة الشعر ، مهنة الشعر .

حين بدأت بنظم الشعر ، كان الشعراء على نوعين اثنين ، شعراء سادة كبار يكسبون احترام الناس بأموالهم التي تساعدهم على اقتناء اهميتهم الشرعية او اللاشرعية ، والاسرة الثانية من الشعراء هي اسرة المحترفين المتشردين وهم مجانيين سحرة ، ساهرون مترويصون ، عمالقة لكنهم معذبون . يبقى كذلك ، حتى لا انساهم ، وضع اولئك المربوطين الى طاوولات الدوائر العامة كما يربط المحكوم عليه بالليمان الى السفينة بسلاسله . لقد كانت احلامهم ، دوما ، تخنقها جبال من الاوراق المختومة ومخاوف رهيبة تجاه السلطة والعار .

لقد قذفت بنفسي الى الحياة وأنا اكثر عريا من آدم لكنني كنت مصمما على المحافظة على طهارة شعري . لم يكن هذا الموقف غير المرحح نافعا لي فقط بل كذلك اهدف منه ان يدع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، ان كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون امام شعري القيم وما يوقظه فيهم من معان انسانية ، واما الذين هم اشرار فانهم بدأوا يتخوفون مني .

وهكذا احترم الناس للشعر المكتوب بالحرف الكبير ، ليس الشعر
فحسب بل كذلك الشعراء كل الشعراء .

اني لواع بهذه الخدمة التي قدمتها الى المجتمع ولن ادع ان يسلبني
هذا الفضل احد من الناس لانه يطيب لي أن أحمل هذا الفضل وساما على
صدري دائما . ان غير ذلك من الامور قابل للنقاش اما هذا الذي اروييه الآن
فانه تاريخ حاسم وحقيقة مسلمة .

ان اعداء الشاعر العنيدين سيشبهون حججا لم تعد تفيد في شيء ،
لقد سمثوني في صباي : الميت جوعا ، والان ها هم يعادونني ويحاولون
تأكيد عيشي بجعل الناس يظنون اني مثر ، املك ثروة هائلة ، انه ليعجبني
ان املك هذه الثروة ان كنت لا املكها كي انكد عيشهم وازيدهم غيظا
بالاضافة الى الاشياء الاخرى التي املكها وتبعث في نفوسهم الغيظ
والحسد .

آخرون يقيسون سطور اشعاري ليثبتوا اني اقسام هذه الابيات الى
اقسام صغيرة او اطيها كثيرا . ليس لهذا من قيمة او اهمية . من هو
الذي ينظم الاشعار ويجعلها قصيرة او طويلة ، نحيلة او نخينة ، صفراء او
حمراء ؟ انه الشاعر الذي يقرر ذلك ، يحدد ذلك بنفسه ودمه ، بمعرفته
وجهله لان هذا كله يدخل في خبز الشعر .

ان كان الشاعر غير واقعي فانه لميت ، لكن ، ان كان الشاعر واقعا
فقط فانه كذلك لميت . ان كان الشاعر وهميا فقط فانه لن يفهم الا من
لدن حبيبته ومن نفسه ، وهذا محزن للغاية وان كان الشاعر عقلانيا فقط
فانه سيفهم من قبل الجميع وحتى من قبل الحمير وهذا كذلك محزن
جدا . ليس ثمة من ارقام وصيغ مكتوبة على الالواح بالنسبة لهذه المعادلات ،
وليس ثمة من عناصر ومواد قدرها الله او قررها الشيطان ، بل ان هاتين
الشخصيتين المهمتين تتصارعان داخل الشعر وفي هذه المعركة قد يغلب
هذا او قد يغلب ذاك لكن الشعر لن يهزم البتة .

انه لمن الواضح ان حرفة الشاعر اصبحت مغشوشة نوها ما . يخرج
شعراء مبتدئون كثيرون وشواعر مبتدئات كثيرات الى درجة انا سنبدو عما

قريب جميعا شعراء وسيختفي القراء . سيكون علينا ان نذهب للبحث عن القراء في رحلات تجتاز الرمال على ظهور الجمال او تحلق في السماء بسفن فضائية .

ان الشعر لهو النزعة العميقة في الإنسان ، فمن الشعر خرجت الطقوس الدينية ، والمزامير وكذلك محتوى الاديان . لقد فسر الشاعر مظاهر الطبيعة وتجراً عليها وتقلب في العهود الاولى كاهنا كي يصون دعوته ، ومن هنا فان الشاعر ، في العصر الحديث ، كي يدافع عن شعره ، يرتدي الزي الذي تخلعه عليه الجماهير والشوارع . ان الشاعر المدني اليوم لا يزال هو أقدم كاهن وريت الكهنوتية السحيقة في القدم . لقد تحالف من قبل مع الدياجير وعليه الآن ان يترجح النور .

الأصالة

انا لا اعتقد بالأصالة . انها لصنم آخر ، مخلوق في عصرنا ذي الانهيار السريع المسبب للدوار . اني لاعتقد بالشخصية من خلال اية لغة ، اي شكل ، اي معنى للمخلق الفني . لكن الاصالة الهاذية الهتراء هي اختراع حديث وغش انتخابي . ثمة من يريد ان يُختار الشاعر الاول في بلده ، في لغته ، في العالم بأسره . عند ذلك يجري بحثا عن ناخبين ، يلعن كل من يظن ان لديه احتمالا في ان ينافس على الفوز بهذا الصولجان ، وبهذا الشكل يتحول الشعر الى مهزلة .

غير انه من الضروري الاحتفاظ بالاتجاه الداخلي ، المحافظة على النمو الذي تساهم به الطبيعة والثقافة والحياة الاجتماعية لتطوير ميزات الشاعر ومميزاته .

لقد كتب ، في الازمنة القديمة ، اكثر الشعراء نبلا واكثرهم صرامة ، مثل (اوفيديو) Ovidio ، مثلا ، قصائدهم مع هذا التنبية : «تقليد ل (هوراثيو Horacio) (٢٧)» ، «تقليد ل (اوفيديو) (٢٨)» ، «تقليد

٢٧ - هوراثيو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .
٢٨ - اوفيديو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

من جهتي ، اني لاحافظ على لحنى الخاص بي الذي راح يتوحد بفضل طبيعته الذاتية مثلما تنمو الاشياء الحية كلها . لا مندوحة في ان العواطف تشكل جزءا اساسيا في أوائل دواويني ، فآه للتعسر الذي لا يجيب بفنائه على نداءات قلبه الناعمة او الفاضبة ! بيد انني ، بعد اربعين سنة من التجربة ، اعتقد ان التأليف الشعري يستطيع التوصل الى سيطرة على العواطف اكثر جذرية واسباسية . اني لاؤمن بالارتجالية الموجهة او العفوية المسيرة او التلقائية المقتنة . لاجل هذا فلا بد من ان تكون ثمة أرصدة يجب ان توضع تحت تصرف الشاعر دوما ، فلنقل انه يجب ان يحملها معه في جيبه ، لاية طارئة قد تحدث . اول ما يجب ان يزود به الشاعر هو رصيده من الاشكال والمضامين ، من الكلمات ، من الاوزان ، من الالحنان ، من الصور ، ومن هذه الاشياء التي تمر ازاء المرء كما النحل . يجب ان تصاد توا وان توضع في الجيب . انا جد كسول في هذا المعنى ، لكنني ادري انني بهذا اعطي نصيحة طيبة للشعراء الآخرين . لقد كان لدى (ماياكوفيسكي) كراس صغير يلجأ اليه بلا هوادة او تريث . ثمة ايضا مخزون العواطف . فكيف تحفظ هذه ؟ تحفظ بوعيتها حين تحدث . من بعد ، امام القرطاس ، سنتذكر هذا الوعي في حيوية اكثر من حيوية العاطفة نفسها .

في قسم كبير من تأليفي اردت ان ابرهن على ان الشاعر يستطيع ان يكتب حول ما يشار له به ، حول كل ما هو ضرورة للمجموعة الانسانية . ان اكثر المؤلفات العظيمة في القدم قد كتبت بناء على مطالب ضيقة خاصة . ان كتاب «جورجيكاس» هو دعاية للزراعة الرومانية يستطيع الشاعر ان يكتب للجامعة او النقابة ، للمنظمات وجمعيات الحرف . ابدا لم يفقد الحرية بهذا . ان الوحي السحري وان اتصال الشاعر بالله ان هما الا اختلاقيين مغرضين وابتكارين ذوي مصلحة . في اكثر لحظات الابداع غيبوبة قد يكون النتاج ، جزئيا ، بعيدا عن صاحبه ، متاثرا بقراءاته وبضغوط خارجية عنه .

هأنذا أقطع هذه الاعتبارات والاحكام التي هي نظرية لاتذكر الحياة الادبية التي خضتها في أعوامي الفتية . كان نمة ، اذالك ، رسامون وكتّاب يتهيجون هياجا أصم . كان نمة ، حينذاك ، غنائية خريفية في الرسم وفي الشعر . كل واحد كان يحاول ان يكون اكثر فوضويا ، اكثر انفلاشا . كانت الحياة الاجتماعية التشيلية تتحرك بشكل عميق . (اليساندرى) كان يلقي خطبا تستهدف قلب النظام . في سهول ملح البارود اخسد العمال ينظمون انفسهم فخلقوا اكثر الحركات الشعبية اهمية في القارة الامريكية . لقد كانت تلك الفترة ايام صراع مقدس . ايام (جان غاندولفو) و(كارلوس بيكونيا) . لقد التحقت انا بحركة العقيدة الفوضوية الطلابية . كان كتابي المفضل هو «سانشا يغوليف» *Sancha Yegulev* ل (اندريف) . كان الآخرون يقرأون الروايات الاباحية ل (ارزيفاشيف *Arzivachev*) وكانوا ينسبون اليه استنتاجات عقائدية كما يقع اليوم بالنسبة للاباحية الوجودية . كان المثقفون يلتجئون الى النوادي الليلية فكان النبيل المعتق يجعل البؤس يلتمع التماع الذهب حتى مطلع الفجر في اليوم التالي . (جان ايفانيسا *Juan Egana*) ، شاعر موهوب جدا ، كان قد اقلس حتى القبر (٢٠) فيحكى عنه انه ورث اموالا كثيرة انفقها على الكأس والطاس فوق طاولة في حانة مهجورة . كان السمّار ينامون نهارا ويخرجون ليلا للبحث عن نبيذ فيحتسون دنانا بأسرها . غير ان هذا الشعاع القمري لشعر (خوان ايفانيا) هو ارتعاش غير معروف في «غابثنا الغنائية» وهذا هو العنوان الرومانطيكي لكتاب المختارات الكبير الذي ألفه (مولينا نونييث) و(و. سيفورا كاسترو *O. Segura Castro*) ، وهو كتاب واسع محيط مليء بالعظمة والجود، وهو **الحصيلة الشعرية** لفترة مضطربة مرتبكة ، متميزة بفرافات هائلة وببريق نقي جدا . ان اكثر شخصية بهرتني هي شخصية ديكتاتور الادب الفتي الحديث ، لم يعد يذكره احد ، كان يسمى (اليرو اويارثون) ، لقد كان (بودليريا) ضامرا ، كانه من عصر الانحطاط لكنه مليء بالمزايا الفريدة ، كانه (باربا - جاكوب) بالنسبة لتشيلي . كان يتكلم بصوت أجش في قامته الطويلة . لقد اخترع هذه الطريقة الهيروغليفية الغامضة فعرض القضايا والمشاكل الفنية الجمالية ، وهو عرض فريد من نوعه في عالمنا الادبي .

٣٠ - اقلس حتى القبر : تعبير اسباني ، حتى الضحك .

كان يرفع صوته ويبدو جبينه كأنه قبة صفراء في معبد الذكاء . كان يقول مثلا : «ما هو دائر في الدائرة» ، «ما هو «ديونيسي» في (ديونيسوس Dionysos)» ، «ما هو معمه في المعهات» . لكن (اليرو اويارثون) لم يكن غيبا ، بل كان يلخص في ذاته ما هو فردوسي وما هو جهنمي فسي الثقافة . لقد كان كونيا : فبسبب حبه للتنظير ، قتل جوهره الاصيل . يقولون انه كي يكسب في مراهنه كتب قصيدته الوحيدة وأنا لا أفهم لماذا لا ترد هذه القصيدة الرائعة في كتب المختارات الشعرية التشيلية كلها .

زجاجات وتمائيل

هو ذا عيد ميلاد يقترب . كل عيد ميلاد يمر ، يقربنا مسن عام ٢٠٠٠ . من اجل هذه البهجة المقبلة من اجل سلام الغد ، من اجل العدالة الكونية العالمية صارعنا وانشدنا نحن شعراء هذا الزمن .

لقد طلب مني ، في ٢٤ كانون الاول من عام ١٩٣٠ ، (سوقراط اغيره) ، ذاك الرجل الناعم الفاخر الممتاز الذي كان رئيسي في قنصلية تنبليسي ب «بونوس ايرس» ، ان اجعل من نفسي القديس (نيقولا) او رجل الفصح العجوز بداره . لقد صنعت اشياء كثيرة سيئة في حياتي ، لكن ما من شىء صنعته كان أسوأ من هذا «رجل الفصح العجوز» . لقد كانت تتساقط مني شواربي القطنية وأخطأت كثيرا في توزيع الالعاب . وكيف يمكن لي ان اخفي صوتي وفد جعلته طبيعة الجنوب التشيلي اغن اخن ، انفيا ، غير قابل للخطأ في معرفته ، منذ نعومة اظفاري ؟ لجأت الى خديعة : خاطبت الاطفال باللغة الانجليزية ، لكن الاطفال كانوا يفرزون بي عدة أزواج من عيون سوداء وزرقاء ويبدون ارتيابا وشكا وعدم ثقة لا تليق بهم هم على خلق عظيم وتربية صالحة .

من كان سيقول ان تمة من بين أولئك الاطفال ، طفلة ستصبح من احسن صديقاتي المفضلات ومن احسن من كتبوا سيرتي وترجموا لي ، اعني بها الكاتبة الشهيرة (مارغاريتا اغيره) .

لقد جمعت في بيتي العبا صغيرة ودمى كبيرة ، لن أستطيع العيش

بدونها . ان الطفل الذي لا يلعب ليس بطفل ، لكن الرجل الذي لا يلعب فانه يفقد للابد الطفل الذي كان يعيش في داخله والذي سيحتاج اليه دوما . لقد شيدت بيتي كذلك مثل لعبة العب بها من الصباح الى الليل .

انها لعبي الخاصة بي ، لقد جمعتها طيلة حياتي كلها بهدف علمي الا وهو ان اتسلى بها وحدي . ساصفها من اجل الاطفال : الاطفال الصغار واطفال الاعمار كلها .

عندي سفينة شرعية داخل زجاجة . لكي اقول الحقيقة ان عندي اكثر من واحدة . انها لاسطول حقيقي لها اسمائها المكتوبة ، قضبانها ، قلاعها ، قياديمها ، مراسيها ، مخاطيفها ، بعضها جاء من بعيد ، من بحار اخرى صغيرة . واحدة منها ، وهي من اجمل السفن ، ارسلوها لي من اسبانيا كدفع لحقوق المؤلف عن كتاب من كتب أناشيدي . في الاعلى ، على السارية الكبيرة ترفرف رايتنا التنشيلية بنجمتها الوحيدة الصغيرة . لكن ، البواخر الاخرى ، تقريبا كلها ، هي من صنع السيد (كارلوس هوياندير) والسيد (هوياندير) هو بحار عجوز ، اعاد انتاج الكثير من السفن الجليلة الشهيرة التي كانت تجيء من «هامبورغ» او من «سالم» او من الشاطئ البريطاني لشحن ملح البارود او لصيد الحيتان من بحار الجنوب .

حين اهبط الطريق الطويل لتسليبي كي اجد في «كورونيل» البحار العجوز بين رائحة الفحم والمطر الغزير بهذه المدينة الجنوبية فاني فسي الحقيقة الج الى الترسانة حيث يوجد اصغر مرآب لبناء السفن في العالم . في القاعة ، في غرفة الطعام ، في المطبخ ، في الحديقة كانت تتراكم وتنتظم المواد التي ستحتر داخل الزجاجات الشفافة الواضحة التي قد افرغ منها «البيسكو» (٢١) . يلمس السيد (كارلوس) بصغيره السحسري قياديم ، اشرعة ، صواري ، فيستحيل كل ما يمر بين يديه حتى اصفر دخان في المرفأ الى خلق وابداع ، الى سفينة زجاجية جديدة ، نضرة مشعة ، مهياة للبحر الوهمي . تبرز في مجموعتي في كبرياء وغطرسة ، من بين السفن

الأخرى التي اشتريتها في «أمبرس» أو «مارسيليا» ، السفن التي خرجت من يدي ملاح «كورونيل» المتواضعين . فهو لم يمنح هذه السفن الحياة بحسب بل اضاءها بمعرفته ، ملصقا عليها اعلانا يحكي الاسم والرقم ومآثر كل نموذج يقلده ، الاسفار التي قامت بها كل سفينة الاهوال التي لاقتها ، الحمولات التي وزعتها حين كانت تمخر ضد الريح مرتعشة عبر المحيط الهادي بأشرعتها التي لن نراها من بعد أبدا .

انا عندي سفن زجاجية قديرة وعظيمة وشهيرة جدا مثل سفينة «بوتوسي» الرائعة وسفينة «بروسيا» الهائلة التي انطلقت من «هامبورغ» وغرقت في قناة «المانش» عام ١٩١٠ . ان المعلم (هوياندير) قد خصني فصنع لي كذلك نموذجين من سفينة «ماريا ثيليست» (٢٢) التي منذ عام ١٨٨٢ تحولت الى نجمة ، في سر من الاسرار .

لست مستعدا لكشف السر الملاحى الذي يحيا في شفاف هذه السفن الزجاجية . وهو يتعلق بمعرفة كيف دخلت هذه السفن الصغيرة فسي زجاجاتها الهشة جدا . انا ، بصفتي خادعا محترفا ، بفرض التزوير ، وصفت بشكل دقيق في نشيد ، العمل المسهب الضئيل في هذه البنى الغريبة العجيبة ورويت كيف ندخل وتخرج من الزجاجات البحرية . لكن السر ظل قائما .

ان أفضل لعبي لهي تماثيل القياديم المقتنعة . كبقية اشياي الكثيرة فان هذه التماثيل المقتنعة قد عولجت في الصحف وفي المجلات ، قد نوقشت في رفق او في حقد في رضا او في سخط ، الذين يحكمون لها في رفق ورضا يضحكون ويقولون :

يا له من مخبول معتوه ، ما الذي أدى به الى هوس جمع هذه الاشياء !

والذين يحكمون عليها في حقد وسخط برون الاشياء بشكل آخر .

واحد منهم ، متمرمر بسبب مجموعاتي وبسبب الراية الزرقاء ذات السمكة البيضاء التي انا ارفعها فوق داري بـ «ايسلا نيفرا» قال :

— اني لا انصب راية خاصة وليس عندي تماثيل قياديم .

كان المسكين يبكي بكاء صبي يحسد الصبيان الاخرين على الخدروف الذي يلعبون به ، فيما كانت تماثيلي البحرية تبتسم مفتونة زاهية ، تضحك من الحسد الذي تبعثه فيهم جميعا .

في الحقيقة كان يجب ان يقال دوما ، دفعا للالتباس ، تماثيل قياديم . انها لاشكال نصفية ، انها لنصب بحرية ، انها لصور للمحيط الضائع . حين بنى الانسان اشعرنه احب ان يسمو بقياديم سفنه في معنى اجلّ وأرفع . فوضع مند القدم في اشعرته اشكال طيور ، عصافير طوطمية ، حيوانات خرافية ، نقوشا في الخشب . من بعد ، في القرن التاسع عشر نحتت البواخر الحيتانية الضخمة اشكالا ذات صفات رمزية : الالهات نصف عاريات او سيدات يمثلن العهد الجمهوري بقبعات فشيبة جمهورية .

انا عندي تماثيل قياديم مذكرة ومؤنثة . أصغر واحدة من المؤنثات وأبدعها تسمى «ماريا ثيلسته» وقد حاول (سالفادور ايينسده **Salvador Allende**) (٣٣) ان يخطفها مني عدة مرات ، وهي كانت تنتمي الى سفينة فرنسية ذات حجم صغير ولعلها لم تبحر الا في مياه نهر «السين» ، وهي منحوتة من شجر بلوط ، ذات لون غامق اذ انها بعد مضي السنين ، وبعد العديد من الابحار اصبحت سمراء الى الابد . انها لصبية صغيرة تبدو وكأنها تطير لدى إشارة من الريح في ملابسها الجميلة من أزياء الامبراطورية الثانية . تنظر عيناها ، من فوق غمازات خديها ، الى الافق البعيد ، وهاتان العينان ، وان بدا هذا غريبا ، تبكيان خلال فصل الشتاء في كل سنة . لا احد يستطيع ان يفسر هذه الدموع الفصلية . ربما ان الخشب المصنوعة منه له صمغ يتضخم بالرطوبة . لكن ما هو اكيد ان

٣٣ — سالفادور (ايينسده) هو رئيس جمهورية تشيلي ، انتخب رئيسا عام ١٩٧٠ وقتل عام ١٩٧٣ على اثر الانقلاب العسكري اليميني .

هاتين العينين الفرنسيتين تكيان في الشتاء فانا ارى كل سنة في هذا الفصل الدموع الرائعة وهي تتصبب من وجه «ماريا ثيلسته» الصغير .

قد يستيقظ شعور ديني في الانسان تجاه الصور والتماثيل ، اكانت هذه مسيحية ام وثنية فالامر سواء . واحدة اخرى من تماثيلي الانثوية مكثت خلال بضعة أعوام في المكان الذي يناسبها الا وهو مقابل البحر ، في وضعية مائلة منحدره كما لو انها كانت تمخر في الباخسرة . غير ان (ماتيلده) وانا اكتشفنا ذات مساء بعض السيدات المتدينات الثقيات في «ايسلا نيغرا» وقد قفزنا من على حاجز الدار كما يعتاد ان يفعل الصحفيون الذين يريدون اجراء مقابلة معي ، رأيناهن وهن راكعات امام تمثال القيدوم المضء بكثير من الشموع التي كنا قد اشعلناها لهذا التمثال الانثوي . لعل ديننا جديدا قد ولد . لكن مع ان التمثال كان في موضع عال ويبدو طويلا جليلا مثل (غابرييلا ميسترال) فقد كان علينا ان نبعث اليأس في نفوس المؤمنات كي لايمكثن هناك عابدات في براءة ووقار ، صورة امرأة بحرية كانت قد ابحرت عبر اكثر البحار خطيئة في كوكبنا الملذنب مقترف الخطايا دائما .

منذ ذلك الحين نحيثها من الحديقة وها هي الآن قربي عند المدخنة .

كتب وقواقع

ان هاوي الكتب الفقير له مناسبات لا نهاية لها للمعاناة والعلذاب . فالكتب لا تفر من بين يديه ، بل تعبر امامه عبر الهواء في طيران عصفور ، في طيران اسعار غالية .

غير انه بعد تنقيب كثير وبحث عسير تبرز الدرّة . اذكر دهشة بائع الكتب (غارثيا ريكو Garcia Rico) بمدريد في عام ١٩٣٤ حين اقترحت عليه ان اشترى منه طبعة قديمة من ديوان (غونفورا) الذي كان ثمنه ١٠٠ «بيسينته» فقط ، باقساط شهرية قدرها ٢٠ «بيسينته» كل شهر . لقد كان ثمن هذا الديوان مبلغا زهيدا غير اني ما

كنت امتلكه فدفعت له في الموعد المحدد على مدى ستة اشهر (٢٤) . لقد كانت هذه الطبعة هي طبعة (فوينيس) . هذا الناشر الفلامنكي طبع بحروف رائعة لا يمكن مقارنتها بغيرها نظرا لجودتها وجمالها ، في القرن الثامن عشر ، اعمال المعلمين الاسبان الفطاحل من العصر الذهبي (٢٥) .

لا يعجبيني أن أقرأ لـ (كيبيدو) الا في تلك الطبعات حيث الـ «سونيوس» (٢٦) تبرز في خط دعاعي مثل بوارج حديدية . من بعد الفت غابه دكاكين الوراقين في ضواحي المدينة الوعرة حيث تباع كتب «اليد الثانية» (٢٧) وتمرت على اروقة المكتبات الضخمة التي تشبه اروقة الكاتدرائيات في فرنسا وانجلترا . لقد كانت يداي تخرجان بعد للمس والبحث مغبرتين ، لكن من حين الى حين كنت احصل على كنز ، او على الاقل ، على الفرحة بافتخاري في انه كنز .

لقد ساعدتني الجوائز الادبية التي دفعت لي عددا ونقدا على اقتناء بعض النسخ باثمان شاذة فأصبحت مكتبتي معتبرة ، كانت كتب الشعر القديمة تبرز فيها وضاحة براقة وكذلك فان شغفي بالتاريخ الطبيعي ملاًها بكتب ضخمة من علم النبات في كل صنف ولون ومن علم الطيور ومن علم الحشرات ومن علم الاسماك . لقد وجدت كتب رحلات وأسفار ساحرة ، طبعات لكتاب «دون كينخوته» لا تصدق ، مطبوعة من قبل (ايبارا Ibarra كتيبات لـ (دانتي Dante) (٢٨) في طباعة رائعة ، حتى اني عثرت على كتاب لـ (موليير Moliere) (٢٩) كان قد طبع في نسخ قليلة جدا لابن ملك فرنسا (Adusnm Delphine) .

٢٤ - يبدو انه حين اشترى الديوان لم يدفع شيئا ولذلك يقول على مدى ستة اشهر وليس خمسة اشهر .

٣٥ - هو القرن السادس عشر الميلادي .

٣٦ - السونيتوس : هي قصائد تشبه الارجاز العربية .

٣٧ - اليد الثانية : تعبير اسباني بمعنى للمرة الثانية .

٢٨ - دانتي Alishieri : الاديب الايطالي المعروف مؤلف الكوميديا الالهية ،

(١٢٦٥ - ١٣٢١) .

٣٩ - موليير : الاديب الفرنسي الشهير (١٦٢٢ - ١٦٧٣) .

لكن ، في الواقع ، ان احسن ما جمعت في حياتي كانت هي قوافمي .
لقد منحنتني متعة بنيتها المدهشة : لنقاوة القمرية : نقاوة «بورسيلان»
غريب ساحر بالاضافة الى العديد من الاشكال الملساء ، الفوطية ، الفخمة .

ان آلاف الابواب الصغيرة البحرية قد انفتحت امام معرفتي منذ ذلك
اليوم الذي اهداني فيه عالم الرخويات الكوبي السيد (كارلوس دي لا توريه)
احسن نماذج مجموعته . منذ ذلك الوقت وأنا ، حيث اسافر ، اجوب
البحار السبعة بحثا عنها . لكن عليّ ان اعترف ان بحسر باريس ، بين
موجة وموجة ، هو من كشف لي قواقع اكثر . كانت باريس قد نقلت
اصداق المحيطات كلها الى دكاينها لبيع تحف التاريخ الطبيعي ، التي
«اسواقها البرافيشية» .

لقد كان اسهل من ادخال الايدي في صخور «بيراكروث» (Veracruz)
او «كاليفورنيا» السفلى ، العثور ، تحت غلاف المدينة ، بين زجاج مكسر
واحدية قديمة ، على الطيف الشائق لحلزونة «الزيتونة المحاكة» او مفاجئة
حلزونة الرمح المصنوع من المرو الذي يتطاول ويتطاول ، كبيت شعر من
الماء ، في (La Rosellaria Fusus) لا احد يستطيع ان ينزع مني الانبهار
والزهو بانني قد استخرجت من البحر (el Espondylus) الوردي وهو
محارة مرصعة بأشواك مرجانية . وقدرت ان اشاهد (el Espondylus)
الابيض وهو مفتوح بين بين ، وهو مصنوع من قضبان وأشواك ثلجية
بيضاء تبدو كالنوازل الكلسية المترسبة في مغارة «غونفورية» .

بعض هذه الانتصارات كانت تاريخية . اذكر انه في متحف بكين فتحوا
الصندوق الاكثر تقديسا ، المليء برخويات البحر الصيني وأهدوني نموذجا
من النموذجين الاثنيين الوحيدين من صنف (Thatcheria Mirabilis)
استطعت ان اكرر هذا العمل الفني الخارق الذي به اهدى المحيط التي
الصين أسلوب المعابد والهيكل الذي عم وشاع الى الآن في تلك الاصقاع .

لقد استغرقت ثلاثين سنة وأنا اجمع كتبا كثيرة . كانت رفوفي تحتوي
على كتب طبعت قبل زمن بعيد ومجلدات كانت تهزني ، كتب لـ (كيبيدو)
و (ثيرفانتس) و(غونفورا) في طبعتها الاصلية الاولية ، كذلك على كتب
لـ (لانورغه) (Luforque) لـ (رامبو) لـ (لوتريامون) . كانت هذه الصفحات

تبدو لي وكأنها ما زالت تحتفظ بلمس هؤلاء الشعراء الاحياء. لقد أهداني (بول ايلوا) بمناسبة عيد ميلادي في باريس الرسالتين اللتين كتبهما (ايسابيل رامبو) الى أمه في المستشفى بمرسيليا حيث بترت لهذا المتشرد التائه ساقه . لقد كانت هاتان الرسالتان كنزين يطمع بهما : المكتسبة الوطنية في باريس وجامعو الكتب الشرهون في «شيكافو» .

لقد جبت العوالم كلها الى درجة ان مكتبتي نمت في افراط وجاوزت شروط المكتبة الخاصة . ذات يوم أهديت مجموعة القواقع التي قضيت عشرين سنة وأنا اجمعها وتلك المجلدات التي بلغ عددها الخمسة آلاف التي اخترتها في حب عظيم من اقطار العالم كله ، الى جامعة تشيلي فاستقبل مدير الجامعة هذه الهبة بالجمل الطنانة والكلمات الجميلة .

اي انسان متبلور شفاف سيفكر في البهجة التي عمت تشيلي اثر هديتي هذه ، لكن ثمة أناس ضد المتبلورين وغير متبلورين . لقد كتب ناقد رسمي مقالات غاضبة يحتج فيها بحدة وشدة على سلوكي هذا . متسى سيقطع دابر الشيوعية الدولية ؟ كان يصرخ . سيد آخر القى في البرلمان خطابا ملتعبا ضد الجامعة لانها قبلت هداياي الرائعة ، القابلة للمهد منها وغير القابلة (٤٠) وهدد بقطع الاعانات التي تتلقاها الجامعة الوطنية . بين كاتب المقالات ونائب البرلمان شن آخرون موجة من الصقيع فوق عالم تشيلي الصغير فكان مدير الجامعة يروح ويفدو عبر كواليس البرلمان صاحب الوجه مرتعدا ، ثم فصل وعزل .

لقد انقضت عشرون سنة على ذلك التاريخ وما من احد عاد فرأى كتبتي او قواعي يبدو انها رجعت الى دكاكين الوراقين والى المحيطات .

زجاج مهشم

منذ ثلاثة ايام عدت لادخل بعد غياب طويل الى داري في «البارائيسو»

٤٠ - تعبير اسباني بمعنى الصالح والطالح .

فرايت شقوفا تجرح الحيطان والزجاج قد أصبح شظايا مهشمة تشكل سجادة اليمّة فوق الأرض في الغرف جميعها . كانت الساعات التي هوت على الأرض تشير الى ساعة حدوث الزلزال . كم من الأشياء الجميلة تكنسها الآن (ماتيلده) بمكنسة ! كم من الأغراض الفريية التي حولتها الهزة الأرضية الى قمامة ونفاية ! .

يجب علينا تنظيف الدار وترتيب الحاجات والبدء من جديد . انسه ليكلف جهدا العثور على الورق في وسط الفوضى وانه لصعب من بعد ، ايجاد الافكار .

كانت آخر اعمالى هي ترجمة «روميو وجولييت» وقصيدة غزل طويلة في أوزان قديمة ، لكنها ظلت غير منتهية .

هيا ، ايتها القصيدة الغزلية انهضي من بين الزجاج المهشم فلقد حانت ساعة الغناء .

ساعديني ، ايتها القصيدة الغزلية ، على اعادة الصفاء ، على الغناء فوق الالم .

انها لحقيقة ان العالم لا يتطهر من الحرب ، لا يفسل من الدم ، لا يسلم من الكراهية . انها لحقيقة .

بيد انها كذلك ، في حد سواء ، لحقيقة اننا نقترّب من الجلاء : ان العنيفين ينمكسون في مرآة العالم ، ووجههم ليس جميلا حتى في نظرههم انفسهم .

وما زلت أعتقد في امكانية الحب . لديّ يقين بأن التفاهم بين البشر سيتم على الرغم من الآلام ومن الدم ومن الزجاج المهشم .

(ماتيلده اوروتيا) ، زوجتى

ان زوجتى لهى قروية مثلى انا . ولدت في بلدة بالجنوب تدعى

تسييان» وهذه البلدة شهيرة ، من الناحية السعيدة ، بأوانيها الفخارية
الريفية ، ومن الناحية التعيسة ، بزلازلها الرهيبة .

قد قلت كل ما أريد ان اقله لها في ديواني «مائة أرجوزة حب»
(Cien sonétos de amor) (٤١) .

ربما تستطيع هذه الاشعار ان تدل عما تعنيه هي بالنسبة لي . لقد
جمعتنا الحياة والارض .

مع ان هذا لا يهم احدا غيرنا فاني اقول ، نحن سعيدان جدا . نقسم
وقتنا المشترك الى جلسات طويلة في شاطئء تشيلي المنعزل الوحيد . ليس
في الصيف لان الشريط الساحلي الذي تعيد تجفيفه الشمس طيلة الصيف
يعلن عن نفسه اصفر أجرد صحراويا . بلى في الشتاء حين يرتدي هذا
الشريط في تزهر غريب مع الامطار والبرد ، الاخضر والاصفر ، الازرق
والارجواني . بعض الاحيان نصعد من المحيط البري الوحيد الى المدينة
العصيبة ، الى العاصمة «سانتياغو» التي فيها نعاني معا من وجود
الآخرين المعقد .

(ماتيلده) تغني في صوت قدير اغاني وقصائدي .

اني لأهدي اليها كل ما اكتب وكل ما املك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة
راضية .

الآن المحها وهي تدفن حذاءها في طين الحديقة ومن بعد تدفن يديها
الصغيرتين في عمق النبتة .

لقد جلبت لي من الارض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها،
الزهور جميعها ، ثمار السعادة الشدية جمعاء .

٤١ - لقد ترجمنا الكثير من هذه «الاراجير» في كتابنا «بابلو نيرودا: مختارات شعرية».

مخترع نجوم

رجل كان ينام في غرفته بفندق بباريس ، بما انه كان سهيرا كبيرا فلا تدهشوا ان قلت لكم انه كان يظل نائما الى ما بعد منتصف النهار .

لقد اضطر ان يستيقظ ذات يوم وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشر فقد انهار الجدار الشمالي على حين غرة ثم انهار الجائط المواجه ، لم يكن الامر بغارة جوية . كان يدخل عبر الفجوات الحديثة الحفر عمال ذوو شوارب كبيرة والحماله بأيديهم فينتهرون النؤوم :

(Eh, léve, bourgeois) تناول كاسا معنا .

انفتحت زجاجات الشمبانيا ، دخل رئيس البلدية بشريط ذي ثلاثة ألوان على صدره . صدح بوق بنغمات «المارسيليز» . ما هو السبب الذي ادى الى هذه الاعمال الغريبة ؟ حصل انه هناك تحت ارض غرفة ذلك الحالم وقعت نقطة الاتصال بين طرفي السكة الحديدية تحت الارضية في باريس ، التي كانت في تلك الفترة بمرحلة الانشاء .

منذ تلك اللحظة التي روى لي ذلك الرجل هذه الحكاية قررت ان اكون صديقه او بالاحرى مريده او تلميذه ، بما انه كانت تقع له اشياء غريبة جده فما كنت اريد ان تفوتني واحده منها ولذلك فقد رافقته في التجول عبر بلدان كثيرة . (فيديريكو غارتيا لوركا) اتخذ موقفا شبيها بموقفي ، فقد كان أسير وهم واعتقاد بمثل هذه الظواهر والغرائب . (فيديريكو) وأنا كنا جالسين ذات يوم في «مبيرة» (محل بيرة) «كوريوس» (٤٢) مقابل «ثيبيليس» (٤٣) المدريدية فافتحم مجلسنا نؤوم باريس ، مع انه فسي مظهره كان متباهيا وخرائطيا فقد وصل متفككا متخلعا . لقد وقع له مرة اخرى ما هو فائق الوصف ، فقد كان في مخبئه المتواضع جدا ، وأحب ان ينظم اوراقه الموسيقية ، لقد نسيت ان اقول ان صاحبنا هذا كان مؤلفا

٤٢ - كوريوس : هو مبنى البريد والبرق في مدريد .

٤٣ - ثيبيليس : هي ساحة بمدريد مقابل مبنى البريد ، في وسطها تمثال لهذه الالهة .

موسيقيا ساحرا . فماذا جرى ؟

– توقفت سيارة عند باب فندقي . سمعت كيف كانت الاقدام تصعد الدرجات ، كيف كانت الخطوات تدخل الى الحجرة المجاورة لحجرتي . من بعد بدأ المبتاجر الجديد بالشخير ، في البداية كان شخيره وشوشة ثم ارتجّ الجو بدأت الحيطان والخزائن تهتز وتتحرك تحت الدفع المتناغم لذلك المتشخر العظيم .

لا بد انه ، بلا شك ، حيوان متوحش . حين انطلقت الشخيرات في شلال عارم لم يكن عند صاحبنا ادنى شك في انه الجبلي (٤٤) الاقرن . لقد كانت فقعته في بلدان اخرى قد هزت كنائس كبيرة ، سدت الطرق وأهجت البحار . فما الذي سيجري مع هذا الخطر الفلكي ، مع هذا الحيوان الضخم الكريه الذي يهدد سلام اوروبا ؟

كل يوم كان يروي لنا صروفا وخطوبا رهيبة عن هذا الخنزير البري الاقرن وكنا نحن جميعا ، أنا و(فيدريكو) و(رافائيل البرتي) والنحّات (البرتو) و(فولخينثو ديئات باستور) و(ميغيل ايرنانديث) ننصت اليه متشوقين ونودعه ونحن نرغب في المزيد .

الى ان جاء ذات يوم بضحكته الكروية العتيدة وقال لنا :

– لقد انحلت المشكلة الرهيبه . لقد قبل (el Graaf Zeppelin) الالماني ان يشحن الجبلي الاقرن وسيسقطه في الغابة البرازيلية ، وهناك الاشجار الكبيرة ستفديه ولن يكون ثمة خطر في ان يشرب «الامازون» فسي وردة واحدة . وهو هناك سيظل يرج الارض بشخيره الرهيب .

كان (فيدريكو) يصفي اليه منفجرا من الضحك بعينيه المطبقتين من حدة التأثير . ثم اخذ صاحبنا يروي علينا انه ذهب ذات مرة ليرسل برقية فاقنعه عامل البرق بالا يرسل ابدا اية برقية بل رسالة لان الناس

٤٤ – الجبلي : هكذا في الاصل el jabali ، وهو الخنزير البري . عن العربية

تخاف كثيرا حين تستلم البرقيات المجنحة السريعة وحتى ان بعضهم ماتت بالسكتة القلبية قبل ان يفضّ البرقية التي استلمها . وحكى لنا كذلك انه حضر ذات يوم كمتفرج محب للاستطلاع مزادا على الخيول «ذات الدماء النقية» في لندن فرفع يده كي يحيي صديقا له شاهده هناك فما كان من الضارب بالمطرقة الا ان هوى بمطرقته معلنا وقوف المزاد عند صاحبنا وباعه بعشرة آلاف ليرة استرلينية فرسا كان (آغا خان) قد نافسه عليها فوصل بمزايدته حتى تسعة آلاف وخمسمائة .

— كان عليّ ان احمل الفرس الى فندقتي وان اعيدها في اليوم التالي —
انهى كلامه .

الآن الراوية لا يستطيع ان يروي لنا حكاية الجبلي الاقرن ولا اية قصة اخرى فلقد توفي هنا في تشيلي . هذا التشيلي المداري ، الموسيقي من مصراع الى مصراع (٤٥) ، المترف في حكايا لا مثيل لها ، كان اسمه في حياته (اكاريو كوتابوس Acario Cotapas) . لقد كان عليّ ان اتكلم عند دفن هذا الانسان غير القابل للدفن ، فقلت فقط : «اليوم نهب الى الظلال كائنا مشرقا كان يهبنا نجمة كل يوم» .

(ابلوان) الرائع

لقد مات رفيقي (بول ابلوان) منذ زمن قريب . لقد كان جدا كامل ، جدا محكم ، جدا رائع فكلفني الما وجهدا ان اعتاد على فقدانه وان اعود على اختلافه . كان نورمانديا ازرق وورديا ، ذا بنية قوية ونسيج رقيق ، ان الحرب العالمية الاولى تركته يدين مرتجفتين دائما . لكن (ابلوان) اعطاني في كل لحظة فكرة اللون السماوي ، فكرة الماء العميق الهادئ ، فكرة عدوية تعرف قوتها . من شعره النقي جدا ، الشفاف جدا مثل قطرات مطر ربيعي على الزجاج كان يمكن ان يبدو (بول ابلوان) انسانا لا سياسيا ،

٤٥ — من مصراع الى مصراع : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، من اظلي واسمه حتى الخمس كلمه .

شاعرا ضد السياسة ولكنه لم يكن هكذا فقد كان يشعر بأنه ملتصق التصاقا قويا بالشعب الفرنسي ، بأراء شعبه وبنضاله .

كان (بول ايلوار) حازما ، نوعا من برج فرنسي بهذا الجلاء العاطفي الذي ليس هو سواء والغباء العاطفي ، السائد العام .

لاول مرة ، في المكسيك ، حيث سافرنا معا ، رأته على حافة هاوية مظلمة ، هو الذي دوما كان يترك مكانا مريحا للحزن ، مكانا يواظب عليه بقدر ما كان يواظب على اكتساب المعرفة .

لقد كان مرهقا متضايقا . انا كنت قد افنعت وجرجرت هذا الفرنسي القطب الى هذه الاراضي النائية وهناك في اليوم نفسه الذي دفنا (خوسه كليمينته اوروثكو) هويت انا ايضا بالتهاب الوريد ، وهو مرض خطير احتفظ بي مربوطا الى سريري خلال اربعة اشهر بكاملها . فشعر (بول ايلوار) انه وحيد كئيب ، مهجور كما لو كان رائدا مكتشفا اعشى قد ترك وحده . لم يكن يعرف احدا ، لم تكن تفتح له الابواب . شعر. كانه ارمل بلا حب ولا رفيق فكان يقول لي : «اننا نحتاج الى رفقة كي نرى الحياة ، نحتاج الى احد يشاركنا جوانب الحياة كلها . ان وحدتي لامر محال ولجريمة .»

ناديت اصدقائي فاجبرناه على الخروج ، غصبا عنه اخذوه كي يتجول في دروب المكسيك ، وفي منعطف درب عثر على حبه الاخير : (دومينيكه).

انه لمن الصعوبة ان اكتب حول (بول ايلوار) . فسأظل اراه يحيى بجائبي ، تشتعل في عينيه أعماق الزرقاء الكهربائية التي تنظر نظرة واسعة عريضة بعيدة .

لقد خرج من الارض الفرنسية واكليل الغار والجلود تحوك موارثه الشدية . لقد كانت قامته الطويلة مصنوعة من ماء وحجر ، وعلى هذه القامة كانت تتسلق نباتات قديمة تحمل زهرا وبريقا ، أعشاشا وأفانسي شفافة .

شفافية ، هذه هي الكلمة ، شعره زجاج من حجر ، ماء توقف في مجراه المعني .

لقد وضع شاعر الحب الفلكي ، شعلة الظهر النقية ، في أيام فرنسا المصيبة ، وسط وطنه ، قلبه ومنه خرجت النار الحاسمة للمعارك .

هكذا وصل بشكل طبيعي الى صفوف الحزب الشيوعي . ان كونه شيوعيا كان يعني بالنسبة له التأكيد بشعره وبحياته على قيم الانسان والانسانية .

يجب الا يعتقد بان (ايلوار) كان أقل سياسيا منه شاعرا . لقد ادهشتني دائما بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة . لقد حللنا معا اشياء كثيرة ، بشرا وقضايا في عصرنا ، فأفادني جلاؤه دوما .

لم يضع في السريالية اللاعقلية المحالة لانه لم يكن مقلدا بل كان خالقا مبدا . وبما انه كان هكذا فقد افرغ فوق جثة السريالية طلاقات من جلاء وذكاء .

لقد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي واني افتقد حنانه الذي كان جزءا من خبزي ، كفاف يومي . لا احد يستطيع ان يعطيني ما حمله معه لان اخوته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا ، يا اخي ، اني لانحنى فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا تعطيانني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما فرسته انت في هذه الارض .

(بيير ريفيردي)

ابدا لن ادمو شعر (بيير ريفيردي) بالساحر ، لان هذه الكلمة ، شائعة عامة في فترة ، هي كقبة مهرج في مهرجان : ولا اية حمامة برية تخرج من جوفه كي تشرع بالطيران .

لقد كان (ريفردي) شاعرا حسيا ماديا يذكر الاشياء باسمائها ويلمس اشياء لا عد لها من الارض والسماء . كان يعدد كل ما هو جلي وبراق في العالم .

لقد كان شعره.مثل عرق من معدن المرو ، عميقا ، براقا ، ليس ينفذ. احيانا يضيء في قساوة بلمعان معدن اسود وقد اقتلع في صعوبة من باطن الارض الكثيف و احيانا يطير فجأة في شرارته الفوسفورية المتألقة او يختفي في نفق منجمه ، بعيدا عن الوضوح ولكنه يظل مشدودا الى حقيقته الذاتية مرتبطا بها . ربما ان هذه الحقيقة ، هذا التلاحم بين جسد شعره وبين الطبيعة ، هذه الطمانينة «الريفردية» ، هذه الاصلة الثابتة الراسخة غير المتزعزعة او المتذبذبة قد عجلت له النسيان فقد راح الآخرون شيئا فشيئا يعتبرونه مثل حقيقة مسلمة ، ظاهرة طبيعية : دارا، نهرا ، شارعا معروفا، شيئا لن يغير ابدا من مظهره.ولا من موضعه .

الآن قد غيّر من موضعه ، الآن سكون عظيم اكبر من سكونه الفخور الشريف فد اخذه اليه ، فنرى انه لم يعد موجودا وان هذا البريق الذي لا يعوض قد اختفى ، قد دفن في ارض وفي سماء .

اقول انا ان اسمه مثل ملاك منبعث ، سيحطم ذات يوم ابواب النسيان غير العادلة .

سنراه ، بلا ابواق ، وهو مكلل بهالة النور المنبعث من سكون شعره العظيم الحي الرنان ، في يوم الحكم النهائي ، فسي يوم الميعاد الجوهري فيبهرنا بخلود اثره البسيط .

(جيرزي بوريزجا Jerzy Borezjha)

لم يعد ينتظرنني في بولونيا (جيرزي بوريزجا) . لقد احتفظ القدر لهذا المهاجر القديم بحقه في ان يرى وطنه وقد أسترجع واسترد . حين دخل اليه جنديا مقاتلا، بعد سنوات كثيرة من الغياب عنه كانت «فرصويا» عبارة عن كومة من الانقاض المطحونة ، لم يكن فيها شوارع ولا اشجار .

لم يكن من احد فيها ينتظره . لقد عمل (بوريزجا) وهو ظاهرة ديناميكية حيوية ، مع شعبه . من راسه خرجت خطط هائلة ، «فبادرة رائعة : دار الكلمة المطبوعة» . لقد بُنيت الدار طابقا فوق طابق على مراحل ، وصلت المطابع الرحوية من احسن المطابع في العالم . وهناك تطبع الآن آلاف وآلاف من الكتب والمجلات . لقد كان (بوريزجا) محولا دنيويا للرغبات الى اعمال ، لا يتعب ولا يهدأ . لقد تنفذت مشاريعه الجريئة في بولونيا الجديدة ذات الحيوية الخارقة ، بكاملها كما تبنى القلاع في الاحلام .

لم اكن اعرفه . ذهبت لآتعرف عليه في الحقل حيث كان يقضي العطلة ، بشمال بولونيا في المنطقة ذات البحيرات «الماشورية» حيث كان ينتظرني .

حين هبطت من السيارة رأيت رجلا ارفل عديم الرشاقة ، سيء الهندام ، لم يحلق ذقنه منذ ايام كثيرة ، يرتدي سروالا قصيرا (شورت) ذا لون ضعب التحديد . ناداني حالا في طاقة محتدمة بلغة اسبانية تعلمها من الكتب : «يا (بابلو) ، اخلولقت مرهقا ، لا مندوحة في ان تأخذ قسطك من الاستجمام» (٤٦) . لم يدعني في حقيقة الامر ان آخذ «ولا اي قسط من الاستجمام» . كان حديثه مسهبا مطنبا ، متنوعا متنقلا ، مفاجئا مباغتاً ، في نداءات وتساؤلات وتعجبات متداخلات . كان يحكي لي في الوقت نفسه عن سبع خطط مختلفة مختلطة مع تحليلات لكتب تضيف تفسيرات جديدة لوقائع تاريخية او لأمور الحياة . «كان البطل الحقيقي هو (سانشو بانشا Sancho Panza) (٤٧) وليس (دون كيخوته) ، يا (بابلو)» . بالنسبة له كان (سانشو) هو صوت الواقعية الشعبية ، القطب الحقيقي لعالمه ولزمنه» «حين يحكم (سانشو) فان حكمه سيكون جيدا لأن الشعب هو من يحكم عند ذلك» .

٤٦ - نحاول ان ننقل الى العربية أسلوبه الفصيح الذي تعلمه من الكتب القديمة .
٤٧ - سانشو بانشا : هو مرافق (دون كيخوته) في رائلة (ليرفانتيس) الخالدة ، وهو يشبه شيبوب في قصة عنتر بن شداد الشمسية ، وقد كان (دون كيخوته) قد ومد مرافقه بامطائه حكم مقاطعه ان انتصر على الاعداء ، انظر كنانا ، دون كيخوته في القرن العشرين .

كان يسحبني من السرير في وقت مبكر ويصيح بي دوما : « لا بد لك من ان تأخذ قسطك من الراحة والاستجمام» فبدأني عبر غابات شجر التنوب والارز كي يريني هناك معبدا لطائفة دينية هاجرت الى هذا المكان من روسيا منذ قرن من الزمن وظلت تحافظ على طقوسها كلها فكانت الراهبات يستقبلنه كأنه بركة تحل عليهن فقد كان (بوريزجا) كله لياقة وكياسة واحتراما تجاه الراهبات المتدينات .

لقد كان رقيق العواطف فعالا نشيطا . تلك السنون كانت رهيبة ، زمن الاحتلال النازي . ذات مرة أراني المسدس الذي أعدم به مجرم حرب ، بعد محاكمة تحقيقية عامة .

كانوا قد عثروا مع هذا المجرم النازي على مفكرة سجل فيها بشكل دقيق جرائمه كلها . عجزوا واطفال خنقهم بيديه ، صبايا هتك أعراضهن . ففاجأوه في الضيعة نفسها حيث كان يقوم بهذه الاعمال الوحشية والقوا القبض عليه . ثم اصطف الشهود يدلون بشهاداتهم حول هذه الاعمال ، وقرئت مفكرته التي تدينه ادانة واضحة فاضحة . لم يجب هذا المجرم المتحدي الا بجملته واحدة : «سأعيد فعل ذلك ان استطعت ان ابدأ من جديد» . لقد امسكت انا بهذه المفكرة بيدي وكذلك بالمسدس الذي انهي حياة ذلك المجرم القاسي العنيد .

في البحيرات الموسورية ، المتزايدة حتى الانهائية ، تصطاد ثعابين المياه . كنا نطلق في ساعة مبكرة من الصباح الى الصيد فنرى هذه الثعابين خفافة بليلة كأحزمة سوداء .

لقد ألفت تلك المياه بصيادها ومناظرها الطبيعية الخلابة . كان صديقي من الصباح حتى الليل ، يجعلني أصعد وأهبط ، أجري وأجدف ، أتعرف على الناس والأشجار . كل ذلك على صيحة ان : هنا لا بد لك من ان تتناول قسطا من الراحة والاستجمام ، ليس من مكان مثل هذا من اجل الاستجمام » .

حين انطلقت من البحيرات الموسورية ، أهداني ثعبانا بحريسا نفائنا ، أطول ثعبان بحري رأيتنه في حياتي .

هذا العكاز الغريب العجيب عقّدت حياتي ، انا كنت أريد ان التهمه
لاني لست من أنصار الثعابين النفاثة وهذا الثعبان يجيء من بحيرته مسقط
رأسه بشكل مباشر من غير مخازن ولا وسطاء ولا باعة فهو طيب بلا شك .
لكن في هذه الأيام لم تكن الثعابين البحرية لتنقصني في كل وجبة اتناولها
بفندقي ولم تسنح لي الفرصة بأن احضر ثعباني وأقلية لآكله ، لا في الليل
ولا في النهار . فبدأ الثعبان يشكل لي وسوسة مزعجة متسلطة على عقلي .

في الليل كنت أخرجه الى شرفة الغرفة كي يتناول الهواء الطازج .
أحيانا وأنا في مجرى احاديث مهمة كنت أتذكر بأن ثعباني لم يزل فسي
الغلاء تحت السماء وبعز الشمس وقد جاوز النهار الظهيرة عند ذلك أفقد
كل اهتمام بموضوع الحديث وأركض كي أضعه في مكان بارد من غرفتي،
داخل الخزانة ، مثلا .

في النهاية عثرت على هاو مفرم فأهديته هذا الثعبان المائي النفاث
بل اطول ثعبان وأطرى ثعبان وأحسن الثعابين النفاثة التي شاهدتها في
حياتي ، طبعا ندمت على ذلك وأنبني ضميري كثيرا .

الآن ، (بوريزجا) العظيم ، الـ (كيخوته) النحيل الديناميكي النشيط ،
المعجب بـ (سانشو) على انه (كيخوته) آخر ، الحساس العالم العارف ،
يستجم لأول مرة ، يستجم في الدياتير التي أحبها كثيرا . في مستقره
المريح يبدع عالما أعطاه هو تفجره الحيوي ، ناره التي لا تنعب ولا تخمد .

(سومليو جورجي Somlyo Georgy)

اني لأحب في هنغاريا تشابك الحياة والشعر ، التاريخ والشعر ،
الزمن والشعر . في اماكن اخرى يناقش هذا الموضوع في براءة اكثر او
اقل . في هنغاريا كل شاعر هو ملتزم قبل ان يولد. ان (ايبلا جوزيف)
(وادي اندريه) و(غيولا التيس) لهم نتاج طبيعي للدبذبة كبيرة متراوحة بين
الواجب والموسيقى ، بين الوطن والظل ، بين الحب والالام .

ان (سومليو جورجي) لهو شاعر رأيته ينمو في ثقة وقدرة منذ عشرين

سنة . انه لشاعر ذو لحن ناعم متصاعد كما الكمان ، شاعر يهتم بحياته وبالحيوات الاخرى ، شاعر هنفاري حتى العظم ، هنفاري في استعداده السخي للمشاركة في واقع شعبه واحلامه . انه لشاعر الحب الاكثر تصميمًا والعمل الاكثر توهجًا واشتمالًا ، يحفظ في عالمته الطابع المتميز للشعر العظيم في وطنه .

انه لشاعر شاب ناضج ، جدير بانتباه عصرنا . ان شعره لشعسر هادئ ، شفاف ، مسكر مثل نبيذ الرمال الذهبية .

(كواسيمودو Quasimodo) (٤٨)

ان ارض ايطاليا تحفظ اصوات شعرائها القدماء في احشائها النقية جدا . حين اطا رحاب الارياف ، حين اجتاز الحدائق حيث تترقرق المياه وتتلأ ، حين اعبر رمال محيطها الازرق الصغير ، يبدو لي وكأنني اطمأ جواهر جوهرية ، مضامين الماسية ، اكوابا زجاجية خافية سرية ، البريق كل البريق الذي حفظته القرون . لقد اعطت ايطاليا الى شعر اوروبا ، شكلا ، صوتا ، نعما ، رشاقة ، ظرافة ، احتداما فأخرجته من شكله الاولي العديم الشكل ، من بدائيته غير المهذبة المرتدية برذعة ودرعا . لقد حول نور ايطاليا اسمال الرواة وصلابة الاناشيد البطولية الحماسية الى نهر غزير واقف من الالماس المصقول المثقف المرصع .

لقد كان مدهشا لعيوننا ، عيون شعراء حديثي الوصول الى المعرفة ، قادمين من اقطار حيث المختارات الشعرية تبدأ بشعراء عام ١٨٨٠ ، ان ترى في المختارات الشعرية الايطالية تاريخ ١٢٣٠ ونيف او ١٣١٠ او ١٤٥٠ وبين هذه التواريخ قصائد «الترثيتو» (٤٩) الباهرة : الزينة المثيرة ، العمق والترصيع في اعمال (اليجيري Alishieri) ، (كافالكاتي) (٥٠) (بيتراركا) ،

-
- ٤٨ - كواسيمودو Salvatore : شاعر ايطالي (١٩١٠ - ١٩٦٧) .
٤٩ - ال ترثيتو el terceto : وزن من اوزان الشعر يشبه بحر المديد العربي .
٥٠ - كالكاتي Guido : شاعر وفيلسوف ايطالي (١٢٦٩ - ١٣٠٠) .

(بوليزيانو) (٥١) .

ان هذه الاسماء وهؤلاء الرجال قد اعاروا نورا «فلورنسيا» الى كاتبنا العذب القدير (غارثيلاسو دي لا بيغا) ، الى الحليم اللطيف (بوسكان Boscán) (٥٢) ، وأضاءوا لـ (غونفورا) وصبغوا بنشاطهم الظليلة كآبة (كيبيدو) وصاغوا «سونيتوس» (وليسم شكسبير) في انجلترا وأشعلوا مضامين فرنسا وبذلك ازهرت ورود (رونسارد) و(دو بيلاتي) .

هكذا اذن : الولادة في اراضي ايطاليا هي مهمة صعبة ، بالنسبة لشاعر ، مشروع ذو نجوم يتضمن ان يأخذ الشاعر على عاتقه القبة الزرقاء ذات الموايرث المشرقة المتألقة .

اني لاعرف منذ سنوات (سالفاتوري كواسيمودو) واستطيع القول بان شعره يمثل ضميرا قد يبدو لنا طيفا شبحيا بسبب شحنته الثقيلة المتوهجة . ان (كواسيمودو) هو اوروبي مزود بعلم اكيد في المعرفة ، في التوازن ، في اسلحة الذكاء كلها . تغير ان موقعه كإيطالي مركزي كممثل حالي لكلاسيكية غير متواصلة لم يجعله محاربا سجيننا داخل حصنه . ان (كواسيمودو) هو رجل عالمي بامتياز لا يقسم العالم تقسيما حربيا الى شرق وغرب بل يعتبر ان الواجب المعاصر المطلق هو محو الحدود بين الثقافة وقرار الشعر والحقيقة والحرية والسلم والفرح على ان هذه الاشياء كلها هي هبات لا تقبل القسمة والتقسيم .

في (كواسيمودو) تتحد الالوان والالحن لعالم هادىء بشكل كئيب . لكن حزنه لا يعني ريبة (ليوباردي) (٥٣) المهزومة بل انزواء الارض الخصبى في المساء ، هذا الورع الذي يتخذ المساء حين تحمي العطور والالحن والالوان والاجراس عمل اكثر البدور عمقا في الارض . اني لاعشق اللفظ القطف في هذا الشاعر العظيم ، وكلاسيكيته ورومانطيكته وأعجب خاصة

٥١ - بوليزيانو Angelo : شاعر ايطالي (١٤٥٤ - ١٤٩٤) .

٥٢ - بوسكان Juan : شاعر اسباني (١٤٩٢ - ١٥٤٢) .

٥٣ - ليوباردي Giacomo : كاتب ايطالي (١٧٩٨ - ١٨٣٧) .

بما فيه من تضمين خاص لاستمرارية الجمال ، كذلك بقدرته على تحويل ذلك كله في لغة ذات شعر حقيقي مهزّ مؤثر .

اني لارفع عبر المدى وفوق البحر والبعد تاجا شذيا مصنوعا من اوراق «اراوكانيا» وادعه يطير في الهواء كي تحمله الرياح والحياة لتضعه فوق جبين (سالفاتوري كواسيمودو) . ليس هو بتاج الغار «الايولوني» الذي رأيناه مرات كثيرة في صور (فرانثيسكو بيتراركا) بل هو تاج من غاباتنا غير المرتدة ، من اوراق ليس لها حتى الآن من اسماء ، مضمخة بالندى في اسحار جنوبية .

(بايخو Vallejoz (٥٤) يحيى من جديد

رجلا آخر كان (بايخو) . ابدا لن انسى رأسه الكبير الاصفر ، الشبيه بالرؤوس التي نراها في الشبابيك القديمة بـ «بيرو» . لقد كان (بايخو) جديا ونقيا . مات في باريس . مات من هواء باريس القدر ، من النهر القدر حيث اخرجوا أمواتا كثيرين . لقد مات (بايخو) من جوع وممن اختناق . لو كنا احضرناه الى موطنه «بيرو» ، لو كنا جعلناه يستنشق هواء أرضا بيروية فلربما كان لا يزال حيا حتى الآن يفني وينشد . لقد كتبت في فترتين مختلفتين قصيدتين عن صديقي الحميم ، عن رفيقي المخلص . اعتقد اني وصفت فيهما سيرة صداقتنا الموزعة . القصيدة الاولى هي «نشيد الى (ثيسر بايخو)» وهي تظهر في الجزء الاول من «اناشيد بدائية» .

في الاوقات الاخيرة ، في هذه الحرب الصغيرة حرب الادب ، الحرب القائمة بين جنود صغار ذوي اسنان مفترسة اخذوا يقذفون بـ (بايخو) بظل (ثيسر بايخو) بغياب (ثيسر بايخو) بشعر (ثيسر بايخو) ضدي وضد شعري . هذا يمكن ان يقع في الجهات كلها . ان الامر هو جرح من عملوا كثيرا واهانتهم . يقولون : «هذا ليس بجيد ، (بايخو) بلى كان جيدا . لو

٥٤ - بايخو Cesar : شاعر مشهور من البيرو (١٨٩٢ - ١٩٢٨) .

أن (نيرودا) كان ميتا لقدفوا به ضد (بايخو) الحي» .

القصيدة الثانية عنوانها هو حرف واحد فقط الا وهو حرف (V) (٥٥)
وهي تظهر في ديوان «شاذ» . (Estravagario) ٥٥

للبحث عما هو غير محدد ، عن الدليل او الخيط الذي يربط الانسان
بآثره ، اتكلم ممن كان لهم علاقة ما او كثير من العلاقة بي . لقد عشنا الحياة
معا وهانذا الآن أحياهم من جديد . ليس لي بد من ان أسير غور ما يسمى
بالسر الشعري وأنا سأسميه بالوضوح الشعري . لا بد ان تكون ثمة علاقة
بين الايدي والآثر ، بين عيون الانسان ، أحشائه ، دمائه وبين عمله . لكن
ليست لي نظرية . انا لست أسير ومذهبي تحت ذراعي كي اتركه يسقط
فوق رأس احد من الناس . مثل البشر كلهم انا ارى كل شيء واضحا يوم
الاثنين ، وأرى كل شيء غامضا يوم الثلاثاء واعتقد ان هذا العام هو واضح
- غامض . الاعوام القادمة ستكون بلون أزرق .

(غابريلا ميسترال)

لقد قلت سابقا اني عرفت (غابريلا ميسترال) في قريتي ، فسي
«تيموكو» . لقد نزحت هي عن هذه القرية الى الابد من بعد . (غابريلا)
كانت اذالك في منتصف حياتها الشاقة المجتهدة وكانت ، خارجيا ، ديرية،
كانها رئيسة على راهبات مستقيمات .

في تلكم الايام كتبت هي قصائد «الابن» مصنوعة في نشر نقي مطرز
مكوكب لان نشرها كان في معظم الاحيان اكثر شعرها تأثرا . بما انها في
قصائد «الابن» تصف الوهن والطلق والمخاض والنمو فان شيئا مشوشا قد
وشوش به في «تيموكو» ، شيئا مبهما غير محدد ، شيئا بديشا بشكـل
بريء، ربما كان تعليقا فظا جرح كونها عزباء ، تلفظ به هؤلاء الناس العاملون

٥٥ - (V) . هو اول حرف من اسم (بايخو) ، ونحب هنا ان نلفت انظار القارىء
العربي الى ان هذا الحرف ينطق باللغة الاسبانية كما ينطق حرف (B) .

بالسكة الحديدية او بالاخشاب الذين اعرفهم جيدا فهم اناس أجسلاف
عاصفيون ولكن صريحون يسمون الخبز خبزا والنبيد نبيدا .

شعرت (غابريلا) انها مهانة وماتت وهي تشعر انها مهانة .

بعد سنوات ، في الطبعة الاولى لكتابها العظيم ، وضعت ملاحظة بلا
فائدة ضد ما كان قد قيل وهمس به حول شخصها في تلك الجبال بأخر
العالم .

في مناسبة انتصارها التاريخي بجائزة «نوبل» التي توجت بها كان
عليها ان تمر اثناء سفرها بمحطة «تيموكو» . كانت المدارس تنتظرها كل
يوم ، والطالبات كنّ يصلن الى المحطة مضمخات بالمطر مختلجات بزهور
«كوبيهويه» . ان «ال كوبيهويه» (el copihue) هي الزهرة الكوكبية ،
التويج الجميل البري من «لا اراوكانيا» . لقد كان انتظارهن عديم الجدوى
اذ ان (غابريلا ميسترال) رتبت الامر كي تمر من هناك ليلا فقد بحثت عن
قطار ليلي معقد كي لا تستلم زهور «كوبيهويه» من «تيموكو» .

حسنا هل هذا يسيء الى (غابريلا) ؟ هذا يعني ببساطة ان الجراح
كانت تدوم في مشاعر نفسها وانها لم ترقا في سهولة . ان هذا يكشف ان
في روح هذه المؤلفة ذات الشعر العظيم جدا ثمة صراعا كما في روح اي
انسان ، صراعا بين الحب والحقد بين المحبة والكراهية .

لقد كانت دوما تبتسم لي ابتسامة مفتوحة ابتسامة رقيقة طيبة ،
ابتسامة طحينية في وجهها ذي الخبز الاسمر .

لكن ، ما هي احسن المضامين في فرن اعمالها ؟ ما هو السر المقوم
لشعرها الاليم دوما ؟

انا لن اروح استقصي عن ذلك ، وبالتأكيد لن اتوصل الى معرفته ،
وان عرفته لن ابوح به .

في شهر ايلول (٥٦) هذا يزهر اللفت البري فالحقل سجادة صفراء
مرتمشة . هنا في الساحل تعصف الريح الجنوبية في غضب رائع منسد
اربعة ايام . الليل مليء بحركتها الصاخبة الرنانة . المحيط هو في الوقت
نفسه زجاج اخضر مفتوح وبياض هائل .

فتصلين انت يا (غابرييلا) ابنتها الابنة الحبيبة لزهور اللفت البري هذه،
لهذه الحجارة ، لهذه الريح الهائلة فنستقبلك جميعنا في فرح . لن ينسى
احد اغانيك للاشواك ، للثلوج مي تشيلي . انك لتشيلية . تنتمين السي
الشعب . لن ينسى احد ابياتك عن اقدم اطفالنا الحفاة . لم ينس احد
«كلمتك اللعينة» (٥٧) . انك لنصيرة للسلم مؤثرة . لهذه الاسباب ولغيرها
احبناك ونحبك .

تصلين انت يا (غابرييلا) الى زهور اللفت البري والى اشواك تشيلي .
انك لتستحقين ان ارحب بك الترحاب الحقيقي ، المزهو المخشوشن بما
يناسب عظمتك ويتلاءم وصدقتنا التي لا تنهار . ان ابواب ايلول الحجرية
الربيعية تنفتح لك . لا شيء احب الى قلبي من رؤية ابتسامتك العريضة
وهي تدخل الى الارض المقدسة التي يجعلها شعب تشيلي تزهر وتزدهر
وتغني .

انه ليخصني ان اشاركك الجوهر ، والحقيقة التي بفضل صوتنا
وافعالنا ستصبح محترمة . فليطمئن قلبك الرائع وليكافح وليغن وليبدع
في وحدانية الوطن المحيطية «الانديسية» .
اني لا قبل جبينك النبيل واجل شعرك الرحب .

(بيثينته هويدوبرو)

لقد لاحقني الشاعر الكبير (بيثينته هويدوبرو) الذي تبنى دائماً

٥٦ - ايلول : هو بداية فصل الربيع في امريكا اللاتينية .

٥٧ - كلمتك اللعينة : هي قصيدة لهذه الشاعرة العظيمة بعنوان «كلمة لعينة» .

الدسييسة الخبيثة تجاه الاشياء كلها بدسائسه العديدة ، فكان يرسل رسائل بلا توقيع يتهمني فيها بالانتحال والاقتباس . ان (هويدوبرو) لمثل صف طويل من المتمادين في غيئهم ، المصرين على ضلالهم . ان هذا الشكل من الدفاع عن النفس في حياة تلك الفترة المضطربة التي لا تمنح الكاتب اي دور ، كان صفة عامة صبغت الاعوام السابقة على الحرب العالمية الاولى ان الوضعية المركزة على الذات انعكست في امريكا كصدى لتبجئحسات (دانونثيو) (٥٨) في اوروبا . هذا الكاتب الايطالي ، المسرف الكبير ، المنتهك لسنن البورجوازية الصغيرة ترك في امريكا صوى بركانية من «المهدية» (٥٩) . وكان اكثر اتباعه فخفخة وثورية هو (بارغاس بيلا) (٦٠) .

انه لمن الصعوبة جدا ان اذم (هويدوبرو) فقد شرفني طيلة حياته كلها بحرب مدادية تستحق المشاهدة . لقد تقلد لقب «إله الشعر» ولم يجد عدلا اني ، وأنا شاب اصغر منه بكثير ، اشكل جزءا من «وادي عبقر» (٦١) الذي هو إلهه . ابدا ما استطعت ان اعرف على وجه الدقة ماذا كان يدور في «وادي عبقر» هذا . كان اناس (هويدوبرو) يبتدعون ، «يتسريلون» (٦٢) ، يلتهمون آخر ورقة طبعت في باريس . انا كنت اقل شأنا منهم ، قرويا لا يمكن صياغته من جديد ، ارضيا ، شبه متوحش .

لم يكن (هويدوبرو) ليقنع بأنه شاعر موهوب جدا كما كان فعلا بل كان يريد كذلك ان يكون «سوبرمان» ، كان ثمة شيء جميل طفولي في شيطنته . لو انه ظل حيا حتى هذه الايام لكان تطوع في اول رحلة الى القمر . اتخيله وهو يبرهن للعلماء ان جمجمته هي الوحيدة فوق هذه الارض المؤهلة طبيعيا بسبب ما لها من شكل ومن مرونة للتلاؤم مع الصواريخ الكونية والمراكب الفضائية .

-
- ٥٨ - دانونثيو Gabriel : كاتب وسياسي ايطالي (١٨٦٣ - ١٩٢٨) .
٥٩ - المهديّة : في الاصل (Mesianismo) الامتقاد بمجيء مخلص من السماء .
٦٠ - بارغاس بيلا : كاتب وديپلوماسي من كولومبيا (١٨٦٠ - ١٩٣٣) .
٦١ - وادي عبقر : في الاصل (Olimpo) ، وهو جبل الشعر وموضع الجنة في ديانة اليونان القديمة .
٦٢ - يتسريلون : يتمذهبون بالسريالية .

بعض النواذر قد تحدده . مثلا ، حين عاد الى تشيلي بعد الحرب العالمية الاخيرة وقد غدا عجوزا يقترب من نهايته اخذ يرى الناس كلهم هاتفا صدنا ، وكان يقول :

— لقد اختطفته شخصيا من (هتلر) فقد كان هذا الهاتف هو المفضل لدى «الفوهرر» .

ذات مرة أروه عملا نحتيا اكاديميا سيئا فقال :

— يا للفظاعة ! انه لاسوا من اعمال (ميفيل انجيل) .

يستحق الذكر ايضا الكلام عن مغامرة رائعة كان هو بطلها بباريس في عام ١٩١٩ . فقد نشر (هويدوبرو) كتيباً معنوناً بـ (Finis Britanniu) فيه كان يتوقع انهيار الامبراطورية البريطانية العاجل . بما انه لا احد علم بتنبؤه هذا فقد اختار الشاعر ان يختفي عن الانظار . فاهتمت الصحافة بأمر اختفائه : «ديبلوماسي تشيلي بشكل غامض مختطف» بعد بضعة ايام ظهر مسطحا عند باب داره .

(Boy - Scouts) انجليز اختطفوني — صرح الى الشرطة — وربطوني الى عامود في مكان تحت الارض وأجبروني على ان اهتف الف مرة : «تحيا الامبراطورية البريطانية» .

ثم عاد الى الاغماء . لكن رجال الشرطة فحصوا سفيطا كان يحمله تحت إبطه فوجدوا فيه بيجاما جديدة كان (هويدوبرو) نفسه قد اشتراها قبل ثلاثة ايام من محل جيد في باريس . فكشف كل شيء . لكن (هويدوبرو) خسر صديقا وهو الرسام (جان غريس Juan Gris) (١٩٢٠) الذي كان قد اعتقد بدون ريب في امر الاختطاف وعانى عذابات اليمسة بسبب المداهمة الامبريالية واعتمائها على الشاعر التشيلي . فلم يفقر له ابدا تلك الاكذوبة .

٦٣ — خوان غريس : رسام اسباني (١٨٨٧ - ١٩٢٧) .

ان (هويدوبرو) لشاعر من زجاج . يلمع اثره الشعري من كل الجهات، ولايره بهجة باهرة ان فسي شعره كله بريقا اوروبيا يبلوره هو ويصوغه في صنعة لطيفة ذكية .

ان اكثر ما يفاجؤني في اثره عدة مرات هو شفافيته . ان هذا الشاعر الاديبي الذي تابع واتبع النماذج التي كانت سائدة فسي فترة منعقدة منشابة ، والذي صمم على الا يصفي لجلال الطبيعة ووقارها ، يجعل الفناء المائي الدافق ابدا ينساب من خلال شعره وحفيف الهواء والاوراق والانسانية العظيمة تسيطر تماما على قصائده الاخيرة وما قبل الاخيرة .

ان في (هويدوبرو) ، انطلاقا من زخارف شعره المتفرنس الرائعة حتى قوى آلياته الاساسية المتينة ، صراعا بين الصنعة والنار ، بين التملص والمعاناة . هذا الصراع يشكل مشهدا ، يجري في نور مطلق وفي وعي مطلق ، تقريبا ، بوضوح باهر .

ليس من شك في اننا عشنا بعيدين عن اثره الشعري متوهمين اننا في غنى عنه وفي اكتفاء . اننا لنتفق على ان الاعداء (بيثينته هويدوبرو) كان هو (بيثينته هويدوبرو) نفسه . لقد اسدل الموت ستارا على حياته الفانية ولكنه رفع ستارا آخر فكشف الى الابد عن نوعيته الباهرة . لقد اقترحت ان يقام له نصب تذكاري قرب نصب (روبين داريو) . لكن حكوماتنا مقتررة في اقامة تماثيل للمبدعين الخلاقيين بقدر ما هي مبدرة في اقامة تماثيل بلا معنى ولا مغزى .

اننا لا نستطيع ان نفكر في (هويدوبرو) كبطل سياسي على الرغم من غاراته السريعة على الساحة الثورية . لقد كانت له تجاه الافكار والمبادئ متناقضات طفل مدلل . غير ان هذا عفى عليه الزمن وصار امرا قديما حمله العجاج وسنكون نحن متناقضين ان نصبنا انفسنا لنغرز فيه الخلال (٦٤) في مخاطرة اطلاق اجنحته والفت من عضده . انه لاجرى بنا ان نقول ان قصائده في ثورة تشرين وفي موت (لينين) لهي مساهمة اساسية جوهرية

٦٤ - الخلال : هكذا في الاصل Alfieres وهي الابر والدبابيس . عن العربية

قدمها (هويدوبرو) الى اليقظة الانسانية .

لقد مات (هويدوبرو) في عام ١٩٤٨ ب «قرطاجنة» (٦٥) قرب «ايسلا نيغرا» ولكنه قبل ان يموت كتب قصائد من اكثر القصائد التي قراتها في حياتي جدية وتأثيرا في النفس . قبيل موته زارني في داري ب «ايسلا نيغرا» في رفقة (غونثالو لوسادا) وهو ناشر وصديق حميم لي . (هويدوبرو) وانا تكلمنا في مودة شاعرين ، تشيليين ، صديقين .

اعداء ادباء

اني لافترض ان النزاعات بين الكتاب في قدر كبير او صغير قد وجدت وستظل توجد في مناطق العالم كلها .

يكثر بين ادباء القارة الامريكية المنتحرون العظام . في روسيا الثورية احدق الحاسدون ب (ماياكوفيسكي) الى ان اطلق على نفسه النار .

ان الاحقاد الصغيرة تستشري وتستشيط في امريكا اللاتينية . يصل الحسد احيانا الى ان يكون حرفة . يقال بأن شعور الحسد هذا وراثاه عن اسبانيا الاستعمارية المنقرضة . الحقيقة هي اننا نجد في (كيبيدو) وفي (لوبيه) (٦٦) وفي (غونغورا) بشكل مألوف، الجراح التي سببها بعض لبعض . ان القرن الذهبي على الرغم من بريقه الفكري الادبي الرائع كان فترة تعيسة بالجوع الذي يطوف حول القصور يفني وينشد .

في السنوات الاخيرة اخذت الرواية مساحة جديدة في اقطارنا . ان اسماء (غارثياماركث (Garcia Marquez) (١٧) ، (جان رولف (Juan Rulf)

٦٥ - قرطاجنة : هي بلدة في تشيلي وليست قرطاجنة الاسبانية ولا قرطاج التونسية .

٦٦ - لوبيه (de Vega) : كاتب اسباني معروف (١٥٦٥ - ١٦٣٦) .

٦٧ - غارثيا ماركث (Gabriel) : روائي من كولومبيا ولد عام ١٩٢٨ .

(بارغاس يوسا (Vergas Llosa) ، (ساباتو (Sabato) (١٩٦٩)،
(كورتازار Cortazar) ، (كارلوس فوينتيس) (٧٠) ، التشيلي (دونوسو
(Donaso) ، اخذت تسمع وتقرأ في كل جهة . لقد عمّدوا انفسهم باسم
(Boom) . وانه لايف ان تسمع من يقول بانهم يؤلفون مجموعة مطنطنة
متبجحة .

لقد عرفتهم كلها تقريبا فوجدتهم بشكل ملحوظ اصحاء كرماء . اني
لانهم - كل يوم في وضوح اكثر - ان بعضهم اضطر الى مغادرة وطنه
بحثا عن طمانينة اكبر تساعده في عمله ، بعيدا عن سياسة الضغينة والاحنة
والحسد المتكاثر المستشري . ان اسباب هجرتهم الاختيارية لا تدحض ولا
تنقض : لقد راحت كتبهم تصير جوهريّة ، اكثر فاكثرا ، في حقيقة بلداننا
واعلامها .

كنت اتردد في ان اتكلم عن تجاربي الشخصية مع هذا الحسد
المتطرف . لم اكن ارقب في ان ابدو على اني اناني لا هم لي الا الحديث عن
نفسي دوما والانشغال بدائي دائما . لكن لحسن حظي كان من نصيبي
حساد ملحون مصرون طريفون جدا الى درجة اني وجدت مفيدا الشروع
بالقول .

انه لمن المحتمل ان هذه الاشباح المطاردة المزعجة اغضبنتني ذات مرة،
بيد ان الحقيقة هي انهم كانوا يؤدون بشكل غير ارادي واجبا دعائيا غريبا
كما لو انهم اتفوا مؤسسة تعمل على ان يصبح اسمي يرن في كل مكان .

لقد ترك موت احد هؤلاء الخصوم الاشباح ، موتا مأساويا ، نوعا من
الفراغ في حياتي . كان يشن الحرب خلال سنين عديدة على كل ما

-
- ٦٨ - جوان رولف : روائي مكسيكي ولد عام ١٩١٨ .
٦٩ - ساباتو (Ernasto) : روائي ارجنتيني ولد عام ١٩١١ .
٧٠ - كارلوس فوينتيس : روائي مكسيكي ولد عام ١٩٢٨ .

كنت أفعله وأقوله ، الى حد اني أفقدتها بعد ان فقدتها .

ان اربعين سنة من المطاردة الادبية لهو امر رائع حقا . اني لاشعر بشيء من الابتهاج حين ابعث هذه المعركة الوحيدة الطرف التي كانت معركة انسان ضد ظله ذاته ، من رقادها . هي وحيدة الطرف لانني لم اشارك فيها البتة .

لقد نشر خمسا وعشرين مجلة مدير غير قابل للتغيير (كان هو نفسه مديرا لهذه المجلات دوما) واختصت هذه المجلات بمحاولة تهديمي ادبيا فكانت تنسب لي كل نوع من انواع الجرائم ، الخيانات ، الذبول الشعري ، الشح الابداعي ، الشذوذ الجنسي ، الانحراف الخطير . كذلك كانت تظهر منشورات ضدي توزع في مثابة وإلحاح ، وريپورتاجات لا تخلو من الفكاهة وأخيرا ظهر مجلد ضخيم معنون «أنا ونيرودا» (٧١) وهو كتاب سمين بدين ينطوي على شتائم مقدعة .

كان خصمي هذا شاعرا تشيليا اكبر مني عمرا ، متعصبا ، متطرفا ، استبداديا ، اكثر ايماء في حركاته منه فعلا واصيلا . ان هذا النوع من الكتاب الموهوبين انانية شرسة يتكاثر عددهم في بلدان امريكا وهم يتبنون اشكالا كثيرة من الفظاظة والاكتفاء الذاتي والتركيز على الذات ، لكن نسبهم «الدانونزيا» هو ، بشكل مأساوي ، حقيقي .

كنا نحن الشعراء الجياع المرتدين اسمالا رثة نطوّف عبر مجالاتنا الفقيرة في الاسحار غير الرحيمة بين تقيؤ السكارى . كان الادب في هذه الاجواء البنائسة ينتج بشكل غريب شاذ نماذج معرّبة ، اشباحا مسن الصلوكية الباقية على قيد الحياة . ان العدمية ، استهتارا «نيتشويا» مزيفا ، كانت تدفع بالكثير من جماعتنا الى التخفي تحت اقنعة اجرامية . ليس بالقليل من عوج سبيل حياته نحو الجريمة او التدمير الذاتي .

٧١ - أنا ونيرودا : العنوان هو تقليد وللميح لكتاب «أنا وحماري» للاديب الشاعر الاسباني (خوان وامون خيمينيث) .

ان خصمي الخرافي الاسطوري نشأ من هذا المشهد . اول الامر حاول ان يفريني ويفويني ، ان يدخلني في لمبته وقواعدها . فلم يكن هذا لتقبله ريفيتي البورجوازية الصغيرة . لم اكن أجرو وما كان يعجبني ان احيا في الاحتيال والغش . بطلنا هذا على العكس كان خبيرا في استخراج العصير من الفرس السانحة (٧٢) . كان يعيش في عالم مهزلة مستمرة حيث يحتال على نفسه ويفس ذاته مخترعا له شخصية مهددة كانت تفيده كحرفسة وكحماية .

لقد حان الوقت كي نسمي هذه الشخصية المسرحية ، انه (بيريكو دي بالوديس Perico de Paloths) . كان رجلا قويا أسعر بحاول ان يؤثر ببلاغته وبمظهره . في احدى المناسبات ، حين لم يكن لي من العمر سوى ثماني عشرة سنة او تسع عشرة ، اقترح عليّ ان تصدر مجلة ادبية . كانت المجلة ستحتوي فقط على قسمين ، في قسم سيؤكد هو نثرا وشعرا وبحثا ولحنا على اني شاعر عبقرى قدير وفي القسم الآخر اثبت انا على مدى الجهات الاربع انه هو ذو الذكاء المطلق والموهبة غير المحدودة وبهذا كل شيء يسلك وينتظم .

مع اني كنت فتيا صغيرا فقد بدا لي ذلك المشروع مفرطا مبالغا . غير اني بذلت جهدا كبيرا ضد نفسي كي انصرف عنه نظرا لاغرائه . هو كان ناشرا للمجلات عجيبا غريبا . لقد كانت مدهشة حقا قدرته على نبش ارسدة كي يحافظ على اصدار منشوراته الهجائية الخالدة .

في المحافظات المنعزلة ذات الامطار والعواصف كان يضع خطة عمل دقيقة . كان يصنع قائمة طويلة بأسماء الاطباء والمحامين واطباء الاسنان والمهندسين الزراعيين والاساتذة والمهندسين والمدراء والموظفين الكبار الخ . كان بطلنا هذا يأتي اليهم وهو مكلل بهالة كبيرة من منشوراته الضخمة ومجلاته الكثيرة وأعماله الكاملة وكتبه الملحمية والغنائية ، على انه رسول الثقافة الكونية . كل ذلك كان يقدمه بشكل جاد صارم الى هؤلاء الرجال المقهورين الذين يزورهم في بيوتهم ومن بعد يفضل فبتنازل بقبول بضعة

٧٢ - استخراج العصير من الفرس السانحة : تعبير اسباني وهو واضح المعنى .

«اسكودو» (٧٢) منهم . امام كلامه الفصيح البليغ كانت الضحية تتضاءل الى حجم ذبابة . بشكل عام كان (دي بالوديس) يخرج من بيت ضحيته وفي جيبه مبلغ من «ال سكودو» تاركا الذبابة منصرفة للتحويم فوق عظمة الثقافة العلمية .

احيانا اخرى كان (بيرثيو دي بالوديس) يقدم نفسه على انه خبير في الدعاية الزراعية ويقترح على الفلاحين الجنوبيين البريئين ان يقوموا بنشر ابحاث فاخرة جدا عن املاكهم مع صورهم وصور ابقارهم . لقد كان منظرا يستحق المشاهدة حين يصل وهو يرتدي سروال ممتطي الخيول وينتعل جزمة مثل جزم رجال الاطفاء ويلتف بسترة رائعة كان اتى بها من مصدر غريب . بين اغراءات وتهديدات زائفة بكتابات مضادة كان زلمتنا يخرج ببعض الشيكات من اراضي هؤلاء الملاك الذين هم بخلاء ولكنهم واقعيون اذ انهم كانوا يناولونه بعض الاوراق النقدية كي يتخلصوا منه .

ان الميزة السامية العليا في (بيرثو دي بالوديس) : وهو فيلسوف «نيتشوي» وحاك «فونوغرافي» لا شفاء له ، لهي عربدته الفكرية ومشاغبته الفيزيولوجية . لقد كان يمارس «المنفخة» في الحياة الادبية بتشييلي . كان له خلال سنين كثيرة شردمة من الفقراء المساكين يطبلون له ويزمرون . لكن الحياة معتادة على ان «تنفس» بلا رحمة هؤلاء المنتفضين العرضيين من المخلوقات البشرية .

ان النهاية المساوية لخصمي النزق هذا - انتحر وهو عجوز - جعلتني اتردد كثيرا قبل ان اكتب عنه هذه الدكريات . لقد فعلت هذا اخيرا ، خاضعا لامر املته عليّ الفترة واجبرني عليه المكان . ان سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الاقطار الناطقة باللغة الاسبانية ، تنخر اثار انكاتب في جسد لجوج . ان الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة المهدمة هي عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير به .

لقد كانت المطاردة الادبية - السياسية المتسلسلة التي اطلقها ضدي

و ضد اعمالى الشعرىة رءل من «اوروغواى» مشبوه ذو لقب جلىقى ، شىء هكءا مثل (ريبرو Ribero) ، معتوهة جدا وملحاةة جدا على حد سواء . ان هءا الزلة ىنشر منذ عدة سنن بالاسبانىة وبالفرنسىة كءبسا هجائىة ىنهشنى فىها وىفظعنى اربا اربا . ان ما ىدهش هو ان مآءره ضد «النرودىة» لا ءظفى على ورق الطباعة الءى ىنفق عليها هو بنفسه ، فحسب بل كءلك ىقوم بءمولل سفرىاء باهظة ءهءف الى ءءمىرى بلا رحمة .

لقد رءل هءا البطل مءءملا مشقة السفر ءءى وصل الى مقر ءامعة «اوكسفورء» اء انه علم انهم هناك سىمنءونى لقب ءكءور فءرى . وصل هءا الشعور الشوىمر المءشاعر الى ذاك المكان وهو مزوء بمءموعة من سهام الاءهاماء الخىالىة ومسءءء لءقوىضى اءبىا . لقد قص على الساءة اساءءة ءامعة فى فكاهة ، الاءهاماء الءى وءهها ضءى ءىن ءنء لما ازل ارءى ءبة القرمزىة اللون الرسمىة بعء ان اسءلمء الامءىاز الفءرى ، انءاء ما ءنا نءءسى النبىء الطقوسى .

ءان اكءر مءالا واشء ءطاولا سفر هءا الاوروغواى الى «اسءوكهولم» عام ١٩٦٣ . فقد ءان ىساع بانى ساءصل فى ءلك المناسبة على ءائزة «نوبل» . حسنا اءن هءا الزلة اءرى مؤءمراء صحفىة ، ءكلم بالاذاعة ءى ىؤكد على انى ءنء واءءا ممن اغءالوا (ءروسءى) . وءان ىءاول بهءه المناورة ان ىءرمنى من ءائزة نوبل .

لقد ءبء بعء مضى الزمن ان الرءل ءان سىء العظء ءوما فقد فقء سواء فى «اوكسفورء» وسواء فى «اسءوكهولم» بشءل ءزىن ، ماله وءهءه .

نقء ونقء ذاءى

لا ىمكن انءار انى ءظىء بنقءاء ءىءىن . لا اقصد الولاءم والماءب الاءبىة الءى اءىمء لى ولا اعنى الشءائم الءى اءرءها بشءل ءىر اراءى .

اعنى اناسا آءرىن . من بىن الكءب الءى الءء عن شعرى ، بعء ان

استثنى ما كتبه شبان هواة متحمسون ، اخص بالذكر واضح في المكان الاول الافضل ما ألفه الكاتب السوفييتي (ليف اوسبوفات (Lev Ospovat) فلقد توصل هذا الشاب الى اثنان اللغة الاسبانية فرأى شعري بشيء اكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظورا مطابقا من نور عالمه الشمالي .

لقد نشر (امير رودريغيث مونيغال (Emir Rodriguez Monegal (٧٤) وهو ناقد من الطراز الاول ، كتابا حول اعماله الشعرية وعنوانه «الرحالة المسنقر» . يلاحظ من النظرة البسيطة ان هذا الدكتور ليس بغبي فقد انتبه في سرعة الى اني احب ان اسافر دون ان اتحرك من بيتي ، دون ان اخرج من بلدي ، دون ان ابتعد عن نفسي . (في نسخة عندي من ذلك الكتاب الرائع عن الادب البوليسي المعنون بـ «الحجر القمري» ثمة صورة تعجبني جدا تمثل فارسا انجليزيا قديما متشحا بحلته او بـ (Macfrlän) او بزيه الرسمي او ، مهما كان ، جالسا قرب المدفأة ، وكتاب في يده ، وقلبون في اليد الاخرى ، وكلبان نائمان عند قدميه . هكذا يطيب لي ان امكث دوما ، امام النار ، ازاء البحر ، بين كلبين ، قارئ الكتب التي كلفني جمعها جهدا جهيدا ، مدخنا غلاييني) .

ان كتاب (امادو الونسو) (٧٥) - «شعر (بابلو نيرودا) واسلوبه» - هو صالح للكثيرين . مهم جدا تنقيح الشغوف الكلف في الظلال بحثا عن المستويات بين الكلمات والواقع المنزلق اللزج . اصف الى هذا ، ان دراسة (الونسو) تكشف عن اول اهتمام جدي في لغتنا بأثر شاعر معاصر . وهذا يشرفني كثيرا جدا .

لقد استعان بي لدراسة شعري وتوضيحه وتحليله نقاد كثيرون ممن بينهم (امادو الونسو) نفسه الذي كان يحقد بي بأسئلته الكثيرة ويمضي بي الى جدار الوضوح حيث كنت اذالك لا أستطيع مجاراته .

٧٤ - امير رودريغيث مونيغال : كتاب معاصر من الاورغواي .
٧٥ - امادو الونسو : هو باحث لغوي اسباني ، هاجر الى الأرجنتين (١٨٩٦ - ١٩٥٢) .

يظن بعضهم اني شاعر سريالي وبعضهم الآخر يعتقد اني شاعر واقعي وهناك من لا يؤمن في اني شاعر . وانا ارى ان لديهم جميعا قليلا من الحق وقليلا من الباطل .

ان ديوان «مقام في الارض» نظم او على الاقل شرع بنظمه قبل ازدهار السريالية ، كما ان ديوان « محاولة الانسان اللامحدود » كتب كذلك قبل السريالية ، بيد انه يجب الا يوثق في امر التاريخ هذا . ان هواء العالم ينقل ذرات الشعر سواء اكان هذا الشعر خفيفا مثل الطلع او ثقيلًا مثل الرصاص ، فتسقط هذه البذور في الاتلام او فوق الرؤوس وتمنح الاشياء جو ربيع او جو معركة ، وتنتج ازهارا او قدائف على حد سواء .

اما بالنسبة للواقعية فيجب عليّ ان اقول ، اقول : «يجب» لانه لا يناسبني ان اقول انا ما سأقوله ، اني امقت الواقعية حين يتعلق الامر بالشعر . واكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر ان يكون فوق الواقعية او تحت الواقعية لكن يمكن له ان يكون ضد الواقعية . وهذا الامر الاخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، اي بالشعر .

يروق لي الكتاب ، مادة العمل الشعري الكثيفة ، غابة الادب ، يروق لي كل شيء ، حتى كعاب الكتاب تروق لي ، لكن لا تستهويني عناوين المدارس . اريد كتبا بلا مدارس وبدون وضع علامات مثل الحياة .

يعجبني «البطل الايجابي» في (والت ويتمان) (٧٦) وفي (ماياكوفيسكي)، اي فيمن وجدوه بدون وصفه طبية فتمثلوه ليس بلا معاناة ، وجسدوه في الفة حياتنا الجسدية وجعلوه يشاركنا الخبز والحلم .

ان على المجتمع الاشتراكي ان يقضي على ميثولوجيا فترة مستعجلة كانت فيها اللافتات تساوي اكثر من السلع وفيها اهملت المضامين . لكن

٧٦ - والت ويتمان : شاعر مشهور من الولايات المتحدة الامريكية (١٨١٩ - ١٨٩٢) .

الحاجة الماسة ، هي ان يكتب الكتاب كتبا جيدة . كما يعجبني «البطل الايجابي» الذي عثر عليه في متاريس الحروب الاهلية المضطربة كل مسن الامريكي الشمالي (ايتمان) والسوفييتي (ماياكوفيسكي) فان قلبي يسع كذلك البطل المتشح بثياب الحدود عند (لوتريامونت) والفارس المتحسر لدى (لافورجيه) والجندي السلبي في (شارل بودلير) (٧٧) . حذار مسن فصل نصفي تفاحة الخلق بعضا عن بعض لانه ان فعلنا ذلك ، ربما نقسم القلب فلفتين وندع الوجود . حذار ، يجب ان نطلب من الشاعر ان يتخذ له مكانا في الشارع وفي المعركة كما في النور وفي الظل .

ربما ان واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله . ان شرف التسمر كان الخروج الى الشارع كان المشاركة في هذا العراك وفي ذلك . لم يرتعد الشاعر حين قالوا له انك لعاص فالسعر هو العصيان . لم يشعر الشاعر بالاهانة حين دعوه بالتمرد فالحيوة تتخطى البنى والصيغ واذ بسنن جديدة للروح . ان البلدة تقفز من كل جهة ، كل الافكار هي غريبة ، نحن ننتظر في كل يوم تغييرات هائلة ، نحيا في حماسة تحوّل النظام الانساني : ان الربيع لهو نائر .

اعطيت انا كل ما ملكت ، لقد قدفت بشعري الى الرمل ، ونزفت مع شعري دوما ، معاني الاحتضارات وممجدا المآثر التي كان من حظي اني شاهديتها وعشتها . بسبب او آخر لم يفهمني الآخرون وليس هذا بسيء من النواحي جميعها .

لقد قال ناقد اكوادوري انه ليس في كتابي «الاعناب والريح» اكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي . لقد قرأ هذا الناقد الاكوادوري بسلا محبة ديواني هذا لانه كتاب سياسي كما ان نقادا آخرين سياسيين اكثر من اللازم مقتوا ديواني «مقام في الارض» لانهم اعتبروه كتابا باطنيا قاتما داجيا . ان (جان مارينيو) (٧٨) الفلد الشهير جدا ادانه في زمن آخر باسم

٧٧ - شارل بودلير : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ - ١٨٦٧) .

٧٨ - حوان مارينيو : شاعر وكاتب كوبي ولد عام ١٨٩٨ .

المبادئ . اني ارى ان كلا من الطرفين يرتكب خطأ فادحا ناشئا عن نفس المنطلقات .

انا كذلك تكلمت ذات مرة ضد «مقام الارض» لكني فعلت ذلك وانا افكر ، ليس في الشعر ، بل في الجو المتسائم الذي يخلقه كتابي هذا ويتنفس فيه . لا أستطيع ان انسى مطلقا انه منذ سنوات قليلة انتحر شاب من «سانتياغو» على جذع شجرة وترك كتابي مفتوحا على القصيدة المعنونة «يعني ظللا» .

اعتقد ان لكتاب «مقام في الارض» وهو كتاب اساسي وظليل معتم في اثري الشعري ، ولكتاب «الاعناب والريح» وهو كتاب ذو رحاب فسيحة ونور كثير ، حقا في ان يوجد في ناحية ما من اعمال الشعرية وانا في هذا القول لا اتناقض .

الحقيقة هي ان في نفسي بعضا من الميل الى كتاب «الاعناب والريح» ربما لانه اكثر كتبي عدم تفهم من لدن الآخرين ، او لانه عبر صفحاته شرعت انا بالمسير في العالم . ان له لغبار دروب وماء انهار ، فيه احياء ومخلوقات ، ان فيه مجالات ومحيطات اماكن اخرى ما كنت اعرفها فراحت تنكشف لي لكثرة ما جبت وجلت . انه لواحد من احب الكتب الى نفسي ، اكرر وأعيد .

من بين كتبي كلها ديوان «شاذ» ليس هو اكثرها غناء بل هو اكثرها واحسنها وثبا . ان ابياته الونابة تقفز متجاوزة الوجاهة والوقار والاحترام ، والحماية المشتركة ، والسنن والواجبات ، كي ترعى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو اكثر كتبي الفة في نفسي . بسبب بلوغه يتوصل الى نباهة واهمية داخل شعري . على طريقتي الخاصة في الدوق والتدوق هو كتاب خطير عسير له طعم ملحي كطعم الحقيقة .

في «أناشيد بدائية» افترضت لنفسي ركيزة اصيلة ، مولدة . احببت اعادة وصف اشياء كثيرة غنيت وقيلت واعيدت مرارا وتكرارا . كانت نقطة انطلاقتي المتعمدة يجب ان تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمض القلم ، انشاء وظيفة مدرسية اجبارية عن الشمس ، او عن السبورة ، او عن الساعة ، او عن الاسرة الانسانية . ولا موضوع كان يمكن ان يبقى خارج

دائرتي ، كان عليّ ان المس كل شيء وانا سائر او وانا طائر ، مخضعا تعبيري للشغافية القصوى والبتولة الكبرى .

لاني شبّهت بعض الحجارة ببضعة بطّات صغيرات ، استهجن ذلك ناقد اورغوايي فقد كان هو قد أصدر مرسوما ينص على ان البطّات وكذلك بقية الحيوانات الصغيرة ليست بمادة شعرية . حتى هذا الحد من الهزل وعدم الجدية وصل الهراء الادبي . يريدون اجبار المبدعين على عدم معالجة شيء الا المواضيع السامية الرفيعة . لكنهم يخطئون . انسا نحن معشر الشعراء سنصنع شعرا حتى من اكثر الاشياء احتقارا من لدن معلمي الدوق الجيد .

البورجوازية تطلب شعرا يتعد اكثر فأكثر عن الواقع . ان الشاعر الذي يعرف ان يسمي الخبز خبزا والتبيل تبيلدا لهو خطير بالنسبة للرأسمالية المحتضرة المحشرجة . ان ما يناسب الرأسمالية هو ان يعتقد الشاعر في انه «إله صغير» ، كما لو ان (بيثينته هويدوبرو) كان قد قال ذلك . ان هذا الاعتقاد او هذا السلوك لا يزعج الطبقات الحاكمة . فهكذا يمكث الشاعر في برجه العاجي متأثرا بعزلته الربانية فلا يحتاج الى ان يرتشي او ان يسحق . هو نفسه قد رشا نفسه حين حكم على نفسه بالنفي الى السماء فيما الارض تمضي وترتجّ في طريقها وفي بريقها .

ان بين شعوبنا الامريكية للملايين من الاميين ، يحافظ على اللاتقافة كظرف موروث وكميماز من الاقطاعية . نستطيع القول ، امام عطالة سبعين مليون من الاميين في بلادنا ، ان قراءنا لما يولدوا بعد . يجب علينا ان نمجّل بهذا المخاض حتى يولد من يقرأ لنا ويقرأ للشعراء جميعا . لا بد من شق رحم امريكا كي نخرج منه النور المجيد .

ان نقاد الكتب بشكل مألوف يعملون على ارضاء أفكار الرؤساء الاقطاعيين . مثلا ، في عام ١٩٦١ ، ظهرت لي ثلاثة دواوين : «اغنية مفخرة» ، و«أحجار تشيلي» ، و«أناشيد شعائرية» ، فلم يذكر نقاد بلدي ولا حتى عناوينها في مجرى العام كله .

حين نشرت لأول مرة قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» كذلك لم يجرؤ احد من النقاد على ذكر هذه القصيدة في تشيلي . ذهب ناشر هذه القصيدة الى مكاتب اضخم صحيفة في الصحف التشيلية وهي صحيفة «ال ماركوريو» (٧٩) ، تصدر منذ حوالي قرن ونصف من الزمن وكان معه وصل مدفوع للاعلان عن ظهور هذا الكتاب فقبلوا ان ينشروا هذا الاعلان شريطة ان يحذف اسمي .

- لكن ، اذا كان (نيرودا) هو المؤلف - احتج الناشر (نييرا) .

- لا يهم .

فكان على كتاب «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» ان يظهر في الاعلان كما لو كان مؤلفه غفلا مجهولا . فماذا تفيد هذه الصحيفة مائة وخمسون سنة من العمر ؟ فهي في هذا الزمن كله لم تتعلم احترام الحقيقة ولا الوقائع ولا الشعر .

احيانا لا تخضع الاهواء السلبية ضدي ببساطة الى انعكاس صراع الطبقات الملتهب بل الى اسباب اخرى . على الرغم من اني اعلم منذ اربعين سنة متواصلة واني منحت عدة جوائز ادبية وان كتبي نشرت في اغرب اللغات فانه لا يمر بي يوم دون ان القى صفيعة او صفة من الحسد المحدق بي ، هذه هي حال داربي . لقد اشترت منذ عدة سنوات هذه الدار في «ايسلا نيفرا» بمكان خال قفر حين لم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا كهرباء . ثم حسنتها ورفعتها على دفعات كتب . احضرت تماثيل خشبية حبيبة الى نفسي ، تماثيل قياديم لسفن عتيقة فوجدت في داربي هذه مراحا ومستراحا بعد اسفار مرهقة طويلة .

لكن نمة كثيرين من الناس لا يسيحون لشاعر ان يتوصل كثرمة لآثره الادبي المنشور في كل جهة من العالم الى حيازة الكرامة المادية التي يستحقها الكتاب كلهم والموسيقيون جميعهم والرسامون قاطبة . ان الكتب

٧٩ - ماركوريو : هو عطارده وهو إله التجارة عند اليونان .

الرجعيين المنبوذين لقدمهم ، الذين يطلبون في كل لحظة تكريمات السي
غوته (Goethe) (٨٠) يأبون ان يكون لشعراء اليوم حق في الحياة . ان
امتلاكي سيارة يخرجهم من مفصلة الباب (٨١) . ففي رأيهم السيارة يجب
ان تكون مقتصرة على التجار ، على المضاربين ، على القيمين على المواخير ،
على المرابين ، على الغشاشين .

كي ازيد من حنقهم وغضبهم اهديت داري في «ايسلا نيغرا» الى
الشعب وهناك ذات مرة ستعقد اجتماعات نقابية وستقتضي اجازات
استراحة واستجمام لعمال المناجم والفلاحين .

حينذاك سينثار لشعري .

عام آخر يبدأ

يسألني صحفي :

— كيف ترى حضرتك العالم في هذا العام الذي يبدأ ؟

اجيبه :

— في هذه اللحظة بالضبط ، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من
صباح يوم الخامس من شهر كانون الثاني ارى العالم بأسره ورديا وأزرق .

ليس في هذا القول اية مقتضيات ادبية او سياسية او ذاتية . هذا
يعني ان دوحة كبيرة كثيفة من ازهار وردية اراها من نافذتي وان هناك على
المدى المحيط الهادي والسماء ينصهران في عناق ازرق .

لكنني ادرك ، ونحن جميعا نعرف ذلك ، ان ألوانا اخرى توجد في

٨٠ - موته : الكاتب الالمانى المشهور (١٧٤٩ - ١٨٣٢) .

٨١ - الخروج من مفصلة الباب: تعبير اسباني بمعنى الخروج من الطور وفقدان الاتزان .

مراى العالم . من يستطيع ان ينسى لون الدماء الكثيرة المهرقة بلا جدوى كل يوم في الفيتنام ؟ من يستطيع ان ينسى لون القرى المحروقة بالنابالم ؟

أجيب على سؤال آخر وجّهه اليّ الصحفي . كما فعلت في السنوات الاخرى فاني سأنشر كتابا جديدا في هذه الثلاثمائة وخمسة وستين يوما . انا متأكد من ذلك . اني اداعب الكتاب ، ازعجه ، اكتبه كل يوم .

— ماذا تعالج فيه ؟

ماذا أستطيع ان أجيب ؟ يعالج دوما في كتبي الموضوع نفسه ، دائما اكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي اصدقائي ان ليس ما اقدمه لهم في هذه المرة الجديدة في هذه السنة الجديدة الا اشعاري ، الاشعار الجديدة ، الاشعار نفسها .

لقد اتى لنا العام المنصرم بانتصارات الى الارضيين جميعنا: انتصارات في الفضاء ومداراته . لقد احببنا نحن البشر جميعا ان نظير في ذلك العام المنصرم . لقد سافرنا جميعا في احلام فضائية . ان ارتياد العلاء العظيم يخصنا جميعا سواء اكان امريكيين شماليين ام سوفيتيين من تمنطقوا بأول هالة قمرية واكلوا اولى الاعناب القمرية .

يجب ان يكون من نصيبنا نحن الشعراء الحصة الكبرى من الهبات المكتشفة . ان الكوكب الشاحب ، من (خوليو فيرنه) (٨٢) الذي « مكنك » الحلم الفضائي القديم في كتاب ، السى (جوليس لافورغويه) و (هاينريش هايني) و (خوسه اسونثيون سيلفا) ، دون نسيان (بودلير) الذي اكتشف رقيقته المؤذية ، قد بحثنا فيه نحن الشعراء وغنيناه وشهرناه قبل اي انسان .

تمر السنون . المرء يستهلك ، يزدهر ، يعاني ويتمتع . السنون تجلب للمرء الحياة وتأخذ منه الحياة . تصير التوديعات اكثر مالوفة ،

٨٢ - خوليو فيرنه : بروائي فرنسي (١٨٢٨ - ١٩٠٥) .

يدخل الاصدقاء السجن او يخرجون منها ، يروحون الى اوربا او يعودون منها ، او ببساطة يموتون .

ان الذين يمضون حين يكون المرء بعيدا جدا عن المكان حيث يموتون ، يبدو انهم يموتون اقل ، يستمرون يحيون داخل المرء نفسه كما كانوا . ان شاعرا يحيي اصدقاءه ليميل الى القيام بمختارات شعرية حدادية في عمله الشعري . انا توقفت عن اتمام هذه المختارات خوفا من رتيب الالم الانساني تجاه الموت . اذ ان المرء لا يحب ان يصبح فهرسا للمتوفين ولو ان هؤلاء كانوا اكثر الناس حبا الى قلبه . حين كتبت في «سيلان» عام ١٩٣١ «غياب (خواكين)» اثر موت صديقي وزميلي الشاعر (خواكين ثيوفونتيس سيبولفيدا) وحين في وقت لاحق نظمت «(البرتو روخاس خيمينيث) يأتي وهو يطير» فسي «برشلونة» عام ١٩٣١ ظننت ان لا احد سيموت لي من بعد . مات لي كثيرون . هنا ، قريبا ، في التلال الارجنطينية عند «قرطبة» (٨٢) يرقد مدفونا احسن اصدقائي الارجنطينيين وهو (رودولفو اراوس الفارو) الذي ترك ارملة ابنة بلدنا (مارغاريتا اغيره) .

في هذا العام المنصرم ، حملت الريح قامة (ابليا ايهرينبورغ) المهشة ، وهو صديق حبيب جدا، ومدافع صنديد عن الحقيقة ومحقق جبار للكذب . في موسكو نفسها وفي هذا العام المنصرم نفسه دفنوا الشاعر (اوفادي سافيش) الذي كان قد ترجم شعر (غابرييلا ميسترال) وشعري اللى الروسية ليس بدقة وجمال فحسب بل بحب مشع كذلك . ربح المنيمة اخذت مني اخوي الشعارين (ناظم حكمت) و(سيمون كيرسانوف) وآخرين كثيرين .

٨٣ - قرطبة : نلفت انظار القارىء العربي الى ان اسماء المدن الاندلسية قد انتشرت في امريكا اللاتينية واطلقت على مدن وقرى هناك كما يظهر الان من اسم قرطبة وكما ظهر من قبل من اسم قرطاجنة .

لقد كان فجميعمة مرة اغتيال (تشي غيفارا) (٨٤) رسميا في «بوليفيا» الحزينة جدا . ان نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة : ملايين المرثي حاولت ان تصنع «جوقة» كي تمجد وجوده البطولي المأساوي . لقد انهدرت عبر الدنيا اشعار ما كانت دوما على مستوى هذا الالم . تلقيت برقية من «كوبا» من عقيد اديب يطلب مني مرتيتي التي لم اكتبها حتى الآن . أفكر ان مثل هذا الرثاء يجب ان يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الاليمة . ساتروى في هذه القصيدة حتى تنضح في رأسي وفي دمي .

انه ليهزني ان اكون انا الشاعر الوحيد الذي ذكره (تشي غيفارا) ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته ، اذكر ان (ال تشي) حكى لي ذات مرة ، امام الرقيب (ريتامار) كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي « النشيد العمام » على أوائل ملتحي « سيراً مايستراً » (٨٥) المتواضعين الامجاد . ينقل في يومياته ، بجلاء هاجس ، بيت شعر من قصيدتي «نشيد الى (بوليفار)» (٨٦) «جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدم»

جائزة « نوبل »

ان لجائزة «نوبل» التي حزت عليها لقصة طويلة . خلال سنوات كثيرة رن اسمي كمرشح لهذه الجائزة دون ان يتبلور هذا الرنين في شيء .

في عام ١٩٦٣ كانت المسألة جدية جدا . اذامت محطات البث مرارا

٨٤ - تشي غيفارا : هو طبيب ارجنتيني ساهم في الثورة الكوبية ثم ساهم في الثورات بأمريكا اللاتينية ، ويعتبر بطلا من أبطال التحرر والتقدم في مصرنا هذا (١٩٢٨ - ١٩٦٩) .

٨٥ - سيراً مايستراً : هي سلسلة جبال في كوبا منها انطلقت الثورة الكوبية .

٨٦ - بوليفار : هو زعيم التحرر والاستقلال في أمريكا اللاتينية (١٧٨٣ - ١٨٣٠) .

وتكرارا ان اسمي يناقش فيه بشكل حاسم في «استوكهولم» واني اكثر المرشحين احتمالا في الفوز بهذه الجائزة . عند ذلك انا و(ماتيلدا) وضعنا قيد التنفيذ الخطة رقم ٣ في الدفاع المنزلي . علقنا قفلا كبيرا في البوابة الكبيرة لدارنا بـ «ايسلا نيغرا» وتموتنا بمواد غذائية وبنبيد احمر قان . اضفت بضعه روايات بوليسية لـ (سيمنون) (٨٧) على هذه الاحتياطات الاعترالية الانزوائية .

وصل الصحفيون مبكرين فأبقيناهم على بعد يكظمون الغيظ اذ انهم لم يستطيعوا النفوذ عبر البوابة المزودة بقفل برونزي بقدر ما هو جميل هو قدير متين . كانوا يدورون من وراء الجدار الخارجي ويطوفون كنمور غاضبة . ماذا كانوا يحسبون ويظنون ؟ ماذا كنت استطيع ان اقول عن مناقشة لا يشارك فيها الا اكاديميون سويديون في الطرف الآخر من العالم ؟ بيد ان الصحفيين ما كانوا يخفون نياتهم على استنباط الماء من عود يابس (٨٨) .

كان الربيع قد تأخر مجيئه الى شاطيء المحيط الهادي الجنوبي . لقد افادتني تلك الايام المنعزلة في ان انا لـ والربيع البحري الذي وان كان جاء متأخرا ، قد تزين لاجل الاحتفال بمهرجانه الموحش المتفرد . لا تسقط خلال الصيف اية قطرة من المطر فالارض طينية جافة صخرية مسننة ، لا يلحظ اى قدي اخضر . خلال الشتاء تطلق ريح البحر غضبا ، ملحا ، زبد امواج هائلة ، واذالك الطبيعة تبرز مكفهره فريسة لتلك القسوى الرهيبة .

يبدأ الربيع بعمل اصفر كبير ، كل شيء يتفطى بأزهار مذهبة صغيرة لا عد لها ولا حصر . ان هذا التناسل الصغير القدير يكسو السفوح، يحدق بالصخور ، يزحف نحو البحر ويطلع وسط دروبنا اليومية كما لو انه يريد ان يتحدثانا ، ان يبرهن لنا على انه موجود حي . لقد تحملت هذه الازهار حياة لا مرئية خلال زمن كثير جدا ، لقد أفرحها رفض الارض اليباب

٨٧ - سيمنون : رواي بلجيكي ولد عام ١٩٠٣ .

٨٨ - استنباط الماء من عود يابس : تعبير اسباني بمعنى محاولة المستحيل .

المكدر المدمر الى حد انها الآن لا تثنع بشيء وبدو لها كل شيء قليلا لاجل خصوصيتها الصفراء .

من بعد تدبل وتخدم الازهار الشاحبة الصغيرة فكل شيء يتفطسى بتزهر بنفسجي فاقح . لقد عبر قلب الربيع من الاصفر الى الازرق ومن بعد الى الاحمر . فكيف استعاضت بعضها ببعض ؛ تويجات الانوار الصغيرة غير المحدودة وغير المعروفة ؟ كانت الريح تهز لونا وفي اليوم التالي لونا آخر كما لو ان الربيع كان يبذل فسطاطه بين التلال والروابي المتوحدة وكما لو ان الجمهوريات المختلفة كانت تتباهى براياتها الغازية .

في هذه الفترة نزه اشجار الـ «كاكتو» (٨٩) في الساحل . بعيدا عن هذه المنطقة ، في سفوح سلسلة الجبال «الانديسية» تشمخ اشجار الـ «كاكتو» عملاقة ، ذات اخاديد واسواك ، مثل طوابير معادية . بينما ، اشجار الـ «كوكتو» في الساحل ، على العكس ، هي صفيره ومدورة . رأيتها وهي تتوج ، كل واحدة منها ، بعشرين برعما قرمزيا كما لو ان يدا كانت قد تركت هناك دية متوهجة من قطرات دماء . من بعد تفتقت البراعم . ان المرء ليلمح مواجه الازباد البيضاء العظيمة المنبعثة من المحيط الآفا من اشجار الـ «كاكتو» المتفدة بازهارها المنطلقة السائدة .

ان السيزال العنيق في داري اخرج من عمق احتائه ومن حشاشه فلبه نوره الجريء المنتحر . هذه الشتلة الزرقاء الصفراء، الغليظة العملاقة استفرقت في نموها اكثر من عشر سنين عند باب داري الى ان صارت اطول مني . والآن تزهر كي تموت . لقد نما نبوت اخضر قدير ، سما الى ارتفاع سبعة امتار ثم اوقفت نموّه تشكيلة ازهار جافة لا يكسوها الا القليل من الهباء الذهبي . من بعد اوراق السيزال الامريكى نخرّ فتموت .

واذ ، مقابل الزهرة الكبيرة التي تموت ، زهرة ضخمة تولد . لا احد

٨٩ - الـ كاكو : نوع من نبات الصبار .

سيعرف هذه الزهرة خارج وطني ، لا توجد هذه الزهرة الا في هذه الاصقاع « الانطارطية » (٩٠) « تشاتشوال » (٩١) ان هذه الشتلة السلفية قد عبدها « ال اراوكانوس » . لسم يعمد «ال اراوكانو» القديم يوجد الآن . ان الدم والموت والدهر ومن ثم أناشيد (الونسو دي ايرتسا) (٩٢) الملمحيه ختمت التاريخ التليد القديم لقبيلة من صلصال (٩٣) استيفظت على حين غيرة من نومها الجبولوجي كي تدافع عن وطنها المكتسح المفزو . حين اري طلوع ازهار هذه القبيلة مره اخرى ، فوق قرون من أموات داكنين ، فوق طبقات من فناء دام ، اعتقد ان ماضي الارض يزهر ضد وجودنا ، ضد ما نحن عليه الآن . ان الارض وليس الا الارض ، تستمر كائنة حية ابدية محتفظة بالماهية والذات .

لكن نسيت ان اصفها .

انها «بروميلائيا» (٩٤) ذات اوراق منشارية . نقنحم الدروب منسل حريق اخضر ، نكوتم في خزانة الاسلحة سيوفها الزمرجدية الغريبة . لكن، فجأة ، زهرة هائلة واحدة وحيدة ، عنقود يولد لها من خصرها ، وردة خضراء هائلة بارنفاع قامة الانسان الكهل . ان هذه الزهرة المنقطعة النظر المؤلفة من جمهرة براعم ، المتجمعة في كاتدرائية خضراء واحدة ، المتوجة بالطلع الذهبي تلتمع على نور البحر . انها الزهرة الخضراء الهائلة الوحيدة التي رايتها نغدو نصبا تذكاريًا للموجة .

ان الفلاحين والصيادين في بلدي قد نسوا منذ زمن بعيد اسماء النباتات الصغيرة ، الازهار الصغيرة ، فلم يعد لها الان من اسم . لقد

٩٠ - الانطارطية Antartica : نسبة الى القطب الجنوبي .

٩١ - معناها : منخس تشيلي .

٩٢ - الونسو دي اربيا : شاعر اسباني ١٥٣٣ - ١٥٩٤) ، كسا ند

عرقنا به من قبل .

٩٣ - لاحظ التشابه الصوتي بين لقب المؤلف (Ercilla) وكلمة صلصال

(Arcilla) فالجناس من خصائص (نيرودا) .

٩٤ - بروميلائيا : هي نوع من النبات والاسم مأخوذ من اسم عالم نبات سويدي من

القرن الثامن عشر وهو (Bromel) .

راحوا ينسون هذه الاسماء شيئا فشيئا وراحت الازهار تفقد كرامتها بشكل بطيء . غدت الازهار غامضة مهملة كما الاحجار التي تجرفها الانهار من اعالي الثلوج «الانديسية» حتى السواحل غير المعروفة . لقد ظل الفلاحون والصيادون وعمال المناجم والمهربون ، عاكفين على وعورة حياتهم ، على ديمومة الموت والانبعاث في واجباتهم وهزائمهم . انه لغامض ان يكون المرء بطلا في اراض لما تكتشف بعد . الحقيقة هي انه ليس يتمتع في ذوانهم ، في غنائهم ، الا الدماء المجهولة الاصول ، والازهار التي لا احد يعرف اسماءها .

من بين هذه الازهار ثمة واحدة اكتسحت داري كل داري . انها زهرة زرقاء ذات قد طويل صقيل مزهو صامد . في كئيسها تتبختر الزهيرات المتكاثرة المتعددة الالوان من نيلوفر فاتح الى كحلي غامق . لست أدري ان كان في مكنة البشر كلهم ان يحظوا بتأمل هذه الزرقة السامية الرفيعة . أم ان هذه المتعة ستقتصر على بعضهم ؟ افستمك هذه الزرقة محجوبة غير مرئية ، عن عبون اناس آخرين حرمهم إله أزرق من هذا التأمل المزورق ؟ أم ان الامر لا يعدو ان يكون غير فرحي الذاتي المتفذي في الوحدة ، المتحول الى زهو ، المفتخر في انه عثر على هذه الزرقة ، هذه الموجة الزرقاء ، هذه النجمة الزرقاء ، في هذا الربيع المهجور ؟

اخيرا سأتكلم عن نباتات ال «دوكاس» . لست أدري ان كانت توجد في جهات اخرى هذه النباتات المتكاثرة ملايين وملايين ، التي تفرز في الرمال اصابعها المثلية الشكل . لقد ملا الربيع هذه الايادي الخضراء بخواتم غير مالوفة ذات لون غريب . ان ال «دوكاس» تحمل اسما اغريقيا:

ان روعة «ايسلا نيغرا» في هذه الايام المتأخرة من الربيع لهي هذه ال (aizoaceae) التي تنسكب مثل اجتياح بحري ، مثل فوحان مغارة البحر الخضراء ، مثل عصير العناقيد الارجوانية الذي خزنه في حانته ، «نبتون» Neptuno (٩٥) النائي البعيد .

٩٥ - نبتون : هو إله الماء مند اليونان ، وهو كذلك الكوكب نبتون الذي اكتشف لي منتصف القرن التاسع عشر .

في هذه اللحظة بالضبط تعلن لنا الاذاعة ان شاعرا يونانيا جيدا قد حصل على جائزة نوبل الشهيرة . فهاجر الصحفيون . اخيرا استطعنا ، انا و(ماتيلدا) ، ان نظل هادئين بعد ان نخلصنا من الصحفيين . سحنا في وقار قفل البوابة الكبيرة كي يدخل الناس كل الناس كما كانوا يدخلون من قبل دون ان يقرعوا على باب داري ودون ان يعلنوا عن انفسهم كما الربيع .

في المساء جاء ليراني السفير السويدي وزوجته . كانا يحضران معهما سلة زجاجات (delicatessen) كي نحتفل بجائزة نوبل التي كانا يعتقدان اعتقادا اكيدا انها ستكون من نصيبي . لم نقعد حزاني بل تناولنا جرعة نخب «سيفيريس» الشاعر اليوناني الذي فاز بالجائزة . لدى التوديع اخذني السفير جانبا وقال لي :

– بالتأكيد رجال الصحافة سيأتون ليقابلونني ولست ادري شيئا في هذا الشأن . استطيع حضرتك ان تقول لي من هو (سيفيريس) ؟

اجبته في صراحة وصدق : انا كذلك لست ادري شيئا عنه .

الحقيقة هي ان كل كاتب على سطح هذا الكوكب المدعو «الارض» يريد ان يحصل ذات مرة على جائزة نوبل حتى اولئك الذين لا يفصحون بذلك وحتى هؤلاء الذين يرفضون الجائزة .

في امريكا اللاتينية ، بشكل خاص ، للاقطار مرشحوها ، يخططون لحملاتهم ويرسمون استراتيجيتهم . امريكا اللاتينية هذه خسرت الجائزة لبعض هؤلاء الكتاب الذين كانوا يستحقونها . هذا هو حال (رومولو غايفوس) (٩٦) ، اثره الادبي عظيم ولائبق . لكن «فينزويلا» هي بلد النفط ، اي ، بلد المال ولهذا السبب وفي هذا السبيل قد صنم على ان تريح الجائزة «فنزويلا» في اسم (رومولو غايفوس) . ولذلك عينت «فينزويلا» سفيرا لها في «السويد» ، هدفه

٩٦ – رومولو غايفوس : روايتي لنزويلا (١٨٨٤ – ١٩٥٩) .

الأعلى حدّ بالحصول على الجائزة . فكان هذا السفير يسرف في الولائم والدعوات ، ينشر مؤلفات الاكاديميين السويديين في اللغة الاسبانية بمطابع خاصة تابعة لسفارته في «استوكهولم» ذاتها . لا بد ان هذا كله بدا للاكاديميين المتحفظين الحساسين مفرطاً زائداً عن حده . ابداً ما كان يعرف (رومولو غايغس) بفعالية سفير بلده الطافحة الزائدة عن اللزوم ، وقد يكون هذا هو السبب الذي أدى الى حرمانه من استلام هذا اللقب الادبي الذي يستحقه فعلاً .

في باريس حكوا لي في مناسبة ما قصة حزينة ، محاطة بمزاح قاس . كان الامر يتعلق هذه المرة بـ (بول فاليري) (٩٧) كان يشاع اسمه على انه المرشح الاكثر احتمالاً في الفوز بجائزة «نوبل» لذلك العام ، وكانت تردد ذلك الاذاعات والصحافة في فرنسا كلها . في صباح اليوم نفسه الذي كانت فيه هيئة المحلفين تتداول بـ «استوكهولم» خرج (فاليري) مبكراً جداً من داره الريفية مصاحباً بعكازه وبكلبه ، بحثاً عن اخماد الحالة العصبية التي سببها له هذا الخبر المثير .

عاد من جولته في منتصف النهار ، في ساعة الغداء . فما ان فتح الباب حتى بادر الى سؤال السكرتيرة :

— هل من مكالمة هاتفية ؟

— أجل ، ايها السيد ، لقد اتصلوا بك من «استوكهولم» منذ عشر دقائق .

— انة بتسرى زفوها اليك ؟ قال وقد أفصح عن تأثره .

— لقد كان صوت صحفية سويدية تريد ان تعرف رأيك في حركة التحرير النسوية .

٩٧ - بول فاليري : شاعر واديب وناقد فرنسي معروف (١٨٧١ - ١٩٤٥) .

كان (فاليري) نفسه يشر الى هذه الفكاهة في شيء من التهكم .
والحقيقة هي انه شاعر جد كبير وجد عظيم وكاتب متقن جدا ومع ذلك
نهر ابدا ما فاز بهذه الجائزة الشهيرة .

لكن ، فيما يخصني فيجب على الآخرين ان يعترفوا لي بانني كنت دوما
محترسا محتاطا جدا . كنت قد قرأت في كتاب لعلامة تشيلي اراد اطراء
(غابرييلا ميسترال) ، الرسائل العديدة التي وجهتها مواطني المتقشفة الى
اماكن كثيرة دون ان يفقدها ذلك تقشفا وزهدا ، ولكنها كانت تدفعها
رغباتها في التقرب من الجائزة . هذا جعلني اصبح كنوما اكثر . منذ ان
علمت بان اسمي بنردد (لست ادري كم من مره بردد ذكر اسمي من قبل)
على اني مرشح ، قررت الا اعود الى السويد ، وهو بلد طالما جذبني منذ ان
كنت صبيا حين جعلنا من انفسنا ، انا و(توماس لاغو) ، تلميذين حقيقيين
لراع بروتسناني سكير مطرود من الكنيسة اسمه (غوسنا بيرلينغ) .

زد على هذا اني كنت قد سئمت من ان اذكر كل سنة دون ان تذهب
الامور الى ابعد من الذكر ، وكان يبدو لي مفيضا ان ارى اسمي في المباريات
السوية كما لو اني جواد سباق . من جهة اخرى كان النتمسون ، ادباء
او جماهير ، يتسعون بالاهانة بسبب لا مبالاة الاكاديمية السويدية بي .
كان هذا وضعا نتاخم ما نضحك بشكل خطير .

اخيرا ، الناس كلهم يعرفون ذلك . منحوني جائزة «نوبل» . كنت انا
في باريس ، عام ١٩٧١ ، حديث الوصول لتأدية مهامى سفيرا لتشيلي .
حين بدأ اسمي بالظهور في الصحف مره اخرى . انا و(ماتيلدا) قطبنا
الجبين لقد فقدت بشرتنا الاحساس بعد ان نعودنا على القتل . ذات ليلة
من تشرين الاول من تلك السنة دخل (خورخه ايدواردس) وهو كاتب كان
مستشارا في السفارة بباريس ، الى غرفة الطعام في منزلي . اقترح ،
على الرغم من تقيره الذي يميزه . عليّ قبول رهان بسيط جدا . ان
منحوني جائزة «نوبل» هذا العام فان عليّ ان ادفع ثمن وجبة في احسن
مطعم بباريس له ولزوجته وان لم بمنحوني فسيدفع هو ثمن وجبة لسي
ولزوجتي .

قلب له : موافق . سناكل بشكل رائع على حسابك .

جزء من سر (خورخه ادواردس) ومن رهانه المغامر بدأ ينكتف فى اليوم التالي . عرفت ان صديقة له كانت قد اتصلت به هاتفيا من «استوكهولم» وكانت هذه الصديقة كاتبة وصحفية . قالت له ان الاحتمالات كلها تشير الى ان (بابلو نيرودا) سيفوز بجائزة «نوبل» هذه المرة .

بدأ الصحفيون يتصلون من على بعد كبير . من «بونوس ايريس» ، من «المكسيك» وبخاصة من «اسبانيا» . فى هذا البلد الاخير كانوا يعتبرون الامر مقضيا . طبعاً رفضت ان ادلي بتصريحات لكن شكوكي بدأت تطل من جديد .

تلك الليلة جاء ليراني (ارتور لونديكيڤيست) وهو، صديقي الوحيد من الكتاب السويديين . كان (لونديكيڤيست) اكاديميا منذ ثلاث سنوات او اربع . وصل من بلده الى باريس فى طريقه الى جنوب فرنسا . بعد الاكل قصصت عليه ما لذي من صعوبات كي ارد على المخابرات الدولية التي يقوم بها الصحفيون الذين ينسبون لي الجائزة .

قلت له : اريد ان اطلب منك شيئاً ، يا (ارور) . فى حالة ان كان هذا حقيقة ، فانه يهمني جدا ان اعرف ذلك قبل ان ينشر فى الصحافة . اريد ان اخبر به ، اول ما اخبر ، (سلفادور اينده) الذي شاركت معه فى صراعات كثيرة فانه سيفرح كثيرا ان كان هو اول من يتلقى هذه البشرى .

الاكاديمي الشاعر (لونديكيڤيست) نظر اليّ بعينين سويديين وقال فى جدية قصوى :

— اني لا استطيع ان اقول لك شيئاً . ان كان ثمة شيء من هذا القبيل فانه سيعلمك به برقيا ملك السويد او سفير السويد فى باريس .

هذا كان يجري يوم ١٩ او ٢٠ من تشرين الاول . فى صباح يوم ٢١ بدأت قاعات السفارة تمتليء بالصحفيين . كان العاملون فى التلفزيون السويدي ، الالماني ، الفرنسى و تلفزة اقطار امريكا اللاتينية يبدون تململا وعدم صبر يهدد بان يستحيل الى تمرد ضد صمتسي الذي لم يكن الا لانتقادي اية معلومات امدهم بها . فى الساعة الحادية عشرة والنصف

انصل بي هاتفيا السفير السويدي يطلب مني ان استقبله في السفارة ، دون ان يخبرني عما يتعلق الامر ، وهذا لم يعمل على اخماد الحالات المتهيجة لان المقابلة كانت ستجري بعد ساعتين . كانت الهواتف تواصل زينها بشكل هيسنيري .

في هذه اللحظة اطلقت اذاعة في باريس اشعاعا (فلاش) ، خبر آخر دقيقة ، معلنة ان جائزة « نوبل » لعام ١٩٧١ قد منحت اليّ . نزلت تسواً لمجابهة تجمهر الاوساط الاعلامية الصخّاب . لحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة صديقان قديمان لي وهما (جان مارينناك) و (اراغون) . (مارينناك) ، شاعر كبير واخ لي في فرنسا ، كان يطلق هتافات فرح . (اراغون) من جهته كان يبدو اكثر فرحا مني بالخبر . كلاهما ساعدني في هذه اللحظة الحرجة على مصارعة الصحفيين .

انا كنت اذالك وقد اجريت لي عملية جراحية ، هزيلا ، فقير الدم ، امشي الهوبنا ، قليل الرغبة بالنحرك . وكان قد وصل ليتعشى معي تلك الليلة كثير من الاصدقاء (ماتا) من ايطاليا ، (غارثيا ماريك) من برشلونة ، (سيكيروس) من المكسيك، (ميغيل اوتيرو سيلفا) من «كراكاس» ، (اورتورو كاماتشو راميرث) من باريس نفسها ، (كورتانار) من مخبئته ، (كارلوس فاسايو) وهو تشيليّ ، سافر من روما الى باريس كي يصحبي الى «استوكهولم» .

البرقيات (التي حتى الان ما استطعت قراءتها كلها ولا الاجابة عليها) تكومت في جبال صغيرة . من بين الرسائل العديدة وصلت رسالة غريبة عجيبة وبشكل ما مهددة . ارسلها من هولاندا رجل بدين ومسن الجنس الاسود ، حسب ما كان يتبين من قصاصة جريدة ارفقها مع الرسالة . «امثل - كان يقول ، تقريبا ، في الرسالة - الحركة المعادية للاستعمار في «جيورجيتون» ، «غوايانا الهولندية» . لقد طلبت الحصول على بطاقة كي اتمكن من حضور الاحتفال الذي سيجري في «استوكهولم» بمناسبة تسليمك جائزة «نوبل» . فأخبروني في السفارة السويدية انه لا بد لي من لبس بدلة رسمية Frac وأنا ابدأ لن أضع بدلة مستعملة مستأجرة لما

في هذا من اهانة لامريكي حر مثلي . ولهذا فاني أعلمك بانني بالمال الزهيد الذي يمكن لي ان اجمعه سأسافر الى «استوكهولم» كي اعقد مؤتمرات صحفية لافضح فيها الطبيعة الامبريالية وغير التسعبية لمثل هذه الاحتفالات . فليحتفل هكذا بتكريم اكثر الشعراء العالميين عداء للامبريالية وأكثرهم شعبية » .

في شهر تشرين الثاني سافرت و(مانيلده) الى «استوكهولم» . لقد صاحبني في سفرنا بعض الاصدقاء القدماء . فأنزلونا في «الفندق الكبير» الباهر . كنا نرى من هنالك المدينة الجميلة الباردة والقصر الملكي مقابل نوافذنا . في الفندق نفسه حل كذلك المتوجون الآخرون لذلك العام ، في الفيزياء والكيمياء والطب الح . شخصيات مختلفة ، بعضهم مهذارون شكليون سطحيون . وآخرون بسطاء أجلاف كأنهم عمال ميكانيكيون حديثو الخروج من مراتبهم بالصدفة . لم يكن الألماني (ويلي برانندت) (٩٨) ينزل في الفندق نفسه بل كان يستلم جائزة «نوبل» للسلام في «النرويج» . تأسفت لذلك كثيرا لانه كان من بين أولئك الفائزين بالجائزة جميعهم اكثر واحد بهمني معرفته والتحدث اليه . لم استطع ان المحه من بعد الا وسسبط الاستقبالات بعيدا احدنا عن الآخر كثيرا يفرق بيننا ثلاثة او اربعة اشخاص على الأقل .

كان ضروريا لاجل الاحتفال اجراء تجربة سابقة . لقد جعلتنا المراسم السويدية نخرج للتمثيل في المكان نفسه حيث سيجري الاحتفال . كان مضحكا حقا رؤية أناس جديين جدا وهم يقفرون من أسرتههم ويخرجون من الفندق مهرولين في ساعة مبكرة ليصلوا في الوقت المحدد بالضبط الى مبنى فارغ ، ثم يصعدون الدرج دون ان يخطئوا ثم يمضون على اليسار وعلى اليمين في ترتيب صارم تم كان علينا ان نجلس فسي المنصة كل على مقعده المخصص له ليستلم جائزته في اليوم التالي . كل هذا ونحن نواجه اجهزة التلفزة في قاعات فارغة هائلة تبرز فيها كراسي الملك والعائلة المالكة الفارغة الخاوية في شكل كئيب كذلك . ابدأ مساً

٩٨ - ويلي برانندت : السياسي الألماني المعروف الذي كان رئيسا للحكومة في ألمانيا الغربية .

استطعت ان اعرف ولا ان افسر لاي هوس كان التلفزيون السويدي يصور ذلك التمرن المسرحي الذي يقوم به ممثلون ثقيلون جدا ، بليدون جدا .

لقد توافق يوم تسليم جائزه «نوبل» مع عبد العديسة «لويثا» .
ابفظتني بعض الاصوات التي كانت بغني بشكل عذب في ممرات الفندق .
من بعد ، الصبايا التقرارات الاسكندبنافيات ، المتوججات بزهور .
والمضاعات بشموع مستعلة ، اقتحمن غرفتي وكن يحضرن لي الفطسور
وكذلك يحضرن ، كهديه ، لوحة طويلة جميلة تمثل البحر .

في وقت لاحق حصل حادث حرك ترطه استوكهولم» وانارها . في
مكتب الاستقبال بالفندق اعطوني رسالة . فتحتها واذ هي موفعة من ذلك
الرجل نفسه عدو الاستعمار ، الراكب رأسه ، المطلق زمامه ، العضو
الفعال في حركة «جيورجيتون» ، «غوابانا الهولانديه» . لقد وصلت حديثا
الى «استوكهولم» ، كان يقول في رسالته . كان قد قتل في تصميمه
على عقد مؤتمر صحفي ، لكنه بما انه رجل فضية ثورية وفعل نوري فانه
قد اتخذ اجراءاته . انه لمحال ان يستلم (بابلو نيرودا) ساعر المسحوفين
والمتواضعين جائزة «نوبل» وهو يرندي بدلة رسمية . وبالتالي فقد
اشترى مقصا اخضر سيقطع لي به علانية وامام الناس «خرف البدلسه
الرسمية المتدلية وابه خرق متدلية اخرى» . «لهذا فاني اؤدي واجبي بان
أحدرك من مغبة هذا . حين ترى رجلا ملونا ينهض من آخر القاعة فانه
عليك ان تفترض ما سيجري لك بعد هنيهة» .

ناولت الرسالة الغريبة الى الشاب الدبلوماسي ، ممثل المراسم
السويدية الذي كان يصحبنى في تحركاني جميعها . قلت له مبتسما اني
كنت قد تلقيت في باريس رسالة اخرى من هذا المجنون نفسه وانه في
راي يجب الا نهتم بهذا الامر كثيرا ولكن الشاب السويدي لم يكن على
اتفاق معي في هذا الشأن .

– في هذه الفترة من المباحكات يمكن ان تحدث اكثر الاشياء غرابة .
ان واجبي هو ان اعلم شرطة «استوكهولم» بهذا الامر – قال لي وانطلق
بسرعة لاداء ما كان يعتبره واجبا عليه .

يجب ان اشير الى ان من بين مرافقي" الى «استوكهولم» كان
الفينزويلي (ميغيل اونيرو سيلفا) وهو كاتب كبير وشاعر ظريف ، وهو
بالنسبة لي ليس ضميرا امريكي فحسب بل زميل لا يقارن . كان الاحتفال
على وشك الابتداء حين رويت خلال الاكل الجدية التي كان السويديون قد
ابدوها تجاه مسألة الرسالة المحتجة . (اونيرو سيلفا) الذي كان يتغدى
معنا ضرب كفا على جبينه وصرخ :

- لكن، هذه الرسالة كتبتها انا بيدي وفي خطي لكي اتناول شعر(٩٩)
(بابلو) . ماذا سنفعل الآن مع رجال الشرطة الذين يبحثون عن فاعل لا
يوجد ؟

- ستفاد الى السجن جزاء لك على نكتتك الثقيلة الهمجية نكتة
« البحر الكاريبي » ، ستلقنى العقاب الذي يستحقه رجل
«جيورجيتون» - قلت له .

في هذه اللحظة جلس معنا حول المائدة الشاب السويدي ، مرافقي
الذي كان يعود بعد ان أعلم الجهات المختصة . قلنا له ما جرى :

- ان الامر لا يعدو ان يكون غير مزاح سيء المزاج والفاعل ها هو
يتغدى معنا ، الآن .

عاد للخروج مستعجلا عجولا . لكن رجال الشرطة كانوا قد زاروا
فنادق «استوكهولم» كلها بحثا عن أسود «جيورجيتون» او اسود اية ارض
أخرى شبيهة .

واتخذوا احتياطاتهم اذ انني و(مانيلده) كذلك ، حين دخلنا الى
الحفلة وحين خرجنا من رقص الاحتفال لاحظنا انه كان يبادر الى الاهتمام
بنا بدلا من الحجاب العاديين اربعة او خمسة من الشبان الاقوياء الاشداء،

٩٩ - تناول الشعر : تعبير اسباني بمعنى المزاح وهو يشبه التعبير العربي المسحك
على الدفون .

حراس ظهر ، شقر ، متهيثون لانة محاولة من ضربة بالمقص .

كان للاحتفال المراسيمي بتسلم جائزة «نوبل» جمهور حافل . هادىء ومتدرب على النظام اذ انه ما كان يصفق الا في الوقت المناسب وفسي كياسة وأدب . كان العاهل العجوز يصافح كل واحد منا ، يعطي كل واحد منا الديلوم ، الوسام ، التشيك . كنا نعود الى أماكننا في المنصة واحدا اتر آخر ، وكانت هذه المنصة مليئة بالزهور والمقاعد المشفولة ، وليس كما كانت من قبل هزيلة قدرة ، حين كنا نجري التمرين والمناورة . يقال (او هذا ما فالوه لـ (ماتيلده) كي يجعلوها تتأثر كثيرا) ان الملك بقي معي وقتا اكثر مما بقي مع الملكيين الآخرين الحائزين على الجائزة : وانه شد على يدي خلال وقت أطول ، وانه عاملني بلطافة ظاهرة بادية على محياه . ربما كانت هذه اللطافة تذكاري تلك التي كان الملوك في العهد القديم يبدونها للرواة . على كل حال ولا اي ملك آخر مد لي يده لوقت قصير او طويل .

لقد كان لذاك الاحتفال البروتوكولي الصارم الوقار المناسب . قد يحيا هذا الوقار الجاري في المناسبات المهمة الى الابد في العالم . يبدو ان الانسان بحاجة اليه . غير اني وجدت شبا لطيفا بين ذلك الاسعراض الذي قام به الفائزون الشهيرين وبين توزيع الجوائز المدرسية في مدينة صغرة بمحافظة نائية .

تشيلي الصغيرة

كنت احيى انا من «بورتو ابانيث» . مندهنا بالبحيره الكبيرة «جينرال كاريرا» مندهنا من هذه المياه المعدنية التي هي ذي اللون الفيروزجي . في «كوبا» او ببحيرتنا «بيترو هوبه» . نم فعزه نهر «ابانيث» الهمجية ، وهو نهر عظيم رهيب . كنت احيى ايضا كئيبا مكروبا بسبب فقر شعوب المنطقة وعدم الاتصال فيما بينها . مع انهم يجارون الطاقات الكهربائية الهائلة فهم غير مزودين بالكهرباء . مع انهم يعيشون بين قطعان الاغنام الصوفية التي لا حصر لها

فهم لا يرتدون الا أسملا فقيرة ممزقة . الى ان وصلت الى « تشيلسي الصغيره » .

هناك كان التسفق الكبير ينظرني وهو يفلق النهار . كان الريح المؤبده مزق الفيوم «الكوارتزية» (١٠٠) . انهار من نور ازرق كانت تحجز دمة كبيرة كانت الريح بحافظ عليها في عطالة بين الارض والسما .

مربع مواس ، مزارع كانت تصارع نحت ضغط الريح اللولبية . كانت ترتفع الارض حول هذه المراع والمزارع بأبراج «لا روكا كاستيو» (١٠١) الصلبة ، برؤوس حادة مسننة ، بهوات قوطية ، باسنحكومات وشرفات طبيعيه من غرانيت . كانت جبال « ايسين » التعسيفة المكوره مثل الخدروف ، المرتفعة المساء مثل الطاولات ، نري مستطيلات ومثلثات من بلج .

وكانت السماء تصنع سفها من خيوط الحرير ومن فلزات المعادن : يلالا اللون الاصفر في الاعالي محوما كما الطير الهائل عبر الفضاء النقي . كان كل شيء يتغير فجأة ، يتحول الى فم حوت ، الى نمر ارقط متوهج ، الى مساعل تجريدية .

شعرت ان السعة كانت تنتشر فوق راسي وفد رسمتني فأسمتني شاهد الـ «ايسين» الباهر باطواده، بتلالاته ، بملايينه من الاشجار الميتة المحروقة التي تههم قاتليها القدماء ، مع سكون عالم يولد فيه كل شيء معد: مهرجانات الارض والسماء . لكن ينقصه الكنف ، النظام الجماعي ، التسييد ، الانسان . ان من يعيثن في مثل هذه الارض الخلاء يحتاج الى ضامن انساني جد فسيح مثل هذه المساحات الواسعة الكبيرة .

ابتعدت حين كان ينظفء الشفق ، والليل كان يخيم ازرق مفرعا .

١٠٠ - الكوارتزية : نسبة الى «كوارتز» وهو المرو .

١٠١ - لا روكا كاستيو : معناها ، الصخرة القلعة .

رايات ايلول

ان شهر ايلول في جنوب القارة الامريكية اللاتينية لهو شهر عريض مزهر . كذلك ان هذا الشهر مليء بالرايات .

في بداية القرن الماضي في عام ١٨١٠ وفي شهر ايلول هذا انشقق او توطدت الانتفاضات ضد السيطرة الاسبانية في اراض عديدة بأمريكا الجنوبية .

في شهر ايلول هذا نحن امريكان الجنوب نذكر التحرر والانتعاق ، نحمل بالانطال ، نسنقبل الربيع الرحب العسيح جدا الى حد انه بتجاوز مصيق « ماغابانيس » ليزهر حتى في « باتاغونيا اوسترال » حتى في « كابو دي اورنوس » .

لعد كانت مهمه جدا للعالم سلسلة التورات الدوره التي كانت تنفجر من المكسيك حتى الارجننتين وتشيلي .

لم يكن الفواد يتشابهون فيما بينهم . ف (بوليفار) كان محاربا ودمثا ، موهوبا باسراق بوي . (سان مارين) (١٠٢) كان منظما عبفريا لجيس عبر سلسلة الجبال الاكثر ارتفاعا وصعوبة على وجه الارض كي يتسن فسي نسيلي المعارك الحاسمة في سبيل حررها . (خوسيه ميغيل كاريرا) (١٠٣) (برناردو اوهيفنسن) (١٠٤) كانا مبدعي أوائل الجبوش التثليليه كما كانا كذلك السباقين في جلب المطابع الى تشيلي وسن القوانين المحرمه للرق الذي

١٠٢ - سان مارين : نطل من انطال الحرر فسي امريكا اللاتينية
١٧٧٨ - ١٨٥٠) .

١٠٣ - جوسه ميغيل كاريرا : نطل من انطال الحرر في سبلي، كان عسكريا وسياسيا
١٧٨٥ - ١٨٢١) .

١٠٤ - برناردو اوهيفيس : نطل من انطال الحرر في سبلي (١٧٧٨ - ١٨٤٢) .

الذي قبل سنوات كثيرة من الغائه في الولايات المتحدة .

ان اخوسه ميغيل كاريرا) و(بوليفار) وبعض المحررين الآخرين كانوا يخرجون من الارستوقراطية ال «كرويبياء» . كانت مصالح هذه الطبقة نصطدم بشكل عنيف مع المصالح الاسبانية في امريكا . لم يكن الشعب يوجد بعد كتنظيم بل كان في شكل جمهرة غفيرة من عبيد تحت اوامر السيطرة الاسبانية . كان على الرجال ، من أمثال (بوليفار) و(كاريرا) ، الذين كانوا قد قرؤوا الموسوعات وتخرجوا من الكليات العسكرية الاسبانية ان يحطموا جدار العزلة والصمت والجهل كي يتوصلوا الى تحريك الروح الفومية في نفوس الشعب .

ان حياة (كاريرا) كانت قصيرة ولكنها ملتهبة مثل برق . «العسس التعميس» عنونت اننا كتابا قديما يحتوي على ذكريات ، سترنه انا بنفسى منذ عدة سنين . ان شخصيته الجذابة جلبت النزاعات حول راسه كما مانعة الصواعق تجذب وتجذب شرارات العواصف . اخر الامر اعدم رميا بالرصاص في «ميندوثا» بأمر من حكام الجمهورية الارجنتينية الحديثة الاعلان اذآك . كانت رغباته الجامحة بتحطيم السيطرة الاسبانية قد وضعته على رأس الهنود المتوحشين في السهول الارجنتينية . حاصر «بونوس ايريس» وكان على وشك ان يأخذها عنوة . بيد ان رغباته الحقيقية كانت تميل الى تحرير تشيلي وفي هذا الاصرار استعجل فقام بحروب وحروب عصابات أدت به الى ختيسة الاعدام . لقد التهمت الثورة في تلك السنين المضطربة احد ابنائها الاذكيا الشجعان . يدين التاريخ بهذا الفعل الدامي (او هيفينيس) و(سان مارين) . لكن التاريخ في شهر ايلول هذا ، الشهر الربيعي المليء بالرايات يغطي باجنحته ذكرى الأبطال الثلاثة في هذه المعارك التحريرية التي دارت رحاها على مسرح واسع من سهول هائلة ومن ثلوج خالدة .

ان (او هيفينيس) وهو بطل آخر من محوري تشيلي ، كان رجلا متواضعا بسيطا . كانت حياته ستكون غامضة هادئة لو لم يكن قد تلاقى في لندن ، حين لم يكن له من العمر الا سبع عشرة سنة ، مع ثائر قديم كان يجوب بلاطات ملوك اوروبا كلها بحثا من مساعدة لقضية الانعتاق

الأمريكي . كان يسمى السيد (فرانيسكو دي ميراندا) (١٠٥) . ومن بين
اصدقائه الكثر اعتمد على ود امبراطورة روسيا (كاتالينا) (١٠٦) ودعمها
القدير . بجواز سفر روسي وصل الى باريس وكان يدخل ويخرج في
امارات اوروبا ودويلاتها .

انها لرواية رومانطيقية ذات نفس يمثل «فترة» مما يجعلها تبدو مفضاة
(Opera) . (او هيغينيس) كان ابنا غير شرعي لنائب الملك الاسباني وكان
هذا جنديا جمع نروة كبيرة فأصبح حاكما باسم الملك على تشيلي وهو من
اصل ايرلاندي . رتب الامور (ميراندا) لاثبات اصل (او هيغينيس) حين
ادرك فائدة الشاب وما يمكن ان يكون لاصله من نفع في تحريض شعوب
المستعمرات الاسبانية في امريكا . في كتب التاريخ تروي اللحظة التي
كتشف فيها (ميراندا) للشباب (او هيغينيس) سر اصله ودفعه الى العصيان
والتمرد . خر الشاب النائر راكما وعانق (ميراندا) وبين النحيب والبكاء
وعده بالانطلاق من لندن الى تشيلي حالا ليقود هناك حركة التمرد ضد
النفوذ الاسباني . كان (او هيغينيس) هو من حقق الانتصارات النهائية في
الفضاء على النظام الاستعماري بتشيلي وهو يعتبر مؤسس جمهوريتنا .

اما (ميراندا) فقد قضى نحبه حين كان سجيننا من قبل الاسبان في
سجن « لا كاراكا » ب « قادش » . ان جسده هذا
الجنرال في الثورة الفرنسية ومعلم ثورين كثيرين قد لُف في كيس
والقي به الى البحر من اعلى السجن .

(سان مارتين) مات بعد ان نفاه ابناء قومه ، في « بولونيا »
بفرنسا عجوزا وحيدا .

(او هيغينيس) محرر تشيلي مات في «البيرو» بعيدا عن كل ما يحب ،
مطرودا ، بعد ان استولت الطبقة الاقطاعية «ال كروييا» على الثورة .

١٠٥ - فرانيسكو دي ميراندا : بطل من ابطال التحرر في امريكا الجنوبية
(١٧٥٠ - ١٨١٦) .
١٠٦ - كاتالينا : هي امبراطورة روسيا (١٧٢٩ - ١٧٩٦) .

منذ وقت قريب ، حين مرت بـ «ليما» Lima وجدت في متحف «البيرو» التاريخي بعض اللوحات التي رسمها الجنرال (او هيفينيس) في أعوامه الاخيرة . موضوع هذه اللوحات كلها هو تشيلي . كان يرسم ربيع تشيلي ، اوراق وأزهار شهر ايلول في تشيلي .

في شهر ايلول هذا جعلت اذكر تلك الفترة من الانعتاق والتحرر ، اسماء أبطالها ، حوادثها ، رغباتها وآلامها ، بعد مضي قرن على تلك الفترة ها هي الشعوب تهتز من جديد وها هو تيار مضطرب من ريع وغضب يحرك الرايات . ان كل شيء قد تغير منذ تلك السنين القصية السحيقة ، لكن التاريخ يتابع مسيره وها هو ربيع جديد يملا أصقاع امريكا وأجواءها .

(بريستيس Prestes)

ولا اي زعيم شيوعي في امريكا كانت حياته معرضة للخطر دوما كما كانت عليه حياة (لويس كارلوس بريستيس) . لقد كان بطلا عسكريا وسياسيا للبرازيل . لقد تجاوزت حقيقته وأسطورته منذ زمن كثير التقييدات العقائدية فاستحال هو الى تجسيد حي للأبطال القداماء الاشاوس .

لهذا ، حين تلقيت دعوة وأنا بـ «ايسلا نيفرا» لزيارة البرازيل والتعرف على (بريستيس) قبلت الدعوة حالا . عرفت كذلك انه لن يكون هناك مدعو اجنبي آخر غيري وهذا ملاني فخرا فشعرت اني اشارك بشكل ما في حركة اتبعات .

كان (بريستيس) حديث الخروج الى الحرية بعد ان قضى اكثر من عشر سنوات في عبودية السجن . ان هذه الاعتقالات الطويلة الامد ليست استثنائية شاذة في بلدان «العالم الحر» . فزميلي وصاحبى الشاعر (ناظم حكمت) قضى ثلاث عشرة او اربع عشرة سنة في سجون تركيا . الان وانا اكتب هذه الذكريات اذكر ان ستة او سبعة من شيوعيين «الاورغواي» قد دفنوا في السجون دون اي اتصال بالعالم منذ اثنتي عشرة سنة . لقد

سلمت الديكتاتورية البرازيلية زوجة (بريستيس) وهي المانية الاصل ، الى ال «غيستابو» . قيدها النازيون بالسلاسل الى الباخرة التي كانت تقلها الى عذاب الموت . وضعت طفلة تعيش الآن مع ابها ، انقذتها من بين انياب ال «غيستابو» السيدة المحترمة التي لا تملّ ، السيدة (ليوكاديا بريستيس) والدة هذا الزعيم . بعد ان وضعت زوجة (لويس كارلوس بريستيس) طفلتها في فناء سجن ، دق النازيون عنقها . ان هذه الحيوانات المستشهادة كلها جعلت الناس لا ينسون (بريستيس) ابدا طيلة السنوات الطويلة التي قضاها في السجن .

انا كنت في المكسيك حين ماتت والدته السيدة (ليوكاديا بريستيس) . كانت هي قد دارت العالم كله وهي تطالب بتحرير ابنها . ابرق الجنرال (لاثارو كارديناس) (١٠٧) وهو رئيس سابق للجمهورية المكسيكية ، الى الديكتاتور البرازيلي طالبا منه ان يعطني (بريستيس) بضعة ايام من حرية تسمح له ان يحضر جنازة والدته . كان الرئيس (كارديناس) في رسالته يقول بأنه يضمن شخصيا عودة (بريستيس) الى حبسه فكان جواب (غيتوليو بارغاس) (١٠٨) سلبيا .

لقد ساهمت في سحق العالم كله فكثبت قصيدة على شرف السيدة (ليوكاديا) وفي ذكرى ابنها الغائب وفي لعنة الطاغية .

انشدتها على ضريح السيدة النبيلة التي قرعت ابواب العالم عبثا في سبيل تحرير ابنها . كانت قصيدتي تبدأ في وقار واعتدال :

سيدتي ، لقد جعلت من قارتنا الامريكية اكبر وأعظم .
لقد منحتها نهرا نقيا من مياه جمّة ،

١٠٧ - لاثارو كارديناس : زعيم سياسي مكسيكي ، كان جنرالا في الجيش ثم اصبح رئيسا للجمهورية (١٨٩٥ - ١٩٢٠) .
١٠٨ - غيتوليو بارغاس : زعيم سياسي برازيلي (١٨٨٢ - ١٩٥٤) .

لقد منحتها شجرة كبيرة ذات جذور لا نهائية :
ابنا لك جديراً بوطنه العميق .

لكن ، بمقدار ما كانت القصيدة تستمر كانت تغدو أكثر عنفاً ضد
المستبد البرازيلي .

لقد انشدتها في جهات كثيرة ثم راحت تنسخ وتطبع في منشورات
وعلى البطاقات البريدية فجابت القارة بأسرها .

ذات مرة ، حين كنت امر بـ «بناما» أرفقتها بمجموعة من القصائد في
أحدى قراءاتي الشعرية بعد أن انشدت قصائدي الغزلية . كانت القاعة
مليئة وكان حر البرزخ يجعلني أعرق وأرشح . كنت قد وصلت فسي
انشادي الى الايات التي تلحن الرئيس (بارفاس) حين شعرت أن حنجرتي
قد جفت . توقفت عن الانشاد ومددت يدي نحو كأس كانت قريبة مني .
في هذه اللحظة رأيت شخصاً يلبس بدلة بيضاء يقترب مني مستعجلاً نحو
المنبر . انا ، معتقداً انه مستخدم تابع للقاعة ، مددت له الكأس كي يملأها
لي بالماء . لكن الرجل هذا المرتدي البدلة البيضاء رفض ذلك وقد شعر
بالاهانة والتفت الى الحضور ثم صرخ بشكل عصبى **Soy Embaxaidor do Brasil** (1٠٩) . احتج لان (بريستيس) ما هو الا مجرم عام . . .» .

فقاطع الجمهور هذه الكلمات بتصفير حاد مدو . طالب شاب ملون ،
عريض كخزانة ، نهض من وسط القاعة وشق له درباً نحو المنبر ومد يديه
الى عنق السفير . انا أسرعت كي أحمي الديبلوماسي ولحسن الحظ
استطعت أن أخرجته من ذلك المكان دون أي ضرر كان يمكن أن يلحق بمنصبه
وسمعه .

بهذه السوابق بدأ سفري من «ايسلا نيغرا» الى البرازيل للمشاركة
في الابتهاج الشعبي ، طبيعياً بالنسبة للبرازيليين . لقد اندهشت حين
رأيت الجماهرة الفقيرة التي كانت تمسلاً لمعب «باكايبدو» **Pecaimbu**

١٠٩ - العبارة بالبرتغالية ، معناها ، انا سفير البرازيل .

في «سان باولو» . يقولون انه كان هناك اكثر من مائة الف نسمة . كانت الرؤوس ترى صغيرة جدا داخل تلك الدائرة الواسعة جدا . لقد بدا لي (بريستيس) ذو القامة الضئيلة وهو بجانبه وكأنه (المازرو) وقد خرج من القبر ، نظيفا ومتزينا للمناسبة . كان ضامرا ابيض حتى الشفافية ، بهذا الشحوب الغريب الذي يبدو على ملامح السجناء . نظرته الحادة الشديدة، دوائر المزرقة حول عينيه ، أساريره الرقيقة جدا ، رصانته الخطيرة ، كل شيء كان يدكر بالتضحية الطويلة خلال حياته كلها . غير انه تكلم في هدوء جنرال مناصر .

انا انتسدت قصيدة على شرفه كتبتها ساعات قليلة من قبل . غير فيها (خورخه أمادو) كلمة واحدة وهي كلمة **البنائين** (١١٠) واستبدل بها كلمة **Pedreiras** (١١١) البرتغالية . على الرغم من تخوفاتي فقد فهم الحشد الغفير كله قصيدتي المكتوبة والمقروءة باللغة الاسبانية . بعد كل سطر من قراءتي المتمهلة البطيئة كان ينفجر تصفيق البرازيليين . كان لتلك التصفيقات رجوع عميق في شعري . ان شاعرا ينشد أشعاره امام مائة وثلاثين الف نسمة ليس في مكنته ان يظل هو نفسه كما كان من قبل ولا يستطيع ان يكتب بالطريقة نفسها بعد هذه التجربة .

في النهاية اجد نفسي وجها لوجه امام البطل الاسطوري (لويس كارلوس بريستيس) كان ينتظرني في منزل احد اصدقائه . ان كل ملامح (بريستيس) - قامته الصغيرة، نحولته ، بياضه كبياض الورق الشفاف تتطلب امعانا كإمعان التصوير الدقيق . كذلك كلماته ، ولربما تفكيره ، تبدو في تناسق مع هذا المظهر الخارجي .

انه ودي معي ولطيف داخل اطار تحفظه المعروف به . اعتقد انه يخصني بهذه المعاملة الودودة التي نحن الشعراء نجدها دوما لدى الآخرين في معاملتهم لنا وهي معاملة تطف بين الطراوة والمراوغة ، شبيهة جدا بمعاملة الكبار حين يتحدثون الى الصغار .

١١٠ - البنائين : هكذا في الاصل **Albaniles** عن العربية .
١١١ - معانها : **الخبث** .

دعائي (بريستيس) الى الغداء في يوم من ايام الاسبوع التالي . عند ذلك وقعت لي واحدة من هذه المصائب التي لا يمكن عزوها الا الى القدر او الى فوضويتي وعدم مسؤوليتي . ان اللغة البرتغالية ، مع انها تملك سبتها واحدها لا تشير الى الايام الاخرى مثل الاثنين والثلاثاء والاربعاء الا بتسميات شيطانية على النحو التالي (Segonda Feira, Tersa Feira, Guarta Feira فافرة عن Feira الاول باعتباره تحصيل حاصل . انا اتخربط بهذه الايام البرتغالية دون ان ادري في اي يوم يكون يومها .

رحت لأقضي بضع ساعات على الشاطيء مع صديقة برتغالية جميلة مدكرا نفسي في كل لحظة انه في اليوم التالي ينتظرني (بريستيس) على الغداء . في La quarta Feira علمت ان (بريستيس) انتظرني فسي Tersa Feira بلا جدوى والمائدة جاهزة بينما كنت انا اقضي تلك الساعات في شاطيء «اباناما» ibanima . بحث عني في كل جهة دون ان يعرف احد اين موضعي . القائد الزاهد كان قد احضر تكريما لي زجاجات نبيذ فاخرة ممتازة من الصعب الحصول عليها في البرازيل . كنا سنتفدى نحن الاثنين وحدنا .

كلما ذكرت هذه الحكاية ، أريد ان اموت خجلا . لقد استطعت ان اتعلم كل شيء في حياتي غير اسماء ايام الاسبوع بالبرتغالية .

(كودوفيا Codvila)

لدى خروجي من «سانتياغو» عرفت ان (فيتوريو كودوفيا) كان يريد التحدث معي فذهبت لأراه . كنت أحافظ دوما على صداقة طيبة معه حتى موته .

كان (كودوفيا) ممثلا للأمم الثالثة وكانت تجتمع فيه عيوب تلك الفترة كلها . كان شخصانيا استبداديا ، وكان يظن انه يملك الحق دوما، كان يفرض رأيه ويعتقد انه الفيصل ، كان يتدخل في آراء الآخرين كما السكين في الزبدة . يدخل الى الاجتماعات في عجلة واستعجال

ليعطي الانطباع بان كل شيء عنده قد انجز وانه فكر في كل امر ووجد له حلا . يبدو عليه حين ينصت الى آراء الآخرين وكأنه يفعل ذلك فسي كياسة وذوق ، وفي تملل وعدم صبر . من بعد كان يعطي أوامره الباتة وتعليماته القاطعة . قدرته كانت هائلة وسيطرته على الانشاء والتركيب كانت باهظة تبعت الآخرين على الارهاق . كان يعمل بلا كلل وكان يفرض هذا النسق السريع المتواصل على رفاقه . لقد تكونت لي فكرة دائمة عنه الا وهي انه آلة كبيرة للفكر السياسي في تلك الاوقات .

لقد كان له نحوي دوما شعور خاص جدا بالتفهم والمراعاة . لقد كان هذا الايطالي المهاجر النغمي فيما هو مدني ، انسانيا بشكسل فائض ، ذا شعور عميق وحس فني يجعله يتفهم نقاط الضعف في رجال الثقافة ، ولكن هذا ما كان ليمنعه من ان يكون عديم الشفقة - وأحيانا نحسا - في الحياة السياسية .

كان منزعجا منشغلا ، قال لي ، بسبب عدم تفهم (بريستيس) لموقفه المعادي للديكتاتورية «البيرونية» . فقد كان (كودوفيا) يعتقد ان (بيرون) وحركته كانا امتدادا للفاشية الاوروبية . ولا اي انسان معادٍ للفاشية يمكن له ان يقبل بتضخم «بيرون» وبنشاطاته المتكررة في القمع والاستبداد . كان (كودوفيا) والحزب الشيوعي الارجنطيني وبساريون آخرون يفكرون في تلك الفترة ان الجواب الوحيد على (بيرون) هو العصيان .

(كودوفيا) كان يريد ان أتكلم انا في هذا الموضوع مع (بريستيس) . ليس هذا بمهمة يجب عليك تأديتها ، قال لي . لكنني شعرت بأنه كسان منشغلا في اطار هذه الثقة بالنفس التي كانت تميزه .

بعد المهرجان السياسي الذي جرى في «باكيامبو» تحدثت مطولا مع (بريستيس) . لم يكن ممكنا العثور على رجلين مختلفين متناقضين أكثر منهما . الايطالي - الارجنطيني الضخم الطافح كان دائما يشغل الفرفة كلها ، الطاولة بأسرها ، الجو بكامله . (بريستيس) الضامر الزاهد كان جد هس الى حد ان هبة ريح كانت تستطيع ان تحمله عبر النافذة .

غير اني وجدت من وراء المظاهر رجلين صلبين جدا لا يختلف احدهما

عن الآخر في صلابته وعناده .

«ليس ثمة من فاشية في الأرجنتين ، ان (بيرون) هو قائد وليس زعيما فاشيستيا» قال لي (بريستيس) مجيبا على أسئلتني . «ابن هي القمصان البنية ؟ القمصان السوداء ؟ الميليشيا الفاشيستية ؟» .

«زد على هذا ، ان (كودوفيا) يخطيء . يقول (لينين) انه لا يمكن اللعب بالعصيان . ولا يمكن ان تعلن حرب بدون جنود ، اذا كان لا يعتمد فيها الا على المرتجلين العقويين» .

كان الرجلان المختلفان جدا في أعماقهما متشابهين في انهما لا يمكن اقناعهما . احدهما ، بشكل محتمل (بريستيس) ، كان له الحق في هذه الاشياء لكن اعتقادية كليهما ، اعتقادية هذين الثوريين المستحقين للاعجاب كانت تثير حولهما بشكل دائم جوا انا كنت اجده خانقا .

يجب عليّ ان اضيف هنا ان (كودوفيللا) كان رجلا حيويا . بالنسبة لي فقد كانت تعجبني جدا محاربته للحنسمة وتصنع الحياء و « البوريتانية » (١١٢) لفترة شيوعية . كان (لا فيرته) و«جلنا التشيلي العظيم جدا في تلك الاوقات القديمة المتعصبة المتحزبة ، ضد «الكحولية» حتى الهوس . كان (لا فيرته) العجوز يقبع (١١٣) كذلك في كل لحظة ضد الحب والعلاقات الغرامية التي كانت تنشأ خارج «حكم الشرع» (١١٤) بين رفاق الحزب ورفيقاتهم . كان (كودوفيللا) يهزم معلمنا المحدود بما له من سعة حيوية .

١١٢ - البوريتانية : هي مذهب التمحيص والتمسك بالدين ، يمكن ترجمتها ب **الحيطة** .

١١٣ - يقبع : قبع الخنزير اي دمدم وهمهم .

١١٤ - حكم الشرع : في الاصل Registro Civil اي السجل المدني .

(ستالين)

ان كثيرا من الناس قد اعتقدوا في اني سياسي مهم ، او اني كنت ذلك السياسي . لست أدري من اين خرجت هذه الاسطورة الشهيرة جدا . ذات مرة رأيت ، صدفة ، صورة لي صغيرة مثل صور الطوايع ، فسي صفحة من صفحات مجلة Life . كانت هذه المجلة تعرض على قرائها صور قادة الشيوعية العالمية . لقد بدت لي صورتي المحشورة بين صورة (بريستيس) وصورة (ماو تسي تونغ) فكاهة مسلية ، غير اني ما اوضحت انا لقراء المجلة شيئا لاني دائما كنت اكره رسائل الاستدراك او الاحتجاج التي تبعث عادة الى الصحف لتوضيح امر او آخر . كذلك كان شيئا لطيفا ان اترك C.I.A (١١٥) على خطتها مع ان لها في العالم اكثر من خمسة ملايين من العملاء والمخبرين .

ان اطول اتصال قمت به مع زعيم قطب في العالم الاشتراكي جرى خلال زيارتي للصين حين تبادلت مع (ماوتسي تونغ) في مجرى احتفال ، شرب الانخاب . عندما تلامست كأسانا نظر السي بعينين مبتسمتين وبابنسامة عريضة واسعة بين لطيفة ومستهزئة ، احتفظ بيدي في يده حين سلم علي ، ضافطا عليها خلال بضع ثوان اكثر مما هو معتاد عليه . من بعد عدت الى المائدة لاجلس في مكاني .

ابدا ما شاهدت اثناء زياراتي الكثرة للاتحاد السوفيتي لا (مولوتوف) (١١٦) ولا (فيسهينسكي) ولا (بيريا) (١١٧) ولا حتى (ميكويان) ، ولا (ليتفيتوف) وهذان الاخيران هما شخصيتان اجتماعيتان اكثر من غيرهما وأقل غموضا من الآخرين .

١١٥ - ادارة الاستخبارات الامريكية .

١١٦ - مولوتوف : سياسي سوفيتي ولد عام ١٨٩٠ .

١١٧ - بيريا : سياسي سوفيتي مشهور (١٨٩٩ - ١٩٥٢) .

اما (ستالين) فقد لمحتة اكثر من مرة ، ودوما في النقطة نفسها :
 المنصة التي تلو فوق الساحة الحمراء وتفص بالقيادة السوفييت ذوي
 المناصب العالية ، سواء في الاول من ايار او في السابع من تشرين الثاني
 كل عام . لقد قضيت ساعات طويلة في «الكريملين» بصفتي عضوا في
 اللجنة المحكمة لمنح الجائزة التي كانت تحمل اسم (ستالين) دون ان
 نتواجه البتة ، في ممر ، ودون ان يأتي هو ليزورنا خلال مداولاتنا او
 ولأئمننا او ان يدعونا ليحيينا . لقد منحت الجوائز دوما باجماع الاصوات
 لكن كان يسبق الاقتراع نقاش مغلوق لاختيار المرشح . لقد كان لسديّ
 الانطباع بأن شخصا ما من امانة سر اللجنة المحكمة كان يعدو بما كنا نتفق
 عليه ، قبل اتخاذ القرارات النهائية ، ليرى فيما اذا كان الرجل الكبير
 يصادق عليها ام لا . لكن لا اذكر مطلقا انه كان ثمة اعتراض او اية ممانعة
 من قبله ، ولا اذكر كذلك انه ، على الرغم من قربه المحسوس منا ، كان
 يشعر بأنه يعلم بوجودنا . لقد كان (ستالين) بشكل مقرر يزرع الفموض
 كمنهاج يتخذة ، او انه كان هيّابا كبيرا ، رجلا سجين نفسه . ربما يمكن
 ارجاع هذه الميزة الى التأثير المسيطر الذي كان (بيريا) عليه . لقد كان
 (بيريا) هو الوحيد الذي يدخل ويخرج ، دون اعلام مسبق ، الى غرف
 (ستالين) .

بيد انه كان لي في مناسبة ما علاقة غير متوقعة ، ما زالت تبدو لي
 حتى الآن غريبة ، مع رجل «الكريملين» الغامض . كنا نروح في صحبة
 آل (اراقون) - (لويس) و(ايلسا) - في طريقنا الى موسكو لنشارك في
 اجتماع اللجنة المحكمة التي كان عليها ان تتداول في منح جائزة (ستالين)
 لذلك العام . فأوقفنا في «فرصويا» عواصف ثلجية هائجة هائلة .
 فعرفنا اننا لن نصل الى «موسكو» في الوقت المحدد . احد مرافقينا
 السوفييت تكلف بارسال اسماء المرشحين الذين انا و(اراقون) كنا قد
 اخترناهم ، برقيا باللغة الروسية الى «موسكو» . على فكرة ، هذه الاسماء
 قد ووفق عليها في الاجتماع . لكن ما هو غريب حقا في هذا الامر ان
 السوفييتي الذي تلقى الاجابة على ذلك هاتفيا ، اخذني جانبا وقال لي على
 حين غرة :

— اهنك ، ايها الرفيق (نيودا) . ان الرفيق (ستالين) حين قدمت

اليه قائمة المرشحين للفوز بالجائزة صرح متسائلا : «ولماذا اسم (نيرودا) ليس بين هذه الاسماء ؟» .

في العام التالي استلمت انا جائزة (ستالين) للسلام والصدافة بين الشعوب . ربما اني كنت استحقها عن جدارة لكنني اتساءل كيف علم ذلك الرجل النائي بوجودي ؟ .

عرفت في تلك الاوقات بتدخلات مشابهة لستالين . حين كانت تتفاهم الحملة ضد «الكونية» El Cosmopolitismo ، حين كان المتحريون ذوو «العنق القاسي» يطالبون برأس (ايهرينبورغ) رن جرس الهاتف ذات صباح في منزل مؤلف «خوليو خورنيتو» فردت على النداء (لوبا) صوت غير معروف بشكل غامض ، سأل :

— اموجود (اليا غريفوريفيتش) ؟

— من حضرتك ؟ اجابت (لوبا) .

— هنا (ستالين) — قال الصوت .

— يا (اليا) ، ثمة رجل يمزح يريد التكلم معك — قالت (لوبسا) (ايهرينبورغ) .

لكن حين اخذ الهاتف عرف الكاتب انه صوت (ستالين) المسموع جدا من لدن الناس جميعهم :

— لقد قضيت الليلة وانا اقرا كتابك « سقوط باريس » la caída de Paris . فأجبت ان اتصل بك كي اقول لك ان تظل مستمرا على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جدا ، ايها العزيز (اليا غريفوريفيتش) .

قد تكون هذه المكالمات الهاتفية غير المتوقعة قد جعلت حياة (ايهرينبورغ) العظيم تطول .

مثال آخر . كان (ماياكوفسكي) قد مات ، لكن أعداءه الرجعيين العنيدون كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنساب وبسكاكين ، مصممين مصريين على محوه من خارطة الادب السوفييتي . حينذاك حدث امر غير كل ما يتوه وافترضوه . كتبت حبيبته (ليلي بريك) رسالة الى (ستالين) تشير له فيها الى ما هو مخجل وعار في تلك التهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (ماياكوفسكي) . كان المعتدون يظنون انهم لن يعاقبوا على فعلتهم محميين بتآلبهم الجماعي . فاصيبوا بخيبة امل . لقد كتب «ستالين» على هامش رسالة (بريك) : «ان (ماياكوفسكي) لهو احسن شاعر في العهد السوفييتي» .

مند تلك اللحظة اخذت تبني المتاحف وتقام النصب التذكارية تكريما لـ (ماياكوفسكي) وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخر جدا . فصعق المخرصون وخدموا امام نفخة (بهوه) في الصور .

علمت كذلك انه حين مات (ستالين) عشروا بين اوراقه على قائمة اسماء كتب عليها «ممنوع اللمس» ، بخط يده . في رأس هذه القائمة كان اسم الموسيقي (شيوكاكوفيتش) (١١٨) ثم تلو اسماء شهيرة اخرى . (ايسنتستين) (١١٩) ، (باسترناك) ، (ايهرنبورغ) ، الخ .

ان الكثيرين ظنوا اني ستاليني مقتنع . لقد صورني الفاشييون والرجعيون على اني مفسر غنائي لستالين . لا شيء من هذا يفضبنسي ويزعجني . ان الاستنتاجات كلها ممكنة في عهد مشوش بشكل شيطاني .

ان الماساة الداوية بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كانت هي اننا ادركنا انه ، في نواح عديدة من مشكلة ستالين كان للعدو الحق . لقد تلت هذا الكشف الذي هز النفس حالة وعي اليمية . بعض الشيوعيين شعر انه كان

١١٨ - شيوكاكوفيتش : مؤلف موسيقي سوفييتي ولد عام ١٩٠٦ .

١١٩ - ايسنتستين : مخرج سينمائي سوفييتي (١٨٩٨ - ١٩٤٨) .

مخدوعا فقبل في عنف ، منطلق العدو وعبر الى صفوفه . آخرون اعتقدوا ان الاحداث الرهيبة المفزعة التي كشف عنها المؤتمرون العشرون بشكل غير رحيم تفيد في ان تبرهن على نزاهة حزب شيوعي انقذ نفسه وهو يري العالم الحقيقة التاريخية وهو يقبل مسؤوليته الذاتية .

ان كان فعلا ان هذه المسؤولية تقع علينا جميعا ، فان فضح تلك الجرائم كان يعيدنا الى النقد الذاتي والتحليل وهما مادتان جوهريتان في مذهبنا . كان هذا يعطينا الاسلحة كي نمنع ان تتكرر مثل هذه الاشياء الرهيبة جدا .

هذا كان موقفي : على الرغم من دياجير عهد (ستالين) ، التي لم اكن اعرفها كان يبرز امام عيني (ستالين) الاول ، رجل مبدئي ، طيب ، دمث ، قانع مثل زاهد ، مدافع جبار عن الثورة الروسية . بالاضافة الى هذا كان ذاك الرجل القصير ذو الشاربين الكبيرين قد اصبح عملاقا في الحرب ، فقد اقتحم الجيش الاحمر واسم (ستالين) على كل شفة ، حصن الابالسة الهتلريين فجعله غبارا .

بيد اني ، كتبت قصيدة واحدة اهديتها الى هذه الشخصية القديرة وكان ذلك في موته . يستطيع من يشاء ان يعثر عليها في اعماله الكاملة . ان موت مارد «الكريميلين» كان له وقع دولي . فلقد اهتزت الغابة الانسانية له . قصيدتي هذه التقطت مشاعر ذلك الهلع الارضي .

درس في التواضع

لقد باح لي (غابرييل غارثيا ماركيث) ، وهو يشعر ياهانة كبيرة ، كيف انهم حذفوا في موسكو بعض العبارات الفرامية من كتابه الرائع «مائة سنة في الوحدة» .

– ان هذا لسيء جدا – قلت انا للناشرين .

– لكن الكتاب لا يفقد شيئا – اجابوني ، وانا ادركت بانهم كانوا

قد شدبوه من غير نية سيئة . لكنهم شدبوه .

كيف يتم اصلاح هذه الاشياء ؟ انني في كل مرة أصبح أقل علما في المجتمع . خارج مبادئ الماركسية العامة ، خارج كراهيتي للرأسمالية وثقتي في الاشتراكية ، كل مرة أجد أقل فهما لتناقض الانسانية العنيد.

كان علينا نحن شعراء هذه الفترة ان نختار . لم يكن الاختيار سريرا من ورود . لقد اصبحت الحروب الرهيبة الظالمة ، الاضطهاد المستمر ، ظلم المال واعتدائه ، المظالم كلها ، اكثر امعانا ووضوحا . لقد كانت صناعات النظام الهرم هي «الحرية» المشروطة ، الناحية الجنسية ، العنف والملذات المدفوعة على اقساط شهرية مريحة .

لقد بحث شاعر الحاضر عن مخرج من قلقه . بعضهم التجأ السبي لصفوية او نحو حلم العقل . بعضهم الآخر يشعر انه مفتون بالعنف العفوي المهتم للشباب ، فعبّر ليصير «تلقائيا» immediatista دون الاخذ بعين الاعتبار ان هذه التجربة ، في العام الحالي الحربي ، قد أدت دوما الى القمع والتعذيب الجسدي العقيم .

لقد وجدت في حزبي ، الحزب الشيوعي التشيلي ، مجموعة كبيرة من اناس متواضعين كانوا قد نحووا جانبا القروى الشخصي ، حب الزعامة ، المصالح المادية . شعرت بانني سعيد في معرفة اناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام اي في سبيل العدالة .

قط لم تكن لي من مصاعب مع حزبي الذي بتواضعه توصل الى تحقيق انتصارات عظيمة لشعب تشيلي ، شعبي . ماذا استطيع ان اقول اكثر من هذا ؟ اني لا اطمح الا الى ان اكون جد متواضع مثل رفاقي ، جد مثابر وغير قابل للهزيمة كما هم عليه . ابدا لا يتعلم المرء ما فيه الكفاية مسن التواضع . قط ما علمني شيئا الافتخار الشخصي الذي يتحصن «المذهب الارتياحي» el escepticismo كي لا يتضامن مع العذاب الانساني .

بعد اسبوعين من دخوله المنتصر الى «لا هافانا» وصل (فيديل كاسترو) الى «كاراكاس» في زيارة قصيرة . لقد جاء ليشكر علنا الحكومة والشعب الفنزويليين على المساعدة التي كانت «فينزويلا» قد قدمتها له . هذه المساعدة كانت عبارة عن اسلحة لقواته ولم يكن ، طبعاً ، (بيتانكورت ١٢١) (المنتخب حديثاً رئيساً للجمهورية) من امده بهذه المساعدة بل كان امير البحر (وولفغانغ لارازابال) . لقد كان (لارازابال) صديق الحركات اليسارية الفنزويلية بما فيها الحزب الشيوعي فلبى مطلب التضامن مع كوبا ، الذي وجهه اليه هؤلاء اليساريون .

لقد رأيت في حياتي قليلا من الاستقبالات السياسية الحماسية جداً مثل الاستقبال الذي خص به الفينزويليون هذا الشاب المنتصر في الثورة الكوبية . لقد تكلم (فيديل كاسترو) خلال اربع ساعات مستمرة فسي الساحة الكبرى المسماة « ال سيلنثيو » (١٢٢) وهي قلب «كاراكاس» . انا كنت واحداً من المائتي الف شخص الذين استمعوا وهم واقفون على أرجلهم بدون نبس الى ذلك الخطاب الطويل . بالنسبة لي كما بالنسبة لآخرين كثيرين كانت خطب (فيديل) وحياً وتنزيلاً . حين كنت اسمعه يتكلم امام ذلك الحشد الفقير ، أدركت ان عهداً جديداً قد بدأ بالنسبة لامريكا اللاتينية . لقد أعجبت بجدة لفته . لقد اعتاد احسن القادة الثقابين والسياسيين على هرس صيغ قد يكون محتواها ذا قيمة لكنها كلمات مستهلكة وهنة من كثرة التكرار . لقد كان (فيديل) يتجاهل مثل هذه الصيغ . لفته كانت طبيعية تعليمية . كان يبدو وكأنه هو نفسه يتعلم فيما كان يتكلم ويعلم .

لم يكن الرئيس (بيتانكورت) يحاضر في الاحتفال . كانت ترهبه فكرة

١٢٠ - فيديل كاسترو : الزعيم الكوبي المعروف ولد عام ١٩٢٦ .

١٢١ - بيتانكورت : سياسي فنزويلي ولد عام ١٩٠٨ .

١٢٢ - سيلنثيو : معناها السكون .

ان يتواجه وشعب « كاراكاس » اذ لم يكن فيها شعبيا ابدا . كل مرة كان (فيديل كاسترو) يذكر فيها اسمه في خطابه كانت تسمع توا تصفيرات واستنكاكات التي كانت يدا (فيديل) تحاولان تهدئتها . انا اظن ان ذلك اليوم قد وضع ختما نهائيا لعداوة استفحلت شيئا فشيئا بين (بيتانكورث) والثوري الكوبي . لم يكن (فيديل) ماركسيا ولا شيوعيا في ذلك الوقت ، كلماته نفسها كانت تنأى كثيرا عن هذا الموقف السياسي . ان رأيي الشخصي هو ان ذلك الخطاب ، شخصية (فيديل) اللامعة والحماسية الجماهيرية التي كانت تنبعث . الشغف الذي ابداه شعب «كاراكاس» حين كان ينصت اليه ، احزنت كل هذه الاشياء قلب (بيتانكورث) وهو سياسي ذو أسلوب عتيق ، ذو بلاغة ، رجل محافل واجتماعات سرية . منذ ذلك الحين و(بيتانكورث) يمقت في حنق لا يرحم كل حكاية تجعله يشتم من قريب او بعيد رائحة (فيديل كاسترو) او الثورة الكوبية .

في اليوم التالي لذلك المهرجان السياسي ، حين كنت انا في الريف اقوم بنزهة يوم الاحد وصلت الينا بعض الدراجات النارية كانت تحضر لي دعوة الى السفارة الكوبية . كانوا قد بحثوا عني طيلة النهار كله دون ان يعثروا عليّ وفي النهاية اكتشفوا موضعي . كان الاستقبال سيجري في مساء ذات اليوم نفسه . (ماتيلده) وأنا اتجهنا مباشرة الى مقر السفارة . كان المدعوون جد كثيرين الى درجة انهم كانوا يتجاوزون سعة القاعات والحدايق ، في الخارج كان الشعب يتزاحم وكان صعبا جدا اجتياز الشوارع التي تؤدي الى مقر السفارة .

تخطينا قاعات مزدحمة بالناس ، متراسا من اذرع تحمل كؤوس «كوكتيل» كانت ترتفع فنعبير . اخذنا شخص ما عبر دهاليز وسلالم الى طابق آخر . في مكان مفاجيء كانت تنتظرنا (ثيليا Celia) صديقة (فيديل) وسكرتيرة واقرب الناس اليه . (ماتيلده) بقيت معها . اما انا فقد ادخلوني الى الغرفة المجاورة . وجدت نفسي في غرفة نوم اضافية كانتا غرفة نوم بستاني او سائق . لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو ان احد الاشخاص كان نائما عليه فنهض منه في استعجال تاركا الشراشف في

فوضى والمخدة (١٢٣) على الارض . ثمة طاولة سرير صغيرة ولا شيء آخر . ظننت انهم من هناك سيأخذوني الى قوينة لائقة كي اقبل القائد . لكن هذا لم يكن هكذا اذ فتح الباب على حبن غرة واذ (فيديل كاسترو) يملأ الفراغ بقامته .

كان اطول مني برأس . اتجه نحوي بخطى سريعة .

— مرحبا ، (بابلو) — قال لي وغمرني بذرَاع شادة ضاغطة .

لقد فاجاني صوته النحيل الرقيق ، الطفولي تقريبا . كذلك شيء في منظره كان يتطابق مع لحن صوته . لم يكن (فيديل) يعطي الانطباع بأنه رجل كبير ، بل طفل صغير كانت قد تطاولت فجأة سافاه دون ان يفقد وجهه وجه فتى ، ولحيته الضئيلة ، ذقن مراهق .

ترك ذراعه عني في فظاظة وخشونة . نم ظل كمن للذعته الكهرياء . دار نصف دورة واتجه عازما حازما نحو ركن في الغرفة . دون انبته انا كان قد دخل في خفوت مصور صحفي ومن هذا الركن اخذ يوجه آله التصويرية نحونا . (فيديل) انقضّ عليه دفعة واحدة . رأيته وهو يمسك به من خناقه ويهزه فسقطت آلة التصوير على الارض . اقتربت من (فيديل) واخذته من ذراعه وقد فزعت حين رأيت المصور الضئيل يكافح بلا جدوى ويحاول ان يتملص منه ويتخلص . غير ان (فيديل) قذف به نحو الباب واجبره على الاختفاء . من بعد التفت اليّ مبتسما ، التقط آلة التصوير من الارض ورماها فوق السرير .

لم نتكلم عن الحادثة بل عن امكانات انشاء وكالة انباء لامريكا بأسرها . يظهر لي انه من جراء تلك المحادثة الثنائية ولدت وكالة « الصحافة اللاتينية » . من بعد كل واحد منا خرج من باب ليعود الى الاستقبال .

١٢٣ - المخدة : هكذا في الاصل Almohada . عن العربية

بعد ساعة على ذلك ، حين كنت اعود من السفارة في صحبة (ماتيلده)
رجع الى مخيلتي وجه ذلك الصحفي المروع والسرعة الغريزية لرئيس حرب
العصابات الذي انتبه الى وصول الدخيل الخفوت من وراء ظهرنا .

هذا كان اول لقاء لي مع (فيديل كاسترو) . لما إذا رفض بشكل قاطع
تلك التصويرة ؟ أكان رفضه يتضمن سرا سياسيا صغيرا ؟ الى الآن لم
استطع ان اتوصل الى فهم ، لاي سبب كانت مقابلتنا يجب ان تتسم في
جو ذي طابع سري جدا .

كان اول لقاء لي مع (نشي غيفارا) مختلفا جدا . جرى اللقاء فسي
«لا هافانا» . وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريبا،
وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية او الاقتصاد ، لا أذكر الآن على
وجه الدقة . مع انه كان قد حدد لي منتصف الليل ، انا وصلت متأخرا .
كنت أحضر اجتماعا رسميا وأجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان «نشي» ينتعل جزمة ، ويرتدي زيا عسكريا للميدان ويتمنطق
بحزام فيه مسدسان . كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب
المصرفي .

كان (نشي) أسمر ، متمهلا في الكلام ، ذا نبرة ارجنتينية
واضحة . كان رجلا يصلح الحديث معه في ترو، بسهولة «بامبا» Pampa
بين «ماته» (١٢٤) و«ماته» . جملة كانت قصيرة موجزة تقضب في ابتسامة
كما لو انه يترك التعليق معلقا في الهواء .

لقد لد لي ما قاله لي عن كتابي «النشيد العام» . كان يعتاد قراءته
ليلا على رجاله المحاربين في «لا سيرا مايسترا» . الآن ، بعد ان مرت

١٢٤ - ماته : كنا قد اشرنا الى انه نوع من الشاي يشربه الامريكيون اللاتينيون
والمعربون العرب العائدون الى وطنهم العربي من امريكا اللاتينية .

١٢٥ - ريجيس دو برية : هو الصحفي الفرنسي الذي وافق (نشي غيفارا) في «بوليفيا»
م سجن هناك .

السنون ، اقشعرّ حين افكر ان اشعاري رافقته كذلك في موته . عن طريق (ريجيس دوبسري) (١٢٥) عرفت انه في جبال «بوليفيا» احتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما : كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

لقد قال لي (تشي) تلك الليلة شيئا بلبني كثيرا ولكنه من ناحية يفسر مصيره الذي آل اليه . كان نظره يشرذ عني نحو النافذة المعتمة لذلك البناء المصرفي . كنا نتكلم عن احتمال غزو امريكي شمالي لكوبا . انا كنت قد شاهدت في شوارع «لا هافانا» اكياس رمل منتشرة في نقاط استراتيجية . هو قال لي بشكل مفاجيء :

— الحرب ... الحرب نحن دوما ضد الحرب ، اما وقد قمنا بها فنحن لا نستطيع الحياة بدون الحرب في كل لحظة نريد ان نعود اليها .

كان يفكر في صوت عال ويخاطبني . انا استمعت اليه في ذهول صريح واضح . بالنسبة لي الحرب هي تهديد وليست بمصير .

ودّعته وما عدت فرايته من بعد قط . من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي . لكنني ما زلت ارى في (تشي فيفارا) ذاك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوما فسي معاركه البطولية ، ازاء الاسلحة ، مكانا للشعر .

ان كلمة «امل» تعجب كثيرا امريكا اللاتينية . يطيب لنا ان تسمى قارتنا «قارة الامل» . لو ان المرشحين للنيابة ، لعضوية مجالس الشيوخ ، للرئاسة ، يسمون انفسهم «مرسحي الامل» .

في الواقع ان هذا الامل هو شيء هكذا مثل الفردوس الموعود ، وعد بالدفع ، اداؤه يتأجل دوما . يؤجل الى المرحلة التشريعية القادمة ، الى السنة القادمة او القرن القادم .

حين نشبت الثورة الكوبية حدثت ملايين من الامريكيين الجنوبيين بقظة فجائية . ما كانوا اول الامر يصدقون ما كانوا يسمعون . لم يكن

هذا مكتوبا في اسفار قارة قد عاشت وهي تفكر بياس في الامل .

واذ ، على حين غرة ، (فيديل كاسترو) وهو كوبي لم يكن احد :
قبل يعرفه ، يمسك بالامل من شعره او من قدميه ولا يسمح له ان يفلت
من بين يديه بل يجلسه في مائدة او دارة شعوب امريكا .

منذ ذلك الحين الى الآن تقدمنا كثيرا في طريق الامل هذا السير
غدا واقعا حيا . لكننا نحيا والروح في خيط (١٢٦) . بلد مجاور ، جده
قدير وجد امبريالي ، يريد سحق كوبا مع الامل ومع كل شيء . تفلأ
جماهير امريكا الصحف كل يوم ، تنصت الى الاذاعات كل ليلة . تنعس
هذه الجماهير الصعداء . كوبا توجد ، يوما آخر ، سنة اخرى . نصف
عقد آخر (١٢٧) . لم يقطع راس املنا ، لن يقطع .

رسالة الكويين

منذ زمن والكتاب البيرويون ، الذين لي بينهم اصدقاء كثر اعتمد
عليهم دوما ، كانوا يضغطون كي يمنحني بلدهم وساما رسميا . اعترف ان
الاسمة بدت لي دائما الى حد ما مضحكة . ان الاسمة القليلة التي املكها
هي اسمة علقنت على صدري بدون اية محبة ، على مهام اديتها ، بسبب
اعمال قنصلية قمت بها اي بسبب لياقة او عادة مألوفة . مررت ذات
يوم ب «ليما» فأصر (نيرو اليغريا) (١٢٨) الروائي الكبير صاحب رواية
« الكلاب الجياع » السذي كان اذالك رئيس الكتاب البيرويين ،
على ان يمنحني بلده وساما آنذاك . كانت قصيدتي « مرتفعات
«ماكتشو بيكتشو» قد صارت جزءا من الحياة البيروية ، ربما انسي

١٢٦ - الروح في خيط : تعبير اسباني بمعنى الجرع والهلع .

١٢٧ - في الاصل كلمة واحدة وهي *lustro* تعني مدة خمس سنين ، نقترح ان

ترجم الى العربية بكلمة خاموس .

١٢٨ - نيرو اليغريا : روائي وشاعر من البيرو ١٩٠٩ - ١٩٦٧ .

استطعت ان اعبر في أبياتها عن بعض المشاعر التي كانت ترقد نائمة مثل حجارة لبناء عظيم . اضعف الى هذا ان الرئيس البيروي لذات الوقت وهو المهندس المعماري (بيلاونده) (١٢٩) كان صديقي وقارئي . مع ان الثورة التي طردته من بلده فيما بعد ، وهبت البيرو حكومة ، بشكل غير متوقع منفتحة في طرق التاريخ الجديدة ، فاني ما زلت أعتقد ان المهندس المعماري (بيلاونده) كان رجلا ذا عفة نفس ليس تمحى ، انهمك في اعمال باطلسة نوعا ما قادت في النهاية به الى ان يصبح معزولا عن الواقع الرهيب وان يغدو مفصولا عن شعبه الذي كان هو يحبه بشكل عميق .

قبلت ان امنح وساما ، هذه المرة ليس بسبب خدماتي القنصلية بل بسبب قصيدة واحدة من قصائدي . بالاضافة الى هذا وليس هو بالامر الاقل شأنا ، كانت لما تزل بن شعب «تشيلي» وشعب «بيرو» جراح لم ترقا . ليس الرياضيون والديبلوماسيون والسياسيون هم وحدهم ممن يجب عليهم ان يعملوا على ايقاف نزيف دماء الماضي بل كذلك ، وفي حق اكثر ، الشعراء الذين حدود ارواحهم اقل من حدود ارواح الآخرين .

في تلك الفترة نفسها قمت بسفر الى الولايات المتحدة . كان الامر يتعلق بمؤتمر عالمي « نادي القلم » (١٣٠) . من بين المدعوين اليه كان اصدقائي : (آرثر ميلر) (١٣١) الارجنطينيان (ايرنستو ساباتو) و (فيكتوريسا اوكامبو) ، الناقد الاورفوايبي (امير رودريغيث مونيغال) ، الروائي المكسيكي (كارلوس فوينتيس) . كذلك شارك كتاب من بلدان اوروبا الاشتراكية كلها تقريبا .

بلغت كذلك حين وصولي ان الكتاب الكوبيين كانوا مدعوين ايضا .

-
- ١٢٩ - بيلاونده : سياسي من البيرو . كان رئيسا للامم المتحدة ،
الجمعية العامة (١٨٨٣ - ١٩٦٦) .
١٣٠ - نادي القلم : كنا قد اشرنا الى انه ناد يجمع الادباء الامبراليين والصهيونيين .
١٣١ - آرثر ميلر : كاتب مسرحي امريكي شمالي ولد عام ١٩١٥ .

كان اعضاء « نادي القلم » مندهشين لان (كارينتيير ١٣٢) لم يكن قد وصل ، فطلبوا مني ان استعلم عن الامر ، فتوجهت الى ممثل وكالة « الصحافة اللاتينية » في نيويورك الذي تفضل فسمح لي ان ارسل برقية من وكالته الى (كارينتيير) .

كان الجواب الذي جاء عن طريق وكالة «الصحافة اللاتينية» هو ان (كارينتيير) لم يستطع المجيء لان الدعوة وصلته متأخرة جدا وان تأشيرة الدخول الامريكية لم تكن جاهزة . احد ما كان يكذب في هذه المناسبة : كانت التأشيرات قد منحت منذ ثلاثة اشهر ومنذ ثلاثة اشهر كذلك كانوا يعرفون بالدعوة وقد قبلوها . يفهم من هذا ان امرا بالتغيب صدر من جهة عليا في آخر ساعة .

انا اديت اشغالي الدائمة . القيت قراءتي الشعرية الاولى في نيويورك بمكان فسيح جدا امتلأ الى درجة انهم اضطروا الى وضع شاشات تلفزة خارج المسرح كي يرى ويسمع آلاف الناس الذين ما استطاعوا الدخول . لقد اثر بي الوقع الذي أحدثته قصائدي ، المعادية للامبريالية في عنف ، في هذا الحشد من الامريكيين الشماليين . لقد ادركت أشياء كثيرة هناك في «واشنطن» وفي «كاليفورنيا» حين اخذ الطلبة والعوام يعبرون عن استحسانهم لكلماتي التي تدين الامبريالية . تأكدت عن كثب ان الاعداء الامريكيين الشماليين لتعوبنا هم كذلك على حد سواء اعداء الشعب الامريكى الشمالي .

اجروا معي بعض المقابلات الصحفية . ان مجلة *Life* التي تصدر بالقشتالية (١٣٣) والتي يشرف عليها امريكيون لاتينيون دخلاء قد تعسفت في آرائى وبترتها . لم يستدركوا حين طلبت منهم ذلك . لكن الامر لم يكن شيئا خطيرا . ان ما حذفوه كان فقرة ادين بها الحرب في الفيتنام

١٣٢ - كارينتيير : روائي كوبي ولد عام ١٩٠٤ .

١٣٣ - القشتالية: تسمى اللغة الاسبانية كذلك بالقشتالية *Castellano* ، وهي

تسمية اكثر دقة نظرا لوجود عدة لغات اخرى في اسبانيا .

وفقرة أخرى حول زعيم أسود اغتيل في تلك الأيام . فقط بعد سنوات شهدت الصحفية التي أجرت المقابلة ان المقابلة قد خضعت للمراقبة .

عرفت خلال زيارتي - وهذا يشرف زملائي الكتاب الامريكيين الشماليين - انهم مارسوا ضغطا قويا كي امنح تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة . يبدو لي انهم وصلوا الى حد انهم هددوا «مكتب الدولة» باصدار استنكار علني يتخلده اعضاء «نادي القلم» ان استمروا على رفضهم باعطائي تأشيرة الدخول . في اجتماع عام كانت فيه تستلم وساما الشخصية الاكثر احتراماً واعتباراً في الشعر الامريكي الشمالي الا وهي الشاعرة العجوز (ماريانه مور) التي مانت بعد نهور من ذلك التاريخ ، تناولت هي الكلمة لتعلن عن بهجتها بان دخولي الشرعي الى البلد قد تحقق بفضل وحسدة الشعراء . لقد حكوا لي بان كلماتها المرتجة المؤنرة قد قوبلت بتصفيق حاد وهتاف عال .

ما هو اكيد وما لم يسبق اليه هو اني ، بعد هذه الجولة المتميزة بفعالياتي السياسية ونشاطي الشعري المكافح ، وبعد ان قمت في الدفاع عن الثورة الكوبية ودعمها اثناء القسم الاكبر من جولتي هذه ومن نشاطي هذا ، تلقيت ما ان عدت الى تشيلي رسالة الكتاب الكوبيين الشهيرة الويلة التي تهدف الى اتهامي بالانصياع بله بالخيانة . لم اعد اذكر العبارات التي استعملها المدعون العامون في شاني . لكنني استطيع القول بانهم كانوا ينصبون انفسهم معلمين للثورات ، مؤدبين في السنن التي يجب ان تطبق على كتاب اليسار . بفطرسه وبسلطة لسان وبمداهنة كانوا يحاولون ان يقوموا من فعاليتي الشعرية والاجتماعية والثورية . ان منحني الوسام على قصيدة «ماكتشو بيكتشو» وحضوري مؤتمر «نادي القلم» وتصريحاتي وقراءاتي الشعرية ، كلماتي واعمالي المعادية للنظام الامريكي الشمالي التي عبرت عنها في فم اللذب (١٢٤) ، كل هذا كان يوضع موضع الشك ، مزبفا او مفترى من لدن الكتّاب السابق ذكرهم ، ان كثيرا منهم حديثو الوصول

١٢٤ - في فم اللذب : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي بين شذني الاسد او في مرينه او في جفن الردى .

الى الميدان الثوري ، وكثيرا منهم يتقاضون مكافآت عن حق واستحقاق او عن ظلم واجحاف من الدولة الكوبية الجديدة .

ان هذا العِدل من الشتائم قد تضخم بتواقيع اكثر فاكثر طولب بها في عفوية مشكوك بها من منابر جمعيات كتاب وفنانين . وكلاء مفوضون كانوا يتراخضون من هنا الى هناك في «لا هافانا» بحثنا عن تواقيع نقابات مهنية بكامل اعضائها ، لموسيقيين وراقصين وفنانين تشكيلييين . كان ينادي للتوقيع على الفنانين والكتاب العديدين العابرين الذين دَعُوا الى كوبا في سخاء عظيم فلبوا الدعوة وامنات بهم الفنادق الفخمة ذات الفخفة والأبهة . بعض الكتاب الذين ظهرت اسمائهم مختومة (١٢٥) على هامش الوثيقة المحجفة أوصل اليّ أخبارا ملفقة : «لم أوقع تلك الرسالة قط ، علمت بمضمونها بعد ان رأيت عليها توقيعى الذي أبدا ما وضعته» . صديق لـ (خوان مارينيو) قد زعم لي بأن هذا هو ما جرى له كذلك ، مع اني لم استطع التأكد من ذلك كله . لكنني تأكدت من ذلك بالنسبة لآخرين .

لقد كان الموضوع كبة خيوط ، خذروف تلج او تلفيقات عقائدية كان من الضروري جعل الآخرين يعتقدون بها مهما كلف الامر . تمركزت وكالات مختصة في مدريد وباريس وعواصم أخرى ، عكفت على ارسال أعداد من الرسالة الكذوب او طبعها من جديد فخرجت الآلاف من هذه الرسالة ، وبخاصة من مدريد ، في ارساليات بعشرين او ثلاثين نسخة الى كل عنوان وكل شخص . لقد كان مسليا بشكل نحس (١٢٦) استلام هذه الظروف المزخرفة بصور (فرانكو) على الطوايع البريدية وفي ضمنها كان يتهم (بابلو نيرودا) بأنه ضد - ثوري .

١٢٥ - نحب ان نلفت انظار القارئ العربي الى ان (نيرودا) يستعمل هنا كلمات لها معان كثيرة بعضها لطيف والاخر عنيف ، فهنا كلمة مختومة قد تعني كذلك ، مداسة ، او مركولة .

١٢٦ - بشكل نحس : هذه الكلمة بالنص الاسباني قد تعني كذلك : يساري ، كما في العربية ، ايسر = امسر .

لا يخصني التحري عن اسباب تلك النوبة (١٣٧) : الزيف السياسي ، الخور العقائدي ، الاحقاد والاحساد الادبية ، ماذا ادري انا كم من اشياء دفعت بهؤلاء الكثر لشن معركة ضد رجل واحد . لقد رووا لي من بعد ان المحررين المتحمسين ، المحرضين والمتصيدين لتواقيع تلك الرسالة الشهيرة كانوا هم الكتاب (روبيرتو فيرنانديت ريتامار) و(ادمونـدو ديسنويس) و(ليساندرو اوتيرو) . بالنسبة لـ (ديسنويس) ولـ (اوتيرو) لا اذكر اني فد فرأت لهما شيئا ابدا ولا عرفتهما شخصا . اما بالنسبة لـ (ريتامار) فبلى . في «لا هافانا» وفي «باريس» كان يلاحقني باطرائه وتملقه بشكل مثابر مواظب . كان يقول لي بأنه كان قد نشر مقدمات متوالية ومقالات تقريظية حول مؤلفاتي . الحقيقة هي انني ما اعتبرته ابدا بدي قيمة بل اعتبرته واحدا من هؤلاء الذين يطفون فجأة من السياسيين والادباء في عصرنا .

ربما انهم تصوروا انهم بهذا يسنطيعون ان يؤذوني او يدمروني كحزبي ثوري . لكن حين وصلت الى شارع نيائينوس في «سانتياغو» بتشيلي لمعالجة الموضوع لأول مرة مع اللجنة المركزية للحزب ، وجدت ان لهم رأيهم ، على الاقل من الناحية السياسية .

يتعلق الامر بأول هجوم ضد حزبنا التشيلي . قالوا لي .

كانت تعاش في تلك الاوقات نزعات جدية . كان الشيوعيون الفنزويليون والمكسيكيون يتنازعون عقائديا مع الكوبيين . من بعد ، في ظروف مأساوية لكن بشكل ساكن اختلف كذلك البوليفيون .

الحزب الشيوعي التشيلي قرر منحي في احتفال عام مدالبة (ريكارين) التي احدثت حينذاك وخصصت لتمنح الى احسن اعضائه . لقد كان ذلك جوابا مقنعا . لقد تحمل الحزب الشيوعي التشيلي في ذكاء تلك الفترة من الاختلافات وأصر على عزمه بتحليل اختلافاتنا داخليا . مع

١٣٧ - النوبة : في الاصل Arrebato ، وهي الكلمة العربية الرباط ، ومن معانيها بالاندلس العربية ، الهجوم المناجي ، ومن معانيها بالاسبانية اليوم ، ما قيدناه .

الزمن امحى كل ظل لهذا النزاع ويوجد الآن بين الحزبين الشيوعيين ،
وهما اكثر الاحزاب الشيوعية اهمية في امريكا اللاتينية ، تفاهم واضح
وعلاقة اخوية .

اما بالنسبة لي فما زلت انا من كتب كتاب «اغنية مفخرة» . انه لكتاب
ما يزال يعجبني . ولا أستطيع ان أنسى اني كنت اول شاعر خصص كتابا
بكامله لتمجيد الثورة الكوبية .

اني لادرك ، طبعاً ، ان الثورات وبخاصة رجالها ، تقع من حين الى
حين في الخطأ وفي الظلم . ان القوانين التي ما كتبت ابدا في الانسانية
تلفاً على حد سواء الثوريين وغير الثوريين . لا احد يستطيع ان ينجو
من الاخطاء ، نقطة صغيرة عمياء داخل مسيرة كبرى ليس لها
من اهمية في سياق قضية كبيرة . لقد ظلت اغني ، احب ، احترم الثورة
الكوبية ، شعبها ، أبطالها النبلاء .

لكن كل واحد وله نقطة ضعفه . انا لذي نقاط ضعف كثيرة . مثلاً،
لا يعجبني ان اتخلى عن الافتخار الذي اشعر به بسبب سلوكي الصلب ،
سلوك مناضل ثوري . ربما انه لهذا او لثلمة أخرى في ترهاتي رفضت
حتى الآن وساظل أرفض ان اصافح اي واحد من الذين وقّعوا بوعي او
بغير وعي تلك الرسالة التي ستظل تبدو لي وصمة عار .

الفصل الثاني عشر

وطن عذب وقاس

تطرف وجواسيس

ان الفوضويين القداماء - والشبيء نفسه ينطبق على فوضويي اليوم هذا - يميلون الى موقف مريح جدا ، بشكل أليف جدا ، وهو موقف الفوضرأسمالية (١) ، وهو وكر ينحشر فيه كذلك السياسيون الهدافون (٢) ومدعو اليسارية والمستقلون المزيفون . ان العدو الرئيسي للراسماليية القامعة ، هم الشيوعيون ، وهي لا تخطيء في تصويب سلاحها نحوهم . ان

١ - الفوضرأسمالية : الفوضوية - الراسمالية .

٢ - الهدافون : رجال المطاوعة ، وهم رجال من المقاومة غير منظمين ، بحسنون اصابة الهدف .

هؤلاء الفرديين المتمردين جميعهم يمكن تطويعهم بشكل او باخر بواسطة الحكمة او الدهاء الرجعي الذي يعتبرهم مدافعين بطوليين عن مبادئ مقدسة . ان الرجعيين يعرفون ان خطر التغييرات في مجتمع ما لا يكمن في التمردات الفردية بل في تنظيم الجماهير وفي وعي طبقي شامل .

لقد شاهدت هذا كله بوضوح في اسبانيا خلال الحرب . كانت بعض المجموعات المعادية للفاشية نلهو في عيد المرافع تجاه قوات (هتلر) و(فرانكو) الزاحفة نحو مدريد . استثنى منهم طبعا أولئك الفوضويين الاشواوس الذين لا يقهرون ولا يستسلمون من أمثال (دوربوتي Durputi ورفاقه الكتلان (٢) الذين قاتلوا في «برشلونة» قتال الاسود .

ان الجواسيس لهم اسوأ من المتطرفين بألف مرة . يتسلل الى صفوف مناضلي الاحزاب الثورية من حين لآخر العملاء المعادون، المخبرون، المندسون الذين يعملون لصالح الشرطة او الاحزاب الرجعية او الحكومات الاجنبية . يؤدي بعض منهم مهمات خاصة من تحريض وزج وتوريط ، وبعضهم الآخر يكتفي بمراقبة طويلة الاناة . انها لحكاية قديمة قصة (ازيف) . فلقد شارك قبل سقوط القيصرية الروسية بعدة عمليات ارهابية وسجن مرات عديدة . ان مذكرات مدير الامن العام في العهد القيصري التي ظلت سرية الى ان نشرت بعد الثورة تروي في تفصيل كيف ان (ازيف) كان في كل لحظة عميلا لـ «اوتشرانا» . لقد اتسق في رأس هذه الشخصية الغريبة ، الارهابي والمخبر معا ، في احدى العمليات التي قام بها قتل احد «الدوقات» .

تجربة اخرى من هذه التجارب المدهشة وقعت في «لوس انجليس» « سان فرانسيسكو » او بمدينة اخرى من ولايئة «كاليفورنيا» . خلال الفترة «المكارثية» الجنونية اعتقل اعضاء الحزب الشيوعي في تلك المحلة كلهم . كانوا خمسة وسبعين شخصا ، معدودين ، محصيين ، مؤرخين حتى في أقل جزئيات حياتهم حسنا جدا ، تبين ان هؤلاء جميعا بلا استثناء كانوا عملاء للشرطة . لقد سمحت لنفسها مؤسسة

F.B.T (٤) ان نشيء حزبه الشيوعي الصغير الخاص بها من عناصر ما كان يعرف بعضهم بعضا ، لكي تلاحقهم من بعد وتنسب لنفسها انتصارات عظيمة على اعداء غير موجودين . لقد توصلت هذه المؤسسة الى اختلاق حوادث مضحكة مثل فصل رأس الكرنب حيث كان يحفظ فيه الاسرار الدولية المنرفة رجل يدعى (تشالميرس Chalmers) وهو شيوعي قديم باع نفسه مقابل دولارات الى الشرطة . كذلك نسجت هذه المؤسسة حكايات فظيعة من بينها الحكاية التي نسبت الى الزوجين (روسينبورغ Rosenberg) (٥) اللذين أعدما فانار هذا سخط الانسانية .

لقد كان تسرب العملاء الى صفوف الحزب الشيوعي التشيلي سببا جدا دوما لان هذا الحزب هو منظمة ذات تاريخ طويل وذات اصول بروليناري بشكل مغلق . ان نظريات حرب العصابات في امريكا اللاتينية، على العكس ، فتحت الابواب لكل صنف من الوشاة والنافخين . ان العفوية والارتجالية و«الشيوعية» الحديثة العهد بالنضال في هذه المنظمات جعلت من الصعب فضح هؤلاء الجواسيس المندسين واعتقالهم . لهذا فان السكوك رافقت دوما قادة رجال العصابات المقاتلة اذ كان عليهم ان يحتاطوا حتى من ظلمهم . لقد غدى روح المغامرة بشكل ما الحماس الرومانطيكي والتنظير الخاص بحرب العصابات الجامحة التي غمرت امريكا اللاتينية كلها . ربما ان هذا العهد قد انتهى باغتيال (ارنيستو غيفارا) وموته البطولي . لكن خلال زمن طويل اتخم داعمو هذا التكتيك النظريون القارة كلها بنظريات وفرضيات التي تعهد الحكومة الثورية الشعبية في المستقبل ، ضمنيا ، الى المجموعات المسلحة في «الفلاقة» (٦) وليس الى الطبقات التي تستغلها

٤ - F.B.T : هي مؤسسه الشرطة السرية في الولايات المتحدة الامريكية .
٥ - روسينبيرغ Alfred : سياسي الماني (١٨٩٣ - ١٩٤٦) .
٦ - الفلاقة : كلمة كان يطلقها المستعمرون الفرنسيون على النوار في المغرب العربي ، وجدناها صالحة لترجمة كلمة «la montoner» اي مجموعة من الثوار يمتلكون الخيل ويحاربون قوات الحكومة . وواضح اننا لا ننسب مفهوم «الفلاقة» الذي يعني عند المستعمرين الفرنسيين ، قطاع الطرق بل مفهوم الاغنية الجزائرية : «قالوا . فلاقة ، يا فرنسا ، ما احناش ، فلاقة . لكن رفاة ، خيوه (اخوة) في جيش التحرير ، الله بنصر» .

الرأسمالية . أن عيب هذا التعليل والتبرير يكمن في ضعفه السياسي
قد يحدث في بعض الظروف ان قائد حرب العصابات يكون مزودا بعقلية
سياسية قديرة كما في حالة (تشي غيفارا) ، لكن هذا قليل الحديث
ويخضع للصدفة . أن من يبقى سالما بعد انتصار حرب العصابات ليس في
مكنته توجيه دولة برولينارية لكونه فقط كان اكثر شجاعة من غيره ولكونه
حظي بحظ اكبر تجاه الموت او لانه احسن التصويب تجاه الاعداء او انه اقدر
على اطلاق النار من غيره من الاحياء .

الآن سأروي تجربة شخصية . انا كنت اذالك في تشيلسي حديث
الوصول من المكسيك . في احدى الاجتماعات السياسية التي كنت انا
اتردد عليها اقترب مني رجل ليحييني . كان سيدا ذا عمر متوسط ، مثلا
للنبيل العصري ، يرتدي هندا ما لائقا جدا ويضع نظارة من هذه النظارات
التي تمنح المرء وقارا امام اعيان الناس وهي عبارة عن عدستين بلا اطر او
حامل ، من هذ التي تعلق فوق الانف . واذ به شخصية لطيفة مهذبة جدا:

— يا سيد (بابلو) ، لم اتجرا ابدا على الاقتراب من حضرتك مع اني
ادين لك بحياتي . اني واحد من الالجئين الذين انقذتهم حضرتك من
معسكرات الاعتقال ومن افران الغاز ، حين شحنتنا في باخرة «وينيبينغ»
باتجاه تشيلي . انا كتلاني وماسوني . وضعي هنا جيد اذ انني اعلم خبيرا
في بيع الادوات الصحية بشركة كذا وهي احسن شركة في تشيلي الخ .

حكى لي انه يسكن في شقة محترمة بمركز «سانتياغو» وان جاره هو
بطل في «التنس» مشهور يدعى (اغليسياس) كان زميلي في المدرسة . كانا
يتكلمان عني دائما وأخيرا ، قررا ان يدعواني لكي يكرمانني . لهذا جاء
ليرائني وبلغني الدعوة .

ان شقة هذا الكتلاني كانت تدل على الرفاهية التي كانت تتمتع بها
بورجوازيتنا الصغيرة . اثاث كامل ، «بهية» (٧) Paella مذهب ووافرة .

٧ — بهية : هي صنف من الطعام يصنع من الرز والخضروات واللحوم والاسماك
لشهر به مدينة «بلنسية» باسبانيا .

كان (ايڤليسياس) معنا خلال فترة الغداء كلها . كنا نضحك متذكرين المدرسة القديمة في «تيموكو» التي في سراديبها كانت اجنحة الخفاقيش نلامس وجوهنا . في نهاية الغداء قال المضيف الكريم الكتلاني بضع كلمات قليلة وأهداني تكريما لي نسختين تصويريتين رائعتين : واحدة لـ (بودلير) والثانية لـ (ادغار بو Edgar Poe) (٨) . وهما عبارة عن راسمي شاعرين رائعين ما زلت احتفظ بهما في مكتبي .

ذات يوم من الايام سقط هذا الكتلاني صاحبنا صريع التسلل ، هامدا في سريره دون أن يستطيع التكلم او الحراك او التعبير بالاشارات والحركات . لا يتحرك فيه غير عينيه اللتين كانتا تريدان في ألم أن تبوحا بتسبى الى زوجته وهي اسبانية جمهورية ممتازة ذات تاريخ مجيد لا تشوبه سائبة او الى صديقه وجاره (ايڤليسياس) بطل «التنس» صديق طفولتي . لكن الرجل مات بدون كلام او حراك او بوح .

حين امتلأت الدار بالدموع وبالاصدقاء وبالاكليل تلقى الجار لاعب «السنس» مكالة غريبة غامضة «نحن نعرف مدى الصداقة المتينة التي كانت بين حضرتك وبين المرحوم الكتلاني . هو لم يتعب من اطراء حضرتك والشناء على فضائلك ومزاياك . ان اردت حضرتك أن تقوم بمعروف كبير وخدمة جليلة لذكرى صديقك فافتح الصندوق الكبير واستخرج منه علبسة حديدية مستودعة هناك . سأعود للاتصال بحضرتك بعد ثلاثة ايام» .

لم تشأ الامرلة ان تسمع شيئا من هذا القبيل لقد كان حزنها محتدا محتدما فلم ترد أن تعرف شيئا حول هذا الموضوع ، تركت الدار وانتقلت لتسكن في غرفة بـ «بنسيون» يقع في شارع «سانتو دومينغو» . صاحب «البنسيون» كان بوغوسلافيا من رجال المقاومة في يوغوسلافيا ابسان الاحلال النازي ، رجلا متمرسا في السياسة . عثر هذا اليوغوسلافي على العلبسة الحديدية ففتحها في صعوبة ومشقة . اذّلك قفز اكثر الارانب البرية مفاجأة (٩) . كشفت الوثائق المحفوظة عن ان المرحوم كان دوما

٨ - ادغار الن بو Allan : كاتب من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٩-١٨٤٩).

٩ - تسمير لاملل الاسباني : «من حيث لا يتوقع المرء ، يقفز الارنب البري» .

عميلا فاشيا . كانت نسخ رسائله تبين اسماء العشرات من المهاجرين الذين حين عادوا الى اسبانيا بشكل سري وغير شرعي سجنوا او أعدموا . ومن بين هذه الرسائل كان ثمة رسالة يشكره النازيون فيها على خدماته . توجيهات اخرى ارسلها الكتلاني هذا افادت البحرية النازية لكي تفرق بواخر حمولة كانت تخرج من الساحل التشيلي محملة بأعتدة حربية . احدى هذه الضحايا كانت بارجتنا الجميلة ، فخر البحرية التشيلية ، «لاوتارو» Lautaro المحنكة المجربة . فافترقت خلال الحرب بحمولتها من ملح البارود حين خرجت من مينائنا : ميناء «توكوييا» . فقد الحياة في غرق هذه البارجة سبعة عشر نلميذا من المدرسة البحرية العسكرية مائوا جميعا غرقى او متفحمين .

هذه هي مآثر الكتلاني الاجرامية الذي ابتسم لي ذات يوم ودعاني الى الفداء .

الشيوعيون

.... لقد انقضت بضع سنين على انتسابي الى الحزب اننا راض الشيوعيون يؤلفون اسرة طيبة ... بشرتهم مدبوغة ولكن قلوبهم مشدود الاوتار ... من كل جهة يتلقون ضربات الهراوات ... هراوات مقتصرة عليهم ... فليحي الروحانيون ، الملكيون ، الشاذون ، المجرمون على اختلاف اصنافهم ... فلتعش الفلسفة ذات الدخان لكن بلا هياكل ... فليحي الكلب الذي ينبج ويعض (١٠) ... فليعش المنجمون اللوطيون ... فلتعش صور الدعارة ... فليحي مذهب الاستهتار والخلاعة ... فليحي القريديس ... فليحي العالم كل العالم الا الشيوعيين فلتعش أحزمة العفة (١١) ... فليحي المحافظون الذين

١٠ - تضمين للمثل الاسباني «كلب ينبج لا يمض ابدا» ، وقد جملة هنا ، يعض .
١١ - أحزمة العفة : كانت الراهبات في العصور الوسطى يضعن احزمة لا يخلمنها ابدا ، حول فروجهن

لم يغسلوا أقدامهم العقائدية منذ خمسمائة سنة ... فليحي القمل في
 الاحياء البائسة ... فليعيش الرمس الجماعي المجانسي ... فلتحسي
 الفوضراسمالية ... فليحي (ريلكه Rilke) (١٢) ... فليحي (اندريه
 جيد) (١٣) مع غلامه ... فليعيش التصوف والاتصالات الروحية على
 جميع انواعها ... فكل شيء جيد حسن ... وكلهم أبطال ... الصحف
 جميعها يجب ان تصدر ... كلهم يستطيعون ان ينشروا ما شاؤوا ما عدا
 الشيوعيين ... السياسيون جميعا يجب ان يدخلوا في «سائتو دومينغو»
 بلا أصفاد ... يجب عليهم جميعا ان يحتفلوا بموت السفاح ، مسوت
 (ال تروخيو) الا الذين قائلوه بصلابة اكثر ... فليحي «الكرنفال» (١٤) ،
 آخر ايام «الكرنفال» ... نمة أقنعة للجميع ... أقنعة مسيحي مثالي ،
 أقنعة يساري منظر ، أقنعة سيدات محسنات وفاضلات مشفقات ...
 لكن ، حذار ، امنعوا الشيوعيين من الدخول ... اوصدوا الباب جيدا ...
 لا تخطئوا ... فليس للشيوعيين الحق في شيء ... فلنهتم بما هو ذاتي ،
 بماهية الانسان ، بماهية الماهية ... هكذا سنصبح جميعا قانعين
 راضين ... لدينا حرية ... ما اعظم الحرية ! ... هم لا يحترمونها ، لا
 يعرفونها ... الحربه للاهتمام بالماهية ... بما هو جوهر في الماهية ...

... هكذا انقضت السنوات الاخيرة ... انقضى «الجاز» ، اتسى
 «ال سول» el Soul ، غرقنا في بديهيات الرسم التجريدي ،
 زعزعنا الحرب وقتلتنا ... في هذا الجانب من العالم كل شيء ظل على
 حاله ... أم لم يبق على حاله ؟ ... بعد عدة خطب عن الروح وبعد عدة
 عصي على الرأس ، شيء كان يسير على غير ما يرام ... يسير سيئا
 جدا ... اخطأت التقديرات ... فالشعوب تنظمت ... اخذت تتوالى
 حروب العصابات والاضرابات ... كوبا وتشيلي استقلتا ... نزع رجال
 كثيرون ونساء كثيرات بترديد النشيد الاهمي (الانترناشيونال) ... يا
 للفرابة ... يا للاحباط ... ها هم يفتنون هذا النشيد باللغة الصينية ،
 باللغة البلغارية ، باللغة الاسبانية في امريكا ... يجب اتخاذ اجراءات

١٢ - ريلكه (Rainer Maria) : شاعر الماني مشهور (١٨٦٩ - ١٩٥١) .

١٣ - اندريه جيد : كاتب فرنسي معروف (١٨٦٩ - ١٩٥١) .

١٤ - الكرنفال : هو عيد المراقع .

عاجلة ... يجب منع هذا النشيد ... يجب ان نزيد في الكلام عن الروح ... يجب ان نزيد في اطراء العالم الحر يجب ان نزيد في ضربات الهراوات ... يجب ان نزيد في دفعات الدولارات ... هذا يجب الا يستمر ... بين حرية العصي والخوف من (خيرمان ارثينيغاس) (١٥) ... والآن كوبا ... فسي نصف كرتنا الخاصة بنا ، في منتصف تفاحتنا ، هؤلاء الملتحون يغنون النشيد نفسه ... فبماذا ينفعنا المسيح ؟ ... وبأي شكل قد خدمنا القساوسة ؟ ... لم نعد نثق بأحد ... ولا حتى بالقساوسة انفسهم ... فهم لا يرون وجهات نظرنا ... لا يرون كيف هبطت أسهمنا في السوق المالية (البورصة)

... اثناء ذلك يتسلق البشر عبر النظام الشمسي ... تبقى آثار احذية في القمر ... كل شيء يصارع من اجل التغيير ، الا الانظمة القديمة ان حياة الانظمة العتيقة ولدت من انسجة العناكب فسي العصر الوسيط ... انسجة اكثر قساوة من حدائد المعدات الالية ... بيد انه ، ثمة أناس يؤمنون بالتغيير وقد مارسوا التغيير ، وقد جعلوا التغيير ينتصر وجعلوه يزدهر عجبا ان الربيع حتمي

شاعرية وسياسية Poética Política (١٦)

لقد قضيت عام ١٩٦٩ كله تقريبا في «ايسلا نيغرا» . يقتني البحر في الصباغ شكلا خياليا من النمو يبدو وكأنه يعجن رغيف خبز هائلا . انه لأبيض مثل الطحين الزبد المسفوح الذي تدفعه خميرة العمل الباردة .

ان فصل الشتاء لسباكن وذو ضباب . نضيف كل يوم على روعته الارضية حطب الدفاء في المدفأة . يهنا بياض الرمال في الشاطئ عالما خاليا وحيدا كما كان قبل ان يوجد السكان او المصطافون على سطح هذه

١٥ - خيرمان ارثينيغاس : مؤرخ ومالم اجتماعي معاصر ، من كولومبيا .

١٦ - لاحظ التشابه الصوتي بين الكلمتين .

الارض . لكن ارجو الا يظن اني امقت الحشود الصيعية من الناس . ما ان يقترب الصيف حتى تقترب الصبايا من البحر . رجال ونساء يلجون في الامواج على حذر ثم يخرجون قافزين من خطر . هكذا يؤدون رقصة الانسان الالفية تجاه البحر ، ولربما ان هذه الرقصة هي اول رقصات البشر .

في فصل الشتاء تحيا منازل «ايسلا نيغرا» ملتحفة ظلام الليل . ما من دار تشتعل غير داري . احيانا اظن ان نمة احدا في الدار المواجهة . ارى نافذة مضاءة . وما هو الا سراب . ما من احد في دار القبطان . انه نور داري ينمكس على نافذته .

خلال ايام هذه السنة كلها كنت امضي لاكتب في ركن مكتبي . ليس الوصول اليه بالامر السهل ولا المكوث فيه . ثمة شيء يجذب كلبني (باندا Panda) و(تشو توتو Chou tu) وهو جسد نمر من «بنغالا» Bengala فرشناه في الحجرة الصغيرة ، كنت قد احضرته معي من الصين منذ سنوات كثيرة ، فتساقطت منه مع مضي السنين مخالب وشعر بالاضافة الى العث الذي انتشر فيه وكنا انا و(ماتيلده) نحذر منه .

كان يروق لكلبي التمدد فوق جلد عدو هما القديم . كما لو كانا قد خرجا منتصرين من عراقك معه ، كانا يرقدان وتأخذهما سنة النوم سريعا وقد انهكهما العراك معه . كانا يتمددان متصالبين عند باب الحججرة كأنهما يريدان اجباري على عدم الخروج ، على البقاء لاواصل عملي .

في كل لحظة كان يقع شيء في البيت . كان يرن جرس الهاتف البعيد عني فماذا يقولون للهاتف الداعي ؟ لست هنا . ثم يعود فيرن مرة أخرى ، فماذا يجيبون ؟ انا هنا .

لست هنا . انا هنا . انا هنا . لست هنا . هذه هي حياة شاعر لم يعد ركنه النائي في «ايسلا نيغرا» بناء .

دوما يسألوني وبخاصة ، يسألني الصحفيون . في اي كتاب اشتغل ، ما هو الشيء الذي اكتبه . دائما أندهش من مثل هذا السؤال بسبب

سطحيته . لان الحقيقة هي انني دائما اشتغل بالشيء نفسه . ابدأ لم أدع
أن أعمل الشيء ذاته . أهو شعر ؟

لقد علمت بعد مدة طويلة بأن ما كنت افعله وأكتبه يسمى شعرا . ما
اهتمت قط بالتحديدات والعناوين . تبعث في نفسي السأم حتى درجة
الموت النقاشات الادبية الجمالية . لا استصغر من يجرون هذه المناقشات
بل اني بقدر ما أشعر اني لا أمت بصلة الى شهادة الميلاد أشعر كذلك اني
غريب el Post Mortem في الخلق الادبي . «أن لا يتوصل اي شيء
خارجي الى أن يسيطر عليّ» قال (والت وايتمان) . ويجب الا تحل الزينة
مهما كانت قيمتها محل الخلق العاري .

لقد بدلت الكثير من الدفاتر خلال السنة كلها . ها هي هناك هذه
الدفاتر المربوطة بخيط خطي الاخضر . لقد حبرت الكثير من هذه الدفاتر
التي راحت تصير كتباً كما لو انها كانت تمر من حالة تحويل الى اخرى ،
من الجمود الى الحركة ، من اليرقانات الى الحباب .

لقد امت الحياة السياسية كما يجيء الرعد لتخرجني من أعمالسي
فعدت مرة اخرى الى جمهوره الناس .

ان الجمهوره الانسانية كانت بالنسبة اليّ درس حياتي . أستطيع ان
اصل الى هذه الجمهوره بخجل الشاعر المتاصل فيه ، بفرع الخائف ، لكن ،
ما ان اصبح في حضن هذه الجمهوره ، حتى أحس بالتقمص واذ بي جزء
من الاغلبية الجوهرية واذ بي ورقة من أوراق شجرة الانسانية الكبيرة
العظيمة .

وحدة وجمهوره ستظلان واجبات الشاعر الاساسية في زمننا هذا .
لقد اغتننت حياتي بمعركة تلاطم الأمواج فسي الساحل التشيلي . غمرتني
واستهوتني المياه المقاتلة والصخور المقاتلة والتكاثر في الحياة المحيطية ،
والتشكيكة المتقنة من «العصافير التائهة» ورونق الزبد البحري .

لكني تعلمت اكثر من تموج الحيوانات العظيم ، من نظرة الحنان في

آلاف العيون التي نظرت اليّ معا . قد لا يلتقط الشعراء جميعهم رسالة العيون هذه ، لكن من أحس بها مرة سيحفظها في قلبه ، سيجربها في أعماله الأدبية .

انه لجدير بالذكرى وممزق للقلب بالنسبة للشاعر ان يجسد لأناس كثيرين ، خلال دقيقة ، الأمل .

مرشح لرئاسة الجمهورية

صباح ذات يوم من عام ١٩٧٠ وصل الى مخبائي البحري ، الى داري في «ايسلا نيغرا» الامين العام لحزبي ورفاق آخرون . جاؤوا ليعرضوا عليّ الترشيح المبدئي لرئاسة الجمهورية وهو ترشيح سيقترحونه فيما بعد على ستة او سبعة احزاب في **الوحدة الشعبية la unidad Popular** كانوا قد هياؤا كل شيء : برنامج ، طبيعة الحكومة ، اجراءات عاجلة في المستقبل القريب الخ . حتى تلك اللحظة كانت تلك الاحزاب قد تقدمت بمرشحيها وكل حزب كان يريد ابقاء مرشحه باستثناء الشيوعيين فلم تكن قد تقدمنا بمرشحنا بعد . كان موقفنا هو دعم المرشح الوحيد الذي تختاره احزاب اليسار وسيكون هو مرشح **الوحدة الشعبية** . لكن لم يكن هناك حينذاك اجماع وقرار حاسم وما كان من الممكن ان نترك الامور تستمر على هذا النحو . كان مرشحو اليمين قد انطلقوا وبدأوا بحملات الدعاية . ان لم نتحد في مرشح عام واحد بهذه الانتخابات فاننا سنصاب بهزيمة تكراء .

كانت الطريقة الوحيدة لاستعجال تحقيق هذه الوحدة هي اننا نحن الشيوعيين نعين مرشحنا الخاص . حين قبلت بالترشيح بناء على رغبة حزبي اصبح الموقف الشيوعي واضحا جليا . سندعم المرشح الذي يضمن موافقة الآخرين على ترشيحه ممثلا وحيدا **للوحدة الشعبية** . ان لم يتوصل الى هذا الاجماع فان ترشيحي سيحافظ عليه حتى النهاية .

كانت وسيلة مشرفة لاجبار الآخرين على الاتفاق . عندما قلت للرفيق (كورفالان) بانني موافق على الترشيح كنت أدرك انهم سيوافقون من بعد على انسحابي في المستقبل لاعتقادي ان تنازلي فيما بعد هو امر لا مناص

منه . فلم يكن ثمة احتمال قوي بأن يتفوقوا على ترشيح مرشح شيوعي يلتفون حوله . بتعبير أفضل كانوا جميعا يحتاجون إلنا كي ندمعهم (بما فيهم بعض مرشحي الديمقراطية المسيحية) ولكن ولا واحد منهم كان يحتاجنا كي يدعنا .

لكن ترشيحي الذي خرج في ذلك الصباح البحري «إسلا نيفرا» قبض على النار . لم يبق مكان في تشيلي إلا وطلب حضوري إليه . لقد تأثرت جدا أمام المئات بل الآلاف من الرجال والنساء الذين كانوا يعصرونني، يقبلونني ويكبون . سكان ضواحي «سانتياغو» ، عمال المناجم فسي «كوكيمبو» رجال النحاس والصحراء ، فلاحون ينتظرونني خلال ساعات وساعات وصفارهم على اكتافهم أو بأذرعهم ، أناس تعيش الإهمال وعدم الاعتناء من نهر «بيثو بيو» Bio Bio إلى أبعد من مضيق «ماغا يانيس»، كنت أحتدمهم جميعهم أو أقرأ لهم قصائدي في عز المطر ، في وحل الشوارع والطرقات ، تحت الريح الجنوبية التي تجعل الناس يرتعدون برداً .

كنت أتحمس ، ففي كل مرة كان يأتي إلى مهرجاناتي أناس أكثر ، كل مرة يجيء نساء أكثر . في أفتنان وفرع بدأت أفكر فيما عليّ عمله أن فزت برئاسة جمهورية بلد من أكثر البلدان شراسة بشكل مأساوي تعنتا وأكثرها استبدانة وقد يكون أكثرها نكرانا للجميل . كان يهتف للرؤساء خلال الشهر الأول فقط ومن بعد خلال الخمس سنوات والاحد عشر شهرا المتبقية كانوا يعدبون يعدل أو بدون عدل .

حملة ألينده (Allende)

في لحظة مناسبة وصلت البشرية : ظهر (اليندي) على أنه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها . بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من الترشيح . أمام حشد هائل جدل فرح تكلمت أنا لأعلن انسحابي وتكلم (اليندي) ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعة له . لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الأشجار . من غصون الأشجار كانت تبرز سيقان ورؤوس .

ليس من شيء مثل هؤلاء التشيليين المدربين على التسلق .

انا كنت اعرف المرشح . كنت قد رافقته ثلاث مرات سابقة ، وانا اقدف الاشعار والخطب عبر اراضي تشيلي الوعرة اللامنناحية كلها . ثلاث مرات متعاقبة ، كل ست سنوات ، كان صاحبي الملحاح جدا يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . هذه ستكون الرابعة والرابعة (١٧) .

يروى (ارنولد بينيت) او (سومست ماوفهام) (١٩) (لا اذكر جيدا اي الاثنين) انه ذات مرة كان عليه ان ينام (من يروي هذه القصة) في غرفة (وينستون تشرشل) (٢٠) نفسها . اول شيء عمله ذاك السياسي المهيب حين فتح عينيه هو انه مد يده وتناول سيجارا كوبيا كبيرا من على الطاولة الصغيرة التي كانت قرب السرير وبدأ بتدخين هذا السيجار . هذا لا يستطيع عمله الا رجل المفاوير القوي الصحيح ذو الصحة المعدنية في العصر الحجري .

ان صمود (ايينده) واحتماله وجلده كانت تدع مرافقيه جميعا وراءه . كان له فن جدير (تشرشل) بأب عينه . كان ينام حين يمن له النوم . احيانا كنا نمضي عبر الاراضي القاحلة اللامنتهيسة في شمال تشيلي . (اليندي) كان ينام نوما عميقا في ركن من اركان السيارة . على حين غرة تبدو نقطة حمراء صغيرة في الطريق : حين تقترب تستحيل هذه النقطة الى مجموعة مؤلفة من خمسة عشر رجلا او عشرين مع نسائهم واطفالهم وراياتهم . تتوقف السيارة ، (ايينده) يفرك جفنيه كسي يواجه الشمس الشاقولية والمجموعة الصغيرة التي كانت تنشد ، يتحد معهم ينشدون معا

١٧ - الرابعة الرابعة : التعبير الاسباني المعروف هو مثل التعبير العربي : الثالثة

القابلة .

١٨ - ارنولد بينيت : كاتب انجليزي (١٨٦٧ - ١٩٢١) .

١٩ - سومست ماوفهام : كاتب انجليزي (١٨٧٤ - ١٩٦٥) .

٢٠ - وينسون تشرشل : هو السياسي الانجليزي المعروف (١٨٧٤ - ١٩٦٥) .

النشيد الوطني ، ثم يحدثهم حديث النشيط السريع الفصيح البليغ ثم يعود الى السيارة فنتابع متجولين عبر طرق تشيلي الطويلة جدا ، يعود (اليندي) فيفرق في نومه بدون اي جهد . كل خمس وعشرين دقيقة كان المشهد يعاد : مجموعة ، رايات ، نشيد ، خطاب ، عودة الى النوم وهكذا دواليك .

كان يقابل التظاهرات الهائلة المؤلفة من آلاف وآلاف من التشيليين ، يبدل بالسيارة القطار وبالقطار الطائرة وبالطائرة الباخرة وبالباخرة الحصان ، فآتم (ايينده) بلا تردد اشغال تلك الاشهر المضنية المنهكة . ومن خلفه كان اعضاء موكبه منهكين مرهقين . من بعد ، حين اصبح رئيسا فعليا وشرعيا لتشيلي سببت فعاليته غير الرحيمة اربع او خمس سكنتا قلبية بين مساعديه ومعاونيه .

سفارة في باريس

حين وصلت لاقوم بأعباء سفارتنا في باريس ادركت ان عليّ ان ادفع ضريبة ثقيلة الى بطلاني . لقد وافقت على هذا المنصب دون ان افكر في الامر مليا ، تاركا نفسي للذبذبة الحية . كان يطيب لي ان امثل حكومة شعبية منتصرة توصلنا اليها بعد سنين طويلة من الصبر على حكومات غبية وكذابة . ربما ان الدافع الاكبر في اعماقي كان هو ان ادخل الى دار السفارة التشيلية بباريس في كرامة جديدة فلطالما ذلت فيها حين كنت انظم ترحيل الجمهوريين الاسبان باتجاه بلدي . كان كل واحد من السفراء السابقين قد ساهم في اضهادي وتعذيبي ، كان كل واحد منهم قد شارك في ابدائي وجرح كرامتي . سيجلس المضطهد على كرسي المضطهد ، سيأكل على مائدته ، سينام على سريره ، سيفتح النوافذ كي يدخل الهواء الجديد الى بناء السفارة العتيق .

كان اصعب شيء هو جعل الهواء يدخل . لقد تسرب الاسلوب الصالوني الخائق الى خياشيمي وعينيّ حين وصلت و(ماتيلده) في تلك الليلة من آذار عام ١٩٧١ الى غرفة النوم واضطجعنا على الفراش الفاخر حيث مات بعض السفراء وبعض السفيرات في هدوء او في فزع .

انها غرفة نوم صالحة لا يواء فارس وفرسه ، ثمة سعة كافية لكي يتغذى الفرس وينام الفارس . ان السقف عال جدا ومزين بشكل ناعم . اما الاثاث فهو عبارة عن اشياء مخملية ذات لون غامق مثل لون ورقية جافة ، مزخرفة بهدايات مرعبة ، ينمّ هذا الاثاث عن ثروة وانحطاط في الوقت نفسه . ربما ان الزرابي قبل ستين سنة كانت جميلة لكنها الان اتخذت لونا لا يفهر من حف ودعس ، ورائحة عث كرائحة احاديث مجاملة مية .

كي يزيد الطين بلة فان موظفي السفارة العصبيين كانوا قد فكروا في كل شيء الا في تدفئة غرفة النوم العملاقة . قضينا ، انا و(مايلده) ، اول ليلة ديبلوماسية في باريس ونحن متشنجان متجمدان .

في الليلة التالية سرت التدفئة في الغرفة ، كان لهذه المدفأة المركزية ستون سنة من العمر ، وهي تستعمل وتستخدم فتعطلت فيها المصافي والمسام . لم يكن الهواء الساخن في هذا الجهاز العتيق يترك شيئا يمر الا اللامائي من حامض الكربون . لم يكن عندنا الحق في ان نشكو من البرد كما في الليلة السابقة لكننا كنا نشعر بالاختلاج والنم من جراء التسسم . كان علينا ان نفتح النوافذ كي يدخل البرد الشتائي . ربما ان السفراء القدماء كانوا بهذا ينتقمون من متسلق جاء ليحل محلهم دون ان تكون له مميزات بيروقراطية ولا مآثر سلالية وهائلة .

فكرنا : يجب علينا ان نبحث لنا عن منزل حيث نستطيع التنفس مع الاوراق ، مع الماء ، مع العصافير ، مع الهواء . هذا التفكير كان يتحول مع الزمن الى هوس . مثل سجينين موزقين ينتظران اطلاق حريتهما كنا نبحث ونبحث عن الهواء النقي خارج باريس .

كوني اصبحت سفيرا كان شيئا جديدا وغير مريح بالنسبة لي . لكن هذا المنصب كان يتضمن تحديا . كانت قد نشأت في تشيلي ثورة ، ثورة على الطريقة التشيلية ، محطلة جدا ومناقش فيها كثيرا . كان اعداء الداخل والخارج يسنون أسنانهم كي يقوضوها . لقد تعاقب خلال مائة وثمانين سنة على حكم بلدي الحكام انفسهم ولو كانوا بعناوين مختلفة . فعل هؤلاء الحكام جميعهم الشيء نفسه . استمرت الاسمال ، المنازل غير

اللائقة بالبشر ، الاطفال بدون مدارس ولا احدية ، السجون وضربات
الهرابي على رؤوس شعبي المسكين .

الآن نستطيع ان نتنفس وان نفني . هذا هو ما كان يعجبني في
وضعي الجديد .

ان التعيينات الدبلوماسية في تشيلي تتطلب موافقة مجلس الشيوخ .
كان اليمين التشيلي قد تملقني بشكل مستمر كوني شاعرا حتى انه القى
خطبا على شرفي . انه لو اوضح انهم كانوا سيلقون هذه الخطب بسرور اكثر
على لحدي وفي ماتمي . في تصويت مجلس الشيوخ لابرام تعييني سفيرا
انقلت بأكثرية ثلاثة اصوات لا غير . صوت شيوخ اليمين وبعض الشيوخ
من المنافقين - المسيحيين (٢١) ضدي تحت سر الكريات البيضاء والسوداء .

كان السفير السابق قد غطى الحيطان بصور اسلافه في المنصب دون
تمييز بالاضافة الى صورته الشخصية . كانوا مجموعة هائلة من
شخصيات فارغة ما عدا اثنين او ثلاثة منهم من بين هؤلاء الشهر المجيد
(بليست غانا) (٢٢) وهو يعتبر « بلزاكنا » التشيلي الصفيير .
أمرت بانزال الصور الطيفية واستبدلت بها اشكالا اكثر صلابة : خمسة
تمائيل منقوشة لأبطال منحوا تشيلي راية ، قومية ، استقلالا ، وثلاث
صور معاصرة : صورة (أغيره ثيردا) وكان رئيسا للجمهورية تقديما ،
صورة (لويس ايميليو ريكابيريسن) وهو مؤسس الحزب الشيوعسي
التشيلي ، وصورة (سالفادور ايندي) . اصبحت الحيطان احسن
وأفضل .

لست أدري ماذا كان يفكر به موظفو السفارة الدبلوماسية وهم في
مجموعهم يمينيون . كانت الاحزاب الرجعية قد طوقت واحتوت ادارة

٢١ - المنافقون - المسيحيون (Hipocrita - Cristiano) : لاحظ التلاعب اللفظي
مع (Democrata - Cristianos) اي ، الديموقراطيون - المسيحيون .
٢٢ - بليست غانا Cuillermo : روائي ودبلوماسي تشيلي (١٨٣٠ - ١٩٢٢) .

البلاد خلال مائة سنة . لم يكن يعين احد ولا حتى حاجب ان لم يكن محافظا او ملكيا . برهن الديموقراطيون المسيحيون الذين يطلقون على حزبهم اسم «ثورة في حرية» من جهتهم على شره وحب في التسلط مثل الرجعيين المتعاقب . من بعد ستتحذ المتوازيات الى ان تصبح خطأ واحدا تقريبا .

البيروقراطية ، اربخيلات الابنية العامة، كل شيء ظل مليئا بموظفين، بمفئشين ، بمستشارين من اليمين . كما لو انه ما انتصر (اليندي) والوحدة الشعبية ابدأ في تشيلي ، كما لو ان وزراء الحكومة الآن ليسوا اشتراكيين وشيوعيين .

في مثل هذه الظروف طلبت ان يملا منصب المستشار في سفارتنا بباريس بأحد اصدقائي ، وهو دبلوماسي خريج المدرسة الدبلوماسية وكاتب ذو اهمية كبيرة ، الا وهو (خورخه ادوارس) (٢٣) مع انه ينتمي الى أسرة من اكثر الاسر رجعية في بلدي فقد كان رجلا يساريا دون انتماء حزبي معين . ان ما كنت احتاج اليه هو موظف ذكي يعرف مهنته ويكون اهلا لثقتي . كان (ادوارس) حتى تلك اللحظة القائم بأعمال سفارتنا في «لا هافانا» . كانت قد وصلت اليّ بعض الاخبار الفامضة عن بعض الصعوبات التي كان يلاقيها في كوبا . بما اني كنت اعرفه على انه رجل يساري خلال سنوات عديدة فلم اعط اهمية كبيرة لهذا الموضوع .

وصل مستشاري الفلد من كوبا عصيبا جدا وباح لي بحكاياته . تكون لدي الانطباع بان الحق كان عند كلا الجانبين ولم يكن عند اي منهما ، كما يحدث احيانا في الحياة . استعاد (خورخه ادوارس) شيئا فشيئا اعصابه الممرقة . فلم يعد يأكل اظافره وعمل معي بقدره جلية وبلدكاه ووفاء واخلاص وجدارة . كان مستشاري هذا خلال تلك السنتين من العمل الصعب المرهق في السفارة ، احسن زملائي ، وكان الموظف الوحيد في هذا المكتب الكبير الذي لم يكن فيه عيب من الناحية السياسية .

٢٣ - خورخه ادوارس : كتب كتابا هاجم فيه حكومة كوبا الثورية .

حين حاولت الشركة الامريكية الشمالية فرض الحظر على النحاس التشيلي اجتاحت اوروبا بأسرها موجة من الغضب ، لم تكن الصحف والتلفزات والاذاعات هي وحدها من اهتم بهذا الموضوع بل دوفع عنا مرة اخرى بضمير شعبي كاسح .

عمال الموانئ في فرنسا وفي هولندا رفضوا تفريغ شحنات النحاس في موانئهم لكي يعلنوا عن سخطهم تجاه هذا العدوان . لقد هز هذا السلوك الرائع العالم كله . ان مثل هذه الحكايا التضامنية تعلم تاريخ زمننا هذا اكثر مما يمكن ان يعلمه اساتذة الجامعات .

اذكر ايضا حالات اكثر تواضعا مع انها اكثر تأثيرا في القلوب . في اليوم التالي على الحظر ارسلت لنا سيدة فرنسية متواضعة من مدينة صغيرة في محافظة من محافظات فرنسا مائة فرنك ، ثمرة توفيراتها كي تساعد في الدفاع عن النحاس التشيلي . وكذلك رسالة تضامن حارة وقمها السكان جميعا ورئيس البلدية وراهب الكنيسة والعمال والرياضيون والطلبة .

من تشيلي كانت تصلني رسائل من مئات الاصدقاء المعروفين وغير المعروفين تهنئني على مجابهي للقراصنة الدوليين دفاعا عن نحاسنا . لقد تلقيت وساما ارسلته امرأة فلاحه يحتوي على قرعة وأربع من الكمثرى ونصف «دزينة» من فليفلة خضراء حادة .

في الوقت نفسه اصبح اسم تشيلي عظيما رائعا . لقد تحولنا الى بلد يوجد ويفرض وجوده . قبل كنا نمر فلا نرى في مجموعة البلدان المتأخرة . الان لأول مرة كانت لنا سيماء خاصة بنا ولم يكن في العالم من يجروء على انكار عظمة صراعنا في تشييد مصر قومي لنا .

ان كل ما كان يحدث في وطننا كان يثير عاطفة فرنسا بله اوروبسا قاطبة . اجتماعات شعبية ، مؤتمرات طلابية ، كتب تنشر في اللغات كلها، كانوا يتدارسوننا ، كانوا يفحصوننا ، كانوا يصفوننا . انا كان عليّ ان اكبح الصحفيين الذين كانوا في كل يوم يريدون ان يعرفوا كل شيء واكثر

من كل شيء . اصبح الرئيس (الهندي) رجلا عالما . ان ثبات طبقتنا العمالية كان ماثرا للاعجاب والثناء .

ان المودة المتقدمة نحو تشيلي قد تضاعفت بسبب المنازعات المتفرعة عن تأميم طبقات نحاسنا . لقد فهم الناس في انحاء العالم كله ان هذا التأميم هو خطوة جبارة في سبيل استقلال تشيلي الجديد . لقد جعلت الحكومة الشعبية ، بدون اية مواربة من اي صنف ، سيادتنا على نحاسنا من اجل وطننا نهائية حاسمة .

الإياب الى تشيلي

حين عدت الى تشيلي استقبلني سندس جديد في الطرقات وفي الحدائق . كان ربيعنا الرائع قد جعل يرسم باللون الاخضر على اوراق الغابات . تحتاج عاصمتنا القديمة الرمادية الى الاوراق الخضراء كما يحتاج قلب الانسان الى الحب . فتنشقت النسيم الندي من هذا الربيع الفتي . حين نكون بعيدين عن الوطن لا نذكر البتة فصول شتائه . ان البعاد يحو اسي الشتاء وذكرى القرى المهملة ومنظر الاطفال الحفاة في البرد . لا يأتي لنا فن التذكر الا بالارياض الخضراء والازهار الصفراء والحمراء والسماء المزروقة التي يتفنن بها التشيد الوطني . هذه المرة شاهدت الفصل الجميل الذي كان من قبل رؤيا بعاد .

خضرة اخرى كانت تلتفح جدران المدينة . كان طحلب الكراهيسة يغطيها . لافتات ضد كوبا ، لافتات ضد السوفييت ، لافتات ضد السلام والانسانية ، لافتات ضد الشيوعية تقطر سفاهة وكذبا وبهتاناً ، لافتات سفاحة سفاحة افاكة تتكهن بمذابح ومجازر و«جاكارتاس» (٢٤) . هذه هي

٢٤ - جاكارتاس *Yakarta* : ج جاكارتا وهي عاصمة اندونيسيا ، وهو بهذا يشير الى اللدابع التي افرقت ضد الثوريين الاندونيسيين على اثر انقلاب العسكري اليميني المميل للامبريالية الامريكية الذي اطاح بحكم (سوكارنو) .

الخضرة الجديدة التي كانت توسخ جدران المدينة .

انا كنت اعرف بالتجربة لحن هذه الدعاية ومعناها . فلقد عشت في اوروبا السابقة على عهد (هتلر) . كان هذا هو روح الدعاية الهتلرية ، الافراط في الكذب ، حرب صليبية من تهديد وذعر ، انتشار اسلحة الكراهية كلها ضد المستقبل . شعرت بأنهم يريدون تغيير جوهر حياتنا نفسه . ما كنت أقدر ان أفسر لنفسي كيف يمكن ان يوجد تشيليون يهينون بهذا الشكل روحنا القومية .

حين غدا الارهاب ضروريا بالنسبة لليمين الرجعي استخدم اليمين الارهاب بلا تردد وبلا تأنيب ضمير . ان الجنرال (شنيدير) الذي كان القائد الاعلى للجيش ، وهو رجل محترم ومحترم هارص قيام انقلاب عسكري كان يهدف الى منع تسلم (ايبندة) سدة رئاسة الجمهورية فاغتاوه . مجموعة متنوعة من الاشرار الاثمين رشته بالرصاص في ظهره فهوى قتيلا قرب داره . كان يقود العملية جنرال سابق طرد من صفوف الجيش . كانت هذه الحفنة مؤلفة من شرادم صغار ومن مجرمين محترفين .

بعد ان نبتت الجريمة على هذا الجنرال الذي خطط للجريمة سجن وحكمت عليه المحكمة العسكرية بثلاثين سنة في الحبس ولكن الحكم خفض الى سنتين من لدن محكمة العدل العليا . ان رجلا فقيرا يسرق عن جوع دجاجة يلقي ضعف العقوبة التي أنزلت بمن افتال القائد الاعلى للجيش . انه التطبيق الطبقي للقوانين التي سنتها وشرعتها الطبقة المسيطرة .

ان انتصار (ايبندة) قد سبب لهذه الطبقة المسيطرة ذعرا مميتا . لاول مرة فكروا في ان القوانين التي فبركوها في حيطة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم . هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وجليهم وعمالهم الصعبة الى الالتجاء في جهة من الجهات . ذهبوا مع ذهبهم الى الارجننتين ، الى اسبانيا حتى انهم وصلوا الى استراليا . ان خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة الى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

ان الطريق التشيلي المحدد من كل جهة بعراقيل جهنمية شرعية كان في كل لحظة دستوريا ضيقا . اثناء ذلك أصلحت طبقة الاقلية الحاكمة من ثوبها المهلهل الممزق وتحولت الى عصابة فاشية . ان الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على تشيلي اثر تأميم النحاس امسى اكثر نعتنا وظلما . لقد رمت L.T.T بالاتفاق مع الرئيس السابق (فريسي) الديموقراطية المسيحية في احضان اليمين الفاشي الجديد .

لقد شعلت شخصيا (البندي) و(فريسي) المتناقضتان المتنافرتان شعب تشيلي على الدوام . ربما يعود ذلك الى هذا التباين فيما بينهما فهما رجلان جد مختلفين ، زعيمان على طريقتهما الخاصة بكل منهما في بلد بدون زعامة ، كل واحد منهما له اهدافه وطريقه المحدد جدا .

اعتقد اني اعرف معرفة جيدة الرئيس (اينده) ، لم يكن فيه اي شيء مبهم معي . اما بالنسبة لـ (فريسي) فقد كنت زميله في مجلس الشيوخ . هو رجل غريب الاطوار ، متبصر جدا ، بعيد جدا عن العفوية الاليندية . مع ذلك ينفجر بشكل مألوف في ضحكات عنيفة في قهقهات تصرّ الاذان . بالنسبة لي فانه يعجبني الناس الذين يضحكون مقهقهين (انا ليست لي هذه الموهبة) . لكن ثمة قهقهات وقهقهات . قهقهات (فريسي) تخرج من وجه مهموم ، جاد ، يراقب خرم الابرة التي يخطط بها خيطه السياسي الحيوي . انها لضحكة مفاجئة تذهل شيئا ما كما نعيب بعض الطيور الليلية . اما من جهة اخرى فان سلوكه يكون عادة رصينا وودودا بشكل بارد .

ان تعرجاته السياسية كانت تحبط عزائمي الى ان اياستني منه تماما . اذكر انه جاء ذات مرة ليراني في داري بـ «سانتياغو» . كانت

٢٥ - فريسي Eduardo : كان رئيسا للجمهورية التسييلية من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٥ ، ومن هذا العام الى عام ١٩٧٠ ، اي الى ان تولى (البندي) مقاليد الامور في تشيلي .

تطفو في ذلك الحين فكرة تفاهم بين الشيوعيين والديموقراطيين
المسيحيين . هؤلاء ما كانوا آنذاك يسمون هكذا بل كانوا ما يزالون
يحتفظون باسم «فلانخه نائونال» (٢٦) Falange Nacional وهو اسم
فظيع تبنيه تحت التأثير الذي أحدثه فيهم الشاب الفاشي (بريمسو دي
رييرا) ، من بعد ، حين انقضت الحرب الاسبانية ، اثر فيهم
(ماريتاين) (٢٧) وأصبحوا معادين للفاشية وغيروا الاسم .

كان حديثي معه غامضا ولكنه كان وديا . بالنسبة لنا نحن الشيوعيين
كان يهمننا التفاهم مع جميع الناس والجهات ذات النية الطيبة ، ان كنا
منعزلين لن نصل الى اية جهة . اكد لي (فريي) داخل مراوغته الطبيعية
يسارته الظاهرية لذلك الوقت . ودعني وهو يهدي اليّ واحدة من هذه
القهقهات التي تتساقط من فمه كالأحجار . «سنوات الحديث» ، قال ،
لكن بعد يومين ادركت ان حديثنا قد انتهى الى الابد .

بعد انتصار (اينده) خلق (فريي) وهو السياسي الطموح البارد حلفا
رجعيا له لكي يعود الى السلطة . لقد كان مجرد وهم حلم العنكبوت
السياسي المجدد . نسيجه لن يدوم ، لن يفيد في شيء الانقلاب العسكري
الذي استهواه . ان الفاشية لا تسمح بالتعاقدات بل تطلب امتثالا
وخضوعا . ان شخص (فريي) سيصبح في كل عام اكثر عتمة وسيكون
عليه ان يجابه ذات يوم مسؤولية الجريمة .

(توميك Tomic)

لقد اهتمت بالحزب الديموقراطي - المسيحي منذ ولادته ، منذ ان
هجر اسمه المنكر اسم «فلانخه» . لقد نشأ هذا الحزب حين شكلت

٢٦ - فلانخه نائونال : معناها ، الكتاب الوطنية .
٢٧ - ماريتاين Jacques : فيلسوف فرنسي ولد عام ١٨٨٢ .

مجموعة قليلة من المفكرين الكاثوليك حلقة «ماريتاينية» و«تومية» (٢٨) .
لم اهتم بهذا التفكير الفلسفي اذ ان لي لا مبالاة طبيعية تجاه منظري الشعر
والسياسة والجنس . لقد تجلت النتائج العملية لهذه الحركة الصغيرة
بشكل فريد غير متوقع . توصلت الى ان اجعل بعض القادة الشبان في هذه
الحركة يتكلمون لصالح الجمهورية الاسبانية في مهرجانات سياسية كبيرة
نظمتها بعد عودتي من مدريد المناضلة . لقد كانت هذه المشاركة غير
عادية الى درجة ان الرعامة الدينية الاكثريسية العتيقة كانت على وشك
ان تحل الحزب الجديد يدفعها الى ذلك الحزب المحافظ . لم ينقدهم من
الانتحار السياسي سوى تدخل أسقف رائد . ان بيان أسقف «تالكسا»
Talca انقذ حياة هذه المجموعة التي اصبحت مع الزمن اكثر الاحزاب
السياسية عددا في تشيلي . تغيرت عقيدته مع مضي السنين بشكل
كامل .

لقد كان الرجل الأهم بين المسيحيين الديمقراطيين بعد (فريي) هو
(رادوميرو توميك) . عرفته اثناء فترتي البرلمانية ،
وسط الاضرابات والجولات الانتخابية في شمال تشيلي . لقد كان
الديموقراطيون المسيحيون اذالك يطاردوننا (اقصد الشيوعيين) ليشاركوا
في مهرجاناتنا السياسية . نحن كنا (وما زلنا) اكثر الناس شعبية فسي
صحراء ملح البارود والنحاس ، اي ، بين اكثر الكادحين تضحية فسي
القارة الامريكية . من هناك كان قد خرج (ريكابارين) ، هناك كانت قد
ولدت الصحافة العمالية ووائل النقابات ، لولا الشيوعيون ما كان وجد
شيء من هذا كله .

لم يكن (توميك) في تلك الفترة امل الديمقراطيين المسيحيين فحسب،
بل كان كذلك شخصيتهم الجذابة جدا وكلمتهم الفصيحة جدا .

كانت الاشياء قد تغيرت كثيرا فسي عام ١٩٦٤ حين ربحت
الديموقراطية المسيحية الانتخابات التي رفعت (فريي) الى سدة رئاسة
الجمهورية . ان حملة المرشح الذي فاز على (ايبينده) قد قامت فوق قاعدة

٢٨ - تومية : نسبة الى ملهيب (توما الاكوييني) في الفلسفة .

من العنف ضد الشيوعية لم يسبق لها نظير، منظمة بالبحان صحفية واذاعية كانت تهدف الى ارباب السكان . كانت تلك الدعاية توقف شعر الرأس :
الراهبات سيعدمن ! الاطفال سيمثل فيهم بالحراب الملتحون الشبيهسون
بكاسترو ! الطفلات الصغيرات سيؤخذن عنوة من آبائهم وأمهاتهم ليرسلن
الى سيبيريا ! عُرِف فيما بعد من تصريحات أدلت بها لجنة التحقيق التابعة
لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ان ادارة C.I.A أنفقت عشرين مليون
دولار في تلك الحملة الارهابية .

بعد ان نصّب (فريي) رئيسا للجمهورية ، صنع حاضرا يونانيا لمنافسه
الكبير الوحيد في الحزب : عين (رادوميرو توميك) سفيرا لتشيلي فسي
الولايات المتحدة . كان (فريي) يعرف ان حكومته ستعيد النظر فسي
الاتفاقيات المعقودة مع شركات النحاس الامريكية الشمالية . ففي تلك
اللحظة كان البلد كله يطالب بتأميم النحاس . استبدل (فريي) بصفته
خبيرا مشعوذا ، بعبارة التأميم كلمة «تشيليل النحاس» (٢٩) فأبرم باتفاقيات
جديدة موضوع تسليم تروتنا الوطنية الرئيسية الى الشركتين الطائلتين
«كينوكوت» و«اناكوندا كوبر كومباني» كانت النتيجة الاقتصادية لتشيلي
مريعة جدا . النتيجة السياسية بالنسبة لـ (توميك) كانت حزينة جدا :
فلقد محاه (فريي) من الخارطة . ان سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة
يساهم في تسليم النحاس للشركات الاجنبية لن يدعمه الشعب التشيلي
مطلقا . لذلك جاء (توميك) في الانتخابات الرئاسية الثالثة من بين ثلاثة
مرشحين .

بعد قليل من نخله عن منصبه سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة
جاء (توميك) في مطلع عام ١٩٧١ ليراني في «ايسلا نيغرا» . كان حديث
الوصول من الشمال وفي ذلك الوقت لما يكن بعد قد رشح نفسه رسميا
للرئاسة . لقد حافظنا على صداقتنا وسط الاضطرابات السياسية وما
زلنا نحافظ عليها حتى الان . لكننا في صعوبة تفاهمنا هذه المرة . هو
كان يريد اجراء تحالف اوسع بين القوى التقدمية بدلا من حركتنا حركة
الوحدة الشعبية تحت اسم اتحاد الشعب . ان مثل هذا الاقتراح كان

مستحيل التحقيق ، فمشاركته في المفاوضات النحاسية كانت لا تؤهل ترشيحه امام اليسار السياسي . اصف الى هذا ان الحزبين الاساسيين الكبريين في الحركة الشعبية : الشيوعي والاشتراكي كانا قد بلغا سنن الرشد وعلى قدرة كافية لكي يوصلا الى سدة الرئاسة واحدا من صفوفهما .

قبل ان يذهب من داري ، وقد كان يائسا ، باح لي (توميك) بأمر مهم . وزير المالية الديموقراطي المسيحي (اندريس نالديبار) اطلعه بالوثائق على افلاس الواقع الاقتصادي في البلد آنذاك .

— نحن نمضي الى الهاوية — قال لي (توميك) — . ان الوضع لا يسمح باكثر من اربعة اشهر . انها لمصيبة . لقد زودني (نالديبار) بكل التفاصيل عن افلاسنا الذي لا مفر منه .

بعد شهر من انتخاب (ايينده) وقبل ان يتولى رئاسة الجمهورية رسميا اعلن (نالديبار) على الملأ ان مصيبة البلد الاقتصادية مشرفة على الوقوع ، لكنه عزأها هذه المرة الى ردود الفعل الدولية التي اثارها انتخاب (اليندي) هكذا يكتب التاريخ . على الاقل هكذا يكتبه السياسيون الملتوون الانتهازيون من أمثال (نالديبار) .

(ايينده Allende)

كان شعبي اكثر شعب غُدر به في هذا الزمن . لقد نشأت من صحاري ملح البارود ، من مناجم الفحم تحت البحرية ، من المرتفعات الرهبة حيث يرقد النحاس وتستخرجه ايدي شعبي بأعمال غير انسانية ، نشأت حركة تحريرية ذات اهمية كبيرة . هذه الحركة حملت الى رئاسة الجمهورية في تشيلي رجلا يدعى (سالفادور ايينده) لكي يقوم باجراء اصلاحات ونادية مهام عادلة لا يمكن تأجيلها ، حتى ينقذ ثروتنا القومية من المخالب الاجنبية . حيث حل ونزل ، في اكثر الاقطار بعدا عن بلدنا ، اعجبت الشعوب بالرئيس (ايينده) واننت على جبهة حكومتنا الائتلافية الرائعة . ابدا في تاريخ مقر هيئة الامم المتحدة بنيويوركما سمع تصفيق حاد كالذي قابل به مندوبو العالم كله رئيسنا . هنا ، في تشيلي ، كان يشاد ،

بين صعوبات جمّة ، مجتمع عادل بشكل حقيقي ، يقام على قاعدة سيادتنا ، على اس كرامتنا القومية ، على دعامة بطولة احسن سكسان تشيلي . كان الى جانبنا ، الى جانب الثورة التشيلية ، الدستور والقانون ، الديمقراطية والامل .

لم يكن ينقص الجانب الآخر شيء من الاشياء . كان لهم مهرجون ومشعوذون ، سحرة مدربون ، ارهابيون ، حملة مسدسات وسلاسل حديدية ، رهبان مزيفون وعساكر مخلوعون حقرون . هؤلاء وأولئك كانوا يدورون ويلفون في «كاروسيل» (٢٠) المكتب . كانوا يروحون يدا بيد مع الفاشي (أخريا jara) وبنيه «وطن وحرية» (٢١) مستعدين لكسر رأس كل ما يوجد وازهاق روح كل من يوجد بفرض استرداد الحانوت الكبير الذي كانوا يسمونه : «تشيلي» . بجانبهم لكي يحيي سهرة هذه الفرقة المتجولة ، كان يرقص راقص مصرفي كبير ، شيء ملوث بالدماء ، وبطل رقصة « الرومينا » هذا هو (غوثاليت بيديلا) الذي سلم وهو « يرومبي » ، حزبه منذ زمن طويل الى اعداء الشعب . الان كان (فريي) هو من بعرض حزبه الديمقراطي المسيحي على نفس اعداء الشعب فكان يرقص على الوقع الذي يعزفه هؤلاء له ، وكان يرقص كذلك مع العقيد السابق (بياوكس) الذي شاركه في فعلته . هؤلاء كانوا الفنانين الرئيسيين في المهزلة . كانوا قد اعدوا وهياوا مؤن الاحتكار : «المجيبين» (٢٢) ، ادوات السحل ، الرصاصات التي بالأمس امانت شعبنا في «اكيكه» ، في «رانكين» ، في «سالفادور» ، في «بورتو مونت» ، في «لاخوسه ماريا كارو» ، في «فروتيار» ، في «بوينته التو» ، وفي عدة اماكن اخرى . ان مفتالي (هرنان ميري) كانوا يرقصون مع الذين كان من المفروض ان يدافعوا عن ذكراه على الاقل . كانوا يرقصون رقصا طبيعيا

٣٠ - كاروسيل Carrousel : هي كلمة فرنسية معناها ، ارجوحة الخيل ، حيث

عدة فرسان يؤدون حركات تبهير الانظار ، وهي بمعنى التهريج .

٣١ - وطن وحرية : شعار الحزب .

٣٢ - المجيبون Miguelitos : كل من يسمى بـ (ميجيل) وهو هنا بالتصغير للتحقير .

بشكل منافق . كانوا يشعرون بالاهانة ان عوبوا على هذه « الاشياء الصغيرة » .

ان لتشيلى تاريخا مدنيا طويلا بقليل من النورات وكثير من الحكومات الثابتة وهي حكومات محافظة وقليلة الشأن . رؤساء صفار كثيرون ما عدا اثنين كانا رئيسين كبيرين وهما (بالمائيدا) (٣٣) و(ايبنده) . وما هو غريب حقا ان كليهما ينحدران من الوسط نفسه ، من البورجوازية المثرية التي تسمى نفسها هنا بالارستوقراطية . بما انهما كانا رجلا مبادئ وهما نفسيهما في سبيل اعلاء شأن بلد جعلته الطبقة الحاكمة الغبية قليل الشأن ، فقد قيذا الى الموت بالطريقة نفسها . اجبر (بالمائيدا) على الانتحار لانه قاوم صد منح بروتنا من ملح البارود الى الشركات الاجنبية .

(ايبنده) اغتيل لانه اتم الثروة الاخرى المختزنة في جوف ارض تشيلى وهي النحاس . وفي كلتا الحالتين قامت الاقلية التشيلية بثورات دامية ، وفي كلتا الحالتين تحول العساكر الى كلاب صيد لهذ الطبقة المستغلة . الشركات الانجليزية في عهد (بالمائيدا) والشركات الامريكية في عهد (ايبنده) حرضت على هذه الانتفاضات العسكرية وانفقت عليها الاموال .

وفي كلتا الحالتين نهب منزل الرئيس بأمر من «ارستوقراطيتنا» المبجلة . قاعات منزل (بالمائيدا) قوضت بضربات الفؤوس . اما منزل (ايبنده) ، فبفضل تقدم العالم ، قصفه من الجو طيارونا البواسل .

غير ان هذين الرجلين كان يختلف احدهما عن الآخر اختلافا كبيرا . كان (بالمائيدا) خطيبا آسرا . كانت له طبيعة تحب السيطرة اخذت تقربه اكثر فاكثرت من الحكم الفردي . كان اكيدا من سمو مقاصده . في كل لحظة كان يرى انه محاط بالاعداء . لقد كان تفوقه على الوسط الذي كان يعيش فيه كبيرا جدا وكذلك غدت وحدته كبيرة جدا فادت به الى الانطواء

٢٢ - بالمائيدا José Manuel : هو محامي وسياسي تشيلي (١٨٢٨-١٨٩١) .

على نفسه . اما الشعب الذي كان من المفروض ان يدعمه فلم يكن حينذاك يوجد كقوة ، اي ، لم يكن منظما . لقد كان مصير ذاك الرئيس ان يصبح اشعاعا ، ان يظل حالما : ان حلمه بالعظمة بقي حلما . بعد اغتياله تمكك التجار الاجانب الجتمعون والبرلمانيون «الكريويون» ملح البارود . للاجانب الملكية والامتياز و«الكريويين» المومسات . بعد ان تفاضوا اجرهم عادت الامور الى مجاريها وجف دماء آلاف الرجال من ابناء الشعب الذين سفظوا في ميادين المعركة . فلم تتوقف عمال شمال تشيلي وهم اكثر طبعة مستغلة في العالم ، منذ ذلك الحين عن انتاج كميات هائلة من الليرات الاسترلينية في سبيل «لندن سيتي» .

لم يكن (ايينده) خطيبا بارزا ابدا . اما بصفته سياسيا فقد كان حاكما يستشير قبل اتخاذ اي اجراء ، لقد كان عدوا لنديكتاتورية وكان ديموقراطيا مبدئيا حتى في الجزئيات الضئيلة فلقد حالفه الحظ اذ وجد بدل شعب (بالمائيدا) الفر طبقة عمالية قوية كانت تعرف كل شيء . لقد كان هذا الرجل ، مع انه لم يخرج من بين صفوف الطبقة العاملة ، نتاج نضال هذه الطبقات ضد الحمود وفساد الطبقة المستغلة . لهذه العوامل والاسباب كان ما حققه (ايينده) خلال هذه الفترة القصيرة اكثر بكثير مما حققه (بالمائيدا) بل هو اعظم ما حقق على مدى تاريخ تشيلي كله . ان تأميم النحاس وحده كان عملا جبارا بالاضافة الى مشاريع اخرى تمت في عهد حكومته ذات الطبيعة الجماعية .

ان اعمال (ايينده) وآثاره ذات القيمة القومية التي لا تمحى اغضبت اعداء حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الازمة ينم عنه قصف القصر الرئاسي . ان المرء لينذكر la Blitz Krieg للطيران النازي في قصف مدن آمنة عزلاء ، مدن اسبانية وانجليزية وروسية ، الآن كانت الجريمة نفسها تحدث في تشيلي اذ ان طيارين تشيليين نهشوا وانقضوا على القصر الذي كان خلال قرنين من الزمن مركز الحياة المدنية في البلاد .

اني اكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة ايام فقط على تلك الاحداث التي لا يمكن نعتها والتي أدت الى موت صاحبي ورفيقي العظيم الرئيس (ايينده) . لقد احاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سرا ، ولم يسمحوا الا لارملته بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا

يموت . ان رواية المعتدين هي انهم وجدوه جثة هامدة بأدلة بيّنة على انه انتحر . اما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة اذ انه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلا وحيدا فردا : الا وهو رئيس جمهورية تشيلي (سلفادور أليندي) الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون ان يكون له من رفيق غير قلبه العظيم ، وقد احيط بالدخان والنيان .

لقد كان لهم ان ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى ابدا عن منصبه . قدفن ذلك الجسد سرا في مكان ما . لقد مضى ذلك الجنمان الى اللحد لا يصاحبه الا امرأة واحدة وحبدة تحمل في نفسها الم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي مخرقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة اخرى .

نيرودا حياته وأعماله

- ١٩٠٤ - ١٢ تموز : يولد نيفتالي ريبس باسواتو (بابله نيرودا) في قرية «العريضة» بتشيلي .
- آب : تموت أمه ، وقد ترك موتها في نفسه أثرا يظهر في شعره وفي حياته .
- ١٩٠٦ - ينتقل والده الى بلدة «تيموكو» ليعمل سائق قطار في السكك الحديدية . فيأخذ الطفل معه الى هذه البلدة ، حيث يعود الاب ليتزوج من جديد .
- ١٩١٠ - ينتسب الى معهد هذه البلدة الى ان ينهي دراسته الثانوية - قسم الآداب .
- ١٩١٧ - ١٨ تموز : ينشر في احدي صحف هذه البلدة اول محاولة ادبية له ، وهي مقالة بعنوان «حماسة ومثابرة» موقعة باسمه الحقيقي .
- ١٩١٨ - ٣٠ تشرين الثاني : ينشر في مجلة كانت تصدر في العاصمة «سانتياغو» اول قصيدة له عنوانها «عيناي» .
- تظهر له في هذه السنة ثلاث قصائد منشورة في المجلة نفسها بالاضافة الى قصائد أخرى نشرت في مجلات طلابية ادبية .
- ١٩١٩ - يبدأ بنشر قصائده تحت عدة اسماء مستعارة .
- يشترك في مسابقة شعرية فيحصل على الجائزة الثالثة عن قصيدة له بعنوان «ليلي مثالي» .
- ١٩٢٠ - تشرين الاول : يتخذ له نهائيا اسما مستعارا ، وهو الاسم الذي

- عرف به حتى انه طفى على اسمه الحقيقي ومجاه كليا ، وسبب اتخاذه هذا الاسم (بابلو نيرودا) يعود الى اعجابه الفائق بالشاعر والكاتب القصصي التشيكوسلوفاكي (جان نيرودا) الذي عاش في براغ ما بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٩١ .
- ٢٨ تشرين الثاني : يحصل على الجائزة الاولى من لجنة مهرجان الربيع ببلدة تيموكو .
- يعين رئيسا للنادي الادبي في هذه البلدة وينتخب نائب الامين العام لجمعية الطلبة في هذه المنطقة .
- يعد ديوانين للنشر ولكنه لا ينشرهما بل يختار بضعة قصائد منهما ليتشرها في اول ديوان له «شفقيات» .
- ١٩٢١ - ينتقل الى العاصمة ساننيافو لينتسب الى معهد يعدّه ليصبح مدرسا للغة الفرنسية .
- ١٤ تشرين الاول : يحصل على الجائزة الاولى في مسابقة اعدّها اتحاد الطلبة بتشيلي عن قصيدته «اغنية المهرجان» .
- ١٩٢٢ - تشرين الاول : تنشر مجلة «الازمان» عددا خاصا عن شعر تشيلي الجديد ، وتعتبر (بابلو نيرودا) شاعر المستقبل واحسن من يمثل هذا الشعر الجديد .
- ١٩٢٣ - آب : يظهر اول ديوان له تحت عنوان «الشفقيات» .
- ١٩٢٤ - حزيران : ينشر ديوانه الثاني «عشرون قصيدة حب و اغنية (بالرفع) يائسة» .
- ١٩٢٥ - ينشر قصيدة طويلة في كتاب مستقل بعنوان «محاولة الانسان اللانهائي» .
- يتراس تحرير احدى المجلات الادبية ويساهم في مجلات عديدة .
- ١٩٢٦ - ينشر كتاب «خواتم» وهو نثر فني ، اشترك معه في هذا الكتاب الاديب الكاتب ، مواطنه ، (توماس لاغو) . ينشر رواية له بعنوان «القطن وامله» . يبدأ بترجمة العديد من الكتاب والشعراء الفرنسيين - كان قد ترجم من قبل عن الفرنسية - ولكن هذه الترجمات لم تلق النجاح الذي اخذت تلقاه ترجماته الجديدة .
- ١٩٢٧ - يعين قنصلا فخريا في «رانغون» (بيرمانيا) .
- في طريقه الى رانغون يزور ليشبونو ومديرد وباريس ومارسيليا .

- ١٩٢٨ - يعين قنصلا في «كو لومبو» (سيلان) .
- ١٢٢٩ - يحضر في كالكوتا بالهند مؤتمرا من اجل استقلال الهند .
- ١٩٣٠ - يعين قنصلا في باتابيا (جوه ، اندونيسيا) .
- ٦ تشرين الثاني : يتزوج من (ماريا Maria) التي التقى بها في « جاوه » .
- ١٩٣١ - يعين قنصلا في سينغابور .
- ١٩٣٢ - يعود الى تشيلي بحرا .
- ١٩٣٣ - ٢٤ كانون الثاني : ينشر ديوانه «حامل المقلاع المتحمس» نيسان : ينشر الجزء الاول من ديوانه الرائع « اقامة في الارض » يضمه مجموعة من القصائد كتبها ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ .
- ٢٨ آب : يصل الى «بونوس ايرس» عاصمة الارجنتين ليستلم منصبه قنصلا عاما فيها .
- ١٣ تشرين الاول : يتعرف على الشاعر الاسباني الخالد (فيدريكو غارثيا لوركا) الذي كان يزور الارجنتين .
- ١٩٣٤ - ٥ ايار : يسافر الى برشلونه باسبانيا لاستلام منصبه قنصلا فيها .
- ٤ تشرين الاول : تولد في مدريد ابنته (مالبا ماريا) .
- ٦ كانون الاول : يقدمه (لوركا) لطلبة جامعة مدريد في مهرجان تكريمي له حيث ينشد مختارات من شعره .
- ١٩٣٥ - ٣ شباط : ينتقل من برشلونه الى مدريد قنصلا عاما في العاصمة الاسبانية .
- ١٥ ايلول : يظهر الجزء الاول والثاني من ديوانه «اقامة في الارض» (١٩٢٥ - ١٩٣٥) .
- تشرين الاول : يظهر العدد الاول من مجلة «حصان اخضر من اجل الشعر» برئاسة تحرير (بابلو نيرودا) .
- ١٩٣٦ - ١٨ تموز : تنشب الحرب الاهلية في اسبانيا ويقتل صديقه (لوركا) .
- يعزل من منصبه .
- يسافر الى باريس .

- يصدر مجلة «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .
- انفصل عن زوجته التي عاش معها تعيشا غير سعيد .
- ١٩٣٧ - شباط : يلقي في باريس محاضرة عن (لوركا) .
- ١ تشرين الاول : يعود الى تشيلي .
- ٧ تشرين الثاني : يؤسس ويرأس «حلف مثقفي تشيلي من اجل الدفاع عن الثقافة» .
- ١٣ تشرين الثاني : ينشر ديوانه «اسبانيا في القلب» .
- ١٩٣٨ - ٧ ايار : يموت والده في تيموكو . ولم يكن (نيرودا) يشعر نحوه باية محبة .
- آب : يرأس تحرير مجلة «فجر تشيلي» .
- ١٩٣٩ - يسافر الى فرنسا .
- ١٩٤٠ - ٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
- ١٦ آب : يصل الى المكسيك حيث عين قنصلا عاما .
- ١٩٤١ - سافر الى غواتيمالا .
- ١٩٤٢ - نيبان : سافر الى كوبا .
- ٣٠ ايلول : ينشر قصيدته «نتسيد حب الى ستالينغراد» .
- يموت ابنته في اوروبا وهي مريضة بشلل الاطفال منذ ولادتها ، ولم يرزق بغيرها .
- ١٩٤٣ - يسافر الى الولايات المتحدة .
- ١ ايلول : يشرع بالعودة الى تشيلي مارًا بالعديد من الاقطار الامريكية اللاتينية حيث يلقى الترحيب وحسن الاستقبال الى ان يبلغ سانتياغو في ٣ تشرين الثاني .
- يتزوج للمرة الثانية في المكسيك بامرأة تكبره بخمس عشر سنة : كان قد التقى بها في مدريد وتدعى (ديليا Delia) وهي رسامة ارجنتينية اثرت فيه عقانديا وجعله نحو منحى جديدا فسي حياته .
- ١٩٤٤ - يحصل على جائزة المجلس البلدي لمدينة سانتياغو .
- ١٩٤٥ - ٤ آذار : ينتخب نائبا في البرلمان .

- يحصل على الجائزة القومية للآداب .
- ٨ تموز : ينتسب الى الحزب الشيوعي التشيلي .
- ١ آب : يشرع السفر ليتجول في بعض أقطار أمريكا الجنوبية حيث ينشد قصائده ويلقي محاضرات عديدة .
- أيلول: يكتب ملحمنه الرائعة عن جبال «البيرو» تحت عنوان «مرتفعات ماكتشو - بيكتشو» .
- ١٩٤٦ - ٢٨ أيلول : يصدر حكم قضائي يعلن ان اسمه الرسمي قد أصبح (بابلو نيرودا) .
- ١٩٤٧ - يصدر ديوانه الكبير «اقامة الثالثة» ، ويضمنه كتابا صغيرة كان قد نشرها من قبل مثل «اسبانيا في القلب» .
- ١٩٤٨ - يصدر الامر باعتقاله بعد عزله من مجلس النواب فيختفي عن انظار رجال الامن .
- ١٩٤٩ - ٢٤ شباط : يخرج هاربا من تشيلي عبر الجبال .
- ٢٥ نيسان : يحضر المؤتمر العالمي الاول لانصار السلام وبذلك يظهر لأول مرة بعد طول اختفاء ، ويعين عضوا في المجلس العالمي للسلام .
- يسافر الى الاتحاد السوفييتي لأول مرة حيث يحضر الذكرى المائة والخمسين لبوشكين .
- ٢٧ حزيران : يجري له ادياء الاتحاد السوفييتي حفلة تكريم يحضرها ادياء من جميع انحاء العالم .
- تموز : يزور بولونيا وهنغاريا .
- آب : يسافر الى المكسيك حيث يمرض فيبقى فيها الى نهاية العام تحت المعالجة .
- ١٩٥٠ - ينشر في المكسيك ديوانه الضخم «النشيد العام» . يسافر الى غواتيمالا .
- حزيران : يسافر الى براغ ثم الى باريس .
- يسافر الى روما ثم الى نيودلهي حيث يلتقي بنهرو .
- تشرين الثاني : يحضر في فارصوفيا المؤتمر الثاني لانصار السلام .
- ٢٢ تشرين الثاني : يمنح جائزة السلام العالمي .

- يدعى لزيارة تشيكوسلوفاكيا فيلبي الدعوة ويقضي في احد قصورها فترة من الزمن .
- ١٩٥١ - يذهب الى ايطاليا فيتنقل في انحاءها منشدا شعره او مشرفا على ترجمات كتبه .
- آب : يحضر في برلين مهرجان الشباب العالمي الثالث .
يذهب بالقطار الى جمهورية منغوليا الشعبية .
يزور الصين الشعبية .
- ١٩٥٢ - يقيم في ايطاليا .
ينشر ديوان «اشعار القبطان» .
- ١٢ آب : يعود الى تشيلي فتجري له حفلات استقبال كثيرة .
كانون الاول : يسافر الى الاتحاد السوفيتي بصفته عضوا في لجنة جائزة السلام العالمية .
- ١٩٥٣ - ٢٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
٢ كانون الاول : يستلم جائزة ستالين للسلام .
- ١٩٥٤ - تموز : ينشر ديوانه «اناشيد بدائية» .
نموز : ينشر ديوانا آخر بعنوان «الاعناب والريح» .
- ١٩٥٥ - يفصل عن زوجته الثانية التي لم يكن يحبها بل كان يعجب بها وبثقافتها الواسعة .
يتزوج للمرة الثالثة والاخيرة بماتيلده Matilde التي احبها كثيرا ونفنى بها في كثير من قصائده .
ينشر كتابه «اسفار» Viajes وهو كتاب نشر يحكي فيه عن مشاهداته في رحلاته .
- ١٩٥٦ - كانون الثاني : ينشر ديوانه الجديد «اناشيد بدائية جديدة» .
- ١٩٥٧ - يختار رئيسا لجمعية الكتاب في تشيلي .
١٨ كانون الاول : ينشر ديوانه «كتاب ثالث للاناشيد» .
- ١٩٥٨ - ١٨ آب : ينشر ديوانه الجديد «شاذ» .
- ١٩٥٩ - يتجول في فينزويلا لمدة خمسة اشهر .
٥ تشرين الثاني : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «ابحارات وعودات» .
٥ كانون الاول : ينشر ديوانه الغزلي «مائة ارجوزة غزلية» .

- ١٩٦٠ - يسرح في رحلة طويلة يزور فيها العديد من الاقطار الاوروبية والامريكية .
ينشر في كوبا ديوان «اغنية مفخرة» .
- ١٩٦١ - شباط : يعود الى تشيلي .
٢٦ تموز : ينشر ديوانه «أحجار تشيلي» .
٣١ تشرين الاول : ينشر في تشيلي ديوانه «أناشيد شعائرية» .
- ١٩٦٢ - ينشر في كتاب (بالاشتراك مع نيكانور بارا) Nicanor Parra مجموعة خطب تحت عنوان «خطب» .
يسافر من جديد ليزور كثيرا من البلدان .
٦ ايلول : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «صلاحيات كاملة» .
- ١٩٦٣ - تنشر له اعماله الكاملة - طبعة ثانية .
- ١٩٦٤ - ١٢ تموز : ينشر له كتابه الجميل الكبير «مذكرة «الجزيرة السوداء»» في خمسة اجزاء بعنوانين مختلفة .
٩ ايلول : ينشر ترجمته لرأفة شكسبير «روميو وجوليت» .
- ١٩٦٥ - شباط : يعود فيسافر الى اوروبا .
حزيران : يمنح لقب دكتور شرف من جامعة اوكسفورد .
في هنغاريا يكتب (بالاشتراك مع الكاتب الروائي المعروف ، جائزة نوبل ، (ميغيل انخيل استورياس) مجموعة مقالات نشرت في كتاب تحت عنوان «ونحن ناكل في هنغاريا» . وقد ترجم هذا الكتاب الى اربع لغات أخرى ونشر الكتاب في اصله الاسباني وترجماته في وقت واحد .
- يسافر الى موسكو فيمنح الشاعر الاسباني (رافائيل البارتى) جائزة لينين بصفته عضوا في اللجنة المحكمة .
يعود الى تشيلي عن طريق الارجننتين .
- ١٩٦٦ - يعود للسفر فيذهب الى الولايات المتحدة والمكسيك والبيرو .
ينشر ديوانه عن الطيور «فن العصافير» .
يكتب مسرحية بعنوان «بريق وموت» (خواكين موريتا) .
ينشر في برشلونة باسبانيا ديوانه «الدار في الرمال» .
- ١٩٦٧ - نيسان : يعود فيسافر من تشيلي .

- ٢٢ ايار : يشارك في مؤتمر الادباء السوفيت المنعقد في موسكو .
 يزور ايطاليا وفرنسا وبريطانيا .
 آب : يعود الى تشيلي .
 تطبع له مسرحيته وتمثل في تشيلي .
 ينشر ديوانا جديدا بعنوان «أغنية للبحارة» .
 تنشر له أعماله الكاملة (طبعة ثالثة مزيده) في بونسوس ايرس
 بالارجنتين عن دار النشر «لوسادا» .
- ١٩٦٨ - ينشر ديوانه الجديد «أيادي النهار» وكان هذا الديوان قد نشر
 في أعماله الكاملة (الطبعة الثالثة) .
- ١٩٦٩ - ينشر ديوانا جديدا «نهاية العالم» .
- ١٩٧٠ - ينشر ديوانا آخر «أحجار السماء» . وآخر «السيف المتوقد» .
 يعين سفيرا لبلاده في باريس .
- ١٩٧١ - ٢١ تشرين اول : يفوز بجائزة نوبل للاداب .
 ينشر ديوانا جديدا «ما زال» .
- ١٩٧٢ - ينشر آخر ديوان له «جغرافيا باطلة» .
 يعود الى بلاده مار٣ باسبانيا .
- ١٩٧٣ - ٢٣ ايلول : يموت بالسرطان في سنتياغو عاصمة تشيلي حيث
 دفن . بعد ان شهد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالحكم
 الديموقراطي الذي كان هو احد دعائمه ، ولذلك فانه يقال بانسه
 قتل كما قتل الرئيس (سالفادور ايبنده) بأيدي اعداء الحرية
 والنور والعدالة .

الفهرست

٥	ملاحظات حول هذه المذكرات
٩	الفصل الأول : الشاب القروي
٤٣	الفصل الثاني : ضائعا في المدينة
٨١	الفصل الثالث : دروب العالم
١١٥	الفصل الرابع : الوحدة المضيئة
١٦١	الفصل الخامس : اسبانيا في القلب
١٩٩	الفصل السادس : خرجت أبحث عن شهداء
٢٢٣	الفصل السابع : المكسيك المزهرة الشائك
٢٤٧	الفصل الثامن : الوطن في دياجير
٢٨٧	الفصل التاسع : بداية منفي ونهايته
٣٢٥	الفصل العاشر : إبحار مع إياب
٣٦٧	الفصل الحادي عشر : الشعر حرفة
٤٧٥	الفصل الثاني عشر : وطن عذب وقاس